لمقامات المقدسة الحجاز ومصر وفلسطين

وتأثيرها في تشكيل النظام الاجتماعي للإسلام



حكيم الإسلام الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي

الرئيس الأسبق للجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند



يصدرها

مجمع حجة الإسلام

الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند الهند

المقامات المقدسة: الحجاز ومصر وفلسطين
وتأثيرها في تشكيل النظام الاجتماعي للإسلام

المقامات المقدسة: الحجاز ومصر وفلسطين
وتأثيرها في تشكيل النظام الاجتماعي للإسلام

تاليف: حكيم الإسلام الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي

الطبعة الأولى: ١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٣م

الرقم الدولي:٣-٢٢-٨٤٧٧٥-٩٣-٩٧٨

مجمع حجة الإسلام، الجامعة الإسلامية دارالعلوم وقف ديوبند

ISBN NO. 978-93-84775-22-3

Hujjat al-Islam Academy
Aljamia al-Islamia Darululoom Waqf Deoband
Eidgah road, P.O 247554, Deoband,
Distt: Saharanpur, U.P. INDIA
Tel: +91-1336-222352, Mob: +91-9897076726
Email: hujjatulislamacademy2013@gmail.com
hujjatulislamacademy@dud.edu.in
Website: http://www.dud.edu.in



المقامات المقدسة: الحجاز ومصر وفلسطين
وتأثيرها في تشكيل النظام الاجتماعي للإسلام

تأليف:

حكيم الإسلام الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي

الرئيس الأسبق للجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند



الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند الهند

www.dud.edu.in

مقدمة

محمد سفيان القاسمي[1]

إن كل مخلوق في الدنيا خلقه الله سبحانه يحمل مصالح ومنافع كثيرة، سواء كان قويا عظيم الجثة باهرا للعقول والأبصار، أو دقيقا لطيف الحجم خافيا عن الأنظار، وهذه المصالح والمنافع تحقق الغرض الإلهي في خلق الكون، كما أنها تحمل أهمية قصوى بالنسبة إلى سد الحاجات البشرية، ولو كانت مختلفة فيما بينها في الحجم والخصائص، فعلى سبيل المثال إن الشمس والقمر والكواكب العظيمة السيارة في الخلاء البسيط وارتباطها بالحياة الإنسانية و تاثيراتها فيها، وكذلك العلاقات القائمة بين الأجزاء الإنسانية والأجزاء الكونية بما فيها من عناصر وجراثيم مرئية وغير مرئية؛ كل ذلك مظهر من مظاهر الربط الوثيق الذي أقامه الله سبحانه بين الأجزاء الكونية لحكمة بالغة.

فإنك إذا جلست في مكان، يسوده الهدوء والسكوت، بحيث إن سقطت إبرة أو عشبة حقيرة تسمع لها صوتا، فأنت حتى في هذا المكان الهادئ تدرك وبكل شعور دويا مستمرا لاينقطع للحظةٍ ناشئا عن الجراثيم وحشرات الأرض الخفية، مما لاتستطيع التخلص منه ولو وراء سبعة ستور، فالفضاء يشتمل على كم هائل من الجراثيم، يفوق العد والخيال قد أحاط بأجسامنا كل الإحاطة، أو في تعبير آخر: قد

(١) رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند، الهند.

أَسَرَنا من كل جانب، فالغرض من خلقها هو تعمير الفضاء بدوي شديد لاينقطع أبدا.

وأفادت دراسة علمية (Scientific study) أن تواجد هذا الدوي الفضائي بشكل مستمر هام للغاية، وضروري للحياة الإنسانية، حتى لو أنه انقطع أو قُطع للحظة لَفَقَد الإنسان قوة سمعه، وتَسَبَّب لنشوء تغيرات كثيرة في داخل الجسد وخارجه، مما يفضي إلى أمراض مزمنة فاتكة، ومن ثم فإن الله سبحانه تعالى خلق عددا يربو على الحصر من المخلوقات، وسخره لهذا الغرض الإنساني الكبير، وهذا مثال ضربتُه لتفهيم الغرض، وقد أدركه العقل الإنساني بعد البحث والتحقيق، وإلا فهناك حِكم وأسرار وراء كل مخلوق، لايعلمها غير علام الغيوب، فأحقر عشبة في الأرض أو أصغر جرثومة غيرمرئية في البدن داخله وخارجه أو أعظم مخلوق في البر والبحر أو جميع المخلوقات المتواجدة في العالم جمادا أو نباتا أو حيوانا؛ كل ذلك دليل على الألطاف الإلهية أو مظهر من مظاهر قدرة الله سبحانه وحكمته البالغة.

فمن المتفق عليه بين الناس كلهم حكمائهم وعامتهم أن كل مخلوق بعناصره وآثاره مرتبط بغرض مقصود من خلقه، إلا أن الحكماء يدركون تلك الآثار والخصائص التي أودعها كلَّ شيء، نحو الحرارة في النار والبرودة في الماء، مصداقا لقول الله سبحانه: ربنا ما خلقت هذا باطلا، أي لم يخلق الله شيئا إلا لحكمة عظيمة.

وتحت هذا الارتباط الكوني الوثيق أقام في الدنيا شبكة عظيمة للحكم والعلل، تجعل الأشياء الكونية -صغيرها وكبيرها- متصلة الحبال، مشدودة الرباط فيما بينها بحيث لايكتمل أحدها بدون الآخر، ولا يمكن أن يحدث خلل في هذا الارتباط الكوني، فإنه لوكان كذلك لحدث فساد كبير وانهيار عالمي مدمر.

وكان الإنسان أسعد مخلوق كوني، حيث جعله الله أفضل المخلوقات من حيث الغرض المقصود من الخلق، وسخر له الكائنات كلها، وهذا مثال من الأمثلة، وإلا فقد خلق الله سبحانه نظاما عالميا مكتمل الأبعاد، ينمِّي حياة الإنسان وشعوره ويضمن بقاءه إلى أجل مسمى، ويسد حاجاته ويحيط بكل جانب من جوانب الحياة البشرية، بما فيها حاجات الروح والجسد.

وفي هذا السياق إذا تدبرنا وجدنا أن هذا الارتباط الكوني يكشف الوحي الإلهي عن كثير من حقائقه وأسراره المتصلة بالنظام التكويني، مما يعجز عنه العقل البشري، كما أن الوحي يزيح الستار عن مقاصد الخلق والكون، وعن المصالح الربانية التي تسري في كل عمل وحركة وقانون، مما لابد منه للحياة البشرية السليمة، فمن المعلوم علم اليقين أن اتصال الروح بالجسد هو الأساس القوي في بقاء الحياة الإنسانية، فعنصر الروح يتعلق بعالم الأمر، وعنصر الجسم يتعلق بعالم الخلق، وبامتزاج أحدهما بالآخر يكمن سر الحياة الإنسانية وبقاءها، والروح تفوق الجسم، والدليل الحسي على ذلك أن الروح إذا انفصلت عن الجسم الإنساني مات وصار ترابا، وعلو الروح على الجسم أمر واضح بإلهام رباني حتى على الحيوانات والجمادات وغيرها من المخلوقات الكثيرة، وكذلك إذا كان الإنسان عاجزا عن الحركة بسبب ضعفه أو نومه فمادامت الروح باقية في جسمه لايهجم عليه شيء في الدنيا، ولاتقترب منه حشرات الأرض، ولاالنسور والحِدأة لتنهش لحمه، ولا تضره ذرات الأرض، ولاتفسده حرارة الشمس، ولكن ما إن انقطعت صلة الروح بالجسم حتى تتصدى للجسد الإنساني ذرات الأرض، فتفسده كل الإفساد، وحرارة الشمس تجعله ينتن وينتشر نتنه فيما حوله، وحشرات الأرض تدخل فمه وأنفه، وسباع الطيور تهجم عليه لتنهشه وتنوشه، فكأن هذه الأشياء كلها كانت مغلوبة بسبب اتصال الروح بالجسد، ولما وقع الانفصال غلبت

هذه الأشياء، لأنها بإلهام من الله سبحانه علمت أن غلبة الإنسان مرهونة بالروح المودعة في جسده، ولما خرجت الروح لم يبق إلا جثة هامدة لا حراك لها، فلم يبق غالبا؛ بل أصبح مغلوبا، مع أنه لم يكن قبل موته حاكما للدنيا ولا محكوما، بل كان مخدوما في العالم بسبب قول الله سبحانه: وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ، فكان كل شيء في الدنيا مأمورا بمنح الإنسان ما يحتاج إليه من مواد نافعة لحياته.

وهذا الاتصال الموقت بين عالم الأمر وعالم الخلق يؤكد أن الروح عظيمة، والجسم خسيس، وإن كان هذا الجسم الخسيس هو الذي يتولى صدور الأعمال والأفعال في هذا العالم، ونظرا إلى الفرق في الرتبة فإن الله تعالى سبحانه ربط أصول نظام البقاء للحياة الإنسانية بعالَم الخلق، وفصل بينها لحكمة يعلمها سبحانه، فحاجات الجسم الإنساني كافة تنشأ من التراب، وتتكفل به، كما أن نشاط الروح مربوط بعالم الأمر، ونازل منه، ومن ثم فقد سخر الله سبحانه كل مخلوق للإنسان، ليقوم بأداء مهمته في الإبقاء على الحياة الإنسانية، فحبة الحنطة مثلا تشكل جوهرا أساسيا لبقاء الحياة، والتفكير السليم يؤدي بنا إلى أن كثيرا من المخلوقات العظيمة والحقيرة تؤدي دورها بإذن الله سبحانه في نشأة هذه الحبة ونموها ونضجها واصفرارها؛ لتكون مساهمة كونية جماعية في خدمة أشرف جزء كوني: الإنسان وبقاء حياته، فحبة الحنطة هي جوهر أصيل لغذائه، فالأرض توظف كل مؤهلاتها في تنشئة هذه الحبة، فتحتضنها لمدة ثم تنميها تدريجيا، وتهب الشمس لها حرارة، ويمنحها الهواء اهتزازا، وتصريف الرياح وسباحة القمر في برجه يحدثان في البحر المد والجزر؛ مما يسبب ارتفاع البخارات إلى الفضاء، وهي التي تتحول سحابا متراكما مستعدا لسقي الأرض، ثم تنشأ من الشمس حرارة مناسبة، تجعل السحاب يمطر، فيقوم بإرواء غلة الأرض كلها، كما أن نسيم الصباح بلطافته واعتداله يزود هذه الحبة بالنشاط والخفة، وجذابية الكواكب

تذكي عنصر النمو والازدهار، ودوران القمر يزيد طعمها لذة، والشمس بحرارتها تزيدها عنصر الغذاء والقوة، وحشرات الأرض الخفية والجراثيم تُشْرِف على مراحل النشوء والارتقاء، فالحاصل أن كل جزء من أجزاء هذا الكون يسهم حسب الأمر الرباني الكريم في تزويد الحياة الإنسانية بما يضمن لها البقاء والاستقرار، ونظام نشاط الروح مربوط - بأمر رباني حكيم – بعالم الأمر، فالارتباط بكلام الله وسنة رسوله والتشريعات الإسلامية عنصر أساسي لارتقاء الروح، فهو الذي يغذي الروح وينميها، وهذا مثال من أمثلة الارتباط الكوني الرباني الوثيق، فهناك مصالح وأسرار في كل وجود كوني لايعلمها إلا الله عالم الغيب والشهادة، ربنا ماخلقت هذا باطلا.

وسر الكمال في كل مخلوق أن الله سبحانه أودع كل شيء مؤهلات ووظائف شتى، كما أن القلب والعقل يشكلان أهم عناصر الجسم الإنساني، وسائر الأعضاء تابعة لهما، ومستقلة في أعمالها المختلفة، مما يعطيها استقلالية في الأعمال وتبعية للعقل والقلب، وهكذا كل عضو في الجسم الإنساني مع انشغاله في وظيفته بكل حرية يخضع لمركزه في الجسد، فهو حر في الأعمال، وتابع في التوجيه والإرشاد، وعلى سبيل المثال العين تبصر، ولكن القلب والعقل إذا لم يتوجها، فالعين لاتتنبه حتى لكبار الأحداث، والأذن تسمع، ولكن إذا كان القلب لم يكن نجي القلب لاتستطيع السماع ولو كانت ضجة شديدة، وهكذا حال جميع الأعضاء، فإن المركز في الجسم- القلب- إذا انقطعت صلته عن سائر الأعضاء أو ضعفت بقيت الأعضاء جامدة، وبناء على هذا فإن القلب والعقل يفوقان سائر الأعضاء من حيث العظمة؛ بل يحملان درجة القداسة بسبب علو المنزلة وشرف المكانة، ومن ثم فإن الصلاة التي هي في أصلها غاية الخضوع والتذلل للخالق سبحانه وضع فيها الركوع والسجود، فإن السجدة عبارة عن وضع الجبهة على الأرض، ووضع أشرف الأعضاء على الأرض هو غاية في التذلل والعبودية، وكذلك القلب يفوق

الأعضاء، فإن صلاح الأعضاء وفسادها مرهون بصلاحه وفساده، كما جاء في الحديث: إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب أوكما قال عليه الصلاة والسلام، مما يفيد أن القلب يحمل مكانة القداسة ومكانة المركزية من بين الأعضاء، ومن أجل ذلك جُعل القلب مربوطا في وقت واحد بعالم الخلق وعالم الأمر.

وعالم الأمر في هذا مظهر من مظاهر التقديس، كما أن عالم الخلق يبعث النفس على العمل، فإذا تدبرنا من هذه الناحية ظهرت لنا جوانب مبهرة لحكمة التخليق الربانية، إن الحكم إلا لله، إن التشريع عمل الله وحده، وتبدو أسراره وحِكمه وقوانينه التكوينية منتشرة في جميع مخلوقات العالم، فكل شيء في نفسه جامع، ومرتبط بعضه ببعض، وبجانبه قامت سلسلة التقديس والتفوق، سواء كان الشيء يتعلق بالعناصر الأربعة: الماء والنار والتراب والهواء، او بالمواليد الثلاثة: النبات والجماد والحيوان، أو بجميع مخلوقات العالم، فكأن الخلق كله من ذرة الأرض إلى عنان السماء مرتبط بنظام الربط الرباني المحكم، وجاء خلق آدم نقطة كمال وارتقاء في هذه السلسلة التخليقية، وأُعلن: "**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ**" (سورة لقمان: ٢٠).

وبذلك سخر ما في السموات والأرض من خزائن وكنوز وأسرار كونية وخلائق كثيرة، سخرها للإنسان ليستفيد منها ويجعل حياته تتطور وتتقدم وتسعد بالنعيم والتسهيلات.

فهذا الإنسان المتكون من العناصر المتضادة مهما أعرض عن الحقائق الإلهية بسب طبعه المنحرف، ولكن الدلائل على قدرة الله سبحانه بلغت من السعة والكثرة إلى

أنه إن أعمل تدبر أدنى جزء من أجزاء نفسه وذاته وما حوله والعالم الذي يحيط به من الجهات الأربع، وجد أن قدرة ربه سبحانه ومعجزاته وحِكَمِه وإبداعاته تتجلى في الكون كله، وبقدر ما رُزق هذا الإنسانُ المتدبر نصيبًا من العقل والبصيرة يدرك أسرار القدرة الإلهية المبثوثة في كل ذرة من ذرات الجو البسيط، وإن أعمل دقة النظر وسمو الفكر تجد مظاهر القدرة الإلهية في الكائنات وحركاتها وسكناتها مترابطة، مما يشكل أهمية كبيرة للحياة الإنسانية وتطورها بشكل تدريجي.

وتفاديا من طول المقال وملل القارئ أُعْرِضُ عن حكمة البارئ سبحانه في قوله: فضل الله بعضكم على بعض وأذكر باختصار: إن الأعمال والقوانين التي تجري في عالم الأمر وعالم الخلق نجدها مترابطة، منظومة في سلك الرباط الوثيق مع ما بينها من تفاوت في العظمة والقداسة والفضيلة، ولكن كلها مربوطة بمركزها الرباني الوحيد.

ثم هذه الكائنات وما فيها من أنواع وأصناف وأجناس وأفراد ومقامات لاتنشأ فيها القداسة والعظمة ما لم يظهر فيها ظل من ظلال تجليات ذات الله سبحانه وصفاته، فالتجليات هي التي تمنح الأشياء القداسة، فالجسد الإنساني المخلوق من طين لايستحق أن يكون مسجودا للملائكة، ما لم يتصل بأمر الله سبحانه: **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي** (سورة الحجر: ٢٩)، فإن الله تعالى لما نفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس، فهذه السجدة لم تكن للجسد الإنساني؛ وإنما كان لله سبحانه بواسطة الروح التي نفخها الله، ولكن هذه الروح الربانية لما تعلقت بالجسد الإنساني صار الجسد أفضل الخلائق وأكرمها، حيث قال الله سبحانه: **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** (سورة الإسراء:٧٠)، فالإنسان عاد أشرف الخلائق

وأفضل من كثير من المخلوقات الإلهية، وصلةُ الإنسان بالروح هي السبب لأشرفية الإنسان في هذا الكون، فإنه بدون الصلة بالقائم بالذات(قيوم السماوات والأرض) لايصلح أي شيء في الدنيا أن يكون مقدسا وعظيما، فالذات أو الصفات الإلهية هي التي تقدس الأشياء، فأحجار الكعبة ليست مقدسة بذاتها، ولكن تلك البقعة المباركة التي فيها بيت الله جاءت في مقابل البيت المعمور الواقع في السماء السابعة، فصارت هي مهبط التجليات الربانية، وهذا جعل الكعبة الشريفة مقدسة، بل كل ما تعلق بالكعبة أو نُسب إلى الكعبة صار مقدسا، فالأحجار التي صُنعت منها كعبة الله لم تكن مقدسة؛ بل كل شيء انتسب إلى الكعبة صار مقدسا، وإن كان ذلك الشيء من عالم الخلق، ولكن نزول التجليات الذي هو مظهر من مظاهر عالم الأمر هو الذي جعل كل شيء منسوب إلى الكعبة محترماً ومعظما، فغلاف الكعبة الذي يصنعه الإنسان بيده في المصنع، لايكون مقدسا مادام في المصنع؛ وإنما هو عبارة عن مجموعة ثياب سوداء تحت عملية التطريز، نعم إن قدَّسه إنسان بالنظر إلى أهدافه فهذا شيء جميل، ولكن بعد أن مس الغلافُ الكعبة المشرفة صارت له قداسة عظيمة، حيث يهرول الناس لمسه واستلامه والدعاء أمامه، فكل ذلك دليل على قداسته، ثم المسجد الحرام الذي حول الكعبة المشرفة صارت له قداسة عظيمة، حيث صلاةٌ في المسجد الحرام تكون بمثابة مائة ألف صلاة في غيره، وصار كون المسجد الحرام في مكة سببا رئيسا لفضل مكة على سائر المدن والبلاد، وسبب كون المساجد أفضل الأماكن ليس إلا أنه متوجه إلى الكعبة الشريفة، فإن انحرف مسجد عن جهة الكعبة فهو ليس إلا مجرد مبنى، لايحمل أي ذرة للقداسة والعظمة، مما يشكل دليلا على أن كل شيء اتصل بذات الله سبحانه أو صفة من صفاته صار مقدسا، سواء كان ذلك الشيء إنسانا أو مكانا أو غيرذلك، وكلما قويت صلة الأشياء بالله سبحانه قوي شأن العظمة والقداسة، وإذا ضعفت الصلة لايكون محلا

للقداسة، وعلى سبيل المثال فإن الجسد الإنساني يأتي من ضمن نظام الربط الإلهي الذي يقدِّسُ الأشياء، خلق الإنسان عالما أكبر مركبا من الصفات العديدة، أي كما أن النظام القوي للربط الإلهي متحكم في الأشياء الكونية، والجسد الإنساني من خلايا الدماغ الإنساني غير المرئية إلى أصابع القدم ليس بخارج من هذا النظام الإلهي.

ومن الحقائق المسلَّمة أن وجود الروح بسبب الأمر الإلهي والنسبة الصفاتية هو الذي يسبِّب وجود البدن الإنساني، ويدل على بقاء الحياة الإنسانية في جميع الأجزاء والذرات الجسدية، ولكن التطابق بين الروح والبدن ليس متساويا، ففي البعض شدة، وفي البعض الآخر اعتدال وفي البعض الآخر خفة، إن كانت النسبة في القلب والدماغ شديدة فهي خفيفة في الشعر والظفر، حتى أن قلم الأظفار أيضا يكون عاريا من الشعور بالوجع، ونسبة الروح القوية للدماغ هي التي تجعل الروح الإنسانية أشرف الأعضاء وأكثرها احتراما، وكذلك صفة الربوبية الإلهية تتعلق بكل شيء في السماوات والأرض، والتجليات الربانية تعمل في جميع الأشياء الكونية مع ما بينها من قوة وشدة واعتدال وقلة، ولكن جميع الأسرار للقداسة والفضيلة مرتبطة بالنسبة الإلهية حسب القوة والشدة، وسلسلة القداسة هذه هي التي تربط الأماكن الثلاثة بالفضيلة والعظمة مع فرق في القوة والشدة، وهي مقامات ثلاثة، لايعادلها مقام آخر في العالم:

١- البلد الأمين مدينة مكة المكرمة

٢- مدينة القدس

٣- جبل طور سينين

ومن شواهد عظمة هذه المقامات الثلاثة أن الله تعالى قد شرَّفها بأنها قد أقسم بها على أن الإنسان خلقه الله في أحسن تقويم، فقال الله تعالى: **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (*) وَطُورِ سِينِينَ (*) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (*) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** (سورة التين: ١-٤)

فهذه الآيات الكريمات أعطت الإنسان شهادة الفضيلة والخيرية، والقسم بالمقامات الثلاثة على حسن التقويم الإنساني يشهد بما بين الإنسان وهذه المقامات من مناسبة تامة وتأثير قوي، وإذا قامت المناسبة والتأثير والتأثر بين الإنسان وبين هذه المقامات فكيف لاتقوم مناسبة وتأثير بين هذه المقامات وبين الأشياء الكونية الأخرى؟

ولبيان أهمية المقامات الثلاثة المقدسة قال الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند سابقا في مقدمة كتابه "المقامات المقدسة":

"مكة المكرمة، التي اختارها الله تعالى لتكون قبلة للعالمين، وسماها البلد الأمين، وكفى بها شرفا وقداسة.

ثم أقسم الله تعالى بها في القرآن الكريم، في سورة التين، وقال: وهذا البلد الأمين، ووصفها ببيته قائلا: وطهرا بيتي، ووصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أحب البلاد إلى الله ورسوله، ودعا اللهَ تعالى أن يودع حب مكة في قلوب الناس، كما ورد في رواية عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال: لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة وقت الهجرة، نظر إلى مكة وقال متحسرا: قد علمت أن أحب البلاد إلى الله مكة، فلولا أن قومي أخرجوني ما خرجت، اللهم اجعل في قلوبنا من حب مكة"[1].

"وأجاب الله هذا الدعاء، حيث جعلها مثابة للناس وأمنا، مما يدل على ربط أفئدة الناس بمكة وشوقهم إليها بكل رغبة ومحبة، وشعبية وقبول لمكة في قلوب الناس، ولا يتأتى ذلك إلا بما له من قداسة في الشرع الإسلامي.

"وفي رواية عبد الرحمن بن الحارث وُصفت مكة بأنها خير الأرض، وبذلك تبرز قداستها القرآنية بشكل أوضح:

(١) كنز العمال.

"والله إنك خير أرض الله"[1].

"وفي رواية حسن بن سفيان تم وصفها بأنها أرض المغفرة، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من دخل مكة وتواضع لله وآثر رضاه على جميع أموره لم يخرج منها حتى يغفر الله له"[2].

"وجاء في رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن ثواب العبادات في مكة يضاعف أضعافا مضاعفا، وأن مكة دار المغفرة والشفاعة ودار استجابة للدعوات، وكل ذلك دليل على قداستها الشرعية:

"من أدرك شهر رمضان بمكة من أوله إلى آخره صيامه وقيامة كتب له مائة ألف رمضان في غيرها، وكان بكل يوم مغفرة وشفاعة، وبكل ليلة مغفرة وشفاعة، وبكل يوم حملان فرس في سبيل الله، وله بكل يوم دعوة مستجابة"[3].

وجاء في رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ما مفاده أن مكة وسيلة عظيمة للعروج الروحاني، والقداسة الشرعية لا تعني إلا ذاك، ففي الحديث: "من مات بمكة فكأنما مات في السماء الدنيا"[4].

"والمعنى أن روحه بعد الموت سيرتفع دفعة إلى السماء، ويبقي من الوقت ما يحتاج إليه الروح في الوصول إلى السماء الدنيا.

وجاء في الحديث الآخر ما يفيد أن الموت بمكة يجعل صاحبه آمنا يوم الحشر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مات بمكة بعثه الله في الآمنين يوم القيامة[5].

---

(١) كنز العمال.

(٢) كنز العمال.

(٣) كنز العمال.

(٤) كنز العمال.

(٥) التفسير العزيزي.

وروي في تفسير فتح العزيز عن الحسن البصري أن صوما واحدا في مكة يعدل مأئة ألف صوم في غيرها، المعنى أن الصوم الواحد بمكة يهذب النفس ويزكيها تزكية لا تتحقق إلا بمائة ألف صوم، وهي شهادة عظيمة بقدسية مكة المعظمة، وقد أكد الله تعالى على قدسية هذا البلد عند ما أقسم بها في قوله تعالى: لا أقسم بهذا البلد، وفي قوله تعالى: وهذا البلد الأمين؛ بل أقام حجة مستقلة وبابا عظيما لعظمتها وقداستها وطهرها ونقائها.

"فنصوص الكتاب والسنة صريحة في بيان عظمة مكة المكرمة، مما يفيد أن مكة:

- أحب البلاد إلى الله.
- خير أرض الله
- حرم الله تعالى
- أرض الأمن والسلام.
- بلد أمين.
- أرض المغفرة.
- محبوب الخلائق، حيث يسرع الناس إليها منذ عهد آدم إلى يومنا مدفوعين بعاطفة الإيمان والشوق والطلب، ويقومون فيها بأداء المناسك والعبادات.
- مركز العبادات.
- ظرف القبلة العالمية.
- وأرض إخلاص الخليل ومركز توحيده.
- مولد سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومنشؤه ومبعثه.
- مهبط الوحي الإلهي الأخير، الذي هو أساس الدين الإلهي الكامل

- أرض يضاعف فيها الأجر إلى ضعف مائة ألف.
- بلد أقسم به الله تعالى.
- أرض من مات فيها سيبقى آمنا يوم القيامة.وما إليها مما يجعل قداستها أوضح من الشمس في رابعة النهار.

"وكذلك مدينة القدس المعروفة ببيت المقدس تحمل كثيرا من معاني القداسة والعظمة، التي وردت بها الأحاديث النبوية، ومنها أن الموت بالقدس يحمل من الفضائل والبشائر ما يقارب الموت بمكة، وقد وردت في ذلك أحاديث بألفاظ مختلفة؛ حيث روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء الدنيا(1).

"وجاء في بعض الروايات أن سكان مدينة إيلياء (وفيها القدس) يأمنون الفتن الدينية بشكل أكثر من غيرهم، وهذا يعني أن الإلحاد والكفر لايجدان سبيلا إلى مدينة القدس، وأن نور الإيمان وحرارة الغيرة الدينية مازالت تشتعل في قلوب سكانها، وفيه دلالة عظيمة على بركتها وقداستها وعظمة أهاليها، ومن ثم وصفها الله تعالى بالأرض المقدسة مؤكدا على قدسيتها وبركتها، ولم يدع للمنكرين سبيلا، فقد قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم (القرآن الكريم)؛ مما يشكل دليلا ناصعا على قداسة هذه الأرض المقدسة بنص قرآني قطعي الدلالة".

"وكذلك قال المؤلف رحمه الله في طور سينين: "وطور سيناء من المقامات المباركة التي لها عظمة ثابتة ومزية دينية كبيرة، فهو –حسب بعض الروايات الضعيفة– جبل الجنة، أما ضعف الرواية فهو أولاً أمر محتمَل في باب الفضائل، وثانيا: إن

---

(1) كنز العمال.

الروايات الضعيفة لاتقل درجة من الروايات التاريخية الموثوق بها، وثالثا: إن الروايات الضعيفة تتقوى عندما يؤيدها النص القرآني.

"وأُوْلى فضائله وبركاته أن الله تعالى اختاره لينادي موسى في جانبه الأيمن، وهذه أمارة قداسته:

"وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا" (المريم: ٥٢)

ثم سعد الطور بالكلام الإلهي بعد سعادته بالنداء الإلهي، حيث دوَّى في جوه الكلام الرباني، وتشرف موسى بالنبوة في أحد جوانبه، ولقب بـ كليم الله، وبذلك تجلت عظمته وقداسته.

"وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ" (الأعراف: ١٤٣).

وحدثت هناك شيئ، يفوق ما تقدم، وهو أن الطور اختير ليكون محل التجلي الإلهي، حيث شهد الطورُ طلبَ موسى العجيب المتمثل في قوله: رب أرني، وجواب رب العالمين المليئ بالحب والعظمة، وجعل موضع ظهور التجلي الإلهي، ولكن الجبل لم يتحمل ذلك، وتفرقت أجزاؤه، وطارت شعاعا، ولم يطقه موسى أيضا، فخر صعقا، مما سيأتي تفصيله.

"فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا" (الأعراف: ١٤٣)

"ومن دلائل عظمته أن موسى أتم هناك ميقات ربه أربعين ليلة، وأوتي الكتاب المقدس التوراة في ذلك الجبل المقدس، والظاهر أن مكان عبادة النبي ونزول الوحي إن لم يحظ بالقداسة والعظمة فلا يوجد في الدنيا شيئ مقدس ومكان مقدس.

"وعلى كل فإن القرآن أكد بنصوصه العديدة على عظمة الطور وقداسته، ثم إن كانت هناك أحاديث تبين هذا المعنى، وكان منها بعض الروايات الضعيفة، فهي ضعيفة من حيث السند دون المعنى، فالمعنى ثابت بالنص القرآني، ولا بأس بذكرها وقبولها.

"فالخلاصة أن كلا من مكة المكرمة والقدس الشريف والطور المبارك مقام مفضل ومبارك ومقدس حسب نصوص الكتاب والسنة مع ما بينها من تفاوت وتفاضل، والنصوص المذكورة أعلاه تأتي دلائل كافية عل عظمة المقامات الثلاث وقداستها. وإلا هناك آيات وروايات أكثر منها بكثير، مما تزخر به دواوين الكتاب والسنة، وتركته توخيا للإيجاز وتفاديا من ملل القارئ العربي الكريم".

"الحاصل أن ظهرت من المواطن الثلاثة ثلاث شخصيات جليلة، ومنهم ظهرت ثلاث ملل كبيرة، ومنها نشأت ثلاث أمم عظيمة ذات فضل وشرف في عصورها، وظهرت كذلك من المواطن الثلاثة أثار المجد والشرف وبركات القداسة والعظمة، فانتقلت إلى آفاق العالم عصرا بعد عصر وزمانا بعد زمان، فاستنار بها ألوف وألوف من أشخاص وأصقاع، فالأماكن الثلاثة ليست مقدسة وحسب؛ وإنما هي واهبة القداسة لغيرها أيضا، فهي مصادر جميع الأماكن المقدسة، وقد جعل إقسام الله تعالى بها في القرآن الكريم قداستها مؤكدة، مما يدل على أصالة قداستها وبركتها من بين جميع الأماكن المقدسة، سواء أكانت القداسة مركوزة في طينها منذ خلقها أم اكتسبتها من قصة عجيبة حادثة، نفخت فيها روح العظمة والقداسة".

"وعلى كل فمن المعلوم بالضرورة أن التقدس على أي طريق حصل للأماكن الثلاثة (عن طريق تركيزها منذ الخلق والنشأة أم مكتسب من سبب وواقعة) لايقتصر عليها؛ و إنما هو يتعدى ماسواها إلى الأبد كما هو حاصل لها منذ الأزل، وتدل عليها القصص والحوادث التاريخية، لاسيما إذا كانت الشخصيات الثلاثة الناشئة عن الأماكن الثلاثة وأممها الثلاث كُلِّفت بنشر التعاليم المودعة في الأماكن، ونيط بها تاريخ العصر الأخير للدنيا لما فيها من عظمة وبركة، فثبت بالضرورة أن تقدسها هو التقدس الأخير، وهي أصل جميع الأماكن المقدسة، وخلاصة التقدسات المنتشرة في العالم، وأساس كل تقدس يتأتى لغيرها من بعد من الأشخاص والأماكن، فقداستها خاتمة القداسات

ومنتهاها، ومعلوم أن خاتم الدائرة هو أصل الدائرة، ومن ثم اختارها الله تعالى ليقسم بها على حسن تقويم الإنسان وفضله على غيره من الخلق؛ حيث هي تشمل أنواعا من الفضل والشمول، عُجنت بها طينة الشخصيات الإنسانية المقدسة وأممها، ليتم بها تاريخ العصر الأخير للدنيا.

فنظرا إلى الآيات الكريمة إن ذهبنا إلى اعتبار مكة المكرمة في الحجاز وبيت المقدس في الشام وطور سينين في مصر مصادر أصيلة للقداسة والعظمة فهو قول في محله، وليس فيه تعسف وإجحاف".

إن نظام الربط الوثيق الذي أقامه الله سبحانه بين الأشياء الكونية، والذي جعل الأشياء مقدسَة بنسبتها إلى الله ذاته وصفاته يجري هذا النظام الإلهي في النوع الإنساني أشرف الخلائق، ويجعله يفوق جميع الخلائق، ثم يجعل الأنبياء عليهم السلام أفضل طبقات الإنسان، ويجعل نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء، وذلك لمكارم أخلاقه و علمه الذي يجمع بين الأولين والآخرين، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوتيت علم الأولين والآخرين، ثم تصعد جيمع أنواع الشرف والفضيلة إلى الله سبحانه مصدر الفضائل والتقديسات، فكأن جميع سلاسل الفضيلة والقداسة تبدأ من ذات الله سبحانه ثم تربط الأشياء الكونية وعليه تنتهي، **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (سورة الحديد: ٣).

إن كتاب المقامات المقدسة هو مؤلَّفٌ أخير للشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي رحمه الله، يسلط ضوءا على ما تتميز به المقامات الثلاثة من فضائل وقداسات من مراكز إسلامية عظيمة من منظور شرعي وتاريخي وعقلي وجغرافي وسياسي، إن الآية الأولى من سورة التين وما يلابسها من حسن ترتيب وبيان معجز ونظم باهر عنوان مفيد لفضائل المقامات الثلاثة، وقد ذكر الشيخ حكيم الإسلام المقرئ محمد

طيب القاسمي هذا الموضوع بتفصيل لائق، مؤيد بالحجج والبراهين، وقد جمع في هذا الكتاب من الحقائق والوثائق والمعارف واللطائف ما لايوجد له نظير في المكتبة الإسلامية على حد ما أعلم، ومن ثم عدَّه أهل العلم والفضل إضافةً قيمةً للذخائر العلمية، وهذا الموضوع سوف يثير إعجاب سكان البلاد العربية بصفة عامة، وسكان المقامات الثلاثة والمناطق المجاورة بصفة خاصة، ومن هنا كان من الضروري أن يُنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية الفصحى، وأحمد الله سبحانه على أن مجمع حجة الإسلام دار العلوم وقف ديوبند قد وكل عملية الترجمة إلى أحد الباحثين النابهين في العلم والأدب، الذي قام بالترجمة العالية، ولا شك أن نشر هذا الكتاب عملية تفتخر بها الجامعة وتشكل دليلا على تطور المسير العلمي والبحثي لمجمع حجة الإسلام.

إن مجمع حجة الإسلام بأهدافه ومشاريعه المستقبلية يرمي إلى ترجمة وبحث وتحقيق المآثر العلمية لعلماء ديوبند، وهذه المآثر العلمية تحمل مكانةً علميةً عظيمةً، فهي ذخائر علمية عظيمة جارية منذ قرن ونصف، ولايوجد لها نظير في المكتبة الإسلامية، وبسبب عدم اطلاع العلماء العرب على هذه الذخائر لايعرفون بشكل صحيح ذلك الفضل والمجد العلمي، الذي يحظى به علماء ديوبند.

ولكن المؤسف أن هذه الذخائر ما زالت تحتاج إلى خدمة وتحقيق، أجل! إن هناك رجالاً قاموا ببعض عمليات الترجمة والتحقيق، ولكن الواضح أن هذه المآثر تحتاج إلى جهود جماعية، تقوم بها الجامعة الإسلامية الشهيرة عالميا، التي تنتمي إلى علماء ديوبند فكرا ومنهاجا.

إن الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند كانت تتفكر منذ زمن بعيد في تحقيق وترجمة مآثر علماء ديوبند بصفة عامة، ومآثر قائدهم الإمام حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله بصفة خاصة باعتبارها حاجة الوقت وصدى العصر.

فالمجمع ماضٍ منذ فجره عام ١٤٣٤هـ الموافق عام٢٠١٣م على هذا الدرب البحثي، حتى أنجز المجمع بفضل الله وتوفيقه في هذه المدة الوجيزة أكثر من خمسة وعشرين كتابًا، تفي بالمستوى البحثي السائد في الأوساط العلمية المعاصرة، مما جعل الباحثين والأكاديميين في شتى المناطق يعترفون بمدى خدمة وإخلاص الباحثين في المجمع، كما أن مجلة "وحدة الأمة" العلمية المحكمة الصادرة عن مجمع حجة الإسلام دار العلوم وقف ديوبند مثلت دورا رائعا في التعريف بالجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند وأعمالها العلمية، والتي يرأس تحريرها الدكتور محمد شكيب القاسمي نائب رئيس الجامعة ومدير مجمع حجة الإسلام، وتشرف على نشاطاتها الهيئة الاستشارية المتكونة من الشخصيات الأكاديمية المتميزة من مختلف بلدان العالم، وهي أول مجلة علمية عربية في شبه القارة الهندية، ونظرًا إلى المستوى العلمي البحثي الذي حظيت به مجلة وحدة الأمة العلمية المحكمة، قامت قامت شركة المنهل بالرياض بفهرسة المجلة من بين المجلات العلمية المحكمة، مما يقيم للمجلة والجامعة وزنا كبيرا في الأوساط العلمية.

كما أن الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند أصدرت مجلة فصلية إنكليزية باسم"Voice of Darul Uloom"، وذلك استجابة لنداءات وطلبات الأوساط العلمية المستمرة، إضافةً إلى المجلة الأردية التي تصدرها الجامعة منذ عقود ثلاثة، والتي تحتوي على كثير من المقالات والبحوث العلمية والأدبية والفكرية؛ مما جعل الجامعة تحظى بشعبية عالمية على الصعيد الوطني والعالمي.

والشعبية هي التي تجعل العملية أفضل العمليات، فإن القبول والشعبية عبارة عن الصلة مع الله سبحانه، فكل عملٍ يصاحبه الإخلاصُ والإيثارُ والقبولُ والجهود المخلصة الجماعية يسعد بقبول وشعبية لدى الناس ورب العالمين، إن إصدارات ونشاطات مجمع حجة الإسلام قد لقيت منذ اليوم الأول شأنا جماعيا، ولاشك أن هذا

راجع إلى الشاب الفاضل الدكتور محمد شكيب القاسمي مدير المجمع الذي رزقه الله قسطا وفيرا من سعة الفكر ودقة النظر ورحابة الصدر وعاطفة صادقة للجهود المتواصلة وقد نصره الله برفقاء وباحثين منقطعين إلى النشاطات العلمية والبحثية، وكل ذلك دليل على ما يتمتع به المجمع من شعبية وقبول عام.

ونحن –كخدام دار العلوم وقف ديوبند– نحمد الله تعالى ونشكر له على هذه الأفضال والنِّعم الإلهية، والرحمة الواسعة، التي تُظِلُّ الجامعة وتسانده دعوات العلماء الربانيين السابقين والمعاصرين.

وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم

تعريف موجز بمؤلف الكتاب

هو العالم البارز الكبير حكيم الإسلام الشيخ محمد طيب القاسمي بن الشيخ الحافظ محمد أحمد القاسمي بن الإمام حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي، ولد في محرم ١٣١٥هـ، الموافق يونيو ١٨٩٧م في مدينة ديوبند، وتلقى كلا من الدراسات الابتدائية والمتوسطة والعليا في العلوم الشرعية في الجامعة الإسلامية/ دارالعلوم ديوبند، مِن الأساتذة البارعين المعروفين بورعهم وصلاحهم وتقواهم ودورهم البطولي في الحركات العلمية والإصلاحية والسياسية، بمن فيهم العلامة محمود حسن الديوبندي المعروف بـ"شيخ الهند"، والمحدث الشهير العلامة سيد محمد أنور شاه الكشميري صاحب "فيض الباري شرح صحيح البخاري"، والمحدث الجليل خليل أحمد السهارنفوري صاحب "بذل المجهود شرح سنن أبي داؤد"، والعلامة محمد إبراهيم البلياوي، والشيخ الفقيه المفتي عزيز الرحمن العثماني الديوبندي، رحمهم الله.

كان حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي نسيج وحده في الذكاء والفطنة والتوقد الذهني وحسن الوعي ودقة الإدراك والجهد والتواضع والحب والوفاء، وقد حظي مع ذلك بعطف وشفقة غير عاديين من قبل الأساتذة، الأمر الذي خلق منه رجلاً صاحب المآثر والأمجاد، ورجل المواقف والمغامرات.

تخرج الشيخ في الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند عام ١٣٣٧هـ، الموافق ١٩١٨م، وعُرف أيام تحصيله باجتهاده في الدرس، وتأدبه مع الأساتذة، ومواظبته على الدرس، ومحافظته على الصلاة، وحسن السيرة والسلوك، وبروزه على الأقران؛ فكان المركز الأول هو نصيبه في جميع الامتحانات.

وفي العام التالي ١٣٣٨هـ عُين الشيخ أستاذا بالجامعة، وبدأ يدرس الكتب العلمية المختلفة، ولم تنقطع صلته عن التدريس طوال حياته، وقد اشتهر تدريسه لكتاب "حجة الله البالغة" للشاه ولي الله الدهلوي.

إن الاستعراض السريع الإجمالي لمآثره وإنجازاته هو الآخر يتطلب القسط الكافي من الوقت والجهد، فتطيب الإشارة العابرة إلى بعض مآثره العظيمة:

أ- رئاسة الجامعة الإسلامية/دار العلوم ديوبند لمدة أكثر من خمسين سنة (من ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م إلى ١٤٠١هـ/١٩٨٢م):

رَأَسَ الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي الجامعة الإسلامية/ دارالعلوم ديوبند في هذه الفترة الطويلة، فأُسند إليه منصب النيابة عن رئاسة الجامعة عام ١٣٤١هـ، ثم رُقِّي إلى منصب رئاسة الجامعة عام ١٣٤٨هـ، وبقي على ذلك حتى عام ١٤٠١هـ.

ورئاسةُ هذه الجامعة يَصِفُها بعض العلماء الكبار بأنها طريق محفوف بالأشواك، لا فراش وثير محلًّى بالأزهار؛ فإن المسلمين في شبه القارة الهندية يعتبرون هذه الجامعة مرجعاً أكبر فيما يتعلق بالدين والفكر الإسلامي والمواقف الحاسمة تجاه الأحداث، ويتبعون مواقفها وآرائها ومذهبها بقلوب منشرحة، فأدنى خطأٍ في اتخاذ المواقف والخطوات يسبب ذبذبةً هائلةً في المجتمع الإسلامي، مما يجعل علماء الدار لا سيما رئيسها يعيشون على حذر وحيطة.

كان حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي رئيساً مُوفَّقاً للجامعة، زاد من قدر الجامعة وشعبيتها على الصعيد العالمي، ففي عهده المبارك برزت الجامعة كأكبر

جامعة إسلامية أهلية على وجه الأرض، وهبَّ العلماء الكبار يتوافدون إلى الجامعة يسجلون انطباعاتهم العالية تجاه الجامعة، وفي هذا العهد الميمون شهدت الجامعة تطورات علمية وإنجازات بنائية هائلة، فأُدخلت تحسينات موسعة في المباني القديمة، وتمَّ بناء عدد من المساجد والمباني الجميلة الرائقة، والبوَّابات الرشيقة وقاعة الحديث والفصول الدراسية بشكل سار.

وتحت رئاسة الشيخ ذاته نظمت الجامعة عام ١٩٨٠م المهرجان المئوي المنقطع النظير في تاريخ المهرجانات والحفلات في شبه القارة الهندية، الذي شارك فيه العلماء الكبار وأعلام الأمة الإسلامية من مختلف أنحاء العالم، بجانب سفراء وممثلي الدول الإسلامية،وشهد المهرجانَ تجمعٌ إنسانيٌ حاشد يندر تكراره؛ حتى قال عدة علماء كبار: مارأينا لهذا التجمع نظيرا إلا في عرفات في موسم الحج.

وكان للمهرجان أثر كبير في التعريف بالجامعة ورجالها وإنجازاتها والفكر الوسطي الذي تتبناه.

ب-حبه للجامعة:

كان الشيخ رحمه الله عميق الصلة بالجامعة، وغارقا في حبها، فكان لايستطيع فراقها لمدة طويلة، مع أنه كان عاش -كما يقال- نحو نصف حياته في الرحلة الدعوية والعلمية والتربوية والسياسية؛ ولكن الجامعة لاتغيب عن خاطره، مهما ابتعد من ساحتها، وهذا طبيعي؛ ففي ظلال الجامعة نشأ وترعرع، وبلبانها غُذِّي ورُبِّي، وفي فصولها تعلَّم وتربَّى، وفي ساحتها عاش صباه وشبابه وكهوله، وعلى أساتذتها ومشائخها تخرج في العلم والتزكية والإحسان والدعوة والعمل الإسلامي، وإلى تحلية

ذوائبها انقطع لمدة نصف قرن وأكثر، فتجذَّر حب الجامعة في قلبه، وتأصَّل في خاطره.

وظهر هذا الحب العميق للجامعة جليا عند ما تم تقسيم الهند وقامت دولة باكستان، فهاجر بعض أقربائه إلى باكستان، فبعد مدة سافر الشيخ إلى باكستان للقاء أقربائه وذويه، فاجتمع علماء باكستان ووجهاؤها وشعبها ليكيدوا لإقامة الشيخ بباكستان، فألحوا جميعا على الشيخ وحاولوا إقناعه بأكثر من حيلة؛ لكن الشيخ رفض هذا الاقتراح الناشي عن حبهم للشيخ شديد الرفض، ومن جانب آخر كان أبناؤه في الهند- وعلى رأسهم الشيخ محمد سالم القاسمي- يراسل علماء باكستان ويقنعهم بأن الشيخ لايستطيع فراق الجامعة، وأنه إن نزل على طلبكم ورضي بالإقامة بباكستان، فإنه بعد قليل سيهاجر إلى المدينة المنورة، وستُحرم كل من الدولتين هذه الشخصية العظيمة، التي تُعَدُّ فضلًا من الله ونعمةً على عباده في هذا العصر، فرضي أهل باكستان بعودة الشيخ إلى الهند، وكان جواز السفر قد أُلغيَ، فحاول الشيخ مولانا أبو الكلام آزاد وزير التعليم الهندي آنذاك والشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي أمين عام جمعية علماء الهند في إعداد جواز السفر الجديد، فتنفس أهل الهند الصعداء، وعاد الشيخ إلى الهند، وكل ذلك ناشئ عن حبه العميق للجامعة.

ج-نبوغه في الخطابة:

كان حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي خطيباً ذلق اللسان قوي العارضة، شديد البرهان، كان يتحدث باستمرار ساعات طويلة كسحابة ممطرة، لا تمل ولا

تنقطع، وكان أخطب العلماء في عصره، وأفصحهم على الإطلاق، حتى قيل: انتهت إليه رئاسة الخطابة في عصره.

ومن مزاياه الخطابية أنه كان يجمع بين فقه الفقيه وبلاغة الأديب وحرارة الداعية وروح المربي، وأصالة العالم ورواية المحدث وحسن المؤرخ ودقة المناظر، وترتيب المحاضر، فترى كلماته كأنها كائن حي، أوكأنما هي طائر له أحنجة، أو إنسان له قلب يخفق ولسان ينطق، كما أن خطبه ليست من الخطب الموسمية التي لا تنفك عن مواسم العام، فخطبة عن الهجري وأخرى عن المولد النبوي، وثالثة عن الإسراء والمعراج، وهكذا،لا؛ ولكنها خطب تثبت العقيدة، وتصلح العبادة، وتقوم الأخلاق، وتبين أسس التعامل بين الناس، وتشرح أسرار الشريعة ومرامي الأحكام الإسلامية.

د-مهارته في الكتابة:

كان الشيخ كاتبا رشيقا، سهل الأسلوب، عفوي البيان، فقد ظهر نبوغه في الكتابة في وقت مبكر، كان وثيق الصلة بالقلم، لايفارقه في الحل والترحال، كان ينطق قلمُه إذا سكت لسانه، وكان سلطان قلمه كسلطان لسانه، إذا خطب استمع إليه الحضور بشوق ولهف، وإذا كتب تناولته الأيدي بنهم ورغبة.

وخلف الشيخ حكيم الإسلام أكثر من مائة كتاب علمية دعوية قيمة.

هـ-موهبته الشعرية:

الشعر له وقع حسن ومفعول ساحر في القلوب، يملك الشعر الواحد من التأثير والهزة والإثارة مالا تملكه خطب طويلة وعريضة.

كان الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي شاعراً مجيداً، بدأ الشعر في أيام الطلب بالجامعة، وكان يقول الشعر باللغات الثلاث: العربية والفارسية

والأردية، ومعظم الأبيات باللغة الأردية، كان ينتحل اسم "عارف" في أشعاره، وله عدة دواوين، منها: ١- جنون الشباب، و ٢- عرفان عارف، و٣-قصة العين، و ٤-أمنية دار العلوم، وكلها مطبوع، مما يدل على ذوقة الأدبي وامتلاكه لناصية البيان.

و-مؤهلات القيادة الرشيدة:

كان مع ذلك قائداً سياسياً بارزاً، له مشاركة فعالة في الحركات السياسية، أسس في آخر أيام حياته هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند، وهي رصيف سياسي مركزي للمسلمين في الهند، يجمع بين الانتماءات والمذاهب الإسلامية المختلفة، ولها مواقف مشكورة في خدمة الإسلام والمسلمين.

توفي الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي عام ١٤٠٣هـ، ودفن في المقبرة القاسمية، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

مؤلفاته:

١- تعلیمات اسلام اور مسیحی اقوام (التعاليم الإسلامية والنصارى)

٢- اسلام کا اخلاقی نظام (النظام الخُلُقي للإسلام)

٣- التشبه في الإسلام

٤- اسرائیل کتاب وسنت کی روشنی میں (إسرائيل في ضوء الكتاب والسنة)

٥- اصول دعوت اسلام (مبادئ الدعوة الإسلامية)

٦- انسانیت کا امتیاز (المميزات الإنسانية)

٧- ایک قرآن (القرآن الواحد)

٨- حدیث رسول کا قرآنی معیار (المعيار القرآني للأحاديث النبوية)

٩- خاتم النبيين- صلى الله عليه وسلم

١٠- روايات الطيب

١١- سائنس اور اسلام (الإسلام والعلم)

١٢- شان رسالت (مكانة الرسالة)

١٣- شہید کربلا اور یزید (حسين شهيد كربلا ويزيد)

١٤- علم الغيب

١٥- علماء دیوبند کا دینی رخ اور مسلکی مزاج (علماء ديوبند اتجاههم الديني ومزاجهم المذهبي)

١٦- مسلک علماء دیوبند (مذهب علماء ديوبند)

١٧- فلسفہ نماز (فلسفة الصلاة)

١٨- كلمة طيبة (الكلمة الطيبة)

١٩- مقالات طيبة (المقالات الطيبة)

٢٠- اسلامی آزادی (الحرية الإسلامية)

٢١- عالمی مذہب (الدين العالمي)

٢٢- مقامات مقدسہ (الأماكن المقدسة)

٢٣- خطبات حکیم الإسلام.

٢٤- نونية الآحاد

٢٥- **فلسفہ نعمت ومصیبت** (فلسفة النعمة والنقمة)

٢٦- **فتوی دار العلوم اور اس کی حقیقت** (حقيقة فتوى دار العلوم)

٢٧- **اسلام اور فرقہ واریت** (الطائفية في الإسلام)

٢٨- **سفر نامہ افغانستان** (مذكرات رحلة أفغانستان)

٢٩- **عرفان عارف** (ديوان مطبوع)[1].

---

(١) محمد نوشاد النوري القاسمي، التشبه في الإسلام،(الهند: مجمع حجة الإسلام ديوبند، ط١، ٢٠١٦م)، ص١٨-٣٢.

مقدمة المؤلف:

لعلك سمعت كثيرًا –أخي القارئ– كلمة "المقامات المقدسة"، لاسيما في هذه الأيام [١٩٢٠م]؛ حيث جعلتها الحركات الإسلامية الهندية كلمةً مألوفة لدى المسلمين، وفي كل زمان إذا كان المسلمون يقصدون الحج يقولون: نريد زيارة المقامات المقدسة، ولما سقطت الخلافة العثمانية في تركيا وعمَّ الاضطرابُ والفوضى في بلاد الإسلام أقام المسلمون في الهند "لجنة خُدَّام الكعبة" التي ترمي إلى الحفاظ على الأراضي الإسلامية المقدسة، وإذا قامت حركة الخلافة كان من أهدافها الأساسية هو صيانة الأماكن المقدسة عن تدخل الغير، كما أن نفس الهدف أخذ مكانةً كبيرةً لدى جمعية علماء الهند، والهدف نفسه كان روح الاحتجاجات العارمة التي عمَّت طول الهند وعرضها بعد تقسيم فلسطين، وهذا يعني أن كلمة المقامات المقدسة ظلَّت مألوفة مسموعة منذ حركة الخلافة حتى اليوم؛ ولكن ما هي المقامات المقدسة؟ وأين هي؟ وكم هي؟ وما هي أسسها الأصيلة؟ وما معنى صيانتها واستقلالها؟ وماذا يجب على المسلمين إذا احتلَّ الأعداء أحدَ الأماكن المقدسة؟ فهي أمور قلما يعرفها المسلمون حتى الذين يرددون هذه الكلمة كثيرا.

وكان راقم السطور هذا –ككثير من الناس– يردد هذه الكلمة منذ سنوات، يخطب حول أهميتها ويجعلها موضوع كلمته في الاحتفالات الكبيرة، إلا أن حقائق هذه الأماكن وما فيها من معنى ومغزى مازالت سرًّا مكنونا في الذهن، ولم يتيسر له قبل اليوم أن يكتب عنها كموضوع علمي أصيل، حتى أتاح الله تعالى لي فرصةً، مكَّنتني من الكشف عن حقائقها وإيحاءاتها، فلله الحمد والمنة.

ومن منظور إسلامي يمكن أن يوصف بـ"المقدس" كل مكان مركزي للعلم

الديني والعمل الإسلامي، ومن ثم كل مسجد ومدرسة دينية وكل زاوية وكل مكان يتم فيه ممارسة الأعمال الإسلامية فهو مقدس، ولا يخلو من مثل هذه الأماكن المقدسة أي بلد يسكنه المسلمون؛ ولكني لا أقصدها هنا بالأماكن المقدسة العامة؛ بل نريد الأماكن التي هي بخصائصها الباهرة مقدسة بذاتها، وكاسية غيرَها لباس التقدس، فهي أصل جميع الأماكن المقدسة وأساسها بجهات مختلفة، وعلى سبيل المثال أقول: إن كل مسجد في الدنيا مقدس، إلا أن تقدسه مدين لاتجاهه نحو الكعبة، فإن انحرف عن الكعبة لم يبق له أي تقدس ومزية، وأما تقدس الكعبة فليس بمنوط باتجاه دون الاتجاه، فهو مقدس بذاته، لا من غيره، ولذا يمكن القول بأن الكعبة مقدسة بذاتها، وتقدس المساجد كلها فرع ناتج عن الكعبة.

أو كالكتب الدينية كلها ككتب التفسير والحديث والفقه وما إليها مقدسة؛ لكن تقدسها مستفاد من القرآن الكريم؛ حيث هو مشتمل على معاني الكتب في كل فن وأغراضها وأهدافها؛ فإن فَقَدَتْ هذه الكتبُ النسبةَ القرآنيةَ لم يبق لها أي تقدس، أما تقدس القرآن فهو أصيل حاصل له بذاته، فالقرآن مقدَّس بالمعنى الحقيقي، وتقديس الكتب الدينية كلها مدين لنسبتها إلى القرآن.

وكذلك تماما فكل البلاد المقدسة في العالم نشأ تقدُّسها بوجوه التقدس المختلفة؛ إلا أن البلاد المقدسة بذاتها أي البلاد التي حصل لها تقدس ذاتي بفضل إلهي أو بواسطة الأنبياء عليهم السلام هي التي منحت غيرها من البلاد المقدسة الفضل والقداسة، والبلادُ المقدسةُ بذاتها هي موضوع هذا الكتاب.

وقد صوَّرت سورةُ التين هذه البلاد المقدسة أروعَ تصوير، وهي ثلاثة بلاد كالتالي:

١. مدينة القدس بالشام المحاطة بالتين والزيتون.

٢. صحراء سيناء الواقعة بسفح جبل طور سينين في مصر.

٣. البلد الأمين مكة المكرمة.

وآيات سورة التين –كما أرى– احتوت على معانٍ ودلالات على عظمة هذه البلاد المقدسة، وقد أشرتُ إليها في خطبة الكتاب مجملا كبراعة الاستهلال.

دوافع التأليف:

إن هذه الحقائق (التي تظهر في محتويات الكتاب) كانت تدور في مخيلتي منذ أمد بعيد؛ إلا أنها لم تجد عاملا سيُخرجها من عالم الخيال إلى عالم الواقع، ومن حسن الصدفة ظهر عامل قوي جدا، مما دعاني إلى إبراز ما يدور في القلب والخيال، وهو أنه في ٢٠ / رمضان المبارك ١٢٨٣هـ الموافق ٥/ فبراير١٩٦٤م تلقيت رسالة جامعة الدول العربية من قبل السفارة المصرية للمشاركة في مؤتمر العالم الإسلامي المنعقد في القاهرة، ولم يظهر من الرسالة أهداف المؤتمر إلا أن الجمهورية العربية تريد إقامة رابطة إسلامية ثقافية عالمية يشارك فيها شخصيات بارزة من العالم الإسلامي وغيره، وذلك لقصد معالجة المشاكل الإسلامية العالمية التي أفرزتها الاكتشافات والاتجاهات الفكرية الجديدة وجعلت المسلمين يدورون في فلكها، ولايكادون يخرجون منها.

وبعد مشاورة كبار علماء دار العلوم ديوبند وافقتُ على المشاركة، وحسب البرنامج المقرر سافرت الخميس في ٥/ مارس ١٩٦٤م من خلال الطائرة الهندية المتجهة نحو القاهرة في تمام الساعة العاشرة والنصف ليلًا، ووصلتُ القاهرة في نحو الخامسة صباحا، وتلقَّاني بالمطار بترحابٍ حارٍ وتقديرٍ لايوصف أعضاءُ لجنة الاستقبال من قبل مجمع البحوث الإسلامية بالجامع الأزهر، وراحوا بي نحو فندق الأطلس الذي كان من المقرر إقامتي فيه، وكان فيه من قبلُ عددٌ لا بأس به من ضيوف الهند وباكستان والشام والعراق والأردن والكويت والتونس والجزائر وأندونيسيا واليابان والروس وأفغانستان والصومال ودول إفريقيا الأخرى.

وبُدِئَ المؤتمر من ٥/ مارس واستمرت نشاطاته إلى ١٩/ مارس، وشملت هذه الفترةُ بجانب إلقاء الكلمات والبحوث والمناقشات في المواضيع المطروحة سياحةً رسميةً لأماكن سياحية في مصر، فزرنا كلًّا من الأسيوط وطنطا وأسوان والأهرام وما إليها، وكان من أمتع السياحة المصرية زيارة صحراء سينا الممتدة نحو "غزة" مولد ومنشأ الإمام الشافعي، ووصلنا إلى جبل غزة، حيث يبدو منها قاعدة الجيش الإسرائيلي الغاشم، وكنت أعتقد عظمة هذه الأماكن: مصر وصحراء سينائها وطورسينينها؛حيث تجلى علم موسى وحسن يوسف ومظاهر الوحي القرآني، إلا أن بعد هذه الزيارة ارتسمت آثارها من جديد، وكأني أشاهد بأم عينيْ موسى -عليه السلام- وهو يسير بأهله في الصحراء ويقترب من جبل الطور، ويكلمه ربُّه ويكسوه حلة النبوة، ثم يتجلى له ربه، ثم كأني أراه مع قومه المستضعفين، كيف ينجو بهم من ظلم فرعون وجنوده، وما إليها كأنما هو شريط مسجَّل تم تشغيله، وظهرت صوره باديةً للعيان، مما ترك في قلبي آثارًا بارزةً ماتعةً.

فبعد السياحة الممتعة للأماكن المقدسة عدنا إلى القاهرة، وكانت لي كلمة في الجلسة العاشرة من جلسات المؤتمر في ١٨ من مارس ١٩٦٤م، فتحدثتُ بإسهاب عن الأهمية الدينية لمصر، وكشفت أن حب المسلمين في العالم لمصروأهلها ليس لتقدمها الصناعي أو السياسي أو الاقتصادي؛ وإنما هو ناشئ عن أهميتها الدينية، ومن ثم يتبدى ثِقْلُها السياسي والجغرافيائي، مما يجعلها أحد المراكز الثلاثة: الحجاز والشام ومصر، ومما تتصل به الكثير من المصالح والمقاصد الهامة، وكونها مركزاً إسلاميًّا يفوق بدرجاتٍ تقدمَها الصناعي والثقافي.

وقد أدرك القائمون على المؤتمر الإسلامي أهمية الكلمة التي ألقيتها في إحدى جلسات المؤتمر، فنشروا خلاصة الكلمة في كتابٍ جامعٍ لنشاطات المؤتمر، طبعه مجمع البحوث الإسلامية بالجامع الأزهر، وقد جاء فيه:

"السيد محمد طيب (الهند) بعد أن تناول طرفًا من تاريخ الإسلام أشار بصفة خاصة إلى أن المسلمين جميعا يعقدون آمالا كبارا على وحدة وتكتل مصر والشام والحجاز، فالحجاز مركز العبادة وإبراز الإسلام، والشام مركز الشوكة الإسلامية، ومصر مركز القوة العسكرية"(١).

وبعد العودة من مصر بأيام كانت رحلتي إلى الأردن والشام، و عن طريق الحجاز عدتُ إلى الهند، فكانت الرحلة المصرية، وجولة وادئ سينا وعبور الطور وزيارة المسجد الأقصى ثم حضور البلد الأمين عاملا قويا للكتابة عن هذا الموضوع المبارك وإبراز ما كان يختلج في قلبي منذ أعوام، وقد تأكَّد لدي بوضوحٍ ودلائلَ أن وحدةَ العالم الإسلامي والتنظيم العالمي للأمة الإسلامية لاتتحقق بدونٍ تكتل العالم العربي لاسيما الحجاز ومصر والشام؛ فإن العالم العربي كان إمام المسلمين في البداية، وفي الروايات والآثار ما يدل على أنه مركز المسلمين في النهاية أيضا، وبما أن طاعة وعبادة المقتدي تتوقف على طهارة الإمام وعدالته وأدائه للفرائض والواجبات فتتأكد به ضرورة وحدة العالم الإسلامي، إلا أن وحدة الحجاز والشام ومصر فيما بينها آكد؛ فهي الدول الثلاث تقع بمثابة الدول الإمام، وغيرها من الدول بمثابة المقتدي، وإذا فسد أمر الإمام فسد أمر من يقتديْ به.

وكان قلبي يسيل آنذاك بمعاني مكانة مصر الإسلامية وضرورة وحدة الدول الثلاث التي هي أساس الوحدة الإسلامية والمركزية التي صدرت عن الحجاز: المركز العام للعالم الإسلامي إلى مصر والشام؛ إلا أن قصر الوقت وضيق المقام حال دون البيان المسهب في الموضوع، فاقتصرتُ في المؤتمر على الإشارة إلى أهمية الموضوع، كما جاء في تقرير عن المؤتمر، وفيه دلالة على أن القائمين على المؤتمر أدركوا خطورة الموضوع، فتركَّز في قلبي

(١) تقرير عن الجلسة العاشرة للمؤتمر، ص٤.

كمشروع علمي أن أتناول هذا الموضوع بشرح أكثر، ثم أكدتْه رحلتي اللاحقة إلى الشام والحجاز، وصممت على أن أجمع بين المعلومات الشاردة التي أشرت إليها في المؤتمر في كتاب مستقل، أنيرُ فيه الموضوعَ في ضوء الشواهد القوية، لأقدِّم ذلك الكتاب كتحفة علمية للزيارة المصرية بين يدي المسلمين في الهند، بل إلى الأمة العربية أيضًا؛ فإن الكتاب ينطوي على معلوماتٍ تعنيهم أكثر مما يعني المسلمين في الهند بشرط أن يقوم أحدٌ بنقل الكتاب إلى اللغة العربية[1].

وعلى كلٍ فبدأت الكتابة في القاهرة، وجرت الكتابة خلال الرحلة حتى تمت في الهند بشكل تدريجي، والحمد لله على ذلك، ثم أضفت بعض السطور في إحدى الرحلات الحجازية.

ويسعدني اليوم أن أقدمه كتابا حافلا في الموضوع، إلا أن فقدان الوسائل وحدوث المشاكل المتنوعة جعلا هذا الكتاب التاريخي التذكاري يتأخر صدورُه إلى نحو ١٥عاما، وكانت ضرورة الكتاب شديدة من قبل، وعادت في هذا الوقت أشد، وأصبح اليوم بعضُ ما أشرتُ إلى مخاوفه حقيقةً ماثلةً للعيان، وقد علَّقت على مثل هذه الأخطار بــ"أنها كانت خطرًا إبان تأليف الكتاب؛ إلا أنها لم تعد خطرا؛ بل هي واقعة فعلا"، ليتضح للقارئ كيف يصدِّق الواقع الخيال القائم على التقييم والبصيرة.

مصادر الكتاب ومدلوله:

ومن المصادفة الغربية أن مضامين الكتاب كلها وجميع الحقائق الشرعية والعقلية والساسية المتصلة بالمراكز الإسلامية الثلاثة - مع الاعتراف بقلة بضاعتي- مأخوذة من السورة القرآنية القصيرة: سورة التين؛ فإن النظم القرآني المعجز وسياق

(١) كان المؤلف الكريم يتمنى نقل هذا الكتاب إلى العربية، ويسر المجمعَ أن يقوم اليوم بتحقيق أمنيته الكريمة، رحم الله المؤلف رحمة واسعة وجزاه خير الجزاء، ونفع بكتابه وتقبله في الصالحين، آمين.

الآيات الأولى الكريمة يرتبط بالمعاني المشار إليها ارتباطا وثيقا كأنها شرح للآيات وتفسير لها، فكتبت هذه الآيات الكريمة في وجه الغلاف تبركا بها ولكونها مصدرا قويا للكتاب، وبدأتُ الكتاب باسم شرح الآيات الكريمة، ليُنسب إلى القرآن، ويكسب منه بقاءه وخلوده.

ولامانع من القول بأن الموضوع دقيق، يتطلب العلم الغزير، وأنا فاقد العلم السطحي فضلا عن العلم العميق الدقيق، فلا أدعي التوصل إلى غور الموضوع؛ إلا أني حاولت جهدي لأجمع المعلومات العلمية النادرة، وعلى سبيل التحديث بالنعمة أذكر أني ما رأيت كتاباً يتناول الموضوع بهذا التحقيق والتفصيل والشمول والاستنباط، فكل المعارف واللطائف والحقائق والنوادر العقلية والسياسية التي ازدان بها الكتاب غير الآيات والروايات والنقولات ما أخذتها من كتاب؛ بل عن كتاب قلبي. إلا أني ذكرت اللطيفة الناشئة في قلبي بعد عرضها على الكتاب والسنة وآثار السلف، فإذا اطمأن بها القلب كتبت وإلا رفضت؛ فهي أيضا بتعبير آخر مستفاد من النصوص.

ولا أدري أني مصيب في الشرح والبيان أم مخطئ، فلا يسعني إلا أن أقول: إن كان صوابا فمن الله وحده، وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان.

كلمة اعتذار:

"رحم الله من أيقظنا من سِنَتِنَا"

وأخيرا أقدم مسبقا إلى القارئ كلمة الاعتذار؛ إن وجد في الكتاب تشتتا و تكرارا في البيان أو خللا في التعبير ؛ فإنه ليس بناشئ عن التغافل والتساهل؛ بل لأن الكتاب لم يُؤَلَّف في وقت واحد متسلسل؛ بل في الفترات المختلفة، في السفر والحضر، وفي فُرَصٍ وُجدت، وفي مناسبات سنحت، ومن ثم كانت المسودة تشتمل على كثير من الرقاع الصغيرة، التي كتبت فيها ما خطر بالبال وجاء في الخيال، وذلك أن قلة الفرص والشرود الفكري ومسؤوليات الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند المتنوعة داعية إلى

هذا، فالرجاء من القارئ الكريم أن يسامحني إن وجد في الكتاب من التكرار والخلل التعبيري ما يثقل على ذهنه.

أجل! إن وُجد في الكتاب ما يخالف النصوص الشرعية أو كان من الاستنباطات ما لا ينطبق على الكتاب فالرجاء منه أن لايتأخروا في التنبيه، فأين أنا من المعارف العلمية الدقيقة؟

فالتنبيه على الخطأ نُصْحٌ جميل لهذا العاجز، كما أنه مما يجدر ذكره أن الكاتب طويلب علم، فالأسلوب هو أسلوب كاتب طالب دون كاتب خبير في فن الإنشاء، ثم إذا كان الموضوع مثقَّلا بالحقائق العلمية والنوادر الفنية، فلا تجد فيه روعة في البيان وجمالا في الشرح؛ ففاقد الشيء لا يعطيه.

فطلبة العلم يستفيدون من الكتاب حق الاستفادة، أما العامة فلا يجدون فيه ما يعجبهم إلا قليلا، نعم! وبما أن أول الكتاب وآخره احتويا على القصص المثيرة فهما يأخذان إعجابا لدى العامة، ويكون فيها ما يسهل فهمه على الجميع وتعجب روعته.

وهذا أوانُ المقصود، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

محمد طيب القاسمي

رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند

١/ من ربيع الأول/ ١٣٨٢هـ

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين وولي المؤمنين، الذي تجلى بنور وجوده لبيته العتيق، نجعله أصلا لوجود جميع المخلوقين، وانعكست أضواؤه في ملكوت السماوات والأرضين، فأشرقت بنور ربها، وبرزت ميزاتها وخصائصها في كل ساعة وحين، وفي كل ساحة من شمال ويمين.

والصلاة والسلام على إمام المرسلين خاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد الذي بُعث رحمةً مهداةً ونذيرًا للعالمين، وجعله على خُلُقٍ عظيمٍ بجميع فضائل الأولين والآخرين، وفضَّله بخصائصه على جميع الأنبياء والمرسلين، وأوحى إليه قرآنا عجبا، يهدي إلى الرشد وذكرى للعالمين، فأعطاه قبلة، هي أول بيت وُضِعَ للناس للذي ببكة مباركًا وهدي للعالمين، وسماه بالبلد الأمين، ووضع شوكته في القدس الذي حفَّه بالزيت والتين، وجعله في أمان من ياجوج وماجوج والدجال في آخر الآجال في طور سينين، وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين خُصُّوْا بنعمة المودة في القربى في جميع العشائر والأقربين، وجُبِلُوْا على ذوق أخلاق النبوة وسيرها بقرب قرابة النبي الصادق الأمين، فشهدوا أن الرسول حق وجاءهم بالبينات والزبر والكتاب المبين، وعلى جميع أصحابه الذين فُضِّلوا على سائر الأمة بشرف رؤيتهم لنبيهم وصحبتهم له والاهتداء بهديه وهدايته بكمال حب العشاق الواهين، ففازوا بكمال التقوى وعمق العلم بالدين، وعرفوا من الحق لما جاءهم فأيقنوا بجميع مراتب اليقين، ونادوا بلسان أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم: ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين، وعلى الذين اتبعوهم بإحسان من الأئمة المجتهدين والفقهاء المخبتين الذين فاقوا على من سواهم بنور الاجتهاد والفقه في الدين، فاستنبطوا الشرائع الوضعية من الشرائع

الأصلية من السنة المحكمة والكتاب المبين، وعلى من اتبعهم بالثبات في الأمر وعزيمة الرشد والعلم اللدني من الحكماء المتقنين والعرفاء المحسنين، فعرفوا الأماكن المقدسة ومراكز الدين، وقدروها حق قدرها، فعظموا شعائره، وتبينوا معارفه بالفهم الثاقب والتوفيق المعين، وعلى من بعدهم من الهداة المهتدين والدعاة الموقنين والعلماء الراسخين، فآمنوا بما جاءهم من عند ربهم بثلج الصدور وبرد اليقين، وعلى من والاهم بدعاية الإيمان وجاذبة اليقين، وعلى جميع المسلمين والمؤمنين وعباد الله الصالحين، فرضي الله عنهم ورضوا عنه أجمعين.

وبعد فقد قال الله جل ذكره وعز اسمه في كتابه المبين.

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (*) وَطُورِ سِينِينَ (*) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (*) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (سورة التين: ١-٤)[١].

الأماكن المقدسة هي أساس القداسة ومولد ومنشأ أمم العالم:

أقسم الله تعالى في الآيات الكريمة المذكورة أعلاه بالأماكن الثلاثة المقدسة: بالقدس مدينة التين والزيتون، وجبل الطور في سيناء، والبلد الأمين مكة المكرمة استدلالا على جمال الخَلق الإنساني؛ حيث وهب له دون غيره جائزة "أحسن تقويم"، وجعله أشرف المخلوقات.

إيرادات علمية:

وتنشأ هنا طبعا عدة أسئلة، منها مايلي:

السؤال الأول: لماذا خص الله تعالى هذه الأماكن الثلاثة بالإقسام للدلالة على حسن خَلْق الإنسان وتقويمه؟ فعلى ماذا تشتمل هذه الأماكن لتكون شاهدة على الدعوى المذكورة.

(١) كتب المؤلف بدوره الافتتاحية باللغة العربية.

السؤال الثاني: أي فضل وقداسة انفردت بها الأماكن الثلاثة دون غيرها؟ حيث شرَّفها الله تعالى بالإقسام على خلق الإنسان في أحسن تقويم.

السؤال الثالث: وما هي نوعية علاقة الأماكن المذكورة بالإنسان وخَلْقه وجماله وشرفه؟ حتى استُدِّل بها على ذلك؟

السؤال الرابع: وهل الفضل الإنساني المأخوذ من الأماكن الثلاثة ينوط بكاهله مهمة ومسؤولية، يُطلب إليه القيام بها؟

هذه هي الأسئلة المذكورة التي يتحدث الكتاب عن حلها والإجابة عنها؟ وقمت بتوفيق الله تعالى بتقسيم الكتاب على مقدمة وأبواب وخاتمة، وبالله التوفيق.

(١) شواهد تقدس الأماكن الثلاثة

أما قداسة الأماكن وشرفها فهي ثابتة بمايلي:

إن الله تعالى جمع هذه الأماكن الثلاثة في سورة التين ليستدل بها على فضل الإنسان وشرفه، وفيه من الدلالة على فضلها ما لا يخفى.

أما أنه لماذا خُصَّت هذه الأماكن دون غيرها فذكرها بهذه العظمة دليل على أن لها شأنا كبيرا لدى الله تعالى.

وثانيا: إن الإقسام بهذه الأماكن لاسيما في موضع المدح والتعظيم كفى بها دليلا على شرفها وفضلها.

وثالثا: الاستدلال بها على جمال الهيكل الإنساني وحسن خلقه وتقويمه ينم عن فضل الأماكن وشرفها أيضا؛ فإنه لولا ما في هذه الأماكن التي أقسم الله بها من فضل وشرف أو لم يكن فيها ما له صلة بالعظمة الإنسانية لما كانت دليلا على عظمة الإنسان وشاهدة عليه، فإن القسم بمثابة الشاهد عليه، ويجب أن تكون موافقة تامة بين الدعوى والدليل.

ولايخفى أن القاسم المشترك بين القسم والمقسم به قد يكون في العظمة، وقد يكون في التفاهة والحقارة، فإن نوعية الأشياء التي أقسم بها والسياق الكلامي والكلمات التعبيرية وقرائن المقام تساعد في فهم المراد والغرض من القسم، أما هذا القسم الوارد في سورة التين فلم يتعين مراده بالقرينة المحضة؛ بل ببراهين قاطعة مما يؤكد هذا القسم، والاعتراف بأن هذه الأماكن الثلاثة: مكة المكرمة والقدس الشريف والطور المبارك لايتسم بمعالم العظمة والقداسة فحسب؛ بل هي تتحلى من الصفات الجامعة العظيمة بما من شأنه أن يكون شاهدا على عظمة الإنسان.

الفضيلة الإضافية للأماكن:

أما أنه كيف ثبت حسن الإنسان وجماله وكماله واعتداله وشموله بشهادة الأماكن؟ وما هي المناسبة التامة بين الدعوى والدليل التي عادت أساسَ القسم؟

فالجواب أن هذا يتطلب وقفةً قصيرةً، وهي أنه في هذه الأماكن الثلاثة نجم ثلاثة رجال أجلاء مقدسين، ملأوا الدنيا نورًا بفيضهم وتأثيرهم الروحي، فنشأ من طور سيناء شخصية موسى عليه السلام، الذي علَّم الدنيا قداسةَ الوادي وماحوله، وقد كان مولدُ عيسى روح الله هو القدس المحفوف بالتين والزيتون، وقد تفجرت منه ينابيع المجد والشرف والعفة والنزاهة، وأطلَّ من مكة المكرمة نورُ سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم على العالم كله، فأضاء الدنيا وبدَّد الظلام.

إذاً كسبت هذه الأماكن الثلاثة من هؤلاء الأنبياء المحترَمين القداسة والعظمة باعتبارها مولد الأنبياء الكرام، فجمعت هذه الأماكنُ إلى فضلها الذاتي فضيلةً زائدةً مكتسبةً من شرف الأنبياء الكرام، كما قال الشاعر الفارسي:

كعبه را هر دم تجلي مي فروزد — اين از اخلاصات إبراهيم بود

[إن الكعبة الشريفة مازالت تزداد عظمة وشرفا، وهذا ناشئ عن إخلاص إبراهيم لاغير].

الاستدلال بعظمة المكان على عظمة صاحبه:

ومن ثم زعم العلامة الشهير المحدث البارز العلامة ابن القيم أن الإقسام بهذه الأماكن يتضمن الإقسام بذوات الأنبياء الثلاثة، وإرادة صاحب المكان من المكان أمر مألوف في كلام الفصحاء، وأصل من أصول البلاغة؛ حيث قال في كتابه الشهير "التبيان في أقسام القرآن" ما نصه:

"ومن ذلك أقسامه **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**" فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة، فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيته المقدس فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً، وقد قال جماعة من المفسرين: إنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما فإن التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص لا عجم له وهو على مقدار اللقمة وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم ويدخل في الأدوية ومزاجه من أعدل الأمزجة وطبعه طبع الحياة الحرارة والرطوبة وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ويزيد في القوة ويوافق الباءة، وينفع من البواسير والنقرس ويؤكل رطباً ويابساً، وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر فإن عوده يخرج ثمراً يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ للآكلين وطيب ودواء وفيه من مصالح الخلق مالا يخفى وشجره باق على ممر السنين المتطاولة وورقه لا يسقط، وهذا الذي قالوه حق ولا ينافي أن يكون منبته مراداً فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما وهو مظهر عبد الله

ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل فبدأ بموضع مظهر المسيح ثم ثنَّى بموضع مظهر الكليم ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه، ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى، جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران، فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران وبدأ به على حكم الترتيب الواقع ثم ثنى بنبوة المسيح ثم ختمه بنبوة محمد وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها ونبوة محمد وعليهما بعدهما بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم، ولما كان الغالب على بني إسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقاً للواقع ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي، وأقسم بها على بداية الإنسان ونهايته فقال: **لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**" أي في أحسن صورة وشكل واعتدال معتدل القامة مستوى الخلقة كامل الصورة أحسن من كل حيوان سواه، والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل، وذلك صنعته تبارك وتعالى في قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء، وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده وقدرته وحكمته وعلمه وصفات كماله، ولهذا يكررها كثيراً في القرآن لمكان العبرة بها والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته وعلى المبدأ والمعاد.

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلاً أنزل عليهم كتبه يعرفون العباد بربهم وحقوقه عليهم

وينذرونهم بالله ونقمته ويدعونهم إلى كرامته وثوابه"(1). وفي ضوء كلام ابن القيم الجوزية يستخلص مراد الآية الكريمة بالتالي:

إن القسم هو شهادة، والمقسم به شاهد على ثبوت المقسم عليه، فمعنى الآية أن الله أقسم بشخصية لها ارتباط وصلة بمكان التين والزيتون وهي شخصية عيسى روح الله وكلمته، وأقسم بشخصية صاحب الطور، وهي شخصية موسى كليم الله، وأقسم بشخصية البلد الأمين: وهي شخصية سيدنا ونبينا محمد عليه السلام وهَدَفَ القسم إلى إثبات أن الإنسان خلقه الله تعالى في أحسن صورة وسيرة، وأبهى جمال وكمال، فمن أراد تصديق الدعوى فلينظر في هذه الشخصيات الكبار وهديهم وصورتهم وسيرتهم وخلقهم وظاهرهم وباطنهم، حيث كانوا في مرتبة عظيمة لايجاريها أي خلق من خلق الله تعالى، وبما أن الظاهر أن المكان يكسب العظمة من صاحبه، وصاحب المكان يكسب من المكان، فأوضح هذا القسم ما بين هذه الأماكن وأصحابها من صلة وعظمة مشتركة، فثبت أن كون هذه الأماكن مولد الأنبياء أكسبها شرفا إضافيا بجانب ما لها من شرف ذاتي أصيل.

صلة هذه الأماكن بالعظمة الإنسانية

ولايخفى أن الإنسان حقيقة جامعة، تمتد آثارها في العالم كله، وكذلك تماما عمَّت آثار هذه الأماكن المقدسة العالم كله، كما سيأتي تفصيله، مما يدل بوضوح على الصلة القوية بين الإنسان وهذه المواطن، فقد تم إبراز الكمالات الإنسانية في شخصيات موسى كليم الله وعيسى روح الله ونبينا محمد حبيب الله، عليهم الصلاة والسلام، والإقسام بالمواطن الثلاثة يمثل –ضمنا– الإقسام بشخصياتها الكريمة،

---

(1) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، **التبيان في أقسام القرآن**، (لبنان: دار المعرفة بيروت، د.ت، د.ط)ج١، ص١٤٣-١٤٥.

وهذا يعنى أن المواطن الثلاثة تمتلك من مقومات الجامعية والشمول وحسن التقويم ما يجعلها شديدة الارتباط بالإنسان وحسن خلقه صورة وسيرة، فإنه لولا هذه الصلة بين المواطن والإنسان لما جاء القسم بالمواطن دليلا على العظمة الإنسانية، أو لكان القسم ساقطا في غير مسقطه ، وكلام الله بريء من هذا الشين.

ومن ثم تناول علامة الهند الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي في تفسيره المسمى "تفسير فتح العزيز" خصائص هذه المواطن الثلاثة بتفصيل مشبع، يتأكد به صلة قوية ومناسبة تامة بين المواطن المشار إليها وبين الإنسان، مما يكشف عن حكمة إلهية عظيمة في هذا القسم، وكلام الشيخ حري بأن يُقرأ ويُدرس، ولكن تركتُه توخيا للإيجاز، فإن هذه الرسالة القصيرة لا تسعه، ومن أراد الزيادة فليراجعه.

وعليه فقد ثبت أن هذه المواطن تحمل من وجوه الشبه بالأنبياء الثلاثة –عليهم السلام– ما يميزها عما عداها من المواطن، وهذا ما أرمي إليه من إبراز ما تتمتع به المواطن الثلاثة من القداسة الذاتية والصفاتية وما تقتضيه من آثار ، ليتجلى أنها – إلى جانب فضلها الذاتي– تتشرف بكونها مولد ومنشأ الشخصيات العظيمة التي نيطت بها عظمة الدنيا وفشا فيها نور الإيمان والعمل والخلق الحسن، وحدثت ثورات صالحة رفعت رأس الإنسانية عزا وكرامة.

فكانت مكة المكرمة والقدس المبارك وطور سيناء المقدس ذات قدس وعز وشرف، وزادها عظمة وشرافة اتصالها الوثيق بالشخصيات النبوية الكريمة، فاتضحت الدعوى بدليلها.

الأمم الثلاثة الكبيرة والأماكن الثلاثة:

وإذا نظرنا إلى الأماكن من حيث انتشار آثارها في العالم كله وجدنا أنها نشأت منها بفضل جهود الأنبياء الثلاثة ثلاثُ أمم جليلة، بلغت في عصرها أوج ازدهارها،

واضطرت الدنيا إلى الاعتراف بفضلها: اليهود والنصارى والمسلمين، التي هي ملتزمة بالدين السماوي، وشارحة للملة الإبراهيمية، خرجت اليهودية من موسى كليم الله، والنصرانية من عيسى روح الله وكلمته، ونشأت الأمة الإسلامية من سيدنا ونبينا محمد المصطفى، وهي ثلاث أمم تعتبر كبرى الأمم في الدنيا، وظهرت كدين سماوي، وعلَّمت الدنيا بدعوتها ورسالتها القداسة والشرف، فانتشر النور وعمت القداسة والنزاهة، ففُضِّلتْ على العالمين، فوصف الله تعالى بني إسرائيل بقوله: إني فضلتكم على العالمين، ولُقِّبت الأمة المسلمة بخير أمة في قوله تعالى: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**(سورة آل عمران: ١١٠).

ونظرًا إلى الصفات التي جُعِلَتْ مهمةَ الأمة المحمدية يمكن الكشف عن سبب كونها خير أمة؛ وهي أن هذه الأمة بُعِثَتْ لتقوم بمهام الدعوة إلى الله، وتؤدي دور الأنبياء والمصلحين، ويعلم الجميع أن هذه الأمم الثلاث نشأت من الأماكن الثلاثة المذكورة: طور سيناء والقدس الشريف والبلد الأمين، فصارت المركزية منقسمة بين هذه الثلاثة بحكم كونها مولد الأمم، ولا مبرر لأن يكون لهذه الأمم أثر كبير في تقدم الدنيا وزوالها، ولا يكون لهذه المواطن دخل في الارتقاء والانهيار، فتكون الأمم مقدسة دون مواطنها الأصيلة.

مراتب الأمم الثلاث:

وهذه الأمم الثلاث: اليهودية والنصرانية والمسلمون هي أخرى الأمم السماوية في الدنيا، التي تنتهي بهم الدنيا، وبهم- رقيًّا وزوالًا- يرتبط تاريخ القسط الأخير من الدنيا، فلو فرضنا الفترةَ الممتدةَ من نشوء الأمم الثلاث إلى نهايتها يومًا كاملًا، فكانت الفترة الصباحية إلى زوال الشمس نصيب اليهودية، فكانت لهم فيها سيطرة دينية كاملة على الدنيا، وكان ما بين الظهر والعصر نصيب النصرانية، فازدهروا

فيها، وأما ما بين العصر والمغرب فنالته الأمة المسلمة التي هي شارحة للملة الإبراهيمية؛ بل متممة لها، ففُوِّضت لها الإمامةُ العامةُ للدنيا تبعًا لإمامة إبراهيم، وامتدت خلافتها في المعمورة كلها، وجاء الخبر بأن الدين سيبلغ العالم كله، فلاتنتهي الدنيا ما لم يقرع صوتُ الدين أُذُنَ كل إنسان في الدنيا، ويدخل كلَّ بيت مدرٍ ووبرٍ فيها، وهذا واضح بحديث "لايبقى على ظهر الأرض" الخ وآية "ليظهره على الدين كله"؛ مما سيأتي شرحه في السطور القادمة إن شاء الله.

فصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلَا مِنَ الْأُمَمِ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ وَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالًا فَقَالَ: من يعْمل إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ؟ أَلَا فَأَنْتُمُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ أَلَا لَكُمُ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقَلُّ عَطَاءً قَالَ الله تَعَالَى: هَل ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شيئا؟ قَالُوا: لَا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: فَإِنَّهُ فَضْلِي أُعْطِيهِ مَنْ شِئْتُ "[1].

فضل الأمة المحمدية على سائر الأمم في ضوء الحديث المذكور أعلاه:

وهذا الحديث يؤكد بصياغته البيانية على أن هذه الأمم الثلاث هي أخرى الأمم، وبهم يرتبط تاريخ الدنيا الأخير، وأن هذه الأمم هي الأخرى متفاضلة فيما بينها، فالأمة

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**(القاهرة: دار الشعب، ط١، ١٤٠٧/ ١٩٨٧م)رقم الحديث: ٣٤٥٩.

التالية لها فضل على سابقتها، فالترتيب البياني نص على أن الأمة اللاحقة تفضُل الأمةَ السابقة في القداسة والعز والشرف، وهذا ظاهر بالفرق في الأجر والثواب، وتفاوتِ المدة العملية، فكانت لليهود أطول الفترات أي مابين الفجر إلى نصف النهار، بأجرة قيراط واحد، والقيراط نفسه أجرة النصارى لفترة هي أقصر من فترة اليهود، وبذلك ظهر للنصارى فضل معنوي على اليهود، وكانت للأمة المحمدية أقصر الفترات أي ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس وهي نصف فترة النصارى؛ ولكن أكرمها الله بأجر مضاعف؛ مما أكد على أن هذه الأمم إن كانت أفضل من غيرها من الأمم، فالأمة المحمدية هي أفضل بكثير من اليهود والنصارى.

وهذا كالشجرة التي إذا تم لها ساق وأوراق وأغصان برز الغرض الأصيل المتمثل في الثمار التي تشكل عصارة كل جزء من أجزاء الشجرة، فتكون أفضل من جميع أجزاء الشجرة، فلا تأتي إلا في النهاية، فبعث الأمم الثلاثة بعد الملل الأخرى إن دل على فضلها على كافة الأمم، فَبَعْثُ الأمةِ المسلمة يمثل عصارة الأمم كافة ومتضمنة فضائلها وخصائصها، فالأمة الإسلامية لُبُّ الثمار وحاصلها، ومن ثم تأخرت بعثتها وبها ستنتهي الدنيا؛ مما يقضي بأن تاريخ الدنيا الأخير مرتبط بالملة المحمدية أساسا، وتأخذ اليهودية والنصرانية جزءا من التاريخ لا كله أو جله، فالحديث المذكور أعلاه صرَّح بفضل الأمم الثلاث –مع فرق في مراتبها– على كافة أمم الدنيا.

خيرية الأمة منوطة بمولدها:

الظاهر أن الأماكن الثلاثة المشار إليها: طور سيناء وبيت المقدس والبلد الأمين هي مولد الأمم الثلاث المفضَّلة، ومنها ظهرت آثار الملل وبركاتها مع اختلاف المراتب، فلا بد من ظهور التفاوت في فضل الأماكن وشرفها، فمن المستحيل أن يكون الفرع الناشئ أفضل ولا يكون الأصل كذلك، وجريا على قاعدة "كل شيء يرجع إلى أصله" جرت عادة الأمم الثلاث باهتمامها بأصلها، وربط فضلها بمولدها، واعتقاد أن فضلها

مأخوذ من فضل المكان المقدس، فالأمة المسلمة راجعة إلى كعبة الله تعالى الذي جعله الله مثابةً للناس وأمنا، والنصارى يرجعون أنفسهم إلى بيت المقدس، واليهود تشد نفسها بطور سيناء، ومع هذا إن كان من الأمم ما لا يستفيد من بركات المكان لفسادٍ في العقيدة أو خللٍ في الاستعداد فهذا شيءٌ آخر راجع إلى الأمة نفسها لا إلى المكان، أو كانت أمة تنتفع بكنوز مكنونة في المكان لصلاح في العقيدة وإحكام في المؤهلات فهي أيضا أمر له صلة بالأمة دون المكان، إلا أن الأمم المفضلة مضطرةٌ إلى الرجوع القلبي إلى الأماكن المقدسة مما يضفي على الأمم مسحة من القداسة والفضل.

الأماكن الثلاثة صاحبة قداسة وصانعتها:

الحاصل أن ظهرت من الأماكن الثلاثة ثلاث شخصيات جليلة، ومنهم ظهرت ثلاث ملل كبيرة، ومنها نشأت ثلاث أمم عظيمة ذات فضل وشرف في عصورها، وظهرت كذلك من الأماكن الثلاثة آثار المجد والشرف وبركات القداسة والعظمة، فانتقلت إلى آفاق العالم عصرًا بعد عصر وزمانًا بعد زمان، فاستنار بها ألوفٌ وألوفٌ من أشخاص وأصقاع، فالأماكن الثلاثة ليست مقدسةً وحسب؛ وإنما هي واهبة القداسة لغيرها أيضا، فهي مصادر جميع الأماكن المقدسة، وقد جعل إقسام الله تعالى بها في القرآن الكريم قداستَها مؤكدةً، مما يدل على أصالة قداستها وبركتها من بين جميع الأماكن المقدسة، سواء أكانت القداسة مركوزةً في طينها منذ خلقها أم اكتسبتها من قصةٍ عجيبةٍ حادثةٍ، نفخت فيها روح العظمة والقداسة.

التقدس الأصيل الخالد:

وعلى كلٍ فمن المعلوم بالضرورة أن التقدس على أي طريق حصل للأماكن الثلاثة (عن طريق تركيزها منذ الخلق والنشأة أم مكتسب من سبب وواقعة) لايقتصر عليها؛ و إنما هو يتعدى ماسواها للأبد كما هو حاصل لها منذ الأزل، وتدل عليها

القصص والحوادث التاريخية، لاسيما إذا كانت الشخصيات الثلاثة الناشئة عن الأماكن الثلاثة وأممها الثلاث كُلِّفت بنشر التعاليم المودعة في الأماكن، ونيط بها تاريخ العصر الأخير للدنيا لما فيها من عظمة وبركة، فثبت بالضرورة أن تقدسها هو التقدس الأخير، وهي أصل جميع الأماكن المقدسة، وخلاصة التقدسات المنتشرة في العالم، وأساس كل تقدس يتأتى من بعدُ لغيرها من الأشخاص والأماكن، فقداستها خاتمة القداسات ومنتهاها، ومعلوم أن خاتم الدائرة هو أصل الدائرة، ومن ثم اختارها الله تعالى ليقسم بها على حسن تقويم الإنسان وفَضْلِه على غيره من الخلق؛ حيث هي تشمل أنواعًا من الفضل والشمول، عُجنت بها طينةُ الشخصيات الإنسانية المقدسة وأممها، ليتم بها تاريخ العصر الأخير للدنيا.

فنظرًا إلى الآيات الكريمة إن ذهبنا إلى اعتبار مكة المكرمة في الحجاز وبيت المقدس في الشام وطور سينين في مصر مصادر أصيلة للقداسة والعظمة فهو قول في محله، وليس فيه تعسف وإجحاف.

حاجة العصر الأخير للدنيا إلى المراكز الثلاثة ونوعيتها الطبيعية:

وبعد الكشف عن عظمة الأماكن الثلاثة وربط الأمم الثلاث الكبار: اليهود والنصارى والمسلمين بها ينشأ هنا سؤال مهم: ما الداعي إلى تخصيص العظمة والقداسة الطبيعيتين بهذه الأماكن الثلاثة؟ وإلى بعث الأمم المشار إليها منها؟ مع أن الدنيا تشمل كثيرا من المدن الكبار والجبال الشاهقات والمناطق الخضر؛ مما يمكن أن تكون مولد ومنشأ الأمم الأخيرة.

فالإجابة تحتاج إلى ذكر حقائق تالية، تفيد اتصاف الأماكن المشار إليها بالعظمة شرعًا وعقلًا وفطرةً، وسَبَّبَ اختصاصها بالمركزية العالمية، وذلك بالارتباط الوثيق بين بركات الأماكن وخيراتها.

كما أن هذه الحقائق [التي سيأتي ذكرها بتفصيل مناسب] تكشف القناع عن وجه تعلق التاريخ الأخير للدنيا بهذه الأماكن، وتعين الثقل الصحيح للأمة الأخيرة: الأمة المسلمة من بين الأمم الثلاث الأخيرة، وشدة اتصال المسلمين بالأماكن الثلاثة، وسبب تفوق بني إسماعيل: الأمة الإسلامية على بني إسحق: اليهود والنصارى.

فالبحث التالي القائم على أساس المعقول والمنقول يشرح النظام الشرعي في هذا الصدد بما لايدع مجالا للشك، ويجعل كل الأمور الشرعية المتمثلة في فضل الأماكن الثلاثة على غيرها ومزاياها الكثيرة وسبب نشوء الأمم الثلاثة الكبيرة منها وما إليها سائغة معقولة، ولكن البحث يتوقف فهمه على حقائق تمهيدية تالية:

حقائق أولية:

إن المساعي الإنسانية تظهر في صورتين: الملك والدين أو بتعبير آخر: الأخلاق والسياسة، أو العبادة والمدنية أو الروحانية والمادية.

إن مصدر الروحانية هي النبوة التي يخرج منها الدين، ومصدر المادية هي السلطة والحكم التي تنشأ منها الملك والمدنية، وقد أوتي بنو إسرائيل كلًّا من النعمتين، وقد ذكرهما الله تعالى في القرآن الكريم في سياق النعمة.

فقال تعالى: **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ** [سورة المائدة: ٢٠]

ولما عُزل بنو إسرائيل عن منصبهم، وبُعِثَت الأُمة الإسلاميةُ لتحل محلها، أوتيتْ كلتا النعمتين من الدين والملك أو قلنا: الأخلاق والسلطة، أو المادية والروحانية.

الاصطلاح القرآني للنعمتين:

قد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم هاتين النعمتين، فعبر عنهما باصطلاح خاص، فتم التعبير عن نعمة الملك بالتمكين في الأرض الذي يعني استحكام الحكومة، وعن

نعمة الدين بالتمكين في الدين، الذي هو رسوخ في الدين، وهو المسمى بالاستقامة في القلب في اصطلاح الشرع.

وقد جاء لفظ التمكين تعبيرا عن نعمة الملك في الآية التالية:

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ [سورة الحج: ٤١].

ونزلت الآية التالية تعبيرا عن الاستخلاف في الأرض:

وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شيئا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (سورة النور: ٥٥).

وقول الله تعالى في الآية المذكورة: "**وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ**" يشير إلى التمكين في القلب.

وجاءت الآية الكريمة لتذكر الاستقامة التي هي مصطلح خاص لنعمة التمكين في الدين، فقال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (*) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (*) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (*)** [سورة حم السجدة: ٣٠-٣٢].

وقال في موضع آخر: **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (سورة هود: ١١٢).

وعلى كل فالآيات المذكورة أعلاه تدل على أن نعم الله تعالى على عباده تتلخص في النعمتين: أولاهما التمكين في الأرض وهي الحكومة الأرضية، وأخراهما التمكين في

الدين، الذي يجمع كلًّا من العظمة الروحية والاستقامة الدينية والرسوخ الإيماني في القلوب، ويجمعها لفظ الاستخلاف والاستقامة.

البشارة العظيمة للأمة المسلمة:

والقرآن الكريم هو الذي أنبأ الأمةَ المسلمةَ بهاتين النعمتين، حيث تظهر أهمية النعمتين وإعطائها الأمة المسلمة بالآية التالية:

"الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" (سورة المائدة: ٣).

وبينت الآية الكريمة كمال الدين وتمام النعمة، ويتجلى للمتدبر أن هذا إكمال لنعمتي الدين والملك، فكمال الدين إشارة واضحة لإكمال نعمة الدين، وتمام النعمة يشير إلى إكمال الملك بصفة خاصة؛ بل حمْلُ تمام النعمة على هذا أولى لما فيه من فائدة الاستئناف دون التكرار، فإن كلمة "وأتممت عليكم نعمتى" لا تفيد حصول النعمة وحسب؛ بل تفيد تمام النعمة، وتمام النعمة لايتأتى إلا إذا كانت النعمة بحيث يمكن الانتفاع بها، فإن النعمة إذا رُزقت ولم يُرزق فرصةَ الانتفاع بها بأي سبب كان، سواء كانت النعمة بيد الأعداء، أو كان المرزوقون عاجزين عن الانتفاع بها أو كانوا قادرين عليه إلا أنهم مُنعوا عنه بشكل مباشر أو منعوا بشكل غير مباشر بنشر الفساد في الأرض، ففي هذه الصور كلها يكون حصول النعمة وعدمها سواء، فكأنهم لم يُرزقوا النعمة بتاتًا فضلًا عن أن يُسمَّى بتمام النعمة؛ بل نقول في هذه الصورة: إن الأمة رُزِقت النعمة ولم تتم، حيث مُنِعَتْ عن الانتفاع بها، فهذا إعطاء النعمة دون إتمامها.

فنعمة الدين كانت أو نعمة الملك لاتتم إلا عند ماكانت بحيث يتم الانتفاع بها بشكل اختياري سليم عن الموانع والمعوقات، أو كانت الموانع ضعيفة أو بشكل يمكن إزالتها، وإنما يكون كذلك إذا كانت الأمة المخاطبة بتمام النعمة رُزِقت قدرة فائقة على

التصرف والانتفاع بها، والنعمة إذا أتيحت لجماعة دون الفرد فالقدرة على الانتفاع هي الأخرى إنما تكون جماعية تستفيد منها الجماعة كلها، ومثل هذه القدرة لاتتمثل إلا في الملك والسلطنة.

تمام النعمة ماذا يعني؟

فثبت بما قلنا أن تمام النعمة لأمة يفوق بكثير نفس النعمة؛ بل عطاء النعمة، فإن تمام النعمة لايتأتى إلا إذا كان الإنسان قادرا على الانتفاع بها، وهو الذي يسمى في اصطلاح العصر الحاضر حق الاختيار، فإن كانت أمةٌ أوتيت النعمةَ وسُلبتْ حق الاختيار؛ بل بقيت في سبيل الانتفاع بها مضطرَّة مكرهةً، قامت صراعات عنيفة بينها وبين غيرها، ولم تعد قادرةً على الاستفادة منها، مما يدل دلالةً واضحةً على أن تمام النعمة لا يتم بدون حق الاختيار، فتمام النعمة يعني بشكل واضح حصول الاختيار والتصرف في النعمة المتاحة، وهذا الاختيار عبارة عن الملك والسلطنة.

فلا بأس أن نقول: إن التعبير القرآني المتمثل في تمام النعمة يتضمن معنى الملك والسلطة، وإلا فلا معنى لتمام النعمة. والملك والسلطة هما الذان أردْتُ إثباتَهما بكلمة تمام النعمة، والكتب التفسيرية تدل على هذا المعنى، حيث قال العلامة الآلوسي صاحب روح المعاني – وهو يتحدث عن تمام النعمة – : "وإتمام النعمة على المخاطبين بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكها والنهي عن حج المشركين وطواف العريان"[1].

مما يعني نفس الملك والسلطة، الذي ظهر في فتح مكة، وبذلك بات واضحا أن تمام الدين واضح الدلالة على تمام نفس الدين، وتمام النعمة أشار بوضوح إلى الملك الديني، وهما الأساس الذي يرفع أمةً في الدنيا ويعلي شأنها.

---

(١) الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**(بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ)، ج٣، ٢٣٤.

فالآية الكريمة "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم " تضمنت معنى تمام الدين وتمام نعمة الملك بشكل واضح، فإنهما نعمتان ترفعان شان أي أمة في الدنيا.

الخطاب الخاص للأمة المسلمة:

أما أن النعمتين قد أُكرمَتْ بها الأمة المسلمة أم لا؟ أو تمَّت لها النعمة أم لا؟ فالآية الكريمة اشتملت على خطاب واضح للأمة المسلمة بقوله تعالى: "لكم" و"عليكم"، ومعناه أن تمام النعمتين العظيمتين خُصَّ بالأمة المسلمة، وأعطيت هذه الأمة الدين الكامل والملك الكامل، مما ظهر في حينه.

فالاستخلاف والاستقامة كما أوتيهما بنو إسرائيل أوتيهما المسلمون بالنص القرآني.

الفوارق بين بني إسرائيل والمسلمين:

الفرق الأول: ومع اشتراك بني إسرائيل في فضل النعمتين فالفرق بينهم وبين الأمة الإسلامية كبير؛ أما الفرق الأول فقد أوتي بنو إسرائيل تينك النعمتين بشكل محلي دون العالمي، بل اختص بهما قوم بني إسرائيل، ولو فُضِّلوا على غيرهم بسبب تقدمهم الروحي والخلقي، واعتبرتهم كل أمة أمة مفضَّلة؛ ولكنها لم تكن هذه الفضيلة عالمية بشكل رسمي ومادي.

الفرق الثاني: وكان هناك فرق ثانٍ بين الأمة المسلمة وبين بني إسرائيل فيما يتعلق بالنعمتين، حيث لم تجتمع النعمتان في ظرف واحد؛ بل كانت النعمتان منقسمتين إلى دائرتين مختلفتين، فكانت إحدى الأُسَرِ تتوارث النبوة جيلا بعد جيل، بينما كانت أسرة أخرى تتوارث الملك كذلك، فكان فيهم سلاطين وملوك جيلا بعد جيل.

أما الأمة المسلمة فقد جمع الله لها كلتا النعمتين في ظرف واحد، وبذلك وفَّق بين الملك والخلق وبين المادة والروح، فاندرج الملك في النبوة، وتمثلت النبوة في الحكومة

بحيث لم يبق بينهما تنافر وتباعد؛ بل أضحى الإسلام دينًا جامعًا، ينطوي على ملك عادل اتسقت فيه سلاسل العلم والخلق وسلاسل القوة السياسية والشوكة المادية.

وبلفظ آخر تمَّ ضم قوة الملك إلى قوة النبوة العلمية والخلقية، وأطلق عليه اصطلاحا اسم الخلافة حسب التعبير القرآني.

الفرق الثالث: وهناك فرق ثالث أيضا؛ فإن الإسلام لا يجعل الملك إرثا لقبيلة واحدة؛ بل جعلها تدور بين الأمة كلها، واعتبر أفضل القوم أصلح لها، فكان أساس اختيار الخليفة مبنيا على ما يتمتع به من علم وصلاح وبر وتقوى وأمانة وديانة وشجاعة وجراءة وعقل وحكمة وقوة وإقدام ودفاع، ليظهر في الدنيا خليفة المسلمين زعيم النظام البشري العالمي، ويكون محببًا لدى الجميع بسبب علمه وفكره ودقة نظره وقوة جسده، نعم! قد تمَّت الإشارة إلى اختيار الخليفة من جهة، هي أكثر التئاما وأزيد انسجاما مع طبيعة الدين الحنيف وأخلاق الرسول الكريم، كقريش التي ذكر لها الحديث النبوي الشريف من الخصائص ما يدل على أن قريش هم أقرب القبائل إلى المزاج النبوي وأفعل في إقامة الدين والملك.

فجاء في رواية الصحابي المستورد الفهري رضي الله عنه ما يلي:

"إن فيهم لخصالًا أربعا، إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة، وأمنعهم من ظلم الملوك"[(١)].

وليس هذا تعصبا قِبَلِيًّا؛ بل هو وئام قبلي، فإنه يشمل نوعا من العموم والتوسع، حيث إن الخليفة –من أي قبيلة كان– إذا جمع صفات الخليفة تُقْبل خلافته، فكان الفرد الأكمل والخليفة الأوحد لله عز وجل هو نبينا صلى الله عليه

---

(١) مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، (بيروت: دار إحياء التراث، د.ت.د.ط) رقم٢٨٩٨.

وسلم، الذي اختاره الله تعالى لذلك المقام الرفيع، فكان رسولنا صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى الخلق وسلطان الأرض، ومربي الخلائق وملك الدنيا وهادي الدين، وكان الخلفاء الراشدون لا سيما الشيخان: أبوبكر وعمر بعده –صلى الله عليه وسلم- كانوا مظهرا للخلافة الكبرى القائمة على منهاج النبوة، حيث أثبتوا أن هناك نظاما غير النبوة، احتوى على الخصائص النبوية من الديانة والسياسة والعبادة والشوكة، وجمع بين الروحانية والمادية، بشرط أن يكون القائمون على أمره سليمين من الأمراض النفسية والأهواء الذاتية، ومخلصين في إقامة الدين كله؛ فإنهم مهما فعلوا ذلك خضعت لهم رقاب الدنيا وسياساتها، ولم يروا حاجة إلى الاستسلام والخنوع أمام أحد في الدنيا ماأسلموا لله وجوههم وقاموا بدينهم في المظهر والمخبر، كما ظهر كل ذلك جليا في الخلافة الراشدة.

العناصر الثلاثة للدين العالمي:

وبالتقرير السابق يتأكد أن الدين الشامل يجب أن يشتمل على العناصر الثلاثة التي تقتضيها طبيعة الدين، وهي تالية:

١ - العبادة والتدين، وهما أساس كل ديانة لا سيما دين الإسلام.

٢- السياسة والنظام.

٣- العسكرية والقوة الدفاعية.

وكما يجب اجتماع العناصر الثلاثة المسرودة أعلاه في الدين العالمي يجب كذلك ملاحظة ما بينها من فرق في المراتب، وقد راعاه الإسلام مراعاة جميلة؛ حيث جعل العبادة خلاصة الدين وأصله والغرض الأصيل من حياة المسلم، وسبب خلق الجن والإنس، كما قال الله تعالى: **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [سورة الذاريات: ٥٦]** وقال أيضا: **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**[سورة البينة: ٥].

وجعل السياسة والحكومة وسيلةً للعبادة ليتم بها التغلب على دسائس الأشرار وأعمالهم الخبيثة، فتتقدم الدولة ويعم الأمان، وتفوح رائحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى: **الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**[سورة الحج: ٤١].

بينما قرر للعسكرية والقوة الدفاعية أن تكون للحفاظ على الثغور الإسلامية، فإنها تثير الرعب في قلوب الكفار والمخالفين للإسلام في الداخل والخارج، وتقيم الأمن والسلام، مما أشار إليه القرآن الكريم:

"وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ"[سورة الأنفال: ٦٠].

وبذلك اجتمعت العناصر الثلاثة بشكل جامع ملائم، وشرح العناصر أن الديانة كانت لازمة للسعادة الإنسانية، فإن المعاني الخلقية السامية لم تكن لتستقر في قلوب المسلمين، فلم يكن يصلح لأن يطلق عليه الإنسان، ثم كان الأمن لا بد منه، وذلك لترسخ في القلوب معاني العبادة وآثارها الظاهرة والباطنة، وتنتشر في الكون نفحاتها بدون رادعٍ يردع انتشارها، ومانعٍ يعرقل مسيرها، والأمن لايكاد يقوم على قدم وساق لولا أن قام الملك والحكومة والشوكة الدنيوية، فإن الدين إذا لم يكن له حارس يحفظ مصالحها يتقدم الرجال المغرضون ليكسروا من الدين جناحه، ويُعملوا فيه من التهذيب والتنقيح والتشويه ما يصادف هوى في قلوبهم، ويثير فتنة عظيمة في الدنيا، مما يؤول بالدين إلى أنه لم يعد له صورة صحيحة، تُقَدَّمُ بشكل موثوق به.

ثم لم تكن الثغور الإسلامية لتبقى محفوظة ما لم يتم إقامة قواعد عسكريةٍ قويةٍ، من شأنها حفظ الحدود ودفع الأعداء، فبدون القواعد لا شيء يمنع العدو أن يهاجموا البلاد الإسلامية ويخربوا فيها ويقضوا على مصالحها.

فالفطرة السليمة تقتضي أن الدين الشامل العالمي الذي أنشئ لفلاح الإنسانية كلها لابد أن يشتمل على العناصر الثلاثة المذكورة: العبادة والسياسة والعسكرية، التي تأخذ العبادة من بينها مركزًا أصيلًا، والسياسة وسيلة للعبادة، والعسكرية هي الحارس والمدافع للدولة الإسلامية، فالعسكرية تأتي في مرتبة ثالثة؛ إلا أنها شيء لامحيص عنه.

المراكز الثلاثة للعناصر الثلاثة:

والظاهر أن العناصر الثلاثة تتطلب أن يكون لكل واحد منها مركز خاص، يُعْنَى بشؤونه ويركز على أهدافه، ويقدم الأمر بأحسن شكل، فإن العناصر الثلاثة لو اجتمعت في مركز واحد، لم يتفرغ المركز الواحد للاهتمام بشؤون العناصر الثلاثة المختلفة بشكل سوي، فإن مقتضيات العناصر الثلاثة مختلفة كثيرا، ولا يبدو أن تجتمع في مركز واحد، وذلك لما سيأتي.

عنصر العبادة: من مميزات عنصر العبادة أنه يطلب نوعًا من السكينة والوحدة الفكرية والخلوة وقلة العلاقات، ويرفض كل نوع من الفساد والشرود والتشويش، فالعبادة لاتكاد تتحقق بوجود هذه الأشياء فضلا أن تتطور.

عنصر السياسة: ومن مميزات هذا العنصر دفع الصراعات وحل النزاعات وإقامة الحدود والتعزيرات، ومقاومة الثورات والخوض في الحروب والمعارك، وإثارة الضوضاء والأصوات، وكثرة العلاقات، فهي أمور تساعد السياسة على التطور والتحسن، وبدونها ليس للسياسة أن تلقى نجاحًا، وتحقق انتصارًا.

عنصر العسكرية: تنصبُّ اهتمامات هذا العنصر على الحركة الدائمة وإثارة الرعب والفزع في قلوب الأعداء، وإرهابهم والمراقبة الدقيقة لما يجرى في الثغور الإسلامية والاستعداد الدائم للمعارك وتشكيل قوة مخيفة للدفاع عن العباد والبلاد، فإنها هي الأخرى أمور لازمة للعسكرية، مما يجعل أمر حفظ البلاد والعباد بدونها شيئا مستحيلا.

ضرورة المراكز الثلاثة: فثبت بما قلنا أن هذه الأهداف المختلفة المظاهر، المتنوعة المميزات، لا يمكن أن تجتمع في مركز واحد، ومن ثم تهتم الحكومات الكبيرة في الدنيا بإقامة قواعد عسكرية ذات جنود وأسلحة في الأماكن البعيدة عن العواصم، فالمعقول أن تُقامَ ثلاثةُ مراكز للعناصر الثلاثة، ليكون أحد المراكز دار الأمن والعبادة وأبعد الأماكن عن النزاع والجدال، ويكون المركز الثاني سياسيا، ينظر في شؤون الدولة، ويقيم العدل بين الناس، ويركز على الدفاع عن البلاد، ويكون المركز الثالث خاصًّا بالأمور العسكرية، ولا يغفل في وقت ما عن مرابط الثغور الإسلامية والمرابطة على حدودها، كما يجب أن لا تكون هذه المراكز منفصلة تماما عما سواها، حتى تكون سببًا في تفرق الكلمة بدل وحدتها، وانتشار الصف الإسلامي مكان التئامه، ومن هنا بقيت حاجةٌ إلى أن تكون المراكز الثلاثة تحت نظامٍ اجتماعيٍّ موحدٍ، وتعمل في تأصيل الوحدة الإسلامية وتوطيد العاصمة الإسلامية، كما يجب أن تكون أماكنُها بعيدةً، لئلا يؤثر أحدها في الأخرى، ولا يزرع فسادًا في الدنيا.

وشاءت حكمة الله تعالى أن يقيم للدين الإسلامي الشامل العالمي مراكز ثلاثة عالمية تتلاءم وعظمة الدين، تختلف فيما بينها وتتصل بالإسلام بشكل سواء، واختار لكل منها مكانًا مناسبًا، فجعل مكة المكرمة مكانًا للعبادة، ومركزًا للدين، وجعل القدس الشريف مركز السياسة والشوكة الدينية، وجعل طور سيناء قاعدةً عسكريةً، لتتفرع من المراكز الثلاثة العالمية فروعٌ باسقةٌ، تتضمن كل المصالح والأغراض

والأهداف للنظام العالمي، وتكون خصيصة الأمة الأخيرة-التي لا أمة بعدها- معجونةً بهذا الطين الجامع وآثارها البارزة، وتعمل في الإبقاء على عظمتها العالمية ومكانتها العالية، وتفرض نفسها على الدنيا كلها كأمةٍ قويةٍ ذات خصائص نادرةٍ ومميزاتٍ باهرةٍ، تروي غليلها بهذا الشمول الرائع والجامعية الممتازة.

النتائج الضارة بالاكتفاء بأحد العناصر الثلاثة:

إن تقسيم النظام الإسلامي إلى العناصر الثلاثة المتميزة يحمل في طيه خيرا كثيرا، فإنه لو أُخِذَ العنصر الأول دون الآخَرين لانْقلب الدين شيئا عجيبا، لا صلة له بالمعقول والفطرة، فلو جُعلت العبادة هي الدين كله لتحولت الدنيا إلى دنيا آخرى، يسودها الرهبانية والعزلة والانقطاع عن الخلق، ولا يقوم هنا نظام اجتماعي أبدا.

ولو دار نظام الإسلام كله على قطب السياسة والشوكة الدنيوية لتمثلت الدنيا وحوشا ضارية، تتناوش فيما بينها، ويأكل قويُّها ضعيفها، وقامت سلسلة لاتنتهي من الصراعات الداخلية والنزاعات الملكية، وتتحكم فيها أغراض تافهة وأطماع مادية رخيصة، فلا يكون فيها أمن وسلام، وعدل وإنصاف، وسكينة قلبية ورأفة روحية.

ولو كانت القوة العسكرية هي المظهر الأصيل للدين، لبدأ في الدنيا نظام همجي شديد التعسف، ولم يكن في الدنيا غير الصراعات والقتل والإغارات ونهب الثروات وامتصاص الخيرات.

وعلى كل فإن العناصر الثلاثة إذا أخذناها واحدا واحدا لا تأتي إلا بضرر مستطير وخطر كبير، وتجعل من الدنيا خرابا يبابا، لا يصلح للعمران والتحضر، وإنما يصلح للفساد والتذمر، لا يقر لإنسان قرار، ولا يهدأ له بال.

عزاء الدنيا المضطربة:

إن تفرق العناصر الثلاثة وعدم انسجامها بشكل صحيح هو المسؤول عن جميع أنواع الهلاك والدمار، والفساد والخراب في الدنيا المعاصرة، حيث غلبت مادة بلا روح،

أوروح بلا مادة، أوتقشف بلا تحضر، أوتشدد بلا رأفة، فبتفرق العناصر تفرق الأمن والسكون، وقد تورَّط فيه أهل الدنيا، وهم ما بين صياح ونباح، واضطراب واضطرار، كادوا يغرقون فيه ولا يجدون سبيلا إلى الخروج، ولن يجدوا سبيلا إلى ما هم فيه من اضطراب وانتشار إلا سبيل الإسلام الشامل المعقول الذي جمع بين العناصر الثلاثة باتزان واعتدال، وأقام لكل منها مركزا خاصا في أماكن ثلاثة متفرقة، ووضع بينها ائتلافا عجيبا، بحيث لا يتم أحدها إلا بالآخر، فشاء الله تعالى أن تفرَّقت العناصر الثلاثة للشمول والجامعية في أماكن ثلاثة مختلفة؛ ولكن أخضع المجموع المتمثل في الدين الكامل للمركز الواحد العظيم، وهو مركز الخلافة، ليكون هذا الدين ذريعةً لصبغ الدنيا الجديدة بصبغة الإسلام بأسلوبٍ يتقبله العصر الجديد، ويتلاءم وطبيعة هذا العصر، ولا تستطيع الدنيا ولو ارتقت أقصى مدارج الرقي أن تخرج عن هذا الدين الشامل المتحضر، أو بتعبير آخر اختار الله هذا النظام ليستوعب الدين الإسلامي كل جزء من أجزاء المدنية الإنسانية ولو في أرقى صورها وأبهى شكلها، وسلك بها مسلك عبادة الله وحده والصدق والديانة والخلق المستقيم، وذلك لما للدين من سعة ومرونة واتزان واعتدال، حتى تكون المدنية الإنسانية سببا لإقامة الدين ونشر الشرائع الإسلامية وسعادة الدارين، لتفي المدنية بكل من مقتضيات النفس والهوى والروح والقلب، فلا يكون الإنسان وحشي المزاج بربري الخلق، ولا يكون كذلك فريسة الذل والمسكنة.

الدين الشامل والأمة الجامعة:

ويمكن أن نقول: ولما كانت أمم الدنيا كلها في آخر الدنيا لا سيما في منتهى عروجها مقيمة الأخوة العالمية أراد الله تعالى أن يقيم للدين الإسلامي الذي هو جامع للشرائع والملل والروح والمادة أمة عالمية شاملة يقوم أساسها على آثار النور الموسوي والنور العيسوي والنور المحمدي، وتخضع لها سائر الأمم، لتكون هذه الأمة أمةً واحدةً جامعةً، وتبرز الدنيا الحريصة على الأخوة الإنسانية كأسرةٍ واحدةٍ أو عائلةٍ واحدةٍ،

متأثرة بفكرة الأمة الواحدة وآثارها، لتجتمع في الدين الإسلامي معاني الشمول والاجتماع وحقوقها بشكل سوي، ويقوم بدورها في تشكيل النظام العالمي الموحد، ويشع هذا المزيج المكون من أنوار الأنبياء الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام على الدنيا كلها، فأنار جميع أصقاعها، وبذلك تم جمع المراكز الثلاثة: طور سينين المركز الموسوي والقدس الشريف المركز العيسوي ومكة المكرمة المركز المحمدي وخصائصها وإخضاعها لمركز إسلامي موحد، نعم! قد تم الإبقاء على خصيصة كل مركز، إلا أنها مربوطة بنظام الخلافة قطب النظام الإسلامي، كيلا يظهر الدين الإسلامي في صورة المادية البشعة ولا في صورة الرهبانية المتخبطة، كما قال الشاعر محمد إقبال:

إن كل نظام سياسي إذا انفرد عن الدين فهو جنكيزية [استبدادي] سواء كان جلال الملك أم موضة الجمهورية.

وقال أيضا، ولله دره من قائل: إن حياتك وعرضك رهينة بمعرفة الذات أي الخودي، إن صحَّتْ فأنت ملك وإلا لئيم حالك الوجه.

وقد حاول الإسلام أن يبنى خصائص المراكز الثلاثة على الروحانية الجامعة، دون الخصائص القبائلية أو الإقليمية، لتظهر الديانة والسياسة والقوة العسكرية في ثوب الدين على نطاق عالمي، ويكون لحمتها وسداها هي الروحانية والعبودية لله وحده، والسلامة من التفوق السياسي والمدني، الذي يجلب كل نوع من أنواع الفساد والشر في الأرض، وبوجوده لايصفو للدنيا أمن وسلام، ولا سكينة ومودة، فكما أن المراكز الثلاثة تحتاج عقلا إلى نظام جامع، يحتاج كذلك الدين الجامع إلى مراكز ثلاثة، ترفد الدين بما عندها من خصيصة.

وكل ما ذكرت سابقا هو يتعلق ببيان الحاجة إلى المراكز الثلاثة من حيث العقل والطبع، ومن المناسب أن أتناول الآن بيان الحاجة إليها من حيث التاريخ والشرع

الإسلامي، لتكون خصائصها الدينية تبدو تاريخية وشرعية بجانب كونها معقولة، وتعمل في تطييب الخاطر بعد إسعاد العقل.

الحاصل أن المراكز الثلاثة هي مراكز مقبولة لدى الله، وهي مكة المكرمة والقدس الشريف والطور المبارك، كما أشار الله إلى مركزيتها بالإقسام عليها في سورة التين.

وعلى كل فإذا اتضح لك نوعية المراكز الثلاثة من ناحية العقل والطبع، بات من الضروري أن أذكر نوعيتها الشرعية والتاريخية، وذلك في السطور القادمة.

فضائل المراكز الثلاثة تاريخيا:

قد ثبت أن الإسلام كان في حاجة إلى المراكز الثلاثة من حيث العقل والطبع، وهذه المراكز هي مكة والقدس والطور بالإشارة القرآنية.

فبقي أن نتعرف على ما للمراكز من قداسة تاريخية، وما صلة الشرع بها رفضًا وتاييدًا، وهذا يتضح بتدبر الآيات التالية.

(١)البلد الأمين:

قد أُمِرَ النبي –عليه السلام– في القرآن الكريم باتباع الملة الحنيفية:

"قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (سورة الأنعام: ١٦١).

وقد أودع الله تعالى الملة الإبراهيمية معاني العالمية والشمول من البداية، فكانت رسالة الله تعالى إلى العالم كله، ومن ثم جعل الله خليله –عليه السلام– إمامًا للناس كافة، كما جاء في القرآن الكريم: **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** (سورة البقرة: ١٢٤).

فكان إبراهيم خليل الرحمن -عليه السلام- إمام العرب والعجم والأمم والدول الشرقية والغربية كلها، فيقتدي به الناس كلهم، وينطلقوا في كل مجالات الحياة في ظل الاقتداء بهذا النبي الأمي- عليه السلام.

المقاصد الأساسية للملة الإبراهيمية:

الملة الإبراهيمية تحمل مقصدين أساسيين: أحدهما حنيفية، والثاني إسلامية، والحنيفية تعني الصراط السوي الصافي الطبيعي، والذي لا عوج فيه ولا أود، بل هو صراط مستقيم ليس فيه شيء من الإفراط والتفريط، ليسلك الناس الطريق السوي الذي يجمع ولا يفرق، ويوحد ولايشتت، ويعزهم ولا يذلهم، ويجتنبوا السبل المتعرجة الملتوية التي تتفرق بهم وتبتعد عن الصراط المستقيم، والتي تفتح بابا واسعا للتعصب والتفرقة والنزاعات، وتؤدي بالأمم إلى الهلاك والدمار.

إن الإسلام يرمي إلى إخلاص الدين كله لله عزوجل، والإنابة إليه وحده، وعبادته وابتغاء وجهه لاغير، والابتعاد عن شوائب الشرك ونواقض الإيمان، فلايكون الإنسان ذليلا إلى حد يجعله يعبد إنسانا مثله، مما كان منتشرا كبير الانتشار قبل الإسلام، كما أن الإسلام يحرص على تطهير المجتمع الإسلامي عن الرسوم والأعراف والتقاليد والبدع والمنكرات التي ما أنزل الله بها من سلطان، لا سيما الأمور الجاهلية التي كانت منتشرة قبل الإسلام، فكان من تقاليد الجاهلية التي عمت وانتشرت أن أمراء القوم وحكامهم كان لهم في أعين الناس عظمة وعز وشوكة، تماثل عظمة الرب سبحانه، فكانوا يقدمون إليهم السجدات والنذور، وكانت الطبقة السفلى من الناس مضطرين إلى الاعتراف بخالقيتهم وربوبيتهم، ولم يكونوا غير سلاح يستعمله الأمراء لتحقيق مآربهم، فكانوا قطيعة كقطاع الغنم، ووسيلة من وسائل الترفيه لدى أمرائهم.

فالخصلة الذميمة الأولى لاتنتهي إلا بالحنيفية، والثانية تزيلها الإسلامية، فكان خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام بُعث بهذين المقصدين الأساسيين إلى الدنيا، وقد اعتبر القرآن هاتين الصفتين: الحنيفية والإسلام من الصفات الجوهرية لإبراهيم عليه السلام: حيث قال: **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (سورة آل عمران: ٦٧).

فالحنيفية كلمة تقضي على الأديان المصنوعة وأنواع التعصب والتحزب، لئلا يستشري داء الشقاق والتفرق، وجاءت كلمة الإسلام لتكون حدًّا من عبادة غير الله والوثنية والعكوف على الأمراء وتقديم النذور والسجود للملوك وعبادة الأوهام والأصنام وما انتشر في الجاهلية من تفاضل عرقي وجنسي وتفاوت طبقي وقبائلي، حتى يسعد بنو آدم كلهم بعزة وسواسية في الدرجة، ولا يترسخ لديهم معاني ذل النفس والتملق المشينة.

جوهر الإسلام وروحه:

وإذا فكرنا في الصفتين المذكورتين توصلنا إلى أن روحهما التوحيد والوحدة، فالتوحيد هو روح الإسلام، والوحدة الكاملة هي حقيقة الحنيفية.

الظاهر أن كل أمة، رسخ عندها هذان العنصران، فرضت نفسها على العالم كله، وكسبت من العزة والعظمة والوقار والملك ما يجعلها تفوق أمم العالم وتسود حضارته الدنيا.

سيدنا إبراهيم خليل الله رائد تشكيل المجتمع المثالي العالمي:

فكان إبراهيم عليه السلام يريد تشكيل نظام إنساني وملك إسلامي، يجمع بين عبادة الرب وخدمة الخلق، وتتكاتف الحقوق الإلهية مع الحقوق الإنسانية بشكل سوي، فلم يصدر تفريط في واحد منهما.

ولذا لم يوصف إبراهيم خليل الله عليه السلام بملك أو أمير أو حاكم؛ بل وُصِف بإمام، والإمام هو الذي يركع بدوره أمام الرب ويجعل مؤتميه راكعين لله وحده.

إلا أن سيدنا إبراهيم عليه السلام ودعوته العالمية إلى التوحيد والوحدة لم تحظ بكونها عالمية في حياته الطيبة، فكان في ريعان شبابه عندما خلع الله لباس النبوة تعرَّض لملكٍ جبارٍ متكبرٍ واضطهاداته، وهو الملك نمرود، وعندما قام إبراهيم بتنفيذ التوحيد الخالص في العالم، وكَسَرَ الأصنام جُذاذا، وخرَّب معابد قومه لم يكن من الملك المتكبر إلا أنه ألقى إبراهيم في النار، وأراد بذلك قتل إبراهيم ونصرة آلهته المزعومة، وكان إبراهيم تحت رعاية ربه، فأمر ربه وربُّ النار بأن تكون على إبراهيم بردًا وسلامًا دون أن تكون جمرةً وعذابًا، فكأنَّ إبراهيم يتنزه في روض كثيف الأشجار، حلو الثمار، زاكي الرائحة، طيب النفحات، وأمده بأنواع من النعم التي لاتخطر له على بال؛ حتى قال بدوره: ما أوتيتُ في حياتي كلها من النعم والترف والراحة ما أوتيتُ في نار نمرود التي جعلها الله لي بردا وسلاما".

وعند ما قام نمرود بزرع العراقيل في سبيل الدعوة إلى الله، وحاول جهده في إطفاء نور الله تنحَّى إبراهيمُ قومَه، وهجر أقاربه وداره، وأخذ طريقًا إلى فلسطين، وكان عندئذ ابن السابعة والعشرين من عمره، واجتاز في طريقه عددًا من المدن بما فيها الشام والأردن والسبع ومصر ورملة وإيليا، حتى بلغ فلسطين وتوطَّنها على ما قال ابن سعد في طبقاته.

وكان أمراء فلسطين وحكامها ممن رحَّبوا به أحرَّ الترحيب، فانفجرت من إبراهيم هناك ينابيع الخير والهدى.

وكانت زوجته سارة عقيمًا لم تلد من بعد، فاقترحت على زوجها إبراهيم الزواج بهاجر، وهي جارية ملك مصر التي وهبها خادمةً لسارة، عسى أن تلد له أولادًا، فكان

بمشيئة الله تعالى أن حملت هاجر بإسماعيل، فشق ذاك على سارة، ففكرت فيما إذا ولدت هاجر كان ذالك أشق عليها وأشد، فأشارت على زوجها بإبعادها عن سارة، وأثناء ذلك كانت هاجر تخاف كثيرا؛ حيث كانت سارة ربة البيت، تديره كما تشاء، ولم تكن تملك هاجر ما كانت تملكه سارة، فخرجت عن البيت لتقيم بماء العين، إلا أن الملائكة بشَّروا بأنها ستلد شخصية ذات شأن عظيم، سيملك مُلك إخوته أجمعين، فلا تقلقي ولا تحزني، فرجعت إلى البيت، حتى وضعت إسماعيل.

وبحكم الطبع والفطرة شقَّ هذا الأمر على سارة كثيرا، فألحَّت على إبراهيم أن يُخرِجَ هاجرَ وولدها من البلد، ويُسكنهما في بلد آخر بعيد.

بينما كان إبراهيم عليه السلام غارقًا في التفكير في هذا الأمر إذ أتاه وحي من عند ربه، يوحي فيه بإسكان أهله وذريته في الحجاز، فاصطحب إبراهيم عليه السلام هاجر وإسماعيل وخرج من فلسطين إلى الحجاز امتثالًا لأمر ربه الكريم وتطييبًا لخاطر سارة وهاجر؛ حيث كانت هاجر أيضا قلقةً شديدة القلق، وأسكنها حيث خرج منه زمزم، مكانٌ غير ذي زرع، لا ماء ولا كلأ، لا إنسان ولا حيوان، وادٍ جبلي مستطيل، سلسلة جبلية، لاتصلح للحياة البشرية، وهناك أسكن أهله وذريته، ثم جاءه الوحي من ربه أن ينذر قومه بالعراق، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، فخرج من الحجاز إلى العراق تاركا أهله في ذالك الوادي الشديد المخاوف، مما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم:

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴿سورة إبراهيم: ٣٧﴾

فبعد هذا الدعاء الرقيق الصادر عن يقين كامل وقلب صادق اختار إبراهيم طريقه إلى العراق، ووصل إلى نمرود، ودعاه إلى الله سبحانه؛ بل جادله بالتي هي

أحسن، وألقى عليه الحجة الظاهرة، لكن الملكَ المتكبرَ وقومَه العُنُدَ قابلوا الدعوة بالرفض والاستنكار؛ بل أبى الملك البليد السفيه إلا أن يحاجَّ إبراهيم ويجادله في رب العالمين، فأراد أن يقاوم رب إبراهيم، وسوَّلت له نفسه أنه من المناسب أن يقضي على رب إبراهيم الذي يثق به هذه الثقة المفرطة.

فأصدر الملك البليد مرسومًا بجمع جيشٍ عرمرمٍ في مدينة بابل، وجمع الله تعالى جيشه العظيم المتمثل في الناموس والبعوض، الذي يقارب عدده عدد جنود نمرود، فكانوا لقمة الناموس، ولقُوا حتف أنوفهم بأصغر خلق الله تعالى في الدنيا، وقُطع دابر المجرمين، مما أدى بكثير من أهل المدينة إلى الالتفاف حول إبراهيم، وأسلموا، وعاد العراق تحت حكم إبراهيم عليه السلام، فأبقى إبراهيم عليه السلام المناطق المركزية العراقية لأهل العراق، وضم المناطق المجاورة لفلسطين إلى فلسطين، ثم قصد فلسطين قائلا: إن العراق أرض الملوك، وفلسطين أرض الأنبياء والصالحين، ثم بدأ الدعوة إلى الله تعالى في فلسطين.

وكان إبراهيم عليه السلام يزور أهله وولده إسماعيل بمكة بين فينة وأخرى، حتى شب إسماعيل وتأهل، وقد أُمر في زيارته الثالثة لمكة المكرمة ببناء بيت الله: الكعبة المقدسة، فبناه هو وولده إسماعيل مما ذكره في القرآن الكريم:

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (سورة البقرة: ١٢٧)

ثم سافر إلى فلسطين، واقتضت مشيئة الله تعالى أن حملت سارة بإسحق، فولد إسحاق، وغمر إبراهيمَ سرورٌ غضٌّ، واختار فلسطين موطنا له حتى أتاه أجله المحتوم، ولقي رفيقه الأعلى.

القصد من هذا الاسترسال أن دعوة خليل الله انحصرت في زمنه السعيد في المناطق العديدة بما فيها الشام والأردن ومصر وما جاورها، فلم تبلغ ديار العجم ولا كانت دعوة عالمية.

طور سينين:

وكان من أولاد إبراهيم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام، وقد رزقه الله أولادا كثيرين، وبعث كثير منهم أنبياء، اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا؛ لكنه لم يكن في بني إسرائيل نبي كموسى عليه السلام في عظمة الشان وقوة العزيمة والجرأة والتجلد، فكان هو الآخر سعى سعيا بليغا في نشر الدعوة الإبراهيمية والقضاء على ملك فرعون بل ألوهيته المزعومة، فسرى ببني إسرائيل ليلا من مصر إلى فلسطين، ليربيهم ويهذب أخلاقهم، إلا أنه ابتُلي بقومه بني إسرائيل الذين كانوا أطغى الأمم وأكثرها تمردا، فقد غرَّهم بعثُ الأنبياء فيهم وكونُهم من أولاد الأنبياء غرورًا شديدا، فكانوا لايلتفتون إلى ما يقوله الآخرون مهما كانوا عظماء، بل لا يُعنون بنصائح صادقة وأقوال مستقيمة، فكانوا يجازون النعم الجسيمة بالكفران والنكران، فلايثقون بنبيٍّ معصوم ولا بذات الله سبحانه، ولما لقي موسى من قومه كل الملال وضاق ذرعا بغِّي هؤلاء القوم وطغيانهم، استعان بالله عزوجل؛ مما ذكره القرآن مفصلا:

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ

(سورة المائدة: ٢٥).

فكان من أثر هذا الدعاء الكريم أن تاهَ القومُ في وادٍ لمدة أربعين سنة، وأثناء هذه المدة تُوُفِّيَ موسى وهارون عليهما السلام، فكانت وفاتُها صورةً للتفريق بينهما وبين القوم، إلا أن بني إسرائيل حُرِمُوْا بطغيانهم وعتوهم التربية الموسوية، ولم يكن منهم أن ينوبوا عن موسى في دعوته عليه السلام، وينشروها في العالم كله ويكونوا أمة عالمية؛ بل ظلوا فريسة التعصب القومي والغرور العلمي ولم تتعد نشاطاتهم قبائلهم المحدودة والمظاهر المعدودة، والظاهر أن أمة كهذه لا تستطيع أن تكون أمة ذات دعوة عالمية، ورسالة شاملة.

نزول التوراة وتقديس الطور:

الحاصل أن الدعوة الإبراهيمية لم تكن دعوة عالمية في زمن موسى عليه السلام، أجل! إنه استطاع بإذن الله أن ينجي بني إسرائيل من فرعون والأقباط، ويسري ببني إسرائيل من مصر إلى فلسطين، وأغرق الله تعالى في بحر قلزم فرعون و قومه، الذين كانوا يلاحقون موسى وبني إسرائيل، فطلب بنو إسرائيل إلى موسى عليه السلام أن يجعل لهم دستورا إلهيا، يرشدهم إلى أعمال العبادة ونشاطات الحياة، لنعيش حياة وفق الشريعة الربانية، ونسعد بالدنيا والآخرة.

فسأل موسى ربه أن يؤتيه ذلك الدستور الرباني، فأُمر بأن يذهب إلى الطور مع سبعين رجلا من قومه، ويُتِم ميقات ربه أربعين ليلة، ليسعد بالكلام مع ربه، ويتشرف بكتابه "التوراة"، ذلك الكتاب الذي كان نبراسا للهداية، وهدى ونور، ويقدمه إلى قومه.

فجعل موسى أخاه هارون خليفته على قومه، وذهب إلى الطور، وتشرف بالكلام مع ربه، فآتاه التوراة.

ولا يخفى على الإنسان البصير عظمة وقداسة ذلك الجبل المبارك (جبل الطور)، الذي دوَّى فيه صوت كلام الله جل شأنه، وأتم فيه الرسول الجليل موسى عليه السلام ميقات ربه أربعين ليلة، وآتاه الله في جانب من جوانبه دستورا ربانيا عظيما متمثلا في التوراة، ومن هنا وصفه العلماء بأن طور من جبال الجنة، ورجع قوم موسى عليه السلام إلى ذلك الجبل بشكل طبيعي، فعاد جبل الطور مركزا هاما لقوم عظيم، كما عاد مزارًا تاريخيًا للأقوام الصالحين بعدهم.

فكان من المحتمل أن يكون هذا الموضع المبارك مركزًا للدعوة الإبراهيمية، إلا أن ماعُجنت به طينة قوم يهود من ضيق النظر والسلوك الشاذ القائم على التعصب والعداء والمكر والخداع حال دون كونه مركزًا تاريخياً عظيمًا لدعوة إبراهيم خليل الله

عليه السلام؛ ولكن لاريب في أن الطور ظل مركزًا دينيًا عظيمًا، وعاد أن يوصف بالمقام المقدس، الذي تعلق به قوم عظيم كاليهود تعلقًا عاطفيًا.

القدس الشريف:

ثم أُرسل إلى بني إسرائيل رسول عظيم، هو من أولي العزم من الرسل، وهو سيدنا عيسى بن مريم عليهما السلام، ولُقب بـ "روح الله" و "كلمته"، فكان عيسى عليه السلام يهدف أصالةً إلى نشر الدعوة الإبراهيمية، وتوسيع نطاقها، إلا أنه تعرَّض لقومٍ طغاةٍ جبارين، وهم اليهود، الذين قد قتلوا كثيرًا من الأنبياء والرسل، وكذَّبوا كثيرًا منهم، واتهموا كثيرًا منهم بتُهمٍ كاذبةٍ، ولم يألوا جهدًا في إيذاء كثيرٍ منهم، فلم يسع لهم أن يؤمنوا بالمسيح عيسى بن مريم، وكيف يكون ذلك؟ وهم الذين لم يتبعوا موسى عليه السلام ولم يطيعوه ولم يوقروه؛ بل عارضوه وكذبوه، واتهموه بما هو منه براء، فكذبوا المسيح عليه السلام، بل اتهموه وأمه، ووصفوه بولد الغية (معاذ الله)، ولم يؤمنوا به مع ما شاهدوه من آيات بينات ومعجزات باهرات.

ولما شعر المسيح عليه السلام بأن هؤلاء القوم ليس من طبيعتهم تصديقُ الحق والصدق، بل التكذيب والخيانة والمكر والفساد هي ديدنهم فلعن الذين كفروا منهم، واعتزلهم، كما قال الله تعالى: **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (*) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** (سورة المائدة:٧٨-٧٩)

وكان المسيح عليه السلام ينصح لليهود الطغاة الجاحدين بشكلٍ لطيفٍ، ثم يعتزلهم إذا أبوا، ويقول: لن تطيعوني حتى يأتي من بعدي رسولٌ اسمه أحمد، وهو يعلمكم ويصدِّق ما أقول، ويوحي إليه ربه كلامه، فانتظروه؛ ولكن القوم لم يلقوا إلى كلامه بالا، بل أرادوا صلب المسيح على أعواد المشانق، وقد فعلوه على زعمهم، ولكن

الله سبحانه حفظه من مكر اليهود وخبث أعمالهم، فرفعه الله إلى السماء حيا، ولما رأي المسيح عليه السلام جحود اليهود ومكابرتهم توجَّه إلى حوارييِّه قائلا: مَنْ أنصاري إلى الله، فأقبلوا قائلين: نحن أنصار الله، على عكس ما قال اليهود: نحن أبناء الله.

فالحاصل أن هذه الدعوة الإبراهيمية الشاملة التي تتمثل في الدعوة المسيحية أحاطت بها موانع ومتاريس، حالت دون أن تتقدم وتشمل العالم كله، فإنها إذا لم يتم لها أن تنتشر في جميع أطياف بني إسرائيل، فكيف لها أن تنتشر في غيرها من طوائف النوع البشري، فالدعوة الإبراهيمية الحنيفية العالمية لم يتيسر لها أن تكون عالمية في عهد المسيح عليه السلام، فلم يتم –بتعبير آخر– إكمال الملة الإبراهيمية، وتوقف هذا الأمر العظيم على بعثة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

الكعبة المقدسة:

وكان من حكمة الله تعالى أن الدعوة الإبراهيمية وإن لم تعم الدنيا كلها في عهد إبراهيم عليه السلام من حيث العرف والتبليغ؛ إلا أنه أقام بيد إبراهيم بأمر تكويني مظهرا عظيما، يتكفل بتصيير الدعوة عالمية، حيث بنَى إبراهيم بأمر ربه مركزا عظيما للرشد والهداية، هو مركز نشر الدعوة الإبراهيمية العالمية ومركز التوحيد والإيمان في الدنيا كلها، وهو الكعبة المقدسة التي بناها إبراهيم عليه السلام وأقام بها قاعدةً إسلاميةً للدعوة العالمية.

المسجد الأقصى:

وقام إبراهيم عليه السلام بإقامة مركزٍ آخرَ في أرض فلسطين المباركة؛ حيث أسس المسجد الأقصى ليظل بنو إسرائيل على ارتباطٍ وثيقٍ بالملة الإبراهيمية، وأنهم إن كانوا عجزوا عن خدمة الدعوة الإبراهيمية وتطويرها فلا أقل من أن يثبتوا عليها بفضل هذا المركز الديني الكبير، ومن ثم تولَّى أولادُ إبراهيم (وهم بنو إسرائيل الساكنون في الأرض المقدسة) خدمةَ المسجد الأقصى وسدانته.

والحق أن الآمال التي علقها خليل الله إبراهيم عليه السلام بالحجاز أو ببني إسماعيل عن طريق الكعبة المقدسة فيما يتعلق بنشر الدعوة الإبراهيمة أو الملة الإبراهيمية في العالم كله كانت فوق آماله ببني إسرائيل أو أرض فلسطين، فكان يرى الكعبة المقدسة مركزا حقيقيا للرشد والهداية دون المسجد الأقصى.

وإذا ذهبنا نفكر في أسبابه فهناك أسباب ظاهرة وباطنة تؤيد رأيه واتجاهه، أما الأسباب الظاهرة فمعلوم أن أرض فلسطين غنية بالخصب والنمو، والحدائق والبساتين، والأزهار و الأثمار، والأنهار والينابيع، والعيون العذبة، حيث تتوفر كل التسهيلات الحضارية ووسائل رغد العيش وهناءة الحياة.

السب الرئيس للنزاع بين الأقوام والشعوب:

ويشهد التاريخ والتجارب الإنسانية بأن هذه الأشياء (كثرة وسائل النعمة والعيش الرغيد) سبب قوي للخصام والمنازعة بين الأقوام والشعوب، وهي التي حالت دون الارتباط بين الأمم المتحضرة، فالأمم المتحضرة لا تتحمل أن ترى أمة تتطور وتتحضر، وتتحلى بوسائل وتسهيلات تجعلها تعادل أمة راقية متحضرة، ومن هنا تنشأ عاطفة الكراهية ثم عاطفة الشقاق والبغضاء وبالتالي عاطفة النزاع والخصام، مما جعل الأمم المتحضرة في كل زمان ومكان تتنافر وتتناحر، بغية القضاء على الخصوم، لتنفرد بالمدنية والتحضر، والرقي والتطور، وتاريخ الحياة البشرية والأمم الراقية شاهد عليه.

ولا يخفى أن الموضع الذي يحمل كل هذه الأسباب للنزاع والتنافر يُستبعد أن تنشأ هناك وحدة عالمية، فلا تقدر أمة متحضرة هناك على قيادة الوحدة العالمية وتبليغها إلى الأمم المتحضرة الأخرى.

ومن الأسباب الباطنة أن الأمة التي تتوفر فيها أسباب العيش ووسائل الحياة ارتبط أمرها بالأسباب كثيرا، وزادت ثقتها بالأسباب والآلات، فلا ترجع إلى مسبب

الأسباب، وإن رجعت كان رجوعها قليلا وضئيلا، وبوجه يفقد العزيمة والإخلاص، فضعفت في نفوسها روح التوحيد والإخلاص ، فضلا عن أن تتعدى هذه الروح إلى الأمم الأخرى.

وعليه فإن عقد آمال الوحدة العالمية الكبرى أو التوحيد العالمي بالأمم المتحضرة الغارقة في وسائل العيش وسبل الحياة لا يأتي إلا بنتائج مؤسفة للغاية.

وكان بنو إسرائيل واليهود الساكنون في أرض فلسطين كانوا كذلك على إفراط في نعمة الحياة وأسباب التنعم، فكانوا يزدرون بالأمم الأخرى لما عندهم من تعصب قومي وزيادة في أسباب التحضر والرقي، فكانوا يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباءه، فكيف يقيمون للأمم الأخرى وزنًا وقيمةً، ويمدون إليها يد الإخاء والمودة والتعاون والتناصر، ويدعونها إلى التوحيد والإيمان؟

ملاءمة أرض الحجاز لإكمال الأهداف الإبراهيمية:

وعلى العكس من ذلك كانت أرض الحجاز تفقد كل هذه التسهيلات والمعاني الحضرية، فلا ماء ولا كلأ، ولا حديقة ولا بستان، ولا حقل ولا مزرعة، ولا زهرة ولا ثمرة، ولانهر، ولا عين، ولا صناعة ولا مهنة، ولا نظام ولا إدارة، فكانت السذاجة والجهد والقناعة شعارهم، وكانوا أبعد الناس عن التصنع والتكلف، وكانوا بحيث لو تم توجيه قلوبهم إلى الطريق الأمثل بشكل صحيح لم يكن هناك من سببٍ داخليٍ وخارجي يحول دون عزائمهم القوية، ويمنعهم عن الاقتراب من الأمم الأخرى.

فكانوا هم الذين يُتوقع منهم أن يقوموا بعبء الدعوة الإبراهيمية أو الوحدة العالمية والإيمان العالمي ونشرها بين أقوام العالم، إذا تم تربيتهم بشكل صحيح وإلقاء المسؤولية عليهم، فتعلق بهم الأمل المتمثل في أنهم لو جُعِلوا مسؤولين عن الملة الحنيفية الإسلامية لكانوا أهلا لها وقاموا بنشرها في العالم كله.

ولهذا وغيره من الأسباب كان أمل إبراهيم عليه السلام في بني إسماعيل وأرض الحجاز فيما يتعلق بإكمال كلا المقصدين أعظم من أمله في بني إسرائيل وأرض فلسطين؛ حيث تضمنت دعوته لدى بناء البيت أولًا بعثةَ رسول منهم، وثانيا بعثةَ أمة مسلمة، كما قال الله تعالى: **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (*) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (سورة البقرة: ١٢٨-١٢٩).

فكان إبراهيم خليل الله دعا ربه أن يبعث في بني إسماعيل رسولًا عظيما منهم، ويؤتيه كتابًا يتلو عليهم آياته، ويبعث أمةً مسلمةً تحظى بشريعةٍ عظيمةٍ، تحمل أحكام المناسك والعبادات وما إليها، ويوفقها للقيام بأداء حقوق المركز العالمي: الكعبة المقدسة، حتى يتوجه الناس إليه من كل مكان، ويرجعوا برسالة الوحدة العالمية، فكانت دعوة إبراهيم متجهةً إلى تكوين الوحدة العالمية أو التوحيد العالمي وربطها بهذا المركز الرباني العظيم، الذي لُقِّبَ بـ "هدًى للعالمين".

والواضح أنه لم يُبْعَثْ من ذرية إسماعيل نبيٌّ عظيمٌ غير سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والقبلة التي جعلها الله تعالى قبلةً عالميةً ببركة الدعاء الإبراهيمي لم تكن إلا الكعبة المقدسة، والأمة المسلمة هي الأمة الوحيدة التي بعثها الله تعالى من هذا المركز العالمي، والقانون العالمي الذي أنزل للأمة المسلمة تحت ظلال الكعبة ليس إلا القرآن الكريم، والأمة التي تعلق بها دعاء إبراهيم عليه السلام هي من ذرية إسماعيل لاغير، والبلاد التي اختيرت لتكون مركزا للدين والدعوة هي بلاد الحجاز لا غير.

ولهذه الأسباب تعلقت بهذا المركز العالمي المسمى بـ"الكعبة المقدسة" كل هذه الأهداف السنية، فكانت مركزًا حسيًا واجتماعيًا للمقاصد السامية، كما دعا لمركزيتها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تحت جدران الكعبة، وأَذَّنَ في الناس ليحضروا للحج

ويشهدوا منافع لهم، ويؤدوا فريضة الحج بشكل اجتماعي. كما قال الله تعالى: **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (*) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (*) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (*) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ** (سورة الحج: ٢٧-٣٠)

النواة الأولى للوحدة العالمية:

فبعد بناء البيت الحرام مباشرة أُمِر إبراهيم عليه السلام بأن ينادي في الناس للحج نداء عالميا (وكان على إبراهيم النداء، وعلى الله البلاغ)، مفاده: يأيها الناس! قد تم بناء بيت الله تعالى، فاحضُروه رجالا وركبانا، لأداء العبادة الاجتماعية المتمثلة في الحج، تنشأ فيكم عواطف التوحيد العالمي والوحدة العالمية وخصائص الملة الحنيفية والمركزية الدولية، فكان هذا النداء نداء مجلجلا مدويا في الآفاق، قرع كل الأسماع و نفذ إلى جميع القلوب، حتى إلى أسماع وقلوب الأجنة في بطون الأمهات، بل حتى إلى من كانوا منحدرين في أصلاب الآباء، ولم يأخذوا مكانا من بعد في أرحام الأمهات.

فكأن هذا النداء الإبراهيمي طبَّق الشرق والغرب، وبلغ الشاهد والغائب من بني آدم، ولايخفى أن النداء تمَّ إعلانه تحت جدران الكعبة المقدسة دون المسجد الأقصى، فبذلك ظهر أن الله تعالى قد اختار البيت العتيق للمركز العالمي، وقرَّر له في الأزل أنه سيكون مركزا عالميا ومنه تظهر دعوة عالمية ورسالة محمدية شاملة.

ومن أجل ذلك قد ظهرت الكعبة المقدسة كمركز عالمي، وهوت إليه الأفئدة والقلوب، وعلى كل فإن هذه الدعوة العالمية وإن لم تحظ بعالمية في عهد خليل الميمون

من حيث العرف والتبليغ فقد قام الخليل عليه السلام بما ضمن للدعوة بشكل تكويني وغيبي أن تكون عالمية، حيث عرفها العالم دفعة واحدة، كما كان شأن الملة الحنيفية، فقد أُلْقِيَتْ بذرةٌ أولى للوحدة العالمية والتوحيد العالمي من خلال هذه الدعوة العالمية والمركز العالمي في جميع القلوب البشرية.

فكان إبراهيم خليل الله إماما للناس، والناس كلهم مقتدون به، والمسجد الذي ظهرت فيه إمامة خليل الله هو الكعبة المقدسة، مما دل بكل جلاء ووضوح على كون الكعبة مركزا عالميا بمشيئة الله تعالى ورغبة إبراهيم عليه السلام، وعلى ارتباط مقاصد الأمة المسلمة الاجتماعية وآفاقها العالمية الشاملة بهذا المركز المقدس الكبير، وبذلك تتضح الأهمية التاريخية للكعبة المقدسة، حيث يُظهر التاريخ للكعبة المقدسة من القداسة والعظمة ما أعلنه الشرع السلامي الحنيف، فالتاريخ يصدق ما يقوله الشرع، و لا يجانبه.

الظهور العالمي لخاتم النبيين والمرسلين:

بعد تصيير الكعبة مركزا حسيا للملة الإبراهيمية قامت هناك حاجة ملحة إلى شخصية مركزية مكتملة الأبعاد العلمية والعملية والخُلُقية، ترتبط بالمركز الحسي: بيت الله العتيق، ولابد أن تكون من ذرية إبراهيم عليه السلام الذي بنى البيت، ورفع قواعده؛ بل من ذرية إسماعيل الذي شارك أباه في البناء.

فنيطت هذه المقاصد العالمية كلها بشخصية سيدنا ونبينا محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، ومن ثم أودع الله تعالى فطرة نبينا صلى الله عليه وسلم الأخلاق العالمية ومؤهلات القيادة العالمية، وأرسله خاتم النبيين ورحمة للعالمين، فنبينا هو رحمة للعالمين ونذير للعالمين وسراج منير، ومبعوث إلى الأحمر والأسود؛ بل ظهرت لدى ولادة النبي إرهاصات غيبية قوية، بيَّنَتْ عالميةَ دينه ودعوته، وشهدت بماله من شأن عالمي وذكر رفيع.

الإرهاصات العالمية لدى ولادة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام:

١- فقد ورد في حلية الأولياء عن شفاء أم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنها قالت: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما وُلد من بطن آمنة وأخدتُه بيدي رأيت نورًا أضاء ما بين المشرق والمغرب. وفيه دلالة على بلوغ دينه ودعوته إلى الشرق والغرب، وكونها عالمية.

٢- وروى عثمان بن أبي العاص عن أمه فاطمة بنت عبد الله الثقفية أنه لما ولد النبي رأيت نورا أحاط بالكعبة، واقتربت نجوم السماء حتى ظننتها ستسقط، مما يدل على أن نور المركز الديني الكعبة المقدسة سيشمل الدنيا كلها؛ بل سيبلغ إلى السماء.

٣- وحسب ما جاء في حلية الأولياء أنه لدى ولادة النبي حدثت زلزلة في إيوان كسرى، وسقطت أربع عشرة أشرفة، وجفت بحيرة طبرية دفعة، وخمدت نار فارس، التي ظلت مشتعلة منذ ألف سنة، لم تخمد ولم تخب في يوم من الأيام، وكل هذه الأمور أشارت إلى قرب زوال سلطنة الروم والفرس، وشمول الدين المحمدي وعالميته.

٤- وروي عن عائشة رضي الله عنها أن يهوديا دخل مكة الليلة التي ولد فيها الرسول عليه السلام، وسأل قريشا بكل قلق واضطراب قائلا: يا معشر قريش! هل ولد فيكم ولد الليلة؟ قالوا: لا ندري، فقال: انظروا وتبينوا، فكانت البارحة ليلة ولادة نبي جديد، بين كتفيه خاتم النبوة، فتبين للناس أنه ولد لعبد الله ولد، فجاء اليهودي آمنة أم الرسول، وطلب الولد، فقدموه إليه، ولما رأى اليهودي خاتم النبوة اضطرب حتى سقط مغشيا عليه، وقال: اليوم ذهبت النبوة من بني إسرائيل، واسمعوا يا قريش! سيكون له ظهور وبروز، ويعم خبره في العالم كله.

والظاهر أن هذه الروايات شهادات عادلة بانقضاء عهد بني إسرائيل وكتبهم السماوية؛ بل زوال الأديان السابقة كلها، وعلامات أولية لنشأة الدين العالمي وتطوره الباهر.

وعلى كل فأفادت الروايات المذكورة أعلاه أن نشر الدعوة الإبراهيمة العالمية كان يحتاج إلى مركز حسي (بيت الله)، كما كان في حاجة شديدة إلى المركز المعنوي المتمثل في الرسول المبعوث بالنبوة العالمية والسيرة العالمية، ليُتِم من أعمال الدين والدعوة ما لم يتم في عهد الخليل والكليم والروح الأمين، وتظهر الملة المحمدية على الملل كلها.

ولأجل ذلك قد ظهرت بشارات وإرهاصات، شهدت بعالمية المركز الديني الكعبة المقدسة، وآفاقية الملة المسلمة، التي كان من واجباتها إكمال أعباء النبوة؛ وقد بدأ ظهور عالمية الدين والدعوة بشكل واضح في العهد الصديقي والفاروقي والعثماني، وبلغت القوة العسكرية وشوكة الدولة الإسلامية إلى كل من الروم والشام والعراق والخراسان وإيران وتواران وما إليها.

وجاء في الحديث ما دل على أن ملك هذا الدين سيبلغ في العصور المتأخرة إلى المشرق والمغرب، ففي مسند أحمد عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله أو إن ربي زوى لي الأرض مشارقها، ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، ولا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم حتى يكون بعضهم يسبي بعضا، وبعضهم يهلك بعضا، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها، أو قال: من بأقطارها، ألا وإني أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان"[1].

---

(١) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م) رقم الحديث: ٢٢٤٥٢.

فهذه السطور أوضحت الأهمية التاريخية للأماكن الثلاثة المقدسة، وما تحمله من روح القداسة والحيوية ومعاني المجد والعلاء، كما تبين أن الله تعالى اختارها منذ الأزل لتكون مراكز دينية مقدسة في مراحل التاريخ المختلفة.

تغير الأحوال أو انهيار بعد ازدهار:

وبالنظر إلى ما آل إليه أمر الأمة منذ قرون من تدهور وانحطاط لايستبعد القول بأن الأمة الإسلامية من حيث المجموع - إلا من رحم ربك- قد حادت عن جادة السلف الصالح في القرون المتأخرة، ونسيت مركزها الحقيقي وما تحمله من رسالة ودعوة، وقعدت عن تحقيق أعبائها الجسيمة ومسؤولياتها الدينية، بل انشغلت بالمال والجاه والشهرة، حتى تبوأت أحط مكانة وأدنى منزلة من بين أمم العالم، فصارت في ذيل القافلة، بعد أن كانت تملك زمام القيادة، يا سلام!

ولا أعجب من أن معظم أفراد الأمة لا يعرفون بشأن القبلة أكثر من أنها قبلة الصلاة والحج، يتوجهون إليها في الصلاة، ويشهدونها لأداء مناسك الحج.

فكأن الكعبة لا تحمل من الأهمية والمكانة في قلوب المسلمين سوى أنها شيء يخيل إلى أذهان المسلمين وقت الصلاة، وأنها شيء يزوره الحجيج في أداء المناسك، ويتبرك بلمسها واستلامها والطواف حولها، ولا غير.

ولكني أرى أن هذا التصور الاعتقادي الذي ينشأ في العبادات قد تسرب إليه عدد من الأخطاء الأخرى، والأمة من حيث المجموع فقدت -بشكل اختياري أو اضطراري- الشعور بمكانتها العظيمة التي تليق بالكعبة المقدسة، فإن الحج لا يمارسه المسلمون إلا مرة واحدة في العمر، فإنه فريضة الحياة، بشرط أن يستطيعوا إليه سبيلا، والاستطاعة تعني إمكانية الوصول إليه، ولا تتحقق بدون الزاد والراحلة كما قال الفقهاء، أي يملك الرجل من الزاد والطعام ما يكفيه كل مدة الحج ويكفي من يعوله

من أهل البيت، ويملك كذلك الراحلة أو نفقة السفر إلى مكة، كما يجب أن يكون الطريق مأمونا، فإنه إن لم يكن مأمونا لا يجب الحج، والظاهر أن الاستطاعة لا توجد إلا في عدد قليل من أفراد الأمة، فمعظم أفراد الأمة يعانون الفقر وقلة ذات اليد، وهم مع شوقهم المفرط ورغبتهم الزائدة في زيارة الحج والأماكن المقدسة محرومون من زيارة الكعبة المقدسة.

ثم الأغنياء الذين فُرِض عليهم الحج لايقوم بأداء هذه الفريضة إلا قليل منهم، أما الذين يسعدون بأداء هذه الفريضة فقليل منهم من يدركون أهمية القبلة عالميا، ومدى تأثيرها في تشكيل النظام الإسلامي، وأما الذين أدركوا شيئا منها فهم أيضا لا يتجاوزون الإدراك الظاهري، لا سيما في هذه الأيام، التي ضعفت فيها الشؤون الدينية والاجتماعية للأمة على نطاق عالمي، فالأمة كلها عامتها وخاصتها لا تعرف عن القبلة إلا أنها اتجاه للصلاة، وذكرى طيبة لإبراهيم عليه السلام، يجب على المسلمين أن يتوجهوا إليها في صلاتهم، ويؤدوا فريضة الحج مرة واحدة في العمر إن استطاعوا.

السبب الرئيس لاختلاف الأمة:

وطبعًا ينشأ هنا سؤال: وهو أن الكعبة هل تحمل أهميةً فوق كونها اتجاه الصلاة؟ ما هي الكعبة؟ وما حقيقتها؟ هل إنها بناء ظاهري، مشيَّد بالحجارة السوداء، قائم بلباسه الأسود في وسط مكة المكرمة، بناه إبراهيم عليه السلام، وبقاؤه يجدِّد ذكراه، ويتوجه إليه المسلمون ليصححوا عبادتهم ويتبركون بها أم تحمل روحًا أخرى عالميةً شاملةً، ترتبط بها مقاصد الإسلام الاجتماعية كالصلاة والحج؟ إن كانت لها روحٌ جديدةٌ عالميةٌ فما حقيقة هذه الروح؟ وما يجب على المسلمين تجاهها من حقوق؟ ثم هذه الحقوق هي حقوقٌ وطنيةٌ تجب على الحجازيين فحسب أم حقوقٌ عالميةٌ تتصل بالأمة كلها، ولا يستقيم أمرها إلا من خلال هذا المركز المقدس العالمي؟

ثم ما هي الخصائص المركزية للكعبة التي تميزها عن المراكز الأخرى، وما هي المراكز الثانوية التي نشأت من هذا المركز العالمي؟ وما الفوائد المرتبطة بها؟

هذه أسئلة، لا تعرف الأمةُ الإجابة عنها، ولا تطلب معرفتها، مع أن الإسلام ومقاصده الاجتماعية وبقاءها وتطورها ظلت وثيقة الصلة بهذا البيت الكريم، وقد بلغ جهلُ الأمة بها منتهاه، حتى صحَّ القول بأن الكعبة ومعنويتها العظيمة قد غابت عن خاطر الأمة وعقلها، وبصيرة الأمة وبصارتها، فلم يعُدْ معروفًا ما لها من نوعية مركزية وصلاحيتها لإنشاء المراكز الدينية، فلا تظهر من هذا المركز العالمي المقاصد الإسلامية الاجتماعية التي من شأنها بث الروح المعنوية في قلوب الأمة، وبث الرعب والذعر في قلوب الأعداء، مما سبَّب تفرق الأمة شيعًا وأحزابًا، وشرودها الفكري وانحطاطها الديني والسياسي والاجتماعي؛ فنشأ في قلبي الشعور بالحاجة الملحة إلى وضع كتابٍ يوضح مكانة هذا المركز العالمي وأهميته الاجتماعية، ويسلط الضوء على ما يتحلى به من صورةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، وما يرمي إليه من هدف، وما تنشأ منه من مراكز، وما يقتضيه من حقوق، وما تمتاز به الأمة العربية من خصائص باهرة، كما يذكر الأمة المسلمة من جديد بالمقاصد الاجتماعية المرتبطة بالكعبة، ويستحضرها في أذهان الأمة، حتى يساعد في كسر الجمود الذهني والفكري وما ينبثق منه من اختلاف وانتشار، مما تكتوي بناره الأمة، وتضطرب في أمرها، ولاتستطيع أن تسلك الهدي المستقيم، مع كونه واضحًا جليًا، ماثلًا للعيان.

الخريطة الشرعية لتقديس الأماكن الثلاثة:

وفي المرحلة الثانية أذكر الوجود الشرعي للأماكن الثلاثة، في ضوء الوثائق التاريخية، التي تبين أن الشريعة لم تعطها هذه العظمة والقداسة جزافا، بل تحمل هذه الأماكن تاريخا مشرقا من العظمة والقداسة، وهي كما يلي:

مكة المكرمة:

فأبدأ بالمدينة الإسلامية العظيمة: مكة المكرمة، التي اختارها الله تعالى لتكون قبلة للعالمين، وسماها البلد الأمين، وكفى بها شرفا وقداسة.

ثم أقسم الله تعالى بها في القرآن الكريم، في سورة التين، وقال: وهذا البلد الأمين، ووصفها ببيته قائلا: وطهرا بيتي، ووصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أحب البلاد إلى الله ورسوله، ودعا اللهَ تعالى أن يودع حب مكة في قلوب الناس، كما ورد في رواية عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال: لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة وقت الهجرة، نظر إلى مكة وقال متحسرا: قد علمت أن أحب البلاد إلى الله مكة، فلولا أن قومي أخرجوني ما خرجت، اللهم اجعل في قلوبنا من حب مكة"[1].

وأجاب الله هذا الدعاء، حيث جعلها مثابة للناس وأمنا، مما يدل على ربط أفئدة الناس بمكة وشوَّقهم إليها بكل رغبة ومحبة، وشعبية وقبول لمكة في قلوب الناس، ولا يتأتى ذلك إلا بما له من قداسة في الشرع الإسلامي.

وفي رواية عبد الرحمن بن الحارث وُصفت مكة بأنها خير الأرض، وبذلك تبرز قداستها القرآنية بشكل أوضح:

"والله إنك خير أرض الله"[2].

وفي رواية حسن بن سفيان تم وصفها بأنها أرض المغفرة، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من دخل مكة وتواضع لله وآثر رضاه على جميع أموره لم يخرج منها حتى يغفر الله له"[3].

---

(١) المتقي الهندي، **كنز العمال**، رقم الحديث ٣٤٧٠٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وجاء في رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن ثواب العبادات في مكة يضاعف أضعافا مضاعفا، وأن مكة دار المغفرة والشفاعة ودار استجابة للدعوات، وكل ذلك دليل على قداستها الشرعية:

من أدرك شهر رمضان بمكة من أوله إلى آخره صيامه وقيامة كتب له مائة ألف رمضان في غيرها، وكان بكل يوم مغفرة وشفاعة، وبكل ليلة مغفرة وشفاعة، وبكل يوم حملان فرس في سبيل الله، وله بكل يوم دعوة مستجابة"[1].

وجاء في رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ما مفاده أن مكة وسيلة عظيمة للعروج الروحاني، والقداسة الشرعية لاتعني إلا ذاك، ففي الحديث: "من مات بمكة فكأنما مات في السماء الدنيا"[2].

والمعنى أن روحه بعد الموت سيرتفع دفعة إلى السماء، ويبقي من الوقت ما يحتاج إليه الروح في الوصول إلى السماء الدنيا.

وجاء في الحديث الآخر ما يفيد أن الموت بمكة يجعل صاحبه آمنا يوم الحشر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مات بمكة بعثه الله في الآمنين يوم القيامة[3].

وروي في تفسير فتح العزيز عن الحسن البصري أن صومًا واحدًا في مكة يعدل مائة ألف صوم في غيرها، المعنى أن الصوم الواحد بمكة يهذب النفس ويزكيها تزكية لا تتحقق إلا بمائة ألف صوم، وهي شهادة عظيمة بقدسية مكة المعظمة، وقد أكد الله تعالى على قدسية هذا البلد عند ما أقسم بها في قوله تعالى: لا أقسم بهذا البلد، وفي قوله تعالى: وهذا البلد الأمين؛ بل أقام حجة مستقلة وبابا عظيما لعظمتها وقداستها وطهرها ونقائها.

---

(١) **كنز العمال**، رقم الحديث٣٤٧٠٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) **التفسير العزيزي**.

قدسية مكة في ضوء نصوص الكتاب والسنة:

فنصوص الكتاب والسنة صريحة في بيان عظمة مكة المكرمة، مما يفيد أن مكة:

- أحب البلاد إلى الله.
- خير أرض الله
- حرم الله تعالى
- أرض الأمن والسلام.
- بلد أمين.
- أرض المغفرة.
- محبوب الخلائق، حيث يسرع الناس إليها منذ عهد آدم إلى يومنا مدفوعين بعاطفة الإيمان والشوق والطلب، ويقومون فيها بأداء المناسك والعبادات.
- مركز العبادات.
- ظرف القبلة العالمية.
- أرض إخلاص الخليل ومركز توحيده.
- مولد سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومنشؤه ومبعثه.
- مهبط الوحي الإلهي الأخير، الذي هو أساس الدين الإلهي الكامل
- أرض يضاعف فيها الأجر إلى ضعف مائة ألف.
- بلد أقسم به الله تعالى.
- أرض من مات فيها سيبقى آمنا يوم القيامة.وما إليها مما يجعل قداستها أوضح من الشمس في رابعة النهار.

القدس الشريف:

وكذلك مدينة القدس المعروفة ببيت المقدس تحمل كثيرًا من معاني القداسة والعظمة، التي وردت بها الأحاديث النبوية، ومنها أن الموت بالقدس يحمل من الفضائل

والبشائر ما يقارب الموت بمكة، وقد وردت في ذلك أحاديث بألفاظٍ مختلفةٍ؛ حيث رُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **مَنْ مَاتَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَكَأَنَّمَا مَاتَ فِي السَّمَاءِ**[1].

وجاء في بعض الروايات أن سكان مدينة إيلياء (وفيها القدس) يأمنون الفتن الدينية بشكلٍ أكثر من غيرهم، وهذا يعني أن الإلحاد والكفر لايجدان سبيلًا إلى مدينة القدس، وأن نور الإيمان وحرارة الغيرة الدينية مازالت تشتعل في قلوب سكانها، وفيه دلالة عظيمة على بركتها وقداستها وعظمة أهاليها، ومن ثم وصفها الله تعالى بالأرض المقدسة مؤكدا على قدسيتها وبركتها، ولم يدع للمنكرين سبيلا، فقد قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: **يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ** (سورة المائدة:٢١).

مما يشكل دليلًا ناصعًا على قداسة هذه الأرض المقدسة بنص قرآني قطعي الدلالة.

طور سينين:

وطور سيناء من الأماكن المباركة التي لها عظمةٌ ثابتةٌ ومزيةٌ دينيةٌ كبيرةٌ، فهو – حسب بعض الروايات الضعيفة– جبلُ الجنة، أما ضعف الرواية فهو أولاً أمرٌ محتمَلٌ في باب الفضائل.

وثانيًا: إن الروايات الضعيفة لاتقل درجةً من الروايات التاريخيةِ الموثوق بها.

وثالثًا: إن الروايات الضعيفة تتقوى عندما يؤيدها النصُّ القرآنيُّ.

وأُوْلى فضائله وبركاته أن الله تعالى اختاره لينادىَ موسى في جانبه الأيمنِ، وهذه أمارةُ قداسته:

---

(١) أخرجه الهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (٧٣٥ – ٨٠٧ هـ) في كتابه، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م)، رقم ٣٨٩٢، وقال: رواه البزار، وهو حديث ضعيف.

" **وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا** (سورة مريم:٥٢).

ثم سعد الطورُ بالكلام الإلهي بعد سعادته بالنداء الإلهي، حيث دوَّى في جوِّه الكلامُ الرباني، وتشرَّف موسى بالنبوة في أحد جوانبه، ولُقِّب بـ كليم الله، وبذلك تجلَّت عظمتُه وقداستُه.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (سورة الأعراف: ١٤٣).

وحدث هناك شيءٌ، يفوق ما تقدم، وهو أن الطور اختير ليكون محل التجلي الإلهي، حيث شهد الطورُ طلبَ موسى العجيب المتمثل في قوله: رب أرني، وجواب رب العالمين المليئ بالحب والعظمة، وجعل موضع ظهور التجلي الإلهي، ولكن الجبل لم يتحمل ذلك، وتفرقت أجزاؤه، وطارت شَعَاعًا، ولم يُطِقْهُ موسى أيضا، فخرَّ صَعِقًا، مما سيأتي تفصيله.

ومن دلائل عظمته أنَّ موسى أتمَّ هناك ميقات ربه أربعين ليلة، وأوتي الكتابَ المقدس: التوراة في ذلك الجبل المقدس، والظاهر أن مكان عبادة النبي ونزول الوحي إن لم يحظ بالقداسة والعظمة فلا يوجد في الدنيا شيء مقدس ومكان مقدس.

وعلى كل فإن القرآن أكَّد بنصوصه العديدة على عظمة الطور وقداسته، ثم إن كانت هناك أحاديث تبيِّن هذا المعنى، وكان منها بعض الروايات الضعيفة، فهي ضعيفة من حيث السند دون المعنى، فالمعنى ثابت بالنص القرآني، ولا بأس بذكرها وقبولها.

فالخلاصة أن كلًّا من مكة المكرمة والقدس الشريف والطور المبارك أماكن مفضلة ومباركة ومقدسة حسب نصوص الكتاب والسنة مع ما بينها من تفاوت

وتفاضل، والنصوص المذكورة أعلاه تأتي بدلائل كافية على عظمة الأماكن الثلاثة وقداستها. وإلا هناك آيات وروايات أكثر منها بكثير، مما تزخر به دواوين الكتاب والسنة، وتركتُها توخيا للإيجاز وتفاديا من ملل القارئ العربي الكريم.

سؤال هام:

وبعد ذكر خريطة القداسة الشرعية والطبعية والعقلية والتاريخية للأماكن المقدسة الثلاثة أرى من المناسب أن أتناول مدى تأثيرها الشامل في طباع الناس وعقولهم، ليظهر شمول بركتها، فإن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ترشد إلى هذا أيضا بشكل مقنع.

وبذلك أريد الجواب عن سؤال ملح قائل: لماذا خص الله تعالى هذه الأماكن الثلاثة لتكون شاهدةً على فضل الإنسان على غيره من الخلائق؟ ولماذا أقسم الله تعالى بهذه الأماكن الثلاثة لا غير ليحتج على جمال صورة الإنسان وسيرته؟

والجواب أن الله تعالى فعل ذلك ليتضح ما بين الإنسان والأماكن الثلاثة من مناسبة تامة وتأثر تام، وإذا كان للأمكنة تأثير في طبيعة الناس فكيف لا يكون لها ذلك التاثير في العالم كله؟ وكيف لاتترك في الدنيا انعكاسا عميقا في أشياء العالم. وهذا يحمل نوعًا جديدًا من ملامح عظمة الأماكن الثلاثة.

الأوضاع الثلاثة المقدسة للأماكن الثلاثة:

بعد إثبات ما للأماكن الثلاثة من قداسةٍ تاريخيةٍ وشرعيةٍ وطبعيةٍ نستطيع أن نقول: كما أن الشمس والشمع لم يكونا منورين فحسب؛ بل يضيئان ماحولهما، فكذلك هذه الأماكن الثلاثة، التي هي مقدسة ومباركة بذاتها، ومنورة بنور القداسة والعظمة، ثم ترسل أشعتها المباركة إلى أماكن نائية، فكما أن نقطة في داخل قرص الشمس توصف بأنها

مركز النور أو مجمع النور؛ حيث تضيئ القرص كله أولًا ثم تخرج أشعتها الذهبية الساطعة إلى العالم، فيعود العالمُ منورًا، ويكون ماحولها الممتد إلى مسافات شاسعة شيئا ساطعًا أغرَ، ويقاس عليها تمامًا نورُ الأماكن المقدسة: مكة المكرمة والقدس الشريف وطور سينين، حيث تحمل هذه الأماكنُ في داخلها نورًا عظيمًا، ينير ذاتها أولًا، ثم يخرج من الضياء والأشعة ما أنار ما حولها من مناطق وبقاع، فاستضاءت بنور بركتها وقداستها، وعمّت في العالم، فمثل هذه الأماكن الثلاثة كمثل الشجرة الطيبة التي تفرَّعت منها غصونٌ وغصونٌ من البركة والعظمة، وامتداد بركة الأماكن إلى أنحاء العالم كمثل الفروع والغصون التي انبثقت من الساق، ثم امتدَّت امتدادًا طويلًا. فثبت بما سبق قداسة ما حول الأماكن الثلاثة، كما ثبتت بالقرآن عظمتها وقداستها كما مر تفصيله.

فثبت بالقرآن نفسِه تقديسُ ما حول الأماكن الثلاثة، مع ما بين الأماكن وما حولها من فرق في العظمة والقداسة ونوعية القداسة ومرتبتها. فقداسة كل شيء ثابتة على وجه يليق بشأنه. وقد جاء القرآن الكريم بما يشير إلى هذه الأمور كلها إذا كان عقل نافذ، وقلب بصير، وذلك بما يلي:

فأثبت قداسة ماحول مكة بلفظه: ومن حولها، وقداسة القدس بلفظه: باركنا حوله، وعظمة ماحول الطور بلفظه: من في النار ومن حولها. فصرح القرآن بعظمة وبركة ماحولها من مناطق، مشيرا إلى فرق في المراتب بين الأماكن وماحولها.

قداسة ما حول مكة:

وبما أن ما حول مكة تم وضعه لتبليغ الآيات العلمية والشرعية وإنذار القوم وتبشيرهم ودعوتهم إلى الله وكمال العلم والمعرفة فأكدت الآيات القرآنية على بركته وقداسته في ضمن الإنذار والتبليغ بنصوص ستأتي؛ مما يدل الدلالة الواضحة على قداسة ما حول أم القرى، حيث قال الله تعالى: **وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ**

الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (سورة الأنعام: ٩٢).

قداسة ما حول القدس الشريف:

وقد عُجِنت طينة ما حول القدس الشريف بالآيات التكوينية التي شاهدها رسولنا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، مشاهدة الآيات الحسية، فإن الله تعالى لما أظهر له آياته رأى رسول الله ﷺ بركة ما حول القدس الشريف ضمن الآيات الربانية، وبذلك يظهر فضل هذه البقعة وما حولها وعظمتها. كما قال الله تعالى: **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير**(سورة الإسراء: ١).

طور سينين وما حوله

قد كان طور سينين وما حوله شاهدًا على جمال الأفعال الإلهية وظهور الكلام والتجليات الربانية فجاء ذكره في الآيات القرآنية ضمن كمال الخلق الرباني والنداء الإلهي، مما يدل على نوعية خاصة من حرمته وقداسته.

ولما كان موسى في طور سينين هو الرجل الوحيد من بين الملائكة، الذي تشرف بالنداء الرباني ومشاهدة التجلي الرباني فتمَّ وصف بركة هذا الجبل وما حوله ضمن الملائكة النورانيين، فقال تعالى: **فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**(سورة النمل: ٨).

البركات المختلفة للأماكن المقدسة الثلاثة:

فتم تعريف ما حول مكة ببركة عالم الأمر والتكوين، وتعريف القدس ببركة أمارات عالم الخلق، وتمَّ تعريفُ ما حول طور سيناء ببركة عالم الشؤون والأحوال،

فظهرت آثارٌ مختلفةٌ للأماكن المقدسة، وانصبغت بركاتها بصبغاتها المتلونة، وتميزت بركة كل مكان عن بركة غيره من الأماكن، مما أشار إليه القرآن الكريم بوجه لطيف.

عنوان بركة مكة:

قد أُودِعتْ مكةُ بركةَ عالم الأمر، التي اتصلت بإرادة الحق وقوانينه الكلية، فتمَّ إبرازُ بركتها وقداستها عن طريق الإرشاد والهداية والإنذار والدعوة، وكلها من أمور عالم الأمر، واتصلتْ بشخصيةٍ هي أعظم شخصيات الأنبياء، حيث قام بها إمام الأنبياء صلى الله عليه وسلم، ولذلك جاءت صيغة الخطاب المتمثلة في قوله تعالى: "لتنذر"، وهو شيء يتعلق بالأمر وذات النبي صلى الله عليه وسلم.

عنوان بركة القدس الشريف:

ثم أُودعتْ مدينةُ القدس بركةَ عالم الخلق، التي تتعلق بأفعال الله تعالى، فاختير الفعل المعروف: بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لإبراز تأثير الأفعال الإلهية وإراءة الآيات التكوينية، وكان فاعله هو الله تعالى سبحانه، وهذا يتعلق بظاهر الحق سبحانه، وهو من آيات التكوين، والظاهر أن الباطن أسمى من الظاهر وأعلى مكانا، فإن الظاهر هو الآخر يظهر من خلال الباطن، فثبت بذلك فضل بركة مكة على القدس الشريف.

عنوان بركة الطور:

ولما أوتي طور سينين وما حوله بركة آثار وشؤون الحق سبحانه، التي تتعلق بالأحوال والكيفيات، وهي من آثار الظاهر؛ بل من الآثار الخارجة للظاهر، والظاهر أن أثر الشيء أدون من الشيء ذاته، فجاءت صيغة المجهول: بورك من في النار ومن حولها، فلم يظهر هنا فاعل ولا فعله، ولا يخفى أن الفعل المجهول هو أحط شأنا من الفعل المعروف، وبذلك يثبت أن مكانة الطور هي أقل شأنا من مكانة مكة المكرمة والقدس الشريف مع اشتراك الجميع في أصل البركة والقداسة.

فظهرت بركة واحد منها عن باطن الحق أي عن عمق روح الحق، مما وصفه القرآن بالروح والأمر في قوله: **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (*) صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ** (سورة الشورى: ٥٢-٥٣).

وظهرت بركة واحد منها عن ظاهر الحق أي بالآيات الحسية، حيث قال الله تعالى: **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** (سورة الإسراء: ١).

وظهرت بركة واحد منها عن فعل الحق سبحانه، أي بالآثار والصفات، والظاهر أن المنزلة الأولى أرفع وأعلى مما بعدها من المنزلتين، والمنزلة الثانية هي أفضل من المنزلة الثالثة.

سعة البركات:

ولكن الأماكن الثلاثة المقدسة مع ما بينها من تفاوت وتفاضل في المراتب وأسباب البركة اشتركت في أصل البركة، مما يدل على أن الأماكن الثلاثة: مكة والقدس والطور وما حولها من المناطق مقدسة مباركة، واختلفت نوعية البركة حسب امتداداتها الزمانية والمكانية، وقد أشار إليه القرآن الكريم بأسلوبه المعجز كما ذكرتُه سابقا.

وبقي سؤالٌ: ما هي حدود ما حول مكة والقدس والطور؟ وما هي مسافاتها المكانية؟ فالجواب أن فهم الحدود متوقف على فهم درجات الأماكن وما حولها. وذلك يتضح بالسطور التالية:

البيئة القريبة والبيئة البعيدة:

والحقيقة أن القرآن الكريم عند ذكر بركة الأماكن وما حولها لم يذكر الحدود المكانية للأماكن؛ بل اكتفى بذكر ما حولها، فنظرًا إلى إطلاق وعموم كلمة "ما حولها"

يمكن القول بأن حدود الأماكن تعم أبعد حد وتشمل أقصى مدى من حيث المساحة التاريخية والجغرافية، وهذا المناخ البعيد يدخل في قداسة المناخ القريب للأمكنة المقدسة وفق الإشارة القرآنية.

والمناخ ينقسم طبعا إلى قسمين: المناخ القريب وهو الذي يتصل بالأماكن المقدسة، والمناخ البعيد وهو الذي يتصل بالمناخ القريب، وتظهر آثار القداسة والبركة والعظمة في كل من المناخين.

المناخ القريب لمكة المكرمة:

فالمناخ القريب لمكة هو أرض الحرم التي هي أرض الأمن والسلام، والتي تختلف حدودها في الجهات المختلفة، فحدود الحرم المكي في جانب عرفات ٣٧٢١٠ أذرع من باب الكعبة المتصل بالركن الأسود، وحدوده إلى وادي النخلة بالعراق ٢٧١٥٢ ذراعا من الركن العراقي، وحدوده في جانب التنعيم وهو جانب المدينة المنورة ١٢٤٢٠ ذراعا، وحدوده من باب إبراهيم إلى اليمن في الجانب الشرقي ٢٤٥٠٩ أذرع، كما فصله الشاه عبد العزيز رحمه الله في تفسير فتح العزيز.

والحاصل أن مناخ مكة القريب تختلف حدوده باختلاف الجهات الأربع، وسميت هذه الحدود وما فيها آمنةً، كما سميت به مكة والمسجد الحرام، وكما أن أمن مكة يظهر في الدنيا، ويظهر في الآخرة بشكل أوضح، فكذلك يشترك ما حوله من حدود الحرم المكي والمدني، حيث جاء في بعض الروايات: "من مات في أحد الحرمين بُعِث آمناً يوم القيامة"[1].

الحدود الواسعة للمناخ القريب:

وإن توسعنا في المناخ القريب للأمكنة تتوسع الحدود أكثر مما ذكر، فيمكن أن نجعل مواقيت الإحرام حدودا قريبة للمناخ المكي، حيث لايجوز عبور المواقيت بدون

---

(١) الهيثمي، **مجمع الزوائد**، رقم ٣٨٩٠، وإسناده حسن.

الإحرام، فإن تجاوز أحد بدونه يُعْتبر جنايةً في اصطلاح الفقهاء، والسبب أن الإحرام إنما يُعْقد تعظيمًا لبيت الله ومكة المكرمة، وهذا التعظيم من شعائر الله، وهو لا ينحصر في أعمال القلب واللسان أو تحركات الأعضاء فقط؛ بل يشمل عوارض الحياة ولوازمها، ومن ثم لايجوز ستر الرأس بعد مجاوزة الميقات احترامًا للبيت، ولا لبس الثوب المخيط، ولا اختيار أسباب الزينة في البدن، ولا تنظيف البدن بِدَلْكِ البدن وتقليم الأظفار وحَلْقِ الشعر، ولا التتمع بالنساء، فكل هذه الأمور التي تتصل بعوارض النفس والبدن محظورةٌ، حتى إن ترك الوقار الظاهري داخل في هذا النوع من التعظيم.

ومن البديهي أن الحد الذي يجب فيه هذا التعظيم لبيت الله هو من آثار الخير والبركة للحرم، حيث بلغت حرمتُه إلى هذا الحد، فلا يجوز مجاوزته بدون الشرائط المذكورة، ولولا حرمة البيت والحرم لما وجب الأمر بالإحرام عند مجاوزة الميقات، ولـمَا كانت المواقيت موضعَ الحرمة والأمانة.

فلا بأس إذن أن نقول: إن المواقيت هي الحدود القريبة للمناخ المكي، التي حدَّدها الرسول صلى الله عليه وسلم بدوره، فميقات أهل المدينة هو ذو الحليفة، وميقات أهل الشام جحفة، وميقات أهل نجد هو قرن المنازل، وميقات أهل اليمن يلملم، وميقات أهل العراق ذات العرق، وهذه الحدود أيضا مختلفة من حيث القرب والبعد والمسافة.

ويلاحظ أن الركن العظيم للإحرام هو التلبية، وهو الجهر بكلمات "الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد"، فالحجيج والمعتمرون يعقدون الإحرام في المواقيت، ومن هناك يبدؤون التلبية، وليس التلبية إلا ألفاظًا تشعر بكبرياء رب العالمين واستعداد العباد لحضور الجناب الإلهي وقرب المسافة، ولما ابتدأ الحضور

القلبي والجسدي من الميقات، فلا يُستَبعد أن نجعله بيئةً قريبةً لمكة، ثم لفظ الإحرام المأخوذ من الحرم يشير إلى أن موضع الإحرام هو المناخ القريب للحرم، لا سيما إذا كان وجوب هذا الإحرام لإظهار عظمة البيت والحرم وحرمتهما، ومن أجل ذلك سمي "إحرامًا"، فالموضع الذي يبتدئ منه حرمة الحرم والبيت هو أقرب إلى الحرم والبيت من غيره من الأماكن، ومن ثم يصح أن نَصِفَهُ بالبيئة القريبة لمكة.

وعلى كل فقد ثبتتْ لمكة الحدودُ القريبةُ، سواءٌ هي حدود الحرم أم حدود الميقات، وهذه الحدود خاضعةٌ لمركزها المحوري في كلٍّ من العبادة والأمن.

البيئة القريبة للقدس الشريف

وكذلك للقدس مناخٌ قريبٌ، يمتد اثني عشر ميلا في جوانبه الأربعة، وقد شبَّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذه الحدودَ بالسماء الدنيا، فقال: من مات ببيت المقدس وما حولها باثني عشر ميلا كان بمنزلة من قُبِضَ في السماء الدنيا[1].

وهذا يدل على أن الموت إذا وقع بالقدس ارتفع دفعةً إلى السماء الدنيا، ولا يحتاج في بلوغها وطيِّ المدارج الملكوتية إلى الوقت الذي يحتاج إليه في غير أرض القدس، فالإنسان الذي تُوُفيَ في أرض القدس يُدْرِك دفعةً منزلة الملائكة الساكنين في السماء الدنيا، والظاهر أن البركة التي أُودِعَتْ في اثني عشر ميلا هي مأخوذةٌ من القدس الشريف المحاط بالتين والزيتون، فمن الممكن أن نطلق على هذه الحدود المناخ القريب للقدس، الذي أقسم الله تعالى في القرآن الكريم، وفسره الحديث النبوي بكلمات تالية:

إن الله تبارك وتعالى بارك في مابين العريش والفرات وخص فلسطين بالتقديس[2].

---

(١) علي بن حسام الدين المتقي الهندي، **كنز العمال**، رقم٣٥٠٧٤.

(٢) المصدر نفسه، رقم٣٥١٢٩، وقال ابن عساكر: منقطع.

وفي حديث أخر أُطلق على فلسطين لفظ الشام، وذُكر لها مثل هذه الفضائل، مع أن الشام وفلسطين واحدة من منظور شرعي، ولو تغيرت خريطةٌ جغرافيةٌ غير فطرية في هذه الأيام، فجاء في الحديث ما يبين فضيلة عظيمة للشام وأهلها، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الشام صفوة الله من بلاده، إليها يجتبي صفوته من عباده، فمن خرج من الشام إلى غيره فبسخطة، ومن دخلها من غيرها فبرحمة"(١).

وفي رواية عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، قَالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: طُوبَى لِلشَّامِ ، فَقُلْنَا : لأَيٍّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : لأَنَّ مَلاَئِكَةَ الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا(٢).

مما يُثبت المناخ القريب للقدس الشريف، وكونها مباركًا ببركة القدس، ومن ثم إذا وصفناه بدار الرحمة فلاعجب؛ بل هذا منصوصٌ به في الحديث النبوي.

المناخ القريب لطور سيناء:

وكذلك الطور أخذ البركة من البقعة المباركة التي وصفتها الروايات بأنها خطة الجنة، وشرَّف مناخه القريب بنوعٍ من القداسة والبركة، وملأه بكل أنواع الشرف والفضل، ويبتدئ هذا المناخ القريب من وادئ الطور، الواقع في وادئ سيناء، الذي أظهر الله تعالى قداسته، عند ما أمر موسى فيه بخلع نعليه ومجاوزته حافيًا، وبعد مجاوزة هذا الوادي يبتدئ جبل الطور، حيث شرَّف الله تعالى موسى عليه السلام بالكلام الإلهي وشرف النبوة العظيم.

فالموضع الذي ظهرت فيه بركاتُ موسى وتقديساته أولًا هو الطور المقدس، ويقع بجانبه قريبًا وادي الطوى بوادي سيناء، فكان وادي سيناء ووادي الطوى هما أولًا

---

(١) الهيثمي، **مجمع الزوائد**، رقم١٦٦٥٣، ضعيف.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في **سننه**، رقم الحديث: ٣٩٥٤.

من تشرف بالبركة الموسوية، فظهرت بركاتُ وقداساتُ الطور المقدس من وادي الطوى وانتهى بوادي سيناء، ووادي سيناء ميدانٌ طويلٌ وعريضٌ، يمتد نحو خمسة وعشرين ميلًا، يحتوى على كثيرٍ من الجبال الشاهقة والقرى العامرة والمناطق المسكونة.

ومن هنا تُعتبر المنطقةُ الممتدةُ من وادي الطوى إلى وادئ سيناء بيئةً قريبةً للطور، فوادى الطوى خطةٌ أصيلةٌ للقداسة والعظمة، وهي التي أمر فيها رب العالمين موسى بخلع نعليه قائلا: "فاخلع نعليك" إشعارًا بعظمة المكان وقداسته، ويليه وادي سيناء في العظمة والبركة، ويمكن أن يمتد وادي الطوى إلى نحو اثني عشر ميلًا، كما يمتد الحرم المكي والحرم القدسي إلى هذه المسافة، ويمتد وادي سيناء إلى ألوف الأميال، وبما أنه يشمل واديَ الطوى، ويلصق به لصوقًا شديدًا، فهو يشاركه في العظمة والقداسة على سعته وامتداده.

وبما ذكر ثبت المناخ القريب لكل من الأماكن الثلاثة المقدسة: البلد الأمين والقدس الشريف والطور المبارك، فحدود الحرم المكي أو مواقيت الإحرام مناخ قريب لمكة، واثنا عشر ميلا حول القدس الشريف مناخ قريب للقدس، ووادي الطور ووادي سيناء الممتد نحو ألوف الأميال مناخ قريب للطور.

دفع شبهة واردة:

ولكن سعة مناخ الطور من حيث العظمة والبركة إنما هي محلية محضة، ولا تقوم على كيفيات التقدس، حتى نقول بأفضلية الطور على البلد الأمين والقدس الشريف، نظرا إلى كون مناخه القريب الذي يعم أميالًا كثيرة، أوسع من مناخ مكة والقدس الذي لا يتعدى أكثر من اثني عشر ميلا، فالسعة والنقصان في المنطقة إنما يتعلقان بخصوصية في الموضع دونما خصيصة في العظمة والقداسة.

من المعلوم لدى الجميع أن بيئة الجبال هي أكثر سعةً وامتدادًا من بيئات المدن والحواضر، فيندرج سعة الطور ضمن الخصيصة الأرضية في الوادي دون الخصيصة المتصلة بالعظمة والقداسة.

كما أنه ليس من اللازم أن ما اتسع نطاقه اتسع نفعه وكثرت بركته، فهناك كثير من الأشياء الواسعة يفوقها أشياء صغيرة الحجم والقامة، وهذا بديهي لا يحتاج إلى برهان.

فإن كان من المنطقة ما قلَّ فضلُه وكثُر مكانُه يمتدُّ هذا الفضل القليل في نطاق الموضع الواسع، ولا يُستدلُّ أبدًا بسعةِ المنطقةِ على سعة البركة ووفرة العظمة.

فالأماكن الثلاثة تشترك فيما بينها في أصل العظمة والقداسة؛ ولكنها تتفاضل فيما بينها بالنسبة إلى المراتب والدرجات.

المناخات الثلاثة للمقامات المقدسة الثلاث:

دار السكينة – دار الرحمة – دار الخير:

ولكل من الأماكن الثلاثة مناخ بعيد أيضا، وهي التي تقع فيها المناخات القريبة، ومن ثم يُطلق المناخ البعيد جغرافيًا على الدول الثلاث، التي تحتضن الأماكن الثلاثة المباركة، نحو مكة المكرمة والقدس الشريف وطور سيناء المبارك، ولا شك أن هذه الدول هي الحجاز والشام ومصر، فالبركات والخيرات التي نشأت من الأماكن الثلاثة انتشرت أولًا في المناخات القريبة ثم عمَّت المناخات البعيدة أيضا شيئا فشيئا، وهذا طبيعي معقول، ومن هنا صارت هذه الدول مقدسة.

سعة الخير والبركة وآثارهما:

ومعقول أن الأماكن التي هي مقدَّسة على نطاق عالمي لا يمكن أن يقف خيرها وبركتها على حدودها القريبة؛ بل يجب أن تتعدى إلى ما حولها من المناطق البعيدة، فإنه إذا ضاق فيضها وقل نفعها لن تكون الأماكن عالمية، وهذا خلاف الثوابت الإسلامية، وقد أثبتتُ بدلائل في الفصول السابقة عالمية هذه المراكز، وكونها عالميةً يقتضي أن يعم نفعها وخيرها العالمَ كله، ولا ينحصر في النطاق المحدود الضيق.

ومن جهة أخرى فإن المناطق البعيدة التي احتوت على المناخات القريبة للأمكنة المقدسة الثلاثة، وصارت لها ظرفًا، فاللازم أن خصائص المظروف تبلغ إلى أقصى حد الظروف، ولا تنبعث من الظرف إلا روائح المظروف، وبالنظر إلى هذا فكان من المعقول أن يحمل كل من الحرم المكي والبيئة القدسية والطورية خصائص وبركات ومميزات مكة المكرمة والقدس الشريف والطور المبارك التي أودعت فطرتُها خصائص البركة العالمية، وتأتي بتأثير عالمي.

ومن البديهي أن المناطق البعيدة المتصلة بالمراكز الثلاثة هي طرق ووسائل إلى المراكز، فلا يمكن لإنسان التوصل إليها بدون هذه المناطق، فكأنها سُلَّمُ الوصول إلى المراكز، فإن المرء لا يمكنه الصعود إلى السقف مادام لم يتجاوز درجات السلم، ودرجات السلم هي جزء من المنزل دون خارجه، ولو اتسعت لألوف الدرجات.

فإن اتسعت بركات المراكز لما يحويها من المناطق والبلاد، وعمت الكون كله، فلابدع، بل هو أمر طبيعي، فإن البركة إذا عمت المنزل كله لاجرم أن تشمل أجزاءه، وكذلك هذه المناطق التي هي بمنزلة درجات السلم في البيت، فإن الخير والبركة إذا دخلت في البيت تشمل طبعا كل أجزاء البيت، بما فيها الكراسي والسلم وفناء البيت، وعليه فإن بركات المراكز الثلاثة لا بد أن تشمل المناطق القريبة والبعيدة، وتتصف بخصائص المراكز ومميزاتها مع فرق في التفاضل بين المراكز وقوة تأثيرها.

ومثلها كمثل الشمس التي توصف طبعا بالإنارة والحرارة، والتي ترسل نورها ودفئها إلى المناطق البعيدة كالأرض كما ترسلهما إلى ما حولها من المناطق القريبة كالفضاء السماوي، مع فرق بين قوة الحرارة في التحت والفوق، فإن الحرارة في الفضاء السماوي تفوق الحرارة الأرضية بكثير.

الألقاب الحديثية للأماكن الثلاثة:

ونظرا إلى ما للأماكن الثلاثة من خصائص وفضائل وصفها الحديث النبوي بكونها "معقل الدين" و "العقر"، و"دار الإسلام"، و"رباط الإسلام"، كما وصفها العلماء بأنها دار السكينة ودار الرحمة ودار الخير، ولاشك أن المناطق البعيدة هي التي تحيط بها من كل جانب، فلا تحرم هذه المناطق خيرات المراكز الثلاثة وبركاتها المتمثلة في السكينة والرحمة والخير، ومن المناطق البعيدة تظهر آثار كل ما أودعت الأماكن الثلاثة، من المركزية المتنوعة والفضائل العالمية، وبذلك تكسب المناطق البعيدة القداسة والبركة، كما كسبت المناطق القريبة، واتسمت بسمات التقدس واليمن، والظاهر أن المناطق البعيدة هي الدول التي تقع فيها المراكز الثلاثة، ومن ثم إذا نظرنا إلى كل من الحجاز والشام ومصر نظرةَ احترامٍ وتقدير فلا بدع؛ فإنه يلائم طبيعتها وعظمتها.

المناخ البعيد لمكة المكرمة:

فالحجاز كله هو المناخ البعيد لمكة المكرمة، فبركات مكة تتجاوز المناطق القريبة وتصل طبعا إلى الحجاز كله، فيصير الحجاز مقدسا بقداسة مكة، ومصبوغا بصبغتها المباركة، وأوضح الشرع الإسلامي بعض آثار الخير والبركة في الحجاز وما يلابسها من أحوال وأوضاع، مما يدل على قداسة الحجاز الشريف.

قداسة الحجاز في ضوء النصوص الشرعية:

فجاء الحديث النبوي بما يشهد للحجاز (وهو المناخ البعيد لمكة)بالأمن والأمان الذين هما من أهم صفات مكة المكرمة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: غلظ القلوب والجفاء في أهل الشرق، والإيمان والسكينة في أهل الحجاز[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٣م)، رقم الحديث: ٧٢٩٦.

فوصف الحديث المذكور كل الحجاز بدار الأمن والسكينة ودار الإيمان والتوحيد، وهذه دلالة عظيمة على قداسته وبركاته.

وهناك حديث آخر يقول: إن الدين يأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من الجبل، إن الدين بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء، وهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي(١).

فالحجاز هو مرجع الدين في آخر الزمان، وهو في نفسه دليل على قداسته، والحجاز يحتضن عددا من المناطق المباركة التي ورد في فضلها روايات، نحو فضائل مكة، وفضائل المدينة النبوية، وفضائل الحرم، وفضائل قباء، وفضائل المساجد السبعة، وفضائل الآبار، وفضائل تراب المدينة، وما إليها، فالدواوين الحديثية مليئة بفضائل هذه الأمكنة، مما يعطي أرض الحجاز نوعا من العظمة والقداسة، ثم الحجاز هي الدولة السعيدة التي نزل فيها القرآن الكريم، وكانت بعض بقاع هذه الدولة سببا لنزول عدد من الآيات الكريمة، كما تضمن القرآن الكريم طائفة من الأخبار والأحداث التي وقعت في هذه الدولة وأطرافها، فدولة الحجاز هي ظرف القرآن الكريم، وهذه أوثق صلة تؤكد للحجاز قداسة عظيمة، فلا قداسة أعظم من أنها أرض القرآن ومهبط الوحي الأخير.

والقول الفصل الأخير أن الحجاز مولد ومنشأ ومبعث سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقاعدة انطلاق لدعوته ورسالته، كما أن فيها مرقد النبي الأخير صلى الله عليه وسلم، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تحديثًا بنعمة الله عزوجل: أنا سيد ولد آدم، كما أعلن قائلا: "أنا عربي" إشعارًا بنعمة الله عليه، وبذلك كله ثبت

---

(١) الإمام الترمذي، **سنن الترمذي**، رقم ٢٦٣٠.

كون أرض الحجاز مرجع الخلائق ومزكزا للرشد والإصلاح، ومحورا للحب والعظمة، حيث يُهرع إليه الناس من كل جانب، كما قال الله تعالى: **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** (سورة الحج: ٢٧). وفعلاً أتى الناس إلى أرض الحجاز ملبين مكبرين، مسبحين ومهللين، ولايزالون، فهذه كلها دلائل القداسة والعظمة لأرض الحجاز، ولا نرى دليلا أعظم من هذه الدلائل القوية والشواهد البينة.

المناخ البعيد للقدس وقداسة الشام:

أما المناخ البعيد للقدس فهي أرض الشام، التي كانت في الجغرافية القديمة جزءا لأرض فلسطين، فبركات القدس تتسع لأرض الشام كلها، وقد وصفها القرآن الكريم والحديث النبوي بالأرض المقدسة، فقد وصفها موسى عليه السلام بالأرض المقدسة عند ما أمر بني إسرائيل بدخول أرض الشام وفلسطين، كما قال الله تعالى على لسان موسى: **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** (سورة المائدة: ٢١).

ولا شك أنها من بركات القدس المبارك، التي شملت ما حولها من المناطق البعيدة، ويوضح الأمر الحديث الذي سنذكره قريبا.

المناخ البعيد للطور وقداسة مصر:

ونظرا لسعة البركات وعمومها للمناطق القريبة والبعيدة قد تم وصف سيناء (وهو المناخ القريب للطوي) فإن وصفنا بالخيرية والبركة والقداسة ماحول وادي الطوى من المناطق فهو مندرج في نفس الأصول القرآنية، التي جعلت وادئ سيناء مقدسا بملابسة الطور، فلا بدع إذن أن نقول: إن بركات جبل الطور والمناخ القريب للوادي قد تعدت إلى ما حولها من المناطق البعيدة، وجعلته مقدسا مباركا، وهذه المنطقة

الواسعة هي أرض مصر، التي تضمنت وادي سيناء، ثم الوادي تضمن جبل الطور، والجبل اشتمل على الطوى منبع القداسة، فخرج النور من الطور المقدس، وعمَّ الدولة المصرية كلها تدريجيا، وعادت مصر كلها مقدسة، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن مصر ستفتح، فانتجعوا خيرها ولا تتخذوها دارا[1].

فدولة مصر وإن لم تكن مقدسة بذاتها كما كانت أرض الحجاز والشام مقدسة بذاتها، ولكن كسبت مصر القداسة والعظمة من بركات وخيرات كثير من النفوس القدسية والشخصيات المقدسة.

وجوه قداسة مصر:

إذا تدبرنا النصوص الشرعية والتاريخية المتعلقة بأرض مصر اتضح لنا أن هناك أسبابا تدل على قداسة مصر وفضلها على غيرها، ومنها ما يلي:

١- كونها مولد ومنشأ موسى عليه السلام، حيث كانت أولاد بني إسرائيل تُقْتل وتذبح بلا رحمة ولا هوادة، وفي هذه الحالة الخطرة ولد موسى عليه السلام.

٢- كونها مبعث موسى عليه السلام، حيث ظهرت نبوته وأرسل نبيا ورسولا إلى بنى إسرائيل.

٣- إن دولة مصر هي المركز الدعوي للنبي الجليل موسى، حيث شعَّ نور علمه وهدايته وجهوده وجهاده الديني إلى العالم كله.

٤- إن دولة مصر هي التي ظهرت فيها معجزات موسى عليه السلام، وشهدت تسع آيات بينات، جعلت أرضَ مصر مقدسة، كما قال الله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا** (سورة بني إسرائيل: ١٠١)، وقال ابن كثير: يخبر

(١) المتقي الهندي، **كنز العمال**،رقم الحديث: ٣٥١٥٧.

تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات ، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون ، وهي: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات ؛ قاله ابن عباس، وقال محمد بن كعب: هي اليد، والعصا، والخمس في "الأعراف"، والطمسة والحجر، وقال ابن عباس أيضا ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة : هي يده ، وعصاه ، والسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم، وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي[1]، فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة هاهنا، وهي المعجزات أكدت على قداسة مصر لكونها أرض الآيات والبينات.

٥- احتواء مصر على وادي التيه، حيث أنزل الله تعالى على موسى وقومه المن والسلوى، وأمرهم بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله، كما قال الله تعالى: **وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** (سورة البقرة: ٥٧)، فكانت هذه الأفضال الربانية خلقت في أرض مصر مكانا من القداسة والعظمة.

٦- بل إذا توسعنا في الموضوع، فيمكن لنا أن نجعل ملك يوسف بمصر وتمكنه في الديار المصرية تمهيدا مناسبا لما آلت إليه مصر من عظمة وقداسة، قال الله تعالى: **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** (سورة يوسف: ٥٦)، قال ابن كثير: أي أرض مصر، والغرض أن يوسف - عليه السلام- ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته،

(١) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، **تفسير ابن كثير** (بيروت: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م)، ج٥، ص١٢٤.

وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام[1]، كما أنَّ قدوم النبى الجليل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام أكسب أرض مصر بركة قوية؛ مما جعل أرض مصر مهبط الوحى الإلهى ومورد الكمالات النبوية، وألصق بكل شبر من التراب المصري آثار الخير والبركة والسعادة.

٧- وبعد ما اتخذ الرسول ﷺ مارية القبطية[2] أمة له، صارت لمصر مكانة كبيرة في الإسلام، حيث أكد الرسول عليها في عدد من الأحاديث النبوية، فقال:"إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً"، أو ذمة وصهراً"[3]. وفي رواية: "استوصوا بأهل مصر خيراً، فإن لهم نسباً وصهراً" [4]. والمعنى: عليكم بحرمة مصر والوفاء بحق مصاهرة الرسول، مما زاد مصر عظمة وقداسة؛ فإنها حظيت ببركة كل من إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، وقد أشار النبي إلى هذا بقوله: فانتجعوا خيرها.

والحاصل أن الحجاز كما لُقب بـ "دار السكينة" وفق الحديث القائل: الأمن والسكينة في الحجاز، ولُقبت الشام بـ"دار الرحمة"، فيمكن أن نصف مصر بـ"دار الخير" في ضوء الحديث: فانتجعوا خيرها، مما يمثل شاهدا قويا على عظمة الأماكن الثلاثة وبركتها وما فيها من خير وهدى ونور، ويجعل كلا من الدول الثلاث مقدسة، ويثبت ما ادعيته سابقا.

---

(١) ابن كثير، **تفسير ابن كثير**، ج٤، ص٣٩٦.

(٢) مارية بنت شمعون القبطية: إحدى أمهات المؤمنين، أنجبت له ﷺ ثالث أبنائه الذكور إبراهيم والذي توفي وهو طفل صغير. وكلمة (قبط) كان يقصد بها أهل مصر، أهداها للرسول الملك المقوقس حاكم مصر سنة ٧ هـ .وكان أبوها عظيم من عظماء القبط.(انظر: ابن حبان، **الثقات**، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٧٥م، ج٢، ص١٠).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، رقم الحديث: ٢٢٧.

(٤) والنسب من جهة هاجر أم إسماعيل عليه السلام، والصهر من جهة مارية القبطية رضي الله عنها.

غلبة الخير:

إن بعض الآثار والروايات وإن اشتملت على بعض علات مصر وهناتها التي تولدت من طغيان فرعون وعتوّه إلا أنَّا إذا قمنا بالمقارنة بين فساد فرعون وخبثه وبين خيرات وحسنات الأنبياء الأجلاء من يعقوب ويوسف وموسى رأينا أن الخير غلب على الشر، والصلاح فاق الفساد، ثم جاء الإسلام بما قضى على شرها وفسادها أبد الدهر، ففاضت بمصر أنهار وينابيع العلم والفضل، والصلاح والكمال، والرشد والهدى، ونجمت هناك علماء أجلاء، وفضلاء نوابغ، وأئمة عباقرة، أثروا المكتبات الإسلامية بمعطياتهم الثرة الغزيرة، وأثروا في المجتمع الإسلامي وعقلية الإنسان المسلم تأثيرا عميقا، حتى صارت مصر دولة ذات خير ورشد، وورد الحديث ليحث المسلمين على انتجاع خيرها والتقاط بركاتها، وفعلا قد أخذ المسلمون من خيرها وبركاتها.

فالحديث السابق يقتضي أن تظهر في مصر الشعائر الموسوية واليوسفية والإسلامية دون الشعائر الفرعونية والعلامات القبطية التي هي مصدر الفساد والدمار، مما جعل مصر دار الفاسقين حسب ما وصفه القرآن الكريم: **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ** (سورة الأعراف: ١٤٥).

واجبات أهل مصر:

وبعد أن فتح المسلمون مصر وأعادوا هناك شعائر الأنبياء والصلحاء، وعادت مصر دار المتقين مكان دار الفاسقين، ودار الأخيار مكان دار الأشرار، فيجب على سكان مصر أن يحاولوا إبقاء مصر على هويتها الإسلامية، ولا يحولوها بعاطفة وطنية وقومية دولة فرعونية، فمن آكد الفرائض على المصريين أن يبتعدوا عن دعايات الوطنية والقومية

الشائعة في هذه الأيام، وعن أن يكونوا سببا لقوة الشرك والكفر في بلاد الإسلام، بل يجندوا كل طاقاتهم في الحفاظ على النسبة اليعقوبية واليوسفية والموسوية والمحمدية، لتنتجع الدنيا كلها خيراتها وتبحث عن بركاتها، وتستفيد من قداسة الدولة، وهذا سبب لزيادة عظمة المصريين.

خلاصة الكلام:

الحاصل أن الله تعالى قد أقسم في القرآن الكريم بالأماكن المقدسة الثلاثة: مكة المكرمة والقدس الشريف والطور المبارك، وأكد على عظمتها وقداستها، ثم أشار إلى عظمة ما حولها من المناطق القريبة والبعيدة، فصار الحرم المكي الحدود القريبة لمكة، واثنا عشر ميلا من كل جوانب القدس الشريف هي الحدود القريبة للقدس، وصحراء سيناء هي الحد القريب للطور، بينما كانت دولة الحجاز ودولة الشام ودولة مصر هي الحدود البعيدة للأماكن المقدسة، وقد انتشرت فيها آثار الأماكن وخيراتها، وصارت مراكز دينية كبيرة، ونشأ فيها ثلاث أمم كبيرة، ومن هنا إذا أكد الإسلام على عظمة ومركزية الدول الثلاث فهذا شيء طبيعي معقول، وقد أوضحتُ بإيجاز لكل من المراكز الثلاثة ما لها من شأن عالمي وتفوق عظيم، وثبت ذلك الآن مفصلا بالدلائل القوية وبقواعد معقولة.

نقطة المركزية والفيضان العالمي لكل من الأماكن الثلاثة المقدسة:

الكعبة المعظمة – الأقصى المقدس – البقعة المباركة:

وهنا ينشأ سؤال: لماذا اختار الله تعالى مدينة مكة ومدينة القدس وجبل الطور لتكون مراكز عالمية، وأحبَّ البلاد إلى الله تعالى، وقدَّسها بشكل عظيم يتقدس به ما حولها من المناطق القريبة والبعيدة، وترك البقاع المليئة بالخصب والنمو والخضرة، والمدن الكبيرة، والجبال الشاهقة، والمزارع الخضراء؟

فهذا سؤال يقتضي حلًّا سريعا، والحل إنما ياتي بالنظر في خصائص التقدس والبركة في كل من الأماكن الثلاثة وفق منظور شرعي.

مصادر الخير والبركة:

الحقيقة أن بركات كل من الأماكن المقدسة التي أقسم الله تعالى بها وهي مكة والقدس والطور ليست بذاتها؛ بل مكتسَبة من النقاط المركزية الثلاث، ومن هذه النقاط تفجرت ينابيع البركة، ووهبت للأماكن الثلاثة مكانة عالية في العظمة والقداسة، حتى يتقدس ما حولها.

وهذه النقاط أيضا ثلاث، ومليئة بالعظمة والقداسة، فنقطة مكة المكرمة هي بيت الله والمسجد الحرام، ونقطة القدس الشريف بيت القدس، وهو المسجد الأقصى، ونقطة طور سيناء هي محل الشجرة، وهي البقعة المباركة التي نبتت عليها الشجرة حيث ارتفع النداء الرباني وتشرف موسى عليه السلام بخلعة النبوة وشرف الكلام مع الله رب العالمين.

فالأماكن المقدسة الأصيلة هي الكعبة المعظمة والمسجد الأقصى والبقعة المباركة، وبها تقدست مكة والقدس وطور سيناء، وبها تقدس ما حولها، ومن هنا كل ما جاء في الروايات والآثار من فضائل هذه الأماكن الثلاثة يدل أصالة على فضائل هذه النقاط المركزية التي هي ملآنة بألوان القداسة والعظمة.

ومن أجل ذلك نفصِّل ملامح فيض الأماكن الثلاثة في الصفحات القادمة:

الأساس المشترك للقداسة:

ويَعْتَبِرُ العرفُ العامُّ أن البركة هي الوصف المشترك وأساس القداسة في الأماكن، والبركة هي التي تتفرع آثارها إلى دول العالم، وتعم خيراتها وبركاتها، ومازالت في اتساع مستمر، مما يجعل الخير ينتشر والشر يندحر، وبذلك يكسب أي موضع نوعا من العظمة و القداسة، وبذلك استعمل القرآن الكريم والحديث النبوي لفظ "البركة" لكل من النقاط الثلاث المحورية:

أما بركة الكعبة المقدسة فقد قال الله تعالى بشأنها: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (*) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** (سورة آل عمران: ٩٦-٩٧).

وذكر بركة المسجد الأقصى ضمن بركة ما حوله من القدس الشريف، وذلك في سياق رحلة الإسراء والمعراج في سورة الإسراء، حيث قال الله تعالى: **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**(سورة بني إسرائيل: ١)، وذكر القرآن الكريم بركة البقعة المباركة في الطور، فقال: **فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**(سورة القصص: ٣٠) .

فالقرآن الكريم اعتبر الأماكن الثلاثة مصادر الخير والبركة، والبركة هي القاسم المشترك بين الأماكن، مما يبين قداسة النقاط المحورية وفق منظور قرآني.

ومع ما ذكر من قاسم مشترك بين الأماكن فإن كلا منها يحمل خصائص منفردة أيضا، وأتناول شرح هذه الخصائص المنفردة والمميزات المستقلة في السطور القادمة:

نقطة الفيض في مكة المكرمة- الكعبة المعظمة:

ومن المعلوم أن الكعبة هي سبب عظمة مكة المكرمة، ومنها نبعت عيون الخيرات والبركات، وقدَّست مكة وما حولها، ومن ثم خص الله تعالى الكعبة بفضائل ومناقب، ذكرها في القرآن الكريم، ومنها ما يلي:

١- **الفضيلة الأولى**: أن الله تعالى نسب الكعبة المقدسة إلى نفسه مؤكدا على عظمته، حيث عهد إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بتطهير بيته العتيق للطائفين والمصلين، قال الله تعالى في القرآن الكريم: **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا**

وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (سورة البقرة: ١٢٥).

٢- **الفضيلة الثانية**: أن الله تعالى اختار ذلك المكان ووضع بناءه ليكون أول بيت للعبادة وذكر الله تعالى في الدنيا، فكان الله تعالى هو واضعه الأول دون غيره، وهذه حجة باهرة على قداسة البيت كما قال الله تعالى: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (*) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** (سورة آل عمران: ٩٦-٩٧.)

٣- **ثالثا**: كان الله تعالى أمر الملائكة ليضعوا الأساس الحسي للبيت، ولم يُشْرِك بالملائكة كائنًا أرضيا في بناءه، كما شهدت به الأحاديث النبوية الكثيرة.

٤- **رابعا**: كان الله تعالى هو الذي أنزل من السماء وضعيته الأولى المتمثلة في القبة الحمراء المصنوعة بالياقوت الأحمر، وعلى عكس غيرها من المعابد والأماكن المقدسة التي يختار الناس مكانها، ثم يقومون بتصميمها وورفع حجرها الأساس، ثم بناءها كاملا، كما يظهر في السطور القادمة.

٥- **خامسا**: أن الله تعالى جعل الكعبة المقدسة مثابةً للناس وهدًى للعالمين ومهوى قلوب الناس وقبلة المساجد كلها، فصارت دار هدى ومركز سعادة للعالمين، كما قال الله تعالى: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** (سورة آل عمران: ٩٦)

٦- **سادسًا**: إن عظمة البيت الحرام متركزة في طبعه، متأصلة في ذاته، فهي ليست وليدة حادثة، ولا فيض ساعة، ولا أثر خاطرة متهورة؛ بل هي التي جعلت الحوادت تتقدس بقداستها، وتتعظم بعظمتها، وكيف لا؟ فهي أول بيت وضع للناس في الأرض، فقد تم وضعه قبل حدوث الحوادث والواقعات، فالحوادث

تبع لها، وليست هي تابعة لأي حادثة، بخلاف الأماكن المباركة الأخرى، التي أوجدتها الحوادث وآتتها نوعًا من القداسة والعظمة، ولم تكن هذه الأماكن في يوم من الأيام سببًا لخلق الحوادث والوقائع كالمساجد والمعابد والمدارس وما إليها من الأمكنة المباركة، التي يقيمها الناس مدفوعين بالعاطفة الإيمانية والحاجة الإقليمية، فهي تتقدس بإخلاص المؤسسين، وهي قداسة طارئة لاتدوم، فليست هي متركزة في طبعها، ولا راسخة في جذورها، وعلى سبيل المثال نأخذ المساجد التي تشوب بناءها شائبة إخلاص المؤسسين، فتكون مباركة معظمة، ومن هنا يبحث الناس عن رجل صالح لدى تأسيس المساجد والبيوت، ليبدأ البناء ويمزجه بنوع البركة. وإذا نظرنا إلى الأمم الأخرى غير الإسلامية فإن الهنود يقدسون مدينة هريدوار بالهند، ويعظمونها، فالسبب وراء ذلك أن "شري كرشنا" (وهو أحد آلهتهم المزعومة) نال مرتبة عليا في هذا المكان، فكأن هذه الحادثة هي التي جعلت البلد مقدسا، ولم يكن قبل ذلك مقدسا، وكذلك مدينة أجودهيا مدينة مقدسة لدى الهندوس، فالسبب أن السيد رام تشندرا -كما يزعمون- مع زوجته "سيتا" كان يسكن هذه المنطقة، مما قدَّس البلد وآتاه عظمة لا يستهان بها في عقائد الهنادك، وهكذا لدى المجوس، فإنهم يعظمون معابدهم التي تشتعل فيها النار، ويتفاءلون بالنار خيرا، فكان النار هي التي قدَّست المكان، ولم يكونوا يعتقدون قداسة المكان قبل اشتعال النار فيها، فهي قداسة موقتة طارئة.

قداسة الكعبة المعظمة أصيلة:

أما قداسة الكعبة المعظمة فهي قداسة أصيلة راسخة في ذاتها، وليست لاحقة بها عن طريق شخصية مقدسة، أو بسبب حادثة أو عمل مادي مجيد؛ بل بركة كل ما يتعلق بالكعبة مأخوذة من بركتها، ومن ثم يجب على المصلين أن يتوجهوا إليها في

الصلاة، ولا يحملوا في قلوبهم لدى التوجه إلى الكعبة تعظيم أي شيء في الدنيا، لتكون عباداتهم خالصة لوجه الله تعالى، ولا يشوبها شائبة من الشرك والخضوع لغير الله، بخلاف المعابد والأماكن الأخرى التي ينصرف الناس لدى تعظيمهم إلى الحوادث والشخصيات التي جعلتها معظمة، فمثل كل المعابد كمثل زوايا الصلحاء وقبورهم، التي يعظمها الناس لعظمة الصلحاء الذين راضوا نفوسهم على الصلاح والتقوى، وتفانوا في هذا الطريق، فصارت آثارهم معظمة ومحترمة لدى الكثيرين من الناس.

مصلحة النهي عن الصلاة في المقابر:

ومن ثم نهى الشرع الإسلامي الحنيف عن الصلاة في المقابر، لئلا يتوجه المصلون في صلاتهم إلى أهل القبور، ولا يشوب صلاتَهم شائبة الكفر، فإن هذه المواضع لما كانت تحمل نوعا من العظمة بسبب من بها من ذوات الصالحين والعناصر الأخرى، فمن الطبيعي أن الناس في عباداتهم يتصورون العناصر التي جعلت هذه المواضع مقدسة، ورفعتها عن مستوى عامة الأرض، وليس الشرك في العبادة إلا أن ينصرف الإنسان إلى غير الله كما قال رسول الله ﷺ: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد[1].

نعم! إن آثار الأولياء والصالحين التي لم يتخذها الناس مساجد ولا معابد يمكن أن تكون مكانا يُزار،ولا تكون معابد ومساجد.

الكعبة المعظمة محور التوحيد:

وعلى كل فإن الله تعالى شأنه هو أول واضع له، وباني أُسِّه، وهذا بدوره أمر يدل على عظمته الحقيقية وقداسته الذاتية، ومن ثم فعلى المتجه إلى الكعبة أثناء الصلاة أن لا

(١) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم الحديث: ٤٢٦.

يشغل باله في التفكير فيما سوى الله، بل يجب أن يتمركز كل تفكيره وأعماله في عظمة الله عز شأنه، فالكعبة محور التوحيد وبريء كل البراءة من الشرك وأعماله.

فالكعبة هي النواة الحقيقية للبركة المودعة في مكة المكرمة، وهي نقطة سعادة مكة، وبها تسعد مكة وتصير بلدا أمينا، وحرما آمنا، وبها يسعد ما حول مكة، ويكون مكانا معظما لدى المسلمين.

نقطة سعادة القدس: المسجد الأقصى

وكذلك مدينة القدس لاتتقدس بذاتها؛ بل قداستها مأخوذة من محور البركة والقداسة هناك، ومحور البركة ونقطة السعادة هناك هو المسجد الأقصى، كما أن نقطة السعادة في مكة هي الكعبة المعظمة، التي بناها بإذن الله خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، إلا أن الله سبحانه هو الذي وضعه أولا، كما ورد في حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّل؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى» قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ، فَصَلِّ، فَهُوَ مَسْجِدٌ»[1].

- والتعبير الحديثي يشيرإلى أن المسجدين تم وضعهما وتشخيص مكانهما بالوضع الإلهي، لا بوضع أحد من الخلائق.
- ومن ثم لُقب المسجد الأقصى بـ بيت المقدس، ثم لقب به تلك المدينة التي يقع فيها المسجد الأقصى، كما أن بيت الله والمسجد الحرام هما لقب الكعبة، ثم جرى التوسع في الإطلاق، فأطلق الحرم على ما حول الكعبة.

مميزات تقدس المسجد الأقصى:

وإذا أعملنا التفكير في مميزات تقدس المسجد الأقصى توصلنا إلى أن مميزات قداسة الأقصى هي عين مميزات المسجد الحرام، فالمسجد الأقصى هو الآخر مصنوع

(١) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**،ر قم الحديث: ٥٢٠.

بالوضع الإلهي دون الوضع الإنساني، كما جاء في حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وسيأتي تفصيله، وكما أن إبراهيم وابنه إسماعيل رفعا قواعد الكعبة على أساس الوضع الإلهي كذلك بنى داود عليه السلام المسجد الأقصى على أساس الوضع الإلهي، وأتم بناءه ابنه سليمان عليه السلام، فأُمر الرسولان الجليلان ببناء وإكمال كل من الكعبة والمسجد الأقصى، وصارا كقول الشاعر أبي فراس الحمداني:

صنائع فاق صانعها ففاقت ✰ وغرس طاب غارسه فطابا[1]

ومن جهة أخرى فإن المدة بين بناء الكعبة المعظمة والمسجد الأقصى ليست ببعيدة، بل هي أربعون سنة وحسب، وهي مدة قليلة بالنسبة إلى عمر الدنيا الممتد إلى آلاف السنين، فهما من مباني العصور المتقاربة، كما أن المسافة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ليست بشاسعة؛ بل تشتمل على مسافة مائتين وخمسين ميلا، وهي نسبة أقل من ١٪ بكثير من مجموع الأراضي الدنيوية، المتسعة لمليارات الأميال، فهما متصلان بينهما أشد الاتصال من حيث المسافة الزمانية والمسافة المكانية؛ بل متلاصقان إلى حد كبير.

والحاصل أن الكعبة المقدسة لما تم وضعها في الخلاء اللطيف قبل خلق الأرض بألفي سنة كما نص به الحديث النبوي الشريف، ووُضِع المسجد الأقصى بعده بأربعين سنة، فهذا يعني أن المسجد الأقصى تم وضعه قبل خلق الأرض بألف وتسعمائة وستين عاما، وبذلك ثبت أن كلا من الكعبة والمسجد الأقصى وُضع بالوضع الإلهي قبل خلق الكون، عندما لم يكن في الدنيا أرض ولا سماء. وبذلك تجلى أن المسجد الأقصى ليس عبارة عن بناء مخصوص، بل هو اتجاه في الفضاء كالكعبة، وليس هو مكانا حسيا وجسميا، أما بناء الكعبة والمسجد الأقصى فهو أمارة حسية للوضع الإلهي، وهو

(١) **ديوان أبي فراس الحمداني**، (المكتبة الشاملة بدون بيانات النشر) ص٢٥.

اشتمل على الاتجاه الروحي، فكل من الكعبة والمسجد الأقصى هما أول مسجد في الدنيا، وُجدا بالوضع الإلهي، مما يدل على قداستهما وعظمتها.

ومن الفضائل المشتركة بينهما كون كل منهما قبلة المسلمين والأمم الأخرى، فكان المسجد الأقصى قبلة المسلمين في بداية الإسلام، كما هو واضح بآيات تحويل القبلة، وهو قبلة اليهود والنصارى حتى الآن.

كما أن شد الرحال إلى المسجد الأقصى لأداء الصلاة مشروع كشدها إلى المسجد الحرام، فاشتركا في مشروعية الرحلة وشد الرحال اشتراكهما في كون القبلة، مما يعكس مدى التشابه والتقارب والقاسم المشترك بين المكانين المقدسين، وبذلك يظهر التشابه بينهما في القداسة والعظمة، كما أن المسجدين اشتركا في زيادة الأجر في الصلاة، مع تفاضل في العدد والدرجة، مع اشتراك في مضاعفة الأجر، كما جاء في الحديث النبوي: " صلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة. وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة. وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة"(١).

ومن ثم يلقب كل من المسجدين ببيت الله تعالى، فلقب الأول بيت الله ولقب الثاني بيت القدس، وهو مرادف لبيت القدوس، فإن الله والقدوس اسمان لله عزوجل، فالمسجدان مشتركان في اللقب أيضا، وكل هذه الاشتراكات والمشابهات بين المسجدين دليل صارخ على أن المسجد الأقصى يحمل من العظمة والقداسة ما يحمله المسجد الحرام، ويتجلى فيه نور الله وبركاته، فهو مورد التجلي الإلهي كالكعبة والمسجد الحرام.

إلى أن أرض المسجد الأقصى هي أرض لها شان في الحشر والنشر، كأرض الكعبة المقدسة، فيبتدئ الحشر والنشر من أرض الحجاز كما هو منصوص عليه في الأحاديث النبوية، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أول من يحشر من

(١) أخرجه الإمام ابن ماجه في **سننه** (بيروت: دار الفكر)، رقم الحديث: ١٤١٣ .

القبور يوم القيامة، ثم يتبعني أهل البقيع، ثم يلحق بي أهل المعلى بمكة، يم يتبعني أهل المقابر في الدنيا كلها، ثم يكون المحشر[1]، ومثله يجرى مع المسجد الأقصى وأرضه، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بيت المقدس أرض المحشر والمنشر، ايتوه وصلوا فيه، فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره، فمن لم يستطع فيهدي له زيتا يسرج فيه، فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه فصلى فيه[2].

وكما أن الموت بأرض المسجد الحرام يعتبر شهادة كذلك يعتبر الموت في أرض المسجد الأقصى شهادة في سبيل الله[3].

الحاصل أن المسجد الأقصى يشارك المسجد الحرام في تشخيصه بالوضع الإلهي، وكونه قبلة المسلمين ومشروعية شد الرحال إليه (كما ثبت بالروايات الصحيحة)، والتلقب ببيت الله، وهي في الحقيقة شواهد قوية على عظمة كل من

---

(١) لم أجده، وروى الإمام مسلم في **صحيحه**، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفع، (صحيح مسلم، رقم الحديث: ٢٢٨٧).

(٢) المتقي الهندي، **كنز العمال**، رقم الحديث: ٣٥٠٦١.

(٣) لم أطلع على حديث بهذا المعنى، إلا أنه لا شك أن البقاع المقدسة أفضل من غيرها، أما الموت فيها فقد جاءت بعض النصوص التي تفيد مزيتها على غيرها وخاصة المدينة النبوية، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت، فإنه من مات بالمدينة كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة. رواه الطبراني وغيره.

وروى مالك في الموطإ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان جالسا وقبر يحفر بالمدينة، فاطلع رجل في القبر، فقال بئس مضجع المؤمن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بئس ما قلت، فقال الرجل إني لم أرد هذا يا رسول الله، إنما أردت القتل في سبيل الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا مثل للقتل في سبيل الله، ما على الأرض بقعة هي أحب إلي أن يكون قبري بها منها. ثلاث مرات. يعني المدينة، وكان عمر رضي الله عنه يقول: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك صلى الله عليه وسلم. رواه البخاري وغيره، وقد وردت أحاديث في فضل مقبرة مكة والمدينة ولكنها أحاديث ليست صحيحة عند المحدثين

المسجدين وبركتهما وقداستهم، حتى تقدس ما حولهما من البلاد والبقاع بشكل لم يدع للشك مجالا.

مركز القداسة والعظمة في الطور: البقعة المباركة:

وإن مركز البركة والقداسة في جبل الطور والوادي المقدس هي البقعة المباركة، التي ظهر على شجرةٍ فيها نورُ التجلي الرباني، وتشرف موسى عليه السلام بمنصب النبوة، وعلى جانبه الأيمن المسمى بوادي طُوى جَلْجَلَ الصوت الإلهى المهيب: إني أنا الله رب العالمين، "إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني"، وقرع أسماع موسى، ولا شك أن هذا أكسب المكان نوعًا من العظمة والقداسة.

وقد ذكر القرآن الكريم في عدة مواضع رحلة موسى مع أهله، فاحتاج إلى نار يصطلي بها، فقال لأهله: امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم بها، فلما مر بالبقعة المباركة، ناداه الله عزوجل، كما قال الله تعالى: **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (سورة القصص: ٣٠).

ولا أدل على قداسة البقعة المباركة في الطور من هذه الآية الكريمة التي تخصها بالذكر، وتذكر ما وقع هناك من أعمال جليلة، وهذه البقعة هي التي جعلت ماحولها مقدسا، مما يدل على أن محور الهداية والعظمة في وادي الطور ووادي سيناء هي البقعة المباركة، التي نبتت عليها الشجرة المباركة، ودوَّى فيها النداء الرباني وأرسل موسى نبيا ورسولا إلى بني إسرائيل، ومن ثم وصفها القرآن الكريم بالبركة، حيث قال "البقعة المباركة"، فكانت بقعة مباركة، بوركت آثارها ومميزاتها وشجرتها، فقدَّست هذه البقعة المباركة ما حولها من البقاع والأودية، فالبقعة المباركة هي نقطة البركة ومحور السعادة للطور.

وعلى كل فإن هذه النقاط الثلاث: الكعبة المعظمة والمسجد الأقصى والبقعة المباركة من الطور كانت مركز الخير والبركة للبقاع الثلاثة، فببركتها تقدس كل من مكة المكرمة والقدس الشريف والطور المبارك، التي أقسم الله تعالى بها، ومنها تتفجر ينابيع الخير والسعادة، وتشق طريقها إلى أرجاء الكون كله، وتنير بضيائها الساطع ونورها الباهر كل ما حولها من المناطق القريبة والبعيدة.

أساس القداسة في كل من النقاط الثلاث المحورية:

بعد ما ثبت أن تقدست مكة المكرمة بفضل الكعبة المعظمة، وتقدست مدينة القدس بفضل المسجد الأقصى، وتقدس الطور بفضل البقعة المباركة، يبقى سؤال عن أساس القداسة في المحاور الثلاثة للقداسة، والمعنى أن ما الذي قدَّس كلا من الكعبة المكرمة والمسجد الأقصى والبقعة المباركة؟ وما أساس هذه القداسة؟

الجواب أن أساس هذه القداسة في الواقع ذلك التجلي الرباني، الذي تشرَّف به كل من البقاع الثلاث، وتقدست، فإن هذه البقاع تمثل بتصميمها الظاهري مباني حسية، إلا أنها بمعنوياتها تجليات ربانية، أكسبت هذه البقاعَ حيويةً ونشاطًا، وقداسةً وعظمةً، وخلَّدتْها أبد الدهر، وكوَّنتْها مراكز عالمية؛ ولكن اختلف ظهور التجليات الربانية في البقاع الثلاث باختلاف المراتب والدرجات، فوهب ذلك التجلي الرباني لكل بقعة من البقاع المقدسة نوعيةً خاصيةً من القداسة، تناسبها وتلائم طبيعتها.

ولا شك أن هذا الجواب الإجمالي المبهم، يحتاج إلى قدرٍ من الشرح والبيان، يوضح الخصائص الإقليمة للبقاع الثلاث، والأوضاع الطبيعية والمميزات الخاصة، والمناخات الفطرية، والأهداف السامية، مع الإشارة إلى ضرورة تقديس هذه البقاع الثلاث، فإنها إذا ظهرت هذه الأسس وانكشف عنها الستار تَبَيَّنَ أن نوعية كل بقعة تقتضي أن يكون لها من القداسة والفضيلة ما أوتيت، وأنها لا تستحق فضيلة وقداسة أكثر مما آتاه الله سبحانه وما ادعيته أنا لكل بقعة مباركة.

فهذا اللغز العلمي لا يكاد ينحلُّ بدون إيضاح أغراض النقاط الثلاث المحورية والغاية من وضعها وبناءها، والتصريح بما مرت به هذه البقاع من مراحل الهبوط والصعود والأطوار التاريخية، فأتناول كل ذلك في السطور القادمة:

الحاجة إلى وضع الكعبة:

أما الحاجة إلى وضع الكعبة المقدسة والغرض الأصيل من بنائها فهي تتمثل في أن الإنسان خُلق ليعبد الله وحده، ويطيع أوامره، ويجتنب نواهيَه، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** (سورة الذاريات: ٥٦).

كما أن الفطرة الإنسانية تقتضي أن يُسْلِمَ العبدُ وجهَه لله سبحانه دائما، فإن كل مصنوع يتبع صانعه، ويخضع لأوامره، ويختار من الشكل والوضع ما يريده صانعه، ويتحمل من القوة ما يودعه صاحبُه، ويأخذ من الأشياء ما يعطيه صاحبُه، ويعمل في الحدود التي حددها له صاحبه، فإذا كان الإنسان خُلق لعبادة الله عزوجل فمن طبيعة الإنسان أن يكون عابدًا لخالقه، الذي خلقه ليعبده، فعاطفة العبادة في الفطرة الإنسانية عاطفة طبيعية مُوْدَعة في جوهر الإنسان، ويشهد به كل العالم البشري، كما أن من مقتضيات الطبيعة البشرية الضعيفة المولعة بالماديات والحسيات أن عبادتها لا تهب لها معاني الطمآنينة والسكينة ما لم تشاهد معبودها، فإن المعبود إذا غاب عن العابد أصلا، فلم تبق بين العابد والمعبود تلك الصلة القوية والرابطة العميقة الجاذبة، فإن العابد يبتغي من عبادته التقرب إلى المعبود، وغاية التقرب هو رؤية المعبود، فرؤية المعبود هي بغية العابد دائما، ومن هنا أمر النبي صلى الله عليه وسلم باستحضار عظمة الخالق أثناء العبادة، فقال: أن تعبد الله كأنك تراه، والمعنى أنكم مازلتم تتصورون رؤية الله تعالى ما لم تتشرفوا برؤية حقيقية لله عزوجل.

ولفظ "كأنك" يشير إلى أن تصور الخالق المعبود يعطي العابد نوعًا من الطمآنينة والسكينة، ولو كان هذا الاستحضار بعين القلب والبصيرة دون البصر

الظاهري، وهذه العاطفة هي التي دعت الإنسان إلى أن يتخذ الأصنام ويعبدها، حتى لا تكون عباداتهم للمعبود الغائب خالية عن السرور الظاهري، وذلك أن الإنسان ليس روحا محضا؛ بل هو مجموعة من الروح والجسد، والجسد شيء مادي يتقيد بالزمان والمكان والشكل والصورة، ولا يستطيع أن يعرف كائنا خاليا عن الشكل والصورة، نعم! لو كان الإنسان روحا بلا جسد، مطلقا من إسار الجهة واللون، والرائحة والشكل والزمان والمكان لم يكن الروح في العبادة يحتاج إلى مشاهدة المعبود أو تصوره، فإن الله تعالى لم يجعل الروح قريبة منه وحسب؛ (وقد مر أن القرب هو الغرض الأصيل من العبادة) بل اعتبره لطيفة ربانية، نشأت بأمر الله عز وجل، وأعطاه منصب الحضور الدائم ومشاهدة الله تعالى، فالروح لطيف لم يشهده أحد من الخلائق بباصرته الظاهرة، كما أن الله لطيف لا يدركه الأبصار الظاهرة، ومع هذا اتفق العقلاء على وجوده، وكما أن الله سبحانه ليس له جهة ولا لون ولا كم ولا كيف، ولا شكل، فلاهو شرقي ولا غربي، ولا جنوبي ولا شمالي، ولا فوقي ولا تحتي، ولا يميني ولا يساري، فكذلك الروح المنزه عن هذه القيود والتشكيلات الإنسانية، فهو أيضا لا شرقي ولا غربي، ولا جنوبي ولا شمالي، وكما أن الله تعالى خبير بصير، عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه خافية، فالروح كذلك يشمل نطاقُه العلمي الشرق والغرب والأرض والسماء.

فإن الروح مع كونه في الأرض اتسعت تصرفاتُه وقوته التسخيرية إلى النجوم والكواكب والشمس والقمر، وذلك حسب ما أُودِع فيه من القدرة والطاقة، وقد أوضح الله تعالى شأن الروح العظيم فقال: "**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً۝ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً۝ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا**" [سورة الإسراء: ٨٥-٨٧].

ومن ثم نسب الله سبحانه الروحَ إلى نفسه عند ما أمر الملائكةَ بالسجود لآدم إشعارا بأن الروح من كمالات القدرة الربانية، حيث قال: **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** (سورة الحجر: ٢٩).

والظاهر أن الروح الذي هو مثال الكمالات الإلهية وخلقه الله سبحانه بأمره الخاص، ومطلق من القيود البشرية، لايحتاج هذا الروح إلى المشاهدة الحسية لله عز وجل في العبادات والتوجه إلى الخالق، فإن هذه القيود من عوارض الطبيعة البشرية، ومن هنا عاد من الضروري أن لا يغيب المعبود عن خاطر العابد أصلا؛ ولكن المعبود الحقيقي لطيف لا يصله البصر المادي، والبدن الإنساني كثيف، حتى لا يدرك اللطائف والمجردات، فراعى الله سبحانه هذه الفطرة الإنسانية المعجونة من الروح والبدن المتقابلين، وأقام جسرا بين النقيضين، وبسط عرشه الملكي في أرض مكة، ليسكن إليه الإنسان الذي أمر بأن يحضروه في الصلوات أو يتجهوا نحوه أثناء إقامة الصلوات، ليتم التقابل بين العابد والمعبود في الجملة، فإن العرش الملكي يقوم مقام الملك، ومن أجل ذلك يعظم الناس العرش عند ماكان الملك غائبا عن العرش لحاجة، ويخضعون للعرش ويقدمون إليه كل مايقدمون إلى الملك، ويعتبرونه وفاء بحق الملك، كما يقول العامة: إن الرعية أبدَت ولائها للعرش والتاج، والمعلوم أن العرش الملكي ليس ملكا؛ وإنما له مزية مع الملك، ليست لغيره من الفرد والرعية، فليس من الرعية من يستحق التاج والعرش، ولا يعتبر نفسه صاحب التاج والعرش، فإن من ادعي لنفسه أنه صاحب التاج فهو يعني الخروج على الحكم والبراءة عن إطاعة الملك، وهو عدوان مبين.

ومراعاةً للفطرة الإنسانية أقام الله سبحانه -وهو عالم الغيب والشهادة- عرشه في الأرض ليتجه الإنسان إليه في إقامة الصلوات والحج والعمرة والطواف والاعتكاف، فالكعبة المعظمة هي العرش الملكي الإلهي، الذي اُعتُبِر السجود أمامه هو

السجود لله عزوجل، فقد أمر الله تعالى في القرآن الكريم رسوله الصادق الأمين وأمته الإسلامية بالتوجه نحو المسجد الحرام قائلا: **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** (سورة البقرة: ١٤٤).

فتم وضع بيت الله ليستقبله المسلمون في عباداتهم، لا لعبادة بيت الله، ويجري الاستقبال ليصحح المسلمون مسارهم و مقابلتهم مع الله رب العالمين.

وقد يسأل هنا سائل: إن هذا يشابه عبادة الصورة والأصنام، فإن عباد الأصنام يمكن أن يقولوا: لا نعبد إلا الله وحده، ولكن لما كان الله تعالى غائبا عن الأذهان والابصار اتخذنا هذه الأصنام والأشكال الظاهرية لتكون دليلا على الله سبحانه، لتحصل السكينة ويتم التقابل بين العابد والمعبود، فكيف يكون هذا العمل شركًا، وإن كان هذا هو الشرك فالمسلمون شركاء في هذه الجريمة؛ فإن كانوا في حاجةٍ إلى بناء بيت الله تسكينًا للباصرة، فنحن أيضا في حاجة إلى الأصنام لنفس الغرض.

وقد أجاب العلماء عن هذه الوسوسة إجاباتٍ إلزامية كثيرة، قد يرد ذكر بعضها في السطور القادمة؛ ولكن الجواب الحقيقي واحد، وهو يتوقف على معرفة وضع الكعبة المقدسة وحقيقة صورتها، مع الإلمام بمعرفة صورة الأصنام وحقيقتها، فلا بد من بيان حقيقة صورة الكعبة وغرضها وفوائدها لتقضي على الوسوسة المذكورة بوجه مقنع.

خلفية وضع المحاور الثلاثة للبركة والقداسة ومراحلها التاريخية:

وضع الكعبة المعظمة:

إن وضع الكعبة المعظمة قد مر بمراحل تاريخية عديدة، ولكل مرحلة ملامح وخواص، تميزها عن غيرها من المراحل، وهي بالتالي:

المرحلة الأولى:

أما المرحلة الأولى لوضع الكعبة الشريفة فهي كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** (سورة آل عمران: ٩٦).

ومصداق هذه الآية الكريمة هي الكعبة الشريفة بلا اختلاف؛ ولكن المعلوم قطعا أن ليس المراد به ألوان الكعبة وصورتها الحسية؛ فإنها أمور تتغير في كل عصر وزمان، وتتبدل في الظروف المختلفة، بحيث لم يبق ذلك اللون الذي صبغت به الكعبة أول مرة، ولم يبق آثاره، كما لم يبق شكلها الأول وملامحه.

فلا يوجد الآن ذلك الماء الذي تم به تشخيص بقعة الكعبة الشريفة، ولا يُدرى عمق ذلك الماء ولا نتوءه كالقبة، فلا يصدق "أول البيت" على هذه الأشياء، ولا يوجد الآن الخيمة الياقوتية التي رفعت للأبد في طوفان نوح عليه السلام، حتى نطلق عليها "أول بيت"، ولا يمكن أن تكون القطعة الأرضية للكعبة هي المرادة بأول بيت، فإن هذه القطعة قد خلقت بعد الكعبة بآلاف السنين، وكانت الكعبة قبل خلق الأرض، وكان الملائكة يطوفون حولها، عند ما لم تخلق الأرض وما عليها من الموجودات، وكان بيت الله معبدا عظيما للملائكة.

وإذا ثبت أن علامات الكعبة وصورها الحسية القديمة بل والقطعة الأرضية التي قامت عليها الكعبة ليست مصداقا لأول بيت، فكيف يصدق لفظ "أول بيت" على المبنى الحالي للكعبة، ذي الأركان الأربعة، المصنوع بالحجارة السوداء؟ فإنه مصنوع من الأرض، والحقيقة أن خلق الأرض بدئ بالكعبة.

ثم لو كان أول بيت يصدق على الصور الحسية والأشكال المادية للكعبة لكان من اللازم أن تزول الكعبة بتغير هذه الأشكال والصور، أو زوالها وفنائها، ويلزم

كذلك أن تزول كل الشعائر المتعلقة بالكعبة من استقبال القبلة في الصلاة والحج والطواف وما إليها، مع أن هذه الشعائر كانت موجودة عند ما لم تكن للكعبة هذه الصور، وتسمى في ذلك الوقت أيضا بالكعبة وبيت الله.

إلى أن تغير هذه الصور وتعاقبها على الكعبة، وتبدل أشكالها وألوانها يمثل في ذاته دليلا على أن هذه الصور حدثت بعد وجود بيت الله، فهي صورة ثانية أو ثالثة أو رابعة، ولن تكون قبل الكعبة، والثاني والثالث والرابع كلمات تطلق على ما له أول، فإنه من المستحيل أن لا يوجد شيء، ويكون له ثان وثالث ورابع.

ومثل الصور التي اعترتْ الكعبةَ في أزمان مختلفة كمثل اللباس، الذي يلبسه الإنسان، والمعلوم أن اللباس يحتاج إلى اللابس، ووجود اللابس يسبق اللباس، فاللابس هو الأول، فإنه لو كان اللابس مسبوقا لا يكون للباس فائدة، ولا لصورته وتشكليلاته جسد يتحلى به، مما يدل على أن وجود الكعبة سابق على هذه الصور والأشكال والألوان، فلا تكون هذه الألوان مصداقا لأول بيت، مع أن القرآن أطلق على الكعبة لفظ أول بيت.

فإنا إذا جعلنا الكعبة أمرا ثانيا أو ثالثا لكان مخالفا لقول الله عزوجل: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** (سورة آل عمران: ٩٦)، وهذا ممتنع شرعا، فالأولية والثانوية إذا لحقتا بالصور والأشكال، كان وجودها بعد وجود بيت الله، ومصداق أول بيت هي الحقيقة التي تعتريها هذه الأشكال والصور، ولا شك أن هذه الحقيقة ليست إلا الجهة الكريمة في الفضاء، الممتدة من الأرض إلى السماء، التي سماها الله تعالى الكعبة، وألحق بها عددا من الصور والأشكال للتعريف بها ولأسباب حكيمة معقولة.

فهذه الصور تمثل علامات البيت، ولن تكون أول البيت، ولا البيت نفسه، وبذلك تعين مصداق أول البيت الوارد في القرآن الكريم، وهو الجهة الفضائية التي عينها الله تعالى قبل خلق الأرض بألاف السنين، ولقبها ببيت الله، وليست هذه الصور

المتغيرة إلا أمارة على ذات الكعبة، فهي دالة على القبلة دون القبلة نفسها. وما أحسن ما قال الشاعر الهندي الشهير: ميرزا أسد الله خان غالب الدهلوي:

"إن الإنسان يعجز عن إدراك حقيقة المعبود ومن ثم يصف أهل النظر القبلة بأنها دليل القبلة، وليست هي القبلة نفسها".

وإذا ثبت أن القبلة هي الجهة الفضائية، والجهة لاتتبدل، ولا تبرح مكانها، فالكعبة أيضا ثابتة في مكانها الذي خلقت فيه أول مرة، ومن شواهد دوامها وثباتها ثبات المبنى الذي قام على أساسها، ولما غاب موضع الكعبة في طوفان نوح هدى الله تعالى إبراهيم إلى موضعه الصحيح ليبني عليه الكعبة، ومن ثم نيط بالكعبة نظام العبادة في الإسلام، فإن العبادة في حاجة إلى الشأن الظاهري لتتحدد جهة العبادة.

فقد تم ربط الركنين الأساسيين للإسلام بالكعبة الشريفة ربطا مستقلا، وهما الصلاة والحج، وأما الصوم والزكاة وما سواهما من العبادات فهي أيضا مرتبطة بالكعبة حسب درجاتها ونوعيتها، كما سيأتي تفصيله.

فالكعبة الحقيقية هي الكعبة الوضعية التي هي الجهة المختارة في الفضاء، وما يعتريها من صور وأشكال فهي علامات على صورته المشخصة، سواء كانت صورة مائية أو ترابية، أو حجرية، أو ياقوتية، أو أرضية، فهي ليست كعبة بعينها؛ وإنما هي دليلها، وشواهد التعريف بها، والكعبة الحقيقية هي التي تستَّرت وراء هذه الصور، وهي التي تحمل أسسا قوية للعظمة والتقديس، كما سأذكرها في الصفحات القادمة، وبذلك انتهى ذكر المرحلة الأولى الرامية إلى تحديد مصداق الكعبة، وهي الجهة المختارة في الفضاء. ولله الحمد.

المرحلة الثانية:

والمرحلة الثانية تتعلق بوضع الكعبة، وهذا أمر أوضحه الله تعالى في القرآن الكريم، والمعنى أن وضع الكعبة هو تعيين حقيقة الكعبة التي أنجزها الله تعالى في علمه، وليس المراد بوضع الكعبة هو صورها التخليقية أو البنائية، فإنها طارئة على

وضع الكعبة بعد تعيينه، وقد ذكر الله تعالى بقوله: وُضِعَ لِلنَّاسِ، ولم يقل: عُمِرَ للناس، فليس المراد بناء الكعبة، بل وضعه وحقيقته، مما يدل على أن الوضع شيء والبناء شيء آخر، فالوضع يسبق البناء، وهو عبارة عن تصميم وتحديد الخطة التي يتم البناء في ضوئها.

وإلا لم يكن علي المرتضى رضي الله عنه ليقول: كانت بيوت قبل الكعبة، فهو يريد بالكعبة بناء الكعبة، لا حقيقة الكعبة، فلم يكن في الدنيا بيت لعبادة الله قبل الكعبة، نعم ! بعد وضع الكعبة بنيت في الدنيا بيوت قبل بناء الكعبة، وهو المراد بقول علي رضي الله عنه.

معنى الوضع:

المعروف أن الوضع لا يرادف الخلق؛ بل الوضع يعنى التعيين والتشخيص العلمي، أي يحدد الإنسان شيئا أو مكانا في ذهنه ثقةً بالعلم، والظاهر أن هذه مرحلة تسبق الخلق، فالوضع عملية التعيين والانتخاب، فإن الخلق يعنى إيجاد الشيء بالشيء، كما خلق الله الإنسان من الطين، والجن من النار، والملائكة من النور، والنفس الإنسانية أو النسمة من النسيم، والخلائق الجوية من الهواء، والخلائق البحرية من الماء.

والمعلوم أنه لم يكن في الدنيا شيء لدى خلق الكعبة، حتى تُصنع منه الكعبة، فلم يكن تراب ولا ماء ولا نار، ولا هواء، ولا نسيم ولا أرض ولا سماء، وإنما كان الخلاء والفضاء، وهو ليس بشيء، بل هو لاشيء، فوضع الكعبة من حيث المدلول اللغوي يعني تعيين مكان الكعبة دون خلقها.

ثم هذا التعيين لو اشتمل على الظرف المادي والمظروف المادي لكان الوضع هو الآخر ماديا، كالطعام في الإناء، والماء في الكوز، والسرير في الحجرة، فإن كلا من الظرف والمظروف مادي، إلا أن هذا الوضع لغوي، ومعناه هو صب الماء في الكوز مثلا، ولا يعني خلق الماء.

وإن كان كل من الظرف والمظروف معنويا غير مادي فالوضع أيضا يكون معنويا، كالعلم في القلب، والخيال في الدماغ، والعاطفة في النفس، والظاهر أنه لم يكن للمادة دخل في وضع الكعبة، حيث لم يكن عندئذ كعبة، فلم يكن هناك ظرف، توضع فيه الكعبة، ولم يكن مظروف مادي، بل كان خلاء وفضاء، وهو عبارة عن الخلو من الشيء.

فكلمة الوضع إذا أُطْلِقت في سياق الكعبة يراد بها التعيين العلمي لمكان الكعبة، والمعنى أن الله تعالى قَبْلَ خلق الأرض بكثير عيَّن مكان الكعبة، وسماها الكعبة، وجعلها قبلة المسلمين في كل زمان، وليس ثَمَّةَ بِناءٌ، حتى يراد بالوضع الخلق.

الحاصل أن الله تعالى لما أراد إيجاد الكعبة، اختار من الفضاء الذي لا تُحَدُّ حدوده، ولا تُحْصَر مسافته بحد و قيد، وسماها الكعبة، ولا تَحْمِلُ الكعبةُ حينئذ صورتَها الحسية التي تراها العيون؛ بل كانت الجهة الخاصة للفضاء المحدَّد، وأُطلِقت عليها الكعبة، ومن هنا سُمِّيَتْ بأول بيت.

وهذا لا يعبَّر عنه إلا بكلمة الوضع، لا بكلمة الخلق والبناء، فلم يكن هناك مادة، تُبْنى بها الكعبة، ولذا لم تُستخدم كلمة الخلق لتشخيص القبلة، بل تمَّ استخدام كلمة الوضع، وبه يشهد العرف العام والاستعمال اللغوي.

وإذا نظرنا إلى الاستعمال اللغوي لكلمة الوضع وجدنا أن الوضع عامة يطلق على الأمور المعنوية التي لا تتدخل فيها المادة، يقولون: إن الحكومة وضعتْ القانون، يريدون به رسم القانون لا بناء عمارة القانون، والهيئة التشريعية يطلق عليها واضعوا القوانين لا بناة مباني القوانين، والأصول الموضوعة تطلق على القواعد الأساسية لكل علم وفن، ولا يراد بها عمارات المسائل، والمباحثُ الأساسيةُ لكل كتاب يطلق عليها "موضوع الكتاب" لا حُجْرَةُ الكتاب، ومعنى الوضع تعيين المسائل الأساسية التي يُبحث عنها في الكتاب، التي تتفرع عنها المسائل الثانوية.

ولا يخفى على الجميع أن هذه الأمور كلها معنوية غير مادية، ومن هنا استعمل اللهُ تعالى كلمة الوضع في القرآن الكريم ليدل على تعيين مكان الكعبة، مما يعني أن أولية الكعبة لاتحتاج إلى بناء حسي أو عمارة مادية؛ بل وضع الكعبة يعني تشخيص الجهة الفضائية التي حدَّدها الله في علمه، ومن هنا قال الله تعالى: وُضِعَ لِلنَّاسِ، لا عُمِرَ للناس.

كما يجب أن نلاحظ أن لفظ "أول بيت" الوارد في القرآن الكريم يدل على إطلاق الوضع عن أي قيد، مما يثبت الأوَّلية المطلقة للكعبة الشريفة، وهذه لاتتحقق إلا بوضعها الأول، فالكعبة الوضعية هي مصداق أول بيت دون الصورة البنائية للكعبة، فإن الأولية لا تصدق على البناء والصورة، فإن الصور والأشكال حدثت بعد وجود الكعبة وتحديدها، فإن بناء الكعبة إنما صُنِعَ من التراب، وبُنِيَ على الأرض، فكيف يكون البناء أول من الأرض، مع أن الأرض خُلِقَتْ بعد وضع الكعبة بآلاف السنين، فالوضع مقدم على الأرض.

وعلى كل فإن المراد بأول بيت في القرآن الكريم هي الكعبة الوضعية والجهة الفضائية دون أشكال البيت والصور الحسية له أو مبانيه في كل عصر وزمان، والروايات التاريخية في هذا الباب تؤكد أولية وضع الكعبة، دون بناء الكعبة، فقد ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أيُّ مسجدٍ وُضِعَ أولًا؟ قال: المسجد الحرام، قال: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى[1].

فهذه الرواية المروية عن أبي هريرة تؤكد على أن المراد بأول بيت هو بيت الله الوضعي دون بناء الكعبة، وبيت الله الوضعي هي الجهة في الفضاء، وإن كان هذا البناء داخلا في جهة الكعبة وليس بخارج منها، ومن ثم يطلق على بناء الكعبة بيت الله؛ ولكن الغرض منه أيضا هو هذه الجهة التي هي بيت الله حقيقة.

(١) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم الحديث: ٣٣٦٦.

أما تشكيلات الكعبة فتتعين حيثيتها بالروايات والآثار، كما سأذكرها في السطور القادمة:

دلائل ظهور مراتب بيت الله:

والظاهر أن وضع بيت الله شيء خفي عن الأبصار، فقامت حاجة بعد الوضع الباطني إلى الوضع الظاهري الذي مرَّ بمراحل عديدة، منها ما يلي:

فقد بدئت مرحلة ظهور بيت الله بالماء، وانتهت بالتراب، كما يظهر بالنظر في الروايات والآثار، مع الاعتراف بأن ظهور مراتب بيت الله أو أطوار تخليق الكعبة لم يثبت بخبر النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم؛ إلا أن آثار الصحابة وروايات السير اشتملت على الإشارة إليها، فلا يناسب أن نلغي هذه الروايات والآثار بحجة أنها غير موثوق بها، ثم هذه الأمور ليست مما يُدْرَكُ بالقياس والاجتهاد؛ بل هي حقائق غيبية، لا تثبت إلا بالنقل والرواية، والمعلوم أن آثار الصحابة فيما لا يدرك بالقياس تحمل حكم الحديث المرفوع، ومع هذا فإن كثرة هذه الروايات تجعلها على الأقل في درجة الحسن إن لم تكن في درجة الصحيح لعينه، ثم الضعاف في باب الفضائل مقبولة، فلا بأس إذن في استنباط اللطائف الإلهية والحقائق الغيبية والحِكَم والأسرار من هذه الروايات والآثار، ولو ضعفت.

وضع المسجد الأقصى:

وضع المسجد الأقصى يماثل وضع الكعبة المشرفة، فإنه هو الآخر وُضِع بتعيين رباني خفي عن عالم الأنظار، ثم أظهره الله تعالى في تشكيلاته الحالية وصوره المادية، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ: أي مسجد وضع أولا، قال: المسجد الحرام، قال: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قال: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة[1].

(١) المصدر السابق.

وبهذه الرواية تَبَيَّنَ أنه كما كان المراد بأول بيت هو وضع الكعبة والجهة المعينة لها دون تشكيلاتها الظاهرة، فكذلك هذه الرواية تُبَيِّنُ أن المراد بوضع المسجد الأقصى هو الوضع الرباني دون صوره ومبانيه.

وضع جبل الطور:

أما وضع الطور فإنه وإن لم يرد في ذلك شيء من الحديث والخبر، يُستدل به على الوضع الحقيقي للطور، ويكون وضعه منصوصا به كوضع الكعبة المشرفة والمسجد الأقصى؛ لكنه قد ورد في النصوص الشرعية كثير من الفضائل والمناقب للطور، التي تجعله يقارب منزلة الكعبة والمسجد الأقصى، وهذا التشابه لا يمكن أن يفسَّر إلا ضمن التشابه في الوضع الحقيقي، فوضعه أيضا ثابت بهذه النصوص الكريمة، ولا يكون الحديث عن وضع الطور من الأمور الغير المنصوص عليها، فنستطيع أن نقول: إن الطور وجانبه الأيمن قد خُلِقَا بالوضع الإلهي.

العلامات العشر لوضعية الطور:

١- وفي هذا الصدد أول ما أقوله هو أن الله جعل الطور مورد التجلي الإلهي لا مرة واحدة وحسب؛ بل مرتين: أما المرة الأولى فقد ظهر التجلي الرباني مما جعل الطور دكًّا، وأما المرة الثانية فعند ما نزل التجلي في صورة نار، وكان موسى ساعتها يبحث عن نار ليصطلي بها هو و أهله، والظاهر أنه لم ينل هذا الشرفَ من الجبال إلا الطور، وذلك لما فيه من خصيصة وقداسة.

٢- ومن جانب الطور الأيمن ظهر كلام الله تعالى: "إني أنا الله" بشكل مهيب مرعب.

٣- وفي أحد جوانب الطور تشرَّف موسى بمنصب النبوة، وأوتيَ التوراة المقدسة، كما نزل على نبينا محمد ﷺ القرآن الكريم في غار حراء، وأوتي النبوة.

٤- كون الطور مكانا مأمونا من فتنة الدجال في آخر الزمان، حيث يبقى هذا الجبل آمنا من فتنة الدجال وياجوج وماجوج، كما كان الحرم المكي وجبال مكة يأرز إليها المسلمون في آخر الزمان.

٥- وكما أن رسول الله ﷺ حُبِّبَ إليه الخلاء، فاختلى في غار حراء، كذلك أُمر موسى عليه السلام بإتمام ميقات ربه أربعين ليلة في جبل الطور، فكان كل من غار حراء وجبل الطور متشاركين في كونهما مورد التجلي الرباني والكلام الإلهي.

٦- وقد تفجر من جبل الطور منبع النبوة الإسرائيلية، التي برز منه آلاف الأنبياء في بني إسرائيل، وملأوا الدنيا علما وفضلا- كما تفجر من غار حراء منبع ختم النبوة بل جامع النبوات، وهي نبوة سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، التي جعلت أنبياءَ بني إسرائيل يدعون الله سبحانه أن يكونوا من أمته، وينهلوا من منهله العذب، ويقتفوا أثره.

٧- ثم وُصِفت البقعة المباركة من الشجرة الواقعة بجبل الطور بالبركة، وظهر هناك التجلي الرباني كما وُصف بها كل من الكعبة الشريفة والمسجد الأقصى.

٨- وقد وصف الحديثُ النبويُ جبل الطور بأنه من جبال الجنة، كما لقب النبي صلى الله عليه وسلم أحد جوانب المسجد النبوي روضة من رياض الجنة.

٩- وفضائل الطور ومناقبه كلها ثابتة للطور في العلم الإلهي، كما أُودِعت مكة المكرمة والقدس الشريف فضائلها ومميزاتها قبل بنائهما الصوري، والظاهر أن الاشتراك في الفضائل والمناقب دليل على قداسة الطور وعظمته.

١٠- وكما أن الوضع الصوري لكل من الكعبة والمسجد الأقصى وافَقَ تماما الوضع الحقيقي، فكذلك الوضع الصوري المتمثل في الشجرة المباركة يوافق وضعه الحقيقي.

وكل هذه الفضائل ثابتة بالروايات، وإن كان الحديث لم يذكر فضائل الطور بلفظ الوضع؛ ولكن المميزات المذكورة لا تنطبق إلا على الوضع، فلا بأس إذن أن نعبر عنه بالوضع الإلهي، وهو أساس القداسة والعظمة، مما يدل على أن جبل الطور وما به من البقعة المباركة يحمل خصائص العظمة منذ الأزل، وبعد كل هذه الفضائل إذا أنكرنا

الوضع الحقيقي للطور كان من اللازم أن ننكر وضع المسجد الحرام والمسجد الأقصى، فإن الخصائص المعنوية التي أودعت كل من الأماكن الثلاثة مكتسبة من الوضع الإلهي، فالكعبة المقدسة موضوعة بالوضع الأول بنص القرآن الكريم، والقدس الشريف موضوع بالوضع الثاني بنص الحديث الشريف، والطور موضوع بالوضع الثالث كما تقتضيه النصوص والآثار.

والحاصل أن هذه الأماكن الثلاثة التي جعل الله تعالى بعضها سببا في بداية الكائنات وبعضها سببا في انتهاء الكائنات، ومن هنا جمع الله تعالى هذه الأماكن الثلاثة في سورة التين، وأقسم بها إشعارا بعظمتها، وتأكيدا على كونها معيار العروج والزوال والجمال والكمال للإنسانية، ومن ثم وصف الحديث النبوي مكة بدار الخير، والقدس الشريف بدار الشوكة، والبقعة المباركة من الطور بدار السياسة.

مظاهر الأماكن المقدسة ومراحل تشكيلها

تساؤلات أساسية:

أما أنه كيف كانت نشأة المراكز الثلاثة: الكعبة والمسجد الأقصى والطور؟ وكم مدة استغرقت هذه النشأة؟ وما هي المراحل التي مرت بها حتى توصلت إلى المرحلة النهائية، وصارت مراكز عالمية؟ وما هي المميزات التي سببت قداستها العالمية، التي تقدَّست بها هي وما حولها من البقاع القريبة والبعيدة؛ بل بلغت القداسة كل بقعة من بقاع العالم، وتقدست كثير من أمم الدنيا بفضل الارتباط بهذه المراكز المقدسة؟

أحد الأصول الذهبية:

فالجواب عن هذه التساؤلات يتوقف على فهم الأصل التالي المهم:

وهو أن كل شيء في الدنيا يوجد أولا في الباطن، ثم يتشكل بالأشكال الظاهرة في الخارج، فالوجود أمر باطني، والصورة والشكل من الأمور الظاهرة، فالوجود الحقيقي هو

وجود الباطن، دون الظاهر، أما الظاهر فهو وسيلة للتعرف على الشيء، وإبرازه، فإن المهندس مثلا إذا أراد أن يبني قصرا، بناه أولا في ذهنه، ثم يشكِّله في الخارج وفق الوجود الظاهري، وكذلك إذا أنشأ الموجد شيئا جديدا، تصوره أولا في ذهنه، ثم يوجده في الخارج حسب الوجود الذهني، وكذلك الخطيب يرتب خطبته أولا في ذهنه، ثم يلقيها أمام الناس كما رتبها في الذهن، فيستفيد منها الناس، فهذا الاتصال بين الظاهر والباطن من الأصول الفطرية التي فطر الله الناس عليها: **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** (سورة الروم: ٣٠).

تطبيق الأصول الفطرية في الأماكن الثلاثة:

وظهر هذا الأصل الفطري في الأماكن الثلاثة أيضا، حيث ظهرت هذه الأماكن في باطن علم الله تعالى من الأزل، فهو وجود باطني للأماكن، ثم أخرجها الله تعالى وفق ما كانت في علمه، ثم مرت بمراحل تاريخية، حتى توصلت إلى ما هي عليه الآن من صورة ظاهرة وباطنة، ويمكن تقسيمها إلى ستة عناوين تالية:

١- الوضعية: ومعناها اختيار الجهات الثلاث للأماكن من بين الفضاء اللامحدود.

٢- الحقيقة: وهي كثرة الخير والبركات، والقوى المعنوية، والآثار النيرة المودعة في كل من الأماكن الثلاثة، التي جعلت هذه الأماكن مقدسة.

٣- المحلية: تخصيص مواضع الأماكن عندما كان الفضاء مليئا بالماء من الفوق إلى التحت.

٤- المحدودية: وهي وضع الحدود الأربعة للأماكن الثلاثة في المحيط المائي.

٥- الإراءة: وهي إراءة الملائكة والشخصيات النورانية الجهات المحدودة الخفية، ليستفيدوا منها.

٦- الصورة: وهي كسوة الجهات المختارة لباس البناء والصورة في هذا العالم الخارجي المادي، ليعرفها خلائق الدنيا.

وهذا ترتيب فطري، أظهر الله تعالى هذه الأماكن عليه، وجسَّد لها الوجود الظاهري والباطني، وكان من المعقول أن نذكر مقاصد الأماكن الثلاثة وظاهرها وباطنها وفق هذا الترتيب الإلهي، أي نتحدث أولا عن وضع الأماكن، ثم عن حقيقتها الباطنة، ثم عن محلها الغيبية ومواضع الانتخاب، ثم عن الحدود الأربعة، ثم عن إراءتها الغيبية، ثم عن صورتها الظاهرة.

ولكن الذهن الإنساني لا يدرك حقيقة الشيء وخواصه وآثاره ووضعه الفطري بدون مشاهدة صورته الظاهرة ومحل وقوعها، فلا يقدر على معرفة باطن الشيء لأول وهلة، ومن أجل ذلك إني مضطر إلى التعريف بالجسد الظاهري والصورة المادية للأماكن الثلاثة؛ ثم نتناول الشكل الباطني بالبيان وفق مقتضيات الكتابة، ثم نتحدث أخيرا عن الوضع الباطني بالتفصيل.

أما بالنسبة إلى الظهور المادي للجهة الفضائية المقدسة ليدركه الأبصار، ويتعرف عليها الناس تاريخيا فاذكره بالتالي، وبما أن ظهور الكعبة سابق على غيرها، فأتناوله أولا.

مراحل ظهور الكعبة:

المرحلة الأولى: صورة الكعبة وهي ماء عميق: ظهرت الكعبة أولا في البحر العميق، الذي قام عليه العرش الرباني، فآثار بعض الصحابة تهدي في هذا الجانب إلى أن الكعبة ظهرت أولا في الماء، الذي تماثل أمواجه الأرض والسماء كما نص به الحديث، يقول ابن عباس رضي الله عنه: ظهرت صورة الكعبة أولا في الماء، فأبرزت عن خسفة في موضع البيت[1].

---

(١) باسلامة المكي، **تاريخ الكعبة**، ص١٣.

المرحلة الثانية: صورة الكعبة وهي ماء ذو الارتفاع والنتوء: والمعلوم أن الماء يصطدم بكل قوة في المواضع المنحدرة، مما يخلق الأمواج، ويتلاطم البحر، مما جعل الكعبة تظهر من عمق البحر إلى ظاهره، متشكلا بصورة كالزبد، ثم تمثلت قبة فوق الماء، حيث دلت عليه رواية ابن عباس سابقا.

المرحلة الثالثة: صورة الكعبة وهي كالزبد:

فقد جاء في الروايات ما يفيد التالي:

"هو أول بيت ظهر على الماء عند خلق الماء والأرض، خلقه قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء، فدُحيت الأرض من تحته"[1].

وقد رواه البغوي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ومجاهد وقتاد والسدي وغيرهم من المفسرين المشاهير .

فروي أنه لما حان خلق الأرض أرسل الله تعالى ريحا شديدة، هبت من المقام الناتئ كالقبة، الناشئ من زبد الماء، -وهو موضع الكعبة الشريفة- مما جعل الأمواج في ذلك المقام تتلاطم وتتصادم بقوة، فاشتد الزبد وغلظ، إلى أن تحجَّر، كما يشتد الزبد عادة عند ما جمد في شواطئ البحار، ويصير في شدتها كالحجار، وهذا ما يسمى بالزبد البحري في عرف الناس.

المرحلة الرابعة: الصورة الأرضية لظهور الكعبة:

وعن هذا الطريق نشأ شيء جامد في ذلك المقام الخاص، ونبت شيء أرضي مسطح صغير الحجم، ومنه دحيت الأرض، فقد جاء في رواية ابن عباس ما يفيد هذا المعنى: "كأنها قبة فدحي الأرض من تحتها، فمادت فأوتدها الجبال"[2].

---

(١) المصدر السابق، ص١١.

(٢) المصدر السابق.

مما يدل على أن الكرة الأرضية لم تُخْلق دفعةً واحدةً، بل كانت في أول أمرها صغيرة، ككل الأشياء التي تكون في بدايتها صغيرة، ثم تنمو وتكبر تدريجيا حسب الربوبية الإلهية، حتى تكتمل ملامحها، فكانت القطعة الأرضية هذه كوليد، نشأ صغيرا، ثم عاد يافعا قويا، وبلغ منتهاه في القوة والنشأة، والعالم الأرضي هذا ناشئ من القطعة الصغيرة التي قامت عليها الكعبة.

ويقول ابن عباس في هذا الصدد: "كان موضع البيت شبرا، أو أكثر، وكانت الملائكة تحجه قبل آدم، ثم حج آدم"[1].

خلق الكعبة مقدم على خلق السماء:

وبهذا تبين أن الأرض خُلقت قبل السماء، إلا أن المد الأرضي تمَّ بعد خلق السماء تدريجيا، كما نص به القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى: **أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (*) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (*) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (*) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** (سورة النازعات: ٢٧-٣٠).

وقال في موضع آخر: **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (*) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (*) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** (سورة فصلت: ٩-١١).

مما يوضح أن مادة الأرض خلقت قبل السماء، والمعلوم طبعا وعقلا أن الجانب التحتي للمباني يُبنى أولا، ثم يبنى السقف، ومن هنا وصف الله تعالى في القرآن الكريم

---

(١) بل هو حديث مرفوع، أخرجه البيهقي في **شعب الإيمان**، بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كان موضع البيت في زمن آدم عليه السلام شبرا أو أكثر علما، فكانت الملائكة تحج إليه قبل آدم ثم حج آدم فاستقبلته الملائكة قالوا يا آدم من أين جئت؟ قال: حججت البيت فقالوا: قد حجته الملائكة قبلك. (رقم الحديث: ٣٩٨٦).

الأرض بالفراش، والسماء بالسقف مشيرًا إلى هذه الحقيقة، فالسقف لا يُبْنى قبل الأساس الأرضي والأعمدة، فالحاصل أن الأرض خلقت قبل السماء، إلا أن امتدادها تمَّ بعد خلق السماء.

تشكيل الكرة الأرضية:

فمادة الأرض المتمثلة في الماء الجامد نمت وامتدت حتى بلغت منتهاها، ثم وقفت على حدها الأقصى، وبقي الماء في جوانبها الأربعة يموج ويتلاطم كعادته متمثلا في المحيطات الكبار.

وعلى كل فإن الوضع الفضائي للكعبة –الذي لا يدرك بالأبصار– ظهر أولا فوق الماء، ثم اختار أشكالا عديدة، حتى ظهرت صورتها الأرضية، وفي هذه المرحلة أيضا مرَّ بأطوار ومراحل، فالماء الجامد –وهو أصل الأرض- بدأ من الشبر ثم امتد أولا إلى المقاس الذي بنيت عليه الكعبة، ثم امتد حتى انتهى إلى العالم الأرضي كله، وظهرت الكرة الأرضية في صورتها الحالية، التي نجمت عن الكعبة المقدسة، ومنها خلقت الأرض، وبقيت الكعبة وسط الدنيا.

اعتراض والإجابة عنه:

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم أشكل عليهم هذه الحقيقة، وكان اعتراضهم معقولا في ظاهره، حيث قالوا: كيف خُلِقت الأرض قبل الأرض، وهي من الأرض؟ فقال: إنه كان عليها ملكان يسبحان بالليل والنهار ألفي سنة، فلما أراد الله أن يخلق الأرض دحاها من تحت الكعبة، وجعل الكعبة وسط الأرض[1].

وحاصل هذا الجواب أن ليس المراد بخلق الكعبة خلق بناءها المكوَّن من الأشياء الأرضية، حتى يرد هذا الاعتراض؛ بل المراد جهة الكعبة في الفضاء، وهي أصل الأرض، ولا دخل فيها لمادة أرضية، حيث لم يكن عندئذ أرض ولا سماء، فيمكن

(١) **تفسير فتح العزير**، ج١، ص٤٥٦.

أن تُصنع الأرض من الكعبة، ولا يمكن أن تُصنع الكعبة من الأرض، والظاهر أن هذه الجهة الغيبية لا يدركها إلا رجال الغيب (الملائكة) فهم الذين عُيِّنُوا ليسبحوا لله وحده، ويثبت بكون الكعبة وسط الأرض أن الأرض مستديرة، ووسطها الكعبة، وليست مثلثا أو مكعبا، أو خطا، فإن الوسط الحقيقي لا يتحقق في الصورة الغير المستديرة، كما سيأتي توضيحه.

الجهة شيء دائم:

وعلى كل فالكعبة المقدسة جهة في الفضاء، ومعلوم أن الجهة لاتتبدل، نعم تتبدل إضافتها، حيث إن كانت هي في الشرق، يطلِق عليها الغربيُّ أنها شرقية، وإن كانت في الغرب يقول الشرقي: إنها غربية، مع أنها قائمة في مكانها، ولا تبرحه قيد أنملة، بل تتبدل إضافتها، وهذا أمر يجعل للكعبة وجودا دائما لايزول عن مكانه.

الظهور الأول الحسي للكعبة:

فظهرت الجهة الفضائية للكعبة أولا في الماء، ثم مرت بمراحل حتى انتهت إلى الصورة الأرضية، وهي أصل الأرض كلها، فليست الأرض أصل الكعبة، بل الأمر على عكسه، وبقيت الجهة على حالها، وبما أن الجهة لايدركها الأبصار ولا يميزها الحس البشري عن غيرها، ما لم يلحق بها أمارة مادية أو بنائية، والعمارة المكانية لا تقوم عادة بدون الأساس الأرضي فأمر الله تعالى الملائكة عليهم السلام بحفر أساس الكعبة في دائرتها، وكان الأساس بالغا إلى مدى الأرض السابعة، ثم ملأها الملائكة عليهم السلام، وقبل بناء الكعبة مُدَّت فوقها خيمة مصنوعة من الياقوت الأحمر المجلوبة من السماء، شملت جهة الكعبة كلها، وهذا أول ظهور حسي للكعبة، حيث جاء في رواية كعب الأحبار:

" أَنَّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، سَأَلَ كَعْبًا، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْبَيْتِ، مَا كَانَ أَمْرُهُ؟، فَقَالَ: " إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ أَنْزَلَهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ يَاقُوتَةٌ مُجَوَّفَةٌ مَعَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا بَيْتِي فَطُفْ حَوْلَهُ وَصَلِّ حَوْلَهُ كَمَا رَأَيْتَ مَلَائِكَتِي تَطُوفُ حَوْلَ عَرْشِي وَتُصَلِّي، وَنَزَلَتْ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ فَرَفَعُوا قَوَاعِدَهُ مِنْ حِجَارَةٍ ثُمَّ وُضِعَ الْبَيْتُ عَلَى الْقَوَاعِدِ، فَلَمَّا غَرَّقَ اللهُ قَوْمَ نُوحٍ رَفَعَهُ اللهُ وَبَقِيَتْ قَوَاعِدُهُ "[1].

وعلى هذه الحدود الأربعة للكعبة أَسَّسَ آدم الكعبة، ثم رفع إبراهيم خليل الله قواعدها على هذا الأساس، ومبنى الكعبة مازال يتغير لونها وصورتها حسب الزمان والأوضاع، إلا أن جهتها مازالت في مكانها لا تتغير ولا تتبدل، وهي قائمة في مكانها حتى اليوم، وستقوم كذلك إلى يوم القيامة.

الأطوار المختلفة لبناء الكعبة:

فأصل الكعبة المتمثل في الجهة الفضائية التي لا تتغير ولا تتبدل شيء قديم أزلي، وكيف لا؟ فالله رب العالمين هو واضعه الأول، والملائكة عليهم السلام هم حافرو أساس البيت، وآدم عليه السلام هو مؤسسه في الدنيا، وإبراهيم عليه السلام هو بانيه على الصورة المادية، وتولى رجالٌ آخرونَ تجديد بناء الكعبة بعد خرابها في الأزمنة المختلفة، وكان آخرهم هو الحجاج بن يوسف، وآخر من اعتنى بهذا الجانب هو خليفة المسلمين السلطان مراد أمير الدولة العثمانية، الذي أحكم بنيان الكعبة، وعلى بنائه ينتهي سلسلة البناء والتعمير في المسجد الحرام، ومبنى الكعبة حاليا هو من بناء الأمير المذكور[2].

---

(١) البيهقي، **شعب الإيمان**، رقم الحديث: ٣٧٠٣.

(٢) هذا في زمان الشيخ، ثم اهتم الملوك السعوديون اهتماما بالغا ببناء وتوسيع المسجد الحرام والمسجد النبوي وغيرهما من المساجد والأماكن التاريخية، ولا شك أن جهودهم في هذا المجال مشكورة، فجزاهم الله خير الجزاء.

فشارك ١١جهة في بناء الكعبة في مختلف الصور والأشكال، كما رواه السخاوي في كتابه منائح الكرام عن علي ابن عبد القادر الطبري المكي، فقال:

بنى البيت خلق، وبيت الإله ✯ مدى الدهر من سابق يكرم
ملائكة، آدم، ولده ✯ خليل، عمالقة، جرهم
قصي، قريش، ونجل الزبير ✯ وحجاج، بعدهم يعلم
وسلطاننا الملك المرتجى ✯ مراد هو الماجد الأعظم[1]

خلاصة مراحل التشكيل:

وأريد تلخيص مراحل تشكيل الكعبة، فأقول: أولا وضع بيت الله، وهو اختيار البقعة المباركة التي كانت من قبل معينة للكعبة في علم الله تعالى، والتي كانت حقيقة باطنية، خفية على الأنظار، لم تكن لها صورة مائية أو مادية، ليراها العيون، بل هي خلاء لا محدود، ولكن هذا الخلاء اللامحدود ظهر في صور مادية عديدة، تتمثل في الماء العميق، ثم الماء المرتفع كالقبة، ثم الزبد الناشئ من الماء الجامد، ثم شدتها كالحجارة، ثم خلق الأرض من أصل الكعبة، ثم ترسيخ أصل الكعبة إلى ما تحت الثرى، ثم إقامة الخيمة المكونة من الياقوت الأحمر، ثم بناء الكعبة بشكل مبنى خاص، تغيرت أشكاله وأوضاعه في مختلف الزمان.

خلاصة ظهور البيت:

وبعد كل هذا يناسب أن ألخص الخريطة النظرية والعملية لوضع الكعبة الشريفة، وذالك بالتالي:

١. وضع الله تعالى الكعبة في الجهة الخاصة في الفضاء، وهو وجود وضعي أو عملي للكعبة.

---

(١) عبد الله باسلامة المكي، **تاريخ الكعبة**، ص١٨.

٢. **الوجود الحسي**: ثم خلقت الأرض من الكعبة، ووضعت الحدود الأربعة لها بوضع أعمدة في كل جانب، وهذا وجود حسي للكعبة.

٣. **الوجود الآبي**: ثم أبرز الوضع المعنوي أو الجهة الخاصة الخفية، فأخرجه على الماء، وهذ وجود مائي.

٤. **الوجود الحجري**: ثم رقَّاه فجعله كالزبد البحري، الذي يشبه في القوة والشدة كالحجارة، وهذا وجود حجري.

٥. **الوجود السطحي**: ثم خلقت الأرض من الكعبة إبرازا لهيئة الكعبة وإشعارا بعظمة مكانها، وأقام لها الحدود الأربعة، وهذا وجود سطحي.

٦. **الوجود الأساسي**: ثم أراد أن يبني مبنى للكعبة، فأمر الملائكة بحفر أساسها من سطح الأرض إلى ما تحت الثرى، ففعلوا وملأوا الأساس بالحجار الكبار، وأظهروا مكان الكعبة، وهذا وجود أساسي.

٧. **الوجود التحديدي**: ثم أقيمت عليها في زمن آدم عليه السلام خيمة مكونة من الياقوت الأحمر، إظهارا لحرمتها العظيمة وكونها مسجدا مقدسا، وهذا وجود تحديدي لها.

٨. **الوجود الأرضي**: ثم رفعت الخيمة الياقوتية في طوفان نوح عليه السلام، فأمر الخليل إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة ليقوم بإبراز الوضع الإلهي للكعبة أمام الدنيا، وأظهرت له قواعدها، فرفعها إبراهيم وإسماعيل، وهذا وجود أرضي للكعبة.

٩. **الوجود التعميري**: ثم العمارة التي بنيت على أساس الكعبة وقواعدها هي وجود تعميري لها.

وعلى كل فإن الجهة المستورة للكعبة إذا أرادت أن تخرج من وجودها الوضعي تجاوزت عددا من المراحل بما فيها الوجود الآبي والزبدي والسطحي والأساسي

والتحديدي والأرضي والتعميري إلى أن توصلت إلى صورتها المعاصرة، فرأت الدنيا الكعبة واستقبلتها استقبالا حارا، وجعلتها مهوى قلوبها ومرجع عقيدتها.

ظهور المسجد الأقصى:

وكذلك وُضِع المسجد الأقصى، الذي وُضع بعد الكعبة بأربعين سنة، أي تم تحديد موضعه في الفضاء؛ ولكن لم يمر المسجد الأقصى بما مرت به الكعبة من مراحل عديدة، فإنه لم يكن مركزا عالميا، تتعلق به الشؤون العالمية، حيث لم تكن النقطة المركزية لوسط الكائنات، ليكون مركزا عالميا، يخرج منه عنصر الوجود الكوني، ويكون مركز العبادة العالمية، نعم كان مركزا له خصائصه ومميزاته وأهدافه في الدنيا، فوضعت في وسط الدنيا؛ لكن لم يتصل به المركزية المطلقة؛ بل تم تحديده كمقام مقدس وموضع الصلاة، وإن كان قبلة الصلاة لمدة من الزمن، كما كان في بداية عصر الإسلام، حيث يتوجهون إليه في الصلاة، إلا أنه لم تتعلق به عبادة عالمية كالحج في يوم من الأيام؛ فإنه لم يتم إيضاح وضعه كمركز عالمي كبير، بل انكشف لإبراهيم عليه السلام وضعه الحقيقي، فبنى عليه المسجد، وسماه الأقصى، وقام سليمان عليه السلام بإكمال هذا البناء وتوسيعه وتزيينه كما حفظته المصادر التاريخية.

فوضع المسجد الأقصى بعد الكعبة بأربعين سنة، وقام إبراهيم - بإلهام من ربه - ببناء المسجد هناك وفق الوضع الإلهي، كما أنه بنى الكعبة في نطاق جهتها الخاصة والوضع الإلهي الدائم.

ظهور الطور:

أما الطور فهو أيضا واقع في الخلاء، فله وضع تقديري، كان في علم الله منذ الأزل، ولكن لم يكن له من الخصائص والعظمة ما للكعبة والمسجد الأقصى، فلم يستخدم له كلمة الوضع، فكان وضعه ضمن أوضاع الأمور الكونية، ثم خلقت تلك

الهيئة التي كانت في علم الله، فكان جبل الطور، ولما قام جبل الطور على الأرض كانت خلقته -كسائر الجبال- من الفعل الإلهي، وسمي بالطور، فلم يوضح الشرع الإسلامي وضعه الخاص ولا خلقه، إلا أن الحديث النبوي هدى إلى أنه من جبال الجنة، فثبتت له مزايا وخصائص، وهبت له نوعا من القداسة والعظمة.

وبعد ذلك من المناسب أن أقوم بتوضيح الحقيقة الباطنية للكعبة المقدسة ليتم بها حقيقة البقعة المباركة واضحا. وهو كما يلي:

حقيقة الأماكن المقدسة وقضية التجلي الإلهي في الطور:

حقيقة الكعبة المقدسة: وحقيقة الكعبة هنا موضع التفكير؛ مع أنها هي أصل الأماكن الثلاثة المقدسة، وأساس القداسة، والإنسان مع كونه أشرف الخلائق وصاحب الخلافة الإلهية في الأرض أُمِرَ بالتوجه إلى الكعبة فكيف يمكن أن يكون الإنسان مورد التجلي الخاص، وتُحرم الكعبة (وهي مرجع الإنسان) من كونها مورد التجلي الرباني؟ فمن اللازم أن الكعبة تتحلى بنوع خاص من التجلي، يوجد فيها ولا يوجد فيما عداها، وبتعبير موجز يمكن أن ينزل هناك عكس الذات الإلهية، لتكون العبادات خالصة لله وجهه.

والمعلوم أن الله تعالى جعل عبادته سببًا وحيدًا لخلق الجن والإنس، فقال: **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** (سورة الذاريات: ٥٦).

مقصد العبادة: الظاهر أن مقصد العبادة هو التقرب إلى المعبود، ونهاية الأمل هي رؤية المعبود، ثم من المقاصد المأمولة وراء توجيه المسلمين في كل مكان إلى الكعبة أثناء الصلاة والحج هو إيجاد وحدة إسلامية عظيمة، ليتجهوا اجتماعيا إلى الكعبة الشريفة، فلا يمكن بدونها إقامة الوحدة العالمية والحب والإخاء والسلام الدولي، مما يطلق عليه اليوم "التعايش السلمي"، وهو الذي يعبر عنه الشرع الإسلامي بكلمة استقبال القبلة، وهذا لا

يعني عبادة الكعبة، بل هو يمثل وحدة في الاتجاه والسلوك، فإن المعلوم بكل وضوح لدى كل مسلم أن الكعبة ليست معبودا أو مسجودا من منظور إسلامي، حتى تُعْبد من دون الله، سواء كانت الكعبة جهة في الفضاء، أو صورة في الماء أو الأرض، بل هي مسجود إليها بمعنى أن المصلين يتجهون نحوها وقت العبادة، ويبحثون في هذه الجهة عن التقرب إلى الله رب العالمين أو رؤيته، كما قال الشاعر الأردي الكبير: ميرزا أسد الله خان غالب الدهلوي:

إن حقيقة المعبود أسمى من حد الإدراك البشري

ومن ثم يصف أهل النظر القبلة بأنها دليل القبلة

فالعبادة لا تمارَس إلا ليتقرب العابد إلى المعبود، ويتشرف برؤيته، ورؤية المعبود هي غاية مقاصد العابد، ولذا يقال: إن أمنية رؤية العابد هي عاطفة قوية، تدفع العابد إلى تحمل المشاق في سبيل العبادة، وترك كل ما لذ وطاب طيلة الدهر، ليسعد برؤية المعبود.

المكانة الشرعية لعاطفة رؤية المعبود:

أما هذه العاطفة فهي عاطفة طبيعية وعقلية وشرعية، فلا شيء في الدنيا أكثر مراعاة للفطرة الإنسانية والعقول البشرية من الشرع الإسلامي الحنيف، ومن ثم فسَّر النبي الكريم ﷺ "الإحسان" بما يقوي هذه العاطفة ويعلِّم العابد النهج الصحيح للعبادة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1].

والحديث يؤكد على ضرورة تصور المعبود في العبادات حتى يبلغ العابد إلى الرؤية الحقيقية للمعبود، وهي لا تتحقق إلا في الجنة، ففي هذه الدنيا يجب على العابد أن يتصور رؤية الله تعالى ذهنا وعقلا، حتى يؤدي هذا التصور في يوم إلى الرؤية الحقيقية لله سبحانه.

---

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، رقم الحديث: ٥٠.

الرد على اعتراض يرد:

وهنا يرد اعتراض، حاصله أن الحديث المذكور يأمر المسلمين بتصور المعبود إن لم يتمكنوا من رؤية المعبود حقيقة، فليس هذا إلا تخيلا محضا، مما يدل على أن المسلمين لا يعبدون إلا شيئا تصوريا محضا لا وجود له في الواقع، فالجواب عن هذا الاعتراض السخيف موجود في الحديث، ومفاده أن هذا ليس خيالا محضا، بل هو تصور اعتقادي، أوضحه بكلمة "كأنك تراه"، فليس المراد بقوله: كأنك تراه هي الرؤية بالعين الدنيوية، فليست ممكنة، حيث قال الله تعالى في الرد على رغبة موسى في رؤيته: لن تراني، بل اعتبره سوء الأدب، فأنَّى لغيره أن يدرك الله تعالى في صلاته، فليس المراد هنا هي الرؤية البصرية، بل المراد الرؤية الذهنية، التي حاصلها هو التصور الاعتقادي، والتصور لا يكون إلا للأشياء الواقعية، أما الأشياء الخيالية والفرضية فيطلق عليها لفظ التوهم والتخيل دون التصور، أما التصور فهو يتعلق بأمور لها وجود حقيقي في الواقع، ومن هنا اُعتُبر التصور والتصديق من أقسام العلم، واعتُبر التوهم من أقسام الجهل، فمعنى الحديث أن المعبود الحقيقي الذي هو بين أيديكم و لايخفى عليه خافية إن لم تقدروا على رؤيته الحقيقية في وقت العبادة فلا أقل من تصوره في القلب، ليكون حاضرا في الذهن والخيال، وهذه الرؤية الذهنية اليوم هي ستتحول إلى الرؤية الحقيقية يوم القيامة، والحق أن معرفة الرؤية الحقيقية يوم القيامة لا تتم بدون الرؤية الدنيوية، فالحديث المذكور يدل بكل وضوح على وجود المعبود، وأكبر دليل على الأمر بتصوره في الذهن، فالتصور لا يتعلق إلا بالموجودات، فالحديث نفسه يقضي على الاعتراض المتمثل في أن المسلمين يعبدون إلها خياليا، لا وجود له في الواقع.

وهناك حديث آخر، يؤكد على وجود المعبود أمام العابد بلفظ واضح، وأن المعبود لا يحضر لدى العابد بوجه ما، بل بالوجوه كلها، وبالأعضاء كلها، وهذا هو تصور الذات الإلهية، فقد جاء في حديث أن المصلي ينظر في قيامه إلى موضع سجوده

ظاهرا، ولكنه يسجد على وجه الله حقيقة[1]، وهذا واضح في كون وجه الله تعالى أمام المصلي، ولله تعالى وجه يليق بشأنه، لا كوجهنا، وجاء في الحديث الآخر أن المصلي يضع رأسه في موضع سجوده، ولكنه يضع في الحقيقة على قدم الله تعالى، وبهذا تبين أن قدم الله تعالى يكون أمام المصلي، ولم يكتف الشرع الإسلامي بذكر الوجه والقدم؛ بل لم يغب وسط الذات الإلهية عن العابد، حيث ورد في رواية أن ساق الله تعالى يتجلى للمصلين، وبهذا يعرف العابد ربه يوم القيامة، فالمؤمنون يعرفون ربهم بتجلي الساق الإلهية، وبمشاهدة هذا التجلي يخرون ساجدين، وقد أشار إليه القرآن الحكيم: **يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (*)خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ** (سورة القلم: ٤٢-٤٣).

وهذه الآيات والروايات تدل دلالة واضحة على أن المعبود الحقيقي يتمثل بوجهه وقدمه وساقه أمام عابده، وهذا هو تجلي الساق الإلهي، وهذه الرؤية الدنيوية وسيلة للرؤية الحقيقية في الآخرة، فمن كان يراه بعين عقيدته في الدنيا سيراه بعين رأسه يوم القيامة، ويعرف أن هذا هو الرب الذي كنت أراه بعين التصور، وكل ذلك دليل على أن المعبود لا يغيب عن العابد وقت العبادة ولا في أوقات أخرى.

وعلى كل فتصور الرؤية أمر قلبي، يتعلق بالموجودات، لا بالفرضيات والموهومات، فالأمر بالتصور واضح في وجود البارئ سبحانه.

أسرار حديث الساق:

وقد يقول قائل: إن سبب التعريف إما أن يكون هو الوجه أو القدم لظهورهما، دون الساق، فإنه عضو وسطي خفي ولا يعتبره أحد سببا للتعريف والبيان، فكيف يكون هذا الساق سببا لمعرفة الله تعالى يوم القيامة للمصلين؟

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ.

الجواب أن المصلي مأمور بخفض البصر في الصلاة وتركيزه في موضع السجود تأدبا مع الله رب العالمين، والظاهر أن المصلي في هذه الصورة لا يتمكن من النظر إلى الوجه أو تركيزه.

وهذا هو العرف السائد في بلاط ملوك الدنيا، حيث يُرفع للتأدب مع الملك الصوت المعروف متمثلا في "عليكم بالنظر في الأقدام"، فإن الهيبة الملكية تمنع الحاضرين عن النظر إلى وجه الملك، فكيف بملك الملوك ورب الأرباب؟ الذي لا حد لهيبته وجلاله، فكأن المصلي لا يقدر على رؤية الله تعالى، بل يكتفي بالتصور الإجمالي ويغتنمه في الدنيا فلا يكون الوجه سببا لمعرفة الله تعالى.

أما قدم الله تعالى فمعلوم أن المصلي لا يقدر على رؤية الوجه، وهو مأمور بالنظر إلى القدم، والساق يمثل أولا لدى النظر إلى القدم، والمصلي يتصور كيف يصل رأسه إلى قدم الله تعالى، النظر إذا بلغ القدم، انتهى عمله فلا يستطيع النظر، فآخر ما ينظر إليه البصر ويعرفه معرفة جيدة هو الساق، فالساق هو العضو الوحيد الذي يستطيع أن يكون سببا للمعرفة يوم القيامة.

الغرض الأصيل من الصلاة:

فالصلاة موضوعة لتنشأ رغبةٌ حقيقيةٌ في رؤية الله، وتُعِدُّ المصليَ لهذه العملية، لتتحقق هذه الرغبة يوم القيامة، ولا شك أن هذا يتحقق يوم القيامة، والاستعداد بالقوة يتحول إلى الاستعداد بالفعل.

العبادة خالية من اللذة بدون تصور المعبود:

والمعاني المذكورة تدل على أن تصور المعبود لدى العبادة شيء واقعي، وليس هذا تصور الشيء الخيالي أو الوجود الفرضي، حتى يطلق عليه لفظ التوهم أو التخيل، فإن التوهم أو التخيل لا يتعلقان بالواقع؛ وإنما هما الاختراع الذهني، والعبادة هي مقابلة بين

العابد والمعبود، والعابد يعتقد أنه قائم أمام ذات إلهية، فيخشع له، ولا تلتذ العبادات بدون هذا التصور، بل تفقد كل معاني اللذة والجاذبية وطيب الخاطر، وتحت هذه العاطفة البشرية لجأ الإنسان إلى عبادة المحسوسات والمشاهدات كالأصنام والأحجار والنجوم والنار والأشجار والحيوان والماءوما إليها، لئلا تكون عبادتهم للإله الغائب خالية عن اللذة والسرور القلبي، وهذا مع كونه غير معقول وغير فطري لكن المنشأ هو العاطفة البشرية المقتضي أن يواجه العابدُ المعبودَ، وهي عقدة زلت فيها أقدام أهل الأديان في الدنيا، ولكن الشرع الإسلامي هو الذي قام بحله حلا معقولا، وكان على الأديان كلها أن تشارك في الحل الحقيقي لهذه المشكلة، وقدموا حلا في صورة عبادة الرسل والمظاهر، ولكنه حل صناعي، ومشوب بالشرك، ومن ثم ابتُلوا بالشرك، فكانوا لا يجدون حل المشكلة، وهي كيف يكون الإله مع كونه لطيفا غائبا عن الأبصار يمثل أمام العابد، فقد قدم الإسلام حل هذه المشكلة، عن طريق مسئلة التجلي، فالمعبود ينعكس تجليه على الكعبة، وبذلك ينكشف نور الإله، وهذا هو موضوع هذا الكتاب، ومباحث هذا التجلي وحقائقه منتشرة في ثنايا الكتاب.

قضية مطروحة للبحث والتحقيق:

ما حقيقة قضية المقابلة بين العابد والمعبود أثناء العبادة؟ وما منشأ هذه القضية؟ حتى تكلم فيه كل من هب ودب؟

فالسبب الحقيقي أن الإنسان لم يخلق روحا محضا، بل هو كائن مركب من الروح والجسم، فهو متقيد بالزمان والمكان والشكل والصورة والجهة وما إليها. فلا يستطيع إحساس إي شيء بدون جهة وزمان ومكان، سواء كانت الجهة هي الأمام أو الخلف أو اليمين أو اليسار، أو الشرق أو الغرب، فلا يمكن أن يكون الإنسان لا في الأرض ولا في السماء ، ولا في المكان، ولا في جهة، ثم في هذه الحالة يمثل أمام غيره،

فلا بد من جهة، والجهة لا تكون إلا زمانا ما، ولا بد أن يمضي عليها وقت ما، ماضيا كان أو حاضرا أو مستقبلا.

كما يلزم مع هذه القيود التقابل، فإنه لولا التقابل لما استطاع النظر ولو اجتمعت الأزمنة كلها، ولا يمكن صورة للرؤية، وهذا ما أطلقت عليه باللغة الأردية "آمنا سامنا" المرادف للتقابل، كالرائحة الطيبة والكريهة التي يمكن الشعور بها بدون التقابل، فإن وصفنا الطيب والرائحة باليمين واليسار فهو يمين الإنسان ويساره، ولا يكون يمين الطيب والرائحة، فالتقابل بين الأشياء الجسمانية المحسوسة في حاجة إلى مكان معين وزمان معين، فإنه بدون الزمان والمكان لا يتم التقابل ولا يمكن تصوره.

تنزيه الخالق عن الجهات:

ومن جهة أخرى فإن الله تعالى منزه عن التقيد بالزمان والمكان والجهات، فإن الجهة لا تتعلق إلا بالمحدود، والله تعالى لا محدود، فلا تصله الجهات، ثم هذه الظروف والكيفيات كالزمان والمكان والجهات مما خلقه الله تعالى، ومستحيل أن يحيط بالخالق مخلوقاته، بل الخالق يحيط بكل شيء، فلا يمكن التقابل بين العابد والمعبود، وبين الرب والخلق.

صورة التقابل بين العابد والمعبود:

ومن جهة أخرى كانت الطبيعة البشرية تقتضي أن تتم العبادة الجسمية في ضوء التقابل بين الرب والعابد، فإن العبادة بدون التقابل شيء فرضي وخيالي، فقامت حاجة إلى رفع هذا التضاد والتعارض بين صفات الباري وطبيعة العابد، بوجه لا يؤثر في تنزيه الله تعالى عن الزمان والمكان كما لا يؤثر في تقيد العبادة البشرية بالزمان والمكان وما إليها، فهيأ الله تعالى له صورتين، إحداهما تتعلق بالذات الإلهية اللامحدودة، والأخرى تتعلق بذوات العباد المتقيدة المحدودة، ويجمع بين الصورتين التجلي وموضع التجلي، وذلك أن يقوم العابد متوجها إلى موضع التجلي، ويتم التقابل بين العابد والمعبود.

العكس الإلهي في مرآة الكعبة:

ومن هنا يجب الاعتراف بأن الكعبة تشمل حقيقة ربانية عظيمة، يطلق عليها اسم الله تعالى، والسجود لها يكون بمثابة السجود لله رب العالمين، فكأن الكعبة مرآة صافية، يتجلى فيها الكمالات الربانية كما يتجلى للمرآة كل شيء أمامه، فيكون ذالك الشيء محدودا في المرآة، ولو يبدو صغيرا، وهو في الخارج شيء كبير، ولكنه ليس غير ما في المرآة، ومن هنا يجب أن نتيقن بأن داخل الكعبة حقيقة الجلوة الربانية، وهي ليست غير الذات الإلهية، ليكون السجود لها محظورة، وإن رفضنا هذا التوجيه فلا معنى لاستقبال الكعبة، وهذا هو ما يسمى في الاصطلاح الشرعي بالتجلي، وهو عكس الذات الإلهية.

وقبل أن أكشف الستار عن هذه الحقيقة يجب أن نعرف المعنى الشرعي لهذا الانعكاس، وهذا المعنى بمنزلة الدعوى، ثم يتبعها دلائل تثبت هذه الدعوى.

الأهمية العلمية لمسئلة التجلي:

وقبل الخوض في صلب الموضوع يجب أن نعلم أن هذه القضية بدعواها ودليلها ليست قضية منطقية وفلسفية، تحتاج إلى إيضاحها بذكر الأمثلة والحجج العقلية، وليست هي قضية فقهية، تحتاج في فهمها إلى الاجتهاد والقياس، بل هي قضية دقيقة تتعلق بالحقائق، فيحتاج حلها إلى أرباب الحقائق وأصحاب المشاهدة وعرفاء الملة الإسلامية، ويعتمد على أقوالهم وتوضيحاتهم فيما يتعلق بالتجلي، وبذلك يتبين للتجلي معناه ومصداقيته، وهذا ما أذكره في السطور التالية مستفيدا من كتب أصحاب الحقائق وأرباب العرفان الإلهي:

مفهوم التجلي:

العكس صورة مثالية، تنعكس في الجسم الشفاف أو المرآة، وهي غير مادية، لا تُدرَك باللمس والشم، بل هي صورة علمية، موردها العقل والقلب، ومن الحقائق

المسلمة أن الصورة العكسية تطابق تماما الصورة الحقيقية، مما يتم به التعرف على الصورة الحقيقية، وبلفظ آخر: إن النسبة بين الصورة الحقيقية والصورة العكسية هي نسبة العينية والوحدة، لا نسبة الغيرية والتخالف، فلو كان التخالف بين الحقيقة والعكس لما أمكن التعرف على الحقيقة بالنظر في العكس، فإن الصورة التي تبدو في المرآة هي التي أمامها في الخارج، ولا تبدو صورة أخرى متمكنة في المرآة نفسها، حتى نقول: إن الصورة العكسية غير الصورة الحقيقية، وبذلك يعرف الناس الحقيقة عن طريق العكس، ويفرقون بين الأشياء، ولو كان العكس غير الحقيقة لما استطاعوا المعرفة والتميز، فإنك لا تعرف عمرَ برؤية صورة زيد، ولا تعرف زيدا بالنظر في صورة عمر، بل تعرف زيدا بصورته، وعمر بصورته، فإن الصورة توافق تماما الحقيقة، وأساس معرفة الحقيقة عن طريق العكس هو نسبة العينية بين الصورة والحقيقة، فالذات واحدة، لكنها تتعدد، واحدة تتعلق بحقيقة، لا تفارقها بحال، وأخرى مثالية عكسية، تظهر في المرآة، وقد تفارق الذات، ولكنها صورة الحقيقة، ومع مفارقتها لا تكون مفارقة حتى نصفها بالغيرية. وبذلك يتم معرفة الذات بكل من الصورتين، وتظهر منهما الذات الحقيقية، والفرق بينهما أن الصورة الحقيقية إذا مثلت أمام الإنسان كان ظهور الذات بشكل أوضح، وإذا مثلت الصورة العكسية كان ظهورها بدرجة ثانوية، إلا أن الظهور يكون للذات لا غير، نعم إن لم تكن المرآة أمام الشيء أو كانت ولكن في غير وجهته، لم تكن الصورة أمام المرآة، ولم يمكن ظهور الذات عن المرآة، فبذلك تبين أن التجلي هو عكس الذات الإلهية التي تبدو مفارقة للذات، ولكنه في الواقع لا غيره ولا مفارقه.

الثبوت العرفاني للتجلي:

وقد أوضح حقيقة التجلي أو الصورة المثالية بيهقي الوقت العارف بالله الشيخ القاضي ثناء الله الباني بتي تلميذ الإمام الشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله في تفسيره المعروف بالتفسير المظهري، فقد ذكر موقف عرفاء الملة من تجلي الطور، ونصه:

قالت الصوفية: "التجلي ظهور الشيء في المرتبة الثانية، كظهور زيد في المرآة، وليس هو رؤية الذات، فإن الله سبحانه لما نفى الرؤية لموسى عليه السلام بالتأكيد (بقوله لن تراني) مع كونه أقوى استعدادا من الجبل لا يتصور حصوله للجبل"[1].

وبذلك يتضح معنى التجلي وكيفيته، وليس هذا إيضاحا لدعوى التجلي، بل يمكن أن نصفه بالثبوت العرفاني للتجلي في أسلوب الدعوى، وهذا تمهيد للثبوت القرآني، ومن ثم قدمت الثبوت العرفاني على الثبوت القرآني، فإن استحضاره يؤدي إلى سهولة في فهم الثبوت القرآني.

خطورة قضية التجلي ودقتها:

وبعد إيضاح معنى التجلي تأتي مرحلةُ إثباته بالدلائل الشرعية، وهو أمر دقيق مهم، بل عسير على الفهم، وأصل الأصول هو الثبوت القرآني، وذلك هي قضية دينية؛ بل من القضايا المعقَّدة التي تتعلق بباطن الدين، وإذا نظرت في نفسي وجدتها قاصرةَ العلم والإدراك، لا سيما فيما يتصل بباطن القرآن، فلا يتيسر لطالبٍ جهولٍ مثلي أن يكتب في مثل هذه المواضيع الخطيرة؛ بل يمكن أن يكون سوء أدب وجراءة علمية؛ ولكن إذا كان موضوع هذا الكتاب هو بيان حقيقة الكعبة وصورتها، ولا يتأتى ذلك بدون ذكر قضية التجلي، فاضطُررت إلى إيضاح معنى التجلي وإثباته بدلائل الكتاب والسنة وآثار السلف وانكشافات أهل الحقائق، حسب ما أراني الله وألهم في قلبي من معنى وأسلوب، وبذلك أعتبره تحديثا بالنعمة لا سوء أدب وجراءة في غير محلها، وبالله التوفيق.

الثبوت القرآني للتجلي:

الأسلوب القرآني لإثبات التجلي:

إن الأسلوب القرآني فيما يتعلق بإثباته يتمثل في أن القرآن الكريم أوضح جنس التجلي بعبارته الواضحة، وأثبت إمكانية نزول التجلي الرباني، وقد نزل التجلي فعلا،

---

(١) الباني بتي، ثناء الله، **التفسير المظهري**، (باكستان: مكتبة الرشدية، د.ط، ١٤١٢هـ)ج٣، ص٤٠٦.

ليثبت جنس التجلي ويعم كل أنواعه وصوره، فيثبت كل ما يتعلق بالتجلي من أنواع ومظاهر، ومن هنا لم تذكر الآية الكريمة: "فلما تجلى ربه للجبل" نوعًا خاصًا من التجلي؛ بل ذكره في صورة الجنس، كما ذكر موضع التجلي بلفظ عام، حيث نزل التجلي على الجبل، ولم يعين اسم الجبل، لكن القرآن ذكر التجليات الخاصة وآثار مواضع نزولها وأوصافها وأحوالها، مما لا ينطبق على شيء سوى التجلي، وبه يعلم مفهوم التجلي، ويكشف عن أن مواضع التجلي تقتضي طبعا ذلك النوع من التجليات.

تعيين الذات عن طريق الوصف:

وقد اهتدى أرباب القلوب وأصحاب التفقه -بما أوتوا من فراسة وذكاء وبالنظر في النصوص وآثار السلف- إلى التجليات الربانية وأنواعها وآثارها، وقاموا بتعيين كل نوع من التجلي، وبما أن ثبوت هذا التجلي تمَّ عن طريق الأحوال والأوصاف المذكورة في القرآن الكريم فهو إن لم يكن مما ثبت بعبارة النص فهو ثابت قطعا بدلالة النص واقتضاء النص أو إشارة النص، وهو بمنزلة الثابت بالنص الصريح، فإن كلا من دلالة النص وإشارة النص واقتضاء النص يُعَدُّ من أقسام النص حسب أصول الفقه، وما ثبت بها فهو أمر منصوص به، فثبوت التجليات الخاصة أيضا يعتبر من المسائل المنصوص بها، لا المسائل الفرعية الاجتهادية أو الاستنباطية، والدليل عليه قوله تعالى: "فلما تجلى ربه للجبل"، وهو مصدر ثبوت التجلي، وسأقوم بتفصيله في السطور القادمة.

اعتراض على الأسلوب القرآني:

وقد ينشأ هنا سؤال: وهو أن الله تعالى ذكر التجلي على الطور بصفة خاصة، ولم يذكر التجلي على الكعبة، وهو أول ما ظهر من التجليات الربانية، والتي قامت عليها كثير من العبادات والمناسك، كما أنه لم يذكر التجلي على المسجد الأقصى، مع كونه أفضل من الطور؟

والواقع أن هذا اعتراض سخيف لا يرد أصلا، حتى نتصدى لدفعه، فإن القرآن الكريم لم يذكر تجلي الطور كما لم يذكر تجلي الكعبة والمسجد الأقصى، بل ذكر بعض أوصاف موضع التجلي وهو الطور، ومن هنا يسمى ذلك التجلي بتجلي الطور، وقد فصَّل القرآن الكريم أوصاف وأحوال مورد التجلي وهو الكعبة، مما يدل على التجلي، ولم يذكر اسم المقام والموضع، والمعنى أن آية "فلما تجلى ربه للجبل" ذكرت جنس التجلي، ولم تذكر التجلي الخاص، والمراد بالجبل هو جنس الجبل، لا الجبل المعين، وإن ثبت بالدلائل والقرائن أنه الطور، الذي نزل عليه التجلي، والمسجد يشمل كلًّا من الكعبة والمسجد الأقصى الذين ورد عليهما التجلي، مما ينم عن أن آية "فلما تجلى ربه للجبل" ترمي إلى إثبات جنس التجلي، بحيث يمكن نزوله على شيء مادي كالجبل والشجر، وقد نزل فعلا، ولا تذكر التجلي الخاص، فإن كان القرآن الكريم لم يذكر نوعا من التجلي باسم الكعبة والمسجد الأقصى فلا يثبت فضل الطور على الكعبة والمسجد الأقصى بحجة التجلي الكائن في جبل الطور، حتى تقوم حاجة إلى دفع هذه الشبهة، فكما أن التجلي بالطور يتم إثباته عن طريق أحواله الخاصة ومميزاته الباهرة لا عن طريق الآية الكريمة، فكذلك يتم إثبات تجلي الكعبة والمسجد الأقصى عن طريق أحوالهما وخصائصهما وآثارهما، فجنس التجلي يشمل كلا من الأماكن الثلاثة، وفي هذا الشأن لا يفضُلُ أحدها على الآخر، فآية "فلما تجلى" تهدف إلى إثبات التجلي لا إلى تحديد تجلي الطور وخصائصه.

تفصيل إثبات التجلي:

وبالنظر إلى الأسلوب القرآني في إثبات التجلي يتضح أن آية "فلما تجلي ربه للجبل" أثبتت مسئلة التجلي بشكل أصولي، مما يفيد نفس التجلي، وتفصيله أن بني إسرائيل لما تخلصوا من مظالم فرعون واستعباده إياهم ومشاقِّ مصر، ونجوا بفضل موسى عليه السلام من كل ما يتحملونه من مصائب ومتاعب وعبروا بحر قلزم فسألوا

موسى عليه السلام: هات لنا شريعة إلهية، نسير عليها، ونعيش وفق المرضاة الإلهية، فسأل موسى ربه، فأمره ربُّه باعتكاف أربعين بالطور، ولما تم هذا الميقات شرَّفه بالكلام الإلهي، وآتاه التوراة المباركة، ولما أحس بِلذةٍ نادرة في الكلام الإلهي اشتاق قلبه إلى رؤية الله تعالى بعين البصر، وسأل مباشرةً: رب أرني أنظر إليك، فأتى الجواب: **قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَـٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ** (سورة الأعراف: ١٤٣).

الحاصل أن هذا الوجود المادي الضعيف وقواه الفانية لا تستطيع رؤية ذي الجلال والإكرام في هذه الدنيا الفانية، إن أمكنت هذه الرؤية فموضعها عالم ما بعد الموت، حيث يتجرد الإنسان من الكثافة المادية، ويتشرف باللطافة الروحانية، مما يؤهِّله لرؤية اللطيف الخبير، فإن الإنسان بدون هذه اللطافة الروحانية لا يمكن له رؤية البارئ سبحانه، كما قال الله تعالى: **لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣** (سورة الأنعام: ١٠٣)، أما رؤية عين الذات الإلهية فتبقى مستحيلة أيضا حتى يوم القيامة، نعم! يمكن لأهل الجنة رؤية التجلي الرباني الذي هو أقرب إلى الذات الإلهية، وحاصل المعنى أن هذه الرؤية ممتنع وجودها شرعا، وإن لم يمتنع عقلا، وإلا لم يكن موسى عليه السلام ليسأل الله تعالى هذا السؤال.

وعلى كل فقد نزل التجلي حسب الشرط المذكور، ونزل التجلي على الجبل، إلا أن جبل الطور لم يتحمل التجلي، وصار دكا، ولم يبق موسى على حاله، فخرّ صعقا، مع أن التجلي لم يبق على الجبل لحظة واحدة، بل غاب فور ظهوره، تاركا الجبل على ماكان عليه، ولم يثبت الطور على مكانه، ولم يتمالك موسى نفسه وحسه كما وصف القرآن الكريم: **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** (سورة الأعراف: ١٤٣).

الظاهر أن الجبل ذلك الكائن القوي الضخم إذا لم يتحمل نوعا خفيفا من التجلي فكيف يتحمل الإنسان رؤية الذات الإلهية وهو كائن ضعيف البنيان والخلقة؟ وإن كان قلب موسى عليه السلام وعين بصيرته أقوى بكثير من الجبال، وبالغة مدى اللطافة؛ ولكن الأمر لا يتعلق بقوة القلب والبصيرة، بل بقوة البصر والمادية، والمعنى هل من كائن مادي في هذا الكون يتحمل التجلي من الله رب العالمين أم لا؟ والجواب واضح، أي كلَّا، فإن الإنسان كمخلوق مادي أضعف بكثير من الجبال وأعجز، وقد صرح القرآن الكريم بضعف الإنسان من هذه الناحية، فقال: **لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** (سورة غافر: ٥٧).

ونظرا إلى الأصل التخليقي هذا إذا كان الجبل وهو أقوى كائن في الدنيا من حيث القوة الخلقية لم يتحمل التجلي فكيف بإنسان وهو من أضعف الخلائق، فقد أودع الضعف والخور في فطرته حيث قال الله تعالى: **وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا** (سورة النساء: ٢٨).

وإضافة إلى ما بالفطرة الإنسانية من ضعف فقد كانت مادية هذه الدنيا الكثيفة أكبر حائل في طريق الرؤية فلم يكن من الميسور أن يتشرف موسى عليه السلام في هذه الدنيا المظلمة برؤية ذلك النور الرباني، وبالنسبة إلى ضعف الإنسان وظلمة الدنيا قال الله تعالى: لن تراني، ولكن الله تعالى لم يرفض سؤال موسى بالكلية فإنه كان من أولى العزم من الرسل ومن المقربين إلى الله تعالى، فاشترط لرؤيته بقاء الجبل على حاله، فإن بقي على حاله يمكن رؤية الله تعالى وإلا فلا، فنزل التجلي حسب الشرط المذكور، مما ذكره القرآن الكريم: **قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** (سورة الأعراف: ١٤٣).

إمكانية نزول التجلي في الدنيا المادية:

فثبت نزول التجلي بقول الله تعالى وفعله، مما لا يدع مجالا للشك، أما القول فقد ورد في القرآن الكريم ذكر نزول التجلي، وهو كاف في ثبوته، أما الفعل فكان إنزال التجلي

من أفعال الله تعالى، وقد تجلى سبحانه بدوره، مما يوضح أن التجلي يمكن نزوله في هذه الدنيا، وبذلك ظهر أن التجلي ينزل في موضع يليق بشأنه، يُدرك بآثاره وخصائصه، كما عُلم أن محل التجلي إن كان كثيفا نزل التجلي بأدنى درجته، كما تبين أن التجلي إذا ظهر في المواضع الكثيفة لا يظهر بكل خصائصه وجماله وكماله، فالمواضع الكثيفة لاتتحمل جماله وكماله، ومن هنا فإن ما ظهر على جبل الطور كان قليل إشراقة من التجلي، لم تتجاوز لمس الجبل، ولم يكن الجبل ليتحمل هذا الحد الأدني من التجلي، فقد جاء في رواية كعب الأحبار:

"ما تجلى من عظمة الله للجبل إلا مثل سم الخياط حتى صار دكا"[1]، ثم هذا الحد الأدنى من التجلي لم يظهر إلا في كثير من الحجابات، كما ورد في أثر جعفر ابن سعيد الساعدي: "إن الله أظهر من سبعين ألف حجاب من نور"[2].

ثم لم يكن هذا التجلي يتعلق بالذات والصفات؛ بل كان من نور العرش الإلهي، فكان أثرا من آثار الفعل الإلهي لا من نور ذاته، كما سيأتي تفصيله.

وعلى كل فإن الآية الكريمة وآثار السلف المؤيدة للنصوص الشرعية تدل على أن نزول التجلي في هذه الدنيا الكثيفة على أي مخلوق ممكن، وهذا دليل واضح في ثبوت التجلي.

الثبوت البرهاني للتجلي:

بعد ذكر الثبوت القرآني للتجلي لم يعد من حاجة إلى المزيد من الدلائل والبراهين، سواء تتعلق هذه البراهين بالعقل أو بالمشاهدة، والمعلوم أن الثابت بالقرآن هو شيء فطري، لا يخالفه العقل السليم ولا المشاهدة البشرية، فإن كان من الدلائل العقلية والبرهانية ما يؤيد الدعوى القرآنية فلا بأس بذكره، بل هو من اللازم من حيث أن الدلائل العقلية تقنع

(١) الباني بتي، ثناء الله، **التفسير المظهري**، ج٣، ص٤٠٦

(٢) المصدر السابق.

العقلانيين بثبوت التجلي وتفحم الماديين، فقامت هنا حاجة إلى إثبات التجلي بالدلائل البرهانية، وهي أن الدنيا كلها تقر للمبنى المكعَّب أنها كعبة وقبلة، واقعة في وسط البلد المقدس: مكة المكرمة، ومكسوة باللباس الأسود، وهو الذي يقال: إنه بيت الله، ثم لا يصفه ببيت الله الخلائق وحسب؛ بل وصفه بذلك رب العالمين.

فإن الله تعالى لما أمر إبراهيم عليه السلام بتطهير البيت قال: **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** (سورة الحج: ٢٦).

المعنى المتبادر لبيت الله:

وهنا ينشأ سؤال، وهو أن البيت إذا أضيف إلى أحد فله معنى في العرف، وهو أن يسكنه الإنسان، فهل نسبة البيت إلى الله تعالى تفسَّر بأن الله يقيم فيه، ويسكنه؟ فإن الله تعالى أضاف البيت إلى نفسه وقال: بيتي، مما يتبادر بظاهر النص إلى أن الله تعالى يسكنه، فإن البيت إذا أضيف إلى أحد فلا يعني أن بضائعه ولوازمه موضوعة في البيت، أو أن البيت مستودع آثاره العلمية وآلاته الصناعية، وأسبابه المادية، فمثل هذا الشيء يطلق عليه لفظ المستودع أو المكتب أو الديوان أو المكتبة أو المصنع، وليس بيتا، فالبيت منسوبا إلى صاحبه يعنى أنه ساكنه لا شك، فهل معنى الآية أن الله يسكن الكعبة؟

المعنى الصحيح لبيت الله:

المعلوم قطعا أن الله بنفسه لايسكن الكعبة، ولا يحل فيه، فهو مستحيل شرعا وعقلا، فلا يمكن لمكان أو جهة محدودة أو ظرف محدود أن يحيط برب خبير لطيف لا محدود منزه عن الجسم والروح وعوارضهما، والحقيقة أن الله أحاط بكل شيء من الجهات والأمكنة، كما قال الله تعالى: **وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** (سورة الطلاق: ١٢).

فالشيء المحاط كيف يحيط بما يشمله ويحيط به؟ فهو اجتماع الضدين، مما يرفضه العقل والفطرة، فلا يجتمع أن يكون الشيء الواحد محيطا ومحاطا به في وقت واحد ومن

جهة واحدة، وقد أنكره الله سبحانه كما رواه البيهقي في حديث طويل، ونصه: "فهو صفوتي من البيوت، ولست أسكنه وليس ينبغي أن أسكن البيوت، ولا ينبغي لها أن تحملني"[1].

كما أن كون الكعبة بيت الله لا يعني أن عضوا من الوجود الإلهي دخل الكعبة، وسائر الأجزاء باقية على موضعها، فوجوده كذاته منزه عن التحليل والتركيب، ومعاذ الله أن يكون له أجزاء أو تصور أحدٌ أنه متجزٍّ، فإن تركيب الشيء دليل على حدوثه، والله تعالى بريء من الحدوث، فهو قديم أزلي أبدي لم يزل ولا يزال، وقد أنكر الله سبحانه هذا التجزي فقال: لم يلد ولم يولد، مما يقضي على كل شائبة من التجزي.

الدليل التمثيلي:

انظروا في المحسوسات والمشاهدات ليتبين هذا العنى، دعوا الذات الإلهية فهي نور مطلق، انظروا في المخلوقات المادية، التي وهب الله لها قدرا من اللطافة والنورانية، فهي أيضا لا تقبل نوعا من التجزي بحكم لطافته ونورانيته، فمن يستطيع أن يقطع ضوء الشمع أجزاء، بحيث يفصل بعضه من مكان إلى مكان آخر، ويترك بعضه في مكانه؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يفصل بعض نور الشمس والقمر، وينقله من مكان إلى مكان.

فالروح جسم لطيف نوراني، لا يقبل التجزي، فلا يمكن أن يُنقل روح فلان ويُدخل في جسم آخر، ليحيى كلا الجسمين، وإذا كان هذا الأمر في الأشياء المادية ذات الجسم اللطيف فكيف برب لطيف، هو نور مطلق مبارك، وفي مقام لا محدود من اللطافة، حيث لا يتصور من له مسكة من العقل والشعور أنه متجزٍّ، كما أن الاعتقاد بحلول الذات الإلهية في مكان أمر مستحيل شرعا وعقلا.

---

(١) السيوطي، جلال الدين، **الدر المنثور**، ج١، ص٣١٥.

ومن جهة أخرى فإن الله تعالى نور مطلق، والخلائق ظلمة محضة، فهو وجود مطلق، والخلائق عدم محض، ولا يمكن اجتماع هذين الضدين في مكان عن طريق الحلول والتجزي، فهو محال عقلي، فإن النور إذا حلَّ في الظلمة، انكشفت الظلمة بقدر ما حل فيها من النور، فالظلمة لا تكون ظرفا للنور، وإن كانت انعدمت، نعم ! إن النور سيدخل في الظلمة إذا أريد القضاء على الظلمة، ولا يراد اجتماعهما، فإنهما ضدان لا يجتمعان، فحلول وجود الله تعالى أو جزء من أجزائه في مكان أكبر المحالات على الإطلاق، ثم إن فرضنا أن جزءا من أجزائه انفصل عن الذات الإلهية وحل في شيء من الكائنات، لزم الاعتراف بخلو الذات الإلهية عن ذلك الجزء المنفصل، وخلو الذات عن شيء يعني عدمه، وهو محال أعظم مما سبق، حيث يلزم انعدام جزء إلهي، ولحوق الوجود والعدم بذات البارئ سبحانه، وهذا كله محال، فإن هذه الأمور من خصائص الأشياء الحادثة والجسمانية، فهي تقبل كلا من الوجود والعدم، فهي تحيى بالوجود ، وتفنى بالعدم، وإن فرضنا على سبيل المحال أن العدم يطرأ على جزء من أجزاء الباري يلزم أن ذلك الجزء يخلو من الوجود، وخلو الجزء من الوجود يستلزم خلو الكل من الوجود، فكان من اللازم خلو الذات الإلهية من الوجود ، وهو مرادف للموت، ولا يتصوره عاقل في الدنيا، حتى الحمقاء والسفهاء أيضا لا يتصورون أن الله تعالى خالق الأرض والسماوات يموت في يوم من الأيام، فسبحان الحي الذي لا يموت ولا يفوت.

صاحب الكعبة أعلى من الكعبة:

فثبت أن حلول البارئ سبحانه أو جزء من أجزاءه في الكعبة من المستحيلات الواضحة، فلا يعنى بيتُ الله أن الله يسكنه، فمعنى كون الكعبة بيت الله هو أن الله تعالى مستوٍ على عرشه الرفيع، وبمثله العليا وأسمائه الحسنى، ومع هذا فهو يتجلى للكعبة في

ستار كمالاته وظلاله، مما يجعل هذه الجهة الوضعية للكعبة والبيت المبارك منورا بالنور الإلهي أولًا، ثم يعم ذلك النور الرباني بواسطة البيت البقاعَ القريبة والبعيدةَ، ويضيئها جميعا.

الثبوت التمثيلي للكعس الإلهي:

ويتضح هذا المعنى بمثال، وهو أنا إن وضعنا المرآة أمام الشمس، ظهرت فيها الشمس بنورها الساطع، وإن وضعنا عددا من المرآة أمام المرآة الأولى المقابلة للشمس، ظهرت الشمس في الجميع بواسطة المرآة الأولى، وتضيئ ما أمامها، لكنه لا يفهم أن عين الشمس حلَّت في المرآة، فأين الجزء الصغير الأرضي كالمرآة من الجسم الضخم العالي كالشمس، والعقل يشاهد أن الشمس لدى ظهورها في المرآة ظلت تسطع في كبد السماء.

كما أن ظهور الشمس في المرآة لا يعني أن نور الشمس تفرقت أجزاؤها، فدخل بعضها في المرآة وبعضها في الشمس، مما يسبب نقصا في ضيائها، فإنه لو كان الأمر كذلك لكان نور الشمس قد ذهب كليا في هذه المدة المديدة، أو شحب لونها إلى حد كبير، ولم يبق له من السطوع والجاذبية ما يبهر العيون ويدهش العقول، ولكان من الميسور أن ينظر المرء إليها نظرة طويلة بلا مشقة وعناء، مما يدل على أن الشمس بدورها لا تدخل في المرآة، ولا يدخل بعضها أيضا، بل يظهر عكسها، والعكس يحل في كل شيء صغير أو كبير، فعكس السماء يظهر في العيون، ويقال: إن السماء في عيني، بمعنى أن عكس السماء أو صورتها المثالية في عيني لا بمعنى أن ذات السماء دخلت في العين الصغيرة، كما قال الشاعر: "انظروا كيف يعظم الله الصغير فإن السماء تظهر في سويداء العيون".

الإنسان ينظر إلى الكثير من الأشياء المادية الضخمة كالبحار والجبال والصحاري الواسعة، وتظهر هذه الأشياء في عينه بسعتها وضخامتها، وتتجمع في العقول البشرية الصغيرة، وتبقى حيث إذا شاء الإنسان أعاد ذكرياته بقوته المدركة

الخيالية، فعكس المدن الممتدة بآلاف الأميال يتجمع في العقول الصغيرة، ويعيدها الإنسان متى شاء.

وصدق الشاعر: إن قلبي يحمل صورة الحبيب فالشوق لرؤيته يكلفني بخفض العنق لاغير (دل میں ہے اپنی فقط تصویر یار جب ذرا گردن جھکائی دیکھ لی).

الحاصل أن العكس أو الصورة المثالية ولو كان كبيرا يدخل في المظان الصغيرة، ويعلم الجميع أن عكس الشمس ولو ظهر في شيء صغير يوصف بأنها شمس، حتى يقال في العرف العام: رأيت الشمس في المرآة، أو رأيت خسوف الشمس في المرآة، مع أن هذا ليس صورة أصلية للقمر، بل هي صورة مثالية، يطلق عليها العكس.

تجلي البارئ سبحانه في الكعبة:

فإن فرضنا بلا تشبيه أن الله سبحانه مع علو مكانه ورفعة عرشه أظهر عكسه في مرآة الفضاء الخاص بالكعبة، ومع هذا لم ينفصل منه جزء، بل نزل عكسه كليا، فلا داعي للعجب والاستبعاد، ولا بأس في تسليمه، وإظهار العكس هذا يطلق عليه في الشريعة الإسلامية لفظ التجلي، فليس معنى بيت الله أن الله تعالى حالٌّ فيه والعياذ بالله، بل معناه أن تجلي الله تعالى حال فيه ومقيم فيه، وهو في عرف العامة عكس وفي عرف الشرع تجلي، فهذا التجلي هو الساطع في فضاء الكعبة، وهذا أول تجلٍ رباني انعكس في فضاء الكعبة المقدسة.

فكما أن الناس يقولون بعد رؤية الشمس في المرآة: رأينا الشمس في المرآة، إذا قال أحد متيقنا بنزول التجلي في الكعبة الشريفة: رأيت الله تعالى في الكعبة الشريفة، فلا داعي للإنكار والاستنكار، نعم إن الفرق بين رؤية الشمس في المرآة ورؤية الله تعالى في الكعبة أن الأولى أمر حسي، يدركه المرء ببصره الحسي، والأخرى أمر معنوي، فإن الله تعالى لطيف وبريء من المادة والروح ـ فليس هو حسيا ولا آثاره وكمالاته حسية، مما

يدركه الأبصار، بل معنوية، تحتاج في رؤيتها إلى عين البصيرة دون البصر، فكما إن أعمى البصر لا يرى الشمس ولا عكسه، لا يرى كذلك أعمى البصيرة عكس الذات الإلهية ولا تجليه.

والحاصل أن الله تعالى ليس في الكعبة الشريفة، لكن تجليه ظاهر فيها، وهو الذي يقال في الشريعة الإسلامية: "التجلي"، وبذلك يتضح أن حقيقة الكعبة في الواقع هي تجلي الله رب العالمين وعكسه، الذي قد حلَّ في الفضاء الخاص، دون حلول الذات، الذي ينكره العقل السليم، فقيام الله تعالى في الكعبة يعنى قيام تجليه في الكعبة، لا قيام عينه، وقيام التجلي ليس مما لا يقره العقل والطبع المستقيم، بل يثبته ويدعو إليه، ويعتبره شيئا بديهيا، وسأقوم بإثباته بالبرهان والقياس التمثيلي، ونسميه بالثبوت البرهاني للتجلي.

فالإنسان يعبد في الكعبة هذا التجلي، فإن عكس الشيء ليس غير الشيء، بل هو عينه، فعبادته عين عبادة الله تعالى، مما سأذكر تفاصيله من بعد.

الثبوت العياني للتجلي:

ومن سوء الاتفاق أو من حسن الصدفة أن الدنيا اليوم محاطة اليوم بالماديات والمحسوسات بسبب العصر الصناعي والماكيني والأزمة الصناعية، فالإنسان منشغل بالأمور المادية ليل نهار، ومن هنا ابتعدت الدنيا عن الشريعة، بدافع العقلانية المفرطة، ثم انحطَّت عن درجة العقل إلى درجة الحس، مما جعلها تزن بميزان الحس والشعور الكليات العقلية والنظريات المادية بل الأمور الشرعية والحقائق الغيبية حتى التجلي، مع أن الحقائق الغيبية والتجلي لا تتعلق بالحسيات، ليدركها الإنسان بالمشاهدة واللمس، فمحاولة رؤية التجلي بالعين كمحاولة رؤية الرائحة الزكية بالعين، أو لمس الأصوات بالشم، فكما أن هذه المحاولة فاشلة وباطلة كذلك محاولة رؤية التجلي الإلهي بالعين محاولة بائسة لا تتحقق، وبما أن إنسان اليوم قد تعود على إدراك كل شيء بالشعور والحس فلا مبرر لرفض هذا السؤال السخيف، وبذلك أريد الجواب ما وسعني، حتى يدرك

الإنسان التجلي بمنظور المشاهدة، ولو كان هذا الجواب يتورط ذيله في التعقيدات الفلسفية والعمق الشرعي، ولكن يجب تحملها لحاجة ملحة، كما قال الشاعر: إن العشاق يتحملون كل المشاق، فهموم العشق هموم لذيذة لا ترهق العشاق.

العلم الحديث والفلسفة الجديدة:

مما يعلم الجميع أن العلم الحديث هو أكبر فن أساسه المشاهدة، فموضوعه البحث والتنقيب في الماديات، واكتشاف الماديات عن طريق التركيب والتحليل، ويقوم على الفلسفة الجديدة، وأساسه أيضا قائم على الإحساس والمشاهدة على عكس أسس الفلسفة القديمة القائمة على النظريات البحتة، فالعلم الحديث والفلسفة الجديدة مرتبطتان ارتباط الذيل بالقميص، ومن هنا نود أن أثبت قضية التجلي بأصول العلم الحديث والفلسفة الجديدة، مما لا يدع مجالا للشك في مسئلة التجلي أمام الإنسان المادي المعاصر.

وقبل البحث في صلب الموضوع لا بد من ملاحظة أن الفلسفة قديمة كانت أو جديدة تتناول بشكل خاص قضية بقاء العالم وفناءه، هل هذا العالم حادث وفانٍ، لم يكن في الأزل، ولم يبق إلى الأبد، بل هو وجود عارضي، أُوْجِدَ لمدة محدودة أم له حقيقة أخرى غير هذا؟

ثم قضية بقاء العالم وفناءه قائمة على قضية أخرى، هي أكثر تعقيدا وإبهاما، وهي أن العالم بسيط أم مركب، فاتفقت الفلسفتان القديمة والجديمة على أن العالم مركب من الذرات الكثيرة التي لا تُعَدُّ، وهي أجزاء ديمقراطيسية.

موقف الفلسفة القديمة من قضية بقاء العالم وفناءه:

إن الفلسفة القديمة تؤكد على أن الذرات الكثيرة التي يتركب منها الدنيا تقبل الانقسام والتجزي في كل حال، ولا ينتهي انقسامها، ولو تم تقسيمها ألف مرة، فإن الأجزاء ما زالت تخرج منها، ولا تنتهي إلى حد، فإن الذرة الواحدة تقبل الانقسام إلى أبد

الآباد، إن لم يتم الانقسام الحسي الذي يدركه البصر فيجري الانقسام العقلي، وإن تعب العقل فيجري الانقسام الوهمي، وإن كان العقلاء لم يبينوا حتى الآن إن كان الوهم قد تعب وكلَّ فكيف يجري هذا الانقسام اللامحدود؟ وعلى كل فإن كانت أجزاء العالم تقبل الانقسام إلى أبد الأباد ولا تتنتهي أبدا فلا ينتهي العالم المركب من الذرات طبعا، بل يبقي كل فرد من أفراده، وكل حيوان من حيواناته، وكل واحد من الناس، وكل نبات من نباتاته، وكل شجرة من أشجاره، وكل جامد من جماداته، وسيتولد من كل شيء أجناسه وأنواعه وأفراده.

وهذا الانقسام أزلي كما هو أبدي، فإن انقسام الذرات إذا كان لا ينتهي إلى مدى ولا يقف عند حد، فالأزل والأبد سواء عنده، فالانقسام يجري من الأزل إلى الأبد، فلا يأتي على الدنيا حين من الدهر، يفنى فيه العالم، كما لم يأت عليه ساعة من الدهر، كان العالم فيه معدوما، فالفلسفة القديمة تثبت أصولها أن العالم أزلي وأبدي، فلا بداية له ولا نهاية، ويمكن التعبير الفني عنه بأن جزءا لا يتجزأ باطل، فكل جزء يقبل التجزي والانقسام إلى مدى الدهر، والظاهر أن العالم إذا كان باقيا إلى أبد الآباد لا تقوم قيامة قاضية على العالم، وإذا كان العالم أزليا فلا معنى لحدوثه بعد العدم، فلم يعد من حاجة إلى صانع يصنع العالم، وموجد يوجده بعد العدم، فهذه الفلسفة ترفض كلا من المبدأ- وهو ذات البارئ سبحانه- والمعاد-وهو القيامة-.

ومن هنا نشأت فلسفة الدهرية القائلة بأنه ليس للعالم مبدأ ولا معاد، بل العالم هو امتداد الزمان وكروره، مما يجعل أفراد الإنسان يعيشون ويموتون بدون تأثير في بقاء العالم وفنائه، وقد رد القرآن الكريم على هذه الفلسفة السخيفة، فقال: **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** (سورة الجاثية: ٢٤).

موقف الفلسفة الحديثة من بقاء العالم وفناءه:

وعلى العكس من ذلك فإن الفلسفة الجديدة والعلم الحديث ترفض بطلان الجزء الذي لا يتجزأ، بل تقول بثبوته ووقوعه، وتذهب إلى أن كل جزء في الدنيا ينتهي إلى حد، ويقف على انقسام نهائي، فلا يقبل بعده أي تقسيم، وهذه الذرة الأخيرة التي لا تقبل الانقسام تسمى في اصطلاح العلم الحديث بـ"الذرة النووية"، وهي تحمل من القوة ما إن تم استعماله في الأعمال السلبية أدى إلى فناء العالم في لحظة واحدة، فبناءً على الفلسفة الحديثة إن هذه الذرة الأخيرة تقبل الزوال ولا تقبل الانقسام، فهذه الفلسفة ترى إمكانية فناء الدنيا، بحكم أن ذراتها تقبل الفناء والتغير، كما أنه من الإمكان بكثير أن الذرات كانت في البداية معدومة، فإن الذرات إذا قبلت الفناء في الأبد–وهذا يعني أن طبيعة الذرات تقبل الفناء– فلا تتغير طبيعتها في الجانب الأزلي، فهي معدومة في الأزل والأبد، وليست أزلية ولا أبدية، مما يدل على أن العالم المركب من الذرات المعدومة يحمل المزاج العدمي، وليس ببعيد كونه معدوما في كل من الأزل والأبد، بل عمره محدود، وحياته معدودة، خُلق لفترة محدودة، وهذا هو معنى حدوث العالم.

الفلسفة الحديثة تقر بالدين الحق:

الحاصل أن بين الموقفين: موقف الفلسفة القديمة وموقف الفلسفة الجديدة بونًا شاسعًا، وتعارضًا واضحًا، فإذا ثبت بطلان الفلسفة القديمة فيما يتعلق بالجزء الذي لا يتجزأ -كما أثبت بطلانها فلاسفة الإسلام وحكماؤه- صح طبعا موقف الفلسفة الحديثة، وثبتت إمكانية زوال الدنيا بإمكانية فناء الذرات التي يتركب منها العالم، وثبت كذلك وقوع القيامة بعد زوال الدنيا، وإذا كانت الدنيا غير أزلية ثبت حدوثها، وإذا ثبت حدوثها ثبتت حاجة إلى صانعٍ صَنَعَ الدنيا وخالقٍ خلق الأرض والسماوات، وأوجد العالم بعد عدمه، ثم يُفنيه في آخر الدنيا، وصانعٌ هذا شأنه هو الذي يطلق عليه

واجب الوجود في اصطلاح الفلسفة، وهو الله ومالك الملك في الاصطلاح الشرعي، مما يدل على أن علماء العلم الحديث والفلاسفة الجدد قد أقروا بوجود الله تعالى ووقوع القيامة، ولم يكونوا بعيدين تماما عن نطاق الدين الإسلامي، فلا بأس بالاعتراف بأن الفلسفة الجديدة أقرب إلى الإسلام بقدر بُعد الفلسفة القديمة عنه.

وعلى كل فإن الفلسفة الحديثة تثبت أن العالم حادث، له بداية معلومة، ونهاية معلومة، فسبب بدايته هو الله تعالى، ونهايته هو القيامة، على عكس ما تزعمه الدهرية.

إن الكيفيات والأوضاع التي جرّبها عن طريق الحس والمشاهدة خبراء العلم الحديث فيما يتعلق بفناء الجزء الذي لا يتجزأ لا تجعلهم يعترفون بوقوع القيامة فحسب؛ بل تجعلهم يعترفون بترتيب الأفعال الإلهية وتفصيلها في وقوع القيامة، فإن آخر ما توصلوا إليه من نتائج هو أنَّا بعد كسر جميع الذرات إذا وصلنا إلى الذرة الأخيرة التي لا تقبل الانقسام، وضربنا عليها بقوة، فهي لا تنقسم؛ ولكن تفنى وتزول، وفور فنائها تخرج من تحتها شعلة نار، لا ندرك حقيقتها ولا مصدرها، ولا سبب خروجها، ولا صلتها بالذرة الأخيرة، ولا سبب اختفائها تحت الذرة.

هذا هو قول الفلاسفة الجدد فيما يتعلق بالذرة، وإذا عرضنا هذه التفاصيل على القرآن الكريم، وقارنَّا بين موقف الفلسفة الجديدة وبين ما جاء في القرآن الكريم من تفاصيل متصلة بيوم القيامة، لم نجد فارقا كبيرا بين اكتشافات العلم الحديث وحقائق القرآن الكريم، بل يتضح بذلك تلك الحقائق الخفية التي ما زال علماء العلم الحديث قاصرون عن إدراكها، ومعترفون بضيق باعهم في الموضوع.

موقف القرآن الكريم من الدنيا وفنائها:

إن موقف القرآن الكريم من فناء الدنيا يتمثل في أن عملية إزالة العالم التي تسمى بالقيامة تبدأ من الأرض، حيث تحدث زلزلة عظمية رهيبة، تهز الأرض كلها،

ولا يبقى أي مخلوق أرضي على قراره، بل كل الخلائق تضطرب اضطرابا شديدا، ولم يكن لها مأوى تأوي إليها، حتى إن الولدان يعودون شيبا، وتضع كل ذات حمل حملها، وتغفل كل مرضعة عن رضيعها، كما قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (*) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** (سورة الحج: ١-٢).

وهذه الزلزلة لا تكون كالزلازل العادية التي تحدث في الأرض بين فينة وأخرى، بل هي زلزلة شديدة، تشمل كل الدنيا وتهز الأرض كلها، وكل شيء في الدنيا يحيد عن مركزه، ويضطرب شديد الاضطراب كما يضطرب كرة لا مركز لها.

وقال تعالى: **إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا** (سورة الزلزلة: ١)، ثم لا تكون الحركة الأرضية الناشئة بزلزال القيامة هي حركة أرضية، لا يبدو أثرها على ظاهرها، كما يكون في عامة الزلازل الدنيوية، التي تحرك الأرض قليلا، ثم تبقى الأرض على مكانها، ولكن هذه الزلزلة تهز الأرض، بل تقلب الأرض وتحملها بجبالها الشامخة ومبانيها العظيمة وبحارها الجسيمة وصحاريها الواسعة، وقد عبر عنه القرآن الكريم بلفظ"حُملَت"، فإن الحمل يعنى رفع الشيء من مكان، لا الهزة فقط، فالأرض ترتفع من مكانها ثم تسقط عليها، مما يحدث اضطرابا شديدا في كل شيء حتى الجبال الراسيات، وينقلب النظام الأرضي ظهرا لبطن، كما قال الله تعالى: **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً** (سورة الحاقة: ١٤).

ثم لا تسقط الأرض والجبال فقط، بل تنكسر وتندك كليا، كما قال الله تعالى: **فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً** (سورة الحاقة: ١٤)، وإذا كانت الجبال الضخمة التي تثقل الأرض كلها بأثقالها العظيمة وتترسخ جذورها في الأرض كالأوتاد تندكُّ كليا ولم تعد راسخة ثابتة في مكانها، فكيف تكون سببًا لثبات الأرض وترسخها، بل الأرض والجبال

كلتاهما تبرح مكانها، وتسير في الدنيا بلا جهة، بل تطير تطاير الفراش، أو كما ينفصل لحم الحيوان الكبير السن عن العظم، ويتعلق بالجسم تعلقا ضعيفا، وهذا ما قال الله تعالى: **وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا** (سورة النبأ: ٢٠).

فكانت الجبال تضطرب يمينا وشمالا، وتتمايل من التحت إلى الفوق كالأرض، ولذلك قرن الله تعالى الجبال بالأرض، فقال: **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً** (سورة الحاقة: ١٤).

ثم لا تنتهي المشاهد إلى هذا الحد؛ بل الأمر فوق ذلك، حيث تطير الأرض والجبال كلتاهما، فإنها إذا زال الثقل، وانتهت الصلابة، صارت الجبال كشيء لا وزن له، ومن شأن هذه الأشياء أن تطير، فالجبال تطير في الفضاء كالعهن المنفوش، كما قال الله تعالى: **الْقَارِعَةُ (*) مَا الْقَارِعَةُ (*) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (*) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (*) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ** (سورة القارعة: ١-٥).

ثم لا تبقى الجبال كالعهن المنفوش فحسب؛ بل تكون دكا، تنتشر أجزاؤها، وتتناثر ذراتها في الفضاء، كما قال الله تعالى: **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً** (سورة الحاقة: ١٤)، وقال تعالى: **إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (*) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (*) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا** (سورة الواقعة: ٤-٦).

ثم الهباء وهو الغبار قد يحمل نوعا من الوجود، ولو كان وجودا خفيفا لا ثبات له، ولكن هذه الجبال تفقد وجودها الحقيقي فتكون سرابا، يبدو من البعيد ماء، ولا يكون في الحقيقة إلا رمالا لامعة. قال الله تعالى: **وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا** (سورة النبأ: ٢٠).

وليس السراب إلا ذرات صغيرة قال فيها الفلاسفة: إنها ذرات ديمقراطيسية، يتركب منها العالم، فالعالم يبلغ ذالك المكان الذي بدأ منه، فكانت في البداية ذرات، وستتحول في النهاية ذرات، كما بدأكم تعودون.

وهكذا حال البحار، فهي تسيل بلا جهة، وتتداخل البحار فيما بينها، حتى لم يبق فرق بين الجداول والأنهار والمحيطات والبحار، ولم يبق لها من التشخص ما تعرف به، قال الله تعالى: **وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ** (سورة الانفجار: ٣).

فالبحار تتفجر وتفيض في كل جهة، ولم يبق لها شيء من التنظيم، وتتدافع فيما بينها حتى لم يبق فرق بين البحار المالحة والأنهار العذبة، وتتكسر كل النظُم الأرضية التي كانت تجعل الأنهار والبحار تفيض بنظام وترتيب.

وهكذا حال السماء، فتزول صلابتها أولا، ثم تتعلق كالمواد الخفيفة، كبقية الدهون التي تتمايل في كل جانب، قال الله تعالى: **الْقَارِعَةُ (*) مَا الْقَارِعَةُ (*) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (*) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (*) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ** (سورة القارعة: ١-٥).

ثم تنشق الأرض وتُفْتَح السماء، فتكون أبوابا، قال الله تعالى: **وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا** (سورة النبأ: ١٩)، فتزول السماء عن مكانها، وتتصادم فيما بينها، حتى تسقط على الأرض بكل شدة، وبتدافع الأرض والسماء تعودان دكا دكا، وإذا سقطت السماء على الأرض سقط كل نظام كوكبي، فلا تبقى نجوم ولا كواكب، ولا شمس ولا قمر، فتنفطر السيارات الفلكية، وتنتشر أشلاؤها كالذرة، وتفقد كل الاتزان، يقول الله تعالى في القرآن: **إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (*) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (*) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (*) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ** (سورة الانفطار: ١-٤).

لاسيما يفسد نظام الشمس والقمر، وكانت الدنيا منورة بنورهما الشامل الوضاء، حتى لقبهما بعض الأمم المشركة بأنهما آلهان، ولكنهما تصيران كالموقد الأسود، فلا يبقى القمر قمرا، ولا الشمس شمسا، ولا يبقى لهما نور عالمي، ويكون العالم أسود حالكا.

يقول الله تعالى: **فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (*) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (*) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (*) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (*) كَلَّا لَا وَزَرَ (*) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ** (سورة القيامة: ٧-١٢)، وخص بالذكر الشمس وما يعتريها من تغير، فقال الله تعالى: **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** (سورة التكوير: ١).

فكل من الأرض والجبال والبحار والسماء والقمر والشمس والنجوم وكل النظام الأرضي علويه وسفليه يفسد فسادا عظيما، ويصير كثيبا مهيلا، وتتحول إلى ذرات صغيرة، يصفها الفلاسفة بأنها ذرات ديمقراطيسية تركب منها العالم، وإذا انتشر المركب بقيت أجزاؤه، وهي تتمثل في هباء منثور، وهو مادة الكون، ثم تزول هذه الذرات وتكون غبارا، ولم يبق لها وجود. كما قال تعالى: **فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** (سورة الفرقان: ٢٣).

فالكون كما بدأ بالذرات سينتهي أيضا بالذرات، وإذا عدمت هذه الذرات وكل شيء في الدنيا بقي وجه الله تعالى وحده، وهو قادر على إعادة كل شيء، كما بدأ الخلق أول مرة، قال الله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (سورة الروم: ٢٧).

وقد وصف سيدنا علي رضي الله عنه هذا الفساد العالمي واضطراب النظام الكوني العلوي والسفلي وتحوله إلى هباء منثور بألفاظ تالية:

" كرهَج الْغُبَارِ يَسْطَعُ ثُمَّ يَذْهَبُ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ"[1].

المرحلة الأخيرة لفناء الدنيا:

ففناء الدنيا وفسادها يتم بمراحل، فتتقطع أولا الأرض والسماء بما فيهما من أشياء كونية، وتنقسم إلى أجزاء كبيرة كالجبال، ثم تتناثر هذه الأجزاء الكبيرة كالجبال إلى صخور كبيرة، ثم تتقطع أجزاء كالصخور إلى أحجار كبيرة، وتنقسم الأحجار

(١) ابن كثير، **تفسير ابن كثير**، ج٧، ص٥١٥.

الكبيرة إلى حجارات صغيرة ثم ذرات صغيرة، يصفها الفلاسفة الجدد بأنها ذرات ديمقراطيسية يتركب منها العالم كما زعموا، وإذا فسدت الأجزاء التي تقبل التجزي والانقسام، عدمت هذه الأجزاء الصغيرة التي لا تتجزأ، وبعدمها يعدم الكون، فكأن ما صنع الفلاسفة بالذرة الصغيرة بحيث كسروها حتى أفنوها، يقوم الله تعالى بنفس العملية مع الكون كله، فيقسم كل ذرة حتى يفنى كل شيء في الكون، ولكن ماذا بعد؟

ماذا بعد فناء الذرات؟

ولكن ماذا يحدث بعد فناء الذرات؟ فذهب الفلاسفة وعلماء العلم الحديث إلى أن هناك نارا تخرج من تحت الذرات، وهذا ما فسر به عبد الله بن عباس رضي الله عنه "هباء منثورا"، فقال: الهباء الذي يطير من النار، إذا اضطرمت يطير منه الشرر"[1].

والحاصل أن نارا تخرج من تحت الذرات الفانية، مما يجعل الذرات تتطاير، فالنار تعمل في إطارة الذرات وجعلها معدومة، فإنها لا تطير في النار لتكون النار لها ظرفا، ويثبت لها وجود مستقل في النار، بل قال ابن عباس: تطير من النار، فالنار لا تكون لها ظرفا، بل تكون سببا لتحريكها وإطارتها، ومحرِّك الشيء إنما يكون سببا لوجوده، فالحياة عبارة عن الحركة، مما أسفر عن أن الذرات إذا عدمت بقيت النار وهي سبب وجودها، فالفلاسفة نظروا إلى النار بعد فناء الجزء الذي لايتجزأ، ولكنهم لم يفقهوا حقيقتها، وقد اعترفوا بعجزهم وقصور نظرهم هنا.

فظهور النار بعد فناء ذرات الكون كما ثبت باكتشاف العلم الحديث والفلسفة الجديدة ثبت كذلك بالروايات والنصوص الشرعية، وظهر أن الذرات إذا لقيت العدم خرجت من تحتها نار، ففناء الخلائق البرية تتبعه نار خارجة من تحت الأرض كما ثبت بالدلائل الطبعية والشرعية.

---

(١) ابن كثير، **تفسير ابن كثير**، ج٧، ص٥١٥.

أما الخلائق البحرية ففناؤها أيضا ينتهي إلى نار، حيث تخرج النار من تحتها، فإن البحار هي مخزن الماء، وقال الله تعالى في البحار: **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ** (سورة التكوير: ٦)

والتسجير يعني الإيقاد، وهو من صفات النار، فإن الناس إذا أرادوا إحراق شيء يجعلون تحته نارا، ثم ينفخون فيها لتتقد وتشتعل، وهذا هو التسجير، فمعناه أن النار هي تحت البحار، وتوقد يوم القيامة، لتحرق البحار، وقد أوضح هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لاَ يَرْكَبُ الْبَحْرَ إِلاَّ حَاجٌّ أَوْ مُعْتَمِرٌ أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارًا وَتَحْتَ النَّارِ بَحْرًا "(١).

وبهذه النصوص يتأكد أن فناء العالم البحري أيضا تتبعه نار، تخرج من تحت البحار، فالنار مستورة تحت البحر، وآخذة بأسها.

كما أوضحت الآثار المذكورة أعلاه أن الذرات بحرية كانت أو برية ستنتهي إلى النار، وبها قام نظام حياتها، وهذا آخر ما توصل إليه العلماء اليوم، أما ما حقيقة هذه النار الخارجة من تحت الذرات؟ وما دوافع خروج هذه النار؟ فهذا أمر بقي خافيًا على العلماء، وكشف عنه الشرع الإسلامي، وهو أن المعلوم لدى الجميع أن النار من شأنها أنها تنير ما عداها بخاصيتها الذاتية، وتقيم أمره بحرارتها الفطرية، ولكن ليس بوسعها أن تقيم نظاما للنور والحرارة، فإن النظام يقتضي كلًّا من العلم والشعور والتدبير والتصرف والإرادة والقدرة، مما حُرِمَت النار إياها، فهي عنصر جامد فاقد الشعور، لا تتسع صورتها النوعية لهذه الخصائص، ولا يختص هذا الأمر بالنار، بل بكل من العناصر الأربعة المتمثلة في النار والماء والهواء والتراب، حيث تفقد هذه العناصر كلها صلاحية لإدارة أي نظام تركيبي، فهي تعمل في ماكينة النظام العالمي كالآلات والأدوات التي تتحرك بلا شعور وإرادة،

---

(١) أخرجه الإمام أبوداود، في سننه، رقم الحديث: ٢٤٩١.

إلا أن إقامة النظام ليست من موضوعها ولا من استعداداتها، مما يؤكد على أن هناك قوة قوية ذات حكمة وشعور، تتصرف في الكون عن طريق استعمال العناصر الأربعة، فيجري به نظام عالمي حكيم، والظاهر أن تلك القوة ليست من العناصر ولا من مواليدها (كالجمادات والنباتات والحيوانات)، فإن هذه المواليد قد تولدت أيضا من العناصر فاقدة الشعور، فكيف تحمل شعورا وإرادة وتعقلا، فلا مندوحة من الاعتراف بأن تلك القوة هي ذات الخالق المتعالي سبحانه الذي خلق بحكمته التي لا تنتهي العناصر وما تولد منها من الأمور الكونية،فهو مصدر كل خير، ومنبع كل علم وشعور، ومخزن الكمالات الظاهرة والباطنة.

كيفية تخليق العناصر والمواليد:

وقد ينشأ هنا سؤال، وهو أن الله تعالى كيف خلق العناصر والمواليد؟ وكيف تم اتصال العناصر والمواليد بواجب الوجود؟ فإن واجب الوجود وجود مطلق، وهذه العناصر معدومة الوجود لكونها عديمة الأصل، فواجب الوجود نور مطلق، وهي ظلمة محضة، وهو واجب الوجود، وهي غير ممتنعة الوجود، وهو منبع الكمالات، وهي مخزن العيوب والنقائص، فأنى للعناصر أن تتصل مباشرة بواجب الوجود. فأين الثرى من الثريا؟

القدرة ومنشؤها:

فكخطوة أولى لحل هذه المشكلة يجب أن نعلم أن ذات الباريء سبحانه أجلُّ وأعظمُ من أن يتصل به مباشرةً كل شيء كوني، ويكسب وجوده عن الاتصال المباشر، فهذا شأن بعض الأشياء، التي خلقها الله سبحانه مباشرة بيده، وذلك لطهارتها الأصلية وقداستها الذاتية ولطافتها الفطرية، أما سائر الأشياء فهي إنما وُجدت بمنشأ قدرة الباريء سبحانه لا بيد قدرته مباشرة، ومن أكبر دلائله أثر عبد الله بن عمر رضي الله

عنه، وهو في حكم الحديث المرفوع، فإن ما لا يدرَك بالرأي والقياس هو بمنزلة المأثور عن صاحب الوحي رسول الله ﷺ.

ونص الرواية : عن ابن عمر رضي الله عنه قال: خلق الله آدم بِيَدِهِ وَخلق جنَّة عدن بِيَدِهِ وَكتب التَّوْرَاة بِيَدِهِ ثمَّ قَالَ لسَائِر الْأَشْيَاء: كن فَكَانَ"(١).

وروي مثله عن عكرمة رضي الله عنه، إلا أنه زاد فيه ثلاثة أشياء، وهي جبريل والعرش العظيم والقلم، خلقها الله سبحانه بيده، والسابع هو رسولنا صلى الله عليه وسلم، الذي ورد بشأنه حديث مرفوع صحيح، أخرجه عبد الرزاق في مصنفه بسند صحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري، وقد أوضحه من بين العلماء المتأخرين والعرفاء المتقين مرشدنا الشيخ حكيم الأمة أشرف علي التهانوي رحمه الله في كتابه "نشر الطيب" بأسلوب رائع، مما يدل على أن المتأخرين من العلماء مازالوا يثقون بالرواية المذكورة، ومفاد الرواية أن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال لرسول الله ﷺ: يارسول الله! فداك أبي وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى؟ قال: يا جابر! أول ما خلق الله نوري من نوره، أي بفيض نوره، ثم جعل بمشيءته هذا النور يسير حيثما شاء، ولم يكن حينئذ لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار، ولا ملك ولا سماء ولا شمس ولا قمر، ولا جن ولا إنس، وإذا أراد الله تعالى خلق سائر الأشياء قسم هذا النور أربعة أجزاء، فخلق القلم بأحد أجزائه، وخلق اللوح بجزئه الثاني، وخلق العرش بجزئه الثالث، وإذا ثبت أن الله خلق الأشياء بأجزاء النور المحمدي حتى خلق به تلك الأشياء التي خلقها بيده الخاصة، فأولى أن النور المحمدي مخلوق بيده الخاصة، كما ثبت ذلك بنص الرواية المذكورة، وإلا فكيف يمكن أن الأشياء التي خُلقت بفيض النور المحمدي تصل إلى الله مباشرة، والذي هو أصل في وجود الأشياء لا يصل إلى الله تعالى مباشرة، مع أنه أشرف وأعظم من الجميع، وبه نال كل شيء

---

(١) السيوطي، **الدر المنثور**، (بيروت: دار الفكر، د.ت، د.ط)، ج٣، ص٥٤٩.

الوجود، فثبت اتصاله بالخالق سبحانه مباشرة بالدرجة الأولى، والقياس بالأولوية ليس من مباحث المنطق الجافة، بل اعتبره الشرع أيضا، ثم هناك أثر مروي عن جابر بن عبد الله، يؤيد هذا القياس، فلم يبق من حاجة إلى القياس.

وإذا تم وصف الحقيقة المحمدية بالنور، وإثبات اتصاله المباشر بذات واجب الوجود فلا معنى له غير أن الحقيقة المحمدية هي التي خلقها الله سبحانه بصفته المتقنة، وهي فوق يده وقدرته، فوجود الحقيقة المحمدية بيد الله سبحانه مباشرة ليس من مقتضيات القياس بالأولية بل من الثابت بعبارة النص.

إيضاح أنواع التخليق بالمثال:

وعلى كل فإن ما عدا الأشياء السبعة لم يخلقه الله مباشرة، مع أن الله تعالى خلق الجميع فمعناه أن وجود هذه الأشياء محتاج إلى شيء خارجي أفاض عليها الوجود، وهو منشؤ قدرة الباري دون يده سبحانه، وقد عبَّر القرآن الكريم عن منشأ القدرة بكلمة "كن"، حيث ظهرت الأشياء الكونية بهذه الكلمة، وهو تصرف باطني دون الصنعة الظاهرة، ويدخل في منشأ القدرة كل الأشياء الكونية التي نالت الوجود بواسطة فيض القدرة الإلهية، وقد أطلق أرباب الحقائق على هذه الوسائط لفظ "تنزلات الذات"، فالأشياء السبعة حصلت على وجودها بفيض الذات الإلهية، وهو المعبر عنه بـ"يد القدرة"، وسائر الأشياء نالت وجودها بفيض الوسائط، التي تم التعبير عنها بتنزلات الذات، ومثله كمثل الشمس التي تنير بعض الأشياء مباشرة، وبعضها بوسائط، كالفضاء الذين تنيره الشمس بلا واسطة، فإن الفضاء الذي أمام الشمس أو أحاط بالشمس أكثر ما يجذب نورَ الشمس وحرارتها إلى نفسه، فكأن الشمس تتوجه إليه مباشرة، وتهب له وجودا نوريا، وأما سائر الأشياء التي تحول دونها ودون الشمس حجب كثيفة لا تنيرها الشمس بذاتها، بل يضيئها نور الشمس، كداخل المنازل المسقفة

التي لا تدخلها الشمس، وإنما يدخلها ضياؤها، فينوِّر ما حوله من الظلمة، فلا يوجد فيه من كيفية الحرارة والنورانية ما يوجد في الفضاء السافر، وبعض المنازل المغلقة التي لا يدخلها نور الشمس أيضا كالمنازل التحتية يدخلها الضياء المستفاد من نور الشمس، فيضيئها، فالوسائط الواهبة الضياء، المتمثلة في نور الشمس وشعاعها تطلق عليها أنها تنزلات الشمس، لا عين الشمس، ولا فعلها المباشر، والضياء المستفاد من الوسائط لا يوصف بصنعة الشمس، بل من صنعة الوسائط النازلة، وإن كانت الشمس هي التي تهب الضياء في كل صورة، إلا أن الفرق بين المباشرة والتسبب يحدث فرقا كبيرا في الضياء والحرارة، وقس على هذا الفرق بين صنعة واجب الوجود وصنعة تنزلات الذات، فواجب الوجود هو الذي يهب الوجود في كل صورة، إلا أن الفرق بين المباشرة والتسبب يحدث هنا أيضا فرقا في مراتب الموجودات، ففي الاصطلاح الشرعي تم التعبير عن الصنع الإلهي والفعل الإلهي المباشر بيد القدرة الإلهية، التي وهبت لسبعة أشياء الوجود المباشر، وتم التعبير عن الفعل الكائن بالواسطة بمنشأ القدرة، الذي يظهر بكلمة "كن"، وبها نال كل شيء كوني وجوده.

الوسائط بين الخالق والمخلوق:

وكما أن الأشياء التي لاتتصل بالشمس مباشرة وتستنير بنورها بوسائط تحتاج إلى واسطة كضياء الشمس وشعاعها، يحتاج كذلك كل شئ كوني ما عدا الأشياء السبعة المذكورة في الرواية المذكورة، المتمثلة في سيدنا محمد وجبريل الأمين وآدم والجنة والعرش والقلم ولوح التوراة، يحتاج كل شيء ما عدا هؤلاء إلى وسائط.بيد أن الفرق بين واسطة الشمس وواسطة الواجب الوجود أن واسطة الشمس هي أشعتها وضياؤها، والواسطة هنا هي صفات البارئ وأفعاله وصنعه لا غير، مما يعطي كل شيء خلقه ووجوده.

وكما أن أشعة الشمس تبدو منفصلة عن ذات الشمس، ولكنها مع هذا قريبة إليها متصلة بها، نعم! تنتشر آثارها وأنوارها في الأشياء الكونية ولا تسري بنفسها، فكذلك تبدو أشعة الكمالات الربانية المتمثلة في صنع الله تعالى وأفعاله وأسمائه تبدو متصلة بالكون ، منفصلة عن الذات، ولكنها في الحقيقة متصلة بالخالق سبحانه، ولا تنقطع عنه لتسري في الأشياء وتتلاشى فيها، وإنما تنتشر آثارها وأنوارها وبركاتها.

وكما أن ضياء الشمس وأشعتها تستفاد من الشمس بعينها، ولا تكون مأخوذة من غيرها، فكذلك تنزلات الذات يستفاد نورها من النور الإلهي، ولا يؤخذ من نور غيره.

وكما أن عين الشمس لا تتشكل بأشكال الأشياء، وهذا مستحيل أيضا، فإن الشمس أكبر من الكرة الأرضية بأضعاف مئات الملايين، فكيف تسري في الأرض لتتشكل بأشكالها، ولكن ضياءها يتشكل حسب ما يقع عليه من أشياء، فيختار أشكال النوافذ والشبابيك التي يدخل منها، فإن كانت النوافذ مستديرة دخل النور في صورة نافذة مستديرة، وإن كانت مربعة كان النور مربعا، فكذلك كان يجب أن تكون الوسائط بين الخالق سبحانه وبين الأشياء الكونية بحيث تستطيع من جهة أن تأخذ من كمالات الذات والصفات الربانية، ومن جهة أخرى تتلاءم طبيعته مع الأشياء الكونية المحدودة وصورها المتغيرة، بل تستطيع التشكل بأشكال الأشياء الكونية، فتأخذ من جهة كمالات الوجود، وتهب في جهة أخرى للعناصر والمواليد عنصر الوجود، حتى تكون واسطة حقيقية بين الخالق والمخلوق، فهذه الواسطة الحقيقية تسمى بالتجلي، الذي يحمل عكس الكمالات الإلهية، حيث قد يحمل عكس الصفات الإلهية، وقد يحمل عكس الصنع الإلهي، ثم هذا العكس يتشكل في أشكال صغيرة وكبيرة، فصنع الله وأسماؤه وصفاته – وهي تنزلات الذات– هي التي تتصرف في العناصر وصورتها وما يعتريها من أحوال وأوضاع وآثار.

تصرفات التجلي في الأمور الكونية:

فكانت التجليات الربانية واسطة الفيض بين الخالق والمخلوق، وهي التي وهبت للعناصر الوجود، وكانت العناصر في علم الله أشياء غير مادية منزوية في الصور العلمية، فكانت التجليات الإلهية هي التي فرقت بين العناصر، واستعملتها فيما تصلح له من الأعمال، وشعت عليها أنوار الأسماء الإلهية، التي تتلاءم وطبيعتها، وأخرجها من الوجود العلمي الكائن في علم الله من الأزل إلى الوجود المادي الحقيقي، وتمثلت تجليات الأسماء الإلهية في العناصر المادية، مما أظهر فيها آثارها وخواصها، التي أودعها الله سبحانه في الأزل، فيبدو أن الصورة النوعية هي تظهر الأثار والخواص، والتي يصفها الفلاسفة بمقتضيات الصورة النوعية، ولكنها في الواقع من آثار نور التجليات الربانية، التي تتمثل في هذه الصور المادية.

وبعد كل هذا من المناسب أن نفكر في حقيقة العناصر؛ بما فيها النار التي رآها الفلاسفة تحت الذرات النووية، إلا أنهم لم يدركوا أن النار هي سبب وجود الذرات العنصرية وثباتها في الأرض، بل هكذا حال العناصر الأربعة كلها ، حيث إن كل ما يتصل بالعناصر الأربعة يقوم وجوده بسبب العناصر، وهي التي تعمل في كل شيء كوني بخواصها وآثارها.

تأثير التجليات الربانية في العناصر الأربعة:

وإذا نظرنا إلى العناصر الأربعة المتمثلة في النار والماء والهواء والتراب نظرة تأمل وتدبر وجدناها تتفاوت فيما بينها كثيرا من حيث الكثافة واللطافة، فليست سواء في هذا الجانب، وهذا التفاوت يؤثر في آثارها وخواصها وأفعالها. ومن المناسب أن أقف وقفة قصيرة مع كل عنصر من هذه العناصر، وذلك بالتالي:

عنصر التراب:

إن عنصر التراب أكثف العناصر الأربعة، حيث يفقد بسبب كدورته الفطرية كل صفاء وطهارة على الصعيد الأرضي، فلا يحمل صورة جذابة، ولا شفافية باطنية، لتظهر ما

فيها من الأشياء المستورة، ولا لطافة بدنية، تبهر العيون، وتريها ظاهرها وباطنها، ولا يحمل صلاحية للنفوذ، لينفذ إلى ما سواه من الأشياء، ثم ليس هو كثيفا محضا؛ بل هو كثيف بذاته، يحدث الكثافة في غيره، فإن كل ما يلصق به التراب يجعله كثيفا قذرا، فعنصر التراب هو عنصر كثيف مطلق وجامد محض، لا يتحرك ولا يحرِّك، بل هو مادة انفعالية، تقبل كثيرا من الصور والهيئة، ولايحمل شيئا من جوهر الفاعلية، ليفعل شيئا بإرادته وحركته الذاتية، فاستعمله الله تعالى في صنع الصور والأشكال، فخلق من بعضه الإنسان، ومن بعضه الحيوان، ومن بعضه الجماد، ومن بعضه النبات، وخلق من مجموع التراب الأرض، وخلق السماء من دخان التراب وبخاره، ومنهما خلق ما بين السماوات والأرض من خلائق، وأظهر به الآثار والأفعال، المودعة في الصورة النوعية للخلائق، فالحاصل أن الله تعالى صنع من التراب الصور والأشكال، كما قال: **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ** (سورة ص ٧١).

ثم الهيئة التصويرية المكونة من عنصر التراب تختلف باختلاف المواطن، إلا أن جميع الصور والأشكال إنم تم خلقها من التراب، وخلق صورة الإنسان في الرحم من المادة المنوية المتولدة من التراب، كما قال: **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (سورة آل عمران: ٦)، وقال في موضع: **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (سورة غافر: ٦٤).

فظهرت صور كثيرة للحيوانات مكونة من عنصر التراب، ومنها ظهرت مئات الألوف من صور النبات، قال الله تعالى: **يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (سورة النحل: ١١).

الحاصل أن الله تعالى صوَّر كل مخلوق من عنصر التراب، فكان لا يصلح عنصر التراب لغير هذا، فظهرت على هذا العنصر نور صفة المصور، فظهرت شتى الصور والأشكال.

عنصر الماء:

أما عنصر الماء فهو ألطف من التراب وذراته من حيث الصورة النوعية، وهو كذلك شفاف يشف لما تحته، ويصف خارج الشيء، وهو متحرك بذاته، يموج ويمتد، وينحدر إلى الأماكن المنخفضة، ولو جرى في المنحدر مسافات طويلة، ويصلح للنفوذ، حيث ينفذ إلى مسام الأشياء، ثم يهب الحياة والطراوة لما يصل إليه، بل تحيى بالماء تلك الأرض التي ماتت بالجفاف والقحط، وكذلك الأوراق والكروم والأشجار والشجيرات التي عادت إلى الذبول إذا نزلت عليها قطيرات من الماء والمطر عادت إليها الحياة، وتصلح للنبات والإنبات، وكذلك الحيوانات التي تشرف على الهلاك تتنفس الصعداء إذا ظفرت بالماء، فبكون الماء لطيفا ونافذا إلى القلوب يظهر فيه أثر خلق الحياة، ومن ثم استعمله الله في خلق الأشياء الكونية.

قال الله تعالى: **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ** (سورة الأنبياء: ٣١)، وبذلك يظهر أن الماء انعكس عليه نور صفة الحي، وبذلك صار الماء سببا للحياة.

عنصر النار:

أما عنصر النار فهو ألطف من الماء أيضا، فالماء مع لطافته يحب الانخفاض، حيث ينزل إلى التحت بالطبع، والنار مع لطافتها تحب العلو، فلهيبها يحب العلو دائما، والماء في جريانه يحتاج إلى الانخفاض، والنار في ظهورها لا تحتاج إلى علو وانخفاض، فهي تبحث عن مكانها في كل حالة، ولا شك أن النار إذا تركت وشأنها تُحرق الأشياء كلها، وإذا تم توظيفها بحسن تدبير وعناية، تكون سببا لبقاء الأشياء وإحكامها، فإن حرارة النار تسبب حياة الحيوانات، فلولا الحرارة لمات كل حيوان، مما يصفها الأطباء بالحرارة الغريزية، فكأن الحرارة شيء غريزي، مركوز في الفطرة الإنسانية، فالحرارة هي التي تخرج من النباتات كلها في المساء، فإن خرجت الحرارة خرجت الحياة عنها،

والجمادات لا تصلح للبقاء لولا حرارة النار، فلا تبقى بدونها هيئتها الأصلية، وكل حيوان في الشتاء يحتاج إلى شمس ودفء، ويتدفأ بها، حيث لايستطيع التحرك والانطلاق إن لم يجد النار، فالنار بلا شك هي سب بقاء الحياة، وتصلح لإبقاء الأشياء وثباتها، فأقام الله تعالى كل شيء بسبب النار، حيث جعل هيئة آدم من الطين الذي لا يتم بدون الحرارة.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (سورة الحجر: ٢٦)، ولقد خلق السماء من الدخان الناشئ من النار، ولو كان من بخار الأرض، فالسماء أصلب من الأرض وأشد، ولا يجري فيها تغير وتبدل في هذه المدة الطويلة كما يجري في الأرض، وذلك لمادتها النارية، وقد وصف الله إحكام السماء وعدم انفطارها قائلا: **خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (*) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ** (سورة الملك: ٣-٤)، فشأن النار في إبقاء الأشياء حقيقة حسية، يشعر بها الإنسان بدوره بدون مشاهدة الخارج، فالنار موجودة في الوجود الإنساني، وتعمل عملها في الجسد، إن دلكنا الكف بالكف ظهرت الحرارة وإن لم تظهر الشعلة، كما أن الجسد يصير حارًّا إذا جرى الإنسان أو مارس أعمالا شاقة، كأن النار تخرج من الجسد، إن الوجه يحمر بالحرارة عند الغضب، ويتفجر البدن حرارة إذا حدث نزاع وقتال، حتى إن الجمادات إذا تصادمت فيما بينها ولو بفعل إنساني تخرج منها الحرارة ولهيب النار، مع كونها تفقد الفهم والشعور والحركة الإرادية، كما أن تدافع الحديدين يسبب ظهور الشعلة والشرر، وضرب الحجر بالحجر يخرج نارا، وضرب الخشبة بالخشبة أيضا قد يخرج نارا، والمعلوم لدى الجميع أن ضرب الزند يأتي بنار ولهيب، وقد شاهد الناس مرارا أن شعلة النار ترتفع من وسط البحر في الليلة الظلماء، مما يقال له: الفاسفورس، مما يوضح أن النار تؤثر كثيرا في الحياة وقوتها

وبقائها، ومن أجل ذلك وضعت النار في خلقة كل شيء، أما العناصر الأخرى فلا تعرف بها الحياة ولا بقاؤها، وعلى سبيل المثال فالإنسان بعد موته يبقى فيه شيء من عنصري الماء والتراب، ولكن لا يوصف بأنه حي، فإن الحرارة إذا ذهبت تيقن الناس بموته، ويقولون: قد برد الميت، ولا يقولون: قد استحرَّ، مما يعني أن النار هي مدار الحياة وبقاؤها، وسائر العناصر كالتراب والماء ليست هي مدار الحياة، والماء يسبب الوجود، كما قال تعالى: وجعلنا من الماء كل شيء حي، ولكن المرء إذا لم يشرب الماء، أو لم يظفر به أسبوعا، يكون ضعيفا ولايموت، ولكن إذا خرجت الحرارة لايبقى حيا ولو لحظة، فالنار هي العنصر الوحيد الذي يكون مدار الحياة، فالماء والتراب يساعد في الحياة، وليسا مدار الحياة، فالنار هي التي تقيم نظام الأشياء، وتجعلها تصلح لأداء مهامها ومميزاتها النوعية، وبذلك يظهر أن النار ينعكس عليها نور صفة القيوم من الصفات الإلهية، وبذلك قام نظام العالم بشكل سليم، ولا بأس بالقول بأن النار هي الواسطة في وصول الحياة وبقاءها بين الأجسام الكثيفة المركبة من الذرات الديمقراطيسية وبين التجليات الربانية، ويظهر تجلي صفة القيوم، فكأن النار مرْكب الاسم المبارك: القيوم، والأجسام هي مرْكب النار، مما يعكس أن كائنا في الدنيا ذرة كان أو جبلا إذا لقي فناءه خرجت من تحته النار، فالموجود يفنى ويبقى سبب الوجود والبقاء، وليس هو غير النار، نعم! إذا فصل الخالق سبحانه ظلال تجلياته عن النار، ذهبت النار أيضا أدراج الفناء، فإنها أيضا مخلوق، وكل مخلوق له وجود عارضي، ومصيره إلى الزوال والفناء.

عنصر الهواء وملاءمته لحقائق الأشياء:

أما عنصر الهواء فوجدناه ألطف من النار أيضا، فإن النار عند تعرضها للأشياء تبدو وتُرى، ولكن الهواء بسبب غاية لطافته لا يبدو للناظرين، ثم النار وما تعتريه من الأشياء تبقى على مكانها، وترتفع شعلتها، فالنار لا تتحرك بنفسها، ولكن الهواء يصل

في كل مكان، وينفذ في كل جسم، ولا يفرق بين العالي والسافل، فهو متحرك بذاته، ويحرك غيره، ولما كانت الحركة عبارة عن الحياة، ثبتت شدة ارتباطه بالحياة، فرطوبة الهواء تخلق في الأشياء وقواها حياة جديدة، فتنشأ في الأزهار أزكى الروائح، وفي الثمار أعذب العصير، وفي العظام ألطف اللب، وهذه الأمور أصل في الأزهار والثمار والعظام، ولذلك اعْتُبِر تغير المناخ مفيدا عودة الصحة والنشاط، فيمكن نقل الغذاء والدواء والماء من منطقة إلى أخرى، ولا يمكن نقل هواء من موضع إلى آخر، إلا أن نفحات الهواء هي بدورها تهب وتنتقل فشيء أخر، ولذا يسافر الناس ليشموا روائح طيبة تنفع الصحة، وتنشطها، مما يوضح أن الهواء مؤثر في خلق الحقائق لا خلق الصور، وفي خلق الروح لا خلق الأجسام، وفيه استعمله الله سبحانه، حيث خُلقت الأرواح من الهواء، ومن ثم يوصف الروح الإنساني بالروح الهوائي، فالهواء هو مادة الروح، ومنبع الحس والحركة، والظاهر أن هذه الأمور من المشاهدات والمحسوسات، التي لا تحتاج إلى دليل، الحاصل أن الهواء لايخلق صورة، وإنما يخلق الحقائق، ومن أجل ذلك لا تشاهَد الحقائق والأرواح المكونة من الهواء كما لا يشاهَد الهواء، والمعلوم لدى الجميع أن الحقيقة ونفس الأمر عبارة عن مطابقة الواقع، ولا يعبر عما هو خلاف الواقع بالحق، ومن ثم جرى العرف العام بأن الناس إذا أرادوا دفع الباطل وإحقاق الحق يقولون: "الحقيقة أن" أو "الواقع أن" أي القول المطابق للواقع أن، ومن حيث الاشتقاق اللفظي فالحقيقة مأخوذة من الحق، مما يدل على أن الحقيقة تتعلق بالحق دون الباطل، والواضح أن الحق من أسماء الله الحسنى، فهو أصل الحقيقة والواقع، الذي لا يأتيه الباطل، كما قال الله تعالى في القرآن المجيد: **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** (سورة طه: ١١٤).

فأصل الصداقة والحقية هو ذات الله سبحانه، وكل شيء سواه باطل أي قابل للزوال، كما قال الشاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

ولا ينتهي الأمر إلى أن الله تعالى هو الحق؛ بل هو معيار الحق، حيث كل ما يتصل به يكون حقا، وما ينقطع عنه فهو باطل فاقد الأصل والوجود، فهو الحق المبين الذي يحق الحق ويبطل الباطل، وقد أظهر هذا الشأن الإلهي قائلا: **لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** (سورة الأنفال: ٨).

ولما ثبت اتصال الحقيقة بالحق، كان من اللازم أن تتصف الحقيقة بما يتصف به الحق من خصوصية المطابقة للواقع، فكما أن الحق منزه عن الجسم والجسمانيات، فكذلك الحقيقة والروح أمر معنوي طاهر عن الكثافة المادية، وكما أن الحق بلطافته الزائدة لا يُدرك بالأبصار، فكذلك الروح والحقائق وكيفياتها أمر معنوي، لا تدركه الأبصار، وإذا نظرنا إلى الهواء فوجدناه يحمل اللطافة الكثيرة كما أوضحته آنفا، وهو أيضا لا يُدرَك بالأبصار كالحقائق والأرواح، فتميز عنصر الهواء من بين العناصر بمناسبته التامة لحقائق الأشياء والروحانيات، بخلاف العناصر الأخرى، التي تتصل بالجسم والصورة والألوان الظاهرة، فاستعلمه الله تعالى لتوليد النفس والأمور النفسانية، ومن هذه المادة اللطيفة خلق النفس الإنسانية أو النسمة، أو بتعبير طبي الروح الحيوانية، وبذلك يطلق على النفس الإنسانية الروح الهوائية كما يطلق عليها الروح الطبعية أو الروح الحيوانية.

وبذلك تبين أن الهواء نزل عليه نور تجلي اسم "الحق"، الذي يعطي الأشياء حقيقتها بواسطة الهواء، بحيث لم تدخل في كل نفس الحقيقة اللطيفة وحسب؛ بل دخل كذلك جوهر الخبرة والاهتداء، وهو من خصائص اللطافة، مما أدى إلى أن عرفت كل نفس وظائفها الطبيعية وحاجتها الحياتية، وعرفت كذلك خالقها سبحانه قدر المستطاع، وسلكت مسلك التسبيح لله سبحانه وتحميده، **كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** (سورة النور:٤١).

فلما كان عنصر الهواء ألطف العناصر، وكانت الأرواح وكيفيات النفس كذلك تحمل لطافة عميقة، جعل الله الهواء مادة تخليق الأرواح والنفوس، وأنشأ منه الأوصاف الروحانية.

تجلي الخلق وتجلي الهداية:

ومن المناسب أن نطوي صفحة هذا الموضوع، ونعترف -بلاشك- بنزول التجليات الربانية التي هي أنوار الأسماء الإلهية، وأتقدم في الموضوع، فأقول: إن التجليات الإلهية تنقسم إلى قسمين: تجلي الخلق الذي يعطي الأشياء الوجود، لتكون موجودة، والثاني: تجلي الهداية، الذي يخلق في الأشياء ما يناسبها من شعور طبيعي وهداية فطرية، فالنوع الأول خالق الحياة، والثاني خالق الهداية، والنوع الأول يعمل في وجود الأشياء وبقاءها ونموها، بينما يعمل الثاني في إنشاء الشعور والوجدان، لتتزود الأشياء بما يلزمها في عالم الأسباب من مواد لازمة للحياة والبقاء، ووسائل ظاهرة وباطنة، وتعرف كذلك مع الأسباب مسبب الأسباب بشعورها الطبيعي، وإن لم يكن فيه حس وشعور حيواني، كما أوتي النباتات والجمادات، أو كان فيه شعور بلا إدراك، كما أوتي الحيوانات، أو كان شعور مقرون بالإدراك والفطنة والتدبير كما أوتي الإنسان، ليستطيع الكسب والاكتساب ومناقشة الأشياء واستنباط الأمور النافعة من الأمور الكونية، فالتجليات التي تربي الكون تنقسم إلى قسمين: تجلي الخلق، وتجلي الهداية.

شواهد قرآنية:

وقد ذكره القرآن الكريم موضحا هذين الجانبين للتجلي في الآية التالية: **قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** (سورة طه: ٥٠).

وروي عن مجاهد في تفسير الآية: أعطى كل شيء خلقه أي سوى خلق كل شيء، ثم هدى، أي هداها لما يصلحها، وعلمها[1].

---

(١) السيوطي، **الدر المنثور**، ج٥، ص٥٨٢.

وحاصل هذه الآية أن خلق الأشياء يعني خلقة البنية البدنية من حيث الظاهر والباطن، وإلقاء الروح النباتية أو الحيوانية أو الإنسانية فيها، فجعل الإنسان في صورته، والحيوان في صورته، والنبات في صورته، والجماد في صورته، وهكذا جُعِل كل شيء في الدنيا على صورته، ونال ما يلائمه من وجود وصورة ظاهرة وباطنة.

أما قوله تعالى: ثم هدى فمعناه -كما فسر التابعي الجليل مجاهد- إلقاء ما يناسب نوعية كل شيء من هداية فطرية، تساعده في أداء الحوائج الفطرية وما إليها من المأكل والمشرب، وكسب الغذاء والدواء، والسكن والمعاش، وبناء المنازل والأعشاش، وصور التلقيح والمباشرة، وتربية الأطفال والأولاد، ومعرفة الرب سبحانه معرفة تليق بطبيعتها، وأداء الصلاة والتسبيح، والتحميد والثناء، وما إليها من ضروريات فطرية لا يستغني عنها أي شيء في الكون، لتؤدي وظائفها بمقتضى الطبع والفطرة بدون توجيه موجه، وهداية هادٍ.

الموضع الاستقرائي لكلا التجليين:

الظاهر أن تجلي الهداية لما كان من لطائف العالم العلوي، وألطف التجليات الربانية، جعل نفوس الأشياء مستقره، بواسطة عنصر الهواء الذي هو ألطف العناصر، وأدى وظائفه بشكل تدريجي في خلق الشعور والهداية الطبعية والعقلية في النفوس.

أما تجلي الخلق فجعل العناصر الأخرى من الماء والتراب والنار مورد فيضه، مما أوجد كل شيء وأخرجه من العدم، وأعطى كل شيء وجودا يناسبه، فأعطى الجماد ما ناسبه، وأعطى النبات ما ناسبه من الوجود الأعلى والأدنى، وعلى كل فإن فيضان التجليات الإلهية جارٍ بأمر الله تعالى، والأشياء الكونية ماثلة للعيان على المسرح العالمي مكسوة لباس الخلقة والهداية، وتظهر أعمالها وأشغالها حسب ما يلائم طبيعتها.

مبدأ الفيض الأصيل:

وبعد النظر في الحقائق المذكورة إذا تدبرنا حقيقة الحقائق تدبرا عميقا توصلنا إلى أنها _حقيقة الحقائق_ نور غيبي واحد يسع السماوات والأرض عن طريق التجليات الإلهية، كما أشار إليه القرآن الكريم:

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (سورة النور: ٣٥).

وإذا نزل النور الإلهي بواسطة تجلي الخلق على الأشياء الكونية يعطيها وجودا وما يحتاج إليه من صفات ومميزات، ويختار أشكال المواضع التي نزل عليها، كما أن التيار الكهربائي ليس إلا قوة نورانية، تختار شكل المصابيح واللمبات التي تتجلي فيها.

كما أن ذلك النور الإلهي إذا نزل بواسطة تجلي الهداية على الأمور الكونية يعطي الطبائع شعورا وإحساسا ونورا معنويا،ويتشكل بأشكالها المعنوية دون الظاهرة، ويتمثل في الهيئة النفسانية التي ليست لها صورة حسية، ومثلها كمثل شجرة الطور، التي إذا نزل عليها التجلي عادت نارا، مما سبب نبوة موسى عليه السلام، وإذا نزل التجلي نفسه على قلب موسى تمثل في العلم والفضل والكمال مما لا يحمل صورة حسية، بل هيئة نفسانية وحقيقة معنوية، والفرق بين التجليين أن الأبصار تدرك مواضع التجلي الأول، بينما لا تدرك مواضع التجلي الثاني، وإنما تدركها البصيرة القلبية والفراسة الإيمانية.

النار المستورة في الذرات هي محل التجلي:

وإذا نظرنا في الحقائق المذكورة لا يبعد الاعتراف بأن التجلى إن نزل في صورة النار على المادة، ورآه العلماء بعد فناء الذرات فهو رؤية محل التجلي، لا رؤية النار

فحسب، وأما رؤية التجلي بعينه فلا يمكن للطافته وخفائه عن الأبصار، وإنما أمكن رؤية مستقره، ولكن رؤية المحل هي بمثابة رؤية الحالّ، كما أن رؤية البدن تشمل رؤية الروح والحقيقة، وشم وريقات الوردة هي شم ما فيها من روائح طيبة، ولو لم يرها الرائي، ولكن رؤية الوريقات وتنبعث منها الرائحة هي رؤية الرائحة، فإذا كان خبراء العلم الحديث (Scientist) رأوا النار تحت الذرات النووية بعد فناءها، والتي كانت -الذرات- باقية بسببها فقد رأوا محل تجلي الخلقة، والمحل هو النار، ولكن رؤيتها بمثابة رؤية التجلي، سواء عرفوا أم لم يعرفوا، فإن التجلي هو الذي يعمل عمله متسترا بستار النار، ويعطي الذرات وجودها وبقاءها، ولما حان فناء الذرات تركها محل التجلي وهي النار، فذهبت الذرات وبقيت النار، التي كانت تقيم أمر الذرات، فالعلماء لم يروا التجلي (الذي لا تدركه الأبصار) إلا أنهم رأوا محل التجلي في صورة النار، وهي بمثابة رؤية التجلي، ومن هنا يمكن القول بأن ثبوت التجلي وفق أصول العلم الحديث من الأمور المشاهدة، وهو ثبوت عياني للتجلي.

صلة التجلي بالمادة:

ومن هذا البيان ظهرت حقيقة النار التي هي محل التجلي وقد اعترف العلماء بجهلهم بها كما ظهرت صلة التجلي بالأجزاء المادية أو الذرات النووية، بحيث تكون الصلة بينهما هي صلة الفاعلية والقابلية، وصلة الظهور والمظهر، وصلة التأثير والتأثر، فكان النور الإلهي يؤثر في التجلي، والتجلي يؤثر في النار، وهي تؤثر في الذرات النووية لتحيى وتبقى.

التجليات المؤثرة في العناصر الأربعة:

وبذا ظهر أن المواليد الثلاثة: النباتات والجمادات والحيوانات التي تولدت من عناصر الماء والتراب والنار والهواء اختارت صورها من عنصر التراب، وهو عنصر تخليق المادة، فهو موضع تجلي صفة المصور، ولما كان الماء سبب الخلقة كان موضع تجلي

صفة الحي ، وكانت النار سبب وجود الأشياء وبقاءها فكانت موضع تجلي صفة القيوم، وعمل الهواء في هبة الهداية ومعرفة الحقيقة فكان موضع تجلي اسم الحق، الذي يجمع بين الحق والحقانية، فأنوار الأسماء الإلهية الأربعة: المصور والحي والقيوم والحق هي التي تعمل في هذا العالم العنصري، ومنها تنشأ مظاهر الوجود والنمو والهداية في الدنيا.

فقال الله تعالى في سياق ذكر الخلقة: **هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (سورة الحشر: ٢٤).

وذكر صفة الحياة والقيومية في سياق العبادة والهداية، وهما تتعلقان بالروحانية، فقال: **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** (سورة البقرة: ٢٥٥).

وعلى كل فإن نور الأسماء الإلهية وتصرفاتها العجيبة البديعة هي التي تجعل الأشياء تظهر مميزاتها وخصائصها وآثارها، فعاد الكون كله مظهر الأسماء والصفات الإلهية، كما قال الشاعر الفارسي ما معناه: حيثما أنظر في الكون لا أرى غيرك، فإما أنت بدورك أو نورك أو رائحتك.

ومن حسن الصدفة أن فاض هنا طبعي بعدة أبيات تضمنت المعاني التي فصلتها في أكثر من خمسين صفحة، وليست هي أشعارا فنية، وإنما هي تقفية الكلام كأمثال "رمية من غير رام"، إلا أني ما وجدت حرجا في عرضها نظرا لوجازتها وسعتها لكثير من المعاني، فإن المنظوم أيسر حفظا وأكثر شمولا من النثر.

[وهنا ذكر الشيخ المؤلف أبياته في بيان هذا التجلي وآثاره، وعنونه بربيع الكون، وكانت أبياته باللغة الفارسية، فترجمتها إلى النثر العربي، وذاك بالتالي:]

ربيع الكائنات:

إن العالم قام بعماد العناصر ✯ ومنها تركبت الأنواع والأجساد

ومن عناصر الماء والتراب والهواء والنار ✯ تولدت منها مواليدها كما يولد الأولاد

العناصر هي التي توجد هذه المواليد ✯ المتمثلة في الجماد والنبات والحيوان

إن الأقاليم السبعة مركبة من العناصر الأربعة والمواليد الثلاثة، فهي سبعة، وكلها من نور الرب الواحد القدير.

وبهذه السنابل السبع اخضرَّ العالم

وازدهرت الأزهار وانبعثت الروائح الزكية في الحدائق والبساتين.

وبتصادم العناصر تلقى الأشياء الكونية رقيها وازدها

فالعالم دار أضداد وأشتات

وكل جنس كوني يشمل ألوفا من الأنواع المختلفة المزاج والطبيعة،

وهذا هو كنه هذا العالم العجيب

إن الربيع في فصل الربيع يزدهر

ويكسو الجو والمناخ لباس الروعة والجمال كحديقة بهر زاد الملك

فكل ملك ودولة زاهرة وباهرة بفضل تجلي هذه الأشياء الكونية،

واستعار منها خرم عمره المزهر

وإذا لقيت الذرات العالمية فناءها

لم يبق تحتها غير النار والهواء

يلقى كل من النار والهواء أيضا الفناء

ولا يبقى في الدنيا إلا الواحد القهار

الارتباط الوثيق بين المادة والروح:

فما رآه خبراء العلم الحديث لا يجب أن نعتبره شيئا لا أصل له، رغم عدم توصلهم إلى كثير من الحقائق الشرعية المستورة فيما رأوه وقالوه؛ مما يدل بشكل أصولي

على أن الإسلام – وهو من أكبر الدعاة إلى تبني الحقيقة ورفض الوهم والظن والخيال، ولا يأتي الإسلام في باب العقائد والأخبار والأحكام إلا بالحق الصدق- لا يخالف العلم الحديث، الذي تقوم دعائمه على الحقائق الكونية والمشاهدات والإحساسات الواقعية لا على الخيالات والظنون، فلا تخالف بين الإسلام والعلم الحديث من حيث النظرة الأصولية، وإنما العلاقة بينهما هي علاقة الموافقة والانسجام وذلك لمطابقة الأوامر والأحداث، فالعلم الحديث يكشف عن حقيقة الأفعال الإلهية، بينما يكشف الإسلام عن حقائق الأحكام الإلهية، والظاهر أن الفعل الإلهي لا يخالف القول الإلهي، فلا يوجد صدام بين العلم الحديث –وهو يتعلق بالحقائق المادية- وبين الإسلام – الحقائق الروحانية، فالأول يبين الحوادث والواقعات والثاني يظهر ما بداخل الحوادث من أرواح وحقائق، ولا مجال للتخالف فيما بينهما، فعلماء العلم الحديث (Scientist) مادام يعملون في حدود اكتشافات الحقائق والتوصل إلى أعماق الأشياء المادية ولم يعملوا آرائهم وتوجهاتهم الذاتية واستنباطاتهم الشخصية يُعتبرون معلمين نابهين ومربين بارزين ومعاونين للإسلام وسببا لقوته، وإن تعصبوا لميولهم الشخصية على حساب الحقائق الكونية ابتعدوا عن الإسلام، بل يضرون الإسلام، ويشوهون وجهه، بقدر عملهم بالميول والاتجاهات الشخصية، بل يضرون علمهم أيضا حيث يجعلونه مما لايوثق به، وذلك لاختلاط الصحيح بالفاسد، والواقع بالموهوم.

وإن ادعيت أن اكتشافات العلم الحديث لم تؤيد الإسلام فحسب؛ بل صدَّقته وآمنت به، ولو إيمانا اضطراريا، لما جاوزت الصدق والواقع، فقد أخبر الإسلام بتستر النار وراء ذرات البحر والبر في وقت لم يدون فيه العلم الحديث ولا يوجد علماء متخصصون في هذا الفن، فإن رأى اليوم العلم الحديث ما قد رآه الإسلام قبل أربعة عشر قرنا فليس هذا موافقة للإسلام؛ بل تصديق له، وإيمان به، ولو اضطراريا، فلو جاء هذا التصديق عن اختيار لكان إيمانا شرعيا معتبرا، وإن تقدمت خطوة وادعيت أن العلم الحديث يجب عليه أن يصدق الإسلام بل يشكره جزيل الشكر ويعتبره محسنا

عظيما له فما بالغت فيه؛ حيث قد اعترف العلماء بقصور نظرهم وعجزهم عن إدراك حقيقة النار المستورة وراء الذرات الكونية بعد فناءها، وعن الارتباط بين النار والذرات، فجاء الإسلام ليظهر الحقائق الخفية المجهولة، وكشف عن أن النار هي التي تسبب بقاء الذرات وحقيقة صلة العناصر بالذرات، وكانت النار بسبب كونها مورد التجلي الإلهي تعمل في هذا المجال، وإلا فلم يكن لعنصر لا يعقل ولا يشعر -كالنار- أن تعمل بنفسها، وتسبب بقاء غيرها بإرادة منها، فعلى العلم الحديث وعلمائه أن يكونوا مدينين للإسلام الذي ظهر لهم معلما شفوقا، وأستاذا مبصرا.

وهنا يمكن لنا أن نقول-وحق لنا أن نقول- أن علماء العلم الحديث إن انتفعوا بالإسلام في مجال اكتشافاتهم وإبداعاتهم -ولا يتم الانتفاع إلا بالإيمان به كاملا- انكشف لهم كثير من الجوانب الخفية التي لا تنكشف بدون الإيمان الصحيح، فتكون اكتشافاتهم أكثر صدقا وأصالة وقيمة ومطابقة للواقع، وتوصلا إلى الألباب وأصل الحقائق.

الحاصل أن ثبوت جنس التجلي يتم بالدلائل القرآنية والبرهانية والعرفانية والعيانية، مما يثبت بدوره أنواعا كثيرة للتجلي، فلا يمكن للمؤمنين بالقرآن أن ينكروا التجلي، ولكن بعد هذه الاستدلالات العقلية القوية لا يجوز لمن أوتي قسطا من العقل والحس، وقدرا من العلم بالمادة والعلم الحديث أن ينكروا التجلي، أو لا يجدون مبررا معقولا للإنكار.

نعم! إن رجالا هم عشاق التفاصيل والتفريعات ورواد الفقه والبصيرة والأغوار لا يقتنعون بالعلم بثبوت جنس التجلي عن طريق الدلائل العرفانية والقرآنية، فلا يطيب خاطرهم بدون العلم بالفروع والجزئيات، فبقيت حاجة إلى إثبات التجلي عن طريق الاستنباط، ليكون سببا لإقناع هذه الطبقة من الناس، فأردت أن أكتب في السطور التالية ما قدمه عرفاء الأمة وأذكياء الملة بشأن التجلي من تحقيقات نادرة،

وفوائد غريبة، وهي لا تذكر التجليات الدنيوية فحسب؛ بل تشمل حتى تجليات الآخرة وتجليات العالم الأعلى وما يتعلق بها من أمور كثيرة.

الثبوت الوجداني للتجلي واختلاف أنواعه وصوره:

وبعد ثبوت التجلي بالنصوص الشرعية كانت حاجة إلى إبراز أصول التجليات الاستنباطية، والتي كشف بها عرفاء الأمة عن كثير من الحقائق الخفية، ورفعوا الستار عن الكثير من تجليات الأسماء والصفات ببصيرتهم القلبية، فوق ما صرحت به نصوص الكتاب والسنة، ومفاد أصولهم أنهم فكروا أولا في أنواع الموجودات الكونية وخصائصها وآثارها وأفعالها، وتأثير الصفات والأسماء الإلهية فيها، فالاسم الذي وجدوه أكثر تأثيرا في شيء، وجدوا ذلك الشيء مورد ذلك الاسم، وإذا وجدوا نور اسم إلهي في شيء اعتبروه مورد ذلك الاسم، فأدركوا في كل شيء تجليا يناسب حاله، وعينوه بنور قلوبه، واستنبطوه لا بخيالهم المحض، بل بوجدانهم الباطني، استنارة بنصوص الكتاب والسنة.

الإشارات القرآنية للتجلي:

أما بالنسبة للقرآن والسنة فتارة قد استعملا لفظ التجلي بشكل صريح، فلا ضرورة هنا للاستنباط، كما قال تعالى: **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** (سورة الأعراف: ١٤٣).

فالنص المذكور أعلاه يفيد ثبوت التجلي لله سبحانه بالنص القرآني الصريح، وتارة لم يذكر الكتاب والسنة لفظ التجلي، لكن ذكرا الحقيقة التي لا تنطبق على شيء غير التجلي، ففي هذه المواضع أثبت العلماء والعرفاء التجلي بمعاني التجلي، كنار شجرة الطور، حيث لم يذكر القرآن هنا لفظ التجلي، ولكن المراد بالنار هو التجلي لا ذات الواجب الوجود بالإجماع، ولا يمكن إرادتها، فحاشا لله أن ينزل على شجرة، أو يحل في نار، فهذا من

المستحيلات، وقد مرتفصيله في الماضي، وحاصله أن صوت"إني أنا الله" كان يخرج من النار، ومن المحال أن تُعْتَبَر تلك النار عين ذات الواجب الوجود، فلا بد من اعتبارها عكس ذات الباريء أو تجليه، فأجمع العلماء على أن النار كانت من تجليات ذات الله، لا ذات الله نفسها، في حال أن الله سبحانه لم يذكر كلمة التجلي في سياق هذه القصة، وإنما أدى معنى ينطبق على التجلي لا غير، وسيأتي تفصيله في موضعه، فهو كالمنصوص معنى، إن لم يكن لفظا، وكالمنصوص اقتضاء إن لم يكن عبارة، والثابث باقتضاء النص هو منصوص بلا شك، وفي هذا القسم من التجلي الذي هو منصوص أو كالمنصوص لا حاجة إلى إعمال الاجتهاد والقياس.

ويثبت من هذا بداهة عدم الحاجة إلى ذكر لفظ التجلي في كل موضع، فإن ثبوت معنى التجلي يغنيك عن المزيد، إلا أن تعيين التجلي وإثباته من وظائف العلماء والعرفاء، وليس مهمة كل من هب ودب، وإن كان يحمل كومة من الشهادات والتوصيات.

الأصول الثلاثة لثبوت التجلي:

فالأسلوب القرآني فيما يتعلق بالتجلي يفيد أن التجلي يثبت بكل من اللفظ والمعنى، ومن ثم اهتدى حكماء الإسلام وعرفاء الملة الإسلامية بنور قلوبهم وصفاء باطنهم إلى إثبات التجلي عن طريق التفكير في الأنواع الكونية وما يصدر عنها من أفعال وخواص وآثار، فأثبتوا في كل نوع مايناسبه ويتصرف فيه من التجلي، واستنبطوا كثيرا من أنواع التجلي، فظهرت ثلاثة مناهج لإثبات التجلي:

المنهج الأول: ما أثبته النص الشرعي وصرح بلفظ التجلي، **والمنهج الثاني**: ما يثبت بمعاني النصوص الشرعية، ولا تنطبق تلك المعاني على شيء غير التجلي، **والمنهج الثالث**: ما استنبطه حكماء الإسلام عن طريق تدبر مواقع التجلي وأحوالها وآثارها، وحكمة العرفاء وبصيرتهم هي الوسيلة الوحيدة في معرفتها، كما أن الفروع الفقهية تحتاج إلى اجتهاد وتفقه الأئمة المجتهدين، فكذلك إن ثبوت التجليات المختلفة المبعثرة

في الكون يحتاج إلى اكتشافات واستنباطات أهل الحقائق، وهذا ثبوت وجداني، فالتجلي كما ثبت بالدلائل القرآنية والعرفانية والعيانية ثابت كذلك بالشواهد الوجدانية والاستنباطية، فيقع ثبوته موقعا مقبولا في الأوساط العلمية كلها، وتجليات القسم الثالث كثيرة كثرة تضيق عنها صفحات هذا الكتاب، إلا أني أكتفي بذكر عدد من أمثلة أنواع التجليات، مما يعكس اختلاف صور التجليات الزاهية المختلفة الألوان، كما يعكس نوعية اللون الكشفي والوجداني لأرباب الحقائق.

التجليات المختلفة الألوان والمذاق:

التجلي الأول أو تجلي الإيجاد:

أما التجلي الأول فهو التجلي الوارد على الكعبة، ولكن القرآن الكريم لم يذكر في سياق تجلي الكعبة لفظ التجلي، مع أن العلماء قديما وحديثا مجمعون على نزول التجلي على الكعبة، وبه بدأ خلق الأرض والخلائق الأرضية، والكون كله، إلا أن هذا التجلي هو تجلي الوجود، والذي استنار بنور اسم المبدئ، وقد مر نص الشيخ عبد العزيز رحمه الله فيما مضى من السطور، وأكرر ذكره هنا لمناسبة المقام:

"فأفضل أسباب اختيار الكعبةِ قبلةَ المسلمين هو ظهور التجلي الإلهي، فقد نزل كل التعظيم والحب على التجلي، حيث يقع عليه مختلف الأدعية المأثورة والأذكار والأوراد، وهذا التجلي من أوسع التجليات وأشملها، الذي شمل هذه البقعة المباركة بنور الله العظيم، والملائكة منشغلون بالعبادة والطاعة في دائرة الكعبة الشريفة"(١).

ومن هنا ظهرت وجوه جديدة للتجلي، فقد ثبت أن تجلي الكعبة المقدسة ليس تجليا وجوديا وحسب؛ بل تجلي الإيجاد أيضا، فبه بدأ الكون وما فيه من خلائق لا تعد ولا تحصى، وقد سبقت تفاصيلها في الصفحات الماضية.

---

(١) الدهلوي، الشاه عبد العزيز، **التفسير العزيزي**، جزء عم.

تجلي الإماتة أو تجلي الإعدام:

وهكذا حال القيامة وهي نهاية العالم، فقد استنبط حكماء الإسلام في ضوء النصوص الشرعية أنه سيظهر يوم القيامة تجلي صفة قهر الله سبحانه، مما يجعل العالم كله هباء منثورا، ويظهر هذا التجلي في صورة الغمام الذي يفطِّر السماء، كما أشار إليه القرآن الكريم: **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا** (سورة الفرقان: ٢٥).

وقد ذكر الشيخ العارف بالله الشاه عبد العزيز رحمه الله كيفية القيامية وما يجري فيها إفساد وتخريب، فاعتبره مظهر التجلي القهري لله سبحانه، فقال: بعد فناء الدنيا ينادي الله تعالى بكل هيبة وجلال: أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ لمن الملك اليوم؟ وبما أنه لم يبق في الدنيا مجيب فيجيب الله سبحانه بنفسه قائلا: لله الواحد القهار.

وقد استنبط الشاه عبد العزيز رحمه الله من هذه الجمل البركانية المتفجرة قهرا وغضبا أنه يظهر في ذلك اليوم التجلي القهري لله سبحانه، وقد أوضح صورته فقال: إن كيفية انفطار السماء يوم القيامة إنما يتم عن طريق جسم يشبه الغمام ويخرج من تحت العرش، فيصطدم مع السماوات، فيجعلها تنشق، فذلك الغمام هو صورة التجلي القهري، الذي أرسله الله ليفسد الدنيا ويقضي عليها"[1].

ويبدو من الاستنباط المذكور أن الله يتجلى في القيامة في صفة القهار، وهو التجلي القهري، ولو لم يرد لفظ التجلي، إلا أن معنى التجلي وارد ، ومنه استنبط علماء الحق حقيقة التجلي، فالقرآن الكريم هو الآخر يذكر في موضع فساد العالم صفة القهار، فيقول: **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** (سورة إبراهيم: ٤٨).

ومن الإمكان بكثير أن الشاه عبد العزيز رحمه الله قد استنبط معنى التجلي القهري بنص هذه الآية، فتظهر صفة القهار متمثلة في الغمام.

---

(١) المصدر السابق.

تجلي العرش:

وبالنظر إلى خصائص الأشياء الكونية قمنا باستنباط التجليات الجديدة مستفيدين من إشارة النصوص فهو يعد اقتداء بالسلف لا ابتداعا في الدين. فقد جاء في القرآن الكريم فيما يتعلق بالعرش العظيم: **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** (سورة طه: ٥).

فلم يرد اسم الذات -وهولفظ الجلالة- في القرآن لبيان الاستواء؛ وإنما وردت صفة الرحمن، مما يوضح أن تجلي اسم الرحمن نازل على العرش، كما يتضح أن الرحمة ملحوظة ومرعية في كل تصرف وأمر وخلق يصدر عن هذا العرش المجيد العديم النظير، ولايقوم على القهر والغضب، فلا بأس بالقول بأن العرش العظيم هو مورد تجلي اسم الرحمن ومظهر كامل لصفة الرحمة. ومن هنا تتمثل الرحمة الإلهية في النظام العالمي بأشكالها المختلفة، وصورها المتنوعة، حتى يقال: إن العرش العظيم لا يوجد عليه أي خلق، وإنما يوجد عليه لوح أعظم من السماوات والأرضين، مكتوب فيه: إن رحمتي سبقت غضبي.

وهذه الجملة تمثل استراتيجية السياسة الإلهية، ولذا وضعت على العرش الإلهي كدستور حكومي، فسياسة مالك الملك وأحكم الحاكمين هي سياسة رحمة ورأفة لا سياسة قهر وغضب، فالغضب الذي يصدر عن الله سبحانه هو غضب صوري، يحمل في طيه مظاهر عديدة من الرحمة.

تجلي الكرسي:

وقد قال الله تعالى في كرسيه: **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** (سورة البقرة: ٢٥٥)، فقد تم التعريف بالكرسي من خلال السعة، وهي من صفات الله تعالى، فقال تعالى: **إن الله واسع عليم**، وهذا يشير إلى أن تجلي اسم الواسع نازل على العرش، وهومورد ذلك الاسم، وسعته تشمل السماوات السبع والأرضين السبع؛ بل ليست السماوات والأرضين بالنسبة إلى الكرسي إلا كدراهم ألقيت في ميدان واسع.

تجلي السماء:

قال الله تعالى في السماوات: **اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** (سورة الرعد: ٢)، ولا شك أن الأفلاك وما فيها هي أعلى شأنا وأرفع مكانا من الأمور الكونية كلها، بل الرفعة والعلو من خصائص السماوات والأفلاك، فتعريف السماء بكلمة الرفعة يدل على أن السماء مقرونة بتجليات الأسماء الإلهية كـ الرافع أو الرفيع أو رفيع الدرجات، فالله رفيع متعالٍ، أعطى السماء تجليات أسمائه، فارتفعت.

تجلي الأرض:

أما الأرض فقد وصفها القرآن بالبركة والقداسة رغم سُفلها وثقلها، حيث لا تنقطع عن إخراج خزائن الأرض والحبوب والغلات والأزهار والأثمار وما إليها، فإنها من جانب كل يوم يتم الكشف عن معادنها وما فيها من خزائن ودفائن، ومن جانب آخر تزود الحيوان بما يحتاج إليه من ثمار وأزهار، وحبوب، وخضر، ومواد اللباس وغيرها من حوائج لازمة للحياة، وفوق ذلك تعيد كل ما يوضع فيها من حبوب وغيرها، تعيده أضعافا مضاعفة، فتخرج مائة حبة إزاء حبة واحدة، قال الله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (سورة البقرة: ٢٦١).

ولا يوصف هذا الأمر بغير البركة، فيبدو أن الأرض مقرونة بتجلي اسم المتبارك، وهو من صفات الله تعالى، كما قال تعالى في الآيات التالية:

- **تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (سورة الملك: ١).
- **تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** (سورة الفرقان: ١).
- **تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا** (سورة الفرقان: ٦١).

فالأرض مصحوبة بتجلي اسم "المتبارك"، وبذلك تخرج كنوز الدنيا وخزائن الأرض وحوائج الحيوان بكل بركة وغزارة بسبب كونها مورد تجلي الاسم الإلهي.

تجلي اللوح المحفوظ:

قال الله تعالى في شأن اللوح المحفوظ: **وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** (سورة الأنعام: ٥٩).

وقد نسبت كتابة اللوح المحفوظ، حيث نسبها القرآن الكريم بلفظ صريح، فقال: **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ** (سورة يس: ١٢) وقال تعالى: **وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُون** (سورة النساء: ٨١)، وقال في موضع: **سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** (سورة آل عمران: ١٨١)، مما يدل على أن اللوح المحفوظ مقرون بتجلي صفة "الكاتب" من بين صفات الله تعالى. فاللوح المحفوظ مورد تجلي الكتابة الإلهية.

تجلي الشمس:

والمعلوم لدى الجميع أن نورالشمس وحرارتها وتأثيرها وتصرفاتها النافعة تشمل الكون كله، ففيض نورها فيض عميم شامل، تربي الأشياء وتؤثر حتى في أمزجة الحيوانات، فالمألوف أن المريض يشعر بخفة وقوة ونشاط عند ارتفاع الشمس، ويشعر بضعف ونقاهة لدى غروبها، وبحرارتها تنضج السنابل في الحقول والمزارع، وتشتد الحبوب، ونظرا إلى ما للشمس من أثر تربوي في الأشياء زعم كثير من الأمم أنها إله، وانقطعت إلى عبادتها، حتى الملكة بلقيس التي أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم إذا خضعت لشيء خضعت للشمس، وسجدت لها، ومن ثم قال إبراهيم مستهزئا بعُبَّاد الشمس: هذا ربي هذا أكبر، والمعلوم أن الربوبية من صفات الله الخاصة، حتى جاء في

الحديث: ربنا ورب الملائكة والروح[1]، وقال أصحاب الكهف: **رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا** (سورة الكهف: ١٤)، فاشتملت نصوص الكتاب والسنة على أن الله تعالى رب السماوات والأرض ورب كل شيء.

وبما أن الشمس غلبت عليها صفة التربية فيمكن أن نقول: بأن الشمس وقع عليها تجلي اسم الرب من بين أسماء الله تعالى.

تجلي القمر:

وصف القرآن الكريم القمر بأنه نور ساطع، حيث قال: **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (سورة يونس: ٥).

فنورانية القمر هي التي تهب للأمزجة برودة، وعصيرا في الثمار، ونضارة في الأزهار، ورطوبة في الأكمام والطلع، والمعلوم أن النور صفة من صفات الله تعالى، حيث قال: **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (سورة النور: ٣٥) وبما أن النورانية ظاهرة للقمر في مختلف صورها وأنواعها، فلا بأس بالقول بأن القمر وقع عليه تجلي اسم النور من أسماء الله تعالى، وهو مورد ذلك الاسم الكريم.

تجلي الميزان:

وقد ذكر القرآن الكريم أنه توضع يوم القيامة الموازين القسط، التي لاتغادر شيئا إلا وتزنه بكل عدل وقسط من الأقوال والأفعال والأخلاق والملكات، وتُوفَّى كل نفس ما كسبت خيرا أو شرا، من غير طغيان وإخسار.

---

(١) اللكنوي، عبد الحي، **الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة**،(بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت،د.ط)، ج١، ص١١٠.

قال الله تعالى: **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** (سورة الأنبياء: ٤٧) مما يدل على أن الموازين وقع عليها تجلي صفة العدل من الصفات الإلهية، كما جاء في الحديث في ضمن الأسماء الحسنى: "العدل اللطيف الخبير"....(١)، فميزان العدل هو مورد تجلي صفة العدل.

تجلي الجنة:

والجنة كما وصفها القرآن والحديث أطيب الأماكن وخيرها، ومستودع النعم الأبدية التي لاتزول، فجاء في القرآن "**حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** (سورة الفرقان: ٧٦)، ولا يدخل فيها إلا الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين، والمؤمنين القانتين، والظاهر أن هذا يتعلق بالإنعام والإكرام لا بالقهر والغضب، مما يبين أن الجنة وقع عليها تجلي اسم المنعم من أسماء الله تعالى، فهي مظهر هذا الاسم ومورد تجليه.

تجلي جهنم:

أما جهنم فقد وصفها القرآن بـ"سوء الدار " و"بئس القرار"، وهي دار الشدائد والمصائب، ومستقر العذاب الأليم، والنار المقيمة، ولا يدخلها –كما نص به القرآن– إلا الكفار والفجار والمنافقون الأشرار، قال الله تعالى: **وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (*) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (*) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ** (سورة الانفطار: ١٤-١٦).

وقال تعالى: **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** (سورة النساء: ١٤٥)، وقال أيضا: **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** (سورة البقرة: ٢٤).

(١) أخرجه الإمام الترمذي، في سننه، رقم الحديث: ٣٥٠٧.

والظاهر أن تعذيب الكفار والفجار مما يتعلق بالقهر والغضب والانتقام، لا بالإنعام والإكرام، فيمكن أن نقول: إن جهنم وقع عليها تجلي اسم القهار والمنتقم من أسماء الله تعالى، فهي مورد تجلي هذين الاسمين ومظهرهما، فتظهر جهنم يوم القيامة لتنادي: اليوم أنتقم من كل جبار عنيد.

تجلي يوم المزيد:

وجاء في حديث طويل أن الله تعالى يجمع أهل الجنة في غرف الجنة في يوم المزيد، ويشرفهم برؤيته، وينال أهل الجنة أقصى حظ وغاية شرف وعز برؤية الله تعالى، وهم يعرفونه كل المعرفة، فكانوا يعبدونه لهذا اليوم، والمعلوم أن إدراك عين ذات الله تعالى أو الإحاطة به علميا مما لا يمكنه الإنسان فالمراد بالرؤية هنا رؤية تجلي الذات لا رؤية الذات عينها، ولكن هذا التجلي لشدة وضوحه يمكن مشاهدته بالأبصار، ويكون لشدة قربه إلى ذات الله تعالى بمنزلة الذات، فإن إدراك عين الذات ورؤيتها من المستحيلات، فإن ذات الله إذا تجلت لا يمكن لأحد أن يبقى على حاله؛ بل يحترق ويصير رمادا، ومن هنا يقول الله تعالى لدى الرؤية في الجنة: "أن كما أنتم"، ثم يبدأ ارتفاع الحجب، ويبقى حجاب الكبرياء والعظمة، ليظهر منه تجلي الذات سبحانه.

ومن المسلمات الفطرية أن الوجه هو وسيلة معرفة الذات دون اليد والرجل، فرؤية الوجه هي رؤية الذات، ومعرفته هي معرفة الذات، فالمراد بالحديث النبوي: سترون ربكم هو رؤية الوجه الكريم لقربه إلى الذات وسبب المعرفة، فيمكن القول بأنه يوم القيام سيظهر تجلي الوجه الإلهي -وهو كما يليق بشأنه- على الكرسي الإلهي، والبلاط الإلهي هو مورد تجلي الوجه وهو تجلي الذات سبحانه.

تجلي الإنسانية:

وبعد تفصيل الشواهد والنظائر التي قدمتها تمهيدا يجب النظر في الخلائق التي كانت مورد التجلي في الجملة، فأذكر أولا الإنسان، الذي هو هدف خلق العالم، ويمتاز

من بين الخلائق بصورته وحقيقته، فحقيقته حقيقة جامعة، تجتمع فيها جميع النماذج المادية و الروحية، بل تتجلى فيها ظلال خالق الكون سبحانه مما يجعل الإنسان أكمل الخلائق وأجملها وأوسمها من حيث الصورة والحقيقة الظاهرة والباطنة والهيئات الجسمانية والنفسانية، فصورته الجميلة هي التي تدور حولها رحى قصص الحب وروايات الحسن والعشق، وحقيقتها تزخر بأسرار الجاذبية والعقيدة والاستسلام، وبتسخيره الظاهري ارتبط جمال العالم وصناعته، وروعته وبهاؤه، وكل المناظر الخلابة، والمشاهد الرائعة، وبذكائه الفطري قام عالم العلم والعقل والفهم والفراسة، والروحانية ومعرفة أسرار الغيب، والتدبير والتدبر، والكتابة والخطابة، واللسان والبيان والإيجاد والاكتشاف، وإحكام النظام العالمي، والسلطنة والحكومة، وتسخير الكون وما فيه، ومعجزات آثاره الباهرة، فقد شهد الله تعالى بدوره بجمال صورته حيث قال: **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (سورة غافر: ٦٤).

كما شهد بكمال الخلقة الإنسانية فقال: **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ** (٢٠) **وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** (سورة الذاريات: ٢٠-٢١).

فاجتمع في حقيقة الإنسان ما تفرق في غيره، من كمالات إلهية، وبذلك سمى رب العالمين خلقته بـ"أحسن تقويم"، كشاهد قوي على كمال الخلق الإلهي، فلولا كمال الخلق الإلهي لما كان للإنسان هذه الصورة الجميلة والحقيقة الرائعة.

ولماكان الإنسان نموذجا من الكمالات والجمالات الإلهية من حيث الظاهر والباطن، وحقيقة جامعة ادعى عرفاء الملة الإسلامية أن من عرف نفسه فقد عرف ربه، فلا أدل على معرفة الله من الإنسان، فرؤية الإنسان تكفي لمعرفة الله سبحانه، ولا يمكن هذا بدون الاعتراف بأن الحقيقة الإنسانية تحمل ظلالا خاصة من جمال الرب وكماله.

الإنسان أشرف المخلوقات مورد التجلي الجامع:

وفي ضوء الحقائق المذكورة لا يُستبعد الادعاء بأن جميع العناصر وما يتولد منها من أنواع وأجناس وأفرادها الكثيرة وصورها وحقائقها تظهر أعمالها وآثارها وخصائصها بفيض الله سبحانه، مما يسبب ظهور عجائب كثيرة في الدنيا، فلا يمكن أن ينال أشرف أنواع الخلائق وأفضل الحقائق الإنسان شرف الجمال الصوري والكمال الحقيقي بدون التجلي الرباني، ويحرم كليا من أنوار التجلي كلها، بل الواقع المتيقن أنه قد وقع على هذه الحقيقة الجامعة نوع خاص من التجلي الرباني، لم يتيسر لغيره من الأنواع، مما جعل صورة الإنسان أجمل الصور، وحقيقته أكمل الحقائق، فكانت صورته كما جاء في الحديث: خلق الله آدم على صورته، وحقيقته كما قال الله تعالى: فطرة الله التي فطر الناس عليها.

ثم تميزت من بين أفراد النوع الإنساني تلك الشخصيات الكريمة (شخصيات الأنبياء عليهم السلام) التي تحمل صورة طاهرة، وسيرة نقية، ونال بها النوع الإنساني درجة أشرف المخلوقات، تميزت بأنواع كريمة قيمة من التجليات الربانية، كما يدل عليها أقوالها وأفعالها ومعجزاتها.

تجليات الأنبياء عليهم السلام:

وعلى سبيل المثال أذكر أن أقوال خاتم الأنبياء وأعماله ومعجزاته صلى الله عليه وسلم مليئة بالعلم والحكمة والذكاء والفراسة، والتقوى والطهارة والوفاء والنقاء، فقد خُص نبينا صلى الله عليه وسلم بمعجزة علمية وكلامية عظيمة، وهي القرآن الكريم، الذي وصف الله تعالى بقوله: تبيانا لكل شيء، فالقرآن جامع للعلوم والمعارف، فإن كان ظاهر آياته هو الحكم الشرعي فباطنه حكمة تترتب على الحكم، وتحت كل حكمة علة جامعة يدور عليها الحكم، وتحت كل علة مصلحة، تتعلق بالنظام الصالح، وتحت كل مصلحة حقيقة تشكل أساسا خفيا للأحكام، ثم تحت كل حقيقة نسبة تربطه

بصفات الحق، وكل حقيقة زاخرة بالأسرار والمعارف والعلوم والحقائق. فهو كما قال الشاعر الفارسي:

"إن كل حرف قرآني يحمل معنى باطنا، وتحته معاني، ثم تحتها معاني كثيرة"؛ مما يدل بوضوح على أن قلب النبي الأمين وقع عليه تجلي صفة العليم وصفة الخبير من صفات الله تعالى، وهما أعظم صفة من صفات الكمال، وقد وصفه القرآن بالفضل العظيم حيث قال: **وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** (سورة النساء: ١١٣).

فكانت شخصية النبي الكريم صلى الله عليه وسلم مظهرا كاملا لصفات العلم والخبر الإلهية، ومورد هذه الأسماء الكريمة.

تجلي شخصية موسى عليه السلام:

إن أفعال موسى عليه السلام ومعجزاته تدل على أن الكمال الموسوي يحمل خصائص تغير الماهية وانقلاب الحقيقة، فتحول الشيء من نوع إلى نوع آخر بمعجزاته الكريمة، حيث إذا ضرب عصاه بالأرض صارت ثعبانا يسعى، وإذا أخذها عادت إلى سيرتها الأولى، فتغير النوع النباتي إلى النوع الحيواني، ثم تغير النوع الحيواني إلى النوع النباتي، وإذا ضرب بعصاه الحجر تفجرت اثنتا عشرة عينا، وإذا ضرب بها البحر الجاري المتلاطم جمد وانفلق كالطود العظيم، وخرج اثنا عشر طريقا، فتغير النوع الجمادي إلى النوع السائل، ثم تغير النوع السائل إلى النوع الجمادي، وإذا ألقى يده في جيبه خرجت بيضاء كالشمس، وإذا أبعدها عن الجيب كانت كعادتها الأولى أي مجموعة من اللحم والدم، فعاد النور بلا ضياء، وتغير الشيء العادي إلى شيء نوراني، كما أن السبعين من قومه أميتوا بجراءتهم الزائده، ثم أعيدت لهم الحياة بدعاء موسى عليه السلام، فصار الحي ميتا ، ثم عاد الميت حيا، وكان جبل الطور تحت أقدام القوم

من قبل، وإذا زاد طغيان القوم علق الجبل على رؤوس القوم، فصار الشيء الجامد متحركا، ثم عاد المتحرك إلى الجماد، وكل هذه الأمور تدل على أن صفة التقليب والتكوير من صفات الله الخاصة تعمل عملها في معجزات موسى، مما يدل على أن صفة التقليب والتكوير الربانية تربي قلب موسى، ووقع تجليها على ذات موسى عليه السلام، أما أن التقليب والتكوير من صفات الله تعالى فقال الله تعالى: **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ** (سورة الزمر: ٥)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في دعواته: يا مقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك"[1].

تجلي ذات عيسى عليه السلام:

أما معجزات عيسى عليه السلام فهي تدل على صنع الصور وتكوين الحقيقة، وهبة الحياة، فصنع من الطين كهيئة الطير، وأمره فقال: قم بإذن الله، فيكون طيرا بإذن الله، وهذا نوع من صنع الصور وهبة الحياة، وكان يمسح على الأكمه والأبرص، فيكون بإذن الله بصيرا وبريئا من العيوب والأمراض، وهو نوع من تحلية الصور، وكان يضع إصبعه على الميت قائلا له: قم بإذن الله، فتعود إليه الحياة، وهو نوع من هبة الحياة، مع أن الإحياء والتصوير والشفاء من صفات الله تعالى، كما قال الله تعالى: **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (سورة آل عمران: ٦)، قال في موضع: **وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** (سورة المؤمنون: ٨٠)، وقال في موضع: **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** (سورة الشعراء: ٨٠).

مما يوضح أن تجلي "المصور" و"المحيي" و"الشافي" من أسماء الله تعالى واقع على قلب عيسى عليه السلام، كما يتضح أن قلوب الأنبياء الطاهرة كانت مورد التجليات

(١) أخرجه الترمذي في سننه، رقم الحديث: ٢١٤٠.

الربانية، حيث يقع عليهم تجلي اسم خاص من الأسماء الإلهية، وهذا التجلي هو الذي يربي الأنبياء عليهم السلام.

فثبت أن ما ناله الإنسان أشرف أنواع الخليقة وأزكى أفراده: الأنبياء عليهم السلام من عز وشرف لا جرم كان استنارة بظاهر الحق وباطنه، أو استفادة من صورة الحق وكمالاته.

تجلي الملائكة:

إن الله تعالى قد وهب للملائكة كثيرا من القوة والعظمة، حتى يقدرون على قطع ما بين الأرض والسماء من مسافات طويلة في لحظة واحدة، ويقدرون على قلب الأرض ظهرا لبطن في آن واحد، بل إن الملك الكريم وهو جبريل عليه السلام سيرفع الأرض كلها بيد واحده، فيقلبها ظهرا لبطن، كما نص به الحديث، فيخرج من الأرض ما فيها من دفائن وخزائن، والكل يعلم أن القوة والقدرة من صفات الله تعالى، فهو القائل: إن الله على كل شيء قدير، والقائل: وهو القوي العزيز، فلا مانع من القول بأن الملائكة المعصومين قد وقع عليهم تجلي اسم "القادر"واسم "العزيز" من أسماء الله تعالى.

تجليات الشؤون الربانية:

ثم هناك تجليات ربانية أخرى غير تجليات الأسماء والصفات الإلهية، وهي تجليات الشؤون الإلهية الصادرة عن الذات الإلهية، وستظهر آثارها يوم القيامة، فمظهر هذه التجليات هي الذات الإلهية لاغير، بل تصدر عن الذات في صورة من الصور، وهي - بلاتشبيه-كما تصدر عن الإنسان عوارضه وأحواله، وتنحصر في ذاته، ولا تتعدى غيره، فهي بمنزلة أحوال الذات، ويمكن التعبير عنها بالشؤون، إلا أن آثارها نازلة على الخلائق، وهي التي يقال: تجليات الشؤون الإلهية، كالإعراض وعدم الالتفات، فقد ورد في الحديث: إذا نظر المرء في صلاته يمنة أو يسرة أو التفت ذهنه إلى ما سوى الله قال الله تعالى: أو تنشغل عني بغيري وأنا شاهد؟ فإن لم يحضر قلبه يعرض

الله تعالى عنه، أو كما جاء في الحديث : من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة(١) أو أن الله تعالى يضحك من كلام بعض الرجال وأعمالهم كما جاء في الحديث: " ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ، الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِئَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ، وَإِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيَكْفِيهِ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي كَيْفَ صَبَّرَ لِي نَفْسَهُ، وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَذَرُ شَهْوَتَهُ فَيَذْكُرُنِي وَيُنَاجِينِي وَلَوْ شَاءَ لَرَقَدَ، وَالَّذِي يَكُونُ فِي سَفَرٍ وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ فَسَهَرُوا وَنَصَبُوا ثُمَّ هَجَعُوا فَقَامَ فِي السَّحَرِ فِي سَرَّاءٍ أَوْ ضَرَّاءٍ "(٢).

وهذه كلها من شؤون الله تعالى، وليست أمرا أو نهيا، مما يدل على أن للشؤون الإلهية تجليات لا تعد كالأسماء والصفات، فقال الله تعالى في شأنه: **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** (سورة الرحمن: ٢٩).

وهكذا العروج والنزول أو إصدار نداءات العطا والمغفرة في آخر الليل أو الضحك والفرح أو الإعراض والغضب أو الزجر والتوبيخ أو السرور بالكلمات وما إليها من الأمور الثابتة بالأحاديث من تجليات الشؤون الإلهية، التي لاتقوم بذات الله تعالى ولا تتعدى غيره، فهي ليست أفعالا متعدية تحتاج إلى مفعول، بل أفعال لازمة، تختص بالذات الفاعلة، إلا أنها تظهر في صورة التجلي، كضحكه سبحانه الوارد في الأحاديث الكثيرة، منها: أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الشهداء أفضل؟ قال: " الذين إن يلقوا في الصف لا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة، ويضحك إليهم ربك، وإذا ضحك ربك إلى عبد في الدنيا فلا حساب عليه "(٣)، والمراد به ضحك يليق بشأن الله عز وجل.

---

(١) الإمام الترمذي، **سنن الترمذي**، رقم الحديث: ١٧٣١.

(٢) البيهقي، **الأسماء والصفات**، رقم الحديث: ٩٨٣.

(٣) **مسند أحمد**، رقم الحديث: ٢٢٤٧٦.

فالضحك شأن من شؤون الله عز وجل، وهو فعل ذاتي، لا يقع على غيره، إلا أن آثاره تتعدى إلى الغير. وهذه الآثار هي تجلي شأن الضحك.

تجلي الساق:

يكشف الله تعالى عن ساقه يوم القيامة، فيظهر تجلي الساق، كما قال تعالى: **يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ** (سورة القلم: ٤٢).

تجلي الصورة:

كما أن الله يظهر صورته يوم القيامة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: أتضامون في رؤية القمر ليلة البدر وتضامون في رؤية الشمس ؟ قالوا لا، قال فإنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته[١]، وبما أن الرؤية تكون عامة للوجه، وقد رأى النبي الكريم وجه ربه، فقال: رأيت ربي في أحسن صورة[٢]، فيظهر تجلي الصورة الربانية، كما أن للعين تجليا، قال الله تعالى: **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ** (سورة النجم: ٤٨).

تجلي الرحم:

وإن للرحم تجليا، كما يظهر بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: إِنَّ اللهَّ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ نَعَمْ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ بَلَى. قَالَ فَذَاكَ لَكِ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهَّ -صلى الله عليه وسلم- اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ "فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهَّ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"[٣].

---

(١) الإمام الترمذي، **سنن الترمذي**، رقم الحديث: ٢٥٥٤.

(٢) الطبراني، **المعجم الكبير**، رقم الحديث: ٩٣٨.

(٣) الإمام مسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: ٦٦٨٢.

تجلي اليد:

وإن لليد أيضا تجليا، كما في قول الله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** (سورة الفتح: ١٠).

تجلي القدم:

إن للقدم تجليا، كما جاء في الحديث أن " نبي الله صلى الله عليه و سلم قال: لا تزال جهنم تقول: "هل من مزيد"؛ حتى يضع فيها رب العزة قدمه، فتقول: قط قط، وعزتك! ويزوي بعضها إلى بعض"[١].

يقول ابن كثير: يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: هَلِ امْتَلَأْتِ؟ وَذَلِكَ أَنَّهُ وَعَدَهَا أَنْ سَيَمْلَؤُهَا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَأْمُرُ بِمَنْ يَأْمُرُ بِهِ إِلَيْهَا، وَيُلْقَى وَهِيَ تَقُولُ: {هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} أَيْ: هَلْ بَقِيَ شَيْءٌ تَزِيدُونِي؟ هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ، وَعَلَيْهِ تَدُلُّ الْأَحَادِيثُ:

قَالَ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْأَسْوَدِ، حَدَّثَنَا حَرَمِي بْنُ عُمارة حَدَّثَنَا شُعْبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يُلقَى فِي النَّارِ، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ قدمه فيها، فتقول قط قط"[٢].

فالحاصل أن للأسماء تجليات، وللصفات تجليات، وللشؤون تجليات، ولكل من التجليات صفة وميزة خاصة، أما عدد التجليات فهو في كثرة تربو على الحصر.

فالتجليات قد تلبس لباس الأعيان والذوات، كالعرش والكرسي، واللوح والقلم، والجنة والنار، والجن والإنس، وما إليها، وقد تظهر في صورة هيئات الأعضاء

---

(١) الإمام الترمذي، **سنن الترمذي**، رقم الحديث: ٣٢٧٢.

(٢) ابن كثير، **تفسير ابن كثير**، ج٧، ص٤٠٣.

كالوجه واليد والقدم والساق، والرحم، والكف، والأصبع والبنان، وقد تتمثل في اللباس كما في قوله صلى الله عليه وسلم: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، وأمثالها من المتشابهات التي لا يجوز الخوض فيها، وإنما يكفي الإيمان بها كما جاءت، وقد تظهر في صورة الشؤون والأحوال كالعروج والنزول، والسرور والفرح، والضحك، والغضب والقهر، والإعراض وعدم الكلام وما إليها من الأمور الكثيرة.

فقد تم ذكر بعض أمثلة التجلي هنا، وهي أمثلة مختلفة الألوان والأنواع، وهي تجليات ربانية بلاشك، ولم يرد في ذكرها كلمة التجلي أو التمثل، إلا أن معانيها لا تنطبق إلا على التجلي، فإن الخصائص التي ورد ذكرها في مواضع التجلي لا يمكن تطبيقها إلا على التجليات، فلا يكون ثبوت التجلي وتعينه شيئا موهوما أو خياليا؛ بل هو أمر مأخوذ من خواص المواضع وآثارها وأفعالها كلها، فاعتبارها وهما أو خيالا نوع من الجريمة بلا شك.

العالم كله مرآة الجمال الرباني:

فالقرآن الكريم أقام أصول التجلي بقوله تعالى: فلما تجلي ربه، وأوضحت الآثار والروايات معاني التجلي وأنواعها، وذلك تارة عن استخدام لفظ التجلي صراحة، وتارة عن بيان معنى التجلي، وتارة عن طريق أوصاف وأحوال مواضع التجلي، ثم قام العلماء الأذكياء ببلورة ألوان التجلي واختلاف آثاره بفراستهم الإيمانية والطهارة الباطنية، فالتجلي ثابت بالقرآن الكريم وآثار الصحابة وأقوال واستنباطات العلماء الصالحين وحكماء الملة الإسلامية، وتصير قضية التجلي قضية متفق عليها بين جميع الأوساط العلمية بعد ثبوتها بالقرآن والسنة والدراية والبرهان والعيان، كما ظهر أن الكائنات كلها بعناصرها ومواليدها الثلاثة وجنها وإنسها، وروحها وملكها وشاهدها وغائبها ودنياها وآخرتها وفروعها التي لا تعد ولا تحصى كل هذه الأمور مظاهر التجليات الربانية وموارد الكمالات الإلهية، فالكون كله مرآة جمال الحق سبحانه، ومظاهر صفاته القدسية.

وثبت بذلك أن التجليات الربانية وظلال الذات الإلهية تكشف عن الحقيقة الإلهية، والصفات السامية، والكمالات الفاضلة، على أن التعرف على التجليات الربانية تبدي الخواص الذاتية للكون وآثاره المنتشرة، وأفعاله البارزة، وقد أظهره حديث قدسي، أخرجه في مشكاة المصابيح: كنت كنزا مخفيا، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق"[1].

ومن ذا الذي لا يعرف أن التعرف على الخالق بواسطة الخلق لا يتم ما لم يتصف الخلق بشيء من كمالات الخالق الظاهرة والباطنة، وهذا الاتصاف بنوع من الكمالات الربانية يسمى في العرف الشرعي بالتجلي، لتصير مظاهر التجليات الربانية وتصرفاتها تمهيدا مناسبا لمعرفة الخالق سبحانه، فكما أن أفعال العالم وخواصه الكثيرة تدل على تجليات خفية تتصرف في العالم، فكذلك يقين التصرفات الخفية للتجليات ومشاهدات أهل النظر يكشف عن أسرار مظاهر العالم، وأن ما يعتري العالم ويجري فيه من صور وأشكال وتغير وتبدل وهيئة وبنية ليس حادثا بذاته؛ وإنما هو من فيض التجليات الربانية الظاهرة والباطنة صورة ومعنى، وينعكس عليه تجلي اسم الظاهر واسم الباطن من أسماء الله تعالى، فهناك خلق، وهناك أمر، والكل من مشيئة الله تعالى وإرادته، قال الله تعالى: **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ** (سورة الأعراف: ٥٤).

صور نزول التجلي وأسماؤها:

والنظر في نصوص الكتاب والسنة والآثار والشواهد المذكورة يؤكد لنا أن نزول التجلي يتمثل في خمس صور، وضعتُ لها خمسة أسماء اصطلاحية، لتتميز كل صورة عن أخواتها، ويسهل فهم كل صورة بلا غموض وإبهام، أما العناوين الخمسة التي عقدتُها فهي تالية:

---

(١) علي بن محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، (بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٢م)، ج٩، ص٣٦٣٣.

- وقوف التجلي
- ظهور التجلي
- صدور التجلي
- مرور التجلي
- نور التجلي.

ويحسن بي أن أقف وقفة قصيرة مع كل صورة، فأبدأ بوقوف التجلي، وهو كما يلي:

الصورة الأولى: وقوف التجلي:

فالصورة الأولى أن تنعكس الكمالات الإلهية على شيء غير مادي أو ظرف شفاف، فتستقر فيه، والظاهر أن التجلي في هذه الصورة لا يحمل صورة خاصة، فإنه منزه عن الشكل والصورة، ومن جانب آخر استقر في محل لطيف، لا صورة له، فمن الطبيعي أن يفقد هذا النوع من التجلي كل صورة حسية أو لون مادي.

ومثاله تجلي الكعبة والمسجد الأقصى، الذي نزل على الجهة الفضائية، واستقر فيها، فلايبرحها أبدا.

الصورة الثانية: ظهور التجلي:

الصورة الثانية أن ينزل التجلي على ظرف غير مادي، ولكن لا يجعله مستقرا له، بل يقف فيه قدر الضرورة، أما إذا تمت أهداف النزول فينفصل عنه.

ومثاله هو التجلي النازل على شجرة الطور، متمثلا في النار التي شاهدها موسى عليه السلام على البقعة المباركة التي نبتت منها شجرة مباركة، فالتجلي هنا وإن تمثل في النار، وشاهدها موسى لكن لم يجعل النار مستقره، بل لما اكتمل الأمر فارق مورد التجلي، وكان الأمر هو تشريف موسى عليه السلام بشرف النبوة والرسالة، وشرف الكلام الإلهي، وتزويده بأمور يحتاج إليها في أداء مهمة النبوة، كالمعجزات والآيات البينات، فتمثل

التجلي الإلهي في النار لحكمة عظيمة، وهي أن منصب النبوة منصب عظيم، فهو منصب النيابة عن الله سبحانه وخلافته في الأرض، وهو يقتضي بحكم الطبع والفطرة أن يتم بالمواجهة بين الأصل والنائب تفويض أمور النبوة وأخذ الميثاق الإلهي فيما يتعلق بالنبوة، فحكمة المواجهة اقتضت أن يتمثل التجلي الإلهي في النار، التي سعى إليها موسى في برد قارس، فكأن طبع موسى قد أودع الانجذاب نحو النار، فنزل التجلي في هذه الصورة الأليفة، ليهرع إليها برغبة وشوق، ومن هنا لما رأى موسى نارا، لم يقل لأهله: إني رأيت نارا، بل قال: آنست نارا، فكأنه وجد ما يأنس به ويتوق إليه.

الصورة الثالثة: صدور التجلي:

الصورة الثالثة أن لا ينزل التجلي على محل بعينه؛ بل يصدر عن التجلي أثر خاص، ويقع على مكان مخصوص، فيستقر فيه، كما أن صدر عن التجلي الوجودي أثر خاص، واستقر في المسجد الأقصى.

الصورة الرابعة: مرور التجلي:

الصورة الرابعة أن ينزل التجلي الإلهي أو العكس الإلهي على مكان مادي، لا يستطيع قبول العكس لكثافته، كما لا يستطيع استقرار التجلي ، نعم! نزل هناك التجلي لحكمة بالغة، فيمس ذلك المحل ويفارقه، ولاشك أن التجلي في هذا النوع لا يحمل صورة خاصة، فإن التجلي لا يستطيع التمثل في صورة بذاته، كما لا يستطيع الظرف أيضا قبول التجلي، فضلا عن استقراره فيه، ولم يكن من حاجة إلى الاستقرار، فلم يظهر التجلي في صورة خاصة.

مثاله ورود التجلي على الطور، حيث نزل التجلي، وذهب دفعة واحدة، بعد ما دكَّ الجبل وصرع موسى مغشيا عليه، فلم يبق مورد التجلي، ولم يتمالك موسى عليه السلام نفسه، وكان راغبا في رؤية الله تعالى، فمن كان ينظر إلى التجلي ليبقى متمثلا في صورة مادية.

الصورة الخامسة: نور التجلي

الصورة الخامسة أن لا ينزل التجلي على ظرف خاص أو مكان مادي، بل تصل آثاره وأنواره إلى ذلك المكان، ويجعل ذلك المكان محل تصرفاته وتأثيراته، وأهلا للقيام بالخواص النوعية والآثار التجلية، أو بتعبير آخر: يجعل التجلي ذلك المكان مظهر كمالاته، فيظهر في ستار أعماله، فكأنه متمثل في أعماله وخواصه، وهذا النوع ليس من صور تجلي الذات والصفات؛ بل من صور تجلي الشؤون والأحوال، فهو يظهر التصرفات الغيبية في ستار الصور المادية، وتبرز آثاره وأعماله في ستار ذلك الظرف، وهذا التجلي وإن كان من مظاهر تجلي الشؤون والأسماء، ولكن لما كان كل اسم يحمل عنوانا صحيحا للصفة الإلهية فهذا الاسم يظهر نوره في صورة خواص تلك الصفة النوعية وأفعاله النورانية، مما يعرفه أهل القلوب وأرباب المعرفة ويكشفون أن الاسم الإلهي الفلاني مؤثر في هذا الشيء، ونافذ أثره فيه.

ومثاله جميع الأنواع والأجناس الكونية وأفرادها التي لا تعد ولاتحصى، فهي كلها مظهر واحد من الأسماء الإلهية، كما جاء في الحديث النبوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال متوسلا بالعرش الإلهي: "وبالأسماء الثمانية المكتوبة على قرن العرش"[1].

فكل نوع وجنس كوني يستفيد من تجليات الأسماء الإلهية، ويظهر كمالاته، ومن ثم وصف عرفاء العالم العالمَ بمظهر الأسماء والصفات، فتظهر الكمالات الإلهية في كل جزء كوني، فالشيء يبدو متحركا بذاته، ولكن الحقيقة تتحرك الكمالات الإلهية، كما يبدو في الرأية أن صورة الأسد تتحرك، وتهاجم، مع أن تلك الصورة لا تحمل روحا ولا حسا ولا حركة، ولا قدرة على الهجوم، فالواقع أن تلك الحركة هي حركة الهواء، لا حركة الأسد، فالحركة من إثارة الريح، ولكن يبدو أن الأسد هو المتحرك في بادئ الرأي.

---

(١) لم أجده.

كما قال الشاعر الفارسي ما معناه: ليس هناك أسد ولا صورته؛ بل كل ذلك من أعمال الريح المتحركة كل وقت.

تصرفات التجلي الإلهي في كل شيء كوني:

فالتجلي قد يظهر مختفيا في السر والحجاب، ويستقر فيه، إلا أن الأبصار لا تدركه، بل تدرك مورده الذي ظهر فيه، ويتم تشخيص عين التجلي أيضا بالنظر في خواص الأشياء، كأنواع الكائنات، التي لا ينزل عليها تجلي الأسماء بعينه؛ بل يلقي عليها أنواره، ليُبرزَ بتصرفاته خواص الأشياء وآثارها، فيدرك أهل القلوب نفس التجلي بواسطة الخواص والآثار.

وقد يظهر تجلي الأسماء بعينه، كما تظهر آلاف من التجليات الإلهية في عرصات الحشر، رامية إلى إتمام الحجة والتعريف بالمقاصد التي يعرفها الجميع، ولكن يطلق عليها نزول التجلي، ومن هنا بينت أربعة أقسام لنزول التجلي، وإن كانت له أفراد كثيرون، فإنه كما لا يمكن عد الكمالات الإلهية، فكذالك لا يمكن عد التجليات الإلهية، مما جعل الكون كله مظهر الأسماء والصفات ومرآة الجمال الرباني.

كما قال الله تعالى: **وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (سورة لقمان: ٢٧).

فالحاصل أن صور الأجناس والأنواع الكونية تختلف كثيرا فيما بينها، فلها أمزجة خاصة تختص بنوع دون نوع، ولكلٍ من الأنواع شتى الخواص والآثار والاستعدادات، فكذلك كثرت أسماء الله تعالى، وهي تختلف معانيها ومدلولاتها ومقتضياتها وتأثيراتها، وبذلك تمتاز فيما بينها، فكانت التجليات الإلهية تحمل من القوة الفاعلية في إيداع الآثار والخواص التي كانت تحمل الأشياء الكونية القوة المفعولية في تحملها، ومن ثم إذا ظهر نوع في الكون نزل عليه مباشرة من تجليات الأسماء والصفات ما يناسبه، فيؤديه إلى إبراز الخصائص النوعية، والكشف عن عجائبات الدنيا، وفي

تعبير آخر يمكن أن نقول: إن التجليات الإلهية كلها أثرت في كل شيء يناسبها، ويستطيع تحمل آثارها، وأبرزت قوتها الفاعلية وآثارها في الأشياء التي تحمل القوة المفعولية فيما يتعلق بنفس الآثار، وجرى النظام العالمي بهذا التدبير الإلهي، فالتجليات الإلهية هي التي تتجلى في جميع الأعيان والأنواع الكونية، متسترة بستار المظاهر الكونية، ومشعرة بآثارها وخواصها، فصار الكون كله مظهر الأسماء والصفات الإلهية.

فنصوص الكتاب والسنة توضح عددا من التجليات وآثارها وتنوعها وتلونها ومميزاتها، وعلماء الشريعة الإسلامية وأسرارها يدركون هذه الحقائق، ويكشفون عن أسرارها ورموزها، كما اتضح بالأمثلة السابقة.

والله أعلم بحقيقة الحال، وإليه المرجع والمآل.

ثبوت التجليات التامة للأماكن الثلاثة المقدسة وخصائصها النوعية:

[وكان المعقول أن نتناول هذه الأماكن المقدسة الثلاثة ظاهرا وباطنا وفق الترتيب المذكور، فأسلط الضوء أولا على وجودها الوضعي، ثم على وجودها الباطني، ثم على مكانتها الغيبية والاختيار الإلهي ثم على حدودها الأربعة، ثم على تعيينها الغيبي ثم على صورها المادية؛ ولكن الذهن البشري قد تعوَّد في غالب الأحوال على معرفة حقائق الأشياء وخواصها وآثارها ووضعها الفطري بواسطة معرفة صورة الشيء ومحل وقوعه، فهو لا يستطيع معرفة باطن الشيء في أول الأمر؛ مما جعلني أضطر إلى التعريف بمظاهر الأماكن الثلاثة المقدسة وصورها، ثم أتناول معنوياتها الباطنية حسب المناسبة دونما مراعاة للترتيب والمنهج، منتهيا إلى إبراز الوضع الباطني]

ثبوت تجلي الكعبة الذي هو التجلي الأول:

ولما ثبت جنس التجلي بالدلائل المتنوعة المتمثلة في الدلائل العرفانية والقرآنية والبرهانية والعيانية والوجدانية، واتضح كذلك أن وجود كل فرد من الموجودات

الكونية أنواعا كانت أو أجناسا، بشرا كان أو جمادا يحتاج إلى فيض التجليات الربانية التي تختفي وراء الموجودات، لما كان الأمر كذلك حان أن أبرز حقيقة الأماكن المقدسة وما يعمل فيها من التجليات، وهو الموضوع الأساسي لهذا الكتاب، وإن ظهر بالأصول المذكورة كون الأماكن المقدسة الثلاثة مورد التجليات الإلهية بشكل ضمني، ولكن العظمة العالمية للأماكن وأهميتها الكونية وتأثيرها الشامل في الأشياء الكونية تقتضي أن أقوم بإثبات تجلياتها بشكل خاص في ضوء نصوص الكتاب والسنة؛ فإن عظمتها لاتتجلى بدونها، إضافة إلى أن إبراز نوعية التجليات وآثارها المختلفة ومراتبها العديدة المتفاوتة فيما بينها.

التجلي الخاص للكعبة المقدسة:

فإن أخذنا على سبيل المثال من بين الأماكن المقدسة البلدَ الأمينَ، الذي أقسم الله تعالى به في القرآن الكريم، والذي تأتي الكعبة المقدسة من نقاط فيضه، توصلنا إلى أن للكعبة تجليا خاصا؛ فإنه إذا كان كل نوع في الكون يستفيد من التجليات، ويظهر بسبب الاتصال بها آثاره النوعية فلا يمكن أن يحرم هذا المركز العالمي (الكعبة المقدسة) فيضان التجلي، ولا يقوم تقدسه على التجلي؛ بل قام أساس الكعبة على نوع خاص من التجلي، يؤثر في الكعبة، ويعمل في شؤونها وأعمالها، فهذا التجلي لا يحمل نوعا فرديا من التجلي، لا يتعدى أثره النطاق المحدود؛ بل إن التجلي الوارد على الكعبة يشمل الكل، ويشكل مركزا عالميا؛ بل مبدأ التجليات كلها ليوافق مكانة الكعبة العالمية وأهميتها الشاملة، وإن أردت الإيضاح بشكل أكثر قلتُ: إن تجلي الكعبة ليس من تجليات اسم إلهي مخصوص، أو صفة إلهية مخصوصة، أو من التجليات التي لها شأن محدود ولا تؤثر في التجليات الأخرى؛ فإن هناك عددا من التجليات يحمل نطاقا محدودا، ولا يتعداه إلى غيره، وعلى سبيل المثال أذكر أن تجلي الرحمة إذا صادف مكانا لا يستقر فيه تجلي القهر والغضب، فإن

تجلي الغضب لا يعمل في نطاق تجلي الرحمة، أو يعمل تجلي الرحمة حيثما يعمل تجلي الغضب والقهر، أو مثلا لا يمكن أن يعمل تجلي الإماتة عندما كان يعمل تجلي الإحياء في مكان، فلا يمكن أن يرد الموت والحياة على شيء واحد في آن واحد، أو إذا كان تجلي الإنعام والإكرام يعمل في مكان لا يمكن أن يظهر فيه تجلي الغضب والقهر، ويغير الإنعام إلى الانتقام، فلكل واحد من التجليات نطاق خاص لا يتعداه إلى غيره، وبذلك تتميز التجليات وتنفرد بالمكانة والعظمة.

الكعبة المقدسة مرآة عكس الذات:

وهذا ما يخلق في الذهن تصورا معقولا، وهو أن الكعبة إذا كانت مركز العالم فلا بد أن تكون تجلياتها عالمية ومركزا للجميع، ومؤثرة في جميع التجليات، بل يتعدى أثرها إلى التدخل في شؤون التجليات الأخرى وأعمالها ونفوذها، ولا تكون تجليات الكعبة هي تجليات أسماء أو تجليات صفات أو تجليات شؤون، بل لا بد أن تكون فوق كل هذه التجليات، لتؤثر في جميع التجليات ومظاهرها المختلفة وتحيط بها، وذلك أن الكعبة المقدسة جعلت مركزا للسجود والعبادة، والعبادة لا توجَّه إلى الكعبة نفسها، فالكعبة مسجودة إلى جهتها دون المسجودة ؛ نعم! توجَّه العبادات إلى التجلي الرباني الذي نزل على الكعبة واستقر فيها، والمعلوم لدى الجميع أن العبادات إنما تكون للذات الإلهية وحدها دون أسمائها وصفاتها، فتجلي الكعبة لا بد أن يكون تجلي الذات الإلهية دون تجليات الأسماء والصفات، وبما أن الذات الإلهية تجمع جميع صفات الكمال فلا بد أن يكون تجليها جامعا لجميع التجليات وعكوس الأسماء والصفات، فإن السجدة إن وضعت لكل واحد من التجليات لزم أن يكون مظهر كل واحد من التجليات مكان السجود والعبادة، كما يجب استقبال كل نوع من التجلي في الصلاة، فأي مخلوق في العالم العلوي والسفلي لا ينزل عليه التجلي؟ فكل من العناصر الأربعة والمواليد الثلاثة هو

مظهر أحد من التجليات، فالتجليات تعمل في كل الأشياء الكونية، فإن كان كذلك كان كل شيء في الدنيا كالعرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والجحيم والشمس والقمر والماء والنار، والتراب والهواء، والسماء والأرض؛ بل كل شيء أرضي وسماوي قبلة العبادة وكعبة الركوع والسجود، ويؤمر الإنسان بالسجود لكل شيء، مما يفتح أبواب الشرك على مصراعيها، وتنفق في أسواق الدنيا تجارة الإشراك بالله، كما تورط فيها الأمم السالفة، فإن عبادة النجوم وعبادة الرسل وعبادة النار وعبادة الماء وعبادة الحيوانات، وعبادة الإنسان كل هذه من آثار عبادة المظاهر، حتى إن الناس عبدوا الخلائق الغيبية بعد ما عملوا لها تصاوير وتماثيل، فلم يبق في الدنيا توحيد ولا إخلاص ولا تصور الحقيقة ولا إدراك المعنى، ومن ثم لم يجعل الدين الإسلامي الأسماء والصفات الإلهية مسجودة فضلا عن أن تكون مظاهرها مسجودة، فوجب أن يكون تجلي الكعبة هو تجلي الذات الإلهية وعكس الذات، لا غير.

نكتة لطيفة:

ولا بد مع ذلك من ملاحظة نكتة لطيفة، وهي أنه لا يمكن لأي مخلوق أن يواجه عين الذات الإلهية أو يشاهدها وذلك لغاية لطفها وكثرة دقتها، فلا يظهر تجليها إلا بستار صفة من صفات الله تعالى، يمكن لمخلوق أن يواجهها ويشاهدها في وقت من الأوقات، والعبادة تقتضي طبعا المواجهة بين العابد والمعبود، وممارسة العبادة مع المشاهدة، ولذا لا يمكن رؤية الله تعالى في الجنة إلا في ظلال صفة العظمة والكبرياء، أما عين الذات الإلهية فلا يمكن لأحد أن يدركها ببصره، بل الأبصار لا تبقى على حالها إذا رأت نورا إلهيا، كما ورد في الحديث: لأحرقت سبحات وجهه ما بين يديه"، كما أن ضياء الشمس –وهي من خلائقه– يبهر العيون، ويخلب الأبصار، وإذا كانت الذات الإلهية لا حد للطافتها ونورانيتها، عاد من البديهي أن الأبصار الضعيفة أعجز عن إدراكها.

مما يؤكد على أن عكس الذات الإلهية لا يظهر إلا في ستار صفة من الصفات الإلهية، من شأنها أن تحيط بجميع الموجودات، وتتحكم في جميع التجليات، فلا بد من صفة، هي جامعة التجليات والعكوس، ومحيطة بجميع الكمالات، وترسل عبادات العباد كما هي إلى الله تعالى، وهي أم الصفات التي تقوم مقام الذات وتلحق بها العبادة.

الثبوت القرآني لتجلي الكعبة:

وبعد هذا التمهيد يجب أن نفكر في أن الكتاب والسنة يشيران إلى هذا النوع من التجلي النازل على الكعبة، وأكبر شهادة على هذا قول الله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (سورة آل عمران: ٩٦)، فهو دليل أساسي على إثبات التجلي الخاص للكعبة، وإن كانت الآية لا تذكر كلمة التجلي إلا أنها اشتملت على كثير من سمات التجليات الربانية التي لا تنطبق إلا على التجلي، وهذا في حكم إثبات التجلي، كما أوضحته في سياق الأسلوب القرآني المتعلق بتجلي شجرة الطور، فإن القرآن لم يذكر هناك كلمة التجلي، ولكنه أتى بمعانٍ كشفت عن حقيقة التجلي، ومن هنا وصفه العلماء قديما وحديثا بالتجلي الرباني، فكذلك الآية: "إن أول بيت" مع خلوها عن كلمة التجلي جاءت بتعبير معجز يدل بكل وضوح على حقيقة التجلي، فهو بيان التجلي لا محالة.

فالأمر كما يراه عقلي الضعيف- أن تجلي الذات الإلهية قد نزل على الكعبة المقدسة متسترا بحجاب الموجود، فظهرت الكمالات الإلهية.

الوجود أصل كل كمال:

الوجه أنا إذا أعملنا التفكير في آية "أول بيت" وما يتعلق بها من الروايات والآثار لايصعب فهم هذه الحقيقة بأن الوجود أصل في جميع الكمالات والمحاسن، لا لتقدم الوجود على الكمالات كلها وحسب؛ فإن الشيء لا يعتريه الحسن والنقص إلا بعد

وجوده، فلولا الوجود لما حدث له حسن وقبح؛ بل لأن الوجود أصل جميع الكمالات، فالكمالات والمحاسن من جوانب الوجود، بينما أضداد المحاسن كالنقائص والمثالب فأصلها العدم، فخذ أي صفة من صفات الكمال تجدها وجودية لا عدمية، وخذ أي صفة من صفات النقائص تجدها عدمية لا وجودية، فالوجود أم الكمالات، والعدم أم العيوب والنقائص، وعلى سبيل المثال إذا أخذنا صفة العلم التي هي أفضل المحاسن والكمالات، والتي تتوقف عليها جميع الصفات الكمالية، وجدناها صفة وجودية لا عدمية، فإن العلم يرادف كون الرجل عالما، والكينونة صفة وجودية، وعدم العلم معناه عدم المعرفة، والعدم صفة عدمية، فالجهل الذي هو عدم العلم عيب لكونه عدميا، أو أخذنا صفة القدرة –وهي من صفات الكمال- فهي صفة وجودية، وعدم القدرة الذي يرادف العجز صفة عدمية، فالاختيار صفة وجودية بينما يكون عدم الاختيار الذي يرادف الجبر والإكراه صفة عدمية، السمع صفة وجودية، فهو من صفات الكمال، بينما عدم السمع صفة عدمية، وهو من صفات النقص والعيب، البصر صفة وجودية، فهو حسن، والعمى بمعنى عدم البصر صفة عدمية فهو عيب، والنطق صفة وجودية، فهو من صفات الكمال، والبكم بمعنى عدم القدرة على النطق صفة عدمية، فهو عيب، والغنى صفة وجودية فهو من صفات الكمال، وعدم الغنى بمعنى الفقر صفة عدمية، فهو من صفات العيب، والشجاعة والقوة صفتان وجوديتان، فهما من صفات الكمال، والجبن والضعف بمعنى عدم القدرة والقوة صفتان عدميان فهما من صفات العيب والنقص، مما أسفر أن الكينونة كمال، وعدم الكينونة عيب، ويدل على أن الوجود كمال والعدم نقص، فالكمال كان كمالا لأنه موجود أو مربوط بالوجود، والعيب عيب لأنه عدمي، أو مربوط بالعدم، فثبت أن الوجود أصل جميع الكمالات، والعدم أصل جيمع العيوب والنقائص.

مما يوضح أن كل حسن جانب من جوانب الوجود، بينما كل قبح وعيب يعمل فيه العدم، فالنتيجة واضحة، وهي أن الكمال عبارة عن الوجود، والنقص والعدم عبارة عن العدم، فكل شيء سرى فيه الوجود سرى فيه الحسن والكمال، وكل شيء داخله العدم، تسرب إليه النقص والعيب، وعاد الشيء معيبا.

والسبب الحقيقي لذلك أن صلة الذات الإلهية بالوجود صلة عينية، فالوجود عين الذات الإلهية، فوجود الحق لازم لذات الحق، لا يفارقها في حال من الأحوال، أما الصفات فلكونها جزءا للوجود ومتصلة بالذات بواسطة الوجود وصفها العلماء بأنها لاهي عين الذات ولا هي غيرها، أما الوجود فوصفوه بأنه عين الذات.

فيجب للصفات الكمالية الاتصال بالذات الإلهية بواسطة الوجود، ولو اختلفت نوعية الاتصال، ولكنها هي الأخرى لا تفارق الذات بحال من الأحوال.

مثال الوجود:

حتى إن الوجود هي الصفة الوحيدة، التي قيل فيها أنها تحيط بذات البارئ سبحانه، إلا أنها ليست إحاطة الغير بذاته، بل هي إحاطة نفسه بذاته، فقد جاء في حديث رواه أبو رزين قَالَ: قلت: يَا رَسُول الله أَيْن رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قَالَ: «كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَخَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاء»[1].

وكلمة العماء فسرها عدد من العلماء بأنها سحابة رقيقة، وهي عبارة عن وجود منبسط، كما أن المطر يصدر عن السحابة الممطرة، ثم يخرج منها الوجود، فيخضر النبات وتحيى الأرض، وتزدهر الحقول والمزارع، وتتجدد حياة الحدائق والبساتين، فتنبت ألوف من الأزهار والأثمار، فكذلك الوجود أمر يجمع جميع صفات الكمال،

---

(١) محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، **مشكاة المصابيح**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٥م)ج٣، ص١٥٩٥، رقم الحديث: ٥٥٢٥.

حيث إذا ترشح على شيء أخرج المعدوم من العدم إلى الوجود، ويرتبط بالوجود ألوف من الأشياء الكونية التي كانت منزوية في حجابات العدم، فيتحلى بها الكون، وتتزين بها الدنيا، ومن ثم تمَّ تشبيه وجود البارئ سبحانه بسحابة رقيقة، أو مادة لطيفة، فحاصل الجواب أن الله تعالى كان في وجوده اللامحدود، قبل أن يخلق الخلق، وكان وجوده يتضمن جميع الصفات الكمالية، ووجوده هو عين ذاته، فكمالاته كلها أيضا ذاتية، فكان الله تعالى خفيا في كمالاته، كما قال تعالى في الحديث القدسي: "كنت كنزا مخفيا، فأحببت أن أُعْرف"، فإن كان هناك صفة إلهية يمكن أن نصفها بعين الذات أو حجاب الذات فهي صفة الوجود، الذي كان قد أحاط بذات البارئ سبحانه قبل أن يخلق الخلق، فكان لا محدودا في إحاطة ذاته، فلا معنى للاعتراض على ذلك.

فقد ثبت وبكل وضوح أن صفة الوجود هي صفة تشمل جميع صفات الكمال، وهي أقدم الصفات، وأشملها بل أم الصفات.

تجلي الكعبة جمال الله تعالى:

وهنا يجب أن نعلم أن الجمال عبارة عن اجتماع المحاسن والكمالات وفق ترتيب جميل وتوازن تام، فإن الشيء إذا جاء متصفًا بصفات الجمال بكامل التنسيق والترتيب، تهفو إليه القلوب، وترنو إليه العيون، وتهوي إليه النفوس، ولكن هناك فرق بين جمال الماديات وجمال المعنويات والروحانيات.

أما جمال الماديات فهو يعني حسن الهيئة والهندام، ورشاقة الملامح الجسدية، واتزان القد والقامة، وتناسب الأعضاء، وتوازن الأعصاب، ورواء المنظر واللون، وبهاء أسلوب المشي والحديث، وأناقة التغنج والدلال، وما إليها؛ فإنها إذا اجتمعت بترتيب جميل وأسلوب متين اتصف الشيء بالحسن الباهر والجمال الظاهر، فيبهر العيون، ويخلب الفؤاد ويتملك الشعور، ويهز الوجدان، فيولع به المتهافتون على الجمال الظاهري؛ بل يبلغون في الولع والغرام إلى أنهم يقدمون نفوسهم نذورا رخيصة إزاء هذا الجمال وحبه.

أما جمال الروحانيات والمعنويات التي لا دخل فيها للصور الحسية فهو يتطلب اجتماع الكمالات الباطنية والخصال الحميدة المتمثلة في كل من العلم والحكمة والسمع والبصر والإرادة والقدرة والتدبير والتصرف والجود والكرم، والحياء والسخاء والشوكة والغنا والحلم والعطا والصبر والشكر، فإنها إذا اجتمعت هذه الصفات الحميدة في شيء بترتيب وتنسيق كان الشيء موسوما بالجمال الروحاني والمعنوي.

إلا أن الحسن ظاهرا كان أو باطنا يرتبط بالوجود، فإن الكمالات المذكورة كلها جزء من الوجود لا العدم، فحب الكمالات المذكورة وبغض العيوب والعادات السيئة يعني أن الوجود محبوب بالطبع، والعدم مبغوض طبعا، فكل شيء اتصف بالصفات الوجودية أو العدمية يكون محبوبا أو مبغوضا، فالحب والعداء مربوطان بالوجود والعدم، ولا يصدران عن الأشياء الوجودية مباشرة، فبعد الاعتراف بأن الوجود الحقيقي لله سبحانه وحده، الذي لا يعتريه العدم وقد قامت عليه براهين عقلية وحجج شرعية وشهادات فطرية وأنباء صادقة صادرة عن الرجال الصادقين يجب الاعتراف طبعا بأن الصفات الكمالية كلها بترتيب فطري معقول اجتمعت في هذا الجميل المطلق: الله سبحانه، الذي ندعوه مالك الملك ورب العالمين وذا الجلال والإكرام، ثم لم تجتمع اجتماعا عشوائيا بل اجتماع ترتيب وتنسيق، واجتماع رشاقة وأناقة، فوجود الله سبحانه مصدر كل الفضائل ومنبع جميع المحامد والمحاسن، فبواسطته تتسم الأشياء الكونية بالحسن والجمال.

ترتيب كمالات الوجود:

وإذا فكَّرنا في ترتيب الجمالات أدركنا أن العلم أفضل الكمالات الوجودية، وعليه يتوقف عمل جميع صفات الكمال، ومن ثم يلزم أن نعتبر العلم ولو نظريا فوق كل المحاسن الوجودية، ويليه السمع والبصر، ويليه الحكمة، ويليه المشية، ويليه القدرة

والملك، ويليه الإرادة، ويليه الفعل والتكوين، ويليه عالم الخلق وعالم الأمر، فكل هذه الصفات الإلهية الكمالية تعمل في نطاقها، وتم ترتيب جميع الأجناس والأنواع بشكل جميل وفي سلسلة جذابة معقولة، مما يظهر رشاقة كل صفة ، وأناقة كل عمل صادر عنها، فالجزئيات والفروع الكونية بعد ارتباطها بالكليات والأصول بشكل متسق تشكل عالما جميلا، فيه الرواء والبهاء، والرشاقة والأناقة، والجمال والكمال.

جمال البارئ سبحانه:

والظاهر أن الوجود الإلهي هو مصدر جميع الفضائل والمحامد، وهو الذي ترتبت أجزاؤه واتسقت فروعه بشكل جذاب، والكل يعلم أن اجتماع المحاسن والفضائل بشكل مرتب هو ما يسمى بالجمال، ولذا فإن قلنا: إن وجود الله سبحانه بهذا المعنى الشامل الدقيق يرادف جمال البارئ سبحانه، فلم نجانب الصواب، ولم نبعد عن الحقيقة، ويمكن تقريب هذا المعنى بواسطة المثال، وإلا فلا يمكن إدراك كنه الحقائق الإلهية والصفات الإلهية، فإن الأنبياء هم الذين أوتوا قسطا وفيرا من فهم هذه الحقائق ولا غير، وبفضلهم علِم بنو آدم شيئا منها، وإلا فأنا رجل حقير، لا أستطيع التوصل إلى الحقائق الإلهية عن طريق الاستنباطات، فضلا عن إدراكها، ومن هنا لا يأتي التمكن في شرح هذه الحقائق وتفهيم الغير إياها إلا بالأمثلة المعقولة، وإن كانت الأمثلة تعجز عن بيان الحقائق كلها، بيد أنها تقربها إلى الأفهام.

فأقول على سبيل الافتراض والتمثيل: إن القرص المدور في الشمس هو ذاتها، وهو منبع النور، والنور المنتشر في الجوانب الأربعة هو جمال الشمس، الذي لا يدركه الإنسان، أما الأشعة المتلونة المنتشر في الجهات الست هي صفات الشمس، التي تلقي آثارها المختلفة في الدنيا كلها، فتظهر في الأشياء الكونية شتى الخواص والآثار، والضياء الخارج من الأشعة، المنتشر في العالم هو فعل الشمس، مما يجعل الأشياء المنورة تنمو وتزدهر، والوميض الخارج من الضياء، الذي يضيء البناء التحتي وداخل المنازل

والسرادق هو من آثار الشمس، وكذلك ذات الله تعالى –ولا أريد به تشبيها؛ وإنما هو تقريب الحقائق إلى الأفهام– فقيسوا ذات الله تعالى على قرص الشمس، وهو منبع النور، ووجود البارئ سبحانه على ضياء الشمس، الذي اتسعت أمواجه اللامحدودة في أرجاء العالم كله، وصفات البارئ سبحانه على أشعة الشمس، التي اختلفت ألوانها وتلونت صفاتها وظهرت آثارها في عجائب المخلوقات، وآثار كماله على البياض الناصع المنبعث من ضياء الشمس، الذي يقع على كل شيء في العالم، فيجعله يظهر آثاره وبركاته وخواصه.

فصفات الله تعالى الكمالية وآثارها النورانية هي ظلال وجوده تعالى، ووجوده ظل ذاته العظيمة الشأن، مما يمكن أن أقول: إن سلسلة الوجود وآثاره الفائقة هي عبارة عن الجمال الإلهي، وهو الوجود المنبسط الذي ورد به حديث أبي رزين بلفظ عماء، أي السحابة الرقيقة، التي فُسِّرَ بها الوجود المنبسط، الذي تنبعث منه جميع الكمالات الظاهرة والباطنة للخلق والأمر، ويقوم به كل رونق وبهاء في العالم، فذات الله تعالى مبدأ كل الكمالات ومركز جميع المحاسن، ووجوده الذي هو جماله يظهر ذاته في جميع الجهات.

الاسم الثاني لتجلي الذات:

والظاهر أن جمال الله تعالى إذا كان عبارة عن وجوده، ونزل على الكعبة تجلي ذات الواجب الوجود بحجاب الوجود، الذي وصفته بالتجلي الوجودي فيمكن لنا إذن أن نصفه بالتجلي الجمالي لكونه جامعا للمحاسن والكمالات، ويجوز أن يقال: قد نزل على الكعبة تجلي الجمال الإلهي، فصارت الكعبة مظهر اسم الجميل ومظهرا تام الجمال والرشاقة، اجتمعت فيه جميع الصفات الوجودية بكل ترتيب وتنسيق.

فكما أن الله تعالى أنزل على الجنة تجلي صفة الإنعام فصارت دار النعيم، وأنزل على النار تجلي صفة القهر والغضب، فصارت دار الجحيم، وأنزل على العرش العظيم فوق السماوات السبع تجلي الرحمة والتدبير والتصرف الملكي فصار مركز التصرف

والتدبير في الكون، كذالك أنزل على الكعبة المقدسة تجلي جماله فصارت دار المحبوبية، لكون الجمال جامعا لجميع الصفات الكمالية، وعادت الخلائق تهرع إليه بكل شوق ورغبة، فاختصت بها عبادة العشق والمحبة، وهي عبادة الحج، التي لا يمكن أداؤها في غير الكعبة، فإن جاء القرآن بقوله تعالى: الرحمن على العرش استوى فيحدث مجال القول بأن الجميل استوى على البيت.

الكعبة المقدسة تجمع الجلال والجمال:

أجل! يعلم الجميع أن مظاهر الحسن والجمال تحمل في جانب جمال المحبوب، مما يدفع العشاق يندفعون إليه، بل يتفانون في سبيله، وتتضمن في جانب آخر جلال الحسن ورعبه، مما يبهر عيون العشاق، فلا يستطيون أن يرفعوا أبصارهم إلى المحبوب، ويبقون مرعوبين مذعورين.

نوعان لصفات الوجود:

وبعد النظر في هذين الشأنين إن فكرنا في نفس الوجود وصفاته توصَّلنا إلى أن صفات الوجود تنقسم إلى نوعين: النوع الأول صفات الإنعام والإكرام، ومنبعها هي الرحمة الممتزجة بالوجود، كالعطا والهبة، والرحم والكرم، والرأفة والشفقة، والإنعام والإكرام، والحب والوفا وما إليها من الصفات، التي تبعث في قلوب العشاق معاني الحب والفناء، وعواطف الفداء وبذل نفس ونفيس وعرض، وتجعلهم يتهافتون على عتبات المحبوب.

والنوع الثاني: صفات الجلال والقهر والغضب والملك، التي تتمثل في كل من الجبر والقهر، والانتقام والتعزير والزجر والتوبيخ والمؤاخذة والعتاب، ومنع العطاء وسلب النعمة والحجاب والفصل والاستغناء وعدم الالتفات والتهديد؛ مما يبعث في العشاق كلا من الخوف والرعب والذعر والقلق والهيبة والخشية، وما إليها من

عواطف، ويخافون في كل وقت إعراض المحبوب، وتركه أساليب الشفقة والرأفة، كما يخافون حرمانه من رؤيته ووصاله، وموت أمانيه وأشواقه على مسرح الإعراض وعدم الالتفات.

مما يؤكد على أن تجلي اسم الجميل وآثاره يشتمل على كل من صفات الإجلال والإكرام، وهذا من خواص الجمال الفطري، فتجلي اسم الجميل هو الذي جعل الكعبة مظهر الجمال ودار المحبوبية، مما لم تحظ به أي بقعة في العالم.

حج بيت الله من مقتضيات الصفات الإنعامية:

فالمشاهدة خير دليل على أن العشاق يزدحمون من أطراف العالم على بيت الجمال هذا، ممن هجروا راحتهم، وتركوا رغادة عيشهم، وابتعدوا عن المال والثروة، والآل والأسرة، حتى الملك والسلطنة، وتجمعوا في شوق زيارة هذا البيت العتيق، مندفعين من كل فج عميق، ومن كل صوب وحدب، وهذا الحضور من كل فج عميق عمل مستمر من قديم الأزمان إلى يومنا هذا، وهذه العاطفة هي التي تجعل العشاق يؤدون كل المناسك وأعمال العبادة مدفوعين بالشوق العجيب والرغبة الغريبة.

فالعبادة الأصيلة لزيارة البيت هي عبادة الحج، التي فرضت على المسلمين الذين استطاعوا إليه سبيلا، وهي عبادة تشمل كل أساليب العشق والدلال والتغنج والحركات العشقية والكلمات الوجدانية، والأفعال العاطفية، فيعود العشاق يستطيبون كل مشقة، ويستمرئون كل صعوبة، فيفدون أرواحهم ومهجهم، وينقطعون عما سوى الله كامل الانقطاع، تاركين لباسهم وزينتهم وطيبهم ولذاتهم وشهواتهم، وتكلفاتهم، ووطنهم وأقاربهم وكل ما تشتهيه أنفسهم، فيحضرون بيت الله مورد تجلي الجمال الإلهي في هيئة الفقير إلى الله وحده، تاركين كل هذه الأشياء المرغوب فيها، لا يهتمون بما يلبسون، ولا يبالون بما يتزينون، ولا يتحلون بالطيب والرائحة، ولا يتصورون الوقار والعظمة، ولا يفكرون في أسباب العيش والنعمة، ولا يخطر على بالهم ما يتم به إشباع الغرائز، ولا

وسوسة البروز على غيرهم، فهم يزورون في حالة غربة عجيبة، متلوثين بالغبار، لابسين الكفن، رافعين أصوات التلبية: لبيك اللهم لبيك، وكلهم شوق إلى زيارة الكعبة، فهم يطوفون طورا بالبيت العتيق، ويهيمون طورا في أودية منى وعرفات والمزدلفة، ويجوبون طورا المناطق الرملية القائظة، ويصعدون طورا على الجبال والتلال، وينزلون طورا إلى الميدان الواسع خاضعين لله سبحانه، وقد يفرون فرار الشوق والهيام، وقد يبطئون في السير لتصور المحبوب والشوق إلى وصاله، وقد يثبتون ويتفننون في المسير مواجهة لأعداء المحبوب، وقد يلمحون شارة العدو فيبادرون إلى رميها بالجمار، وقد يخرون ركعا وسجدا أمام بيت المحبوب، وقد يلتزمون باب الكعبة، مجهشين بالبكاء، وقد يطيلون السجود لبيت الله العتيق، وقد ينادون ربهم وحبيبهم تحت ميزاب الرحمة، فهذه الأفاعيل من أحب أعمال العشاق في الكعبة، فليس الحج إلا اجتيازا لمراحل العشق والمحبة هذه، وهي من مقتضيات صفة اللطف والوفاء من الصفات الوجودية، التي تجعل الإنسان يتفاني في سبيل المحبوب.

فالحج عبادة العشق والمحبة، التي لا تؤدى إلا على باب المحبوب، والظاهر أن هذه الأفعال تقتضيها صفات الوجود، التي هي صفات الإنعام والإكرام الإلهي، والجانب الأبرز للوجود.

الصلاة من مقتضيات الصفات القهرية:

ومن جانب أخرى، فقد جعل تجلي اسم الجميل الكعبة المقدسة مظهر الهيبة والجلال عن طريق الصفات القهرية التي هي جزء لا ينفك عن الجمال، مما جعل العشاق يرهبون هيبتها وجلالها، ويفكرون في الأداب الصحيحة للعشق والعبادة، ويتلمسون أفضل طريقة للعبودية والخضوع أمام الله تعالى بأصدق عاطفة وأحر إخلاص، فيرزون حينئذ في شعار المحكوم الخائف، بحيث ارتبط بالكعبة العبادة المعقولة وهي الصلاة، مع العبادة العشقية كالحج، فشأن الصلاة غير شأن الحج، فالحج يشمل أعمال العشق

والصبابة، والصلاة تخلب عقول العشاق، الحج لا يبالي بالدرن والوسخ، بينما تحتاج الصلاة إلى طهارة تامة، ولذلك يؤمر العبد بتطهير الدرن القائم على العين، ولباس الثوب الطاهر عند حضور المسجد، فإن المحبوب طاهر، منزه مقدس، لطيف خبير، فلايعمل بما يخالف مرضاة الرب سبحانه، ويخالف آداب الحضور الإلهي.

ثم يحضر أمام مظهرالجمال الإلهي مطرقا رأسه، ورافعا يديه مكبرا منقطعا عن الغير بكل إخلاص وتمام احترام، حيث لا يحب الله تعالى الشرك والكبر، والبغي والعدوان، وعدم الالتفات والإعراض، ويقرون لله تعالى كل الكبرياء والعظمة وأن نفوسهم بيد الله تعالى ومحياهم ومماتهم لله وحده، ولا يقر لأحد غير الله أي عظمة وكبرياء، وهم قد يقومون باسطين أيديهم بكل خضوع كالعبيد، ويطرقون رؤوسهم تواضعا، ولا يديرون أبصارهم يمنة ويسرة، بل يركزونها على القدمين، والفكر منقطع إلى ذات الله سبحانه وعظمته وكبريائه، ويتجنبون الوسائس والهواجس القلبية، حتى لا يحضر في القلب وهم شاغل عن الله، وقد يركعون كالقوس، فرب العالمين يحب الركوع ، وليس هو من أعمال الطغيان والتكبر، وقد يسجدون لله تعالى، ويرغمون أنوفهم في التراب غاية في الخشوع والتذلل، إشعارا بأنه لا عزة لجبيننا أمام عزة الله عزوجل، ثم يتقدمون في التذلل، فيرفعون أيديهم إلى الله تعالى سائلين ومتضرعين، لتكون أقوالهم وأحوالهم دليلا على فقرهم وحاجتهم إلى الله، ومن ثم لجهت ألسنتهم بالثناء على الله، وتمكن في القلب حبه وعظمته، والعقل لا يتسع لغير الله، ولا مجال للوسائس والشبهات أن تستقر وتتمكن في قلوب المصلين، وإذا جلسوا جلسوا على ركبتيه بكل أدب واحترام، واضعين أصابعهم مضمومة مستقيمة للأدب وقطع شبهة الغفلة. الحاصل أن المصلين يقدمون ظاهرا وباطنا كامل التواضع وفائق التذلل إلى الله سبحانه، ومجموعة هذا التواضع الكامل والخضوع العجيب هي الصلاة، التي تقتضيها صفة القهر من الصفات الوجودية، فيكون الإنسان في الصلاة مظهرا كاملا للذل والعجز.

قبلة الحج وقبلة الصلاة:

وعلى كل فإن التجلي الوجودي الوارد على الكعبة المقدسة ينقسم إلى شأنين: شأن الجمال وشأن الجلال، أحدهما شان الجمال والإحسان والنوال، المتميز بملامح الحب والوفاء، واللطف والسخاء، والثاني شأن القهر والجلال والغلبة والسطوة، وهي صفات الحاكمية والملوكية.

فصفات النوع الأول تقتضي الحب والعشق، الذي يظهران في الحج بكل هيام وصبابة، وصفات النوع الثاني تقتضي الأعمال المعقولة، وهي تؤدى بكامل التواضع وفناء الذات في صورة الصلاة، وقبلة كلتا العبادتين ومركزهما هي الكعبة، فالتجلي الوارد على الكعبة يحمل عكس الذات، ويجمع الصفات الإلهية كلها، فهو سبحانه رب العالمين الذي من شأنه الاتصاف بالرحمة الواسعة، وهو كذلك ملك العالمين، الذي من شأنه الاتصاف بجميع صفات القهر والجلال، والتجلي الوجودي يجمع بين صفات الرحمة وصفات النقمة، ومن ثم لما نزل هذا التجلي الجامع على الكعبة صارت الكعبة قبلة الصلاة وقبلة الحج.

الصلاة عبادة العبيد والحج عبادة العشاق:

ونظرا إلى الفرق الأساسي بين العبادتين جاء الفرق بين مقتضياتهما، حيث لم يُشترط حضور الكعبة في الصلاة، فالصلاة تؤدى في كل مكان، وليس من الضروري أداؤها أمام الكعبة، فإن الصلاة عبادة العبد والمملوك، والعبد عبد حيثما كان، والرعية هي الرعية أينما حلت وسارت، سواء كانت في أي منطقة أرضية، وسواء شاهدت الملك أم لم تشاهد، نعم! يجب أن تمتلئ القلوب بالعظمة والكبرياء لله عزوجل، ولا تحمل نوعا من الطغيان والكفر والجحود، وعد الالفتات إلى ما سوى الله، فيجب أن تبقى القلوب مستقيمة على الاتجاه الصحيح، غير ملتفتة إلى ما سوى الله؛ مما يسمى في

الاصطلاح الشرعي بـ استقبال القبلة، وهو بديل للحضور الدائم في بيت الله، ولكن إشباع عواطف العشق والمحبة لا يتم بدون رؤية المحبوب، ومن ثم اشترط حضور الكعبة في الحج، فلا يكفي هنا استقبال القبلة من بعيد، إلا أن الحضور الدائم أو الحضور المتكرر أمر لا يطيقه كل إنسان، ويبعث المشقة والضيق، ويكون تكليفا بما لا يطاق، ففرض الحج في العمر مرة واحدة، بشرط الاستطاعة، ليشبع عواطف الحب والوفاء ، ولا يعتبر الإنسان نفسه محروما بعدم القدرة على الحضور في كل عام.

العشق المعقول بعد العشق المصبوب:

ولايمكن التفريق بين الأعمال القائمة على العقل والعشق، ونوعية العبادات وما يتعلق بها إلا بعد التفريق بين نفس الوجود وصفات الوجود؛ إلا أنه إذا سلمنا أن الوجود مرتبط بالذات بحيث تتجلى الذات الإلهية في الكعبة بحجاب الوجود، أي إن نظرنا إلى الجميل مكان الجمال فلا نجد إلا الحب والعشق الصادرين عن الكعبة المقدسة، هي من الصفات الجامعة لجميع المحامد والمحاسن، فإن الحسن والجمال إذا برز في مكان من الأمكنة ظنه الناس في أول الأمر عاطفة العشق والمحبة، دون عاطفة العقل والشعور؛ فإن العاشق لا يفكر في المصير بعد ما رأى الحسن أو لا يقدر الجمال بميزان العقل والشعور، فالعشق إذا كان في مكان يأتي العقل مسودا مغلوبا على أمره، ويكون الإنسان متحيرا وهائما برؤية المحبوب، تاركا وراء ظهره ما يملي عليه عقله وشعوره، وإذا خضع العقل للجمال الجزوي ويتغلب العشق على العقل فما ظنك بمكان يوجد فيه الجمال العالمي وتظهر مراتب لا محدودة للجمال، فلا يكون هناك العقل مغلوبا والعشق متقدما فحسب؛ بل يتملك العشق والحب بجميع مراتبه على العقل والقلب، ويملي على العاشق إرادته، ويفرض نفسه عليه، كما قال الشاعر الفارسي: إن جرعة ممزوجة بالتراب تجعل الإنسان مجنونا، فلا أدرى مدى تأثيرها إذا كانت صافية؟

ومن هنا تم ارتباط جميع العبادات التي يسودها العشق والمحبة بهذا البيت الكريم، الذي هو مظهر اسم الجميل، سواء صلاة كانت أو حجا، وإذا كان الفرق بين العبادتين فهو يتمثل في أن العشق في إحداهما يظهر في لباس العقل، مما يقتضي أدب المحبوب وتعظيمه، وغاية الوقار والرزانة، وهي الصلاة، ويظهر العشق في أخراهما في صورته الحقيقية التي هي عبارة عن الوله والفناء، وهي تقتضي أمارات الصبابة والهواية وفقدان الرشد والوعي والشغف والذهول والمسارعة إلى المحبوب والانقطاع إليه، وهي عبادة الحج، إلا أن القاسم المشترك هو وجود العشق والمحبة في كل من العبادتين، ويظهر الفرق بينهما في اللون والكيفية.

المسجود الحقيقي:

إلا أن تفاصيل وأنواع الطاعات وما فيها من ألوان وأصباغ ناشئة عن صفات القهر لا يتم إدراكها إلا بعد ما نظرنا في الوجود وفكرنا في تفاصيله، فالوجود هو مصدر الصفات الوجودية وأنواعها المختلفة، وجميع الصفات الكمالية نابعة منه، إلا أنا لا نريد هنا البحث في نفس الوجود ولا أعني بالتجلي الوجودي النازل على الكعبة أن الكعبة نزل عليها تجلي صفة الوجود فحسب، بل نزل هناك عكس "الموجود"، ولم ينزل عكس الوجود فقط، فإن الوجود وإن كان عين الذات الإلهية التي لا يمكن انفكاكها عن الذات إلا أنه أثر الذات وصفة من صفاته، فالذات أعلى وأشرف منه، حيث لا تعتمد الذات على الوجود، بل الأمر على عكسه، حيث يعتمد الوجود على الذات، بيد أن الوجود ليس كسائر الصفات، فإن سائر الصفات شأنها أنها لا هي عين الذات ولا هي غيرها، كما جاء مفصلا في كتب علم الكلام والعقائد، إلا أن الوجود لا يوجد فيه شبهة الغيرية، بل هو عين الذات لا محالة، ولكنه مع هذا أثر من آثار الذات، فإن الوجود ينبع من ذات الله سبحانه كما ينبع الضياء من الشمس، فكما أن الشمس لا

تحتاج في وجودها إلى الضياء، بل الضياء يحتاج إلى الشمس، أي أن الشمس لا تتشرف بالضياء بل يتشرف الضياء بوجود الشمس، فكذلك الأمر ههنا، فإن الذات الإلهية لا تتشرف بالوجود، وإنما تشرف الوجود بالذات الإلهية، ومن هنا لا يمكن التسليم بأن التجلي الوجودي الوارد على الكعبة هو وارد منفصلا عن الذات، فإنه لوكان الأمر كذلك لكان الوجود بدل الذات الإلهية مسجودا ـ وهذا محال، والحال أن الوجود في كل حال من صفات وآثار الذات، لا أن الذات من أثار الوجود، فنأخذ الأثر ونترك المؤثر، فسائر الصفات الوجودية ليست معبودة ولا مسجودة لها، وصفة الوجود لا يمكن أن تكون معبودة ومسجودة منفصلة عن ذات الله سبحانه، وإن كانت أم الصفات وعين الذات، فلا يوجد الوجود منفردا عن الذات في التجلي الوارد على الكعبة، حتى نجعله معبودا، بل المعبود في كل حال هي الذات الإلهية، ولا غير، وهي مبدأ الوجود ومنشؤه، ومن هنا يمكن أن نقول: قد نزل على الكعبة تجلي الذات بحجاب الوجود، الجامع جميع صفات الجمال والجلال.

صفات الجمال والجلال:

الحاصل أنه لا يظهر في مرآة الكعبة تجلي صفة من الصفات ولو كانت هذه الصفة صفة الوجود؛ بل يوجد فيها تجلي ذات"الموجود" المتصفة بجميع صفات الكمال، المستورة في وجودها كمصداق للعماء، حيث أحاط بها وجوده لا غير، مما تم التعبير عنه بعنوان تجلي الجبل، فالوجود المتضمن الذات هو قدام كل شيء، ويليه جميع الصفات الوجودية، فبعض الصفات إنعامية كالخلق والربوبية، واللطف والكرم، والإنعام والإحسان، والرزق والفتح والعفو والرأفة، والستر، والغفران، والإرشاد والهداية، وما إليها، وبعضها صفات الجلال، كالقهر والغضب والانتقام والجبر والملك والقدرة والعزة والعظمة والرفعة والاقتدار وغيرها من الصفات، تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام.

غلبة العشق على زوار الكعبة:

ومن هنا تنشأ نكتة لطيفة طبعا، وهي أن منشأ صفات الغضب هو القهر، ومنشأ صفات الإنعام هو الرحمة، إلا أن الرحمة تسع كل شيء وتسبقه، وتغلب عليه كما نص به الحديث، فتتغلب صفة الرحمة والإكرام على صفات القهر والغضب، فصفات القهر والغضب إذا ظهرت كان منشؤها هي الرحمة، مما يعني أن الجمال الإلهي (الوجود) تغلب عليه الصفات الإنعامية والإكرامية فطرة، التي تأثيرها هو العشق والمحبة، فيغلب على زوار الكعبة عاطفة العشق والمحبة سواء اشتغلوا بالعبادة العشقية كالحج أو بالعبادة العقلية كالصلاة والذكر والتلاوة، فكل من العبادتين تتوجه أصالة إلى العشق والمحبة، فلا تؤدى كل من العبادتين إلا بغاية الولة والتفاني في سبيل المحبوب، والاتصاف بأمور، يغلب عليها العشق، لا القهر والغضب، والتفكير العميق، والواضح أن العبادة الممارَسة بغاية الخضوع والعشق والتذلل والوله وفناء الذات تفوق - بمراتب لاتحصى- العبادات التي تؤدَّى تحت ضغط الغضب والقهر، وأن الأولى أفضل وأحب إلى الله من الأخرى بأضعاف مضاعفة، فعبادة العشق أولى وأفضل من عبادة القهر والتحكم، والسبب ظاهر؛ فإن طاعة الحب ترمي إلى إرضاء المحبوب وابتغاء وجهه، وعبادة القهر والضغطة ترمي إلى وقاية النفس من الظالم، ويلاحظ فيها أنه لولا الإطاعة لحقَّ عليه العقاب، وتصدى للعذاب، ولا يخفى أن العبادة الأولى إخلاص محض وابتغاء وجه المحبوب خالصا، والعبادة الثانية تتخللها شائبة وقاية النفس وحمايتها من العذاب، فالعبادتان المتصلتان بالكعبة المقدسة -وهما أم العبادات- تشتمل على معانٍ قيمة، تجعل العبادة رامية إلى الإخلاص وإرضاء المحبوب، وذلك لكونها تشتمل على تجلي الجمال الجامع لجميع صفات الكمال، وبذلك تكون الكعبة المقدسة دار المحبوبية.

أجر العبادة في الحرم:

ومن هنا يضاعف أجر صلاة واحدة في المسجد الحرام إلى مائة ألف صلاة، سواء كانت عبادة النفس أو عبادة المال، أو بتعبير آخر: كانت العبادة عبادة الأنفس والآفاق أو عبادة الفرد والجماعات.

فإن العبادات هناك تكون غارقة في بحر الحب والإخلاص، ولذا يكون الحج كفارة لجميع الذنوب المتقدمة والمتأخرة، ويرجع الحاج من مكة إلى وطنه كيوم ولدته أمه، لا يحمل شيئا من الذنوب والمعاصي إلا حقوق العباد، التي هي منزلة تفوق منزلة مضاعفة الأجر إلى مائة ألف صلاة.

شهادات العلماء:

وعلى كل فإن السطور السابقة كشفت عن النوعية الخاصة لتجلي الكعبة، بأنه التجلي الوجودي، الذي يجمع جميع الصفات الكمالية، وليس صفة من الصفات أو شأنا من الشؤون، على أن تجلي الوجود والجمال يؤثر ضمن تأثير الذات، فهو بمنزلة أصل الذات، إلا أن الوجود هو الأبرز في هذا التجلي، وهو منبع أمارات الحب والمحبوبية، فقد شهد العلماء قديما وحديثا لهذا التجلي العظيم الوارد على الكعبة المقدسة بأنه يحمل شأن كمال المحبوبية، فقال بقية السلف وفخر الخلف الشاه عبد العزيز الدهلوي رحمه الله تعالى في التفسير العزيزي: إن أفضل أسباب اختيار الكعبة لتكون قبلة المسلمين كونها مورد التجلي الإلهي، حيث نزل عليه هذا التجلي بكل ملامح الحب والعظمة، وعليها تنزل صنوف العبادات والأذكار الإلهية، وهذا النوع من التجلي شيء عظيم، أحاط نوره بهذه البقعة المباركة، وجعلها مباركة مقدسة، وشغل الملائكة بخدمتها ورعايتها"[1].

---

(١) الدهلوي، الشاه عبد العزيز، **التفسيرالعزيزي**، جزء عم.

ثم لم يشهد به علماء الأمة الإسلامية قديما وحديثا وحسب؛ بل شهدت به الكتب السماوية الأخرى، حيث جاء في التوراة:

سبحان الذي تجلى على طور سيناء وأشرف نوره من الساعير، واستعلن من جبال فاران"[1].

وعلى كل فإن الأمة المسلمة والأمم السابقة اتفقت على أن الكعبة المقدسة قد نزل عليها تجلي الذات الإلهية، وهو بمنزلة تجلي الذات دون تجلي الوجود، فإن الوجود صفة من الصفات، وليس ذاتا ألبتة، وإن كان من المستحيل مفارقته للذات، فهذا التجلي العظيم الشأن الرفيع القدر قد ورد على الكعبة، وهو حقيقة الكعبة، وأصل قداسة الكعبة، وهذا التجلي في الحقيقة مسجود، فنظرا إلى هذا التجلي السجودي بات من الضروري أن تكون الكعبة دار العبادة، كما يقتضيه شأن هذا التجلي العظيم طبعا.

فلفظ أول بيت لا يثبت نزول التجلي فحسب؛ بل يكشف عن نوعيته تماما، بحيث هو التجلي الوجودي، الذي يجمع بين صفات الكمال كلها، ويكون بمنزلة الذات، التي تستحق العبادة، فصارت الكعبة دار العبادة.

التجلي النازل على الكعبة جامع الآثار:

إن هذا الوجود جامع الآثار، كما أنه جامع الصفات الكمالية، فيترتب على آثاره الدعوات الصالحات والأذكار الإلهية والكيفيات القلبية، وهذا يعنى أن آثار التجليات ومقتضياتها تترتب على عباد الله تعالى بشكل مختلف وألوان مختلفة كما أن لكل تجلي مبادئ مختلفة وأسباب متنوعة، وفي تعبير آخر: إن أثار التجلي في انعكاسها على العباد تشبه تماما حقيقة التجليات وبركاتها، فصورة المحبوب تؤثر في قلوب العشاق، كما تنعكس في المرآة، وتقتضي الأعمال والأفعال حسب الصورة والحقيقة.

---

(١) االمصدر السابق.

ومثاله أن المحبوب إذا ارتدى لباس الجندي أثر في القلوب تأثيرا مرعبا مرهبا، وإن ارتدى لباس الملك خلق في الحضور عواطف الخضوع والإطاعة والفداء، وإن ارتدى لباس المحبوب المتحلي بكل أدوات النعم والرفاهية بعث في قلوب الناس معاني الحب والعشق وفناء الذات، فكذلك يختلف لباس التجليات الإلهية، والمراد باللباس ما يليق بشأنه، كما جاء لفظ اللباس في الحديث النبوي في بيان معنى الشؤون الإلهية، والذي لا يطلق إلا على التجلي، كما جاء في حديث قدسي: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدَةً مِنْهُمَا، أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ"[1].

ففي ضوء الحديث المذكور يمكن التعبير هنا عن التجليات الجلالية والجمالية باللباس، ويجوز أن نقول: إن ظهر تجلي الذات الإلهية في لباس الغضب والقهر أرعب قلوب أهل المشاهدة، فيستغفرون بكل خوف وذعر، وينشغلون بالعبادات مبهورين، وإن ظهر في شأن الجلال والسطوة الحكومية ألقى في قلوب العشاق معاني العجز والإطاعة والهيبة والرعب والفزع، فيشتغلون بالطاعة بكل خشوع وخضوع، وإن ظهر في لباس الجمال والمحبوبية بعث في قلوب العشاق معاني الحب والعشق والفناء والذهول والفداء، فيبادرون إلى العبادات، وكأنهم فاقدون شعورهم وغير متمالكين حسهم، ولكن إذا جاء التجلي جامعا لجميع صفات الجلال والجمال أتى بآثار مختلفة في قلوب الناس، فينشأ في قلوبهم كل من الخوف والدهشة والفداء والفناء، والعقل والعشق، والضحك والبكاء وما ينبثق منها من الآثار والمظاهر، فقد يبكون خوفا ودهشة، وقد يضحكون بكل فرح وابتهاج، ورجاء وأمل، وقد يغرقون في بحار العبودية والكمال، وقد يتحركون رغبة وهيبة، وقد يدعون ويسألون ربهم خائفين وراجين، بل قد يقومون بأعمال الفرح والمزاح بطيب الخاطر وحسن المزاح، وبذلك ترتقي مكانتهم ويعلو شأنهم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث: ٩٥٠٣

الآثار الواسعة لتجلي الكعبة:

وفي ضوء الحقائق المذكورة إذا ظهر التجلي الوجودي الجامع لشؤون الجمال والجلال والعطاء والسخاء، والبذل والكرم والحب الوفاء والوصل والقطع، والقهر والرأفة إذا ظهر هذا التجلي في مرآة الكعبة تأثَّر به المتجهون في عباداتهم إلى الكعبة، واعترتهم آثار هذه الأحوال المتضادة، فهم في جانب يخافون عظمة الله وهيبته، ويبكون نادمين على خطاياهم مستغفرين، وفي جانب آخر يغرقون في بحر الحب والعشق، فيذهلون ويتفانون في سبيل الله تعالى، ويكون أمرهم بيد القلوب الحية النابضة، فإنه يظهر أمامهم التجلي الوجودي، الجامع لشؤون التجليات الربانية، وهو من خصائص بيت الله الحرام.

تجلي الكعبة دواء الشرك:

وهذا على عكس ما عليه من الأمم الأخرى، التي تعوَّدت إبراز كل حقيقة في الصور المصطنعة، واجترأت على الشرك بالله، فقد أمرتهم عقولُهم وأوهامُهم بإلباس الشؤون الربانية المختلفة لباس الصور والمظاهر المادية المختلفة، فأظهروا شأن الجلال الإلهي في صورة الحيوانات الضارية كالأسود والأفاعي، وأبرزوا شأن الجمال والحب الرباني في صورة البحار الجارية، وأظهروا شأن الانتقام الرباني في صورة الإنسان الهائج، الأسود، الفاغر فاه، المحمرة عيناه، الغليظ الشفة، وقد عمدوا فصوَّروا شأن الحب والوفاء والرحمة بأزهار رائعة، وطاؤوس جميل المظهر، رشيق الهندام، وقد أظهروا شأن الجمال والحب في صورة المرأة الغانية، باعتبارها رمز الحب والوفاء، وما إليها من الصور والمظاهر، التي اخترعوها بعقولهم الناقصة، ثم سجدوا لها وخضعوا أمامها راكعين وساجدين، وفدوها أرواحهم، وليس هذا إلا عبادة للأوهام والأخيلة، فهذه المظاهر كلها من اختراعات عقولهم وأوهامهم، دون الصفات والشؤون الربانية الحقيقية، فتعالى الله تعالى عن الصور والمظاهر المادية، وبما أن الصفات الإلهية كثيرة

فاخترعوا عبادات مختلفة ومظاهر متنوعة، تشكل دليلا صارخا على الشرود الذهني الإشراك بالله، مما لا يحمل نوعا من الحقيقة إلا الشبهات والظنون، فهم يهيمون في أودية الأوهام والأخيلة، والعبادات الخيالية مع فكر شارد وقلب متشتت، وقطع الإسلام كل وسيلة إلى الشرك، فأنزل على الكعبة تجليا وجوديا، يجمع جميع الشؤون الإلهية، وجعلها نقطة التوحيد ومركزا موحدا للعبادات كلها، فتأتي العبادات باتجاه الكعبة مشوبة بعواطف الشوق والرغبة، والرعب والهيبة والدلال والتغنج، والضحك والبكاء، وليست هي عبادات خيالية؛ وإنما هي عبادات حقيقية للتجلي الرباني، الذي شهد كل من العقل والقلب، والفهم والفراسة، والفقه والمعرفة والعقيدة والعاطفة والكشف والشهود بنزوله على الكعبة، و أقنعت القلوب والعقول، مما لا يحمل شركا ولا تشتتا، ولا شرودا ذهنيا، ولا ترددا، وهذا الشمول العالمي للكعبة المقدسة وما نزل عليه من التجلي أكبر خصيصة للكعبة، لم تتيسر لغيرها من الزمان والمكان والخلاء والملاء، و بها تفوق الكعبة كل حد زماني ومكاني، فالكعبة المقدسة هي المركز الحقيقي للتوحيد ومبدأ العبادات كلها.

أما المسجد الأقصى وجبل الطور فقد نزل عليهما تجلي الصفات دون الذات الإلهية، فورد على المسجد الأقصى تجلي صفة الوجود، دون تجلي "الموجود"، ونزل على الطور تجلي نور العرش العظيم لا غير، ومن هنا صار المسجد الأقصى مركزا للعبادة لا قبلة التوحيد والعبادة، ولم يكن الطور حتى مركزا للعبادة، بل هو مكان مُزار، إلا أن التجليات الربانية التي أثرت في الأماكن الثلاثة جعلتها مراكز دينية كبيرة.

ثبوت تجلي المسجد الأقصى ونوعيته: الوضع الثاني والصادر الأول:

إن دولة الشام هي المركز الثاني للإسلام بعد الحجاز، كما ثبت من قبل، وقد اتضح أن نقطة قداسة الشام هي المسجد الأقصى لا غير، كما أن الكعبة المقدسة هي نقطة تقدس وشرف الحجاز، وبما أن أساس قداسة الكعبة المقدسة هو نزول التجلي

الرباني عليه واستقراره فيه، فينشأ هنا نفس السؤال: وهو أنه كيف ولماذا صار المسجد الأقصى مورد التجلي الإلهي؟ وكيف نزل هذا التجلي، وكيف استقرَّ؟

فالجواب يقتضي أن نقف وقفة تفكير في أن الكعبة المقدسة هي المركز العالمي الوحيد ووسط العالم كله، الذي نزل عليه تجلي الذات الإلهية في صورة الوجود، ففاض الوجود الإلهي هناك مباشرة، ومنه انتشر في العالم كله، كما ذكرته من قبل ضمن تفسير آية "إن أول بيت"، فلو فرضنا أن المسجد الأقصى هو الآخر مركزعالمي شامل كالكعبة، لكان لدائرة الوجود مركزان، ولا يمكن لدائرة واحدة مركزان كما لا يخفى، وإلا فلا تكون دائرة، فوجب الاعتراف بمركز واحد للوجود، وأن التجلي الوجودي قد نزل على المركز الوحيد (الكعبة)، وأرسل من هنا أشعة الوجود في الدائرة كلها، ومن هنا وُصفت الكعبة بأول بيت وأول وجود، كما هو شأن المركز الوجودي، فإن المركز هو الذي يتعين أولا في الدائرة، فمركز الوجود هو الكعبة المقدسة لا غير، فلا بد من الاعتراف بأن المسجد الأقصى قد نزل عليه التجلي الوجودي؛ لكنه لم ينزل عليه مباشرة وبلا واسطة، وإلا ثبت للوجود مركزان وهو باطل، بل نزل التجلي الوجودي مباشرة على الكعبة، فجعلها مركزا للوجود، ومنه انتقل الوجود إلى المسجد الأقصى.

النقاط الثلاث الرئيسية للموضوع:

العقل يفرض هنا ثلاثة أمور على سبيل الاحتمال: الأول أن يكون المسجد الأقصى موردًا للتجلي مثل الكعبة المقدسة، والثاني أن ينزل عليه التجلي الوجودي واستقرَّ فيه، والثالث أن لا يكون المسجد الأقصى مورد التجلي بشكل مستقل وبلا واسطة؛ بل هو مركز تابع للكعبة في التجلي والمركزية والوجود.

ولا مجال للعقل أن يحدِّد الاحتمال الصحيح، فالطريق الوحيد للمعرفة هو الوحي الإلهي لا غير، فهي أمور غيبية، تفوق حدود التفكير العقلي والقياس البشري.

الأقصى هو الآخر وضع إلهي:

أما بالنسبة لكون المسجد الأقصى مورد التجلي الإلهي في ضوء الروايات والآثار فهذا أمر لا يتم حلُّه بدون التسليم بأن المسجد الأقصى وضع إلهي، فإن التجلي لكونه ألطف شيء لا ينزل إلا على الوضع الإلهي، الذي هو بدوره شيء لطيف ومنزه عن المادة، ولا يمكن نزوله على الوضع البشري المتلوث بالمادة الكثيفة.

فحديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري ومسلم يرشدنا إلى أن المسجد الأقصى مورد التجلي ومصنوع بالوضع الإلهي، فقد جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه "قال قلت: يا رسول الله! أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام قلت: ثم أي؟ قال: ثم المسجد الأقصى، قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون، ثم قال: حيثما أدركتك الصلاة فَصَلِّ والأرض لك مسجد"[1].

فالحديث المذكور يبين بكل وضوح أن المسجد الأقصى هو الآخر جهة فضائية، ووضع إلهي، دون الوضع البشري، كالكعبة، وليس المراد النبوي بالمسجد الأقصى هو عمارته ومبناه؛ بل الوضع الإلهي، فهذه المسافة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى تتواجد في الوضع الإلهي، لا في المباني والأوضاع البشرية، وإلا فإن الباني الأول للكعبة المقدسة ولو إلى حد الكرسي هو آدم عليه السلام، وقد مُدَّتْ على ذلك الكرسي خيمة الياقوت الأحمر، مما تشكل به بيت الله، أما عمارة بيت الله فبانيها الأول هو إبراهيم عليه السلام، فشارك نبيان جليلان في عمارة الكعبة في حدود مختلفة، بينما بنى نبيٌّ الله داود والنبيُّ سليمان - عليهما السلام- المسجد الأقصى، وشارك نبيان كذلك في عمارة المسجد الأقصى، إلا أن المسافة الزمانية بين العمارتين ليست مسافة أربعين سنة؛ وإنما

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (بيروت: دار طوق النجاة، ط١، ١٣٢٢هـ)ج٤، ص١٦٢، رقم ٣٤٢٥.

هي مسافة قرون، فالمسافة المذكورة في الحديث هي مسافة الوضع الإلهي، لا المسافة بين العمارة الإبراهيمية والعمارة السليمانية، ولذا تم استعمال لفظ الوضع للمسجدين، ولم يتم استعمال لفظ العمارة والبناء، والظاهر أن الوضع الإلهي هي الجهة الفضائية لا العمارة والمباني، مما يؤكد على أن وضع المسجد الأقصى إلهي كوضع الكعبة، وقد تم قبل خلق الأرض بألوف من السنين، وهو لا بلاشك جهة فضائية، تشخصت في الفضاء، ولا يمكن أن يراد به العمارة الموضوعة بعد مئات من السنين.

الدليل الحديثي على ثبوت التجلي للأقصى:

وقد وضح كذلك أن الوضع الخاص في الفضاء قد عين لنزول التجلي وحده، لا لبناء العمارة، فلولا تعيين الجهة بالوضع الإلهي لما أمكن بناء العمارة، فالوضع البشري يحتاج إلى أساس وجهة للبناء، فالحديث يقتضي بحكم الطبع والفطرة أن الوضع الإلهي للكعبة والمسجد الأقصى إنما كان لإنزال التجلي، ليتحدد مكان العمارة، ويتم البناء في قادم الأيام.

إلى أن الأحداث المتأخرة وبعض الروايات في الباب تفيد نزول التجلي على الوضعين، فالحديث المذكور يفيد باقتضاء النص أن المسجد الأقصى وضع إلهي، كما تفيد بالإجمال وباقتضاء النص ثبوت التجلي للمسجد الأقصى، والثابت باقتضاء النص نوع من الثبوت بالنصوص.

انتقال تجلي الكعبة إلى المسجد الأقصى:

أما أن التجلي الوجودي الوارد على الكعبة هو الذي انتقل إلى المسجد الأقصى فقد توجد في هذا الشأن كثير من الإشارات القرآنية والحديثية، والموافقات والمشابهات بين المكانين، فقد وصف القرآن الكريم الكعبة أولا بأنها أول بيت، وقد أوضح حديث أبي ذر هذا المعنى، وهذا لا ينطبق على العمارة، وإنما يصدق على الوضع الإلهي، وقد ورد

في الحديث أن الوضع الثاني هو للمسجد الأقصى، وليس المراد هنا أيضا عمارة المسجد الأقصى؛ مما يدل بكل وضوح على أن المسجد الأقصى أيضا وضع إلهي.

وبذلك يتبين أن الجهة الفضائية للأقصى هي المقدسة والحاصلة على كل فضل وشرف في الموضوع، ولا يمكن إرادة المسجد المبنيِّ أو السطح الأرضي، كما ظهر بالدلائل المسطورة من قبل.

ومن جانب آخر فقد ثبت بالأحاديث أن التجلي النازل على فضاء الكعبة هو تجلي الوجود والإيجاد، فإنه إن لم يكن وجوديا فلا توجد الكعبة أيضا في تلك الجهة الخاصة من الفضاء، فضلا أن تهب الوجود لغيرها من الأشياء الكونية، والثابت بنص الحديث أن الأرض كلها وما فيها من الخلائق وجدت من القطعة الأرضية للكعبة، مما يدل على أن الأرض تم خلقها من الكعبة، في حين لم يكن للمسجد الأقصى وجود، وامتد من الكعبة الوجود الأرضي، فوصل إلى المسجد الأقصى في مدة أربعين سنة، فارتفعت أرض المسجد الأقصى، ثم بني عليها المسجد الأقصى بعد الآلاف من السنين، وبهذه الحقائق المنصوصة أن الكعبة المقدسة هي أصل المسجد الأقصى أيضا، كما هي أصل الكائنات الأرضية، فإن الوجود الأرضي المتضمن وجود المسجد الأقصى بدأ رحلته من الكعبة المقدسة، ولم يكن قبله شيء من الوجود الأرضي، فلا جرم أن وجود المسجد الأقصى هو فيض من التجلي الأول النازل على الكعبة، ويقال بالضرورة أن الوجود لم ينزل على المسجد الأقصى مباشرة، بل بواسطة التجلي النازل على الكعبة، المتصف بالوجود والإيجاد.

وإذا تأملنا في النظم القرآني وجدناه قد أشار إلى هذا المعنى بلفظ موجز، حيث وصف الكعبة المقدسة بأول بيت، فالأولية تقتضي إمكانية وجود شيء ثان، ويستثنى منه ذات الله، فهو الأول الذي لا ثاني له، وهو أول مطلق عن كل قيد،

فأوليته لا تقتضي الثانوية، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو الأول ليس قبله شيء، وهو الآخر ليس بعده شيء، وسائر الأشياء إذا كانت أولى فلها ثان وثالث ، ولا أقل من أنها لا تخلو عن إمكانية الثاني.

فإن كانت الكعبة موضوعة بالوضع الأول فلا بد من وضع ثان يتصل بالشيء الآخر، وإلا فلا معنى لأولية الكعبة، فوجب أن المسجد الأقصى موضوع بالوضع الثاني، والوضع الثاني فرع الوضع الأول، لتبقى الأولية المطلقة للكعبة، فإن الله تعالى عند ما وصف الكعبة بـ"أول بيت وضع" لم يقيد الأولية بقيد من الأولية الجسمانية والمعنوية؛ بل ذكرها عامة مطلقة؛ مما يدل على ثبوت الأولية المطلقة للكعبة على جميع الكائنات(ويدخل فيها المسجد الأقصى بالضرورة)، سواء كان من حيث المادة أو من حيث الحقيقة، أما أولية الكعبة من حيث المادة فهي ظاهرة لدى الجميع، فإن الأرض والخلائق الأرضية قد صُنعت من مادة الكعبة، وأما أوليتها من حيث الحقيقة فهي أيضا ظاهرة، فإن الكعبة هي مورد التجلي الإيجادي الأول، الذي سبب طبعا وجود كل شيء في الكون بالدرجة الثانية، فالمسجد الأقصى في وجوده وإيجاده خاضع للكعبة الشريفة، وبقيت الكعبة أول على الإطلاق جسما وحقيقة، وهي أصل كل الكائنات، والكائنات كلها بما فيها المسجد الأقصى تحمل وجودا ثانيا تابعا للكعبة. فثبت أن الكعبة أصل المسجد الأقصى، سواء أريد بالكعبة وضعها الأول أو بناؤها الأرضي، وإلا لم يبق عموم كلمة أول بيت وضع، مما يظهر أن المسجد الأقصى لما صُنع وضعه من وضع الكعبة، و ظهر وجوده من تجلي الكعبة، فلامحالة يعمل في المسجد الأقصى ذلك التجلي النازل على الكعبة الشريفة، ليس هناك تجلي من التجليات الربانية، ينزل على المسجد الأقصى مباشرة، ويهب له الوجود، فثبت أن تجلي الكعبة أصل تجلي المسجد الأقصى، وبه قامت قداسته، فإن أثبتنا فرعية

المسجد الأقصى للكعبة فهو مقتضى الآية الكريمة: إن أول بيت وضع، وليس اختراعا عقليا محضا، أو استنباطا ذهنيا، فثبوت تجلي المسجد الأقصى يظهر -إلى حد كبير- من الآية الكريمة، وكلمة أول بيت تدل على أن تجلي المسجد الأقصى فرع لتجلي الكعبة الشريفة، فالتجلي الرباني نزل على الكعبة مباشرة من عالم الغيب، كما اقتضت أوليته، ثم نزل التجلي على المسجد الأقصى بواسطة الكعبة، فكان المسجد الأقصى شيئا ثانيا، فالعلاقة بين تجلي الكعبة وتجلي المسجد الأقصى هي العلاقة بين الأصل والفرع.

عزة القبلة الأولى بالتجلي الرباني:

وهذا التجلي الذي عظَّم الكعبة المقدسة، فكانت قبلة الصلاة والحج، عمل في تعظيم المسجد الأقصى، فصار قبلة للصلاة، ولو لفترة محدودة، وظلت قبلة بني إسرائيل منذ أعوام طويلة، فإنه بدون التجلي الرباني لا يمكن لمكان أن يكون قبلة الصلاة والحج، فلا تتم العبادة في الدين القيم بدون التوجه إلى التجلي الرباني، فلا يجوز التوجه إلى ما خلا عن التجلي الرباني من مكان أو جهة أو وضع ولو كان كعبة أو مسجد أقصى، فإنه لا تجوز العبادة لغير الله، ولا يمكن بدون الذات الإلهية وتجلياتها، كما سيأتي تفصيله، وبذلك يتبين أن كون الكعبة أول بيت يدل على أن تعيين القبلة ومحل العبادة للاستقبال في العبادة ليس من حق الخلائق، فيتوجهوا في العبادات إلى ما شاؤوا من مكان وجهة، ولذلك لم ينسب الله تعالى وضع الكعبة إلى أحد من الخلائق، والظاهر أن كلا الأمرين (كون الشيء قبلة أو جعل الشيء قبلة) لا يمكن تحققهما بدون التجلي الرباني، وإلا يلزم عبادة غير الله تعالى، وهي ممنوعة شرعا وعقلا، فثبت بالآية الكريمة أن الله هو الذي صنع الكعبة قبلة وحده، كما أنه وحده يستحق العبادة، وإلا فهو شرك عظيم، ومن ثم لم يستطع رسولنا صلى الله

عليه وسلم أن يجعل الكعبة قبلة مع رغبته الشديدة، ما لم يأمره الله سبحانه بتحويل القبلة، فكان قبل ذلك يقلب وجهه في السماء، منتظرا أمرا جديدا بتحويل القبلة، والتوجه إلى القبلة الجديدة، كما نص به القرآن الكريم في آية **"قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** (سورة البقرة: ١٤٤).

وهذه الآية كافية في بيان أن الإسلام كما لا يجيز عبادة غير الله، فهو لا يجيز لأحد غير الله خيار صنع القبلة، وإلا لكان الرسول صنع الكعبة الشريفة قبلته وقبلة المسلمين قبل نزول الأمر الرباني، فكان الأمر في حاجة إلى التجلي الرباني، الذي تتعلق به العبادة وصنع القبلة، ليجعل الله سبحانه مكانا خاصا مورد التجلي الرباني، الذي يتم عنده عبادة الله الخالصة، ويتوجه إليه المسلمون في عباداتهم، وبعد كل هذا إن فكرنا من هذه الناحية في النصوص -ولو قلَّت- التي جعلت المسجد الأقصى قبلة ولو للصلاة فقط أدركنا أن تلك النصوص تدل على ما للمسجد الأقصى من تجلٍ رباني، وهذا دليل آخر على أن المسجد الأقصى مورد التجلي الرباني، فلولا هذا التجلي الرباني على المسجد الأقصى لما كان قبلة المسلمين ولو لحظة واحدة، فالنصوص الدالة على أن المسجد الأقصى قبلة تدل كذلك على كونه مورد التجلي الرباني.

قداسة المسجد الأقصى:

هذا إلى أنه إذا تم النظر في الفضائل الروحانية و المناقب المعنوية وآثارها الطاهرة للأماكن المقدسة ثبت ورود التجلي الرباني في هذه الأماكن المقدسة، فإن الفضائل الواردة تعطي القدس مكانة عظيمة تماثل عظمة الكعبة الشريفة، فقد ورد أن من مات بالقدس يصير إلى ما يصير إليه موتى مكة المكرمة، فإن كان من مات بمكة كمن مات بالسماء الدنيا،

فكذلك ورد فيمن مات بالقدس، والظاهر أن هذا التماثل في العظمة والقداسة لا يمكن بدون التجلي الرباني، فإن المباني الترابية ليس من شأنها أن تحمل التجليات الربانية، فهذا دليل ثالث على أن المسجد الأقصى مورد التجلي الرباني.

فالإشارات القرآنية وعبارات الأحاديث النبوية ودلالات الآثار الشرعية وآراء العلماء الربانيين تثبت كون المسجد الأقصى مورد التجلي الرباني، وأن المسجد الأقصى كما هو تابع للكعبة في الصلاة والاستقبال، فإنه يجب استقبال الكعبة الشريفة لمن يصلي في المسجد الأقصى، كذلك تابع لها في التجلي الرباني، كما تبين في السطور السابقة.

نعم! بقي سؤال، وهو أنه لما ثبت أن المسجد الأقصى تابع للكعبة في فيض التجلي الرباني، فما هي كيفية ونوعية انتقال فيضان التجليات من مكة إلى المسجد الأقصى؟ وكيف سرى تجلي الوجود من مكة إلى المسجد الأقصى؟

وهذا سؤال دقيق، لا يستطيع الإجابه عنه رجل حقير مثلي، إلا أني أجرؤ على إبداء ما ألقاه الله في روعي من معانٍ، فإنها لا تنافي القواعد الشرعية، وهي كما يلي:

الصادر الأول عن التجلي الأول، ووصوله إلى المسجد الأقصى:

نوعية ورود التجلي في الأقصى:

وبعد ما ثبت أن الكعبة المقدسة هي مورد تجلي ذات الواجب الوجود، وأنها جامعة المحاسن والكمالات، ومظهر اسم الجميل من أسماء الله تعالى، ودار عظيمة للعبادة والحج ومهوى أفئدة الناس، ونقطة حبهم ووفائهم، بقي التفكير في أن تجلي الكعبة هو الذي أحاطت به أمواج الوجود من كل جانب، مما سبَّب نتوء بقعة خاصة من الكعبة، وكونها مورد مظهر الذات الإلهية، وأول وجود في الكون، ومبدأ الإيجاد، فلا مانع من قبول الحقيقة المتمثلة في أن كون الشيء موردَ الوجود ومستقرَّه لا يستلزم بالضرورة انتقالُ ذلك الوجود منه إلى مكان آخر، فيكون الشيء الآخر موجودا، ما لم

يُنقل الوجودُ بتحريكه من مظهره إلى شيء آخر، ليكون موجودا، ويتميز بآثاره وخصائصه، وفي تعبير آخر: إذا ثبت أن التجلي الوجودي استقرَّ في الكعبة الشريفة، فلا بد من انتقال هذا التجلي منها إلى أشياء أُخر لتكون موجودة، فإنها بدون انتقال التجلي لا يمكن وجود الأشياء الأُخر.

وهذه الحقيقة المبدئية ترشدنا إلى أن الله تعالى لما أراد وجود الكون الأرضي صدر الوجود عن الكعبة الشريفة، وظهرت أولًا من تحت الكعبة قطعة من الأجر، بدأت بها عملية دحي الأرض، مما سبق بيانه في الصفحات الماضية، ولذا نصف ذلك التجلي –وهو تجلي الوجود وعكس الذات الإلهية– بالتجلي الأول، ولما كان هذا التجلي مصدر الوجود في الكون، كما يشير إليه نص الحديث، حيث دحيت الأرض من هذا التجلي، وأن الوجود صدر عن التجلي الأول، وهذا الصدور بمنزلة فعل التجلي وتأثيره، فإنه لا يمكن لوجود أن يصل إلى الأرض بدون صدوره عن مصدر، ولما كان الأمر كذلك حق لنا أن نصف الوجود بالصادر الأول، لكونه صادرا عن التجلي، ووصوله إلى الأرض وما فيها من موجود، والمعلوم أن الشيء لا يوجد بدون الوجود، فالوجود أول ما يلحق الأشياء، فلولا الوجود لما وجد شيء في الأرض، حتى أن الشيء لا يكون شيئا بدون الوجود، فالطبع والعقل كلاهما يقتضيان صدور الوجود أولا، فصدر الوجود عن الكعبة، وتكوَّن هذا العالم العنصري بشكل تدريجي، فتجليْ الكعبةِ هو التجلي الأول، والوجود الذي صدر عن التجلي هو الصادر الأول، والتجلي الأول هو عكس الذات، بينما يشكل الصادر الأول عكس الوجود، وهو فعل التجلي الأول.

جهة الوجود الصادر عن الكعبة:

وهنا ينشأ سؤال، وهو أنه إلى أي جهة يتجه هذا الوجود بعد صدوره عن الكعبة؟ أهي يمين أم يسار؟ أ أمام أم خلف؟ أ فوق أم تحت؟ في أي جهة سار الوجود،

وفي أي مقام استقر؟ فأوجده أولا؟ أما بالنسبة إلى الجهة فلا يمكن تعيينها من حيث الكائنات الأرضية، فإن الكائنات لم تكن عندئذ، فكيف يوجد لها شرق وغرب، أو يمين ويسار، فإن الجهات لاتتعين بدون الوجود الكوني، وعند ما لم يلق الكون وجوده في ذلك الوقت فلا يمكن اتصافه بشرق وغرب ويمين وشمال، نعم! إذا أخذنا الجهة بالنسبة إلى ذات البارئ سبحانه، فلا يمكن أيضا، فهو منزه عن الجهة والسمت، والزمان والمكان، فليس له يمين ويسار، نعم! إن التجلي الرباني الذي اتصل بالجهات، ونزل على الجهة الفضائية الخاصة، يجوز أن يكون له يمين ويسار، ويمكن توجيه السؤال بأن التجلي إلى أي جهة قدَّم الوجود بعد ما أصدره، حتى اتصفت الجهة بشرف الوجود، وصارت مستقر الوجود الصادر؟ فالجواب الذي قد يستفاد من أبعاد الآثار والروايات أن الوجود الصادر سار في الجهة الشمالية أولا، وهي جهة اليسار، ففاض التيار الوجودي في المجاري الكونية في هذا الجانب أولا، أما يمين التجلي فهي داخلة في الكعبة، حيث تم وصف الحجر الأسود بيمين الرحمان، وهو بالنسبة إلى التجلي دون الذات الإلهية، فكلتا يدي الله سبحانه يمين، كما جاء: كلتا يديه يمين، والمعلوم أن اليسار هو مقابل اليمين، والمقام المقدس الأول الذي يقع بالجانب الشمالي للكعبة هو بيت المقدس الموصوف بالأرض المقدسة في النص القرآني، ومن هنا أقول: إن الوجود بعد صدوره عن تجلي الكعبة جعل الكعبة – وهو يمين التجلي- يمين الرحمان، وسار في الجهة الثانوية، وجعل بيت المقدس مستقره الثاني، ووهب له القداسة، حيث كان مقدسا من الأزل في علم الله، فتجلى فيه الصادر الأول (الوجود)، فاستقر فيه الوجود.

ورود تجلي الكعبة على المسجد الأقصى أمر طبيعي:

والظاهر أن ما بين الكعبة والمسجد الأقصى من صلة وقرب يقتضي أن يكون المسجد الأقصى مستقر التجلي الوجودي، فالأقصى قريب من الكعبة من حيث المكان والزمان، فلم يكن بُعد كبير بين وضع الكعبة ووضع المسجد الأقصى.

وقد ذكر الحديث النبوي ما بين وضع الكعبة ووضع المسجد الأقصى من مسافة زمانية، وهي مسافة أربعين عاما، وهي ليست بمسافة طويلة، كما تبين بحديث أبي هريرة المذكور سابقا، أما المسافة المكانية بين الكعبة والمسجد الأقصى فهى لاتتجاوز نحو ثمانمائة ميل، ولا شك أن هذه المسافة الزمانية والمكانية ليست بشيء يذكر بالنسبة إلى مسافات العالم زمانا ومكانا، والتي لا يمكن عدها وحصرها، فالمسجد الأقصى ليس ببعيد من الكعبة، فالمسافة بينهما مسافة قصيرة شديدة القصر بالنسبة إلى مسافات العالم، فبينهما كمال القرب والاتصال، فإن كانت الكعبة هي وسط الدنيا ومركزها، فالمسجد الأقصى هو الآخر وسط العالم ومركزه لقربه من محور الوسط الكوني، وهو الكعبة، كما سيأتي تفصيله فيما يأتي.

فلا بدع إذن في استقرار الوجود في المسجد الأقصى بعد صدوره عن الكعبة، وإن أوجد ما بينهما من بقاع، إلا أن استقراره لم يقف قبل المسجد الأقصى، فجعل التجلي الكعبة يمينه، والمسجد الأقصى شماله بواسطة الوجود الصادر، فكانت الكعبة المشرفة مظهر التجلي الأول، فهو المعرض الأول للكمالات الربانية، وكان المسجد الأقصى معرضا ثانيا، بواسطة مظهرالوجود، وهو شيء ثان للذات الإلهية، فالوجود وإن كان عين الذات، ولكن الوجود صادر عن الذات ولا بالعكس، فنسبته إلى الذات إنما تكون بالدرجة الثانية، ويقال: نزل تجلي الوجود على الكعبة من حيث الذات، ونزل ذلك التجلي على المسجد الأقصى من حيث الصفات وهو من فعل تجلي الوجود، والظاهر أن الصدور إنما يكون للفعل دون الذات، والشيء مقدم على فعله طبعا، فتجلي الكعبة مقدم على تجلي المسجد الأقصى طبعا وعقلا.

إلى أنه من المسلمات أن فعل الشيء فرع له، والشيء أصل لفعله، ومن أجل ذلك يثبت كون تجلي الكعبة أصلا، وتجلي المسجد الأقصى فرعا، والحاصل أن الكعبة

هي معرض أول للتجلي الأول، وهو تجلي الذات، والمسجد الأقصى معرض الصادر الأول، وهو تجلي فعل الوجود.

نوعية تجلي المسجد الأقصى:

ومن هنا تتضح نوعية تجلي المسجد الأقصى أي التجلي الوجودي، وهو أن الوجود لما كان مخزن جميع الكمالات، والعدم هو سبب النقائص والمطاعن كلها، كما سبق بيانه مفصلا، فهذا يعني أن الشيء ما لم يصحبه وجود لم يحظ بالكمال، فالوجود هو الذي يهب الكمال، ويُلحق بشيء العيبَ والنقصَ إذا تنحى عنه، مما يكون الشيء بحيث ينفر منه الناس، فالوجود حاكم مقتدر، فهو يهب للأشياء منافع الوجود وكمالاته إذا شاء، وإذا تنكر أسقطها من الوجود في مستنقع النقائص والعيوب.

والكل يعلم أن حكومة ملك مقتدر تقوم على أساس النفع والضرر، أو الإفادة والإيذاء، وفي تعبير آخر: تقوم على القوة القهرية، التي هي عبارة عن الشوكة والسطوة، وخضوعا للقوة يطيع الناس الأمراء والملوك، فإنهم يعلمون أن ترك الطاعة يترتب عليه ضرر عظيم في المال والعرض، فإن الملوك يتخذون إجراءات شديدة ضد العصاة والطغاة، فيزهقون أرواحهم ويسلبون أملاكهم، وينتهكون أعراضهم، وإن إطاعة الملوك تأتي بمنافع متنوعة، وإذا كان الوجود له هذا الشأن في النفع والضرر، حيث يوجد الغير ويعطيه كثيرا من منافع الوجود وكمالاته، ويصيب ما شاء بالعدم والزوال، ويسلبه كل المنافع والكمالات، فمن ذا الذي لا يعلم أن هذا هو الذي يسمى بالقوة القهرية، أو السياسة في تعبير آخر، حيث ينتفع الناس بالاتصال بالحكومة، ويحصدون الضرر بالخروج على الحكومة أو الثورة عليها، مما يوضح أن شأن الوجود هو النفع والضرر، أو كونه سبب النفع والضرر، كشأن الملوك، وفي هذه الصورة إذا نزل على المسجد الأقصى التجلي الصادر عن الكعبة، الذي يحمل شأن الملوك، فلا بأس في إظهار

أن التجلي الواقع على القدس هو تجلي صفة الحكم والملك من صفات الله تعالى أو صفة النافع والضار من صفات الله تعالى، فعاد المسجد الأقصى مركز السياسة والحكومة الإلهية، وهو من مقتضيات ذلك التجلي، فإن كان الإسلام جعله مركزا للسياسة والحروب نظرا إلى طبيعته الملائمة للسياسة والملك والقدرة على الضرر والنفع فهو أمر معقول طبعا.

الفرق بين ثواب الكعبة وثواب المسجد الأقصى:

ولما كان بيت الله هو مظهر تجلي المحاسن والكمالات الإلهية، والكل يعلم أن اجتماع المحاسن هو عبارة عن الجمال، فلا بأس بأن نقول: قد وقع على الكعبة تجلي اسم الجميل من أسماء الله تعالى، فصارت حبيبة إلى الفؤاد، مودودة في أعين الناس، لما لها من اتصاف بجميع المحاسن والكمالات، فكانت الكعبة دار المحبوبية ومركزا للعبودية، والمعلوم أن العبادة تشتمل على لون العشق والحب، ومن ثم خصت بها عبادة عشقية عظيمة كالحج، والصلاة التي تؤدى في وجهتها تحمل لونا كبيرا من العشق والحب، فإن جمال المحبوب إذا مثُل للمحب وجد نفسه مدفوعة بالاندفاع نحو الحبيب، وتأتي صلاته مصبوغة بصبغة الحب والعشق، متضمنة مرضاة الله تعالى لا غير، وبما أن المسجد الأقصى مظهر القوة القهرية للوجود الحاكم، التي يعتريها كل من النفع والضرر، فلم يُجعل مركزا لعبادة العشق والمحبة: الحج، ولا مركزا للعبادة المعقولة كالصلاة، فروح الصلاة هي المحبة، ووجدها هي رؤية المحبوب؛ بل وضع المسجد الأقصى ليكون مكان الصلاة ومسجدها؛ ليحضر المحب في بيت الحاكم المطلق، النافع، الضار ليخضع لقوته وشوكته وملكه، كما يقتضيه الملك والغلبة إلا أن التوجه دائما يكون إلى الكعبة، ولا تؤدى الصلاة إلا مستقبلا الكعبة، مما يسفر عن أن مكانة الحب تفوق بكثير مكانة الخوف والدهشة، فإن الإنسان في حالة الخوف يفكر في وقاية نفسه،

بحيث إذا لم يقم بأداء ما عليه من عبادة تعرَّض للخطر، ومن ثم يضاعف أجر صلاة واحدة في الكعبة إلى مائة ألف صلاة، حيث لا يوجد غير الله، ولا يتوجه الإنسان إلى نفسه، فأجر الصلاة ينقص في المسجد الأقصى إلى حد ثلاثة أرباع، فيضاعف أجر صلاة واحدة إلى ٢٥٠٠٠ صلاة، فنصيب مرضاة الله سبحانه في الصلاة هناك ٢٥٪، وأما وقاية النفس من عذاب الله تعالى فنصيبها ٧٥٪، فلا يتوفر هناك في الإطار الروحاني ذلك الإخلاص الذي يتوفر في المكان الذي لا يوجد فيه إلا المحبوب ومرضاته والعمل بأوامره واجتناب نواهيه.

ست دلائل على فضائل القرآن:

فالتجلي استقر في كل من الكعبة والمسجد الأقصى، إلا أنه يوجد في المركز الأول تجلي الجمال والحب، وهو التجلي الوجودي والتجلي الأول؛ فهو يحمل إلى القهر والغلبة شأن الجمال والمحبوبية، بينما يوجد في المركز الثاني تجلي الجلال والهيبة، وهو تجلي فعل الوجود، أي تجلي الصادر الأول، الذي يملك شأن المالكية والملوكية والنافع الضار، فتتجمع في الكعبة الأنوار الوجودية للموجود متمثلة في صورة المحبوب، بينما تتجلي في المسجد الأقصى آثار وأفعال الوجود متمثلة في صورة الحاكم المطلق، النافع الضار، الذي بيده النفع والضرر، والإعطاء والسلب، فأعمال المركز الأول تؤدَّى بدافع الحب والعشق، ويسودها التفاني والإتقان؛ بينما تأتي أعمال المركز الثاني مصبوغة بصبغة الذعر والخوف والهيبة، ويغلب عليها طابع الهيبة والرعب، مما يُظهر فضل الكعبة على المسجد الأقصى، وذلك لوجوه:

أولاً : لأن الكعبة ينزل عليها تجلي واجب الوجود، حيث يوجد عين الذات، وينزل على المسجد الأقصى تجلي فعل الوجود وخواصه وآثاره، وهو عبارة عن القهر والسياسة، ولا يخفى فضل الذات على الآثار والأفعال، فإن الله تعالى لم يشرف الذات بالآثار؛ وإنما شرَّف الآثار بالذات، فإن الذات هي منبع الكمالات والمحاسن.

وثانيا: لأن الكعبة المقدسة هي الوجود الأول والوضع الأول، وبيت المقدس هو الوجود الثاني والوضع الثاني، والظاهر أن الأولية في ذاتها منقبة، لا تدركها الثانوية.

وثالثا: لأن الكعبة أصل في الوجود، وبه انتقل الوجود إلى سائر الأشياء الكونية، وبيت المقدس فرع للكعبة في الوجود، حيث صدر وجوده عن الكعبة، وفضل الأصل على الفرع أمر لا يخفى، ولا يحتاج إلى برهان.

ورابعا: أن الكعبة يمين التجلي، فهو الجانب الأيمن للتجلي، وبيت المقدس في الجانب الأيسر للتجلي، وفضل اليمين على اليسار أمر لا يخفى على أحد.

وخامسا: إن التجلي ورد على الكعبة بلاواسطة، حيث خلق الله تعالى الكعبة في البداية، وجعلها مرآة لجماله، وأظهر فيها ملامح جماله، فعادت مورد تجلي الذات ومظهره، أما بيت المقدس فقد نزل عليه التجلي بواسطة الكعبة، صادرًا عن فعل الوجود، فتجلي المسجد الأقصى صادر عن تجلي الكعبة، مما يعني أنه لولا الكعبة وما صدر عنها من التجلي لم يكن لبيت المقدس وجود، والظاهر أن الشيء الذي ارتبط به نور الوجود مباشرة وبلا واسطة أفضل من الشيء الذي اتصل به الوجود بواسطة فعل الوجود، فإن نور الذات مع الوجود أسطع شعاعا، وأبزغ ضياء، ونور التجلي النازل على المسجد الأقصى يحمل خفة وتضاؤلا لورود الواسطة.

وسادسا: لأن الكعبة مكان استقرار المحبوب، مما يسبب زيادة المحبة، والمسجد الأقصى قلعة السياسة والشوكة، مما يثير الذعر والقلق، والظاهر أن الحب أصل طبعا ومطلوب بذاته فطرة، بينما الخوف يخضع للعوارض، وليس بأصل، فإنه يأتي الذعر والخوف إذا حدث طغيان وعدوان، فالمطلوب ذاتا وفطرة أفضل من المطلوب بسبب العوارض الطارئة.

وعلى كل فثبت فضل وأولية ومحبوبية الكعبة على المسجد الأقصى بالدلائل المستنبطة من أحوال وصفات المقامتين، واتضح جليا أن الكعبة جعلت مركزا للعبادة

بحكم نوعية وخصائص تجليها ودار المحبوبية، وجعل المسجد الأقصى مركزا ودار الخوف والسياسة، وذلك نظرا لنوعية التجلي وخصائصه، مما يقتضيه كل من التجليات ومواردها وما بينهما من تفاوت وتفاضل، وهذه دعوى ادعيتها في السطور البدائية، وتم إثباتهم بالدلائل العقلية والنقلية، ولله الحمد.

ثبوت تجلي الطور ونوعيته:

أما المركز العالمي الإسلامي الثالث الذي أقسم الله به في القرآن فهو طور سينين، الذي نشأت من قداسته أمة عظيمة، ونالت الفضيلة العالمية، إلا أن قداسة الطور لم تكن ذاتية أو وصفية، ولم تودع فيه القداسة منذ الخلقة، فتقتضي فطرته القداسة والفضيلة؛ بل تقدَّس بالتجلي الرباني الطارئ، بل كان مجموعة من الحجارات منذ الخلقة كسائر الجبال، لا تشتمل على فضل ومجد خلقي، فالذي قدَّس الطور ومنحه نوعا من العظمة هو التجلي الرباني أولًا وأخرًا، الذي لم يثبت بعبارة النص القرآني، فالآية لا تذكرجبل الطور صراحة، وإنما تذكر الجبل، وإن كانت الروايات فسرت الجبل بجبل الطور، فيثبت نفس التجلي بالنص القرآني، أما تجلي الطور ومورد التجلي وأوصافه والحوادث المتعلقة به ثابتة بالواسطة، أما التجليات الخاصة بالكعبة والمسجد الأقصى وما يتعلق بها من أحوال وأوصاف ثابتة بالرواية، نعم! إن آية فلما تجلى ربه تسلط الضوء على ثبوت تجلي الطور.

ولما سأل موسى ربه عن رغبته في رؤيته مدفوعا بشوقه البالغ قائلا: رب أرني أنظر إليك، فأنكر الله سبحانه بكل وضوح، وقال: لن تراني، أي لا يمكنك رؤيتي في هذه الدنيا، وإنما موضعها هو يوم القيامة، وليس لخاصة الله وأهله أن يسألوا الله سؤالًا لا ينبغي لهم، فالحاصل أن هذا السؤال في غير محله، والقصد إظهار شيء من الكراهية، والقرينة على ذلك أن موسى عليه السلام لما شعر بهذه الكراهية بادر بقوله: **سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** (سورة الأعراف: ١٤٣)، والمعنى أني نادم على ما فعلت،

فأتوب إليك مستغفرا وأول مؤمن بعجز الإنسان عن رؤيتك في الحياة الدنيا، ومصدقا لشأنك، مما يتضمن هذه الكراهية أيضا.

شأن الجلال والعظمة:

إلا أنه قدَّم هذا السؤالَ رسول جليل من أولى العزم من الرسل، فلم يتم إلغاؤه أصلا، فقيل له بعد الإستنكار: **وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**(سورة الأعراف: ١٤٣).

فنزل التجلي، ولكن لم يطقه جبل الطور، بل صار دكًّا دكًّا، ولم يتمالك موسى نفسه وشعوره، فخرَّ صعقا، فكيف يطيق التجلي الرباني وهو فاقد شعوره، وغائب حسه، فقد ثبت بإشارة النص نزول التجلي، وأن هذا التجلي كان يحمل الشأن الجلالي، ونوعًا من التأديب والزجر والتوبيخ، ومن هنا صدرت عن هذا التجلي آيات ربانية مرعبة ومفزعة، تدل على الشان الجلالي للتجلي.

فقد نقل صاحب تفسير روح البيان أثرًا عن وهب بن إسحاق، يفيد أنه لما سأل موسى عليه السلام اكفهر الجوُّ، وساد ظلام حالك، وارتفع صوت مرعب شديد، ورعد البرق، وهوت النجوم، وغاب الضياء، وعاد المناخ شيئا مرعبا، وقد أحاط هذا الرعب والجلال بجبل الطور من جوانبه الأربعة إلى أربعة أميال، وأمر الله تعالى قبل نزول التجلي الملائكة عليهم السلام بحصار الطور أمام موسى عليه السلام، كما يحيط رجال الجيش الملكي عند خروج الملك بالقصر وشوارعه من كل جانب، فانتشرت الملائكة في الفضاء مصطافين حول الطور، وكانوا كالثيران الضخام، ويسبحون لله تعالى بصوتهم كالرعد، ولمعانهم كالبرق، مما هز الطور هزة شديدة، جعلته يتضعضع بنيانه، ويندك جسده، كما جعلت موسى لم يتمالك نفسه وشعوره، وبقي ساكتا مدهوشا.

ثم أمر ملائكة السماء الثانية بنزول الدنيا، فكانوا في شدة الهيبة وكثرة الرعب كالأسود، وجاءت كلمات تسبيحهم وتحميدهم أكثر فزعا ورعبا من ذي قبل، فعاد

موسى أكثر ذعرا وخوفا من ذي قبل، وارتعدت فرائصه، واقشعرت جلوده، وندم على سؤاله، الذي لا يناسب شان العظمة الإلهية ولا يناسب عبدية موسى، فقال زعيم الجيش الفلكي: يا ابن عمران! ما رأيت من بعد شيئا، فهذا غيض من فيض، وقليل من كثير مما سيحدث الآن، وسترى إزاء هذا السؤال العظيم ما لا تستطيع رؤيته، ثم حضرت ملائكة السماء الثالثة في جيش عرمرم، وكانوا أقوياء الجثة، شديدي الهيبة، كالعقاب، وكانت ألوانهم كالشعلة المرتفعة، والشرر المتطاير، فأحاطت بالجو، وكانت كلمات تسبيحهم وصداها أشد وأرعب من ذي قبل، مما صدَّع الرؤوس وقرع الأسماع، فاضطرب موسى اضطرابًا شديدًا، وجرت أنفاسه الحارة بشدة، وكاد ييئس من حياته، فقال له زعيم الجيش السماوي: يا ابن عمران! إذا سألت هذا السؤال فانتظر قليلا لتشاهد ما سيأتي، من أحداث هائلة ووقائع فظيعة.

ثم حضر جيش الملائكة في السماء الرابعة، وكانت وجوههم مشتعلة كالنار الموقدة، وجثثهم كالثلج البارد، وكانت أصواتهم المرعبة تفوق أصوات الرعد والبرق، مما لم يسمعه موسى من ذي قبل، فاسترخت مفاصله، وخفق قلبه، وارتعدت فرائصه، فقال له زعيم هذا الجيش: يا ابن عمران! فقد سألت رؤية ربك بقولك: أرني أنظر إليك، فترقب أكثر مما شاهدت، فهذا قُلٌّ من كُثْرٍ، فاضطرب قلب موسى اضطرابا شديدا، وفاضت الدموع من عينيه، وأجهش بالبكاء، وكاد يتصدع قلبه عن الهم والغم، وبينما هو كذلك إذ جاء جيش عظيم لملائكة السماء الخامسة، في جثث ذات سبعة ألوان، تحمل صوتا مرعبا، له تسبيح وتحميد كالماء الجاري المتدفق، فلم يتمالك موسى حتى البكاء، وأدرك قرب أجله، فقال: له زعيم جيش الملائكة: تصبر قليلا، فهو قليل من كثير يأتي، وبينما هو كذلك إذ حضر جيش عظيم لملائكة السماء السادسة، وكانوا مرتدين لباس النار المشتعلة، وكان لكل منهم أربعة أفواه، وكانت بأيديهم الرماح النارية كجذع النخلة، يفوق لهيبها ضياء الشمس

ونور القمر، مما يبهر العيون ويخلب الأبصار، وكانوا يسبحون لله ويقدسونه بأصوات رهيبة، تفوق الرعد والبرق بكثير، فاضطرب موسى عليه السلام اضطرابا شديدا، وجرت على لسانه كلمات التسبيح والتكبير، وقال متضرعا إلى الله: يا رب! لا تنسنى في هذه المهالك، واحفظني وارفق بي، فقال له زعيم هذا الجيش: يا ابن عمران! سألت رؤية الرب، فتصبر قليلا، وانظر ما سيأتي، فأمر الله تعالى بإنزال العرش من فوق السماوات وفوق الجنة إلى السماء السابعة، ليراه موسى، وما إن ظهر نور العرش العظيم حتى ارتفعت أصوات الملائكة بالتسبيح ارتفاعا شديد، له رعب ودهشة، فصار الطور دكا دكا لهيبته وعظمته، وخر موسى صعقا، كأنه جسد لا حراك له، مما وصفه القرآن قائلا: فخر موسى صعقا، فأمسكه ربه وشمله برحمة واسعة، كأنه جدد حياته، وقلب الحجر الذي خر عليه موسى، فجعله قبة، لئلا يصيبه الجبل المحترق، ثم رفعت يد غيبية موسى، كما ترفع الأم طفلها بعد الولادة، فأصاب موسى حياةً جديدةً، وبدأ يسبح لله ويحمده بكل التواضع والخشوع، كما قال الله تعالى على لسان موسى: قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (سورة الأعراف: ١٤٣) أي إني تبت عن سؤالي هذا وما يجر من بلاء ومصيبة، وأنا أول من آمن بك وبأنه لا يمكن رؤيتك في هذه الدنيا، فإن الإنسان لا يمكن له رؤية الأدنى من تجليك، ولا يتحمل قليلا من ضياء عرشك، فكيف يتحمل رؤية ذاتك، فأنت رب الأرباب وملك الملوك، ولا نظير لك، ولا كفؤ، ولن يبقى أحد أمامك، فإني تائب عن السؤال، والحمد لك أولا وآخرا، ولا شريك لك[1].

وهذا حديث ضعَّفه عدد من المحدثين النقاد، إلا أن المعنى الأساسي ثابت بالقرآن الكريم، حيث أفاد القرآن الكريم أنه نزل على الطور التجلي القهري لله سبحانه،

---

(١) إسماعيل حقي بن مصطفى الحنفي، **تفسير روح البيان**، (تركيا: مطبع عثمانية، استانبول) ج١، ص٧٦٩.

فجعل الطور دكًّا، وموسى صعقًا، وهذا هو مضمون هذه الرواية، وبمنزلة تفسير معنى القرآن الكريم، فلا بأس بقبول معنى الرواية، وإن كان لا يرتقي إلى درجة القبول من حيث السند، أو نعتبرها على الأقل من الروايات الإسرائيلية، التي يجوز تحملها ما لم تصادم الشريعة الإسلامية.

الشأن الدفاعي للطور:

وهذا يدل على أن الطور لم يكن مورد تجلي الذات والصفات الإلهية؛ بل ظهر هناك شيء من نور عظمة العرش العظيم، مما أطلق عليه القرآن لفظ التجلي تجوزا في قوله "فلما تجلى ربه"، والذي يتبادر منه الذهن إلى تجلي الذات، مع أنه لم يكن تجلي الذات الإلهية، إلا أنه لم يكن هناك تدخل لأحد من الخلائق؛ تم التعبير عن تجلي العرش العظيم بتجلي الرب لكونه ظل التجلي الإلهي ومظهر شأنه وعظمته، ومثل هذه التجوزات تستسيغها البلاغة العربية، وتلائم السياق القرآني كل الملاءمة، ومن أجل ذلك إذا تم وصف ذلك التجلي الذي كان من تجليات الأفعال الإلهية ونزل تأديبا لموسى عليه السلام وكشفا عن خطورة سؤاله، بالتجلي الرباني الذي برز في حجاب العرش العظيم، مع أنه لم يكن تجليَ الصفة الإلهية؛ فضلا عن تجليات الذات الإلهية، كما ظهر تجلي الشجرة في صورة النار؛ فلم يكن بالإمكان نزول الذات بل نزول تجليه على ظرف مادي بلا حجاب، فإنه لو نزل تجلي الذات والصفات على الطور بلاحجاب لم يبق للطور أثر و لا خبر، وعلى كل حال فقد وُصف هذا التجلي في الرواية المذكورة بتجلي نور العرش العظيم، حيث ظهر نور العرش العظيم في حجاباته، ونزل العرش من مقره إلى السماء السادسة، وتبعه جماعات مختلفة من الجيش الرباني المكون من ملائكة السماوات السبع، والعجيب المثير للتفكير أنه ظهر نور خفيف للعرش العظيم، الذي أُنزل من فوق السماوات السبع والجنة والبحار فوق الجنة إلى السماء السادسة، وكان ظهور هذا النور الخفيف من وراء الحجابات وفي قدر ضئيل جدا ولكن الجبل لم

يكن ليتحمله، ولا كان موسي ليطيقه ويتمالك حسه وشعوره، فإنه لو نزل بلا حجاب لم يبق للطور أثر، وذهب في طي النسيان، مما أسفر عن أن هذا التجلي - سواء اعتبرناه تجلي العرش العظيم أو تجلي الصفة من وراء الحجاب- كان تجليا دفاعيا، ظهر بسبب السؤال الوارد في غير موضعه، ليرعب السائل، ويأتي بشيء من نور العرش العظيم، الذي له هذا الشأن الباهر، ليدرك السائل خطورة سؤاله وخطأه في ذلك، فإن ظهور التجلي بهذا الشأن أي بجيش وعسكر وعرض القوة العسكرية لا يفَسَّر إلا بهذا، والظاهر أن اللون الدفاعي للتجلي وتلونه في الألوان المختلفة وظهوره مع طوائف عديدة للعسكر المخيف المرعب كان عرضا عسكريا مخيفا، ظهر لتنبيه موسى، ولا شك أنه لم يكن حربا من الله، فمن ذا الذي يستطيع الحرب مع الله؟ وإنما كان مظهرا لقول الله تعالى: وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ(سورة المدثر: ٣١)، فكان عرضا قويا كعرض القاعدة العسكرية الكبيرة، ليدُل على أنه لا يستطيع أحد أن يقترب من العرش الرباني فضلا عن أن يتشرف برؤيته.

تعليم الآداب والأخلاق عن تجلي الطور:

الأمر الهام أن هذا التجلي كان يرمي إلى رفع الشأن الموسوي الرفيع إلى مكان أكثر علوا ورفعة، والكشف في قلب موسى عن الأماكن الربانية الخفية، من خلال إراءته الجلال الرباني والقدرة الإلهية، وتعليمه بعض الآداب الفاضلة، التي من ضمنها تعليمه أن سؤال رؤية الله تعالى في هذه الدنيا المادية – فضلا عن رؤيته- أبعد شيء عن مكانة تقدس الجناب الإلهي والآداب المرعية في شأنه وأمر لا يليق بالمقربين إلى الله.

مما يوضح أن موسى بريء، وسؤاله بريء، ونيته أيضا بريئة، لكن العالم المادي لا يليق بأن يظهر فيه هذا السؤال الطاهر؛ بل محل هذا السؤال هو العالم الأخروي ثم عالم الجنة، الذي بلغ في الطهر والنقاء غايته، أو عالم فوق الجنة، مما سمي بعالم "يوم مزيد"، اختص برؤية الله تعالى، حيث كل من حضره بالغ غايته في اللطافة والنزاهة واللطف

والنقاء، ومتقرب إلى الله بدرجاته المتفاوتة، فكان ذلك مناسبة طيبة لهذا السؤال، ولم يتجرأ ثَمَّ أحد على تقديم هذا السؤال بدوره، بل يعطي رب العالمين أهل الجنة حرية في عرض ما في قلوبهم من رأي وأمنية، قائلا: سلوا ما تشاؤون، فكأن الله تعالى يعد بإنجاز كل موعود سابقا، أو في تعبير آخر: تقتضي المشيئة الإلهية بدورها تقديم هذا السؤال وإنجاز هذا المطلوب، فكان فرصة طيبة لسؤال "أرني"، أما الدنيا المادية التي اكفهرَّ جوها في الحجب المادية الكثيفة ووصفها الله تعالى بـ"دنيئة" و"ملعونة"، فلا يليق بأهل الله وخاصته أن يقدموا في هذه الدنيا الملوثة هذا السؤال البريء، وبدون إذن إلهي، فلم يكن عتاب البارئ سبحانه موجَّهًا إلى السؤال بنفسه ولا ذات موسى السائل؛ بل إلى عدم مراعاة المناسبة الصحيحة، وكان أفضل طريقة لبيان مراعاة المناسبة أن يتم إظهار مبادئ القوة والشوكة الربانية إشعارًا بأن هذه الدنيا لا تستطيع تجلي نور العرش العظيم والملائكة فضلا عن تجلي الذات الإلهية، فعرفه موسى جيدا من خلال مظاهر العرض العسكري الهائل، ثم تاب متضرعًا إلى الله قائلا: تبت إليك من تبعة سؤالي وآمنت بأنه لا يمكن رؤيتك في هذه الدنيا.

إن الله تعالى يتولى بدوره تربية الأنبياء والرسل عليهم السلام، ومن شأن التربية السليمة أن تشمل كلا من الرفق والشدة، والغلظة والرخوة؛ ولكن لا يفارقها اللطف والعناية، فهذه الصورة من التربية وإن كانت قهرية في الظاهر قائمة على اللطف والكرم في الباطن.

وعلى كل فالسطور المذكورة تؤكد على أن هذا اللون من التجلي كان يحمل طبيعة الدفاع وكشف الحقائق، الذي تمظهر في صورة الجيش الغاضب المنتقم، الرامي إلى تربية موسى ورفع درجته عن طريق إجلاء الشوكة والسطوة، والرعب والدهشة.

اللون القهري للشريعة الموسوية:

ومثله كمثل أستاذ، نظر إلى تلميذ له قصَّر في الواجبات نظرة غاضبة، ولم يضربه، ومن هنا فقد حملت الشريعة التي أُعْطِيَتْها موسى بعد هذا التجلي صبغة

الشدة والغلظة، والتي كانت صبغة دفاعية تتلائم وطبيعة أمة موسى، وتظهر بين الفينة والأخرى، حيث إن ارتكب القوم سيئةً في السر وظلمة الليل يُوجد خبرها مكتوبا على الأبواب صباحًا، وإن طغى القوم وأعرضوا عن الطاعة رَفَعَ الله جبلَ الطور على رؤوسهم كأنه ظلة مهدِّدًا: خذوا ما آتيناكم بقوة وإلا ندهسكم بالجبل، اشتغل بنوإسرائيل بعبادة العجل فأمر بقتل بعضهم بعضا، وأعرض القوم عن الإيمان بموسى والتوراة حتى يروا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وقضت عليهم، وبدّل القوم كلمة الحطة إلى كلمة الحنطة فسلط الله عليهم الطاعون، وأبى القوم الجهاد فتركهم يتيهون في الميدان أربعين سنةً وما إليها.

فتجلي الطور لما حمل الصبغة الجلالية أعطى بني إسرائيل الشريعة الجلالية، التي تضمَّنت أحكاما شديدة، ومبادئ دفاعية، مما يعكس أن هذا التجلي هو تجلٍّ دفاعي وجلالي، حيث عذَّب كل من قام بعملٍ يخالف الإسلام، فعامل برفق من سمع وأطاع، وعامل بشدة ما أبى وأعرض.

الحاصل أن سؤال "أرني" سبب نزول التجلي التأديبي، المشتمل على كثير من مظاهر الجلال والعظمة، وهي غاية في الهيبة والرعب، والذعر والفزع، ودفاع عسكري، كأن جيشا جرارا يرعب الأعداء، وينازلهم إلى الميدان، ويدفعهم إلى الرجوع والفرار.

الآثار الدفاعية في تجلي الطور:

إن الأحوال التشريعية والتكوينية المذكورة للتجلي وآثاره توضح أن تجلي الطور كان يحمل شأنا دفاعيًّا، حيث دافع عن الشريعة، وأدَّب بالقوة والقهر كل من أبى وعصى، فقد سأل موسى ربه عن رؤيته، وكان هذا السؤال صدر في غير مناسبة طيبة، فنزل التجلي الرهيب على هذا السؤال، وملأ الطورَ رعبًا وفزعًا، وطار الجبل شعاعا، وذهب شعور موسى وعقله، حتى لم يستطع النهوض في موضعه، وخر مغشيا عليه، مع

أن موسى كان رسولا مرضيا لدى الله رب العالمين، وكان سؤاله طاهرا بريئا، يحتضن أمواجا من الحب والشفقة، إلا أنه كان خلاف المصلحة الربانية، لكون الدنيا لا تحتمل رؤية الله سبحانه، فجاء التجلي الرهيب الذي لم يترك موسى إلا مغشيا عليه، كما قال تعالى: "فخر موسى صعقا"، وكأنَّ الطور رغب بلسان حاله في رؤية الله تعالى، وكان الجبل لا يطيق ذاك، فنزل التجلي ليفنده ويجعله دكًّا دكًّا، فبقي كومةٌ من رماد ورمل، فلم يستقرَّ مكانه فضلا أن يكون مستقراً للتجلي، كما هو واضح من قوله تعالى: فإن استقر مكانه، إلا أنه لم يُحرم آثار التجلي؛ بل صار مقدَّسا ومُزارًا للخلائق، حتى أشرق وجه موسى لدرجة أن الناس لا يطيقون رؤيته، كما جاء في روايات بعض السلف.

وهذا البحث يسفر عن أنه لما ظهر الشأن الجلالي لتجلي الطور في موكب جيش عظيم وعرض عسكري رهيب ظهرت آثاره في مورد التجلي، فإن الظرف لا يخلو من آثار المظروف، إذا ملِئت الجرة بالماء البارد، بردت الجرة بنفسها، وإن اشتعلت نار في الموقد، اتقد الموقد بدوره، وهكذا إذا نزل تجلي الجلال على الطور تأثر الطور به، وسرى فيه اللون الجلالي والدفاعي، كما يظهر من شؤونه وأحواله، ومن ثم جعل الله الطور مركزا دفاعيا للإسلام، بالنظر إلى الشان الدفاعي الذي يحمله، فالطور مطبوع على شأن الجلال والدفاع، ليواجه بقوة كل من يتصدى للشريعة الإسلامية، ويحول دون انتشاره في العالم، فيرد عليه الطور ردا قويا كمركز دفاعي للإسلام، فظل الطور مركزا دفاعيا يعمل في مجال الدفاع عن الإسلام، وسيكون الطور -كما نص به الحديث- مركزًا آمنًا للفتنة العظيمة: فتنة ياجوج وماجوج، التي ستخرج قرب القيامة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ومعقلهم من ياجوج وماجوج الطور"[1].

---

(١) أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، **مصنف ابن أبي شيبة**، (الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٩م)، رقم الحديث: ١٩٤٤٧

المركز الدفاعي للإسلام: الطور:

وإذا خرجت فتنة الدجال العظيمة كان الطور معقلا منيعا للإسلام والمسلمين، يأمنون فيه ويتحصنون، وهذه الرواية تؤكد من جانب على مقاتلة المسلمين كلا من ياجوج وماجوج والدجال المسيح الأعور، وهما من أعظم الحروب التي سيخوضها المسلمون في آخر الدهر، مما يسمى بالملحمة الكبرى، كما يؤكد على ثبوت المعقل الدفاعي والمركز العسكري، وهو الطور، فمن هنا يقوم المسلمون بمقاتلة الأعداء، فتجلي الطور لما كان دفاعيا سرى هذا المعنى في محله، وصار الطور مركزا دفاعيا للإسلام على الصعيد العالمي كما ناسب طبيعته، فكما أن تجلي الكعبة المقدسة كان متحليا بالجمال الإلهي وارتبط بها كثير من مظاهر العشق والجذابية، حيث صارت دار المحبوب ومركزا للعبادة والأمن، ونزل عليه تجلي اسم الجميل، وكما كان تجلي المسجد الأقصى متحليا بجلال السياسة والشوكة، فظهر منه الشؤون السياسية، وصار المسجد الأقصى مركزا للعظمة؛ فيمكن القول بأن المسجد الأقصى قد نزل عليه تجلي "الدافع المانع"، وصبغه بصبغة الدفع والمنع، فيتضح أن دين الإسلام العالمي الجامع لكل من الدين والدولة والقوة والمنعة كان يهدف إلى ثلاثة أهداف عظيمة: العبادة والسياسة والعسكرية، فقامت حاجة إلى ثلاثة مراكز عالمية تناسب الأهداف، وكانت مقررة منذ الأزل في علم الله تعالى، وهي مكة المكرمة والقدس الشريف وطور سيناء، فنزلت على مصادر الفيض الثلاثة: مكة والقدس والطور التجليات الربانية الجمالية والجلالية والدفاعية المناسبة لطبيعة حال المراكز الثلاثة، فصارت موارد تجليات اسم الجميل واسم الملك الجليل واسم المانع الدافع، وعادت مراكز عالمية شاملة، فكان أحدها مركزا دينيا، وثانيها مركزا سياسيا، وثالثها مركزا عسكريا.

ويدل ذلك بكل وضوح وجلاء على أن المسلمين إذا أهملوا في يوم من الأيام هذه المراكز الشرعية وما تقتضيه من مطالب فقدوا المركزية العالمية للدين الإسلامي، ويتحتَّم

عليهم الرجوع إلى المراكز الإسلامية الثلاثة إما اليوم أو في المستقبل بعد ما نالوه من متاعب الذل والانكسار، فإذن سيقومون بالإصغاء إلى ما تتطلبه المراكز الثلاثة.

وعلى كل فقد اتضح الفرق بين المراكز الثلاثة من خلال الفرق بين التجليات المختلفة الواردة عليها، كما اتضح بذكر مقتضيات التجليات آثارها ولوازمها، المرتبطة بالمراكز، وهي تتمثل في العبادة والسياسة والعسكرية.

وإذا أمعنَّا النظر توصَّلنا إلى أن التفاوت الرتبي بين الأماكن الثلاثة والمراكز الإسلامية نشأ عن تفاوت سمات بُناتها الطاهرين، ففاض على ألسنة بُناتها دعوات صالحة تناسب طبيعة المركز ونوعيتها، كما أذكرها في السطور القادمة.

الفرق بين مصادر الفيض الثلاثة من حيث التفاوت الرتبي لبناتها الكرام:

إن تفاوت آثار المراكز الثلاثة في العبادة والسياسة والعسكرية ظهر باختلاف طبائع المراكز وما ورد عليها من تجليات ربانية، فكذلك ظهر فرق بين الأماكن بالنظر إلى اختلاف البُناة وسماتهم وطبائعهم، وهذا شيء واقعي، فإن الباني ينعكس أثره فيما يبنيه.

واختلاف الباني أثَّر في الكعبة والمسجد الأقصى، حيث يُنسبان إلى بشر من البشر، فلم يكن دخلٌ إنسانيٌ في بناء الطور، أما الكعبة والمسجد الأقصى فعملت يد إنسانية في مجال بنائهما وعمارتهما، وهذا الاختلاف من حيث اختلاف الباني شيء يطابق الواقع وحقيقة المراكز.

أثر الباني في البناء:

فمن الأصول المقررة البديهية أنه يظهر أثر الباني في البناء، وأثر الصانع في المصنوع، وأثر العامر في المعمور، فإن الباني يودع البناءَ أفكاره وعواطفه وأهدافه، فيأتي البناءُ مكمِّلا لعزائمه ونياته، وفي تعبير آخر: إن الباني يُظهر نفسَه ومحاسنه في بنائه وأعماله، فإن كان ظاهر البناء هو الحجر والآجر، فباطنه مظهر الكيفية القلبية للباني، فيظهر من البناء تلك الآثار التي يضمرها قلب الباني.

وأذكر على سبيل المثال أن رسول الله ﷺ بنى مسجدًا بالقباء في طريقه إلى المدينة، (وهو أول مسجد في الإسلام) فقال فيه القرآن الكريم: **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** (سورة التوبة: ١٠٨).

فقام أساسه في الظاهر على الحجر والآجر؛ إلا أن القرآن الكريم يذكر أن أساسه قائم على التقوى والطهارة والإخلاص، وما إليها من المعاني الطيبة التي يجيش بها قلب الباني، فلم يظهر منه إلا التقوى والقداسة من البداية إلى يومنا هذا، وانضم في موكبه آلاف من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار، وفي جهة أخرى إن المسجد الذي أسسه المنافقون شهد فيه القرآن الكريم: **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** (سورة التوبة: ١٠٧).

فكان هذا المسجد مصنوعا بظاهره من الحجر والآجر إلا أن طينته كانت معجونة بالنفاق والشقاق والكفر والتفريق، التي كانت تتفجر بها قلوب بناتها المفسدين، فلو بقي هذا المسجد لما صدر عنه إلا الكفر والنفاق وآثارهما الخبيثة، ولو اجتمع فيه طائفة من الناس لكانوا شر خلق الله تعالى في الأرض، ولم يكونوا إلا الكفار والأشرار والماكرين والمنافقين، فقامت حاجة إلى استئصال شأوه، والقضاء عليه بتاتا، بينما تشرَّف مسجد قباء بعبادة طاهرة، ومازال يكتظُّ بالمصلين والعابدين والراكعين والساجدين.

فتأثير نيات الباني وعواطفه واتجاهاته وميوله فيما يبنيه من مبانٍ وعمارات وأساسها وأجزائها أصل طبيعي معقول.

دعوات باني الكعبة وآثارها:

وإذا نظرنا إلى الكعبة والمسجد الأقصى في ضوء هذا الأصل المعقول الطبيعي توصلنا إلى حقائق تالية:

إن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة، وببركة يده ظهر مبنى جذاب للكعبة على الصعيد الأرضي، بينما قام سليمان عليه السلام ببناء المسجد الأقصى، فظهر في العالم بشكله الجاذب، وكانت قلوب البانيَيْنِ فائضة بمعاني الطهر والنقاء والإخلاص والحكومة، فالدعوات التي دَعَوَا بها اللهَ سبحانه فيما يتعلق ببناء الكعبة والمسجد الأقصى كانت تمثل النيات الطاهرة والعزائم الطيبة لهما، مما أسفر عن تفاوت في خصائص البيتين وميزاتهما، وفق تفاوت طبائع البانيَيْنِ، فصار أحدهما –وهي الكعبة الشريفة– مركزا للعبادة، وثانيهما مركزا للسياسة والشوكة.

فجاء في دعاء إبراهيم وإسماعيل كبانٍ للكعبة: **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (*) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (*) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (سورة البقرة: ١٢٧-١٢٩).

وحاصل هذه الدعوات كلها يعكس مدى حرص إبراهيم على العبادة وطلب الروحانية ومكارم الأخلاق ونافع العلوم لذريته، وهذه الأشياء هي العنصر الأول والأخير للعبادة، فحسب الأصول المقررة عاد من اللازم أن تترسخ في البيت العتيق معاني مركزية العبادة والروحانية، فقد تحققت هذه المعاني في البيت العتيق وترسَّخت، ونفذَتْ إلى كل جزء منه، حتى إلى ما حوله من البقاع القريبة والبعيدة، كما سيأتي في السطور القادمة، كما قال الشاعر الفارسي: "إن تجليات الكعبة مازالت مشرقة وهاجة، وهذا دليل إخلاص إبراهيم عليه السلام".

دعاء باني المسجد الأقصى:

ودعا كذلك داود الذي بنى المسجد الأقصى وحكم دولة عظيمة، وأكمله ابنه سليمان عليه السلام الذي أوتي ملكا لم يؤت أحد مثلَه لا قبله ولا بعده، ثم احتفل

بنائه، وذبح المأكول من الحيوانات وأقام مأدبةً كبيرة حضرها بنو إسرائيل كلهم، ففرح الله سبحانه به، و قال: يا سليمان! أنت مسرور اليوم ببناء بيتي، فسل ما تشاء، تُعْطَه، فرفع يده للدعاء وقال: "أسألك ثلاث خصال: حكما يصادف حكمك، وملكا لاينبغي لأحد من بعدي، ومن أتى هذا البيت، لايريد إلا الصلاة، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه"[1].

وحاصل الدعاء هو سؤال الحكم الديني والملك العادل العالمي والسياسة الرشيدة الشاملة، التي تعم كلا من الجن والبشر والوحوش والطيور، إلا أنه يجب أن تكون مخلصة، نزيهة عن المعاصي، دينية تكفر عن السيئات، فلا تكون شوكة دنيوية، وقوة باطلة، وإنما هي قوة دينية، تحمي الدين، وتحرس الإيمان، وتقوي الحصن الإسلامي، فبناء على الأصل المقرر: أن أثر الباني يظهر في المبنى سرى في المسجد الأقصى أثر دعوة بانيه، وقامت في تلك المنطقة أسس متينة للقوة والسياسة، حتى صار المسجد الأقصى في العهد الإسلامي مركزا سياسيا للإسلام، حسب ما تقتضيه طبيعته، وتميَّز القدس بالاستعداد الكامل للهجوم والدفاع، وصار مركزا سياسيا منذ اليوم الأول، ثم هذه الخصيصة للمسجد الأقصى المقدس: الملوكية العادلة انتشرت فيما جاورها من البلدان القريبة والبعيدة؛ حتى صارت بلاد الشام كلها دولة الملاحم الدينية والسياسة الشرعية.

فكل من الكعبة المقدسة والمسجد الأقصى إضافةً إلى ما أودع فيهما من آثار الدين والدولة تحلى بهذه الاستعدادات المتميزة؛ التي سرت فيهما ببركة بُناتِهما، إلا أن الطور لم يتشرف بهذا النوع من العوامل الظاهرية والإنسانية، فإن الطور جبلٌ فطرةً، ولم يقم ببنائه أحد، فلم يقم موسى بالاحتفال به والافتتاح وإقامة مأدبة، ولما دعا اللهَ ربَّه بعد نزول التجلي دعا دعاءً يليق بشأن الطور، كما سيأتي ذكره.

(١) علي المتقي الهندي، **كنز العمال**، ج١٢، ص٥١٥، رقم الحديث:٣٥٠٦٨ .

وعلى كل فلما قام الوضع الأساسي والصنع الإلهي لكل من الكعبة والمسجد الأقصى على التفريق بينهما في الدين والدولة، والديانة والسياسة، ظهر ذلك في دعوات الأنبياء الذين تولوا بناءهما.

فقد تم بناء الكعبة المقدسة في ظروف الفقر والمسكنة وعوز الوسائل والإمكانيات، ومع الاستغناء التام، والروحانية الكاملة، حيث شارك نبيان جليلان: إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بناء الكعبة المقدسة بأسلوب الفقر والزهد في الدنيا، فرفع قواعد البيت، بينما صحبت بناءَ المسجد الأقصى معاني السياسة والقهر، وكثرة الوسائل والإمكانيات، وشوكة الحكومة وسطوة السلطنة، حيث أمر سليمان عليه السلام بالجن فرفعوا مبناه، وأنفقوا عليه كثيرا من الجواهر والدرر واللآلي التي تقدر بالمليارات، فكان أساس بناء الكعبة هو العبادة والأمن، الَّذينِ ظهرا في صورة الفقر والزهد في الدنيا، وهما مادة الإيمان، وثمرته هي عبادة الله وحده، كما جاء في القرآن الكريم: رب اجعل هذا بلدا آمنا، وقام أساس المسجد الأقصى على الشوكة الحكومية، وهي مادة الملوكية، كما يظهر من قول الله تعالى: **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ** (سورة ص:٣٥).

فكان موضوع الدعاء لدى بناء الكعبة هو الدين والديانة، وموضوع الدعاء لدى بناء المسجد الأقصى هو السياسة الدينية والغلبة الإسلامية، وكان باني الكعبة المقدسة مثالا حيا للزهد والقناعة، بينما كان باني المسجد الأقصى شخصية ملكية، تشمل كلا من الدين والسياسة والزهد والقناعة، وقد أشار الحديث النبوي إلى ما لأرض الحجاز والشام من خصائص، مما أوجز هذه الحقائق المفصلة في صفحات كثيرة بكلمتين جامعتين، حيث قال رسول الله ﷺ: الخلافة بالمدينة، والملك بالشام"[1].

---

(١) محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**(بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م)، رقم الحديث: ٤٤٤٠.

والظاهر أن الخلافة هي نيابة عن الله تعالى، يتخلق فيها العبد بأخلاق الله تعالى، ويضع في الاعتبار السلطة الربانية، ولا يتأتى ذلك إلا باجتناب سلطته والانقطاع إلى العبودية التامة، وهي العبادة، فالخلافة لاتتضمن السلطة الرسمية، والشوكة الظاهرية؛ وإنما تتحلى بالزهد والقناعة، وإطاعة الله تعالى، مما يؤدي إلى سكينة في القلب، وطمأنينة في الضمير، بينما يتحلى الملك بالشوكة والغلبة والسطوة والنشوة الحكومية، ولو قامت على الديانة، مما يؤدي إلى النزاع والصدام، والحرب.

مميزات الكعبة والمسجد الأقصى في شخصية علي ومعاوية رضي الله عنهما:

ومن هنا نرى أن مميزات المناطق وخصائصها كان لها هي الأخرى تأثير كبير في المشاجرات بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، فغلب الجوُّ الديني على سيدنا علي ومنطقته، بينما كان الجو السياسي هو الغالب على سيدنا معاوية وبلاده، وإن كانت سياسته دينية؛ ولكن هذه السياسة قد ارتبطت به الاتجاهات الذاتية للملك وإدارة البلاد، كما سرت فيها الخواص الأساسية للمراكز، فإن جوَّ الشام قد صُبغَ منذ الأزل بالصبغة السياسية والشوكة الحكومية، بينما الحجاز وما نيط به من تبعات يقتضي أساسا الديانة والقناعة والزهد والكرم، ومن هنا ظهر للأميرين في المناطق المختلفة أعمال، كانت من مقتضيات بلادهما، حيث وصف اللسان النبوي سيدنا عليا بـ"الهادي والمهدي"، بينما وصف معاويةَ –إن صح الخبر- بكسرى العرب[1]، إلا أن ربط الكسروية بالعرب إشارةٌ إلى ما لهذا الكسرى من أصالة عربية، وعراقة دينية، وشرف الصحبة العظيم حتى لا يتخذه الناس ذريعةً إلى سب الصحابي وشتمه، ومن هنا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاوية بمثل مادعا لعلي، ووردت في هذا أحاديث كثيرة، ويمكن أن نقول بتعبير

(١) ليس ذاك حديثا نبويا؛ وإنما هي مقولة أمير المؤمنين عمر الفاروق، وقد أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: كان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب.(ابن عساكر، **تاريخ دمشق**،(بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م)، ج٥٩، ص١١٤.

آخر: إن النسبة الإبراهيمية هي التي كانت تعمل في أمير الحجاز، والنسبة السليمانية تعمل في أمير الشام، فلا بد من ظهور فرق بين المراتب، إلا أنه لا يجوز سب أحد منهما وشتمه أو لعنه وطعنه في الدين، أو سوء الظن لاتصافهما بنسبة الأنبياء، غاية ما في الباب أن نعتبر اختلاف الموقفين قائما على الصواب والخطأ الاجتهادي.

دولة الشام: دولة الملك والشوكة:

ورد في حديث رواه عبد الله بن قيس يقول: عبد الله بن قيس سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : رأيت عمودا من نور خرج من تحت وسادتي حتى استقر بالشام"[1].

فالشوكة الملكية التي تتمتع بها دولة الشام هي التي تمثلت عمودًا من نور خرج من تحت رأس الرسول - صلى الله عليه وسلم- إلى الشام واستقر بها، فصار الحجاز دولة الأمن والإيمان، وصارت الشام مركز السياسة والشوكة، ووُجِد مركزان، أحدهما للدين وثانيهما للدولة.

واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظ العمود للسياسة، مما يوضح أن العمود كما يكون شيئا صلبا قويا، ويستطيع رفع الأثقال الضخمة والمباني العظيمة فوق رأسه، كذلك تأتي السياسة عمودا للقوى المادية، حيث ترفع فوق رأسها كثيرا من القوانين والدول، وتُنَفِّذُها بلا تدخل أجنبي، والظاهر أن بناء الدين الاجتماعي لايقوم إلا على مثل هذا النوع من السياسة والتنظيم والإدارة والقهر والغلبة، فصار للدين الإسلامي الشامل هذا العمود السياسي، وجاء الإسلام ليشمل كلا من الدين والدولة، ويتمثل في صورة الملك لكونه جامعا للطف التدين وشوكة السياسة.

---

(١) سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، **مسند الشاميين**،(بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٤م) ، رقم الحديث: ١٥٦٦.

فالحاصل أن دينا عالميا يشمل جميع الأقوام والملل - كالإسلام- يحتاج إلى تنظيم دقيق وإدارة لائقة، تتضمن السياسة والغلبة والاستيلاء، فزوال سياسة هذا الدين يعني زوال هذا الدين بدوره.

الدين الإسلامي الجامع لخصائص الكعبة والمسجد الأقصى:

وعلى كل فقد ظهر شأنان (الشأن الديني والشأن السياسي) للدولتين: دولة الحجاز ودولة الشام، وهما من مقتضيات وضعهما الإلهي ونوعية التجليات المتعلقة بهما، ودعواتِ الأنبياء البُناةِ والأحكامِ التشريعية، فليست هذه المراتب وليدة العصر الحديث، بحيث قَرَّرت مؤسسةٌ أو مجتمعٌ بشريٌ هذه المكانات والخصائص؛ بل صدرت عن فطرتهما ومتطلباتها، وهي ثمرة التجليات النازلة عليهما، إلا أن ظهور هذه المراتب والشؤون وازدهارها كان ينتظر وقتا مناسبا، ألا وهو طلوع فجر الإسلام، ذلك الدين الحنيف الذي يشمل كلا من الدين والدولة، فالمراتب والخصائص التي تميزت بهما الدولتان منذ الأزل ظهرت بشكل تدريجي، مما أبلغ الدين إلى القوة السياسية، ومثله كمثل الصبي الذي أُودِعتْ فطرتُه عددًا من المؤهلات عند الولادة؛ بمافيها التعقل والبصيرة والعمل والعاطفة والحماسة، والفراسة والكياسة، والعزيمة والهمة، والشهوة والغضب وما إليها من الصفات؛ إلا أنها تظهر في أيام شبابه، وكذلك الشأن الديني والشأن السياسي الذين أودعا في طبيعة البلدين منذ الخليقة بخصائصهما ومميزاتهما ؛ إلا أن عصر شبابهما هو عصر نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي كان من المقرر فيه ظهور دين عالمي، يحتاج إلى مركزين للدين والسياسة، ولا يحتاج إليهما إلا بعد أن قام على قدم وساق، وأخذ من الدين والسياسة بنصيب وافر، مما يقتضي أن يكون لكل منهما مركز مستقل.

فجاء هذا الاقتضاء الطبيعي بحيث أن الجو المكي كان يحمل لونا دينيا منذ الأبد، ويفقد القهر والشوكة، بينما كان الجو الشامي يشتمل على الملك وأبهته وشوكته، ويفقد الدينَ الحقيقي، حتى جاء الإسلام، وناط بالمركزين مسؤوليات وتبعات تتلاءم وطبيعتهما،

فصار المركزان تابعين للإسلام، ليظهر الدين الإسلامي شاملا لكل من الدين والدنيا والعبادة والملك، ولا يحدث صراع بين الدين والدولة، كما ورد في الحديث اجتماع الدين والدولة، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الملك والدين توأمان"[1].

فإنه لو انفصل الدين عن الدولة، لأدى إلى زوال كليهما أو فقدان خصائصهما إن بقيا.

وفي الحديث الآخر أبدى رسول الله ﷺ شمول الدين الإسلامي وخصائصه الجامعة، فقال: بعثت مرحمة وملحمة"[2].

والمعلوم أن المرحمة إشارة واضحة إلى الدين، بينما تشير كلمة الملحمة إلى الدولة والسياسة الحربية، وقد ارتبط كل من الدين والسياسة بذات النبي صلى الله عليه وسلم أوثق الارتباط، كما أوضح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في حديث آخر بقوله: "أنا الضحوك القتال"[3].

فالحديث الأول يشير إلى أن الدين الإسلامي جاء شاملا للدين والدولة، ومرتبطا بالقوتين المتضادتين: الملك والدين، بينما أظهر الحديثان الآخران اتصال شخصية النبي الكريم صلى الله عليه وسلم اتصالًا قويًا بكل من الدين والدولة، فإن شخصية النبي الكريم هي شخصية جامعة وأسوة حسنة، ونموذج حي وتفسير واضح للقرآن الكريم والدين الإسلامي، فاتصافها بهذين الوصفين يدل دلالة واضحة على امتزاج الدين والدولة في الإسلام.

---

(١) العجلوني،إسماعيل بن محمد الجراحي، **كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت، د.ط)، رقم الحديث: ٢٣٢٩، قال الصغاني: موضوع.

(٢) علي بن حسام الدين المتقي الهندي، **كنز العمال**، في سنن الأقوال والأفعال، رقم الحديث ١٠٥٠٠.

(٣) لم أعثر له على مصدر.

طور سيناء السعيد بالنسبة الموسوية:

ولكن الطور يختلف عن الكعبة والمسجد الأقصى؛ حيث لا يحمل الوضع المخصوص كالكعبة والمسجد الأقصى، وليس لشخصية مقدسة دخل في وضعه، ليكون سعيدا بنسبة الواضع والباني؛ بل هو موضوع بالوضع الإلهي العام كسائر الجبال، التي لاتحمل نوعا من أسباب القداسة والعوامل الإنسانية، التي حظي بها كل من الكعبة والمسجد الأقصى، نعم! كان للطور أن يكون مورد التجلي بفضل البركات الموسوية، فسيدنا موسى عليه السلام هو السبب الظاهري لقداسة وبركة الطور، فكان موسى عليه السلام قد تشرف بالكلام مع الله رب العالمين، ونزول التجلي على الجبل.

أما بالنسبة إلى التفكير في اللون الدفاعي للطور، فيجب أن نتدبر دعاء موسى عليه السلام، الذي دعا بعد ما أفاق من صعقته وتبين له خطؤه، فكانت دعوته تشتمل على تنزيه الله تعالى مما لا يناسبه، وعلى التوبة والاستغفار، وحقيقة التوبة هي الندم، فندم موسى عليه السلام على أنه قدَّم في هذه الدنيا سؤالا، لا ينبغي أن يوجَّه في هذه الدار، فكان يعزم على تجنب مثل هذه الأمور في قادم الأيام، وصيانة نفسه عما يترتب عليه من ضرر وخطر، فقال متضرعا إلى الله سبحانه: **فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** (سورة الأعراف: ١٤٣).

ولا يخفى أن هذا الدعاء يحتوي أساسا على حفظ النفس والدفاع عن النفس، والظاهر أن المحافظ على النفس هو الذي يستطيع أن يكون محافظا على الخلق، أما الذي عجز عن حفظ نفسه فهو أعجز من حفظ غيره فضلا أن يكون محافظا على الشعب والخلائق، فالدعاء حمل لونا دفاعيا، مما أسفر عن أن شأن التجلي الوارد على الطور هو شأن دفاعي، ومن ثم طرأ على موسى كيفيةٌ تطلبت دعاء الدفاع وحفظ النفس، فموضوع دعاء موسى لدى نزول التجلي هو الدفاع عن النفس وحفظ النفس، مما أثر في الطور، فصار

مركزا دفاعيا للإسلام، وكان في مركزيته أثر كبير لدعاء موسى إضافة إلى بركة التجلي الوارد عليه، وبذلك كان مركزا متميزا من هذه الناحية.

فإن كانت الكعبة المقدسة مركزا للعبادة، والمسجد الأقصى مركزا للسياسة، فكان الطور المقدس مركزا للدفاع والعسكرية، كما أوضحته سابقا، فكأن القدر الإلهي قدَّر للأماكن المقدسة منذ الأزل أن تكون مراكز دينية، متميزة بأمور تختص بها، وتناسب طبيعتها وجوهرها، وجاء الإسلام ليظهر الشأن المركزي للأماكن الثلاثة، فجعلها مراكز شؤون تليق بها على الصعيد العالمي.

المراكز الثلاثة وما بين تجلياتها من تفاوت وتفاضل من حيث الحقيقة:

وبما أن التجليات الثلاثة الواردة على المراكز الثلاثة اختلفت مراتبها ونوعيتها بشكل واضح؛ مما أسفر عن ظهور الفرق والتفاوت في موارد التجليات وحيثيتها الشرعية والعرفية فصارت المراكز الثلاثة: الكعبة المقدسة والمسجد الأقصى والطور المقدس رغم اشتراكها في العظمة والبركة والقداسة الشرعية تختلف كثيراً من حيث الدرجات والمراتب والآثار والبركات، مما يشهد به تاريخها عبر التاريخ البشري.

أما الفرق الأول فهو قائم بين الكعبة الشريفة والمسجد الأقصى وبين الطور المقدس، حيث يفضُل كل من الكعبة والمسجد الأقصى الطورَ، فقد تيسر لهما من العظمة والقداسة ما لم يتيسر للطور.

والفرق الثاني قائم بين الكعبة وبين المسجد الأقصى، فإن المكانة العالية والعلياء الفاضلة والشرف الأمجد والعزة الخالدة التي حظيت بها الكعبة المقدسة لم يسعد بها المسجد الأقصى، وبذلك تكون الكعبة أفضل من جميع بقاع العالم، فالكعبة والمسجد الأقصى أفضل من الطور، بينما تكون الكعبة أفضل من المسجد الأقصى، فالكعبة أفضل على الإطلاق، وهذه الفضيلة الشاملة والخيرية المطلقة ظهرت في آثارها وبركاتها، مما أثر فيما يتعلق بها من أحكام وفروع شرعية.

وحتى يتبين ما بين المراكز وأحكامها وآثارها من تفاوت وفروق أتناول في السطور التالية بعض الحقائق الشرعية بوجه يكشف الستار عن الموضوع.

المقارنة بين الكعبة والمسجد الأقصى وبين الطور:

الكعبة والمسجد الأقصى:

قد ثبت بالنصوص الشرعية أن كلا من الكعبة والمسجد الأقصى ظلا مورد التجلي الإلهي ومخلوق بالوضع الإلهي الخاص، فكأن التجليات الربانية قد أودعت في فطرتها، فقداسَتُهما أصيلةٌ، وتعلقت بهما منذ وجودها، وستبقى مركوزة في طبيعتهما إلى آخر الأبد، مما يدل على أنه قد تمَّ نزول التجلي عليهما بشكل مستقل وبدون واسطة، ثم لم يتخذهما التجلي مستقرا له بشكل عارضي، أو ظروف خاصة وحوادث طارئة، ولا بسبب شخصية مقدسة، بحيث إذا زالت الأحوال الطارئة زالت التجليات.

فكل من الكعبة والمسجد الأقصى ظلا مورد التجلي الرباني في حين لم يكن للكون وجود محسوس، ولم تولد شخصية مقدسة، ولم تحدث حادثة تتعلق بالشخصيات المقدسة، فإن خلق الأرض بدأ بالكعبة، ثم انتشر في العالم كله، كما مر تفصيله سابقا، ثم بدأ خلق الأشياء الكونية، وبعد قرون لا يعلم مداها إلا الله خُلق آدم وحواء عليهما السلام، ثم حدثت أحداث ووقائع، تتصل بآدم وبنيه وشؤونهم، مما يدل على أن هذه البقعة المباركة انتشر منها الوجود في كل من الأرض والخلائق الأرضية، بما فيها الحيوان والإنسان والحوادث الأرضية، ثم انتشرت منها قداسة بعض الأماكن المقدسة، فكان التجلي الرباني هو الذي أعطى الكعبة الوجود، وفي تعبير آخر: كان التجلي الرباني مادة وجود الكعبة المقدسة بشكل تكويني، والظاهر أن مادة تخليق شيء ستبقى ما بقي ذلك الشيء، فإنه من المستحيل أن يبقى شيء ولا يبقى جوهره ومادته، فالتجلي الرباني سرى في الوجود سريانا لا يمكن فكاكه.

خلاصة الفرق بين الكعبة والمسجد الأقصى:

ومع ما بينهما من اشتراك في عدد من الفضائل وفضلهما على الطور، يأتي بينهما فرق كبير فيما يتعلق بخصائصهما ومراتبهما، مما يثبت فضل الكعبة على المسجد الأقصى، وذلك بالنظر في الأمور التالية:

١- إن للكعبة أولية مطلقة على جميع الأشياء الكونية، مما ليس للمسجد الأقصى، كما جاء في حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وهو دليل على فضلها على المسجد الأقصى.

٢- الكعبة المقدسة هي أول بيت لعبادة الله من الوجهة التشريعية؛ حيث نزل عليها التجلي الوجودي، فبدأ به الكون، حتى يكون المسجد الأقصى تابعا للكعبة بشكل تكويني، والظاهر أن الأصل مقدم على الفرع طبعا.

٣- الكعبة قبلة مستقلة من الأزل إلى الأبد؛ وليس للمسجد الأقصى هذه الخصيصة، فالمسجد الأقصى صار قبلةً لمدة ليست بطويلة، فالكعبة أصل المسجد الأقصى شرعا، والمسجد الأقصى فرع لها.

٤- ظلت الكعبة مركزا للعبادة العالمية الاجتماعية (الحج) منذ الأزل إلى الأبد، ولم يحظ المسجد الأقصى بهذا الشرف العظيم، فقد ثبت قيام جميع الأنبياء السالفين عليهم السلام بحج البيت، ولجوءهم إلى الحرم الآمن لدى نزول عذاب الله تعالى على الأمم، فثبت أن الكعبة مركز لجميع الأنبياء والرسل، ولم يثبت للقدس كونه مركزا للحج، و لا للأنبياء السابقين.

٥- إن الأجر المضاعف الذي يحصل في المسجد الحرام لا يحصل في المسجد الأقصى، فأجر العبادة في المسجد الحرام يضاعف إلى مائة ألف صلاة، وهذا القدر من الأجر لا يؤتى في المسجد الأقصى، فلا يساوي المسجد الأقصى المسجد الحرام من حيث الأجر ومضاعفة الثواب، مما يدل على فضل المسجد الحرام على المسجد الأقصى.

٦- جعلت الكعبة مركزا للعبادة، التي هي غاية خلق العالم، وجعل المسجد الأقصى مركزا للشوكة والسياسة، وهو تشكل وسيلة للعبادة، والظاهر أن الهدف أفضل من الوسائل طبعا، فيناسب أن يفضل محل العبادة على محل الوسيلة، وما إليها من أسباب فضل الكعبة على المسجد الأقصى.

وقد ذكرت بعض الأمثلة هنا للإيضاح، وإلا فإن ما ذكرته من أحوال الأماكن المقدسة وأوضاعها وخصائصها يدل –إن أعملنا التفكير والروية–على ما بينها من تفاوت وتفاضل وأسبابه.

وعلى كل فإذا ثبت أن هناك فرقا كبيرا حتى بين التجليين الواردين على الكعبة والمسجد الأقصى، ثبت طبعا أن بين المقامين فرقا كبيرا بالدرجة الأولى.

الاشتراك في الوضع الإلهي:

فأرجو أنه قد ثبت لدى الأفهام أن الكعبة كأنها هو التجلي، وكأن التجلي هي الكعبة، مما يعني أن التجلي لا يفارق الكعبة مادامت الكعبة، فإن ورود التجلي في الكعبة ليس لسبب عارض أو حالة طارئة، كما ذكرته سابقا؛ إلا أن الكعبة لما كانت أصلاً في وجود كل شيء كوني من الأرض والسماء وما يحدث فيهما من حوادث، بات من الضروري أن الوجود سيصدر عن الكعبة ما دام للشيء وجود، فالكعبة وتجليها الواهب للوجود أمر دائم، فإنه إن ذهبت الكعبة وتجليها فعن أي مصدر يخرج الوجود، وقد علمت أن التجلي هو مصدر الوجود، فمن الضروري أن يبقى التجلي إلى نهاية الكائنات كما كان منذ بدايته، وإذا فكرنا توصلنا إلى أن وضع المسجد الأقصى يشبه وضع الكعبة المقدسة، فقد استقر التجلي في المسجد الأقصى منذ الوضع الإلهي، في وقت لم يكن في الكون شخصيات أرضية ولا سماوية، ولا حوادث ولا وجود، فإن الحديث يبين أن الكعبة وضعت بالوضع الإلهي قبل خلق الكون بألفي عام، وجاء حديث أبي ذر الغفاري ليبين أن المسجد الأقصى وضع بالوضع الإلهي بعد الكعبة بأربعين سنة،

فالمسجد الأقصى -كالكعبة- عبارة عن الموضع الذي قام فيه المسجد لا عن عمارة المسجد، فلو ذهب بناء المسجد الأقصى لسبب من الأسباب لما ذهب معه وجود المسجد الأقصى وبركاته وخيراته، فإن المسجد الأقصى هو الجهة الفضائية، لا عمارته المكونة من الآجر والتراب والسماد، فكما أن الكعبة هي أول بيت لله في الكون كان المسجد الأقصى كذلك أول بيت لله تعالى، كما جاء في حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله! أي مسجد وضع أولا، قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، قلت: ثم أي؟ قال: ثم حيث أدركتك الصلاة فصل، فكلها مسجد[1].

وهذا يدل دلالة واضحة على أنه تم وضع المسجد الأقصى قبل خلق الأرض بألف وتسعمائة وستين عاما، فيتضح وضع كلا المسجدين قبل خلق الأرض بقرون، ولا ينطبق هذا على مباني المسجدين؛ بل على المكان المحدد في الفضاء، فإن المسافة الزمانية بين عمارة الكعبة وعمارة المسجد الأقصى أكثر من أربعين عاما بكثير، فقد صرحت الروايات بأن آدم هو أول من بنى الكعبة، ثم أتم بناءه إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام، في حين بنى سليمان عليه السلام المسجد الأقصى، وبين إسماعيل وسليمان مسافة قرون لا مسافة أربعين سنة فقط، فالمراد بمسافة الأربعين عاما الواردة في الحديث هو تعيين الوضع الفضائي لكل من الكعبة والمسجد الأقصى، والذي بني عليه كثير من العمارات والمباني في القرون المختلفة، فأولية وضع بيت الله التي ذكرها حديث أبي ذر رضي الله عنه تعني أولية الوضع الإلهي دون أولية الوضع البشري، فواضعه هو الرحمان دون الإنسان.

فالوضع الذي ذكره القرآن في قوله: إن أول بيت وضع للناس يراد نفسه في الوضع الوارد في الحديث، وهو الوضع الإلهي لا الوضع البشري، فلازم أن يراد بوضع

---

(١) أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، **مصنف عبد الرزاق**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣م)، رقم الحديث: ٥٩٢٥.

المسجد الأقصى الوضع الإلهي لا الوضع السليماني، والوضع الإلهي هو الوارد بعد وضع الكعبة بأربعين سنة، ولم يكن في ذلك الوقت بشر ومخلوق كوني فضلا عن أن يكون له وضع بشري، فشرف أولية الوضع الذي حظي به كل من الكعبة ثم المسجد الأقصى لم يحظ به غيرهما من المساجد والأمكنة في العالم، ولما قرر الله تعالى منذ الأزل كلا من الموضعين (الكعبة والمسجد الأقصى) ليكونا مركزين للعبادات ومسجدين تاريخيين(كما سمى حديث أبي ذر الوضع الإلهي للكعبة والمسجد الأقصى بالمسجد) اتضح جليا أن تجليا ربانيا خاصا أو لطفا إلهيا سرى في الموضعين منذ الأزل مما لم يتشرف به غير الكعبة والمسجد الأقصى، فلا نجانب الصواب إذا قلنا: إن مادة المسجد الأقصى هي التجلي الرباني كمادة الكعبة، وليست مادته هي الماء والتراب، كما يتضح أن التجلي الإلهي قد ورد واستقر في الموضعين بشكل مستقل، فاستقرار التجلي في الموضعين أزلي وأبدي، حيث يبقى إلى قيام الساعة، ويبقى المسجد الأقصى مسجدا إلى يوم القيامة، فأساس المسجدين هو الجهة في الفضاء، وليست الجهة الفضائية مما يزول ويذهب، ومن أجل جاء الأمر بشد الرحال إليهما وأداء الصلاة نحوهما جاء هذا الأمر مطلقا لا متقيدا بزمان دون زمان، فهو أمر لدين سيبقى إلى قيام الساعة، فيبقى هذا الأمر أيضا إلى يوم القيامة، وصدر هذا الأمر بناء على تجلياته، فستبقى هذه التجليات في هذه الأماكن مستقرة إلى يوم القيامة.

طور سينين:

وعلى العكس من جبل الطور، الذي عاد أيضا مورد التجلي الرباني كما ذكره القرآن الكريم، إلا أنه لم يبق شيئا دائما ومستمرا، بل كان لحالة خاصة وظروف طارئة، فنزل التجلي سريعا ثم غاب سريعا، سواء كان تجلي الطور أو شجرة الطور، مما يدل على أن التجلي لم يجعل الطورَ مستقرَّه المستقل، أما تجلي شجرة الطور فقد غاب بعد منح موسى النبوة وآيات النبوة، وأما تجلي الطور فقد ظهر بعد سؤال موسى ربه: رب أرني أنظر إليك، وأرى موسى شيئا خفيفا، واختفى سريعا، تاركًا آثار بركته وخيراته، ومن ثم

لم يبق مورد التجلي، أما الشجرة المباركة فلم يعد لها وجود، وأما جبل الطور فلم يبق لها هيئة أساسية، يستقر فيها التجلي، على عكس تجليات الكعبة والمسجد الأقصى، التي لم تنزل على حجرة وصخرة، بل على جهة خاصة في الفضاء، لها بقاء ودوام، فاستقر فيها التجلي.

الحاصل أن ظهور التجلي واستقراره في الكعبة والمسجد الأقصى ووروده على الطور ثم غيابه عاجلا كان مما يقتضيه طبائع الأماكن المقدسة وما تتصف به من لطافة وكثافة ووضع فطري، ومن هنا يثبت أن الكعبة والمسجد الأقصى أفضل من جبل الطور بكثير؛ حيث ظلا مورد التجلي بشكل مستقل، بينما خلا الطور عن التجلي، لكنه يحظي ببركات التجلي الغائب وآثاره، فصارت الكعبة والمسجد الأقصى مسجدين للخلائق، وبقى الطور مُزارا فحسب.

والسبب الأصيل أن التجلي لم يرتبط بالطور أو بشجرته، بل ورد عليه لسبب عارض، ثم ذهب، أما الكعبة والمسجد الأقصى فكان وجودهما بفضل التجلي الرباني، الذي سيبقى ما بقي الكعبة والمسجد الأقصى، فثبت أن الكعبة والمسجد الأقصى قد صُنِعا من التجلي، فلم يفارقهما التجلي منذ الأزل إلى فناء العالم اللهم إلا أن ذهبت الكعبة والمسجد الأقصى، وهذا محال، ولم يثبت أن الطور مصنوع من التجلي، حيث وجد الطور بالتجلي، وسيبقى ما دام يوجد التجلي، فلا معنى لبقاء التجلي واستقراره في الطور؛ بل ورد التجلي هناك لوقت خاص، وحالة خاصة، وإذا ذهب الوقت ذهب التجلي.

المثال الحسي على ذلك:

وأذكر له مثالا حسيا تقريبا إلى الأفهام، ومثله كمثل مصباح كهربائي، إذا أضاء أنار ما حوله من المناطق، إلا أن هذا النور ليس للمصباح ذاته؛ بل للتيار الكهربائي، الذي ورد على السلك الكهربائي الدقيق، وسيبقى ما دام السلك مرتبطا بالكهرباء، إذا ضغطنا

على الزر جاء التيار الكهربائي، وإذا رفعناه ذهب، فليس في ذات المصباح نور كهربائي، بحيث لا يفارقه بحال، فكذلك الطور كان كالمصباح الكهربائي، الذي ورد فيه تيار التجلي لسبب خاص، وإذا ذهب السبب ذهب التجلي مفارقا إياه، فورد على الطور ردا على سؤال موسى رب أرني أنظر إليك، وورد على الشجرة المباركة ليبْعَثَ موسى رسولًا ونبيًا إلى بني إسرائيل، ولما اكتمل الهدف ارتفع التجلي، فلم يكن التجلي راسخا في ذلك الموضع من قبل، ولم يبق مستقرا فيه من بعد، كما هو شأن المصباح الكهربائي.

وفرضت للكعبة الصلاة والحج، وبقي شد الرحلة للصلاة مستحبة إلى القبلة الموقتة(المسجد الأقصى)، بشرط أن تكون الصلاة هناك في اتجاه الكعبة، مما يوضح فرقا كبيرا بين الموضعين ومراتبهما.

أما الطور فلم يكن له تجلٍ لا قبله ولا بعده،ولم يجعله التجلي مستقرا له، ورد وذهب في آن واحد، بيد أنه ترك آثاره وبركاته، فصار مُزارا للخلائق، ولم يكن قبلة الأمم، لا على سبيل التوقيت ولا على سبيل الدوام، لا أزليا ولا أبديا، لا قبلة الصلاة ولا قبلة الحج، وهذا كما حدث لرسولنا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، حيث أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بصلاة النافلة احتراما لما كان هناك من آثار الأنبياء المبعثرة، مع أنها لم تكن قبلة لا في الماضي ولا في المستقبل، ومن هنا تمت مراعاة النسبة وبركة التجلي في الطور، حيث صار مُزارا لا قبلة، فإن القبلة تقتضي أن يبقى هناك تجلي ويستقر فيه، فمن شروط كون المكان قبلة كونه مستقر التجلي الرباني المستقل؛ فإن السجدة في الواقع تُوَجَّه إلى التجلي الإلهي، لا إلى مكان ومبنى، والظاهر أن التجلي لم يستقر في الطور والشجرة المباركة، بل ورد وذهب، فلم يصر قبلة، بل صار مُزارا للخلائق، ولم تكن هذه الزيارة واجبة ومستحبة؛ إلا أن زيارته تسبب الثواب وارتفاع الدرجة.

وعلى كل فظلت الكعبة قبلة أصيلة وتقليدية، حيث جعلها التجلي الرباني أول بيت بالوضع الإلهي، وكان المسجد الأقصى قبلة موقتة، وتابعة للكعبة المقدسة في وجوده وفضله، وبقى الطور مزارا للخلائق، دون أن يكون قبلة أصيلة أو موقتة، وذلك لعروض التجلي وغيابه عاجلا.

الحاصل أن الأماكن الثلاثة: بيت الله العتيق وبيت المقدس وبقعة الطور ظلت أماكن مقدسة أصيلة مع ما بينها من فرق في المراتب، وتفاضل في الدرجات، وليست مقدسة فحسب؛ بل مقدسة تمنح غيرها القداسة، وتُفيض خيرها وبركاتها على البقاع الأخرى، فتجعلها مقدسة مباركة، حيث صارت المدن المحيطة بها نحو مكة ومدينة القدس وجبل الطور أمكنة مقدسة بقداسة ما فيها من أماكن وآثار مباركة.

أربعة عشر دليلا على فضل الكعبة المقدسة والمسجد الأقصى على طور سيناء:

وقد تجلى بما سبق أن الأماكن الثلاثة وإن اشتركت في القداسة والفضيلة إلا أنها ليست سواء في التقدس والعظمة؛ بل لكل منها خصائص ومزايا، أقامت فرقا شاسعا بين درجاتها ومراتبها، حيث يفضل كل من الكعبة والمسجد الأقصى جبلَ الطور، وإذا أوجزت في دلائل فضل الكعبة والمسجد الأقصى على الطور قلت ما يلي:

١- اشتركت الكعبة والمسجد الأقصى في القبلة، ولم يصر الطور قبلة في يوم من الأيام.

٢- وجد كل من الكعبة والمسجد الأقصى بالوضع الإلهي، ولم يحظ بهذا النوع من الوضع الإلهي.

٣- كل من الكعبة والمسجد الأقصى معبد، يُعبَد الله فيه، ووصفهما القرآن بالمسجد، قال الله تعالى: **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ**

الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (سورة بني إسرائيل: ١)، وأما الطور فليس بقبلة ولا مسجد؛ بل هو موضع الزيارة وحده.

٤- إن كلا من الكعبة والمسجد الأقصى يحظى بشرف الأولية من بين المساجد كلها، كما ذكره حديث أبي ذر الغفاري ﵁، وليس للطور هذا الشرف العظيم.

٥- قد قام الملائكة بوضع الأساس للكعبة والمسجد الأقصى، بينما لم يحظ الطور بذلك.

٦- لم يعد للكعبة والمسجد الأقصى أثر بعد طوفان نوح عليه السلام، فاختفى مكانهما في الرمل، ثم ظهر أساسهما من جديد بعد ما بينه الملائكة، ولم يسعد الطور بهذا الشرف الملكي.

٧- إن كلا من الكعبة والمسجد الحرام اشترك في بنائهما نبيان، بينهما قرابة ورحم؛ بل صلة الأبوة والبنوة، حيث بنى الكعبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما أب وابن، بينما بدأ داود بناء المسجد الأقصى وأكمله سليمان عليهما السلام، وهما أب وابن كذلك، الفرق أن الكعبة بناها نبيان معا، بينما تناوب نبيان في بناء المسجد الأقصى، والحال أن الطور لم يتشرف بهذه النوعية من البناء.

٨- إن أساس كل من الكعبة والمسجد الأقصى لم يظهر بمشورة من الأنبياء عليهم السلام، بل بأمر رباني عظيم، حيث أمر الله تعالى هذه الشخصيات المقدسة ببناء الكعبة والمسجد الأقصى، وقد رواه رافع بن عمير رضي الله مفصلا، وحكاه صاحب كنز العمال في باب فضائل مكة، ولم يحظ الطور بهذه المكانة الإلهامية.

٩- لقد تم وصف كل من الكعبة والمسجد الأقصى بموضع البركة والهداية بنوعية واحدة، ويأتي الفرق بينهما بشمول البركة وضيق نطاقها، حيث وصفت الكعبة بـــ هدى للعالمين دليلا على كونها مركزا دينيا عالميا، مما يدل على أن بركة الكعبة

المقدسة لا يمكن تحديدها، بينما وصف المسجد الأقصى بـ "الذي باركنا حوله"، فجاء ذكر بركته في نطاق محدود، وليس للطور هذا الشرف والبركة والهداية.

١٠- ودخل كل من الكعبة والمسجد الأقصى في الدولة الإسلامية بأسلوب واحد؛ حيث فُتِحَ كل منهما دونما حدوث معركة دامية، حيث فتح الكعبة إمام الأنبياء وسيد الرسل صلى الله عليه وسلم بطريق سلمي، وفتح المسجد الأقصى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، صلحا لا عنوة، وليس للطور هذا الشأن.

١١- بعد فتح كل من الكعبة والمسجد الحرام تم تطهيرهما بطريق واحد، فتم تطهير المسجد الحرام من النجاسات المعنوية كالأصنام والأوثان، التي نحتها ووضعها في الكعبة والمسجد الحرام كفار مكة ومشركوها، وتم تطهير المسجد الأقصى من النجاسات الحسية كالنجاسات القذرة، التي ألقاها النصارى على الصخرة التي كانت قبلة اليهود، وليس للطور هذا النوع من التطهير.

١٢- وبعد تطهير كل من الموضعين تم الاحتفال بفتحهما عن طريق واحد، حيث لم يكن فيه شيء من إظهار الفخر والغلو والخيلاء والشوكة، بل كان متحليا بالعبادة المحضة كالأذان والصلاة، وما إليها، فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة صحابيا ليؤذن قائما على سقف الكعبة، وافتتح بالصلاة، كما افتتح عمر الفاروق رضي الله عنه المسجد الأقصى بالأذان والصلاة بعد ما فتحه، ولم يتشرف الطور بمثله.

١٣- بعد إكمال بناء الكعبة المقدسة والمسجد الأقصى تاب إلى الله تعالى كل من إبراهيم وسليمان داعيا إياه بدعوات صالحة، وقد أجاب الله تعالى هذه الدعوات الصالحات، ولم يكن للطور كل من البناء الحسي والدعاء المعنوي.

١٤- كان كل من الكعبة المقدسة والمسجد الأقصى مرحلة بدائية لرحلة الإسراء والمعراج، حيث بدئ الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكانت رحلة

المعراج مبدوءة بالمسجد الأقصى، إلى السماء العلى، ليشمل الدين الإسلامي الحنيف كلا من بركات إسماعيل وإسرائيل، وليس للطور هذه المكانة.

صورة وحقيقة الحق سبحانه:

وهذه المباحث كلها تؤكد على أن الله سبحانه له صورة تهب للأشياء الكونية الصور والمظاهر، كما أن له حقيقة؛ إلا أن صورته منزهة عن الكيف والكم والمثال والقيل والقال، فلا ندرك نوعيتها، ولا ندرك كنهها وحقيقتها، إلا أنا نؤمن بها في ضوء نصوص الكتاب والسنة، وقد أثبت له سبحانه القرآنُ الكريم صورة، كما أثبت له حقيقة.

ثلاثة طرق للاستدلال:

وبالنسبة إلى إثبات صورة الحق سبحانه وحقيقته بالدلائل وجدنا ثلاثة طرق للاستدلال كما يلي:

١- الاستدلال بعموم النصوص: وهي التي لا تحمل لفظ الصورة ولا لفظ الحقيقة، إلا أنها تشتمل على المعاني التي لا تنطبق إلا على الصورة والحقيقة، فتثبت كل من الصورة والحقيقة طبعا عن طريق دلالة التزامية.

٢- الاستدلال بخصوص النصوص ولكن بلفظ مشترك: حيث اشتمل النص على معان عامة، تشمل كلا من الصورة والحقيقة، ولكن بلفظ متقارب، لا يفرق بين الصورة والحقيقة، فألفاظ النص تدل على كل من الصورة والحقيقة، وذلك أن عبارة تدل على الصورة، وتكون الحقيقة مدلول النص بشكل ضمني، أو بالعكس.

٣- الاستدلال المعين، وهو إثبات الصورة والحقيقة بعبارة النص؛ حيث تأتي النصوص الشرعية بذكر كل من الصورة والحقيقة على حدة، ويتم بذلك الكشف عن ظاهر الحق وباطنه.

وسأذكر فيما يلي مناهج الاستدلالات الثلاثة:

الطريق الأول: أما بالنسبة إلى صورة الحق سبحانه فذكر الله سبحانه للتعريف بها عددا من الأعضاء التي تطلق على الصورة الإنسانية؛ بما فيها الوجه والعين واليد والرجل

والأصابع والبنان والكف والقدم والعقب والرحم والساق، وليست الصورة إلا مجموعة من هذه الأعضاء، فثبت لذلك صورة الحق سبحانه، وهذا يتعلق بصفة "الظاهر" من صفات الله تعالى.

أما بالنسبة إلى حقيقة الحق سبحانه فذكر الله تعالى لها عددا من الأحوال والشؤون التي أطلقت على الإنسان أيضا، نحو السمع والبصر والإرادة والقدرة والمشية والكلام والحكمة والحكومة وما إليها من الأمور والأحوال التي تكتمل بها الحقيقة، فيمكن أن نطلق عليها الحقائق الإلهية، وهي تتعلق بصفة "الباطن" من صفات الله تعالى.

كما تم وصف الأفعال والآثار الإلهية الصادرة عن ظواهر الحق وبواطنه بصفات تطلق على الإنسان، نحو القول والفعل والكلام والمكالمة والمناقشة والسير والحديث والعروج والنزول والأخذ والالتفات والإعراض والرضا وعدمه، والحب والبغض والوفاء والقهر والصنع والإتقان، فقد وصف الإنسان بأنه عالم ومتكلم، وسميع وبصير، وحكيم وحاكم وحافظ ورقيب ورحيم وكريم وناصر ومعين ومولى ووكيل، كما يطلق لفظ "المصور" و"المدبر" على كثير من أصحاب الاختصاص وأساتذة الفنون، وقد وصف القرآن الكريم بدوره رسولنا صلى الله عليه وسلم بأنه رؤوف رحيم، ووصفه ولا يزال علماء أهل السنة والجماعة بأنه نبي كريم، أما وصفه صلى الله عليه وسلم بالأمين فلم يقل به أتباعه المؤمنون وحسب؛ بل الكفار والمشركون أيضا، وهذه الأوصاف كلها تطلق على الله سبحانه، حيث وصف نفسه بـرؤوف ورحيم وكريم وأمين.

فقد تم إطلاق الحقائق الإلهية أو بواطن الحق على الإنسان، وتم إطلاق الأعضاء الإنسانية على الذات الإلهية، ليدرك الإنسان بهذا الاشتراك اللفظي صورة الحق وحقيقة الحق وما يصدر عنها من أعمال وآثار، مما يسمى بالحقائق الإلهية، ويتصورها في الذهن والخيال، مما يدل على أن لله صورة، وحقيقة، أوضح الكتاب والسنة مفاهيمها، وهذه هي

الصورة والحقيقة القدسية والظاهر والباطن الإلهي الذي يعطي كل شيء كوني خلقه وهدايته، فلولا صورة الحق وحقيقته لم يكن للأشياء الكونية صورة وحقيقة.

وهنا لا يغيبن عن البال أن صورة الحق وحقيقته منزهة عن الكيف والكم والمثل والقيل والقال، مما لا ندرك كيفيته ولا كنهه، ولكن لا بد من الإيمان بها في ضوء النصوص الشرعية.

التجلي:

وفي هذا السياق يجب أن نعرف هذه النكتة، وهي أن التعريف بصورة الحق سبحانه وحقيقته عن طريق إطلاق الأعضاء الإنسانية والعوارض الإنسانية على الحق سبحانه لا يستلزم أن نقيس الصورة والحقيقة الإلهية على الصورة والحقيقة الإنسانية، ونقيس تصرفاته وأعماله على تصرفاتنا وأعمالنا، أو نثبت للذات الإلهية هذه الأعضاء وصورها المادية، أو نقر بحلول الذات الإلهية في ذات العباد حتى نقول: صار الشكل الإنساني كالشكل الإلهي بهذا السبب، كما قالت به المشبهة والمجسمة، فضلَّت سواءَ السبيلِ، وأقامت دليلا على سفاهتها وحماقتها، وهي بلا شك زندقة وإلحاد، فإن صورة الحق سبحانه وحقيقته بريئة من الكم والكيف والخواص والآثار المادية، كبراءة ذاته من هذه الأشياء والتشكلات المادية، فلا ندرك صورته القدسية، ولا حقيقته المقدسة، فضلا عن أن نقيس صورته وحقيقته وأفعاله على صورتنا وحقيقتنا وأفعالنا العادية، فإن الأفعال الإلهية من اللطافة والطهارة والنقاء بحيث لا يحيط بها التصور الإنساني ولايبلغها الوهم والخيال.

وصدق الشاعر الفارسي عند ما قال: "ما أبعدك ربنا عن الوهم والقيل والقال، ورغمت أنوفنا إن قمنا بموازنة وتمثيل لذاتك وصفاتك".

قال الله تعالى: **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** (سورة الشورى: ١١).

فالطريق الأمثل والجادة المستقيمة والمنهج السليم الآمن في هذا الباب ما قال الإمام مالك في الاستواء على العرش، وهو أن الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وعلى كل فهناك استدلال بعمومات النص فيما يتعلق بصورة الحق وحقيقته، وهو الذي تبناه القرآن الكريم، وذلك إثبات الصورة والحقيقة من خلال لوازم الصورة والحقيقة، متمثلا في التعريف بالصورة الإلهية عن طريق الأعضاء الإنسانية، والتعريف بالحقائق الإلهية عن طريق إطلاق الحقيقة الإنسانية على الذات الإلهية، لئلا يحتاج الإنسان في معرفة هذه الحقائق إلى دلائل خارجة، بل يدركها بالتفكير في نفسه (إلا أنه لا بد منه في نطاق قول الإمام مالك رحمه الله)، ويؤمن بها.

الطريق الثاني:

أما الإثبات الخصوصي وذلك إثبات الصورة والحقيقة الإلهية بألفاظ النصوص فهو أمر لم يسكت عنه الكتاب والسنة، وكشف الحديث التالي عن هذا اللغز العلمي، وورد في ذلك حديث رواه عبد الرحمان بن عائش:

عبد الرحمن بن عائش، يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «رأيت ربي في أحسن صورة» قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: «أنت أعلم يا رب»، قال: " فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما في السموات والأرض، وتلا "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين"[1].

وفي رواية عن ابن عباس: عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، - قال أحسبه في المنام - فقال: يا

(١) أخرجه الدارمي، في **مسنده**، المعروف بـ"**سنن الدارمي**"، (السعودية: دار المغني للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٠م)، رقم الحديث: ٢١٩٥.

محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا، قال: فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديَّ أو قال: في نحري، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض، قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: نعم، في الكفارات، والكفارات المكث في المساجد بعد الصلاة، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه، وقال: يا محمد، إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون، قال: والدرجات إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام "[1].

وهذا الحديث قد أوضح الصورة والحقيقة الإلهية كما أشار إلى وسائل إدراك الحقائق الإلهية وما فيها من جمال وكمال، وذلك بالنظر في الأمور التالية:

- إن النبي صلى الله عليه وسلم رآى ربه في أحسن صورة، فثبتت لله صورة بنص الحديث؛ بل يثبت بها أمور أخرى تتعلق بالصورة، منها ثبوت البنان والأصابع ووضع اليد بين الكفين، والشعور بالبرد في القلب وغيرها، وبذلك يتحصل العلم بصورة الله تعالى، ولا مجال لإنكارها، الحاصل أن صورة الحق سبحانه ثبتت بلفظ الصورة.
- أما الحقيقة الإلهية فقد ثبتت برؤية الوجه الإلهي المشرق، والبرد الحادث بتأثير الذات وتصرفها، فالحقيقة الإلهية قد ظهرت في قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بشكل علمي، وظهرت للرسول جميع مراتب الأعمال الصالحة أي الدرجات والكفارات السائدة في السماوات؛ مما أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم جهله بها في البداية، والعلم –كما لايخفى- جزء لا ينفك من الحقيقة الإلهية، وعليه تتوقف أعمال الصفات الكمالية كلها.

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، رقم الحديث: ٣٢٣٣.

- فالحاصل أن الصورة الإلهية ثبتت بكلمة "أحسن صورة"، وثبتت الحقيقة الإلهية بإلقاء العلوم والمعارف كلها.
- الحديث قد أكد على وسائل إدراك الحقيقة والصورة الإلهية، وذلك أن الصورة عبارة في الواقع عن ظهور الحقائق، والظهور يتعلق بالبصر والرؤية، فتم لذلك استعمال لفظ "رأيت"، كما قال: رأيت ربي في أحسن صورة، والحقيقة أمر باطني لا يتعلق بالبصر؛ بل تتم معرفتها بالبصيرة القلبية، فاستُخْدِم لذلك كلمة المعرفة، كما هو ظاهر من قوله: "فعرفت".
- ذكر القرآن بشكل مبهم الصورة والحقيقة عن طريق إطلاق الأعضاء على الصورة الإلهية، وإطلاق الحقائق على الحقيقة الإلهية، ثم شرحها الحديث المذكور مفصلا، وبألفاظ صريحة، مضافا إلى الإشارة الواضحة إلى وسائل إدراك الصورة والحقيقة، وهي الرؤية البصرية والمعرفة القلبية، فلله الحمد.

الطريق الثالث:

وقد جاءت الأحاديث المستقلة بذكر الصورة الإلهية والحقيقة الإلهية، كما في السطور التالية:

الصورة الإلهية: فقد ورد حديث في بيان الصورة الإلهية، كما في رواية أبي هريرة رضي الله عنه: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك، النفر من الملائكة، جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن"[1].

(١) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم الحديث:٦٢٢٧.

والمراد بالذراع هو ذراع إبراهيم، وليس ذراعنا. فالحديث المذكور أعلاه كما أكد على خلق آدم على صورة الحق سبحانه، فثبت بعبارة نص الحديث أن لله صورة تليق بشأنه.

حقيقة الحق سبحانه:

أما حقيقة الحق تعالى فقد سلط القرآن الكريم ضوءا ساطعا عليها، قال الله تعالى: **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** (سورة الروم: ٣٠).

الظاهر أن إطلاق الصورة لا تتم على الفطرة؛ بل الفطرة تعني الخصائل الباطنية والاتجاهات الفطرية والميول النفسانية والنزعات الشخصية، مما يتعلق بالباطن، وهي الحقيقة، فكما بين الله تعالى خلق آدم على صورته، فكذلك بين خلقه على حقيقته، فقد أودع الله تعالى في فطرة آدم الرقي الروحي والمسير الباطني اللطيف وما إليها من الأمور التي تتعلق بفطرة الله التي فطر الناس عليها، فالفطرة تعني الأصالة وحبها، والبقاء عليها مما ينشأ في الذهن بدون محرك وعامل خارجي، ويطمئن به الضمير، وغير الفطرة يعني مخالفة الأصل، مما لم يطمئن به الضمير، وتنشأ فيه عواطف الكشف عن حقيقته وإزاله ما علق به من غبار الشكوك والشبهات.

آثار فطرة الله تعالى في الإنسان:

وعلى سبيل المثال أذكر تصديق القول الصادق، فهو من صفات الله تعالى، حيث يصدق القول الصادق، ويؤمن به، ومن ثم وصف نفسه بـ "المؤمن"، فلا أصدق منه ولا أكثر منه تصديقا للقول الصادق، وهذه العاطفة مركوزة في الفطرة الإنسانية، حيث لا ينكر ضميره القول الصادق، وإن كان الإنسان قد لا يظهر صوت ضميره لغرض أو مرض، أو مثلا جزاء الإحسان بالإحسان فهو من صفات الله تعالى، قال الله تعالى: **هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ** (سورة الرحمن: ٦٠)، وقد أودع الله تعالى هذه الصفة في

الفطرة الإنسانية، فهو يود بعاطفته القلبية والدواعي الداخلية أن يجزي الإحسان بالإحسان، كما اشتهر المثل العربي بأن الإنسان عبد الإحسان، وإن كان الإنسان قد لا يقدر على جزاء الإحسان بالإحسان، ويعجز عن المكافأة والإتيان بمثل الإحسان.

أو مثلا الاعتراف بمحاسن الغير وشكر المساعي الطيبة، فهو أيضا من صفات البارئ سبحانه، ومن هنا سمى نفسه "الشكور"، حيث يشكر الله تعالى المساعي الحسنة، وهذه الصفة مودعة في الفطرة الإنسانية، حيث لا يفرح الإنسان بعمل طيب؛ بل يعترف به ويقدره.

أو مثلا تعذيب المعاند اللدود، الذي لا يصدق شيئا حتى القول المتفق عليه لأغراض فاسدة، أو تعصب وعناد، بل العكس من ذلك يحاول محو الصدق والحق إيغالا في الباطل، فتعذيب مثل هذالرجل والانتقام منه من سنن الله تعالى في خلقه، ومن أجل ذلك سمى نفسه "المنتقم"، وهذه العاطفة مركوزة في الطبع الإنساني، حيث يحارب ويقاتل مثل هؤلاء الرجال، فيستعد لتعذيب الرجل المعاند اللدود، وهذا من أثر فطرة الله على الإنسان.

إثبات الحقيقة الإلهية بلفظ الفطرة والخلافة:

ومن أمثلته أن الاستدلال بالأمور المشاهَدة المحسوسة مكان المباحث الفلسفية الدقيقة في قضايا المجرمين سنة إلهية، كما كثرت أمثلتها في الصفحات القرآنية، وإن الله تعالى يأتي في ميدان المحشر بالواقعات والأحوال اليقينية، ليقنع المجرمين، ويقيم عليهم حجة، ولا يذكر الأبحاث الفلسفية الدقيقة، فحاشا لله من ذلك.

وكذلك دأب الإنسان، الذي إذا رفع أمره إلى المحكمة، يحاول التخلص من العقاب أو يثبت حقه بذكر الواقعات والأمور المحسوسة، متحاشيا عن المباحث الفلسفية الدقيقة الغامضة، وإن لجأ إليها لا يقيم أحد لها وزنا، بل يعتبرونه أحمق، ويضحكون منه.

وعلى كل فالفطرة عبارة عن قوت تحب الأصالة والنزاهة وتستعملها في صالحها، وهذا شيء مركوز في الطبع الإنسان بفطرة الله، ومنه تكوَّنت حقيقته، وخلاف الفطرة لما كان ضد الأصل، ولا يطمئن به أحد، يثير الحيرة والدهشة، ويبحث الإنسان عن وسائله ووجوهه، ويحاولون إزالة الحالة غير الأصلية، والصبي إن وُلد صحيح الأعضاء، متناسق الجثة، فلا داعي للحيرة والعجب، ولا ينشأ هناك أسئلة "هل" و"لماذا"، وإن ولد أعرج أكمه، وناقص الأعضاء تحيَّر منه الإنسان، وأخذ يبحث في أسبابه و علله، فإنه خلاف الأصل، ويحاول إزالة هذا الخلل، وإلى هذا المعنى أشار النبي صلى الله عليه وسلم في حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه، حيث كشف الحديث الستار عن الفطرة ومقتضياتها وتأثيرها في الماديات والروحانيات، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تنتج البهيمة، هل تحسون فيها من جدعاء؟ " ثم يقول أبو هريرة: "واقرءوا إن شئتم: **فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** [الروم: ٣٠] [١]".

وكلمة "فأبواه يهودانه" تشير إلى أنه لا يكون يهوديا بنفسه؛ بل إذا تُرِكَ وشأنه بقي على فطرة الإسلام؛ فخلق الإنسان على فطرته لا يثير الحيرة ولا سؤالا عن كشف السبب والعلة، إما إذا كان ناقص الخلقة، وهو خلاف الأصل يتبادر الناس إلى الحيرة والكشف عن وجوه وأسباب.

والجملة الحديثية "هل تحسون فيها من جدعاء؟" تزيح الستار عن هذه الحقيقة الواضحة، ومعناه: هل يساوركم شك أو خيال أو شعور وقت ولادة الإنسان أنه يكون ناقصا؟ أو معيبا، أي لا يساوركم بالتأكيد مثل هذه الأسئلة، فتدركوا أن ولادة الإنسان

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، رقم الحديث: ٧٧١١.

مكتملَ الأعضاء هي الحالة الأصيلة، وهي التي تعني الفطرة، والحالة الفطرية، والحديث يشير كذلك إلى أن ولادة الإنسان ناقص الأعضاء تثير سؤالا وحيرة، فإنها خلاف الأصل، وخلاف الأصل شيء لا يألفه الناس، فيتحير الناس ويتساءلون.

والأوضح من هذا كله أن الله تعالى جعل الإنسان خليفة له في الدنيا، قال الله تعالى: **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (سورة البقرة: ٣٠).

والظاهر أن الخلافة لا يستحقها إلا من رُزق حظًّا من كمالات الأصل، وتخلق بأخلاقه، وحاشا للإنسان أن يكون مثل الله عز وجل، فهو ليس كمثله شيء، ومستحيل أن يرتقي الإنسان فَيَنَال الكمالاتِ الإلهية، حاشا وكلا. فيتأكد أن المراد أن يكون في حقيقته وكمالاته نماذج لقدرة الله وحقيقته، وتضمنت حقيقة الخليفة من نماذج الكمالات الربانية ما يتم به التعريف بكمالات الله سبحانه، فلا بد أولا من الاعتراف بوجود هذه الكمالات في ذات الله تعالى، وانتقال شيء منها إلى الفطرة الإنسانية، ليكون الإنسان جديرا بالخلافة الأرضية، فثبتت بهذا الحقيقة الإلهية وظهورعكسها في الحقيقة الإنسانية.

وعلى كل فاتضحت الحقيقة الإلهية بلفظ الفطرة والخلافة بشكل لا يدع مجالا للشك.

أثر المساواة في الفطرة:

ومن آثار المساواة في الفطرة الإنسانية أن كل إنسان يعترف بكثير من الأصول المقررة للدين الاسلامي الحنيف بوجه من الوجوه، فمثلا يكره كل إنسان سلب المال وهتك العرض، وظلم الآخرين والاعتداء على الأبرياء، وإن حدث ذلك اجتمع زحام من الناس، يواسون المظلوم، ويقفون بجانبه، ويطالبون بالقصاص والغرامات، ويعقدون تظاهرات لحمايته، وهذا من أثر تلك الفطرة التي قال الله فيها: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**

وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (سورة النساء: ٤٠) وقال تعالى: **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** (سورة الأنبياء: ٤٧).

وكذلك يأتي من ضمنها استحسان كل إنسانٍ العلمَ، والعدل، والإحسان والوفاء، واحترام الكبير، والشفقة على الصغير، والغيرة والحمية، والوقوف بجانب الضعيف وتأديب الظالم وكراهية كل من الجهل والظلم والبغي والعدوان وإذلال الغير، والحط من كرامته، والوقاحة والفحشاء وتعذيب الضعيف وما إليها من الأمور المنكرة، فكل ذلك من آثار الفطرة الإلهية التي فطر الناس عليها، والتي توجد في الطبائع البشرية كلها.

فكلمة الفطرة الواردة في الآية المذكورة تدل دلالة عميقة على الحقيقة الإلهية، كما تدل كلمة الصورة الواردة في الحديث على الصورة الإلهية، فثبت كل من الصورة والحقيقة الإلهية بعبارة النصوص.

الدلائل الحديثية على الحقيقة الإلهية:

إن الأحاديث التي سأذكرها بالتالي تكشف عن بعض أسرار الحقيقة الإلهية، وتسلط ضوءا واضحا على ذلك:

١- فقد روى الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق[١].

٢- وفي رواية ابن عباس رضي الله عنه: فإنكم لا تقدرون قدره"[٢].

٣- ثم روى ابن عباس هذه الرواية، فقال: تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله، فإن بين السماء السابعة وفي كرسيه سبعة آلاف نور، وهو فوق ذلك[٣].

---

(١) المتقي الهندي، **كنز العمال**، رقم الحديث: ٥٧٠٦.

(٢) المصدر السابق، رقم الحديث: ٥٧٠٦.

(٣) المتقي الهندي، **كنز العمال**، رقم الحديث: ٦٢٢١.

٤- ويروي ابن عمر رضي الله عنهما هذا الحديث بلفظ آخر، فيقول: تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله[1].

وهذه الروايات الأربع تتواجد في مشكاة المصابيح، وتجتمع في الدلالة على النهي عن التفكير في ذات الله تعالى، والظاهر أن صفات الله تعالى الكمالية هي صفات لازمة لذاته، بحيث لا يمكن انفكاكها عنها بحال من الأحوال، فمعنى الحديث أنه لا تفكروا في ذات الله وصفاته، فإنه يؤدي إلى الهلاك والدمار، فإنكم لا تستطيعون أن تبلغوا إلى كنهها، فتقلبوا الحقيقة، وتدركوها على غير وجهها، فليس بوسع بصركم وبصيرتكم التوصل إلى شأنه الرفيع، ودرجته العالية، فلا مندوحة من تعرضكم للخطر الفكري والضلال العقائدي.

والمعلوم أن صفات الله الكمالية هي حقيقته، التي تم التعبير عنها بالأسماء الحسنى، فالمنع عن التفكير في ذات الله وصفاته يعني أن الذات مصدر الحقائق، فلا تفكروا في الحقائق، ولا أدل من هذا على ثبوت الحقيقة الإلهية، فإنه لولا الحقيقة لما جاء نهي عن التفكير في ذات الله وصفاته، فالأحاديث المذكورة تدل على ثبوت الحقيقة الإلهية دلالة واضحة، وهذا ما نبغي، فلفظ الحقيقة وإن كان لم يذكر في الحديث إلا أن مدلولات الحديث لاتنطبق إلا على الحقيقة الإلهية، فلا يصح معنى الأحاديث إلا أن يراد بها الحقيقة الإلهية.

الدليل القرآني:

ففي ضوء هذه الآيات والروايات ليس من الصعب إدراك أن لله تعالى صورة، وحقيقة، كما يسهل الاعتقاد بأن الصورة الإلهية انعكست في الصور الكونية، حتى ظهرت صور وأشكال مختلفة جذابة في الأشياء الكونية.

كما وقع على الحقائق الكونية أثر الحقيقة الإلهية، فظهرت في الكون حقائق كثيرة متنوعة، أما خواص الأشياء الكونية وآثارها وأفعالها فقد وقع عليها أثر الصنع

(١) المصدر السابق، رقم الحديث: ٧٥٠٧.

الإلهي،مما أسفر عن ظهور الأفعال الإرادية للخلائق الكونية، وأثارها النوعية وما إليها.

فالأشياء الكونية كلها ترتبط حقائقها وصورها وأفعالها وآثارها بالفيض الإلهي، وهذه الصور الكونية تسمى في الاصطلاح القرآني بـ "الملك"، أما الحقائق الكونية فهي تسمى بـ"الملكوت"، وأما الخواص والآثار الكونية فهي مدعوة بـ"التكوين"، وهي كلها من التخليقات الإلهية، فعنوان الملك والملكوت أيضا يدل على الصورة والحقيقة الإلهية.

الترابط العقلي بين الصورة الإنسانية والصورة الإلهية:

دفع إيراد: وفي هذا المقام الصعب ينشأ سؤال، وهو أن ارتباط الحقيقة الإنسانية وما فيها من كمالات ومحاسن بتجليات الحقائق الإلهية مما يرتضيه العقل، ويستسيغه الفكر، وذلك أن الحقائق ليست شؤونا جسمانية؛ بل هي أمور معنوية، ولطيفة كلطافة التجليات الربانية، فالارتباط بين لطيف ولطيف أمر معقول في وجه من الوجوه، أما الارتباط بين الصورة الإنسانية والصورة الإلهية فهو أمر قد يصعب إدراكه على أذهان عامة الناس، فإن الصورة وإن كانت لطيفة إلى أبعد الحدود، تقتضي الحدود والتشكيلات، والصورة الإلهية منزهة قطعا عن الحدود والتشكلات، فإدراكها أمر عسير على الفهم، ومن هنا يشكل فهم حديث "خلق الله آدم على صورته"، فما سبيل الخلاص من ذلك؟

العكس الإلهي على الإنسان:

فالجواب عن هذا الإيراد أن خلقَ آدم على صورة الله لا يعني –ولا يمكن أن يعني– أن صورة آدم تشبه صورة الله عزوجل؛ فقد نزلت على آدم صورة تناسب الذات الإلهية اللطيفة، ولا يتم الكشف عن هذه العقدة بدون اللجوء إلى التجلي الرباني، فإن

التجلي الرباني يمكن وروده على الأشياء المادية، كما ثبت وروده على الشجرة الطيبة من الطور، ويمكن قصر التجلي وطوله وفق الظروف التي نزل فيها، فالجواب الحقيقي عن السؤال المذكور أنه لم تنزل على آدم الصورة الإلهية بعينها، فهو مستحيل عقلا وشرعا؛ بل نزل على آدم تجلي الصورة القدسية، والمعلوم لدى الجميع أن التجلي لا يحمل صورة حسية أو مظهرا حسيا متقيدا بالحدود والتشكلات؛ فإنه نور، وعكس الذات والصفات الإلهية، والعكس إذا ظهر في صورة مادية تشكل بشكلها، وتمثل في صورتها، التي نزل عليها واستقر فيها.

مثال على ذلك:

وعلى سبيل المثال أذكر التيار الكهربائي، الذي لا يحمل صورة حسية معنية، أو مظهرا ماديا مقيدا بالحدود والأشكال، فإنه قوة الضياء ومادة النور؛ إلا أنه يختار صورة المصباح الذي يرد عليه، ويتشكل بشكله، فإن كان المصباح مدورا صار مدورا، وإن كان المصباح مربعا صار مربعا.

وكذلك ضوء الشمس البعيد من الأرض بآلاف أميال؛ فإنه لا يتمتع بصورة خاصة، أو مظهر مادي معين، بل هو ضوء الشمس وعكسها، إلا أنه إذا تجاوز شرفة أو نافذة تشكل بشكلها وتمثل في صورتها، فالتيار الكهربائي وضوء الشمس لا يحملان صورة مادية متقيدة بالحدود والقيود، تظهر في المصباح والشرفات، بل هي صورة المصباح والشرفات، والتي ضوء الشمس والتيار الكهربائي بريئان منها، إلا أنها تبدو بظاهر النظر صورة المصباح والشرفات.

فكذلك يجب أن ندرك معنى خلق آدم على صورة الله في هذا السياق، بحيث نزل على صورة آدم التجلي الرباني، الذي هو نور مطلق لا يحمل صورة مادية سليمة من عيوب الكم والكيف والحدود الشكلية، إلا أنه اختار صورة آدم وتشكل بشكله، بسبب لطافته البالغة منتهاها، وهذه الصورة ليست صورة التجلي؛ بل هي صورة الهيئة

الإنسانية، ولظهوره في الهيئة الإنسانية يبدو أنها صورة التجلي الرباني، مع أنه منها براء، فالحقيقة أن تلك الصورة صورة آدم من حيث الظاهر والظهور، ويمكن أن يطلق عليها تجوُّزًا الصورة الإلهية من ناحية ورود التجلي عليها.

وقد ثبت سابقا أن التجلي أو العكس لا يكون غير أصله؛ بل يظهر منه الذات والصفات، وإن كان هذا الظهور في الدرجة الثانية، كما أوضحته في الصفحات الماضية، فدعوى الحديث بأن الله تعالى خلق آدم على صورته شيء واقعي، يدل على أن في صورة آدم شيئا من صورة الله تعالى، ومع ذلك تبقى الصورة الإلهية منزهة من الكيف والكم والسمت والجهة وكل شكل مادي وصورة جسمانية، فهذا شيء معقول، لا يرفضه العقل والشرع، ولا يلزم عليه الاستحالة الشرعية ولا المحظور الشرعي؛ بل إذا تدبرنا القرآن وجدنا له دليلا في القرآن؛ فإن التجلي الوارد على شجرة الطور المتمثل في صورة النار لم يكن عين الذات الإلهية؛ فإن الله تعالى منزه عن النار والماء وأشكالهما وكل شيء مادي، إلا أن هذا التجلي لم يكن غير الذات الإلهية أيضا، وإلا لم يخرج منه صوت "إني أنا الله"، بيد أن الله تعالى نبه توًّا على تنزيهه عن أي صورة ومثال، فقال: سبحان الله رب العالمين، حتى لا يخطئ أحد فيعتبر النار هي الذات الإلهية، فإن الله تعالى منزه عن كل شكل وقيد وحد، بل يجوز أن يعتبرها عكس الذات الإلهية، الذي يتمثل في كل شيء، أما الذات الإلهية فهي تبقى على مكانتها من العظمة والرفعة واللطافة واللامحدودية.

ففي ضوء السطور المذكورة أعلاه ثبتت براءة الصورة الإلهية من كل جسم وشكل إنساني مادي كما ثبت نزولها بواسطة التجلي على صورة آدم، فتتمثل في صورته ظاهرا.

النفس الكلية هي أول مورد للتجلي:

وتنشأ هنا نكتة، بعد ما قطعتُ أشواطا بعيدة في الموضوع، وهي أن الرواية الحكيمة : "خلق الله آدم على صورته" تعطينا معانٍ أبعد من المعاني الظاهرة، فإنا كما أردنا

بالصورة الإلهية تجلي الصورة، سواء يتمثل في نار الشجرة أو في صورة آدم، كذلك يجب أن نعرف أن ليس المراد بصورة آدم هي صورته الشخصية، بل هي صورة نوعية للإنسان بشكل كلي، تتواجد في كل بني آدم بشكل سواء، وتدخل في ضمنها صورة آدم أيضا، فلبني آدم كلهم صورة نوعية كلية عامة، تنطبق على صورة آدم وغيره من البشر، وهي مكونة من هيئة خاصة متسقة، تضم كلا من الأنف والأذن والعين واليد والرجل والظهر والعقب والقدم وما إليها من الأعضاء، ثم لكل منها مكان خاص وترتيب خاص، وتقويم جميل، ويأتي الفرق بين أفراد البشر في التشخصات الفردية والتشكلات الخاصة، التي تميز فردا عن فرد، ولا فرق بينهما في الصورة النوعية، كما تشترك في الأب وبنيه الخواص الباطنة والعوارض المعنوية والعادات والشمائل، ويحدث بينهم فرق في التشخصات الظاهرية، ومن هنا يقال: الولد سر لأبيه، والمعنى أن المرء يشبه أباه في الخَلْق والخُلُق، وإن كان الأولاد يمتازون عن أبيهم في المميزات والخصائص، فإنه لولا هذا الفرق لأشكل التمييز بين الأب والابن.

وقد أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى الاشتراك النوعي والافتراق الفردي بقوله: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرَضِينَ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، فَمِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزِنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ»[1].

وحاصل الحديث أن أولاد آدم سواء في الصورة والهيئة والأعضاء والجوارح واللون والحلية والملامح والأعصاب وترتيبها وتقويمها، أما الفرق فهو يأتي في التشخصات والخصائص الفردية، التي يأخذ الابن فيها شيئا من خصائص الأب، مع بقائه على الخصائص الذاتية، أما من حيث الصورة النوعية فهي تتمثل في صورة أبيه.

---

(١) البيهقي، **الأسماء والصفات**، رقم الحديث: ٧١٥.

فحاصل الحديث أن الاشتراك النوعي لا ينحصر في الصورة الظاهرة والهيئة الظاهرة؛ بل ربما تتعدى إلى العادات والخصائل، فنال بنو آدم من الصورة والعادات والخصائل ما يشابه صورة آدم وعاداته وسماته، فنفس الأعضاء ونفس الترتيب ونفس التقويم، فليس هناك من اختلاف في الترتيب، بحيث ارتفع أنف أحد على العين، وجاءت العين على الجبهة، وانخفض الرأس فاتصل بالرجل، ويكون وجه فلان في الجانب الأمامي بينما وجه فلان آخر يكون خلف قذاله، كلا؛ كما أن العواطف الباطنة مشتركة بين جميع أفراد البشر، حيث يحزن الجميع على أمر يخالف الطبع، ويسر على أمر يواتيه، والشعور بكل من الجوع والعطش والبول والبراز وما إليها، ولا يأتي الفرق إلا في أسلوب شخصي، حيث يكون الاختلاف في طراز الصورة والهيئة واللون والسمة والطول والعرض وأسلوب الكلام، والصوت والنغمة، والعين والأذن والأنف ومساحتها وخصائصها وعاداتها، وعواطفها، وليس هناك من اختلاف نوعي، ليتعارفوا بهذه المميزات والسمات، ويتم تسديد أمورهم بشكل سوي.

أما فيما يتعلق بالعوارض الطارئة على الإنسان كالخطأ والنسيان فأوضحها الحديث الذي يبين انتقال صفات آدم عليه السلام إلى بنيه، حيث قال آدم إذا حضره ملك الموت: مالك حضرتني لتقبض روحي، وقد بقي أربعون سنة من عمري الممتد ألف عام؟ فأجابه قائلا: قد رأيتَ أولادك في عالم المثال، إذ تم عرضهم عليك، فنظرتَ إلى داود عليه السلام نظرة شفقةٍ وعناية، وأعطيته من عمرك أربعين سنة، فقال آدم: لا أذكر منه شيئا، إلا أني أعلم بقاء أربعين سنة من عمري، فقال الله تعالى: فنسي آدم فنسيت ذريته، وجحد آدم فجحدت ذريته.

فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الدَّيْنِ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ: أَوَّلُ مَنْ

جَحَدَ آدَمُ -، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ، مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا هُوَ مِنْ ذَرَارِيَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَجَعَلَ يَعْرِضُ ذُرِّيَّتَهُ عَلَيْهِ، فَرَأَى فِيهِمْ رَجُلًا يَزْهَرُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ، قَالَ: أَيْ رَبِّ، كَمْ عُمْرُهُ؟ قَالَ: سِتُّونَ عَامًا، قَالَ: رَبِّ زِدْ فِي عُمْرِهِ، قَالَ: لَا، إِلا أَنْ أَزِيدَهُ مِنْ عُمْرِكَ وَكَانَ عُمْرُ آدَمَ أَلْفَ عَامٍ، فَزَادَهُ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَكَتَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَابًا، وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ الْمَلائِكَةَ، فَلَمَّا احْتُضِرَ آدَمُ، وَأَتَتْهُ الْمَلائِكَةُ لِتَقْبِضَهُ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ عَامًا، فَقِيلَ: إِنَّكَ قَدْ وَهَبْتَهَا لِابْنِكَ دَاوُدَ، قَالَ: مَا فَعَلْتُ وَأَبْرَزَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَشَهِدَتْ عَلَيْهِ الْمَلائِكَةُ"[1].

مما يدل على أن الخصائل الطبيعية والعادات الباطنية هي الأخرى انتقلت من آدم آلى ذريته، التي ورثت إلى الهيئة الظاهرة النوعية الخصائل الباطنة، وهذا الاشتراك الصوري لا ينحصر في تساوي صورة الوجه والعين والأذن والأنف وما إليها؛ بل يتعدى إلى الأحوال الباطنة.

وعلى كل فإن الحديث يؤكد على انتقال صورة وسيرة آدم إلى ذريته، وظلت المادة النوعية تنتقل من آدم إلى ذريته مصداقا للحديث النبوي: الولد سر لأبيه، وإلا لبطل الاشتراك النوعي، حيث كانت أفراد الإنسان تتمثل في صور عديدة، منهم من يحمل صورة إنسانية، ومن يحمل صورة الأسد، ومن يتسم بصورة الثعلب، ومن له صورة القرد، ومن يتشكل بالشجر والحجر وما إليها من الصور المختلفة المتنوعة، أو ذهبت الخصائص والميزات، فلا يعرف أحد غيره، وهو خلاف للفطرة والمعقول.

والأحاديث النبوية تكشف عن هذه المعاني بشكل واضح، فإن الله تعالى خلق آدم من قبضة من جميع الأرض، فجاءت أولاد آدم في صور مختلفة، قال النبي- صلى الله عليه وسلم: إن الله خلق آدم من قبضة، قبضها من جيمع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر

(١) أحمد بن حنبل، **مسند أحمد**، رقم الحديث: ٢٢٧٠.

الأرض فمنهم الأحمر والأبيض والأسود بين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب"[1].

وبه يتجلى أن اللون والصورة والسيرة والهيئة، والقامة والعادات والأخلاق التي تحلى بها آدم عليه السلام انتقلت إلى بنيه جيلا بعد جيل، وقام اشتراك نوعي في كل فرد بشري، فبقي بنو آدم آدميا من الناحية النوعية، ولم يعد جمادا أو نباتا أو حيوانا آخر، ووجدت في كل إنسان خصائص بشرية دون الخصائص الحيوانية، وبقيت حاجة الجميع إلى الطعام والشراب والسكن والعيش الطيب والنوم والسهاد والسير والمشي وما إليها من الحاجات والخصائص، كما اقتضى الطين الخليط، الذي عجنت به الفطرة الإنسانية.

أما الفرق بين أفراد الإنسان فهو قائم في الخصائص الشخصية، ليتعارفوا، أما النوع فهو إنساني، والصورة إنسانية، والخصائل الباطنية أيضا إنسانية، فبقي الاشتراك النوعي بين جميع أفراد الإنسان، كما يدل عليه الحديث المذكور.

أما قول آدم عليه السلام لملك الموت عند موته: قد بقي من عمري أربعون سنة، فقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "وجحد آدم فجحدت ذريته".

وهذا القول من الصدق والمصداقية بمكان؛ حيث أخطأ آدم في أكل الحنطة، فكل بني آدم له نصيب في الخطأ الفكري أو الخطأ العملي.

وبناء على أن الله تعالى خلق آدم على صورته أي تجلي صورته فقد انتقلت آثار تجلي الصورة الإلهية تلك إلى جميع ذرية آدم، فظهرت تلك الصورة في أولاد آدم كلهم، وإلا لبطل الاشتراك النوعي وزال انتقال الخصائل الآدمية من آدم جيلا بعد جيل، فمن مقتضيات الأبوة والبنوة أن لا يراد بصورة آدم هي الصورة الشخصية لآدم عليه السلام، بل الصورة الكلية للنوع البشري كله، التي تشمل صور جميع أفراد الإنسان، وعلى

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، رقم الحديث: ٢٩٥٥.

رأسهم سيدنا آدم عليه السلام، ثم يدخل فيها من بعده من أولاده، فالقول الحكيم المتمثل في "خلق الله آدم على صورته" يفسَّر الآن بـــ"خلق الله بني آدم على تجلي صورته".

النموذج المثالي للنوع الإنساني:

وفي هذا المكان يناسب استحضار لطيفة علمية، وهي أنه من المعلوم أن تجلي الصورة الإلهية وقع على النوع الإنساني الذي لا دخل فيه للأفراد، بل ظهرت جميع الأفراد منه فيما بعد، سواء آدم عليه السلام أو ذريته التي لا تعد، وأن النوع لا يوجد في الخارج إلا ضمن فرد من أفراده، وأنه لم يكن وجود لفرد من أفراد الإنسان لدى نزول التجلي؛ وإنما كان النوع الإنساني هو مورد التجلي، فهذه الأمور كلها تنتج أن النفس التي وقع عليها التجلي كانت مثالا عاليا ونموذجا مثاليا للنوع الإنساني، وعنه صدرت جميع النفوس الإنسانية متشكلة بالصورة الإنسانية، وهذا الشكل العام الذي عبر عنه حكماء الأمة وبصراء "عهد ألست" وأهل العقول النافذة والأذهان الوقادة بـ"النفس الكلية"، التي تشكل نموذجا كاملا في عالم المثال لجميع الصورة الإنسانية، مما أخرج أولا صورة آدم عليه السلام ثم صور أفراد البشر المولودين إلى يوم القيامة، ومن ثم صدرت عن عرفاء الأمة انكشافات تقول: إن هذا النموذج الإنساني محفوظ تحت العرش المجيد، وقد وقع عليه تجلي الصورة الإلهية، مما أعطى كل إنسان صورته وخلقته. فمعنى الحديث خلق الله على صورته عند العرفاء وأهل البصيرة هو خلق الله الإنسان على صورة تجليه.

ووصفه القرآن الكريم بأحسن تقويم، وهو الذي قال الله فيه: صوركم فأحسن صوركم، وعليه أنزل الله تعالى تجليه المبارك، الذي ظهر في صورة ما نزل عليه، فكان بيان الصورة الإنسانية حقيقيا، وإن كان مثاليا، غير مادي، وهو الذي صار مورد التجلي الإلهي،

وسري فيه تجلي الصورة الإلهية اللطيفة، فهو من حيث التجلي صورة الحق، ومن حيث مورد التجلي صورة الإنسان، مما يدل على تمام الانسجام بين الصورة الإلهية والصورة الإنسانية، وأنه لا يؤثر في مبدأ وعقيدة تنزيه الله سبحانه، وذلك لورود واسطة التجلي، وليس لأحد أن يتصور عقيدة وحدة الوجود، أو يقول بأن الله تعالى في كل شيء كوني حتى الأشجار والثمار واللباس واللحاف، نعم! إن هذه النفس الكلية التي كانت نموذجا للصورة الإنسانية، تفيض الوجود على جميع الصور الإنسانية.

النفس الكلية في اصطلاح الفلاسفة:

ولما ظهرت الصورة الإنسانية التي لم يكن لفرد إنساني دخل فيها، بل الصورة تخص النوع الإنساني كله، فينشأ ههنا سؤال، وهو أن النوع الكلي لا يوجد في الخارج إلا ضمن أفراده، ففي أي إنسان ظهرت الصورة الإنسانية التي نزل عليها تجلي الصورة الإلهية، فإنه لم يكن حينئذ إنسان في الخارج؟ فلا بد لدفع هذا السؤال من الاعتراف بوجود نموذج مثالي للصورة الإنسانية، التي نزل عليها التجلي، والظاهر أن هذا النموذج المثالي للصورة الإنسانية لم يكن صورة زيد وعمر وبكر؛ حيث لم يكونوا موجودين في الخارج آنذاك؛ بل كان هذا النموذج المثالي المتمثل في صورة النوع الإنساني الكلي في علم الله الأزلي، ومنه كسب كل إنسان جزئي صورته وحقيقته، وكان آدم عليه السلام أول من كسب الصورة، وظهر في الوجود.

وهذ النموذج المثالي للصورة الإنسانية قد عبر عنه بُصراءُ "عهد ألست" وأهل الحق والبصيرة بالنفس الكلية، التي كانت نموذجا مثاليا لجميع الصور الإنسانية، وكانت تمثل "موديلا" في الاصطلاح الحديث المعاصر، وفي بوتقته انصهرت جميع الصور الإنسانية من آدم إلى قيام الساعة، كما انكشف لأهل الحقائق والبصيرة هؤلاء أن هذا النموذج المثالي للصورة الإنسانية محفوظ تحت العرش العظيم، وينزل عليه تجلي الصورة الإلهية، وتقع أشعته النورانية على جميع الصور الإنسانية مع اختلاف في المراتب

والدرجات، فتنشأ عنه الصور الإنسانية من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، وتنال وجودها.

وقد عبر عنه الفلاسفة برب النوع، الذي هو مصدر جميع الصور النوعية، (ولعل الفلسفة صورة مشوهة لما قاله الصوفية، وجعل الفلاسفة الإلهام الرباني فنا عقليا جافا، وسموه الفلسفة).

ومثل رب النوع كمثل باني المبنى الضخم، الذي يرسم تصميما دقيقا أو تمثالا قبل بناء المبنى، ثم يبنيه وفق التمثال، ولا يفرق بين التمثال والحقيقة، ثم يشتهر هذا التمثال والنموذج، ويحظى بشعبية وقبول حتى يجعل الناس يبنون مبانيهم وفق هذا النموذج، ويصير هندسة معمارية رائعة، حتى يكون معيار المباني في الحسن والقبح، كما يبني الناس في هذه الأيام حسب الطراز الأمريكي، ونماذج هذا الطراز تنتشر في الدنيا كلها عن طريق الصور والتماثيل، مما جعل طراز المباني القديمة يختفي يوما فيوما، والطراز الحديث للمباني يشق طريقه إلى الانتشار والذيوع، ويصير معيارا للمباني الفاخرة، والعمارات الفخمة، حيث تدور حوله خرائط المباني الجديدة، فإن كانت صورة من صور النوع الإنساني قد تم وضعها كشكل كلي، ونموذج عام، ينسج على منوالها جميع الصور الإنسانية، وتخرج إلى عالم النور، فلا بدع في ذلك، وهذا ما سماه أهل النظر والحقائق بالنفس الكلية، وعبر عنه الفلاسفة برب النوع.

وأكبر دليل على ذلك عالم المثال، الذي يوجد فيه صورة كلية لكل نوع له وجود في الدنيا، ولا يوجد له بالفعل أفراد وجزئيات، كالصور الذهنية التي تكون في علم الإنسان، ولا توجد في صورها المادية والجسمانية، ومن هنا يسمى بعالم المثال، الذي لا يحتاج إلى مادة مادية، ومن هنا يوجد لكل جوهر وعرض صور معنوية وعلمية في عالم المثال، ثم تخرج إلى العالم متمثلة في الصور المادية الموافقة لعالم المثال.

ففي المسألة المطروحة لما علمنا علم اليقين أن الصورة الإلهية لا يمكن أن تتصف بالمظاهر المادية لا شرعا ولا عقلا، وعلمنا كذلك أن الأشياء الكونية تصدر عنها الكمالات الإلهية فلا يسعنا إذن إلا أن نقر بأن العكس الإلهي قد سرى في الأشياء الكونية، وهذا ما يسمى بالتجلي.

الجهل بمسألة التجلي مصدر الإلحاد:

فثبوت التجلي الذي يعني انعكاس الضوء يدل على أن الله تعالى مع علو شأنه واستوائه على العرش العظيم يبدي نور جمال عكسه في مرآة الممكنات، مما يسبب حدوث كمالات في الممكنات ولا يؤثر في تقديس الله تعالى عن الأشياء المادية، حتى يكون العالم مظهرا كبيرا للكمالات الإلهية، وهذا بلا شك طريق أقوم، هدى إليه الشرع الإسلامي، ليقضى على جميع الشكوك والأخيلة الفاسدة، التي أثارها واختارها الفلاسفة فيما يتعلق بوحدة الوجود أو حلول الذات أو الصفات الإلهية، ويستبين استحالة ما قالوه عقلا ونقلا استبانة الشمس في رابعة النهار.

ولعل الأمم المشركة لم تدرك حقيقة التجلي أو نوعية الواسطة بين الذات الإلهية وبين الأشياء الكونية، فالتبس عليهم الأمر، وتذرعوا إلى عبادة المظاهر، ومال الباطنيون إلى اختراع عقيدة وحدة الوجود، وجنح القائلون بالتناسخ إلى جواز حلول البارئ ذاتا وصفة، مما أسفر عن أنواع الشرك بالله، والإلحاد والزندقة، ونفقت في الأرض أسواق الشرك، فصارت الدنيا أسواقا عالمية للعقائد الفاسدة والنظريات الباطلة، والاتجاهات العقلية المرذولة، وغاب عن الدنيا نور التوحيد والإيمان.

ومن الإمكان بكثير أن يكون علماء هذه الأمم المشركة ورهبانها وأحبارها قد بينوا لهم مظاهر الصفات الإلهية، التي تنتشر في الأشياء الكونية، وأن التجلي الإلهي بمختلف صوره وأنواعه يعمل في الأشياء الكونية، فتجعلها تتشكل بصور جديدة، وتؤدي مهام مختلفة، وكانوا يريدون تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به وبيان الارتباط الوثيق

بين الذات الإلهية وبين الأشياء الكونية عن طريق التجلي الإلهي؛ولكن الناس بعد ما ذهب علماؤهم تناسوا واسطة التجلي، واعتقدوا بحلول الذات الإلهية في الأشياء الكونية، واخترعوا عقائد باطلة، وعبدوا كل مظهر وصورة، مما أدى إلى انتشار الكفر والشرك، وذهاب عقيدة التوحيد الصافية النقية، ولم يبق في الدنيا شيء لا يُعبد، فإنهم إذا أدركوا في الماء جوهر خلق الحياة اعتبروا البحار واهبة للحياة، وعادوا يمدون أمامها الأيادي سائلين، وإذا علموا للنار أثر الحرارة، ومدى فائدتها في قيام الأشياء اعتبروها متصرفة في كثير من الأمور، وعبدوها عبادة خاشع مطيع، وانتشرت عبادة النار، ولما أدركوا ما في الحيَّات من خصائص الإيذاء واللسع، اعتبروها ممثلة للعذاب الإلهي، وعبدوها عبادة خائف خاشع، وإذا عرفوا ما للطاؤوس من هيئة جميلة وصورة رشيقة، ظنوه مظهرًا من مظاهر الجمال الإلهي، ومالوا إلى عبادته، وإذا علموا ما للشمس من تأثير عام في إرسال الضياء والدفء، انقطعوا إلى عبادتها معتبرين إياها مفيضة الخير، وحين علموا ما لنور القمر اللطيف من خصائص وتأثيرات في خلق ماء الثمار والألباب في العظام اتجهوا إلى عبادته، ثم لم يقفوا على هذا الحد من الجفاء والإفراط والغلو، بل تجاوزوه إلى أبعد مدى؛ حتى عمدوا إلى وضع تماثيل وصور كل هذه الحقائق الفاسدة في المعابد بشكل يناسب حالها حسب مازعموا، وعادوا يركعون لها ويسجدون.

والمعلوم أن كل شيء في الدنيا مظهر من مظاهر الصفة الإلهية، سواء كان من حيث النفع والضرر، ولكن الناس ذهبوا إلى أن الذات والصفات الإلهية حلت في كل شيء دنيوي، فاعتبروا كل شيء كوني مثالا للصفات الإلهية، ومعبودا حقيقيا، وبدأوا يعبدونها، مما أدى إلى تشكل الشرك كمذهب مستقل، وزاد عدد المعبودات على عدد العابدين.

ثم تردت أحوال المعتقدين فاقدي البصيرة والإدراك إلى أنهم أخذوا يعبدون الصور والتماثيل والأصنام، واقتنعوا بها بكل وقاحة، مما دعا إلى أن حلت الصور والتماثيل محل الأشياء والموجودات.

فالحاصل أن كل شيء كوني عاد معبودًا لدى هؤلاء، أما الذي لم يكن معبودا فهو المعبود الحقيقي رب العالمين، حيث لم تكن عبادة الله وحده دينا ومذهبا عندهم، فقد ذهب التوحيد وهو دين الأنبياء أجمعين، ومن أجل ذلك تم إرسال الرسل إلى الأمم كلها، ونفقت سوق الشرك والظلم العظيم، فلم يبق توحيد ولا عظمة الله سبحانه وألوهيته، ولم تترسخ في القلوب مقتضيات التوحيد والإيمان بالله، حتى جاء الإسلام ليقضي على الشرك بأنواعه، ويهدم قصور أم المعاصي ورأس الخطيئات والبليئات، ولم يقض على الشرك وحسب؛ بل أقام حاجزا سميكا على أسباب الشرك وما يتعلق به من عقائد ورسوم، سواء كان يتعلق بالوهم والظنون، أو الحلول والتناسخ، وعبادة المظاهر والصور والتماثيل، وعبادة الأصنام أو الأشخاص، أو الأعضاء وما إليها، أو تزئيين الصور أو خلق التماثيل، بل دمَّر كل ما يفضي إلى الشرك، ووجَّه الجميعَ إلى عبادة الله سبحانه، فلم يبق الإنسان عبدا للخلائق؛ وإنما لرب الخلائق.

لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (سورة فصلت: ٣٧).

فإنه لو استحقت المظاهر والمناظر المادية أن تُعْبَدَ لكان الإنسان أحق بأن يعبد ويسجد له، فهو حقيقة جامعة ومظهر أتم للكمالات الإلهية، فلم يكن بحاجة إلى أن يبحث عن معبود بعيد عن ذاته؛ بل يكفيه أن يعبد كل إنسان نفسه، وكان عابدا ومعبودا في وقت واحد، كما يقول بعض الديانات بأن الله تعالى ليس له وجود –عياذا بالله– والإنسان يملك قوة إلهية، تدبر أمر الكون كله. عياذا بالله.

والإسلام لم ينكر وجود آية الله تعالى في الأشياء والمظاهر والمناظر؛ بل اختار طريقا جديدا لظهور الكمالات الإلهية، وهو طريق التجليات الإلهية، حيث هي وسيلة قوية لاتصال الفيض الإلهي بين الخالق والمخلوق، وظهور الكمالات الربانية، ولم يختر طريق الحلول والتناسخ وما إليها من الأمور الشركية والمستحيلة، حتى لا يؤثر في تقديس وتنزيه الخالق سبحانه وتبدو كمالات المخلوق مرتبطة بقدرة الخالق سبحانه.

النماذج الكلية والنوعية للخلائق:

إلا أن قضية النفس الكلية مع الاعتراف بعظمة أهل الكشف والإلهام مازالت ظنية، وكذلك شهادات العقل والفلسفة لصالح النفس الكلية أو رب النوع لا تجعلها أمرا قطعيا؛ بل هو ظني، ما دام لم يصدر عن المعصوم ما يشير إلى وجوده؛ فإن الأمر متصل بما بعد الطبيعيات، مما لا يتطرق إليه عقل ولا بصر، فمادام لم يوجد توجيه شرعي ولو في الإطار الأصولي لا يكسب، الأمر درجة الأمر القطعي ولا درجة الظن الغالب، فهو بمنزلة الاتجاه الفكري، وليس بمنزلة عقيدة من العقائد الإسلامية.

ومن هنا ينشأ سؤال: وهو أن الشرع الإسلامي يحمل من النصوص أو الإشارات ما يدل على أن الله تعالى خلق في نوع من الأنواع النفس الكلية أو رب النوع أولا، ثم خلق أفراد ذلك النوع وفق صورة النفس الكلية؟

فالجواب عنه –كما يخطر ببال هذا العاجز قليل العلم- أن الأمور التكوينية وإن لم يجعلها الشرع الإسلامي موضوع بحثه؛ ولكنها ليست خارجة عن حدود بحثه بشكل ضمني، وإن كان مثل هذا العاجز تمكن من ذكر بعض نماذجه فكيف بعلماء موسوعيين غزيري العلم؟ فهم أقدر على ذكر النماذج الكثيرة، التي تدل على أن قضية النفس الكلي هي قضية شرعية إلى حدما، فأختار هنا من بين الأمثلة الكثيرة بعضها فيما يلي:

المثال الأول: قضية العقل الكلي والتجلي الشعوري:

وعلى سبيل المثال أخذنا العقل أولا، فقد خلق الله عقولا جزئية كثيرة، فلكل إنسان عقله الذي به يعقل ويتفكر، ولكن هذه العقول الجزئية كلها تكسب شعورها وتعقلها بالاتصال بعقل كلي واحد، وهذا العقل الكلي ما وصفه الفلاسفة بالعقل الأول، وقد أشار إليه الحديث النبوي على صاحبه الصلاة والسلام، الذي جاء فيه: أول ما خلق الله العقل، فقال له:أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال: ما خلقت شيئا أكرم علي منك، (أوكما قال)[1].

---

(١) إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (المتوفى: ١١٦٢هـ)، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**، (بيروت: المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠٠م)، رقم الحديث: ٨٢٣.

والظاهر أنه لا يراد بالعقل في الحديث هي عقول زيد وعمرو وبكر، فإن العقول الجزئية لهؤلاء لم تكن موجودة عند ما خلق الله تعالى هذا العقل الأول، فمن الضروري أن يراد به العقل الكلي، الذي هو مصدر الشعور والفيضان للعقول الجزئية كلها.

كما أن الحديث المذكور أعلاه يؤكد على أن الله تعالى خلق للعقل الأول هيئة خاصة كانت مثالية، غير مادية، ومن هنا أُمِرَ بالاتجاه الأمامي والخلفي، ووُصِفَ بأنه أكرم الخلق، مما يدل على أن له هيئة وصورة خاصة، ولا يمكن فهم الخطاب بدون التجلي الخاص، وبذلك تبين أن هذا العقل المتمتع بالفهم والشعور كان عقليا كليا ونوعيا، مما يوصف برب النوع أو النفس الكلي للعقل، وويفترض له نوع من التجلي العلمي، يلائم طبيعته، يتمثل في صورته وهيئته، فمقتضى هذا الحديث يثبت تجلي العقل الكلي والتجلي الشعوري، وهو النفس الكلية أو رب النوع للعقول الجزئية كلها، ومنه تكسب العقول الجزئية الشعور والفهم والإدراك، وتخرج إلى حيز الوجود.

المثال الثاني: الحياة الكلية وتجلي "الحي":

إن كل موجود كوني مهما اختلفت أنواعه وتنوعت أجناسه وُهِبَتْ له الحياة، وهي الحياة الجزئية، ومن جهة أخرى قال الله تعالى في القرآن: **الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (*) الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ** (سورة الملك: ٢-٣).

مما يعكس أن الحياة الموجودة في الآية القرآنية ليست هي حياة الأفراد الكونية؛ فهي لم تكن موجودة عند خلق العالم هي ولا حياتها، فالمراد بها هي الحياة الكلية، التي تتفرع عنها كل الحياة الجزئية الفردية، وتجعل كل شيء حي صاحب حياة.

ثم الحياة الكلية تم خلقها على صورة خاصة، وقد نص الحديث على أنها خلقت في صورة خيل، ركبه جبريل عليه السلام عند ما غرق فرعون وآله في البحر، ومن تحت

حافره أخذ السامري قبضة من التراب، وشاهد فيه صنع الله تعالى في هبة الحياة، واستغله في إيجاد الشرك وعبادة العجل، مما يؤكد علينا أن نعلم أن هذه حياة كلية، صنعها الله تعالى في الأزل نموذجا كليا، وألقى عليها تجلي صفته الحي، فتجلت في صفته المعروفة، وعنه تفرعت هذه الحياة الجزئية، وتبرز مستمدة من فيضها وخصائصها.

الموت الكلي وتجلي "المميت":

وهكذا ذكرت الآية الكريمة خلق الموت، ومستحيل أن يراد به أموات زيد وعمر وبكر وما إليها من الأموات الجزئية، فإن هؤلاء الموتى لم يكونوا موجودين عند ذلك، ولم يوهب لهم الحياة حتى يموتوا.

ثم هذا الموت يتشكل في الضأن -كما نص به الحديث النبوي-، وسيتم ذبح هذا الضان يوم الحشر أمام أهل الجنة وأهل النار، ويقال لهم: "خلود لا موت".

الواضح أن قصة ذبح الموت ما حدثت مع الأموات الجزئية في هذه الدنيا ولن تحدث في الآخرة، فإنه لو حدثت مع الأموات الجزئية لذبح كل من أهل الجنة وأهل النار مكان الضأن، وأخرجت منهم الأرواح، ولتجمعت مئات الألوف من الذبائح، ولم يصدق هذا القول: خلود لا موت، فإنه بوجود الأموات الكثيرة كيف يكون خلود، بل هو بؤرة الموت والفناء.

ولذا من الضروري أن نعتقد بأن الموت الوارد في الآيات والروايات هو الموت الكلي، الذي يتمثل في صورة خاصة، وتستفيض منها جميع الصور الدنيوية وتبرز في صورها الخاصة، وتؤول إلى ما قدر لها من موت وفناء، حيث جاء في بعض الروايات أنه يتم إمرار ضأن الموت أمام كل حي بشكل وهمي، مما يؤثر في موته، وبذلك يثبت أن الموت هو النفس الكلية ونموذج كامل، مما نزل عليه تجلي "المميت" من صفات الله تعالى، وكأنه نازل في صورة الضأن، وبعد النزول تمثل في ظرفه.

صلة الرحم والأمانة:

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرحم والأمانة: " إن الله عز وجل لما خلق الخلق، قامت الرحم، فأخذت بحقو الرحمن، قالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، اقرءوا إن شئتم {**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**} [محمد: ٢٢-٢٤][١].

والظاهر أن ليس المراد من صلة الرحم والأمانة صوره الجزئية والصلات الدنيوية والأمانات القائمة بين الإنسان، فلم يكن عندئذ إنسان، فضلا عن أن يكون بينهم صلة رحم وأمانة.

ولذا لا بد من الاعتراف بأن النفس الكلية لصلة الرحم والأمانة هي التي ظهرت في الأزل، ومنها استمدت فروع صلة الرحم والأمانة، وبذلك تبين أن قضية النفس الكلية ليست قضية كشفية أو عقلية؛ بل هي قضية شرعية لا يمكن تجاهلها.

النموذج الكلي ليوم الجمعة:

وهكذا إن أخذنا الزمان وما يتعلق به يندرج تحته مثال يوم الجمعة، والذي يبرز يوم القيامة في صورة مشرقة نورانية، ويأتي شفيعا لمن واظب على صلاة الجمعة، ومن هنا يلقب بـ "سيد الأيام"، والظاهر أن هذه الصورة كانت موجودة من الأزل في علم الله تعالى، ولذا امتحن الله تعالى به ثلاث أمم كبيرة من اليهود والنصارى والمسلمين قبل ألوف من السنين، وخيرهم لاختيار يوم للعبادة كيوم عيد، وهو مقرر في علم الله تعالى ليرى أيها أسدُّ رأيا وأحسن اختيارا، فاختار اليهود يوم السبت، واختار النصارى يوم

---

(١) **مسند أحمد**، رقم الحديث: ٨٣٦٧.

الأحد، بينما اختارت الأمة المسلمة يوم الجمعة، وهو اليوم المختار لدى الله عز وجل، ففازت الأمة المسلمة في هذا الامتحان، واتصل رأيها بالوحي الإلهي، الظاهر أن يوم الجمعة هذا لم يكن جزءا من أجزاء السنة والشهر والأسبوع، بل وجوده سابق على وجود الليل والنهار، وأيام الجمعة كلها هي فروع يوم الجمعة ذلك، وكانت هذه الفروع مندرجة في يوم الجمعة الكلي، معلقة به، كما تندرج الجزئيات والفروع في كلياتها، وهي تبرز في عالم الوجود مستمدة من يوم الجمعة ذلك، فإن اعتبرنا يوم الجمعة ذلك نموذجا كليا للأصل النوعي فلا بأس به، مما يثبت النوع الكلي للزمانيات.

من تجلي الإنسانية إلى تجلي الكعبة المقدسة:

إن نزول تجلي الصورة الإلهية على صورة آدم يشبه نزول تجلي نزول الرب سبحانه على الكعبة المقدسة، والفرق بينهما هو الفرق بين تجلي الذات وتجلي الصورة، لا الفرق في النزول وعدمه.

ثم الموافقة بين وضع آدم ووضع الكعبة يظهر في أن الله تعالى اختار أولا للكعبة جهة خاصة في الفضاء اللامحدود، وهو وضع فضائي للكعبة، مما مر تفصيله في قول الله تعالى إن أول بيت الخ سابقا.

ثم أنزل على هذاالوضع الفضائي غير المادي وغير المشاهد التجلي الوجودي، فتمت حقيقة الكعبة، كما سبق تفصيله في ضمن الآية الكريمة.

ثم أمرَّ عليها عددا من الصور المائية التي كانت خفية على أنظار الخلائق، كما دلت عليه آثار الصحابة رضي الله عنهم سابقا.

ثم أمر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ببناء الوضع البنائي للكعبة، فظهرت لها صورة بنائية وجسمانية، فارتبط التجلي بصورتها البنائية، وهكذا ظهرت الكعبة المقدسة في الدنيا بصورتها وحقيقتها، وإن نظرنا في الأحاديث النبوية تبين لنا أن هذه هي صورة وجود آدم عليه السلام، حيث خلق الله تعالى أولا النفس النوعية للبشر في علم الأزل،

وهي صورة معنوية غير مادية، مما وصفه عرفاء الملة ويعتبره أهل الكشف خاضعا للعرش.

فأنزل تعالى على الصورة الكلية والوضعية المادية تجلِّيَ صورته، فنشأت منه حقيقة النوع الإنساني كالكعبة، متمثلةً في كلي ذي حقيقة غير محسوس، وإذا أراد إظهارها شخص لها هيئة نوعية ووضعها تحت العرش في صورة مشخصة، كانت هي النموذج الأول للحقيقة الإنسانية، كما يشهد بها عرفاء الملة الإسلامية، ثم خلق صورة آدم من الماء والطين، موافقة للنموذج الوضعي، ثم نزلت عليها أشعة تجلي الصورة النوعية والكلية في إطارها المحدود، وسرت فيها سريانا تاما، وتمثلت في صورة آدم، وهكذا برزت شخصية آدم عليه السلام في صورته وحقيقته على ساحة الوجود.

فكما أن الكعبة مرت بمراحل الوضع والصورة والخلقة والهيئة الحسية، ثم ظهرت في صورتها الحالية، مرت كذلك صورة آدم بمراحل الوضع والصورة والهيئة الحسية والخلقة، ثم ظهرت في العالم المادي في وضعها الحالي، ولعل هذه الحقيقة قد ظهرت في رواية "خلق الله مائة ألف آدم" إن صحت الرواية، مما يدل على أن الحقيقة الإنسانية ربما مرت بمراحل مئات الآلاف، ثم تمثلت في الصورة الحالية، فكانت ذات واحدة؛ إلا أن المراحل التي مرت بها بلغت الآلاف، فصدقت على آدم الواحد كلمة مائة ألف آدم.

فالتشابه الغير العادي بين الكعبة والحقيقة الإنسانية يقتضي أن نعترف بأن الصورة الإلهية قد ظهر عكسها أو تجليها في الكعبة والحقيقة الإنسانية، كما ذكرتُه في الكعبة، فإن التطابق اللفظي الوارد في القرآن والحديث في بيان حقيقة من الحقائق يؤدي إلى تطابق في المعنى طبعا وعقلا، ومن المناسب أن نقر في حديث "خلق الله آدم على صورته" نفس التجلي الوارد في آية: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ** (سورة آل عمران: ٩٦).

فإنه إذا سلمنا نزول تجلي الذات لا الذات وحدها على الكعبة المقدسة فمن السهل عقلا وشرعا تسليم نزول تجلي الصورة الإلهية في آدم بشكل جزئي، وفي نوع الإنسان بشكل كلي، وليس فيه ما يدعو للدهشة والعجب.

بل لا مانع من أن نتقدم خطوة فنقول: إن الحديث المذكور في ضوء ما يحويه من معان سامية ليس مقطوع الصلة بالقرآن الكريم كليا، فإن معاني الحديث إن كانت لم تثبت بعبارة نص القرآن فلا مانع من ثبوتها عن طريق القياس والاستنباط من النص القرآني كما أشرت إليه آنفا.

الصورة الأولى للتقابل بين الخالق والمخلوق:

إن التقابل بين الخالق والمخلوق، الذي استعمله رب العالمين عن طريق صفاته القدسية النزيهة لم يكن إلا صورة من صور عكس الذات، وهو المعبر عنه بالتجلي، فإن التجلي والعكس أمران متحدان أو متقاربان لوجوه تالية:

١- إن العكس من شأنه أن يظهر في كل ما جلَّ ودقَّ من أمور وأشياء كونية.

٢- لا يكون العكس غير أصله، بل العلاقة القائمة بين الصورة الأصلية والصورة العكسية هي علاقة العينية، ثم يرتبط كل منهما بذات واحدة، ويتمثل فيها، أجل! ياتي الفرق بينهما في المراتب والدرجات.

٣- العكس وإن كان بالغا غايته في اللطافة والدقة يقبل تشكلات وقيود الزمان والمكان والهيئة، فتتحدد وتتعين، وهذا مستحيل بالنسبة للذات الواجبة الوجود، أما عكسها فلا استحالة له في هذا التقيد والتعين.

فثبت أن العكس والتجلي يحمل خصائص، تجعل التقابل بين الحق والخلق وبين العابد والمعبود أمرا سهلا ميسورا.

خصائص التجلي أو العكس:

إن للتجلي خصائص تالية:

١- منها ظهور عكس الأشياء اللطيفة في الظروف الكبيرة والصغيرة، وقد أوضحته سابقا بمثال الشمس وضيائها وسريانه في كل مكان صغير وكبير، حيث تنزل كرة عظيمة كالشمس في شيئ حقير كالمرآة، وعادت الشمس التي يمكن أن يراها أحد جديرة بالمشاهدة والرؤية في المرآة، ويقول الناس: قد رأيت الشمس في المرآة، ولا يقولون: قد رأيت البستان أو الحديقة في المرآة، مما يدل على أن عكس الأشياء يمكن أن يسري في أصغر الأشياء وأتفهها، ويصير أهلا للمشاهدة، ثم مشاهدته توصف بمشاهدة عين الأشياء، فإن عكس الشيء لا يكون غيره، فإنه لو كان غيره لما أمكن معرفة أصل الشيء بالنظر إلى عكسه، ولكان من الخطأ أن يقال: قد رأيت الشمس في المرآة، مع أنه لا يعتبره أحد خطأً، ثم لا يظهر في المرآة صورة الشمس أو قرصها فحسب، بل تظهر فيها كل معالمها وأجزائها، وخواصها وأفعالها وجميع آثارها وتصرفاتها، كالضوء والحرارة، وما إليها من الأمور، فإن ما يراه الناس في المرآة هو عين ما يرونه في الخارج.

٢- وبذلك يتبين الفرق بين صورة الشيء وعكسه، أما الصورة فهي ظل ظاهر الشيئ، لا حركة ولا نشاط، ولا خواص ولا آثار، ولا أفعال وتصرفات، بينما العكس لا يحمل الصورة الظاهرة فقط؛ بل يشمل جميع الحركات والسكنات، والأفعال والآثار، فإن الأعمال التي تمارسها الشمس يمارسها عكسها، من الإنارة والحرارة والتدفئة، والتجفيف وإزالة الرطوبة، والإظهار، والإراءة وما إليها، ثم عكس الشيء يحمل من الضياء ما تحمله الشمس، فليس للمرآة أن تعطي عكسَ الشمس نورا، هو غير نور الشمس، فإن المرآة بنفسها شيئ خالٍ من النور والضياء، والفعل

والإرادة، فكيف لها أن تعطي غيرها نورا وضياء، وتظهر فعالية النور، فإنها لا تستطيع أكثر من قبول النور، فليس لها الفعل والتصرف، حتى إن كانت المرآة أمام الشمس وشاءت أن ترفض عكسه فلا تستطيع ذلك، فظهور عكس الشمس في المرآة من أعمال الشمس لا من أعمال المرآة. نعم! إن هناك فرقا بين أعمال أصل الشمس وأعمال عكسها مع وحدتها، وهو فرق في الشدة والخفة، فإن الأشياء إذا كانت أمام الشمس بلا حجاب وواسطة يكون الشعور بالضياء والحرارة شديدا، أما إذا كانت بواسطة المرآة يكون الشعور بكل من الحرارة والضياء خفيفا، وهو الفرق بين أصل الشيئ وعكسه، الذي لا يعدو فرقا بين الشدة والخفة، وليس فرقا في العينية والغيرية، أو التأثير وعدمه، فإن الصورة في المرآة هي عين ما في الخارج، إلا أنه لا ينكر أحد أن الذات المنعكسة في المرآة هي التي تتواجد في الخارج، إلا أنها تظهر في المرآة بدرجة ثانية، وهذه الثانوية جاءت بواسطة المرآة، وليس هذا خيالا للناظرين؛ بل مثالا للشيء، فللشمس صورة حقيقية خارجة في المرآة، ولها صورة مثالية في المرآة، والعلاقة بين الصورتين هي علاقة العينية والوحدة، ولذا أدعي أن رؤية العكس هي رؤية الأصل، والاستفادة من ضياء العكس كالاستفادة من عين الشمس، وأعتبرها من الدعاوي البديهية، فإن العكس لا يكون غيره في الواقع، نعم! إن ظهور العكس إنما يكون في الدرجة الثانية، أما الذات فهي واحدة، وأما الظهور فهو في المرتبة الثانية.

٣- واسطة التجلي محافظة على عقيدة التنزيه: وإذا فكرنا في أن الشمس رغم ابتعادها وارتفاعها بصفاتها وأفعالها النورانية عن الأرض بآلاف أميال تنزل في المرآة، ولايفارقها نورها وأفعالها المؤثرة، ويوصف عكسها في المرآة بأنه شمس، ويكون التنوير والتأثير من أفعال الشمس، وإذا أمكن كل ذلك بالنسبة إلى الشمس، فليس

من البعيد المستحيل أن يقع كل ذلك في ذات الله سبحانه، حيث نعتقد بأن الله سبحانه مع اتصافه بجميع صفاته العلى وأفعاله المباركة وعلوه فوق العرش العظيم يظهر عكسه وتجليه في مرآة الكون، ولا يوصف العكس بغير الذات الإلهية، وتعتبر عبادة هذا العكس عبادة للذات الإلهية، وهذا أمر لا داعي للدهشة والاستغراب، فليس لأحد أن يقابله بالرفض والاستنكار.

ثم التحديدات الزمانية والمكانية أو الجهتية أو الصورية والشكلية أو اللونية مما لا يمكن أن يتصف به رب العالمين إن ظهرت في العكس فلا عجب في ذلك أيضا، كما مرَّ، إلا أن هذه القيود والحدود ليست صادرة عن الذات الإلهية، بل هي لخصائص المرآة ذاتها، التي ظهر فيها العكس، فلا تبدو إلا إذا كان العكس نازلا في هذه الحدود والقيود.

ففي هذه الصورة لا يتأثر مبدأ تنزيه الله سبحانه عما لا يليق بشأنه، ولا يعوق عائق المصلين عن ممارسة العبادات أما العكس الإلهي، فإن مواجهة العكس كمواجهة الأصل، فالعكس لا يكون غير الذات، ومن أمثلته البارزة التي ندركها صباح مساء أن الإنسان يتلو القرآن الكريم –وهو كلام الله– ويرافق التلاوةَ كلٌّ من الصوت واللهجة والنبرات وحركة اللسان المادي وزفير وشهيق، والتقيد بزمان ومكان؛ إلا أنه مع هذه الأشياء المادية التي تصحب تلاوة القرآن الكريم لا يقول أحد بأن ما يقرؤه هو كلام القارئ لا كلام البارئ سبحانه؛ بل يوصف بأنه كلام الله حتما، ويظهر منه الآثار المودعة في كلام البارئ، ولا يسري فيه آثار القارئ المعجونة طينتُه من اللحم والدم، فيمكن أن نقول بالنسبة إلى تلاوة القرآن الكريم: إن التلاوة تحوي تجليَّ كلام الله تعالى، وهو عكس الكلام الرباني الأصيل ومثاله، فلا يوصف المقروء بانه غير القرآن أو غير كلام الله تعالى، بل هو كلام الله تعالى، فإن العلاقة بين عين الكلام وعكس الكلام ليست علاقة الغيرية، وإن كان ينطقه لسان

العبد، قال الله تعالى: **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (*) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** (سورة النجم: ٣-٤)، كما قال الشاعر الفارسي: إن أقوال الرسول ﷺ هو أقوال الله تعالى، وإن ظهرت من حلقوم عبد من عباد الله.

وإذا أردت أن تعرفه بشكل جيد ففكر في نفسك، بحيث خذ المرآة بيمينك، وانظر فيها إلى صورتك، فأخبرني هل نزلتَ في المرآة؟ مع أنها بين أصبعيك، فهل يتصور أحمق وسفيه أن الإنسان جاء يبن أصبعين منه، ولا يمكن له الانفكاك من بطشهما؟بل يقال: إن الإنسان قائم في حيزه ومركزه خارج المرآة، إلا أنه يظهر في المرآة بصورته المثالية والعكسية، فالصورة التي في المرآة ليست صورته الأصيلة والخلقية، وإذا عرف الإنسان نفسه في المرآة معرفة تجعله يقول: هذا أنا، وليس غيري، فهذا يعني أن عكس الشيء هو أصل الشيء بعينه، وإلا لم يكن من السهل معرفة الذات بالنظر في العكس.

ولا ممتنع شرعا وعقلا أن نجعل الأمر كذلك بين ذات الله وعكسه، وقد عبر عنه الإمام الجامي رحمه الله في شعرين رائعين، حيث قال: إن نظَّفتَ قبلك كالمرآة، أمكن أن ترى جمال الحبيب كما تراه في المرآة، فهو يعيش في قلبي، وأنا أعيش في داخله، كما أن المرآة تكون بيدي، وأنا أكون في المرآة".

وعلى كل حال إذا ثبت أن عكس الشيء لا يكون غيره، فلا مانع من اعتبار العكس أصلا، واعتبار ظهور التجلي ظهورا للذات بعينها.

الإيضاح الشرعي للحقيقة الحسية:

وبعد النظر في الحقيقة المذكورة إن تدبرنا آيات التجلي في القرآن الكريم، الذي نزل على شجرة الطور متمثلا في النار، توصلنا إلى أن هذه الحقيقة الحسية هي الحقيقة الشرعية؛ فإن العكس لا يكون غير الذات، وأن رؤية العكس هي رؤية

الذات، والسماع إليه هو السماع إلى الذات، والخضوع للعكس هو الخضوع للذات، حيث أظهر القرآن هذه الحقيقة في تجلي شجرة الطور، حيث قال: **وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (*) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (*) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى (*) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (*) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (*) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** (سورة طه: ٩-١٤).

عكس الذات ليس غير الذات:

وهذه الآيات الكريمات تدل على أن العكس لا يكون غير الذات، فإن الظاهر أن هذه النار لم تكن عين الذات الإلهية، ولا يمكن أن تكون، فإن الذات الإلهية منزهة عن الصورة والشكل والسمت والجهة وما إليها من الأمور المادية، ومن ثم جاء القرآن الكريم بعد ذكر آيات التجلي بما يدل على تنزيه البارئ وقداسته من الأشياء المادية، وذلك بقول"سبحان الله"، كما قال تعالى: **إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (*) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (سورة النمل: ٧-٨).

مما يدل على أن النور الذي ظهر في صورة النار، متقيدا بالقيود المادية لم يكن عين الذات الواجبة،بل كان تجليا وعكس الذات الإلهية، إلا أنه لما صدر عنه صوت سمعه موسى، وهو أني أنا الله، أنا ربك، وأنا اخترتك للنبوة، فاعبدني، وأقم الصلاة لذكري، واستمع لما يوحى، فاتضح جليا أن هذا التجلي ليس غير الذات، وليس بينه وبين الذات علاقة الغيرية، وإلا لم يصدر عنه هذا الصوت، فإنه إن قلنا: إن الصوت صدر عن غير الله تعالى، لأدى إلى الاعتراف بأن الوحي لم ينزل على موسى عليه السلام

من قِبَلِ الله تعالى، بل من غيره، وأنه لم توهب له النبوة من الله تعالى، وأمر موسى بعبادة غير الله تعالى، فإن آمنا بكل هذا دخلنا في الشرك على مصراعيه، وهو شرك بواح، مخالف للتوحيد الخالص، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وهو أمر لا يلائم مكانة الأنبياء والرسل عليهم السلام.

فإنه من أشد المستحيلات أن يُتَصوَّر أن الأنبياء عليهم السلام يخضعون لغير الله، ويطيعون أوامره، ويعبدون ذاته.

فالآيات الكريمة المذكورة تبين الحقيقة بكل جلاء ووضوح، وهي أنه بين التجلي وبين الذات الأصيلة علاقة الوحدة والانسجام عند الله تعالى أيضا، وكان موسى يعرف هذه العلاقة ونوعيتها، ولا يفرق بين التجلي والذات؛ بل أحدث الله كل ذلك ليعلم موسى أن بين الله تعالى وبين تجليه علاقة الوحدة، لا علاقة الغير والتضاد، ومن هنا لما سأل موسى بعد الاستماع إلى كلام رب العالمين سأله رؤيته، فقال: رب أرني أنظر إليك، والظاهر أن هذا السؤال كان متجهًا إلى رؤية الذات؛ فكان موسى يتشرف بخطاب الله سبحانه، فجاء الجواب بصيغة النفي، وهو قوله تعالى: لن تراني، وهذا يعني أن السؤال مرفوض، ثم قبل الطلب بشرط استقرار الجبل، أي إن استقر الجبل على مكانه فأمكن رؤية الله تعالى، كما قال: فإن استقر مكانه فسوف تراني، فقبول الطلب بشروطٍ هذا إنما يتعلق بالذات الإلهية لاغير، فالحاصل أن طلب موسى ثم الجواب الإنكاري ثم القبول المشروط المتقيد بإمكانية الرؤية كل ذلك متعلق بالرؤية الإلهية.

ولكن الذي نزل على الطور في الجواب عن طلب رؤية الذات إنما كان تجليا، لا غير، والذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا، فثبت نزول التجلي لا نزول الذات الإلهية، فإنه لونزلت الذات الإلهية بعينها لقال تعالى: فلما نزل ربه، مكان فلما تجلى ربه.

فإسناد أمر متصل بالذات الإلهية إلى التجلي دليل ناصع على أنه لا فرق بين الذات وتجلي الذات، وليس بينهما علاقة الغيرية والتضاد، بل بينهما علاقة الوحدة والانسجام بشكل ينبغي لله سبحانه، مما يعني أن خروج الصوت من التجلي دليل على معرفة الذات لا غير، وكما أن بين التجلي والذات علاقة العينية أدركها موسى كذلك، فتاب واستغفر ومارس جميع العبادات متجها إلى التجلي دون الذات، وإلا لوكان موسى عليه السلام شاكا في علاقة الوحدة بين الذات وتجليها لقال: رب! إنما سؤالي يتعلق برؤية الذات، لا برؤية العكس والتجلي، فما صادفت طلبتي؛ ولكن سيدنا موسى عليه السلام قال بعد ظهور التجلي: تبت إليك عن سؤالي عن رؤيتك(وذاتك ألطف حقيقة في العالمين) في هذه الدنيا الكثيفة المادية، مما لا يناسب الشأن الإلهي، وفيه دليل كاف على أن موسى لا يعرف أن هناك فرقا بين الذات وبين التجلي، وكل من الصورتين تظهر الذات الإلهية، فاعتبر موسى عليه السلام عكس الذات الإلهية نفس الذات، فإنه لوكان يدرك غير ذلك لم يظهر أمامه التجلي، وإن ظهر أمكن لموسى أن يقول بأدب واحترام: هذا خلاف ما أردت، ولكن لم يفعل موسى ذلك، بل استسلم للموقف، وتاب واستغفر ربه أمام هذا التجلي كل ذلك يوضح أن موسى عليه السلام يدرك علاقة العينية بين العكس والذات وفق الأفعال الإلهية، فكان على يقين بأن ما يحدث مع التجلي هو بعينه ما يحدث مع الذات الأصيلة، فرؤية التجلي والتأثر منه والاستفادة منه، والاستماع إلى صوته، وصدور الزجر والتوبيخ عن التجلي كل ذلك يقوم مقام ما يصدر عن الذات الأصيلة، والخضوع أمامه هو الخضوع أمام الذات، وعبادة العكس هي عبادة الذات، نعم! إن بينهما فرقا، هو أن التجلي لا يُظهر الذات إلا في الدرجة الثانية، أما الصورة الأصيلة فهي تظهر الذات بالدرجة الأولى، وبنوعية عالية، كما فصلتُه سابقا.

وعلى كل فإن الوحدة بين الذات الأصيلة والعكس ثبت وضوحها عن طريق مسألة الطور، والذي انجلى تماما بقول الله تعالى: إني أنا الله، وقيام موسى عليه السلام بكل من التوبة والاستغفار أمام تجلي الذات الإلهية.

إظهار التجلي في الحدود والقيود:

وهناك مسألة خطيرة يجب حلها، وهي أنه من البديهي أن الذات الإلهية اللطيفة مطهرة من الحدود والقيود، ولا يدركها الأبصار للطافته البالغة منتهاها، فما هو حال التجلي الإلهي؟ أهو الآخر يبقى منزها عن الحدود والقيود أم يجوز له التقيد بهذه القيود؟ ثم إن كان بإمكان التجلي التقيد بالأشكال المادية فكيف أمكن للتجلي الذي بينه وبين الذات الإلهية علاقة الوحدة والالتئام أن يتقيد بالقيود والحدود، ويتمثل في صور مادية مختلفة؟

والجواب ظاهر وبسيط، وهو أن تجلي الطور كما أبدى علاقة الوحدة بين الذات والتجلي، فكذلك أثبت التجلي الناري النازل على شجرة الطور جواز تقيد التجلي بالسمت والجهة، والزمان والمكان، والشكل والصورة، والصوت واللحن وما إليها، فالمسألة مكشوفة الحل، سافرة الجواب، ولا مانع من تدبر الحقائق التالية:

١- إن موسى عليه السلام لما رأى تجلي الشجرة، واقترب منها، ثبت التقابل بين موسى والتجلي ، والتقابل دليل على تقيد الشيئ بجهة خاصة، فلا إمكانية التقابل بدون وجود الجهة، فإن التقابل إنما يتم إذا كان الشيء في جانب والشيء الآخر في جانب آخر أمامه، فإن كان موسى عليه السلام في الجانب الشرقي مثلا، فكان التجلي الناري في الجانب الغربي، أو بالعكس، وإلا فلا معنى للتقابل، مع أن التقابل ثابت بالنص القرآني، حيث قال الله تعالى: فلما أتاها، وهذا يعني مواجهة موسى للتجلي، فإن الإتيان لا يتحقق بدون المواجهة والمقابلة، مما يوضح أن التجلي كان متقيدا بقيود السمت والجهة.

٢- وبذلك تبين أن التجلي متقيد بالمكان، حيث ظهر على الشجرة المباركة في الوادي المقدس طوى، وليس الطور أو وادي الطور إلا مكانا من الأمكنة، كما قال الله تعالى: "فلما جاء ميقاتنا ربه"، والميقات يشمل كلا من الزمان والمكان،

كما سمى مواضع الإحرام بالميقات، فتقيد التجلي بظرف مكاني ثابت بكلمة "ميقاتنا"، وهذا واضح.

٣- كما ثبت جواز تقيد التجلي بالزمان؛ حيث ظهر التجلي على الشجرة الطيبة المباركة في الطور ليلا، عندما كان موسى متجها مع أهله من مدين، فضل الطريق، واقترب من الطور، وكان الليل شتويا قارسا، وكانت أهله في حاجة إلى النار، لتستدفئ بها، فخرج يبحث عن نار، يقتبس منها، فلما أنس نارا، سار إليها، فضوء النار أرشده إلى الوصول إلى ذلك المكان، وما كانت النار إلا تجليا ربانيا، تمثل في صورتها، وكل ذلك مفيد أن ذلك التجلي كان متقيدا بالزمان أيضا، بل الليل القارس هو الذي سبّب البحث عن النار، وبالتالي الوصول إليها، كما هو ظاهر من قوله تعالى: "آنست نارا".

٤- وبالآية الكريمة المذكورة أعلاه ثبتت إمكانية تقيد التجلي بصور وأشكال، تتناسب مع المقام والأحوال، فإن التجلي قد ظهر متقيدا بالصورة والشكل؛ فإنه تمثل في صورة النار، التي كانت متلائمة مع ظروف موسى عليه السلام آنذاك، حيث كان موسى قد خرج باحثا عن النار، فصورة النار كانت أنسب صورة وأليقها بالأحوال الموسوية، ثم ظهور النار من الشجرة المخضرة يشكل آية ربانية باهرة، أراد الله تعالى أن يراها موسى، ليطمئن قلبه، ويعلم أن هناك قوة ربانية غيبية، تعمل في هذه الآية الباهرة، فإن كون الشجرة الخضراء تخرج منها النار، ولا تحترق ساقها ولا تذبل أوراقها، دليل كبير على المعجزة الإلهية والآية الربانية.

٥- كما أن الله تعالى أراد أن يخلق شوقا قويا في قلب موسى إلى المعجزة، فأظهرها في صورة النار، ليرى اجتماع المتناقضين: وهما النار والشجرة المخضرة من الماء، وينبهر بهما أشد الانبهار، فيتكون في قلبه اشتياق شديد إلى التعرف على أسرار هذه

الحقيقة العجيبة، يدفعه إلى الاقتراب من النار، ومن هنا ظهر التجلي متمثلا في صورة النار، كما جاء في قوله تعالى: "آنست نارا".

٦- وبه يتضح أن من شأن التجلي أن يخاطب الإنسان ويخرج منه صوت، يسمعه الإنسان، كما سمع موسى قوله تعالى: **قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** (سورة الأعراف: ١٤٤)، وقوله تعالى: **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى (*) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (*) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (*) إِنَّنِي أَنَا الله لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (*) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (*) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى** (سورة طه: ١١-١٦) (*)، والمعلوم أن هذه الكلمات المباركة قد صدرت عن التجلي الرباني.

٧- كما يتضح أن التجلي من شأنه أن يكون مخاطَبا، ويخاطبه الإنسان، كما خاطبه موسى عليه السلام، بقوله: تبت إليك وما إليه من الأقوال المذكورة في القرآن الكريم.

٨- كما اتضح أن رؤية التجلي في هذه الدنيا ممكنة، بشرط أن يكون بصر الرائي مكتحلا بنور البصيرة، كما شاهد موسى عليه السلام هذا التجلي ببصر رأسه وبصيرة قلبه، كما ظهر من قوله تعالى: فلما رأى نارا.

٩- كما أن فيه دلالة كبيرة على أن تجلي الذات مع مابينه وبين الذات من وحدة وانسجام لايكون أزليا ولا أبديا؛ بل يظهر وهو متقيد بالزمان، والسبب أن التجلي ليس من صفات الذات التي تكون بالضرورة أبدية وأزلية، بل هو من أفعال إظهار الذات، فلا يظهر إلا في وقت الضرورة، وبقدر الضرورة، ومن ثم

تم وضع الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام بألفي عام، وهذا يعني أن التجلي الوارد على الكعبة لم يكن أزليا، وكذلك إذا تم انهدام الكعبة قبل قيام الساعة زال التجلي، فليس بأبدي كذلك.

١٠- ومن هنا اتضح أنه من الممكن أن يظهر شيء واحد في أماكن متعددة، وفي صور متعددة، كما إذا وضع شيء واحد أمام المرايا الكثيرة، فيظهر في جميع المرايا في وقت واحد، ويكون للشيء والواحد صور كثيرة. وتلك عشرة كاملة.

فالتجلي الرباني أو العكس الإلهي يمكن أن يتقيد بكل من الزمان والمكان والجهة والتعدد، ثم ليس من الضروري كذلك كونه أزليا أو أبديا، ومع ذلك كله يتحد العكس والتجلي والذات الإلهية لدى الظهور، ولا يختلفان، فإن كل ذلك يدل على أن العبد يمكنه أن يقابل ربه عند العبادة بواسطة التجلي.

فظهور التجلي في الظروف المادية، وتقيده في الجهة، وقبوله للرؤية، وكلامه لدى التخاطب، وتعدده في الظهور، كل ذلك أمور، يصرح بها النص القطعي، ودليله ليس تمثيلا للشمس؛ بل تنزيلا لها، ويتضح أن رؤية الذات لا يمكن في قيود حسية وعوارض جسمانية، سواء كانت مكانية أم زمانية، أو كمية أو كيفية، أو جهتية، أو صورية أو معنوية، ولكنها ممكنة للتجلي الرباني.

قضية التمثل في ضوء الأحاديث النبوية:

وهذه الآية (آية تجلي النار الواردة على الشجرة المباركة في بقعة وادي الطور) تضع حلا مفيدا لمشكلة التمثل الإلهي، فكذلك تتناولها الأحاديث النبوية بشكل يكشف عن هذا الغموض ويرفع هذا الإبهام، فكثير من الأحاديث النبوية تفيد معاني التمثل والصور المثالية، واستنبط منها العلماء المعاني المثالية، وأثبتوها بكل ثقة واعتماد، فجاءت بعض النصوص بذكر لفظ التمثل صراحة، بينما دلت الأحاديث الأخرى على التمثل على سبيل

إشارة النص و اقتضاء النص، وقد تحدث فيه كثير من علماء السلف والخلف، وتوصلوا إلى إثبات التمثل في ضوء الروايات الواردة في هذا الباب.

فكان الشيخ الشاه عبد العزيز الدهلوي والشيخ القاضي ثناء الله الباني بتي من العلماء المتأخرين الذين تناولوا هذا الموضوع، وأثبتوه بدلائل قوية، كما ذكرت لهما نصوصا واضحة في السابق.

وأذكر هنا ما كتبه العلماء الأعلام المتأخرون نحو الشيخ حكيم الأمة أشرف علي التهانوي في كتابه "نشر الطيب" وغيره من العلماء الكبار، الذين كتبوا حول موضوع التمثل والصور المثالية بشكل جامع، كما سيتضح بالأمثلة التالية:

١- أخرج الإمام أحمد في مسنده حديثا عن ابن عباس جاء فيه: أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَيْتِ الْمُقْدِسِ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ ، فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ ، وَبِعَلامَةِ بَيْتِ الْمُقْدِسِ ، وَبِعِيرِهِمْ ، فَقَالَ نَاسٌ ، قَالَ حَسَنٌ : نَحْنُ نُصَدِّقُ مُحَمَّدًا بِمَا يَقُولُ ؟ - فَارْتَدُّوا كُفَّارًا ، فَضَرَبَ اللهُ أَعْنَاقَهُمْ مَعَ أَبِي جَهْلٍ ، وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ ، هَاتُوا تَمْرًا وَزُبْدًا ، فَتَزَقَّمُوا ، وَرَأَى الدَّجَّالَ فِي صُورَتِهِ رُؤْيَا عَيْنٍ ، لَيْسَ رُؤْيَا مَنَامٍ ، وَعِيسَى ، وَمُوسَى ، وَإِبْرَاهِيمَ ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ، فَسُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الدَّجَّالِ ؟ فَقَالَ : أَقْمَرُ هِجَانًا - قَالَ حَسَنٌ : قَالَ : رَأَيْتُهُ فَيْلَمَانِيًّا أَقْمَرَ هِجَانًا - إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ ، كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ، كَأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ ، وَرَأَيْتُ عِيسَى شَابًّا أَبْيَضَ ، جَعْدَ الرَّأْسِ ، حَدِيدَ الْبَصَرِ ، مُبَطَّنَ الْخَلْقِ ، وَرَأَيْتُ مُوسَى أَسْحَمَ آدَمَ ، كَثِيرَ الشَّعْرِ - قَالَ حَسَنٌ : الشَّعَرَةِ - شَدِيدَ الْخَلْقِ ، وَنَظَرْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَلاَ أَنْظُرُ إِلَى إِرْبٍ مِنْ آرَابِهِ ، إِلاَّ نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنِّي ، كَأَنَّهُ صَاحِبُكُمْ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : سَلِّمْ عَلَى مَالِكٍ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث: ٣٥٤٦.

واستنبط منه العلماء أن الدجال الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم كان صورته المثالية، ولم يكن الدجال موجودا بعينه هناك. فلم يولد الدجال حينئذ.

٢- أو كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأي في جدار المسجد الجنة والنار كما جاء في صحيح البخاري، مع أنه ليس من الممكن أن يسع الجدار الضيق كلا من الجنة والنار، فقال العلماء: قد انعكست صورة الجنة والنار في الجدار، إلا أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أطلق عليه رؤية الجنة والنار، ونص الحديث أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى بِنَا يَوْمًا الصَّلَاةَ ثُمَّ رَقِيَ الْمِنْبَرَ فَأَشَارَ بِيَدِهِ قِبَلَ قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: «قَدْ أُرِيتُ الْآنَ مُذْ صَلَّيْتُ لَكُمُ الصَّلَاةَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مُمَثَّلَتَيْنِ فِي قِبَلِ هَذَا الْجِدَارِ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّر»[1].

٣- أو كما أن الميت في قبره يرى زوال النهار واصفرار الشمس وميلانها إلى الغروب حسب ما جاء في كتب الأحاديث، مع أن العالم البرزخي لا يوجد فيه شمس ولا قمر، ولا ليل ولا نهار، ولا وقت ولا ساعة، فحُمل الحديث على أن المراد بالشمس هي الصورة المثالية للشمس المائلة إلى الغروب، بل هذا مصرح به في الحديث، حيث جاء فيه: يتمثل له الشمس.

٤- أو كما أخرجه البزار بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ليلة الإسراء بابا عن يمين إبراهيم، تفوح منه الرائحة الزكية، وبابا عن يساره، تنبعث منه الرائحة الكريهة، فشرح الشيخ حكيم الأمة التهانوي رحمه الله هذا الحديث بقوله: لم تكن أرواح ذرية آدم عليه السلام مستقرة في السماء في ذلك الوقت؛ بل كانت في مقرّها المحدد، وكان بين مقرها وآدم هذا الباب، الذي ينعكس منه صور الذرية على هذا المكان، أو كان الهواء المنبعث منعكسا من أرواح

---

(١) أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم الحديث: ٧٤٩.

الذرية، كما أن الهواء إذا لابس الأشعة يصلح للرؤية، والرواية اشتملت على كلمة الباب مما يدل على أن الباب كان ذريعة لوصول صور الذرية إلى هذا المكان، (حيث توجد الذرية في الأرض وتصل رائحتها الزكية أو الكريهة بواسطة الباب إلى ذلك المكان)، وبذلك وصل أثرها إلى السماء الدنيا.(نشر الطيب، ص٥١).

وعلى كل فالروايات المذكورة أعلاه وما في معناها من الروايات التي يطول بذكرها المقام تدل على ثبوت الصور المثالية والانعكاسية، بل هذه الروايات وتصريحات العلماء في هذا الباب تضع أصلا شرعيا، وهو أن المخلوقات أو الحقائق المعنوية إن ظهرت في صورة خاصة في موضع، حيث لا يمكن وجودها بعينها فهي محمولة على الصور المثالية أو العكسية لا الصور العينية والأصلية، فإن كانت الصفات الإلهية أو الأسماء الإلهية او الشؤون الربانية إن تمثلت في صورة وظهرت في هذا العالم المادي فلاجرم أنها صورة مثالية للصفات والشؤون الربانية، لا صورة أصلية، إلا أنها تدل على ذات الله سبحانه، لما بينها وبين الصورة الأصلية من علاقة العينية والاتحاد.

فبعد هذا الشرح والبيان أصبحت قضية التجلي قضية معقولة مفهومة بشكل مبسط لا قضية عجيبة تثير العجب والحيرة.

استقبال القبلة هو في الواقع استقبال التجلي الرباني:

الظاهر أن عكس الخالق إذا لم يكن غير ذاته، ومع ذلك أمكن نزوله فيما هو محدود، فكيف يستحيل نزول تجلي الخالق سبحانه في المرآة المحدودة لبيت الله، حيث تعين موضعه وجهته، وظهرت آثاره، وبدا مكانه المشاهد، فمعناه وجود المقابلة بين ذات الله سبحانه وبين عكسه، أما رؤية العكس والتجلي فلا شك أنها ممكنة، فإن سيدنا موسى عليه السلام لم ير إلا التجلي الرباني، لكنه شرف لا يحصل لكل من هب ودب، كما قال الشاعر: لم يستطع موسى أن يتوصل إلى هذا المقام الرفيع إلا بتوفيق من الله سبحانه.

نعم! إن رؤية التجلي الرباني ليست بممتنعة ولا مستحيلة، ولكن كفى للعامة أن يواجهوا بناء بيت الله، الذي أحاط بالجهة الفضائية التي هي الكعبة الحقيقية، وفيها نزل التجلي الرباني لينير العالم ويملأه نورا وهدى، وهذه حقيقة الكعبة، وهي تحتوي على كل من الزمان والمكان والجهة، وهذه المواجهة تسمى في الاصطلاح الشرعي باستقبال الكعبة، وهو في الواقع استقبال التجلي الرباني؛ ولكن في ظلال الكعبة الحسية، والكعبة الحسية اشتملت على الكعبة الوضعية الحقيقية، التي هي عبارة عن الجهة الخاصة من الفضاء، والكعبة الحقيقية هي التي انطوت على التجلي الرباني.

والظاهر أن التجلي إذا تعين محله وجهته، وثبت له وجوده في المحل الخاص ولو لم يظهر للعيون، وفي تعبير آخر: وإن كان مستورا باللباس الجميل الذي ارتداه، فالتجلي إذا كان له هذا الشأن يطلق عليه أنه شيء مرئي ومشاهَد بلا شك.

وعلى كل فإن الله تعالى جعل التجلي واسطة في رؤية البارئ لولع الإنسان برؤية ما يعبده ويسجد له، وأثبت أن الله تعالى إذا لم يكن أمام عبده فعكسه الذي ليس غيره ماثل أمامه، كما توجد أمامه المرآة المحسوسة للعكس، التي وضعت للتعريف بذات الله سبحانه، فالتجلي الوارد في داخل الكعبة ليست -مع تقيده بالحدود المادية - له علاقة الغيرية بالمعبود، مما يثبت أنه سبحانه موجود أمام الإنسان عيانا، وبذلك يثبت أن الإنسان يمكن له أن يعبد ربه أمام التجلي ومحل التجلي بواسطة العكس الرباني، مما يرادف مقابلة الله سبحانه لاتحاد التجلي وذاته، فالله تعالى تكرم على عباده بإنزال تجليه على الكعبة المقدسة، لتقع عبادات العباد ودعواتهم وابتهالاتهم بكل تضرع وانكسار موقعا حسنا، ومع هذا لا تؤثر في تنزيه البارئ وتقديسه وشأنه اللامحدود، فبعد هذه المواجهة في العبادات لا يمكن أن توصف عبادات المؤمن بأنها عبادات معبود غير مرئي، أو غير معروف أو غير متميز، حتى يقال: إنه عبادة لا جاذبية فيها.

فآية التجلي تفيد مبدأ عظيما، وهو أن أي مخلوق ظهر فيه شيئ من الكمالات الربانية، لا يستلزم نزول الذات الواجبة أو الصفات الواجبة، فإنه مستحيل عقلا وشرعا، بل ينزل فيه التجليات والعكوس الربانية.

وإذا نظرنا إلى هذا المبدأ من منظور قرآني، توصلنا إلى أنه لا فرق بين آية التجلي وبين الحديث الحكيم: خلق الله آدم على صورته.

ونار الشجرة لم تكن نارا مادية وعنصرية، بل كانت نارا غيبية، كذلك لم تكن الصورة الإلهية صورة مادية أو عنصرية، بل هي صورة معنوية وغيبية تليق بشأن الله سبحانه، وظهر من نار الشجرة نداء إني أنا الله، ووصفت هنا صورة آدم بكونها على صورة الله، ونزل التجلي هناك على المخلوق المادي (الشجرة) متمثلا في النار، ونزل تجلي صورة الرب هنا على صورة آدم، فلا بد أن يتحد التوجيه، ويقال ههنا ما يقال في ذلك المقام.

والتأويل الذي عُمل به في قوله تعالى: إني أنا الله يجب أن يكون نفس التأويل هنا في لفظ الحديث: على صورته، والتأويل الذي يتعين مراده في كلا الموضعين هو أن نار الشجرة وصفت بتجلي الذات لا بالذات نفسها، فكذلك توصف صورة الرب هنا بتجلي صورة الرب لا صورة الرب بنفسها، فكما لا تراد الذات الإلهية عينها في ذلك المقام، بل المراد تجلي الذات الإلهية، كذالك لا تراد هنا الصورة الإلهية عينها؛ بل المراد تجلي الصورة الإلهية.

وبناء على هذه المعاني القيمة لا يكون هذا الحديث من حيث المتن خاليا من المعنى، وإن ضعف سندا، فإنه تعضده الأيات القرآنية والأحاديث النبوية، بل لا أبالغ إذا تقدمت خطوة فقلت: إن هذا الحديث يشترك في محتوى آية التجلي، ويأتي بمعان تُفسِّر معنى التجلي، فإنه يربط ربطا موثقا بين القرآن الكريم وهذا الحديث النبوي الشريف، بل يكون القرآن مصدر هذا الحديث، ومن أجل ذلك لا يمكن أن يوصف الحديث بأنه

اختراع إنساني، بل يقال جهرا وعلانية: إن هذا الحديث بيان لآية التجلي، وإذا أثبت القرآن مشروعية تأويل على صورته بأنه على صورة التجلي، فلا يجوز أن يوصف الحديث بخلوه من المعاني القيمة، نعم! إنما هو في حاجة إلى الشرح والبيان، وقد شرحته قدر الحاجة مما يكفي للقضاء على الشكوك والشبهات المثارة ضد هذا الحديث، أو على الأقل يأتي الحديث بما ينجي الإنسان من التورط في إنكار كلام العلماء والصلحاء في الموضوع، ويعطي القارئ منفعة علمية عظيمة.

الصورة الأخرى لمواجهة الحق:

الصورة المذكورة للمواجهة بين العبد والمعبود التي نشأت من تجلي الكعبة، تمثل نوعا عظيما من الجمال والجاذبية، لكنها صورة معنوية ونظرية، تخص أصحاب النظر والفكر، وتدعوهم إلي التمتع بمعنوياتها الخلابة، ولكن أذهان العامة لا ترتقي إليها، ولا تبلغ مداركهم العقلية إلى الموضوعات الوحدانية، ولاتشعر بجاذبية في العقل، ولذا جعل الله تعالى صورة حسية وتكوينية للمواجهة في اتجاه الكعبة ، وهي لا تختص بالخاصة؛ بل يأخذ كل إنسان نصيبه من مواجهة الحق واللذة القلبية، وإذا أراد أن يتوجه ببصره إلى ربه كان له ذلك عن هذا الطريق.

وبيانه أن تجلي الكعبة أصل وجود الخلائق العنصرية، مما يجعل الإنسان يرغب فيه بقوته العقلية، وهذا التجلي هو الأصل المادي أيضا للأجسام المادية، فتحدث نحوه رغبة طبيعية في غالب الأحيان، فقد مر سابقا في ضوء الحديث النبوي الشريف أن الكعبة هي أصل الأرض، حيث خلقت أولا شبرا، ثم امتدت بقدر ما بنيت عليه الكعبة ثم امتدت تدريجيا حتى تمت الكرة الأرضية كلها، والتي يشاهدها الجميع، ثم خلقت من هذه الأرض جميع الخلائق الأرضية المتمثلة في الجمادات والنباتات والحيوانات وأفراد الإنسان وما إليها، فنشأت هذه الخلائق وتطورت وتكاثرت وتناسلت حتى ملئت الدنيا بحركاتها ونشاطاتها.

فإذا كانت الكعبة هي أصل الأرض فمعلوم أنها هي أصل جميع الخلائق الأرضية، وقد صرح به العلماء المحققون، حيث قال رئيس العلماء جامع العلوم الشيخ المحدث عبد العزيز الدهلوي رحمه الله في التفسير العزيزي:

"مدينة مكة (أي أرضها) أصل الأرض كلها، حيث ظهرت هذه النقطة على سطح الماء أولا، ثم امتدت هذه النقطة حتى بلغت المعمورة كلها، ودحيت الأرض، والأرض هي أصل المادة الإنسانية، فأرض مكة هي أصل الإنسان؛ بل هي أصل جميع الخلائق الأرضية، فإن هذه الأرض هي أصل الأصول"[1].

الصلة بين الأصل والفرع شرط وجود الفرع:

ومن المبادئ المسلمة أن كل شيئ يرجع إلى أصله، ويصلح طبعا لأن يتصل بأصله، سواء كان يملك شعورا أم له اقتضاء طبعي وفطري فقط، فإنه بدون هذا الاتصال لا يستطيع أن يبقى موجودا في الكون، بل يستمر وجوده مادام متصلا بأصله، فإنه بانقطاع هذه الصلة ينتهي وجود الفرع، فأوراق الشجرة وأغصانها تبقى ناضرة خضرة مادامت تتصل بالساق، والروح النباتية، وكلما انقطعت صلتها عن الأصل، غشيتها صفرة وذبول، ثم تصير بعد برهة قليلة إلى جفاف وحطب، لتكون وقودا في المواقد، فالأغصان والأوراق وإن كانت لا تملك حسا، لكن اتصالها بالأصل يضمن لها الوجود والبقاء، كما أنه ليس من الضروري أن يكون للفرع معرفة بأصله واتصاله به، إلا أن الفرع ينجذب نحو الأصل بشكل خلقي، وإذا أخبره أحد بأن الأصل الذي تتصل به هو قائم في مكان كذا، وله كذا من الصفات فيزداد انجذابا إليه، ويتحول من الطبع إلى الحس، فكل إنسان يحس -بشكل خلقي- بأن له أصلا، ينجذب إليه، وإن كان لا يدري ما هو الأصل وأين هو وأي شيء هو؟؟ وبعد بيان الأنبياء عليهم السلام علم الناس أن ذلك الأصل هو الكعبة المقدسة، فكل إنسان مؤمنا كان أو كافرا يقر

---

(١) الدهلوي، عبد العزيز، **التفسير العزيزي**، جزء عم، (دلهي: مطبع مجتبائي)ص١٧٦.

بأصله، وإذا كان الإنسان لا يعرف موضع أصله فعليه أن يصدق الأنبياء ويعرف أصله، فإنه إذا لم يعرف أصله الصحيح يتخبط في مسارب الشعور، و قد يجعل لجهالته واتباع قادته الجهلاء غير الأصل أصلا، فمنهم من يجعل بيت المقدس أصلا له، ومنهم من يجعل قبة الصخراء أصله، ومنهم من يشهد بأن شجرة "هر" وغصونها أصله، وبها تتعلق سكينته القلبية، أجل! هناك سكينة، ولكنها مصحوبة بالضلالة والسفاهة، فلا عبرة لها عند الله عزوجل.

والخلاصة أن الكعبة المقدسة صارت أصلا حسيا للمواجهة، والتجلي الوجودي النازل في الكعبة هو أصل معنوي للمواجهة، وبذلك فرض استقبال الكعبة بشكل حسي، وأمر باستقبال التجلي الرباني بشكل معنوي.

فالشرع الإسلامي لا يعتبر الكعبة المقدسة معبودةً ومسجودةً، بل التجلي الرباني هو المسجود والمعبود، وصدق الشاعر الهندي الكبير ميرزا أسد الله خان الغالب: إن الإدراك الإنساني لا يبلغ حقيقة المسجود، أما الكعبة فيصفها أهل النظر بأنها دليل القبلة.

فشعوره اضطراري، وإن كانت هذه الخلائق الأرضية تملك نوعا من الحس والشعور كالحيوانات فهي مع اتصالها بالروح الحيوانية تحاول الحفاظ عل الشعور والوجدان، فالتنازع والجدال والتهاجم بين الحيوانات ومقاومة الإنسان بكل ما أمكن من قوة وتدبير، أو اللجوء إلى مكان آمن كل ذلك من التدابير الحيوانية للبقاء على الروح في الجسد، فالاقتضاء الطبيعي للاتصال بين الأصل والفرع بصفة أن الاتصال هو سبب وجود الفرع يسمى شعورا في الجملة، فإنهم يدركون أن وجودهم مرتبط بالروح الحيوانية، فلم يكن لهم وجود لولا هذه الروح.

أساس التنازع للبقاء:

ثم إذا كان من الخلائق الأرضية من يملك جوهر العقل إلى جانب الشعور والوجدان كالإنسان فهو يحاول جهده بمشيئته وإرادته وتدبيره إبقاء الوصلة مع الأصل، ويحافظ على أصله بكل ما أمكن، وينشغل به فكرا وإرادة، وهذا ما يسميه بـ"التنازع

للبقاء"، كما أسمى التعايش المأمون بالبقاء المشترك، فحرب الإنسان وصلحه متصلان بهذا الأصل، وهو الاتصال بالأصل.

ثمرة الاتصال الطبيعي بين الأصل والفرع:

وأحاول إيضاحه بالمثال، فالأصل المادي القريب هو الأبوان، الذان سببا وجود الأولاد في الدنيا، وقاما بتنميتهم وتربيتهم، فإن كان الأبوان فارقا الأولادَ في طفولتهم إلى رحمة الله –وهذا الفراق بمثابة الانقطاع عن الأصل- بقي الأولاد عالة على الغير، يتكففون الناس، ثم إما أن يموتوا أذلاء أو يعيشوا عيشة دنيئة، وسبب ذلك هو انقطاع الأصل عن الفرع، وضعف الصلة بينهما، مع أن الصلة بين الأصل والفرع متجذرة في الطبع الإنساني، ومن ثم إن كان الأب فارق أولاده وهم صغار لسبب من الأسباب، ولم يتعرف الأولاد على أبيهم تبقى الجاذبية نحو الأب في قلوب الأولاد، كرجل دارت عليه دائرة السوء، وغادر أهله ورضيعه في حجر زوجته إلى البلاد الأخرى، وتوطن فيها، ولم ير الأب رضيعه ولا الرضيع أباه، وقد مضت عشرون سنة فأكثر ثم فوجئ كل من الأب والابن بالاجتماع في مكان واحد، ولا يعرف كل منهما صلته بالآخر، ولكن كلا منهما يشعران بما بينهما من صلة النسب والجاذبية، ويتحيران على هذه الجاذبية بدون القرابة الظاهرة والصلة المادية، ولكنهما إذا علما ما بينهما من صلة القرابة تحولت هذه الحيرة إلى ألفة شعورية، وتتأصل في القلوب، مما يجعل الأب والولد يتعانقان ويذرفان دموعا ساخنة على السرور، ويموج في القلوب مد الحب وجزره، وهو من ثمار الارتباط بين الأصل والفرع، الذي ظهر الآن بعد مدة من الخفاء والإبهام.

أساس حب الوطن:

وكذلك تماما يجد الإنسان في نفسة جاذبية فطرية نحو الأرض، التي هي أصلها المادي، لا سيما إلى الأرض التي ولد ونشأ فيها، وسكنها وعاش فيها صباها وشبابها

وكهولتها، فله علاقة طبيعية حماسية بتلك القطعة من الأرض، ومن أجل ذلك لا يود الإنسان هجرته من مسقط رأسه إلا إذا دعته حاجة ملحة أو نازلة شديدة، بل إذا واجه الوطنُ مشكلات وتحديات غامر بنفسه ونفيسه، ولا يبالي بأعز ما يملك، حيث الحروب الأرضية الدامية التي تشتعل نيرانها في شتى بقاع الأرض باسم الأرض والوطن تشهد به وتصدقه، وهذه العلاقة هي ثمرة العلاقة الطبيعية بين الأصل والفرع التي تربط الإنسان بأصله المادي، وإذا كان الأمر كذلك فما ظنك بحب الإنسان قطعةً من الأرض، هي أصل الأرض كلها، ونواة هذا الكون، ومنها نشأت الأرض؟ في الواقع لا يمكن وصف الحب الطبيعي لهذه القطعة الأرضية، سواء علم الإنسان تلك القطعة أو لم يعرف مكانها، ولكن باطلاعه على التطور التدريجي في كل شيء كوني يعرف تاريخيا أن هذه الأرض البسيطة لا بد لها من مركز البداية، ومنه دحيت الأرض، فالإنسان يكون أكثر انجذابا بطبعه نحو هذه القطعة من غيرها من البقاع، ولو كان بالجهل والإجمال، ولكن إذا علمه تحول الانجذاب الطبيعي إلى عشق وحب لا نهاية له.

الميلان الطبيعي نحو الكعبة المقدسة:

وهذا ينطبق تماما على القطعة الأرضية التي عليها الكعبة المقدسة، فهي أصل مادي للخلائق الأرضية كلها، مما يعرفه الإنسان بشكل أصولي، ومن ثم فكل إنسان ينجذب إليه شعر به أم لا يشعر، وإن كان لا يدري ما هذه البقعة الأرضية؟ وأين هي؟ ولكن إذا علم عن طريق أقوال الأنبياء عليهم السلام تلك البقعة التي هي الكعبة، وأنها هي أصل الخلائق بل اصل الأصول؛ فهي أصل الأرض التي نشأ عليها الوجود المادي، وإذا علم كل ذلك تحول حبه الإجمالي إلى حب تفصيلي، ثم ذلك الحب التفصيلي ينقلب إلى اعتقاد جازم، مما يجعل الإنسان يعتبر الركوع والاتجاه نحوه من واجباته العقلية والطبيعية، ولا شك أن هذه ثمرة العلاقة الطيبة بين الأصل والفرع، فكل إنسان يشعر بطبعه بأن له أصلا ينجذب نحوه، إلا أنه لا يدرك أين هو وما هو؟؟

وعلمت البشرية بعد إخبار الأنبياء عليهم السلام أن ذلك الأصل هو الكعبة المقدسة، فكل إنسان يؤمن بأن له أصلا، وإن جهل بموضعه، فيجب على بني آدم كلهم أن يصدقوا ما أتى به الأنبياء عليهم السلام، ويعرفوا أنفسهم، فإنهم إن لم يعرفوا حقيقة أنفسهم كان منهم من يعتبر البيت المقدس أصلهم وذلك لجهلهم بالدين واقتدائهم بأئمة الضلالة والسفاهة، ومنهم من يعتبر الصخرة المعلقة أصله، وكان منهم من يذهب إلى هريدوار [مدينة هندية مقدسة لدى الهندوس] باحثا عن أصله، لتبعث هذه المواضع سرورا وهميا في قلبه، فإن حصل لهم ذلك فهو مصحوب بالضلالة، غير معتبر عند الله.

الكعبة المقدسة هي روح الكون كله:

فإن الله تعالى قد تفضل على الكعبة المقدسة بحقيقتين، أولاهما هو الوضع الباطني، وهو تعيين الفضاء في الجهة الخاصة، ثم إنزال التجلي الوجودي عليها، وهو أصل الوجود المادي، والثانية هو الوضع الظاهري، حيث خلق للكعبة المقدسة صورة ظاهرة على الأرض، وهو أصلنا المادي، ومن هذه الأرض الطاهرة نشأت الأرض والخلائق الأرضية، فجمعت الكعبة المقدسة بين أصلنا المادي والمعنوي، فالوضع الفضائي هو أصلنا الوجودي، والوضع الأرضي للكعبة هو أصلنا المادي، فعملا بالأصل القائل بأن كل شيء يرجع إلى أصله يحمل كل مخلوق بطبعه جاذبية نحو الأرض سواء شعر أم لم يشعر، وهذا لا يخص الإنسان؛ بل كل نوع كوني وكل جزئي كوني يضطر إلى الرجوع إليها، كما سيأتي تفصيله.

صورة المواجهة بين الأصل والفرع:

وإذا أمعنا النظر توصلنا إلى أن هناك طرقا ممكنة للمواجهة بين الأصل والفرع، أما مواجهة البناء الحسي للكعبة فالبناء من المحسوسات، مما يمكن إحساسه ومشاهدته للجميع، وفعلا يشاهده الناس في أيام الحج وغيرها من الأيام، فمواجهة هذا البناء الحسي لا يحتاج إلى برهان ودليل، بل إنما يتعلق بالمشاهدة.

أما الوضع الباطني في الخلاء ليس مما يشاهد، إلا أنه بوقوعه في إطار الكعبة المقدسة يمكن تحديد هيئته الباطنة، وأشكاله العملية والجهة، مما جعله أقرب إلى التشخص والتعين، وأجدر بالمواجهة، فكأن الوضع الظاهري لبيت الله وما له من شكل وصورة يمثل الوضع الباطني وصورته وشكله، كما نزل التجلي على النار، فاختار التجلي صورة النار،فيمكن أن التجلي النازل على الكعبة اختار صورة القطعة الأرضية التي قامت عليها الكعبة.

مثال المواجهة بالجسم والروح في وقت واحد:

ويمكن تقريبه إلى المثال، وهو أنا إذا نظرنا إلى شخص ما في الدنيا قلنا: رأيناه، مع أنا ما رأينا منه إلا الجسم الظاهري، الذي يبدو لدى المواجهة، أما الشخص الحقيقي الكامن في داخله فهو نفسه، التي لا يراها أحد، ومع كل هذا كل إنسان يعترف بأنه رأه أي نفسه، وذلك بناء على أن الوضع الظاهري يحكي الوضع الباطني، ويحيط به، كالقالب الذي يحيط بما فيه، ويخرج الشيء مطابقا له، ومن ثم فالنظر إلى القالب يُعدُّ نظرا إلى المنسوج على منواله، وكذلك تماما إذا نظرنا إلى الوضع المادي الظاهري للكعبة يكون بمثابة النظر إلى الوضع الباطني، فإن باطن الكعبة مكمون في ظاهره، فالذي يجري تقابله مع ظاهر الكعبة يثبت له تقابل مع باطن الكعبة.

وانظروا هنا إلى حركات الإنسان وسكناته، وأسلوبه في المأكل والمشرب، والمشية والعدو، والصعود والهبوط، فإنكم تعلمون بها أن ذلك الإنسان حي يحمل روحًا إنسانيًّا، فالروح هو الذي يُسبِّبُ صدورَ هذه الأعمال، مع أنكم ما نظرتم إلى الروح، فاليقين بوجود الروح يأتي بالأعمال الدالَّة عليه، فقيسوا على هذا الكعبةَ، فالنظر إلى ظاهر الكعبة يتم بلا واسطة وبأبصار العيون، أما النظر إلى باطن الكعبة ووضعها الباطني فهم يتحقق بواسطة النظر إلى ظاهرها.

والمواجهة لا تعني غير أن يتقابل الشيئان بكل سوية، ونظْرُنا إلى إنسان –زيد مثلا– لا يعني إلا مقابلته، والتقابل يتم بظاهر الجسد، ولكنه يكون بمنزلة النظر إلى باطنه، وكل إنسان يقول: رأيته، ولا يفرق بين الظاهر والباطن، فباطن بيت الله هو التجلي الرباني، فكيف يمكن أن يقال: إنكم رجعتم بعد النظر إلى الوضع المادي للكعبة، وما رأيتم غيره، مع أن رؤية زيد دليل على رؤية حقيقته ونفسه، فكيف لا يكون النظر إلى ظاهر الكعبة تقوم مقام النظر إلى باطنها الذي هو عبارة عن التجلي الرباني، أفلا تكون مواجهة التجلي الرباني نظرا إلى المعبود؟

وإذا فكرنا جديا علمنا أنه لا يمكن رؤية الله تعالى لأنه لا يحيط به زمان ولا مكان، ولا يحده حد، فليس له بداية ولا نهاية؛ ولكن التجلي الرباني إذا كان متقيدا بالحدود والقيود فيمكن مواجهته في هذه الدنيا، وإن كان بعض الناس لا يستطيعون الرؤية لسبب من الأسباب، فإن قيل: إنَّ كلًّا من الكعبة صورتها وحقيقتها، والتجلي المسجود الواقع في إطار الكعبة المقدسة ماثلة أمامنا وقت العبادة فلا عجب في ذلك، ولا استحالة عقلا وشرعا، مما يؤكد الاعتراف بالمواجهة بين العبد والمعبود، كما يتم محاذاة زيد بمواجهة صورته الظاهرة، لا برؤية نفسه الباطنة، فمن المناسب أن نقول ما نقوله في رؤية زيد، ونثق برؤية حقيقة الكعبة بعد رؤية بنائها الظاهري، فهذا الأصل يجري في جميع الأشياء الكونية فكيف لا يجري في تجلي الكعبة؟

العبادات الإسلامية ملتقى العقيدة والجاذبية:

وعلى كل إذا ظهر ظاهر الكعبة وباطنها، وتعينت حقيقته، فانحلت قضية المواجهة لدى العبادة، وعاد المسلمون لا يُتَّهمُون بالتقابل الوهمي لدى العبادة، الذي لا صلة له بالواقع وجاذبية المواجهة، وسكينة الخاطر، أي كأنهم يعبدون ربا خياليا،(والعياذ بالله) لا يمكن مواجهته في حال من الأحوال، فلا يتمتعون بلذات العبادة، والمعترض يود أن يحبب إلى القلوب عبادة الأصنام، التي تتقابل مع عبادها.

ولكن السطور السابقة أكدت أنه لايرضى بمواجهة الأصنام إلا من فقد التجلي الرباني، وإذا كان الرب سبحانه ماثلا أمام العابد بواسطة التجلي فلا حاجة إلى عبادة واستقبال رب فرضي وإله مزعوم، هو من صنع أيدي العباد، ولا يجرؤ على هذا إلا أسفه السفهاء.

أما وضع الكعبة فليس هو ولا أرضها ولا فضاؤها مما صنعه العباد، ثم يمكن مواجهته بكل نزاهة عن المعاني الشركية، فلماذا يتوجه الإنسان البصير إلى الصور الوهمية والأخيلة الفرضية المتمثلة في الأصنام والتماثيل، فضلا عن أن يجد فيها ما يقنعه ويمتعه.

فإن الله تعالى قد جعل صورتين للمواجهة: أولاهما أنه جعل أمام عباده أصلهم المعنوي، وهو العكس الرباني والتجلي الإلهي، وثانيتهما انه جعل لهم أصلهم المادي، وهي البقعة الأرضية للكعبة المقدسة، والأولى تحمل جاذبية عقلية والأخرى تحمل جاذبية طبعية.

ومن ثم فُرِضَ في العبادات استقبالُ الكعبة بشكل حسي، ودعي إلى استقبال التحلي الرباني في الأذهان بشكل معنوي، فالشرع الإسلامي لا يرى الكعبة مسجودة ولا معبودة؛ بل التجلي هو المسجود والمعبود، والمسلمون يؤدون صلواتهم في ظلال الكعبة المقدسة، وفي مواجهة الظاهر والباطن، مما يورث فيهم جاذبية وعقيدة وخشوعا.

اعتبار استقبال القبلة في الصلوات جزءً من عبادة الأصنام وسوسة شيطانية:

وبعد هذا الإيضاح لم يبق مكان للوسوسة الشيطانية، فلا يتهم المسلمين بعد هذا بعبادة الأصنام أو التماثيل إلا أسفهُ السفهاء، أو يستدل باستقبال الكعبة على مشروعية عبادته للأصنام، فأنى للأصنام أن تكون محل التجلي الرباني، ومركز الكمالات الربانية، ولا بد لموضع التجلي أن يكون محل الكمالات العلمية والعملية، كما يجب أن يكون شديد اللطافة، لتستقر فيه كمالات الرب اللطيف القدير، فكيف

بأمر مادي، أو صورة من المادة الكثيفة، المليئة بالكثافة، ثم هو فوق ذلك فرضي ووهمي، كيف بأمر هذا شأنه أن يكون موضع التجلي؟ فهذه الأصنام العمياء، المقعدة، الصماء، الجماد الذي لا يعقل، التي بطبيعتها يمكن أن تكون مورد الجهالات والاحتياج، لا موقف الكمالات الإلهية، الذي تشرف بكونه محل التحلي الرباني، والأصنام ليس لها هذا الشأن.

الرد على من زعم أن الأصنام مظهر الرب سبحانه:

ثم الإنسان هو الذي صنع الأصنام وأنواعها، التي زعمها بوهمه آلهة أو صورة إلهية، مع أن الله سبحانه تنزه عن كل صورة وهيئة، فأنى له الصورة والشكل، وإن فرضنا له صورة على سبيل الافتراض فمن تشرف بحضوره في الجناب الإلهي، ليصوَّره بالكاميرا؟ ولا شك إنه مستحيل شرعا وعقلا، وإن فرضنا حضوره على سبيل افتراض المحال فكيف أمكن للمخلوق المحدود أن يحيط بالذات الإلهية اللامحدودة، ويأخذ له صورة، ثم ركَّبها في الأصنام والتماثيل.

وإن فرضنا هذا المحال أيضا فما هي الصورة المحددة، التي يمكن أن توصف بالصورة الإلهية، مع أن هذه الأصنام تحمل صورا كثيرة، منها صورة إنسانية، تتعدد أيضا إلى صورة رجل وامرأة، وصورة حيوانية، تختلف إلى صور الفيل والحية والشجرة وزنبق الماء (زهرة اللوتس)، ثم الصور الحيوانية تختلف اختلافا كبيرا، منها ما له فم واحد، وما له عشرة أفواه، وما إليها من الصور الوهمية الكثيرة، فأي صورة يطلق عليها أنها صورة الرب سبحانه؟

وما هو الطريق الأمثل إلى معرفة الصورة الصحيحة الربانية من بين الصور الكثيرة؟ وما هي مادة الصورة؟ بل يلزم هنا قلب الموضوع، حيث تكون صور الأصنام والتماثيل وسيلة إلى الجهل بالله سبحانه بدل أن تكون سببا لمعرفته، فإن الصورة تُعَيِّنُ الشخصَ، وترفع الحيرة، ولكن الصور ههنا تسبب الحيرة والاضطراب، فلا يدرى أي صورة منها صورة ربانية، ثم أين أخذت هذه الصورة؟ وبأي مادة صنعت؟ والظاهر أن

موضوع الصورة هنا انقلب، حيث عادت تثير الحيرة والتردد، بدل أن تزرع اليقين، فإن كثرة هذه الصور تُوَرِّطُ الإنسان في الحيرة والخسران والجهل والنكران، ولا تبعث على معرفة الرب سبحانه.

ولكن بعد هذا كله إن فرضنا كل هذه الصور صورا ربانية، فمن الذي صوَّر الله سبحانه وكمالاته العلمية والعملية، التي تختص بالرب سبحانه، كما قال الشاعر الفارسي:

إن كان المصور أراد تصوير الحبيب فإني في حيرة واضطراب؛ حيث كيف استطاع تصويره وفي أي مكان يأخذ صورته؟

عبادة الأصنام هي عبادة الوهم والخيال:

وإذا كان الرب القدير سبحانه ليس له علاقة بمادة الأصنام ولا بصوره، كما أنها لا تملك شيئا من المحاسن والمناقب، وتتخلى عن كل شيء رائع ومعنى جميل، فلا يسعنا إلا أن نصفها بأنها أسماء محضة، زعمها عُبَّادها صورا إلهية، بوهمهم وظنونهم، لا تحمل أصالة ولا حقيقة، فلم يبق إلا أن توصف هذه الحركات بالخرافات والخزعبلات والأوهام، بحيث لا تعضدها حجة ولا برهان، ولا سند ولا شهادة، ولا أصالة ولا حقيقة، ومن ثم جاء القرآن الكريم بالقول الفصل في الباب، فقال الله تعالى في القرآن الكريم: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ (سورة النجم: ٢٣).

ميزة الكعبة المقدسة:

بخلاف الكعبة المقدسة، سواء أريد بها الجهة الفضائية التي هي الكعبة الأصيلة، أم بناؤها الذي هو أمارة الكعبة، فالكعبة ليست هي صورة إلهية، فإن الله تعالى منزه عن الصورة والشكل، فإن الكعبة لا تزيد حقيقتها على أنها جهة خاصة، نزل عليها تجلي الوجود النوري وعكسه، وذلك بأمر رباني، لا بمزاعمنا وأوهامنا، ثم لم

ينزل هذا العكس على مكان مادي، ولا استقر في ظرف مادي، بل هو مستقر في الجهة الخاصة من الفضاء اللطيف، الخالي من المادة والصورة، ثم اختارها الله تعالى لتكون محل التجلي الرباني، وباشر بيانه للناس، ولم يخترعه عقل إنساني، ثم أطار نبأه لا سند ولا برهان، مما تورط فيه السفهاء، فالكعبة الحقيقية التي هي مورد الكمالات الربانية، هي جهة فضائية محضة، لا الأمور المادية والحسية من الأصنام والصور والمباني والأشكال والهيئات.

فبناء الكعبة ليس إلا أمارة على الكعبة الحقيقية المتمثلة في الجهة الفضائية، فبنيان الكعبة أمارة الكعبة لا الكعبة نفسها، نعم! يطلق عليها لفظ الكعبة على سبيل التجوز، فلا تجوز عبادتها في الإسلام، والشرع الإسلامي لا يريد من المؤمنين أكثر من استقبالها في الصلوات، ويحرم كل خيط من عبادتها، فهي ليست مسجودة؛ بل مسجودة إليها، والمسجود هو العكس الرباني، المنعكس في مرآة الفضاء اللطيف، وجاءت الكعبة الشريفة أمارة على وجود الفضاء اللطيف.

فالأصنام ليست صورة إلهية، ولا مورد التجلي الإلهي، فلاتستحق أن تكون مسجودة إليها، فضلا أن تكون معبودة ومسجودة، فالمسجود إليه أي مورد التجلي الرباني هو الذي يختاره المعبود وحده لا غير، يختاره ليورد عليه التجلي، ويجعله موضع جلوته، فلا يكون ماديا؛ بل يكون لطيفا، ويخبر المعبود بأنه اختاره لينزل عليه أياته، ولا يكل أمر الاختيار والتحديد إلى العباد ومجازفتهم، بحيث يختار العباد ما يشاءون من الأمكنة، ثم يقولون: إن هذا مورد رباني، ووسيلة للقرب الإلهي.

مغالطة عُبَّاد الأصنام:

وهنا قد يغالط عباد الأصنام بشكل أصولي، وهو أن الإنسان إذا أنس بالصورة، أنس بصاحبها، فالصورة وسيلة إلى الذات، فنحن لا نريد من عبادة الصور المتمثلة في الأصنام والنار والماء وما إليها إلا الاستئناس بها.

ويرد عليهم قولهم هذا بأنه يأتي هذا الاحتمال لو كانت الصورة حقيقية، لا فرضية وخيالية، والصورة لا تكون واقعية ما لم يخبر بها الله تعالى بأنها صورة حقيقية له، فالصورة التي اعتقدنا من عند أنفسنا أنها من عند الله، وجعلنا ننشرها بين الناس بدون دليل لن تكون واقعية بحال من الأحوال، فالعلاقة التي قامت مع الصورة الخيالية تكون علاقة خيالية لا علاقة واقعية، فعبادة الأصنام أو استقبالها -حسب زعمهم- لا تعدو أن تكون صورة خيالية وعبادة خيالية، وبما أن الخيال هو من عند الناس فالعبادة أيضا لا تتجاوز نفوسهم، فضلا أن ترتفع إلى الله سبحانه، وتعتبر عبادة صحيحة.

وهذا نوع عجيب من الضلالة، يُسمى عبادة الوهم والخيال أو في تعبير آخر عبادة النفس عبادةَ الله سبحانه، بالإضافة إلى استهداف الموحدين والمؤمنين، كما قال الشاعر الأردي:

من معجزات حسنك وجمالك أن تسمي البصيرة سفاهة، والسفاهة بصيرة.

ثم هذا الاعتراض (الاعتراض على أن استقبال الكعبة هو عبادته) إنما يرد إذا كان المسلمون كلهم يحضرون المسجد الحرام، ويجعلون الكعبة أمامهم، فيمكن أن يصف استقبال الكعبة بهذه الصورة بعبادة الكعبة، ولكن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يتوجهون نحو الكعبة، وليست الكعبة أمامهم، وليسوا أمام الكعبة، مما يدل بكل جلاء على أن المقصود هو استقبال الكعبة لا غير، سواء كانت أمامهم أم لا، كما أن الشرع الإسلامي لا يسمح بأن يضع المصلون صورة الكعبة أو تمثالها أمامهم، حتى يرد الاعتراض بأنهم يعبدون الكعبة، بل يجب استقبال الكعبة سواء كانت أبعد مكان في الأرض، وفي غياب عن الأعين والأبصار.

ثم دعا الإسلام إلى أن اتجاه القبلة إذا اشتبه للظلمة والسحاب ولسبب آخر فعلى المصلى أن يتحرى القبلة، ويصلي نحو اتجاه رضي به قلبه، وحتى إذا علم خطأ الاتجاه بعد الصلاة، صحت صلاته، ولا حاجة إلى إعادتها، فلو كانت القبلة مسجودة

ومعبودة، لكان من الضروري أن تكون أمام المصلي، أو على الأقل أن يكون المصلي متجها نحوها اتجاها صحيحا، ولكن في صورة اشتباه جهة القبلة إذا كفاه التحري وصحت صلاته سواء أصاب القبلة أم لم يصب، ثبت أنه ليس من الضروري أن تكون القبلة أمام المصلي، ولا نيل اتجاهها الصحيح، فلايضير الخطأ في الاتجاه عند اشتباه القبلة، فضلا أن تكون معبودة أو مسجودة، فتجلى بشكل واضح أن القصد هو استقبال القبلة لا عبادتها، فاتهام المسلمين بعبادة الكعبة اتهام ليس له سند، أو اجتهاد المشركين في إلقاء ستور على عبادة الأصنام بدلائل واهية.

بل الإنسان المؤمن إذا بلغ المسجد الحرام، لم تكن الكعبة الحقيقية أمامه، فالكعبة هي الوضع الفضائي، فكيف يتصور عبادة الكعبة، فالكعبة الحقيقية ليست غائبة؛ بل لا يمكن رؤيتها بالعين، وأتقدم خطوة وأقول: دعوا الكلام عن الكعبة الحقيقية، وفكروا في بناء الكعبة الذي هو علامة الكعبة الحقيقية، هل يراه الإنسان طول عمره إلا مرة أو مرتين في أيام الحج، أما سائر الحياة فهو يصلي نحوها، مستقبلا إياها، فبعد هذا هل يمكن لم له أدنى مسكة من العقل أن يتهم المسلمين بعبادة الكعبة، فهو ليس افتراءا محضا، افتروا ليغطوا مساوئ شركهم، وهم يعلمون ضعف وتفاهة أقوالهم، بل ضمائرهم تلومهم على قبح هذا الكلام، ولكن التعصب الديني يجعل الإنسان أعمى البصر والبصيرة، فيتورط في الضلال والسفاهة.

الأصل الفقهي للمساحة:

وعلى كل فأين عبادة الأصنام من استقبال الكعبة؟ ثم استقبال الكعبة يعنى استقبال جهتها لا عينها، إلا أن يكون في المسجد الحرام، واستقبال الجهة يعني أن تكون القبلة على طول المصلى بشكل مستقيم، حيث فصلت الكتب الفقهية مراتب ودرجات استقبال القبلة، ومفادها أن المصلى إذا كان في المسجد الحرام وجب عليه استقبال عين

الكعبة، وإذا كان في مكة، وجب استقبال المسجد الحرام، وإذا كان في غيرها من الأماكن القريبة والبعيدة وجب استقبال جهتها، وإن خفيت جهة الكعبة لسبب من الأسباب وجب أن يتحرى، فإن كان استقبال عين الكعبة لازما في كل حال، لم تكن الصلاة في خارج المسجد الحرام لتصح، سواء في مكة أو في غيرها، لا سيما إذا كان استقبال صورة القبلة ممنوعة في الإسلام، حيث هي جزء من الشرك.

فالإسلام لم يترك مجالا للتهمة بعبادة الكعبة، بل أقول: من حسن الصدفة أن المعترضين لايعرفون إلا معنى الكعبة، فاتهموا المسلمين بعبادتها، وإن كانوا يعرفون أن استقبال القبلة أيضا يكفي في بعض الصور اتهموا المسلمين بعبادة المساجد والجهات والمجازفة، وأتوا بما لايتصور من الأكاذيب والافتراءات، ولكنهم لا يعلمون هذه التفاصيل، ولا حقيقة الكعبة بل سمعوا اسم الكعبة فاتهموا بعبادة الكعبة وأطمأنوا بأنهم اتهموا المسلمين بما كانوا يتهموننا به، فهم بهذا الاعتراض الواهي يزعمون أنهم لبسوا على المسلمين أمر توحيدهم، أو أشركوهم في شركهم، بحيث إِن حُرمنا التوحيد فالمسلمون رغم دعوى التوحيد محرومون منه.

ولكن التفاصيل المذكورة أكدت على أن المسلمين لايتهمهم بعبادة الكعبة إلا الأعمى الجاحد، فهو يتهم عقله بالسخافة والسفاهة، فهل تجوز بهذا الاعتراض ممارساتهم الشركية، كلا! فتوحيد الإسلام سليم من كل شائبة من الشرك وعبادة غير الله، كما أن المشركين خلت أعمالهم عن كل نقطة التوحيد.

خلاصة البحث:

الحاصل أن الله اختار الفضاء الخاص، وسماه الكعبة، ثم أخبربه بنفسه، ثم أنزل عليه التجلي، وأخبربه الخلائقَ، ثم أراد بنفسه بناء الكعبة أمارةً على الكعبة الحقيقية، فأمر الملائكة بحفر أساسها، كما أمر كلا من آدم وإبراهيم عليهما السلام برفع القواعد من البيت، ثم أمر إبراهيم وإسماعيل بإعلان بناء الكعبة في الدنيا، ليشهده الناس، ويحصلوا

على منافع لهم، أو يتوجهوا نحوها في الصلوات، كما تدل عليه آيات سورة الحج: " **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (*) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ الله فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (*) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**" (سورة الحج:٢٧-٢٩) وآيات القبلة، كأمثال "**وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**"(سورة البقرة: ١٤٤).

وأوضح الله بدوره في شرعه الإسلامي بإصدار الأمر بالتوجه نحو القبلة أثناء الصلاة، وهذا توحيد خالص، فالعبادة تختص بالله عزوجل، وأحكام الله سبحانه فيما يتعلق بالكعبة عين التوحيد وإطاعة الرب لا غير، فهي لا تحتوي على شائبة من الشرك وذرة من الكفر.

فثبت بذلك أن كلا من تعيين الكعبة ووضعها وصورتها وبنائها وحقيقتها لا يتدخل في أي شيئ منها إرادة إنسانية وعقل إنساني ناقص، مع أن عبادة الأصنام وما إليها من صنع الأصنام ومشيئتها وحبها ورؤيتها من الأول إلى الآخر قائمة على الإرادة الإنسانية والاختراغ الذهني والإيجاد الفلسفي، وحركات الشرك والإلحاد، فليس هناك وضع إلهي، ولا إخبار من الله سبحانه، ولا سند عقلي، ولا ركن نقلي، ولا أمارة الرواية ولا برهان الدراية، ولايتوسط التجلي الإلهي، فأين عبادة الأصنام من استقبال الكعبة؟.

حقيقة الكعبة ومعنى كونها بيت الله:

وبذلك يتبين معنى كون الكعبة بيت الله، حيث وصفها الله بنفسه ببيت الكعبة، أما المشركون فهم يعتبرون الأصنام آلهة، حيث يسجدون لها، ويقدمون النذور باسمها، ويسألونها عن حاجاتها، ويستغيثون بها، ويظنونها مدبرة الأمور الكونية، وينادونها: يا ديوي! [أيتها اللات] أسعف بحاجتى كذا، مما يدل بكل وضوح على أنهم لا يعتبرون

الأصنام بيت الله؛ بل هي الآلهة في زعهم، ومن هنا يعملون صورها، فيركعون ويسجدون لها، فالفرق بين الموحد والمشرك بَيِّنٌ ومقنع بيد أن هذه الحقيقة لاتنكشف ما لم يتم إيضاح معنى بيت الله وإقامة الله فيه، حتى لا يرد الاعتراض، ولم يبق حاجة إلى الجواب.

شعائر الله المكانية أيضًا واجبة التعظيم:

قد مر مرارا في الصفحات السابقة أن حقيقة الكعبة هي التجلي والجهة الفضائية، وأن مبنى الكعبة هو أمارة محضة للجهة المقدسة، ولكن هذا لايعني أن هذه الأمارة المحضة (بناء الكعبة) لا تحمل أي نوع من العظمة والقداسة، غير أنها بناية صنعت من مجموعة أحجار، ولاغير، عياذا بالله من ذلك!

فإن هذا الاعتقاد الخاطئ هو كفر وسفاهة ومعارض للفطرة، مما لا يرضى به أي قلب سليم.

احترام الكعبة من مقتضيات العقل والفطرة:

إن من الواقع أن القلوب السليمة تعظِّم هذا المبنى وحدوده الأربعة الحسية كما تعظم الجهة الفضائية، باعتبار أن هذه الأمارة صورة حسية لظهور الكعبة الحقيقية، وسبب التعريف بها، ومثله كمثل إنسان عظيم، جليل القدر، حيث يحبه الناس بحميد صفاته وأنبل سماته وجميل أخلاقه لا بصورته ولحمه ودمه؛ إلا أن الصورة الظاهرة جاءت ظرفا للأخلاق المعنوية؛ بل ترجمانا لها ونائبة عنها، وصارت مظهرا لها ووسيلة لمعرفتها فيبذل الناس نحوها (الصورة الظاهرة) من العظمة والإكرام ما يبذلونه نحو السيرة والأخلاق، بل إذا تدبرنا الأمر وجدنا أن الصورة هي بمنزلة الشخصية في هذا العالم المادي، ونظرا إلى صورته يقولون: لقيناه، ورأيناه، وزرناه، بل يصفون صورته للتعريف بشخصه، ولا يقولون: زرنا سيرته، أو لقينا حقيقته، حيث السيرة ليست شيئا مَزُوْرًا؛ فهي مما يستفاد به بشكل نظري، ثم إذا ركعوا لتعظيم فلان يركعون أمام صورته، ويصافحون يده الظاهرة، ويقبلون يده أو جبينه الظاهرين، ويعانقونه عن طريق الصدر،

ويؤدون جميع الآداب أمام صورته الظاهرة، ولا يقولون: صافحنا أو عانقنا سيرته وحقيقته، أو قبلنا علمه وأخلاقه، ولا شك أن التعظيم في الواقع يتعلق بالسيرة والأخلاق المستترة بستار اللحم والدم، ولكن إذا خفيت الحقيقة وظهرت الصورة التي تمثلها، وتسبب التعريف بها، وتشكل واجهتها، فتعظيمها كتعظيم الحقيقة، بل تعظيم الصورة هي عين تعظيم الذات والحقيقة، فإن الصورة ليست إلا وجها مكشوفا للحقيقة، ليس إلا، ومن ثم تتعلق جميع أعمال التعظيم والتبجيل بهذه الصورة، وإنَّ ارتكاب أدنى ازدراء وتحقير بشأن الصورة الظاهرة، يُعدُّ محتقرا للحقيقة، فإن من قام –مثلا– بتحقير صورة الملِك أو تمثاله، تقام الدعوى عليه ويُرفع أمره إلى المحكمة التي تقضي عليه بعذاب شديد عبرةً ونكالاً، مع أن هذه الصورة والتمثال لا تحمل وراءها شيئا من الذات والحقيقة، بل تحمل نسبة محضة إلى ذلك الرجل، يقيمها الناس مقام الشخص، أما بناء الكعبة الذي هو أمارة الحقائق الكمالية للملك الحقيقي فهو موجود بحقيقته، كما سيأتي بيانه، فكيف لا يجب تعذيب من قام بازدرائه وتحقيره؟

الثبوت الشرعي لتعظيم الكعبة:

فالقبلة الحقيقية هنا هو النور الإلهي الساري في بناء الكعبة، وبما أن الحقيقة مستورة عن الأبصار الحسية، قامت الأمارة الحسية مقامها، ويكون لها من العظمة والاحترام مثل عظمة الحقيقة.

أخرج الإمام الرازي في تفسيره روايةً عن الإمام وهب بن منبه، أنقل منها بعض أجزاءه المتفرقة فيما يلي:

"وَسَأُبَوِّئُكَ (يا آدم) مِنْهَا بَيْتًا أَخْتَارُهُ لِنَفْسِي وَأَخُصُّهُ بِكَرَامَتِي وَأُوثِرُهُ عَلَى بُيُوتِ الْأَرْضِ كُلِّهَا بِاسْمِي وَأُسَمِّيهِ بَيْتِي أُعَظِّمُهُ بِعَظَمَتِي وَأَحُوطُهُ بحرمتي وأجعله أحق البيوت كلها وأولادها بِذِكْرِي وَأَضَعُهُ فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي اخْتَرْتُ لِنَفْسِي فإني اخترت مكانه يوم خلقت السموات وَالْأَرْضَ، أَجْعَلُ ذَلِكَ الْبَيْتَ لَكَ وَلِمَنْ بَعْدَكَ حَرَمًا آمِنًا أُحَرِّمُ بِحُرْمَتِهِ مَا فَوْقَهُ

وَمَا تَحْتَهُ وَمَا حَوْلَهُ فَمَنْ حَرَّمَهُ بِحُرْمَتِي فَقَدْ عَظَّمَ حُرْمَتِي وَمَنْ أَحَلَّهُ فَقَدْ أَبَاحَ حُرْمَتِي، وَمَنْ أَمَّنَ أَهْلَهُ اسْتَوْجَبَ بِذَلِكَ أَمَانِي وَمَنْ أَخَافَهُمْ فَقَدْ أَخَافَنِي وَمَنْ عَظَّمَ شَأْنَهُ فَقَدْ عَظُمَ فِي عَيْنِي وَمَنْ تَهَاوَنَ بِهِ فَقَدْ صَغُرَ فِي عَيْنِي»[1].

وأفادت هذه الرواية أن حرمة مبنى الكعبة مِن صُنع الله سبحانه، فتعظيم بناية الكعبة ليس من الأمور العرفية أو العقلية أو الطبعية؛ بل هو حقيقة ثابتة من الناحية الشرعية، فأمارة الكعبة ليست أمارة محضة؛ بل هي أمارة لها حقيقة، وترجمان للحقيقة، لا يجوز بحال من الأحوال تحقيرها وازدراءها.

الكعبة المقدسة قائمة مقام رب الكعبة:

ومن هنا وجب تعظيم كل حجر من أحجار الكعبة المقدسة، والقيام أمامها يعد بمنزلة القيام أمام حقيقة الحقائق ورب الكعبة، ومن هنا يستقبل المسلمون المبنى المربع للكعبة في صلاتهم وركوعهم وسجودهم، وهذا حضور في الجناب الإلهي، ويركعون أمامها، وهو تعظيم، ويستلمون الحجر الأسود من الكعبة، كأنهم يقبلون يد الرحمن، حيث وصفه الحديث النبوي بيمين الرحمن، وجاء في حديث آخر أن استلامه كمبايعة الله ورسوله، ثم يمسون بعض أجزاء الكعبة المقدسة، وهذا تبرك بالآثار، كما أنه من السنة مس الركن اليماني في كل شوط من أشواط الطواف، والناس يتعلقون بفرط الشوق بالملتزم الذي هو بين باب الكعبة والحجر الأسود، كأنهم يعانقون الرب سبحانه، ويضعون الرؤوس والجباه على عتبة الكعبة، كأنهم يقبلون رجل الله، ويدعون الله سبحانه متمسكين بستار الكعبة، كانهم يلتمسون من الحبيب متعلقين بذيله، ويطوفون بهذا البيت بكل هيام وغرام، مما يدل على ما في قلوبهم تجاه حبيبهم من حب وعشق وهيام وصبابة، ويتوجهون

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، **التفسير الكبير**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ)، ج٤، ص٤٥.

نحوه في الركوع والسجود والصلوات، وهذا عين مقتضيات الحضور في بلاط ملك الملوك.

وعلى كل فتتعلق بالصورة الظاهرة جميع أعمال الاحترام والتعظيم، التي كانت تتعلق بالحقيقة الخفية إن ظهرت، وكيف لا؛ فهي ليست إلا ظرفا للروح الباطنة، فالسجود للصورة الظاهرة يعد السجودَ لله سبحانه، أي كما أن السجود للحقيقة الخفية يكون بمنزلة السجود لله فكذلك الحضور في بيت الله الحسي يكون بمنزلة الحضور في الحقيقة الباطنة، لا سيما بعد أن علمنا أن بقاء الحقيقة الباطنة متوقف على بقاء الصورة الحسية، كما مر سالفا، ففيض هذه الحقيقة يبقى ما بقيت الشكل الحسي، وإذا ذهب الشكل الحسي لم تبق الحقيقة المستورة، حيث ذهب المعرض الذي تتجلى فيه الحقيقة.

المثال الحسي لحقيقة الكعبة:

وفي تعبير آخر أكثر وضوحا: إن الإنسان إذا احتاج إلى رائحة الوردة كان عليه أن يشم وريقاتها، وإذا أراد حفظ الرائحة فعليه أن يحفظ هذه الوريقات، فالرائحة سارية في الوريقات، لاتنفك عنها، وصارت الوريقات وسيلة لظهور الرائحة، والظاهر أن من خرق الوريقات خرق الرائحة، وهكذا من أراد أن يذوق طعم ثمرة، فعليه أن يأكل قطعة من قطعها، فإن الطعم يسري في القطعة، ولا يمكن ذوق طعم الثمرة بدون قطعتها، وإن أتلف أحد تلك الثمرة ذهب معها طعمها، فإن الله تعالى أودع الوريقات وقطع الثمرة الرائحة والطعم، فمن أراد الرائحة وطعم الثمرة فعليه أن يحفظ الوريقات وقطع الثمرة، وكذلك أنزل الله تعالى حقيقة الكعبة الباطنة على جهة خاصة من الفضاء، ثم أمر ببناء الكعبة الحسية أمارةً لها، وأودع بناء الكعبة رائحة الحقيقة الباطنة، فالسبيل الوحيد للاستفادة من الحقيقة الباطنة إلا عن طريق التمسك بالعمارة الظاهرة، واستقبالها في الركوع والسجود والصلوات، والطواف والزيارة، كما يجب الاعتناء بحفظها وصيانتها.

مما يكشف أن الابتعاد عن تعظيم ظرف الحقيقة أي بيت الله الحسي باعتباره رمزا وعلامة محضة يُعد في الواقع ابتعادا عن الحقيقة الإلهية، فتعظيم هذا الرمز كتعظيم أصل الحقيقة، وفي هذه الصورة إن قام رجل شقي بإهانة بيت الله كان مرتكبا لإهانة الله نفسه، ويأتي بخسران الدنيا والآخرة، ويستحق أشد العذاب وأنكاه، ولا يقبل له عذر قائل: إنه مرتكب الصورة لا الحقيقة، ولا يخلو قلبه عن احترام الحقيقة، وإنه أعرض عن الظاهر فقط؛ بل هذا خيال باطل، والحقيقة على عكس ما يقول؛ حيث نبع إهانته للظاهر والصورة عن إهانته للحقيقة، فمقتضى عظمة باطن الكعبة أن يكون المرء شديد التعظيم لظاهرها، وإن كان من الناس من ينكر عظمة الظاهر فقلبه فارغ عن عظمة الباطن، ودعواه بعظمة الباطن دعوى باطلة غير مسموعة.

لا عبرة بالاختيار الإنساني في مظاهر الحقيقة:

ومن هنا تنشأ نكتة علمية دقيقة، تجدر ملاحظتها، وهو أن الانسجام بين الصورة والحقيقة والظاهر والباطن يلزم عندما كان الله تعالى قدَّر لحقيقة ثابتة صورة واقعية بإذنه ومشيئته، ولم يكن الظاهر فرضا أو خيالا، اخترعه بعض الناس.

فرائحة الوردة لا تأتي إلا في الوردة الحقيقية التي خلقها الله، وجعلها محلا للرائحة الزكية، ولا تأتي تلك الرائحة في الورق والصورة البلاستيكية التي أطلق عليها اسم الوردة، أو طعم البطيخ يحتاج إلى بطيخ حقيقي، ولا يحصل من كل شيء مدور يشبه صورة البطيخ، فطعم البطيخ خصه الله تعالى بالبطيخ الحقيقي، ورائحة الوردة خصها الله تعالى بالوردة الحقيقية وأوراقها الخضراء، أما الصور المصطنعة للوردة أو البطيخ فلا يحصل فيها رائحة حقيقية ولا طعم حقيقي.

وكذلك طعم البطيخ الحقيقي لا يحصل بكل شيء مستدير، يطلق عليه البطيخ، ويقطع على طراز البطيخ؛ بل طعمه الحقيقي مرتبط بالبطيخ الحقيقي الذي خلقه الله تعالى، وكذلك رائحة الوردة الحقيقية خصها الله سبحانه بالوردة الحقيقية، وأوراقها

وأزهارها، أما الوردة المصطنعة والبطيخ المصطنع من الأشياء البلاستيكية وغيرها لاتحظى بصفاتها المعنوية من الرائحة والطعم، ولا تحمل لذة للنظر والشم.

وهذا المثال ينطبق كليا على الآلهة وبيوت الإله المصطنعة المتمثلة في الأصنام والمعابد وغيرها مما يسمى آلهة ودورا لها، ويركع لها الناس ويسجدون، فهذه المظاهر الجوفاء للآلهة وبيوتها لا تكسب عظمة بيت الله، والأصنام وما يُعبد من دون الله لن تكون آلهة، بل إن كان من الناس من يكثر من عبادتها حتى يموت لن يسمى عُباد الإله، فإن القدرة الحقيقية قد غابت عن نظره، ولم يتفطن لصورتها الحقيقية، فلم يجد قدرة حقيقية، ولم يصل إلى صورتها الصحيحة، فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فالقدرة الحقيقية لا تتمثل في الصورة الحقيقية، لا في الصور الفرضية والمصطنعة.

والظاهر أن إنشاء صورة لحقيقة ما ثم إيداع الشيء المناسب في تلك الصورة من أعمال الخالق سبحانه ، ولا يقدر العبد عليه؛ فإن الحقيقة روح الصورة، والروح شيء من أمر الرب، ولايقدر غير الله على خلقه.

فإنشاء الظرف والمحل لإنزال الحقيقة الباطنية، ثم صبغه بالهيئة الحسية، وتسميته ببيت الله وإبراز الأثار للحقيقة المستورة من هناك، وإصدار الأمر بتعظيم ذلك المحل بشكل يشبه تعظيم الحقيقة الأصلية، كل ذلك مما يخص الخالق سبحانه، فهو الذي له الخلق والأمر، ولا يرتقي إليه تصور إنساني ولا إنشاء بشري.

صورة الاستفادة من تجليات الكعبة والمسجد الأقصى:

وبناء على هذا لا يمكن الاستفادة من حقيقة الكمال (الكعبة المقدسة والمسجد الأقصى) إلا عن طريق واحد، وهو أن يرتبط الإنسان بالمحل المقدس للحقيقة وظرفها المطهر، ويضع أمامه صورته الخلقية للاستفادة من بركتها الوجودية، فالطريق الصحيح للتعظيم والتوقير يتمثل في تعظيم بيت الله (الكعبة المقدسة)فإن الله سبحانه جعله وسيلة صحيحة لإبراز العظمة والوقار، ومن هنا إذا أطلق لفظ بيت الله أو الكعبة، يراد به في

العرف العام والأحكام الشرعية ذلك المبنى الحسي القائم في مكة المكرمة وتلك القطعة المقدسة من الأرض ، وبها ترتبط أحكام العبادات كالصلاة والحج، ولايتعلق الأمر بالجهة الخلائية، ولو كانت هذه الجهة الخلائية وما فيها من حقيقية باطنية هي المقصودة الأصلية، ولكنها يمكن إحساسها ببصيرة العقيدة دون بصارة العين، والأعمال الظاهرة تتعلق بالأمور الحسية، وهي مبنى الكعبة دون الجهة الفضائية، فحوله يتم الطواف، وإليه تؤدى الصلوات، وهو الجدير بالتعظيم والتوقير، حيث هو الشكل الظاهري لحقيقة بيت الله، وبالنظر إليه يتيسر السكينة والسلوى للقلوب المؤمنة.

ومثله كمثل الأسماء الإنسانية نحو زيد وعمر وبكر، فالأسماء تتعلق أصالة بالنفس والحقيقة البشرية المستورة، التي لا تراها الأعين وتبقى حتى بعد الموت، ولكن صورة زيد هي التي يطلق عليها زيد في هذا العالم المادي، وبها يتعلق كل أمور إنسانية من المودة والعداوة وما إليها، ومن هنا وردت في الآيات والروايات والآثار فضائل كثيرة لهذا المبنى المدرَك بالحس الظاهر وعُيِّنَ له حدٌّ ظاهري، وأطلق عليه لفظ بيت الله، وبه تعلق كل من أمور الطواف والزيارة والصلاة والحج والعبادات، وعليه يحمل كل الفضائل الواردة في بيت الله بنص الكتاب والسنة.

فالصورة الظاهرة لبيت الله ليست للقضاء على صورته المعنوية، بل جاءت ليتم من خلالها إثبات عظمته، فلا يجوز تقليل شأنها، والحط من عظمتها؛ بل يعد هذا نوعا من الكفر بل أشد.

وبذلك تبين أن مبنى الكعبة وإن لم يكن هو الكعبة الحقيقية، بل الكعبة الحقيقية هي الجهة الفضائية، ومبنى الكعبة أمارتها الظاهرة، ثم الجهات أرضية كانت أم فضائية ليست مسجودة، بل مسجودا إليها، المسجود الحقيقي هي الحقيقة الباطنة التي سرت في الصورة الظاهرة، إلا أن كلا من الحقيقة والصورة سواء في العظمة والاحترام، فلا يجوز إهانتها أو تقليل شأنها.

التجلي الرباني نعمة عظيمة:

اللافت للنظر أنه من مظاهر رحمة ربنا الكريم وشفقته على الخلق أنه جعل ذاته التي لا يمكن إدراكها ولارؤيتها في الدنيا جعلها كشيء مرئي ماثل لعيان العباد عن طريق التجلي، حتى لا تكون عباداتهم لمعبود لا يُرى ولا يُشاهد؛ بل لمعبود تُرى أثاره وتبرز معالمه في صورة التجلي، ويتمثل أمام العباد، حتى لايعود إلى المسلمين اعتراض قد يرد، وهو أنهم يعبدون ربهم بشكل وهمي أو إعجاب عقائدي، مما ليس له صلة بالواقع، فالتجلي يقضي على هذا الإيراد، ويجنب المسلمين من الاعتراض الوارد بأنهم إذا كانوا لا يعبدون إلها حقيقيا فمن يخاطبون بقولهم: إياك نعبد وإياك نستعين؟ فجاء التجلي ليقضي على هذا الإيراد، ويجعله هباءا منثورا، حيث إذا كان المسلمون أمام العكس الرباني، ومحل عكسه أي بيت الله العتيق، الذي هو مورد التجليات الربانية، ونور البصيرة يدرك أنوار التجلي، كما يدركها عرفاء الملة وأرباب الحقائق الشرعية، فكيف يرد هذا الاعتراض؟

التجلي واسطة بين العبد والمعبود:

التجلي في الحقيقة له دور هام في الربط بين العبد والمعبود، فهو الذي يسهل للعباد وعشاق الرب الوصول إلى الذات الربانية التي لا يمكن التوصل إليها، ولا يمكن للعباد الضيقي الأفق معرفتها بشكل محدد، فربنا الكريم جعل التجلي جسرا للتواصل والمواجهة بين العبد والمعبود، فهو ليس مغايرا للذات، ومع ذلك يقبل الجهة والسمت والمواجهة، لترد عبادات العباد البدنية في موردها الصحيح في جانب، فإنها بدون المواجهة لم تبق شيئا جذابا، ومن جانب آخر لم يؤثر في تنزيه الله تعالى وتقديسه، فهو منزه عن التقيد بالزمان والمكان والجهة والشكل والصورة، كما فصله القرآن بشكل واضح، وقد تمت الإشارة إليه سابقا.

لا يمكن استقرار التجلي على المادة:

إن وقوع التجلي على المادة وإن أمكن؛ بل واقع كما وقع على الطور وشجرة الطور، لكن استقراره وبقاءه لن يكون على المحل الجسماني، فقد وقع التجلي على الطور بشكل سريع، إلا أنه ارتفع سريعا، ثم المحل الجسماني للطور لم يتحمل هذا القدر القصير من التجلي، فاندكَّ الجبل، وتطايرت ذراته، مما يدل دلالة قاطعة على أن المحل الجسماني ليس بمستقر للتجلي، والتجلي إنما محله هو الظرف اللطيف الغير المادي، الذي يكون مع لطافته نوع من المناسبة مع الذات الإلهية، ولو بالتقابل والمواجهة.

فهذا المحل اللطيف الذي في لطافته هذا المبلغ لم يكن غير الفضاء الذي يستحق أن يبقى فيه التجلي الرباني ويستقر فيه، فالفضاء والخلاء معناهما المحل الخالي، فهو في صفائه كالمرآة المصقولة، وفي عدميته كشيء دائم، فإن التغيرات والتقلبات والزوال والفناء إنما تتعلق بوجود الشيء لا بعدمه، فالذي يخلو عن الوجود والكينونة لا يدخله الفناء ولا تغير، والدوام لا يعني إلا هذا، والظاهر أن الشيء الذي لا يكون ماديا، بل شفافا ودائما، يحمل نوعا من الملائمة مع الرب سبحانه، ولو بالتقابل، أي الفرق يظهر في الإثبات والنفي، بحيث إن الله سبحانه وجود مطلق لا محدود، والفضاء والخلاء نفي مطلق لا محدود، الذات الربانية لطيفة، فلطافتها وجودية، والفضاء لطيف مصحوب بالعدم، فمرآة الفضاء الشفافة وإن خلت من الوجود إلا أنها مستعدة كل وقت لقبول الوجود ولمعانه.

ومثله في ذلك كمثل المرآة، التي إذا تكدرت لا تقبل عكس ضياء الشمس، ولكن إذا كانت صافية لامعة، لا كدورة ولا صدأ فهي تقبل العكس الشمسي كل وقت، فهذا الفضاء اللامحدود إذا كان صافيا من هذه الكدورة، وشفافا كالمرآة، فهو أجدر بأن يكون محلا للعكس الرباني، وتستقر فيه ظلال وعكوس الكمالات الربانية،

فالأشياء المليئة الصلبة لاتستطيع أن تقبل شيئا، فهي مليئة بنفسها، فالأشياء الخالية هي التي تستطيع أن تُملأ، فهي تنتظر أن تملأ، كما قال الشاعر الفارسي: فكل مكان منخفض ينحدر إليه الماء.

فلا يبقى في الكون شيء غير الخلاء والفضاء، الذي يستطيع أن يكون محلا للتجلي الرباني.

مظهر الكمالات الربانية:

ومن ثم جعل الله سبحانه هذا الفضاء مظهرا للكمالات، برز فيه عكس الأنوار والكمالات، وفيه وجد الكون كله، وقد قرأت في السطور السابقة أن العلاقة بين الأصل والعكس لا تكون علاقة الغيرية والتباين؛ بل هي علاقة الوحدة والتساوي، فالعكس كما يُظهر الأصلَ يعمل عمله، فإن كانت الشمس تعمل في نشر النور والدفء وتجفيف الرطوبة والإنارة، فعكسها الذي يبدو في المرآة يعمل عملها، بل إذا كانت هناك ألوف من المرائي أمام هذه المرآة في محاذاة صحيحة، فيعمل عكسها ذلك العمل، الذي عملته المرآة الأولى، وإن كان هناك فرق فهو فرق في التأثير والتصرف قوة وضعفا وشدة وخفة، ولا يكون الفرق في التأثير وعدمه، أو العينية والغيرية، ومن هنا اختار الله تعالى من بين الفضاء اللامحدود هذا القدرَ الخاص من الفضاء أي موضع بيت الله ليكون موردا للتجليات الربانية، ومن هنا تمت بداية إيجاد الكائنات، فمنه خلقت الأرض، ومنه خلقت السماء، ومنه خلقت الخلائق الأرضية والسماوية.

ومن البديهي أنه إذا كان من المقرر خلق الكون كله من هذا التجلي الوجودي بشكل تدريجي يستمر لألوف من الأعوام والسنين، كان من الضروري أن لا يرد التجلي في هذا الموضع كما ورد على الطور بل نزل ليستقر فيه، غير متقيد بالزمان والمكان، فإن كلا من الزمان والمكان قد خلقا منه، ومن هنا قد أحاط هذا التجلي بكل من الماضي والحال

والمستقبل، واستقر فيه، وظهر فعله الإيجادي والتصرف الفاعل في جميع الأشياء الزمانية والمكانية.

الخلاصة أن التجلي الرباني استقر متلبسا بجميع كمالات الذات في الفضاء الخاص، ويظهر كلا من كمالات الجامعية وكمالات العلم والعمل، مما جعل الكعبة المقدسة دار البركة والسعادة، ومنه عمت الهداية الكون كله، وصارت الكعبة هدى للعالمين.

فكما أن المرآة تكسب النور، فتهبه لما حولها، وينيره، وكل ما يأتي أمام المرآة أو في مقابلها يعود منوّرا، فكذلك نزل التجلي في مرآة ذلك الموضع الخاص (أي في بيت الله الكريم) فعادت مرآة التجلي [البيت] موجودة، ثم صارت مظهرا للوجود، ووهبت الوجود لكل شيء ممكن، صار أشعة البيت الوجودية، وهكذا نشأ الكون كله.

فبناء الكعبة ليس إلا أمارة للفضاء الخاص، أو إن شئت فقل: إنه مظهر للكعبة الحقيقية [الفضاء الخاص] والجهة الخاصة، والكعبة الحقيقية هي مظهر تجلي الذات الربانية، مما يتم به التعريف بالذات، ولاتتوجه العبادات إلى شخص مجهول أو معدوم.

وعلى كل فأصل الكعبة المقدسة هي الجهة التي نزل عليها العكس الرباني، لكنها أيضا محل التجلي لا التجلي نفسه، ومن هنا ليس المسجود هي الجهة الوصفية ولا الحسية؛ بل المسجود له هو التجلي المحض، الذي هو درجة ثانية للذات، وبذلك ثبت أن التجلي نعمة ربانية عظيمة، فلله الحمد.

فالسجدة والعبادات لا تتعلق بالأمارة الظاهرة(بناء الكعبة) ولا بالجهة الفضائية الباطنة، التي تُعرف بالكعبة وبيت الله؛ بل تتعلق بالعكس الرباني وتجلي الألوهية، النازل على الكعبة المقدسة، المستقر فيها من حيث النوعية الإيجادية.

وهذا ما قاله الشاعرالأردي الكبير أسد الله خان الغالب:

ہے پرے سرحدِادراک سے اپنا مسجود قبلہ کو اہل نظر قبلہ نما کہتے ہیں

إن المسجود الحقيقي لا يدركه العقل والبصيرة، ولذا يصف أهل النظر الكعبة بأنها دليل القبلة ثم الآية الكريمة "إن أول بيت" تدل على استقرار التجلي في الكعبة المشرفة، فإن الثابت بالنصوص أن التجلي الوارد على الكعبة هو تجلي الوجود والإيجاد، ومنه تم خلق كلٍّ من الأرض ومافيها والسماء وما فيها، وما بينهما، ومنه يفيض الوجود حتى الآن، والوجود كله بأنواعه الكثيرة من فيض التجلي الوجودي، فبذلك ثبت قيام التجلي واستقراره في الكعبة الشريفة، والله تعالى أعلم، وعلمه أتم.

محل التحلي الوجودي مركز العالم كله:

ومن السهل أن نتوصل إلى نتيجة قطعية، وهي أن الموضع الذي نزل فيه تجلي الوجود أو عكس الذات الإلهية يستحق أن يكون قبلة الركوع والسجود وقبلة الطواف والاعتكاف وقبلة جميع العبادات للعالم كافة لا لقطر معين وحده؛ فإنه إذا كان عكس رب العالمين، فيجب أن يكون تجليه الشامل مرجع العالمين لا لدولة ومنطقة. وبذلك يثبت أن محل ذلك التجلي ومظهره قبلة العالمين.

ومن هنا إذا وصف الله نفسه في القرآن بأنه رب العالمين، ووصف القرآن الكريم الناموس الإلهي الأخير بأنه ذكرى للعالمين ووصف رسوله الخاتم بأنه رحمة للعالمين وصف الكعبة محل تجلي ذاته بأنه هدى للعالمين، وجعل قبلته قبلة عالمية، ولكن هذا يقتضي أن تكون الكعبة المقدسة وما فيها من التجلي الرباني صالحة للآفاقية والعالمينية، بشكل يستوي فيه جمع الأقطار والأمصار، ولا يمكن هذا إلا برؤية العالم كله، والواقع أن بيت الله واقع في وسط الكعبة، والعالم كله بعلويه وسفليه يدور حوله كالدائرة المستديرة، لتكون علاقتها بجميع الأقطار مساوية.

وإذا أمعنَّا النظر اتضح لنا أن بيت الله إذا كان مجمع جميع الصفات الكمالية، والكمالات هي سبب الحب والعشق لصاحبها، عادت الكعبة محلًّا للعشق الإلهي أيضا، كما صرحت سابقا بأن الكعبة نزل عليها في الواقع تجلي اسم الجميل، وهو جامع لجميع صفات الكمال والحسن والإتقان، فهو جاذب العشق والحب، وصارت الكعبة دار المحبوبية، حيث يهرع إليه الناس من كل فج عميق.

الخلاصة:

١- قد ثبت بالدلائل أن العبادة هي عبادة الحب دون عبادة الخوف والذعر وعبادة الضغطة، ومن أجل ذلك يثبت أن الكعبة هي دار العبادة؛ بل مركز جيمع العبادات، ومن هنا صارت الكعبة قبلة كل من العبادات العشقية كالحج، والعبادات العقلية كالصلاة، مما يدل على أن تجلي الكعبة إذا كان تجليا جماليا، فمنشؤه هو الحب والعبادة لا غير، واقتضت الفطرة أن تكون الكعبة دار العبادة، ومركز العبادات والمعابد والمساجد.

٢- والمسجد الأقصى نزل عليه تجلي اسم الملك واسم الحاكم، فأصبح دار السياسة ومركز الشوكة الإلهية، إلا أنها في صبغة دينية، فالمسجد الأقصى يمارَس فيه كل من حضور الصلاة وأداء الصلاة وما إليها من الأمور الكثيرة التي تمارَس في المساجد إلا أنه لم يكن محل الحج الذي هو عبادة عشقية.

٣- وبما أن الطور نزل عليه تجلي اسم الدافع واسم المانع فصار معسكرا إسلاميا، ومركز الدفاع للعالم الإسلامي كله، فكان مركز الزيارة دون مركز العبادة، وبذلك اكتمل للإسلام ثلاثة مراكز، ادعيت ثبوتها في الأوراق السابقة، وهي: ١-دار العبادة والأمن و٢-دار السياسة والشوكة و ٣-دار القوة الدفاعية.

٤- وبما أن هذه مراكز لثلاثة جوانب إسلامية أساسية، والإسلام دين خالد عالمي، فتسرب معنى العالمية والآفاقية إلى هذه المراكز الثلاثة، كما أعلن عن هذا الشرعُ الإسلاميُ بدوره كما سبق بيانه.

تخصيص التجليات الثلاثة بالمواضع الثلاثة:

وعلى كل فقد اتضح بالدلائل الشرعية أن الكعبة المقدسة التي هي قبلة عالمية نزل عليها تجلي واجب الوجود في مرآة الفضاء في ستار الوجود، وهو أعظم أنواع التجلي وأوسعها، وأقربها إلى الذات الإلهية، بحيث يوصف بعين الذات، مما جعل الكعبة مسجودا إليها، والتجلي مسجودا، وبذلك جرت مصانع عبادة الله سبحانه في الدنيا.

وهناك ينشأ سؤال: وهو أن مرآة الفضاء اللامحدود الصافية التي نزل على بعضها العكس الرباني مع أن الفضاء كله كان صالحا لنزول التجلي، فما الداعي إلى تخصيص التجلي الأول بهذا القدر من الفضاء اللامحدود، وما هي الأهداف التي أريد حصولها بهذا التخصيص، ولم يكن يمكن حصولها بالجانب الآخر من الفضاء؟

وفي سبيل الإجابة عن هذا السؤال وحل هذه المعضلة يجب أن نستعرضها في الأمور المادية على أصول علم الرياضيات؛ ليكشف عن الخريطة الشرعية بشكل بديهي، فإن فطرة التشريع وفطرة التكوين إنما تجريان على مبادئ موحدة، فوحدة الأصول والمماثلة الحسية تسهل فَهْمَ الأمور المعنوية بكل يسر وسهولة.

والكشف عن هذه الحقيقة يقتضي أن نفكر أولا في الوضع العمومي للكون كله، وما به من هيئة فطرية صحيحة للفضاء، فإنه يساعد في حل هذه المعضلة كما سيأتي:

كروية العالم واستدارته:

وإذا أمعنا النظر وألقينا النظرة في كل جزء من أجزاء العالم تبين لنا أن الكون وما فيه من أشياء كلها مستدير كروي؛ بل الشكل الكروي هو الشكل الفطري، أي

الاستدارة في الأشياء أصل الأشكال، أما الأشكال الأخرى من المربع والمثلث والمستطيل والمثمن ليست بأصل، بل خاضعة للعوارض، تتواجد لعامل طارئ أو عارض، وفي تعبير آخر : الشكل الطبيعي للأشياء هو الشكل الكروي والمستدير، واستدارته تبدو لكل ناظر، أما المربع والمثلث من الأشكال فهي لاتتشكل طبيعيا ولا تبدو للنواظر، وعلى سبيل المثال إذا رأينا الأرض من أي جهة كان، وجدناها مغطاة بالسقف السماوي المستدير في كل جانب، انظر إلى الأرض من أي مكان من العمران والفلاة والبحار تجد كلا من الأرض والسماء مستديرا، انظر إلى عرصات الأرض تجد كل فلاتها مستديرة، وهكذا الشمس والقمر والنجوم وما إليها من الخلائق السماوية كلها تبدو مستديرة، كما هي مستديرة في الواقع.

وانظر من السفن في عرض البحر إلى أي جهة تشاء تجد البحر كله مدورا كالكرة، ولو امتد البحر بآلاف الأميال، لكنه يبدو مستديرا، وانظر إلى قبة السماء تجدها مستديرة، ولا تجدها مثلثة ومستطيلة، انظر إلى الجبال تجدها مائلة إلى الاستدارة، ولا تجدها مسطحة أو مربعة، بل قمم الجبال في الغالب تميل إلى الكروية، والأحجار الممتدة تكون عامة مستديرة أو بيضوية، وإن كان من الأحجار ما لايكون مستديرا فإحدى نواحيها تكون مستديرة مما يعكس أن الجبال كلها مستديرة.

وهكذا قطرات المطر لا تنزل على الأرض إلا في صورة مستديرة، لا في صورة مثمنة ولا مثلثة ولا مستطيلة، والماء وإن نزل من قمة الجبل أو سال بنفسه يسيل تياره مستديرا لا في صور آخرى، وقطرات الأمطار مستديرة، لا مستطيلة ولا في صور أخرى، وإن غيرتها الريح إلى صور أخرى فهو شيء عارض، وهكذا إن تدحرج الطين من الأعلى إلى الأسفل تكون صورته مستديرة، كما يكون في حال السقوط مستديرا، لاغير، كما إذا تم ذرو التراب من الأعلى يجتمع في الأرض في صورة تلة مستديرة، لا

مربعة ولا مسطحة، إن شعلة النار لا ترتفع إلا في صورة مستديرة كغصون شجرة النار، اللهم إلا ما تفعله الرياح فتصيِّر لها صورا أخرى، وهذا عارض لا طبيعي، إذا أضأنا السراج وجدنا ضوءه يرتفع بشكل كروي، لا بأشكال أخرى.

انظروا إلى الإنسان أشرف أنواع الخليقة تجد جميع أعضائه في الغالب مائلة إلى الاستدارة، لا إلى التربيع ولا التثليث ولا الاستطالة، فرأسه مستدير، وعنقه مستدير، والوجه كيفما كان ضارب إلى الكروية، لا سيما جوانب الوجه لا تكون إلا مستديرة، ولا يكون البطن إلا مستديرا، واليد والرجل طالت أم قصرت تقترب من الاستدارة، وجوانب الجسم لاتبرز إلا مستديرة، والأصابع أيضا لا تكون مستطيلة ولا مربعة وإنما هي مستديرة، والأظفار تكون أيضا هلالية الشكل وكانت رؤوسها مستديرة، والشريان والأمعاء مستديرة، وأنابيب الدماغ مستديرة كحبل مفتول، حتى أنجاس الإنسان لا تخرج إلا مستديرة.

وقس على هذا جميع الحيوانات، والثمار من بين النبات تكون في الغالب مستديرة، لا مربعة ولا مستطيلة، التفاح والعنب والرمان والكمثرى والبطيخ والبطيخ الأحمر والبرتقال وما إليها من أنواع الثمار الكثيرة إنما تخرج مستديرة بشكل طبيعي.

وإن كان من النبات ما يميل إلى الطول كالجزر والفجل والقثاء وقصب السكر والموز وما إليها فهي في عرضها أيضا تكون مستديرة، لا مربعة ولا مستطيلة.

والنباتات ذات الحبات كالذرة والشعيرة فتكون حباتها مستديرة، وإن طالت حبة تكون بيضوية، أو ناتئة بشكل مستديرة، كما في القمح والأرز والذرة، وهكذا غصون الأشجار وإن طالت وبلغت ما بلغت تكون مستديرة في ضخامتها، لا مستطيلة ولا مربعة.

فالحاصل أن الكون كله وما فيه من أجزاء وجزئيات سواء جمادا أو نباتا أو حيوانا وإنسانا يُخلق عامة في صورة مستديرة أو كروية الشكل أو كروية الأطراف، كما تكون الظروف العظيمة للكون المتمثلة في الأرض والسماء مستديرة.

ومن هنا وصف الفلاسفة العناصر الأربعة: الما والطين والنار والهواء بأنها كروية، فيقولون: كرة النار وكرة الهواء وكرة الأرض وكرة الماء وكرة السماء وكرة الشمس وكرة القمر والكرات السبعة، مما يدل على أن أجزاء هذا العالم المادي مستديرة كروية الشكل كما تزعم الفلاسفة.

سر كروية العالم:

والسر فيه أن مبدأ المركز يكون مستورا في الكرة، وهو يمتد في الجوانب الأربعة في صورة كروية، والظاهر أن الله سبحانه مبدأ الفيض، وفيضه يستوي في جميع الجوانب من غير بخل وتقصير، فيستوي جميع الخلائق في الاستفادة من الفيوض الربانية بشكل عادل، وإن اختلفت الخلائق في قبول الفيوض فهذا مبنى على اختلاف استعدادها لقبول الفيوض لا على اختلاف في العطاء الرباني، وهذه الاستفادة الشاملة لايمكن حصولها في عالم الأسباب إلا في صورة كروية.

والشمس تلقي أشعتها على العالم كله بشكل سوي، ولكن المرآة الصافية تقبلها بشكل كامل، فتلمع وتُلْمِع، والطاجن الأسود لا يستضيئ ولا يضيئ، فهذا الفرق لا ينشأ عن الشمس ذاتها؛ وإنما هو عن اختلاف الاستعدادات والمؤهلات، ولا يعود تبعته إلى الشمس.

فإذا شاء الله تعالى أن يخلق العالم كله وينفعه بنعمه فخلقه في صورة مستديرة طبيعية، ليعم الفيض الإلهي كل الخلائق بشكل سوي، ولا يتسرب الخلل فيه بسبب إفراط وتفريط في واحد من الخلائق.

وأكبر من ذلك أن العلماء إذا أرادوا تفهيم صورة الفيض الإلهي يتمثلون بالكرة، فيقولون: مثله كمثل كرة نورانية لا محدودة، تعم خطوطها النورانية جميع الجهات والجوانب على السوية، لتقترب مساواة الجود والكرم ومساواة الفيض الرباني من الأذهان، وإلا فإن الذات الإلهية كما يعرف الجميع منزهة عن كل شكل وصورة وعن

كل جهة وجانب. كما وصف الله نفسه بقوله: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وإنما يكون التمثيل للتفهيم وتقريب المعنى إلى الأذهان، لا لبيان الحقيقة، ولكن موضع التفكير أن تقريب الغيب المطلق : الذات الإلهية إلى أذهان الناس إن احتاج إلى صورة تم تمثيلها في صورة كروية مستديرة دون المربع والمستطيل، مما دل على أن الكروية هي الشكل الطبيعي للكون كله، فلا يوجد شكل أكثر تفعيلا في تقريب الحقائق الربانية إلى أذهان الناس، وبيان مساواة الفيض الإلهي بين الخلائق الأرضية كلها.

كروية الخلاء:

وإذا ثبت أن الخلائق المتواجدة في الفضاء والخلاء وأجزاءها الفطرية مستديرة كروية الشكل في الغالب، ثبت كذلك أن الفضاء هو الأخر مستدير وكروي، حيث استدارتُه أثرت فيما فيه من موجودات وتشكيلاتها الكروية، وجعلتها كروية الشكل، فإن المصنوعات تتشكل حسب قوالبها، فإذا كان الفضاء مدوَّر الشكل لزم أن يستدير ما فيه من الموجودات والخلائق، ومن أجل ذلك لن تجد في هذا الفضاء اللامحدود جانبا مستطيلا، أو معوجا، وفيه دلالة واضحة على أن الفضاء مستدير، وإذا كان الفضاء كما علمت لزم أن تكون للفضاء نقطة مركزية ارتبط بها، فإنه لا يمكن أن يكون الشكل مستديرا بدون المركز، بل إذا تقدمنا خطوة وأكثرنا من التفكير توصلنا إلى أن النقطة المركزية للدائرة هي الأصل في الاستدارة، ومصدر وجود الدائرة، وبما أن الوجود هو مصدر الكمالات والمحاسن، فيكثر الكمال بكثرة الوجود، وهذا يعني أن ما تتمتع به الدائرة من محاسن سواء كانت محاسن الوجود أو نوعيته، فمصدره النقطة، ومنها تنتقل إلى الدائرة، فنقطة الفضاء اللامحدود هي أفضل وأكمل من جميع الدوائر، فهي التي تتصف أولا بجميع المحامد والمحاسن، التي تتمتع بها الدائرة، ثم هي التي تهب للدائرة كل أنواع الخير والحسن بشكل سوي، وبذلك تكتمل الدائرة متسمة بصفات الكمال.

مرآة الفضاء:

وفي هذه الصورة إذا سلمنا أن الفضاء اللامحدود [الذي يخلو من الوجود ويصلح له] نزل عليه عكس الوجود الرباني، فطبعا إنه ينزل أولا على هذه النقطة، التي هي أفضل وأكمل أجزاء الخلاء، وهي النقطة المركزية، فلا يستبعد أن نعتبر هذا الخلاء المديد كمرآة، خُلِقَتْ ليتجلى فيها عكس الوجود الإلهي والكمالات الإلهية، فأُوْدع التشابه التام والتناسب الكامل بين المرآة وما يظهر فيها من أشياء، ليكتمل الانعكاس، ويتم ظهوره بشكل يرام، ومن هنا إذا كان الوجود غير متناهٍ، جاء الخلاء غير متناهٍ ولا محدود أيضا.

ثم الخلاء مازال بالغ الصفاء والوضوح واللطف والدقة كما ظل الوجود صافيا لطيفا دقيقا، كما أن الفضاء شيء غير جسدي كالوجود الإلهي، ومن أجل ذلك لا يمكن للوجود أن ينعكس ويظهر إلا في هذه المرآة الصافية اللطيفة، لا في غيرها من الأجسام الكثيفة؛ فإن الظروف المادية بما فيها من غلظة وكثافة لاتشبه شيئا من العكس الإلهي الذي هو ألطف الأشياء وأدقها، فكيف لها أن تتحمل التجلي الرباني، وكان مصيرها مصير جبل الطور، الذي صار دكا دكا.

وبذلك إذا حان وقت خلق العالم ظهرت بارقة الوجود أولا على هذه النقطة، التي هي أصل الدائرة، ومثلها كمثل الانعكاس الظاهر في المرآة، فإن أول ما يظهر في المرآة يكون في وسطها لا في جوانبها بدلائل الطبع والفطرة، وإن ظهر في الجوانب لا يكون مستقيما، ولا تظهر فيها الهيئة الكاملة، لتدل على صاحب العكس والهيئة.

ومن ثم تعود الناس على ثلاثة أمور لازمة لمشاهدة العكس، وهي بالتالي:

١- **أولا**: أنهم يضعون المرآة أمامهم لمشاهدة العكس، ولا يضعون الآجر والأحجار وما إليها من الأجسام الثقيلة التي لا تستطيع أن يظهر فيها العكس، فلولا المرآة أمام الإنسان لما أمكن مشاهدة العكس.

٢- **وثانيا:** يقومون بتسديد اتجاه المرآة، ليتم رؤية العكس بشكل صحيح، فإنه لوكانت المرآة موضوعة بشكل فيه عوج أو تمايل أو التواء لما ظهر العكس صحيحا، مما لايكفي في إبراز الصورة العكسية الصحيحة، وإذا كان العكس كذلك لم يكن دليلا على معرفة صاحب العكس.

٣- **وثالثا:** يقابلون بشكل صحيح بين المرآة والشيء الذي يراد عكسه، فإنه لولا التقابل الصحيح لما ظهر عكس صحيح.

ولا شك أنه إذا تم وضع المرآة بالشروط الثلاثة المذكورة لا بد أن يكون عكس الشيء في وسط المرآة بشكل طبيعي، ولا يكون في حاشية المرآة أو جانب من جوانبها، إذا قوبلت المرآة أمام الشمس المضيئة بالشروط الثلاثة يجب أن ينعكس ضوؤها في وسط المرآة بحكم الطبع والفطرة، وتظهر الشمس كاملا في المرآة كلها، إلا أن قرصها يكون في وسط المرآة.

إمكانية عكس البارئ سبحانه:

وهكذا تماما إذا وضع الله تعالى لظهور عكسه هذا الخلاء الشفاف اللامحدود مستقيما لا عوج فيه، صافيا لا كدورة فيه، متقابلا لا التواء فيه، بات من الضروري أن يظهر العكس الرباني في وسط مرآة الفضاء اللامحدود، كما يقتضيه فطرة الانعكاس، فالفضاء المديد وإن عمر بالخلائق الأرضية؛ لكن انعكاس الذات الإلهية ظهر في وسط الفضاء، وهو انعكاس عين الفطرة، وقد علمت سابقا أن فضاء الكعبة المقدسة هو عين وسط فضاء العالم، وقد سبق بيان الدلائل والشواهد سابقا، وبعضها سيأتي فيما بعد، فقد نزل التجلي الوجودي الأول على هذا الجانب من الفضاء، ثم امتد للفضاء كله، وذلك أن هذا الجزء من الفضاء هو وسط الفضاء ومركزه، كما مر، والوجود الإلهي من بين كمالات الذات والصفات الإلهية كان مصدر الكمالات، ولذا استقر الأمر الأفضل في مكان أفضل، ونزل الكمال الأمثل في النقطة المثالية، ليطابق الظرف المظروف.

ست مزايا رئيسية للكعبة المقدسة:

والظاهر أنه إذا كان تسليم النقطة المركزية في الفضاء المستدير مما لا بد منه فثبت وجوب اتصاف الكعبة المقدسة بجميع ما يتصف به المركز طبعا وفطرة من صفات ومميزات، وعليه فإذا كان نزول تجلي الوجود على الجهة المقدسة جعلها وسط العالم ومركزه، فكان من الضروري أن ينتقل إليها جميع خصائص المركز، فإنه لم يتم تعيين تلك الجهة الفضائية إلا ليكون مركزا عالميا. فنهض ذلك المركز بما يتصف به أي مركز كوني من الصفات بحكم الطبع والفطرة، وإذا أمعنا النظر تبين لنا أن تلك الصفات تنحصر في ست كما يلي:

١- الخصيصة الأولى أن المركز هو الذي يستقر وجوده في الدائرة أولا، فالمركز هو مصدر وجود الدائرة، حيث لولا المركز لما كانت الدائرة، فالمزكز هو الذي يستقر في الدائرة أولا، وبوجود المركز تكسب الدائرة وجودها، فوجودها يأتي في درجة ثانوية، فإنا إذا صنعنا الدائرة بالدوارة جعلنا أولا النقطة المركزية التي نضع عليها إحدى رجلي الدوارة، وندير الرجل الأخرى، فتوجد الدائرة، فإنه لولا النقطة المركزية أو كانت ولم نضع عليها إحدى رجلي الدوارة لما وجدت الدائرة حتى صبح يوم القيامة، مما يوضح أن الوجود الأول الذي يستقر في الدائرة هو وجود المركز، ثم يليه وجود الدائرة.

٢- والثانية أنه لا بد أن يكون المركز في الوسط الحقيقي للدائرة، فإنه لولم يكن في الوسط الحقيقي بل في يمين أو شمال لما وُجدت الدائرة، بل يكون نصف الدائرة أو ثلثها، ويأتي شكلها مستطيلا او مثلثا أو مربعا وما إلى ذلك، وهذه كلها خلاف الأصل والفطرة، كما ثبت سابقا أن الشكل الأصيل هو المستدير، وفي تعبير آخر: أن الشكل الصحيح هو الدائرة المستديرة، لا الدائرة المربعة أو المثلثة.

٣- الثالثة أن المركز هو أصل الدائرة، فالدائرة تكسب وجودها من المركز، ولولا المركز لما كانت الدائرة، فوجود الدائرة خاضع للمركز؛ بل فرع له، مما يثبت أن وجود المركز هو أصل وجود الدائرة.

٤- والتفاصيل السابقة أفادت خصيصة رابعة، وهي أنه لا بد للمركز من شأن النفع والإفادة، فتسفيد منه الدائرة، ففطرة الدائرة تقتضي أنه لما كان المركز هو الأصل في الدائرة، وهو الذي يُوجِد الدائرة، لا جرم تتنقل صفات المركز وخصائصه إلى الدائرة، وتشترك الدائرة في جميع صفات المركز، فإن الأصل الذي لا يستفيد منه فرعه لا يستحق أن يكون أصلا، والدائرة إذا كانت في وجودها محتاجة إلى المركز فكيف لا يحتاج إليها في الصفات والخصائص، والمعنى أن الدائرة إذا كانت هي الوجود الأول وأصل الوجود فكل دائرة تخرج منها يكون وجودها بدرجة ثانوية أو فرعية، والفروع تنتقل إليها آثار وخصائص الأصل، فكل وجود ثانوي هو فيض من الوجود الأول، فكل صفة صادرة عن المركز يمتد تيارها إلى الدائرة كلها، ثم يمتد إلى المحيط بشكل تدريجي، فإن اتصلت به ألوف من الدوائر كان أصلها هو المركز الذي سبب أمواجه وجود الدوائر الأخرى، ولا يمكن أن يكون لكل دائرة أصل ومركز جديد، فإنه لوكان كذلك لم يبق للمركز معنى المركزية، ولايكون المركز مركزا، ولا تبقى الدائرة دائرة، فكون المركز متصفا بصفات النفع والإفادة شيء ضروري.

٥- الخامسة أنه يجب أن لا تخرج حركة للدائرة من المركز، بل كان من الضروري أن ترجع الحركة إلى المركز بعد بلوغ انتهاء الدائرة، والمشاهَد أن كل حركة بُدئت من جانب الدائرة ترجع إلى المركز، وكل حركة بدئت من المركز تبلغ أولا إلى المحيط ثم ترجع إلى المركز، وعلى كل فإن الدائرة في حركتها وسكونها تابعة للمركز، وداخلة فيه، فكأن الدائرة تنادي بلسانها: يأيها المركز! إن كل

حركة من حركاتي وسكنة من سكناتي مدينة لك، وداخلة فيك، فإنه إذا كسبنا وجودنا منك فأنى لنا أن نستغني عنك في الحركات والسكنات، فالمرجعية من أهم خصائص المركز، حيث ترجع إليها جميع الحركات الصادرة عن الدوائر.

٦- والسادسة أن علم الهيئة وعلم الرياضي يفيدان أن المركز لا بد أن يكون ساكنا بحكم الطبع والفطرة، ولا يكون متحركا، وإن كان المركز هو الذي يحرِّك الدائرة، ولكن المركز ليس له علاقة بالحركة، فلا يوجد فيه شيء من الحركة، بل هو عبارة عن السكون المحض، وذلك أن المركز إذا تحرك وبرح مكانه أدى إلى اضطراب شديد في حركات الدوائر، فلم يبق المركز مركزا، ولا الدائرة دائرة، فمركز كل دائرة يجب أن يتصف بهذه الصفات الست المتمثلة في الأولية والأصلية والفوقية والإفادية والمرجعية والسكينة، فإنه إذا خلا المركز عن هذه الصفات لم يبق هو مركزا في المعنى الحقيقي، ولا يكون أصلا للدائرة المستديرة.

وسيلة إلى معرفة المركز الفضائي:

وعلى كل فإذا فكرنا في ضوء مبادئ علم الرياضي وتوصلنا إلى أن الفضاء كدائرة مستديرة، كما ثبت ذلك بدلائل قوية، فلا بد أن يكون للخلاء نقطة مركزية، وإلا لم يكن الفضاء شيئا مستديرا، بل كانت استدارته أمرا وهميا، على أنه يجب أن تتصف النقطة المركزية بالصفات الست، فإنه من مقتضيات المركز الفطرية، وإلا فإنه مركز وهمي، ودوران الدائرة حول المركز مرتبطة به مما تقتضيه فطرة الدائرة، وإلا لم تبق الدائرة دائرة، كما أن سكون المركز أيضا مما يقتضيه فطرة صنع الدائرة، وإلا لا يكون للدائرة وجود، وإذا امتلأ المركز جرَّ على ماحوله وبالا كثيرا، وستنعدم الدوائر كلها.

وقد بقي هنا سؤال مهم، وهو أين النقطة المركزية للفضاء، التي خُطَّت حولها دائرة الفضاء اللامحدود؟ ويدور حولها العالم كله؟ ثم هذا الدوران ليس مما يتخيله الوهم؛ بل هو أمر حقيقي، يشبه المشاهدات والمحسوسات، كما ثبت ذلك سابقا، وما

هو اسم ذلك المركز الذي يعرف به مكانه؟ وما هي خصائصه التي يتم بها التعرف عليها؟

والظاهر أن هذا السؤال لا يتعلق بالنظر والفكر؛ بل يتعلق بالوقائع والأحداث، التي ظهرت في الفضاء اللامحدود، وهذا أمر لا يمكن تحديده بالمشاهدة، فإنه يقتضي أن ندرك كنه الفضاء اللامحدود، ثم نحدد النقطة المركزية، ولكن المشكلة الكبرى أنا لا نستطيع إدراكه ببصرنا القاصر وعقلنا المحدود، فإنه عند ما تم تعيين المركز في الفضاء اللامحدود لم يكن لنا ولا لبصرنا وجود، فنشاهد هذا الأمر، وإذا تعين المركز وخُلقنا بعده بألوف من السنين، فكانت أبصارنا ضيقة القوة، محدودة الصلاحية، فأني لها أن تدرك العالم الممتد من الثرى إلى الثريا، وتحدد النقطة المركزية؟ وقد يخيل إلى الأذهان أن الأبصار إذا كلت في هذا المجال، فبقيت لنا آلة أكثر قوة وصلاحية، وهي العقل، مما يمكن إدراك المركز به، ولكنه وهم وخيال، فإن العقل هنا أيضا قاصر تماما عن إدراك العالم كله وتعيين المركز فيه، فإنه لم يوضع لأجل أن يخترع الحوادث أو يحيط بها أو يدركها، ثم إذا كانت الأحداث مما يتعلق بالأمور الغيبية، وما وراء الطبيعة، التي هي فوق المجال العملي للعقل، فإن العقل مهمته هو خلق الأصول والكليات بالأحداث الظاهرة، أو استنباط النتائج منها أو إقامة الدلائل على صحتها في صبغة أصولية، لا اختراع الأحداث أو خلقها بعد الشعور والإدراك، وإلا لكان كل فلسفي ومثقف وكل جغرافي مؤرخا، وكان يعلم جميع الأحداث والوقائع الماضية والمستقبلية بإعمال العقل والشعور بدون علم وتجربة، وكان بإمكانه أن يحدد الأحداث ومواضعها ونتائجها مستدلا بالأصول الجغرافية، ولا شك أنه مستحيل مما يؤكد أن خلق الأحداث والأمور المتعلقة بالغيب والشهادة في هذا الكون ليس من مهمات العقل الإنساني، فهو ليس في هذا الأمر مستقلا بالإدراك، فالعقل يمكن له أن ينبئ عن وجود نقطة مركزية في الفضاء لكونه أمرا مستديرا، فإنه من البديهي عقلا أن الكون إذا كان كدائرة مستديرة فلا بد له من نقطة مركزية.

وإذا ثبت عجز كل من العين والعقل في هذا المجال لم يبق إلا الاستعانة بالعلم، ثم العلم أيضا في حاجة إلى أن يكون علما محيطا بالغيب والشهادة.

وإذا ثبت أن النقطة المركزية للفضاء اللامحدود هي النقطة الغيبية التي لا يبلغ إليها عقولنا فلا بد من حاجة إلى حاسة تحيط بالشاهد والغائب، وليست هي غير الوحي الرباني، الذي أوحاه الله عالم الغيب والشهادة إلى رسوله الصادق الأمين، فتحتم علينا الرجوع إلى الآثار الشرعية الصحيحة والرسول الصادق الأمين، صلى الله عليه وسلم، لنطلع على موضع تلك النقطة المركزية للفضاء، التي نزل عليها التجلي الرباني، وبأي اسم تعرف تلك النقطة؟ أهي تتحلى بالخصائص الست التي هي من مميزات المركز بحكم الطبع والفطرة، وبدلائل قوية، أثبتها علم الجغرافية.

الكعبة المقدسة هي مركز العالم:

فأخبرنا الرسول الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم بأن النقطة المركزية للفضاء اللامحدود الكروي، التي تدور حولها الدوائر الكونية هي الكعبة المقدسة.

حيث روي عن أبي هريرة رضي الله عنه ما يشهد به ويثبته بشكل لا يدع مجالا للشبهة، وقد أخرجه ابن المنذر، وقد سبق تخريجه في الصفحات الماضية. حيث أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الكعبة خلقت قبل الأرض بألفي عام قبل، وكيف خلقت الأرض؟ وهي من الأرض، فقال: إنه كان عليها ملكان يسبحان بالليل والنهار ألفي سنة، (ويريد بقعة ومحلا من الفضاء، لا عمارة) فلما أراد الله أن يخلق الأرض دحاها من تحت الكعبة (أي من فضاء الخاصة)[1].

وهذه الرواية نص في أن الجزء من الفضاء الذي اختير ليكون مادة العالم ومركزه هو الكعبة المقدسة، وقد سمي بالكعبة عندما لم يكن للأرض وجود، كما يدل

(١) الشيخ عبد العزيز الدهلوي، **التفسير العزيزي**، ج١، ص٤٥٦.

عليه لفظ الكعبة الوارد في الرواية، مع أنه كان وضعا فضائيا محضا، لا يصحبه شيء من العلامات الظاهرية فضلا أن يكون له بناء.

وبذلك تبين أن مركز العالم هو البقعة المباركة والمحل المبارك، الذي يطلق عليه شرعا لفظ الكعبة المقدسة، وقد تم وضع الساق الإلهي على هذا الفضاء، ليتشخص المركز، كما أن الساق الثاني خط دائرة كونية حول النقطة المركزية، فثبت أن الكعبة المقدسة هي مركز الكون كله.

كما أن الشرع الإسلامي اتخذ خطوة أخرى لإبراز مركزية الكعبة المقدسة، وهي أن الله جعل الكعبة المقدسة مركزا لبقاء الإنسان وفناءه فيما يتعلق بالأخبار الشرعية، والإنسان -كما هو معلوم- أشرف أنواع الخليقة وأفضلها، وسخر الله له هذا الكون العظيم، وجعله مقصد العالم، فإذا كانت الكعبة المقدسة مركزا للإنسان الذي هو مقصد العالم، فمن الطبيعي أن تكون الكعبة مركزا للوسائل الكونية كلها، التي خلقت لتفي بحاجات الإنسان، سواء كانت مستورة أو مكشوفة.

فقد جعل الله تعالى في القرآن الكريم الكعبة المقدسة مركزا للبقاء الإنساني ومثابة للناس، حيث قال الله تعالى: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس، فوصف الكعبة بأنه قيام للناس على الإطلاق دليل على أنه سبب وجود الإنسان وبقاءه من حيث الوفاء بالحاجيات المادية والمادية، إما الحاجات الروحانية فتفي بها العبادات الإسلامية التي مركزها الكعبة المقدسة، حيث لولاها لما صحت العبادات، لا سيما الصلاة والحج، فالكعبة مدارهما كما سيأتي بيانه.

أما الحاجات المادية التي إنما توفَّى بالأشغال التجارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وما إليها من الأمور الاجتماعية واللازمة للحياة، فالكعبة هي وسيلة وجود هذه الأشياء وعدمها، فإن المسلمين في كل مكان إذا حضروا الكعبة المقدسة فهم

بجانب أداء الحج –وهو غرضهم الأصيل– يقومون بالوفاء بكثير من فوائدهم التجارية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية على الصعيد الدولي، التي لا تخص فوائدها المسلمين والعالم الإسلامي؛ بل تشمل دول العالم كلها، ومن ثم تحرص كل دولة إسلامية وغير إسلامية على إقامة العلاقات الدبلوماسية مع المسلمين العرب، والتفكير في تطوير هذه العلاقة، مما يوضح أن الحرم الآمن هو قيام للناس من الناحية الروحية والمادية.

وحاصل الكلام أن مكة المكرمة (وهي تحتوي على البيت الحرام) تجمع بين معبد عالمي وبين دار عالمية للتجارة والاجتماع، مما يثبت كون مكة المكرمة قياما للناس ومثابة لهم من حيث الجانب المادي والروحاني، والظاهر أنها إذا كانت مثابة للناس ومركزا لهم يجب أن تكون قياما لجميع وسائل العالم، من الأرض والسماء وما إليها من الخلائق الدنيوية الكثيرة، وإذا كانت كل دائرة تحتاج إلى مركز، فلا قيام للدائرة بدون المركز، ومن هنا يتجلي كون الكعبة سببا لوجود وبقاء العالمين وما فيها من خلائق لا تعد ولا تحصى، فإن دائرة العالم ستبقى ما بقي المركز المتمثل في الكعبة، وهذا هو شأن المركز، حيث يتوقف وجود الدائرة على وجود المركز.

ثم هو ليس وسيلة لقيام العالم فحسب؛ بل هو محور فناء العالم، فإن المركز إذا تنحى ولو قليلا لا تبقى الدائرة لحظة، وقد أظهر الشرع الإسلامي هذه المنزلة للكعبة المقدسة، فقد جاء في الحديث النبوي ما حاصله أن العالم إذا اقتربت نهايته وقربت الساعة ظهر رجل حبشي ضعيف الجثة، قبيح الشكل، أعور، أعرج، قصير دميم، رديء الشخصية، سيظهر هذا الرجل ليقلع الكعبة حجرا حجرا، الكعبة التي لم يقدر أصحاب الفيل الأقوياء على هدمها، وبعد ارتفاع بنيان الكعبة تقوَّض أساس العالم، وتصدَّع سرادقه، وستخوى خيامه على عروشها، ومثله كمثل حكومات الدنيا التي تستعمل ألوفا

من الجنود وتعرضها للخطر في الدفاع عن دار السلطنة والقصر الملكي، ولكن إذا أرادت هدم القصر الملكي بنفسها تستعمل عامة العُمّال وصُنّاع اليد، سواء كانوا عورا، أو عُرجا، أو عُمْيا، أو قليلي الحال، أو أذلاء.

وعلى كل فتجلى بالآية والحديث أن الكعبة المقدسة هي سبب لوجود وفناء العالم، ووسيلة البقاء والفناء، وهذا شأن المركز مع دائرته.

ومن أبرز دلائل مركزية الكعبة عالميا ما أشار إليه المفسر الشهير العلامة ابن كثير رحمه الله، وهو أن الله تعالى لما أتم خلق الأرض والسماء خاطبهما بقوله: **فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَايِعِينَ** (سورة فصلت: ١١).

وأفاد ابن كثير في هذا الموضع أن هذا الصوت الصادر عن الأرض والسماء نشأ أولا من الكعبة، ونُسِب هذا الصوت إلى الأرض كلها، مما دل على فضل الكعبة على غيرها من الأرض، وكون الكعبة مركزا للعالم، فإن كل حركة تنشأ من المركز صوتا كانت أو فعلا تنداح إلى الدائرة كلها بشكل مرتب، وفي النهاية يكون فعل الدائرة.

وكذلك اعتبار صوت الكعبة صوت الأرض كلها بشكل يدل على مركزية الكعبة شرعا أوضح من الشمس في رابعة النهار.

وعلى كل فإن آية "إن أول بيت وضع" الخ دلت على مركزية المقام بشكل أصولي، ثم فصَّلت الأحاديث والأخبار النبوية وآثار السلف فروعها وجزئياتها، مما أثبت دلائل كون الكعبة مركزًا عالميًا وأنها مركز الوجود وقطبه، ولله الحمد.

الخصائص الست المركزية للكعبة المقدسة من منظور شرعي:

الميزة الأولى: الأولية

وإذا ثبت أن الكعبة المقدسة مركز الدائرة الكونية عقلا وشرعا وتاريخيا وجب أن تتحلى بالخصائص الست، التي تقتضيها طبيعة أي مركز، فأثبت الشرع الإسلامي للكعبة

المقدسة جميع المزايا الشرعية كما أثبته لها علم الرياضي، وهي أن مركز العالم الكعبة المقدسة هو أول الكائنات ووسطها وأصلها، ومرجعها، ونافعة لها، وسبب أمنها وسكينتها، وفي تعبير آخر: إن الأمن الكوني يتوقف على الكعبة المقدسة، ومن أجل ذلك قد سلطت الضوء على خصوصيات المركز حسب مبادئ علم الرياضيات العقلية، لتثبت للمركز خصائصها من الناحية العقلية، ثم أقوم بإثبات خصائصها من الناحية الشرعية، حتى يتجلى بكل سهولة أني لا أريد إثبات الخصائص المركزية للكعبة المقدسة من منظور شرعي فحسب؛ بل هذه الخصائص الشرعية يقتضيها الضمير الإنساني والفطرة الإنسانية، بشرط أن يرجع الإنسان إلى فطرته، ولا يمسخها بهوى نفسه وتعصبها الخارجي، مع أن فطرته هي التي تقتضيها، والفطرة التكوينية توافق كليا الفطرة التشريعية، وانظروا في الخصائص الست المذكورة في ضوء الأخبار الغيبية والحقائق الشرعية ليكون ثبوتها بدلائل العقل والنقل.

مركز العالم الكعبة المقدسة هو أول الوجود وأول الكائنات:

الظاهر أن الخصيصة الأولى طبعا من بين الخصائص المركزية هي الأولية، فالمركز هو الذي يوجَد أولا في الدائرة، وهو الذي يتكون فيها، وبالمركز تتكون الدائرة، فتكوين الدائرة بالدوَّارة يقتضي أولا وضع أحد جانبي الدوارة ليتعين المركز، وعلى هذه النقطة المعينة يتم تحريك الجانب الثاني من الدوارة، لتتعين الدائرة.

وعلى هذا المبدأ الفطري، الذي هو فطرة الله، إذا شاء الله تعالى إيجاد الدائرة الكونية في الفضاء المدور خلق الكعبةَ المقدسة أولا في الفضاء اللامحدود من بين الخلائق الأرضية، واختار هذه النقطة المركزية أولا في الفضاء البسيط، ثم إذا أراد إيجاد الكون أوجد هذه النقطة، فجعل الكعبة المقدسة، وعلى هذه النقطة أثبت إحدى ساقي الدوارة، وعليها نزل التجلي الوجودي، وهذه النقطة كسبت أولا الوجود، ثم أدار

الساق الثانية ليوجد الدائرة الكونية، التي منها نشأ الكون في الجوانب الأربعة، وقد وصف القرآن الكريم الكعبة المقدسة بالأولية المطلقة، غير متقيدة بكل من الأرض والسماء، حيث قال:

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (*) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (سورة آل عمران: ٩٦-٩٧).

وفي تفسير هذه الآية قال كل من أبي مالك وأبي صالح وإبراهيم النخعي والعطية العوفي ومقاتل بن حيان وأمثالهم من المفسرين الكبار: إن بكه مكان مضت عليه ألوف من السنين، ثم بنيت عليه الكعبة المقدسة، ثم تبدل اسمه إلى "مكة"، مما دلَّ على أن الكعبة هي أول الكائنات، والظاهر أن ليس المراد بها هنا بناء الكعبة أو البقعة الأرضية التي قامت عليها الكعبة؛ بل المراد الكعبة الوضعية (كما وضعها الله أول مرة) التي حددها الله في الجهة المعينة من الفضاء، والتي سبق وضعه خلق السماوات والأرض بألوف من السنين، كما مر بيانه سابقا في حديث أبي هريرة، علما بأن الحديث بين مسافة أربعين سنة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وأثبت الأولية للكعبة، فمسافة أربعين سنة ليست مسافة في البناء، فهي مسافة قرون؛ فمسافة أربعين سنة هي المسافة في وضع الكعبة ووضع المسجد الأقصى، فتجلى أن المسجد الذي أُطلق عليه "أول وضع" في حديث أبي هريرة، و"أول بيت" في الأية القرآنية هو الكعبة المقدسة لا غير، والمراد بأول وضع وبأول بيت هو الوضع الأول للكعبة، الذي تعين في الفضاء، ولن يراد بها الكعبة التي خلقت بجزء من الأرض بعد خلقها، فالمراد في كلا الموضعين هي الكعبة الوضعية، لا الكعبة الحسية، التي قام لها بناء، أو الأرض التي أحاطت بها، فعندما تم الوضع الأول للكعبة ما كانت أرض ولا سماء، كما سبق تفصيله.

وصرح البغوي في تفسيره بأنه هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض"[1].

وعزاه إلى كل من عبد الله بن عمر ومجاهد والسدي وقتادة رحمهم الله.

فهذه الرواية أيضا تثبت الأولية للكعبة التي هي الجهة المشخصة في الفضاء، لا الكعبة التي لها بناء أو بقعتها الأرضية، فإن هذه الأشياء خلقت بعد خلق الأرض والسماء لا قبله، فإذا ذكرت الأية الكعبة مصحوبة بالأولية، يجب أن يراد بها الكعبة الوضعية التي سبقت خلق السماء والأرض، وليس المراد بها الكعبة المادية الحسية، فكل من الروايتين تفسر الآية القرآنية، وتثبت للكعبة المقدسة أولية مطلقة، وهي من خصائص المركز بحكم الطبع والفطرة.

ثم هناك حديث آخر روي عن أبي هريرة، سبق ذكره في بيان مركزية الكعبة، ولكنه دل بكل وضوح على أن وجود الأرض مسبوق بوجود الكعبة بألوف من السنين، وأكتفي هنا بنقل جزء من ذلك الحديث، وهو "الكعبة خلقت قبل الأرض بألفي عام"[2].

فهذه الروايات تكشف عن أولية الكعبة، وتقطع كل شبهة في هذا، وهي من حق المركز الطبيعي.

إزالة إيراد على أولية الكعبة:

ومن الإمكان بكثير أن ينشأ هنا سؤال في بعض الأذهان، وهو أن الكعبة إذا ظهرت أولا على وجه الماء كما جاء في حديث البغوي عن أبي هريرة، فالكعبة وإن سبق وجودها خلق السماء والأرض، ولكنه مسبوق بوجود الماء، فكيف ثبتت لها أولية مطلقة؟

---

(١) **تاريخ الكعبة المكرمة**، ص١١.

(٢) **تفسير فتح العزيز**، ج١، ص٤٥٦.

الجواب أن رواية البغوي جاءت بكلمة "الظهور" لا بكلمة الحدوث والخلق، أي ظهرت الكعبة أولا على الماء، والظهور لا يكون إلا لشيء سبق وجوده، فلا يقال: خلقت الكعبة على الماء، فإن الكعبة الحقيقية هي الجهة الفضائية، والفضاء والخلاء وجهته مقدمة على كل شيء كوني، سواء كان ماءا أو هواء أو ترابا، فإن الخلاء شيء فطري، يكون بمثابة ظرف لهذه الأشياء، يشمل هذه الأشياء كلها، فيعتبر مقدما على كل شيء طبعا، وجهته الفضائية تكون سابقة على ما سواها من الأشياء على الإطلاق.

وعلى كل فوضع الكعبة إذا لم يتم خلقه على الماء، بل كان على الفضاء والخلاء، الذي هو مقدم على الماء، فرواية البغوي التي تدل على أولية الكعبة لاينقضها شيء في الكون، وإذا مزجنا بها رواية البغوي علمنا أن الله تعالى إذا أراد خلق الأرض دحاها من تحت الكعبة، أي أنزل عليه الوجود النوري، ثم بدأ منه خلق الكون، ونشر الوجود الكوني في العالم كله، وبذلك ثبتت للكعبة أولية في الوجود والإيجاد معا.

فأولية الكعبة تحمل معنيين: الأولى كونها أول الموجودات، والثانية كونها منشأ الإيجاد والتخليق، مما يُثبت للكعبة أولية مطلقة.

الكعبة المقدسة هي أصل الكائنات كلها:

الأصالة:

والخصيصة الثانية من الخصائص المركزية التي تقتضيها طبيعة المركز هو اتصافها بالأصالة من منظور شرعي، حيث لم تكن الكعبة المقدسة أول الكائنات؛ بل هي أصل الكائنات وسبب إيجادها وتخليقها، فقد جاء في رواية أبي هريرة رضي الله عنه التي أخرجها ابن المنذر "فلما أراد الله أن يخلق الأرض دحاها من تحت الكعبة"[١].

(١) تفسير **فتح العزيز**، ج١، ص٤٥٦.

مما يدل على أن الكعبة المقدسة هي أصل الأرض، ومنها نشأت الأرض، حيث خلق من الأرض أولا قدر شبر، ثم بُسِطَتْ بشكل تدريجي حتى انتهت إلى هذا الحد، مما يدعى اليوم الكرةَ الأرضيةَ.

الكعبة المقدسة هي أصل الخلائق الأرضية كلها:

وبهذا تبين أن الكعبة المقدسة إذا عادت أصلَ الأرض ثبت كونها أصل الخلائق الأرضية، سواء كانت جمادًا أو نباتًا أو حيوانا أو إنسانا، وإلا فكيف يمكن أن تكون الكعبة أصلَ الأرض، ولا تكون أصل الخلائق الأرضية، فإنها لو صح هذا المنطق للزم أن يكون الأب أصلَ الولد ولا يكون أصل ابن ابنه، مع أنه لافرق بينهما إلا بالمباشرة والواسطة، ولا يكون الفرق بينهما في الأصالة ودونها، وبذا ثبت أن الكعبة المقدسة ليست هي أصل الأرض؛ بل هي أصل الخلائق الأرضية، وفي تعبير آخر: إن الإنسان هو أشرف أنواع الخليقة، ولأجله خلقت الكائنات، كما جاء في الحديث: إن الدنيا خلقت لكم[1]، وإذا كانت الكعبة المقدسة هي أصل أشرف أنواع الخليقة، فكيف لا تكون أصل غيره من الخلائق، التي خلقت كوسائل؟

ومن أجل ذلك قال خاتمة المحققين الشاه عبد العزيز الدهلوي رحمه الله في تفسير فتح العزيز (باللغة الفارسية) ما حاصله: "والأصل أن التراب هو أصل النوع الإنساني، والكعبة المقدسة هي أصل الكرة الأرضية، فقد سبق في الروايات السابقة أن الكعبة المقدسة خُلقت في صورة الزبد على سطح الماء قبل خلق الأرض، ثم دحيت الأرض كلها من تحتها وانتشرت في المعمورة كلها، فرجع أصل الجسم الإنساني أخيرا إلى هذه النقطة"[2].

(١) البيهقي، **شعب الإيمان**، رقم الحديث: ١٠٥٨١.

(٢) **تفسير فتح العزيز**، ج١، ص٤٦١.

واستدلال الشاه عبد العزيز رحمه الله كما أثبت أن الكعبة المقدسة هي أصل الإنسان، أثبت كذلك كونها أصل الخلائق الأرضية، من الجماد والنبات والحيوان والإنسان، فحديث أبي هريرة رضي الله عنه أفاد أن الأرض بدأ خلقها من الكعبة، وأفاد القرآن الكريم أن الكعبة في مكة ، وذلك بقوله: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ** (سورة آل عمران: ٩٦) فكل هذه المعاني أفادت أن الكعبة المعظمة هي أصل الخلائق الأرضية، كما جاء في رواية عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "وضع الحرم قبل الأرض بألفي عام ودحيت الأرض من تحته"(١).

فكون الكعبة أول بيت مخلوق ثبت بالآية القرآنية، وكونها أصل الخلائق ثبت بالحديث الشريف، وثبت كونها أصل الخلائق الأرضية بآثار الصحابة وأقوال العلماء، التي مصدرها هو القرآن الكريم، فالمعاني الثابتة بالكتاب والسنة وأقوال السلف دلت على أن الكعبة المقدسة أصل العالم ومبدأ الكائنات، ولا يعني هذا أن خلق الكعبة مقدم من الناحية الزمنية فحسب؛ سواء كانت أصل العالم أم لا، كما في كثير الخلائق، يكون بعضها مقدما على البعض الآخر،من غير أن يكون أصله، فكشف الحديث النبوي عن هذا الجانب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب(٢)، وقال الله تعالى في القرآن الكريم: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (سورة المؤمنون:١٢).

وإذا وصف الله تعالى الكعبة المقدسة بأنها قيام للناس، أشار إلى أنها أصل الكائنات، كما يكون شأن أصل الشجرة، حيث يأتي أساس الساق والغصون والأوراق والأزهار والأثمار، وعلى الأصل يتوقف وجود هذه الأشياء وعدمها، مما يدل على أن

---

(١) الهيثمي، **مجمع الزوائد** (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٩٢م)، رقم الحديث: ٥٧٢٨.
(٢) الترمذي، أبو عيسى، **سنن الترمذي**، رقم الحديث: ٣٢٧٠.

سلسلة الخلق والتكوين بدئت بالكعبة المقدسة، ومنها دحيت الأرض، فخلق منها أولا قدر شبر، وصفت بالكعبة، كما مر تفصيله، ثم انداحت قليلا، واستمرت حتى تكونت بقعة الكعبة المقدسة، التي ملأ أساسها الملائكة إلى نهاية التحت الأرضي، وعليها قام بنيان الكعبة حاليا، ثم توسعت دائرة الأرض حتى تكونت الكرة الأرضية كما جاء في أثر ابن عباس رضي الله عنه.

الكعبة المقدسة من الثرى إلى الثريا:

وعلى كل نشأت الأرض من الكعبة، وتوسعت، فعادت الكعبة هي أصل الأرض طبعا، ولا أصل الخلائق الأرضية بحكم الأصالة الأرضية، حيث نشأ من الأرض عناصر الخلائق الأرضية كلهامن الجماد والنبات والحيوان والإنسان، حيث لم يتأخر وجودها عن الأرض، بل نشأت منها، وإن كان الماء منشأ الحياة ظاهرا كما قال الله تعالى في القرآن: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ(سورة الأنبياء: ٣٠)، ولكن لم يجعل الله تعالى الماء مصدر الحياة، بل جعله وسيلة الحياة، أما منشؤ الحياة ومادتها التي نشأت منها الأشياء فقد وصف بها الأرض ولا غير، حيث ذكر في سياق خلق الإنسان: **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ** (سورة المؤمنون:١٢)، وقال سبحانه: **الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ** (سورة السجدة: ٧)، فوصف الأرض بما لم يصف به الماء.

إلا أنه تأخر وجود كل من الماء والأرض عن وجود الكعبة، التي هي الجهة الفضائية التي سبقت وجودَ الماء والأرض، حيث وجدت الفضاء عند ما لم يوجد الماء والأرض، وعند ما خلقت الخلائق وقعت في الفضاء، فإن الفضاء هو ظرف الكون كله، والظرف يتقدم وجوده على ما فيه من المظروف، فإن الظرف محل المظروف، فالكعبة المقدسة مع كونها أول الكائنات أصل الأرض والخلائق الأرضية، كما تقتضيه فطرة المركز.

وليس المراد بالأرض هي الطبقة العليا منها، بل الأراضي السبع البالغة إلى ماتحت الثرى، حيث رواية سيد المفسرين مجاهد رحمه الله كما أثبتت أولية الكعبة بقوله: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرضين، أفادت أن الكعبة المقدسة هي أصل الأرضين السبع، حيث جاء فيها: وإن قواعده يعني الأرض السابعة السفلى[1].

مما يثبت أن الكعبة المقدسة تشمل كلا من الأرضين السبع، ومن أجل ذلك صرح العلماء بأن الكعبة وما تحتها إلى آخر الوجود الأرضي قبلة، وكيف لا؟ فقواعدها بلغت الأرضين السبع حتى الطبقة السفلى، حتى لكأن خيطا نورانيا امتد إلى ماتحت الثرى، اتحدت فيها قبلة الأراضي كلها كأمارة دالة عليها، أجل! إن القبلة المركزية هي القبلة الواقعة فوق الطبقة العليا من الأرض، فإن الأرض خلقت منها، والطبقة العليا هي أساس الطبقات السفلى كلها؛ مما أثبت من جديد الأصالة المطلقة للكعبة من منظور شرعي، فأصالتها لا تنحصر في الطبقة العليا من الأرض بل تبلغ إلى الأرضين السبع في صورة خيط نوراني ممتد.

أولية الوجود الأرضي بواسطة الكعبة:

وبذلك تجلت مسئلة جديدة، وهي أن الأرض هي التي خلقت أولا من بين العناصر الأربعة، فهي أصل العناصر المادية أيضا، حيث هي أساس العالم، وكل بنيان يبدأ من أساسه طبعا، لا من سقفه، أو جداره أو قوائمه، ومن هنا جعل الله تعالى الأرض فراشا، والسماء بناء، قال الله تعالى: **الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** (سورة البقرة:٢٢)، كما وصف الأرض في موضع آخر بـــ "ذلول" والسماء بـــ "سقف محفوظ"، والمعلوم أن السقف لا يقوم على أساس، بل على جدار أو قائمة

---

(١) تفسير القرطبي، ص١٣٧.

مرفوعة، أو على أطناب وحبل ممدود، فوصفُ القرآن الأرض بالفراش والسماء بالسقف دليل على أولية الأرض، أما قدر الشبر من الأرض التي هي بيت الله، ومنه دحيت الأرض فهو أول الكون مطلقا، فأولية بقعة الكعبة ثابتة على الكرة الأرضية كلها، وثبتت للكعبة أولية مطلقة، ومن استزاد فليراجع تفسير ابن كثير ج٧، ص٣٢٣.

وبعد خلق الأرض بدأ خلق السماء، وبيانه أنه صُبَّ الماء على الأرض من الفوق، واجتمع الماء في جوانب الأرض الأربعة، فاستتر قدر شبر من الأرض (وهي أرض الكعبة) في الماء، حتى عاد الماء يموج في جوانبه الأربعة، وباتصال الأرض بالماء وتلاطم المياه نشأ بخار، عم الفضاء في صورة دخان وضباب، ففتق الله تعالى هذا الضباب وجعله سبعة، وهي السموات السبع، بعضها فوق بعض، فالصورة أن في التحت ماءا كثيرا، شمل قدر شبر من الأرض، غارقا فيه، وفي الفوق سماء ممتدة على الماء في صورة ضباب، وقد قرأتم سابقا أن تلاطم الأمواج المائية أحدث بخارا صاعدا إلى الفوق، وزبدا صلبا، ومنه نشأت الأرض، بحيث اتصل الزبد الأرضي الصلب بأرض الكعبة، ثم اتسعت دائرتها حتى عادت إلى الصورة الحالية، مما يدل بكل وضوح على أن الأرض هي أصل السماء، فإنه لولا صبوب الماء على الأرض لما اختلط الماء بالأرض ولا حدث منها بخار ولا نشأت سماء، فكان للأرض دخل كبير في وجود السماء، وتلك الأرض التي لها دخل في وجود السماء هي بكة، التي في مكة، ولقبت ببيت الله، وأقوال الأئمة المفسرين نحو أبي مالك وأبي صالح وإبراهيم النخعي والعطية العوفي ومقاتل بن حيان جاءت بتفصيل مشبع في الباب، ومن أراد الزيادة فعليه بتفسير ابن كثير ج٢، ص١٩٠ تحت قول بكة، مما أفاد أن الكعبة المقدسة هي الأصل المادي لكل من الأرض والسماء.

وإذا أمعنا التفكير وجدنا أن الكعبة هي الأصل الروحي للخلائق كلها، فإن الله تعالي خاطب كلا من الأرض والسماء بقوله: **ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا** (سورة فصلت: ١١)، **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** (سورة فصلت: ١١).

وقال المفسرون: إن البقعة الأرضية التي أجابت هذا الجواب المطيع هي بقعة الكعبة المباركة، الممتدة من العرش إلى الفرش، وإطاعة الرب هي ترادف الروحانية، مما أثبت أن الكعبة الممتدة من العرش إلى الفرش كجسد نوراني هي الأصل الروحاني للأرض والسماء وما فيهما من خلائق لا تعد، وبعد كل هذا لم يبق مجال لإنكار أن الكعبة المباركة لها أولية مطلقة من بين الخلائق الكونية.

الكعبة المقدسة هي أصل السماء:

والتفكير المكثف في موضوع الكعبة يؤدي إلى أن الكعبة ممتدة الجذور مما تحت الثرى إلى الثريا، فهي مقدمة على السماء، فالدليل السابق كما أثبت للكعبة أصل الأرضين السبع لكونها مرتبطة بالأرض حتى بماتحت الثرى، كذلك أثبت أصالتها للسماء، ويمكن أن يقال: إن الكعبة أصل الخلائق الأرضية بحكم كونها أصل الأرض، فكذلك إنها أصل الخلائق السماوية لكونها أصل السماء، فإن القرآن الكريم قد نص على أن الأرض خلقت قبل خلق السماوات، وإن كان امتدادها بعد خلق السماء، ونواة الأرض قد تم خلقها أولا، أما التوسع فيها فحدث بعد خلق السماء، فكيف يمكن أن يكون الشيء أصلا لشيء، ولا يكون أصلا لفروعه، فكأن النواة تكون أصل الشجرة سواء كانت ساقها أو غصونها وأوراقها، فكأن الأصل يسري في جميع أجزاء الشجرة، فكذلك البقعة المباركة للكعبة المقدسة تعتبر نواة للكون كله بحكم كونها أول الوجود وسريانها في الكائنات العلوية والسفلية كلها، مما ظهرت منه جذور الكائنات كلها، فكأنها ينعكس وجودها على جميع المظاهر العلوية والسفلية.

وفي جانب آخر كلما علا الإنسان إلى العلو رأى الأشياء أكثر لطافة، وإذا أوغل في النزول وجدها أكثر كثافة، فإذا ارتفع الإنسان من أصل الشجرة إلى الساق إلى الغصون إلى الأوراق إلى الثمار والأزهار، وجد الأعلى ألطف من الأسفل، وإذا نزل إلى

التحت من الساق والجذور، وجد الأسفل أكثف من الأعلى، فالكثافة واللطافة إنما تتعلق بالمواضع، ولكن هذا التفاوت في الخصائص لايحدث فرقا، والجانب العلوي والسفلي من الشجرة كله مأخوذ من أصل الشجرة، فالكعبة هي أصل شجرة الكون علويها وسفليها، بحكم أن الكعبة أول الوجود ومنشؤ الكون، وإن انقسم الناشئ منها إلى لطيف استقر في الكون العالي، وكثيف استقر في الكون السافل، فالجانب العلوي للبيت الكريم المشتمل على الأمور الفلكية من الشمس والقمر والجنة والأرواح والملائكة تجده مليئا باللطافة والنورانية، وفكروا في السفليات نحو البر والبحر والشجر والحجر والحيوان والإنسان تجده مثقلا بالكثافة، إلا أن هذا الفرق بين العالي والأسفل أو بين الأصل والفرع لا يحدث فرقا في كون البقعة المباركة أول الوجود وأصل الكل؛ مما يدل على أن هذه البقعة المباركة أو أول الوضع كانت مورد الأنوار الوجودية أولا، التي نظر إليها الله سبحانه للإيجاد والتخليق، وأنزل عليه النور الوجودي، ومنه نشأ العالم.

ثم كما أن قبلة الأرضين السبع هي في اتجاه الكعبة من الثرى إلى الثريا، فكذلك توجد قبلة في السماوات السبع، وفي اتجاه واحد، حيث جاء في الحديث ما يفيد أن في السماء قبلة، في اتجاه الكعبة الشريفة، حتى لو خر حجر منها لخر عليها، ونص الحديث: وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: "هَلْ تَدْرُونَ مَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ؟ " قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "فَإِنَّهُ مَسْجِدٌ فِي السَّمَاءِ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ، لَوْ خَرَّ لَخَرَّ عَلَيْهَا، يُصَلَّى فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ"[1].

---

(١) ابن كثير، **تفسير ابن كثير**، ج٧، ص٤٢٩.

فالقبلة لا تتعدد؛ بل هي واحدة، امتدت من العرش إلى الفرش، فحرمتها في السماء كحرمتها في الأرض، مما يدل على عالمية القبلة، وبذلك وصفها الله تعالى بأنها هدى للعالمين إشعارا بأنها قبلة آفاقية، لاتتقيد بالحدود والقيود، ضاربة في الآفاق.

الكعبة هي محور وجود الكون وعدمه:

وبذلك اتضح لنا أن الجانب العلوي من الكعبة ليس بشيئ مهم بقدر حرمة الكعبة ذات الحجارة السود في مكة المكرمة؛ بل الكعبة المقدسة امتدت مما تحت الثرى إلى ما فوق السماوات السبع، متمثلة في العمود النوراني، وحولها تدور رحى الكون العالي والسافل، ويقيم حركاته، والظاهر أن هذه القبلة النورانية الطويلة الممتدة من العرش إلى الفرش بمئات الألوف من الأميال ليست بناء؛ بل هي مقام فضائي خاص، احتوى على عدد من المباني الحسية لأمارات القبلة، كانتظام حبات السبحة في الخيط النوراني.

فالقبلة من العرش إلى الفرش ومن الثريا إلى الثرى واحدة، إلا أنها ظهرت باسم الله في صور متعددة في شتى بقاع الأرض والسماء، أظهرها الله حسب الحاجة.

ورواية وهب بن منبه رضي الله عنه التالية تفيد هذا المعنى بكل وضوح:

أخرج الإمام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير تحت آية القبلة عن وهب بن منبه قال: إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض استوحش منها لما رأى من سعتها ولأنه لم ير فيها أحدا غيره، فقال: يا رب أما لأرضك هذه عامر يسبحك فيها ويقدس لك غيري. فقال الله تعالى: إني سأجعل فيها من ذريتك من يسبح بحمدي ويقدس لي وسأجعل فيها بيوتا ترفع لذكري فيسبحني فيها خلقي وسأبوئك منها بيتا أختاره لنفسي وأخصه بكرامتي وأوثره على بيوت الأرض كلها باسمي وأسميه بيتي أعظمه بعظمتي وأحوطه بحرمتي وأجعله أحق البيوت كلها وأولادها بذكري وأضعه في

البقعة التي اخترت لنفسي فإني اخترت مكانه يوم خلقت السموات والأرض، أجعل ذلك البيت لك ولمن بعدك حرما آمنا أحرم بحرمته ما فوقه وما تحته وما حوله فمن حرمه بحرمتي فقد عظم حرمتي ومن أحله فقد أباح حرمتي، ومن أمن أهله استوجب بذلك أماني ومن أخافهم فقد أخافني ومن عظم شأنه فقد عظم في عيني ومن تهاون به فقد صغر في عيني سكانها جيراني وعمارها وفدي وزوارها أضيافي أجعله أول بيت وضع للناس وأعمره بأهل السماء والأرض، يأتونه أفواجا شعثا غبرا: وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق [الحج: ٢٧] يعجون بالتكبير عجا إلي ويثجون بالتلبية ثجا، فمن اعتمره لا يريد غيري فقد زارني وضافني ونزل بي ووفد علي، فحق لي أن أتحفه بكرامتي وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وزواره وأن يسعف كل واحد منهم بحاجته تعمره يا آدم ما كنت حيا ثم يعمره من بعدك الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن ونبيا بعد نبي حتى ينتهي بعد ذلك إلى نبي من ولدك يقال له محمد عليه السلام وهو خاتم النبيين فأجعله من سكانه وعماره وحماته وولاته فيكون أميني عليه ما دام حيا، فإذا انقلب إلي وجدني قد ادخرت له من أجره ما يتمكن به من القربة إلى الوسيلة عندي وأجعل اسم ذلك البيت وذكره وشرفه ومجده وسناه وتكرمته لنبي من ولدك يكون قبل هذا النبي وهو أبوه، يقال له إبراهيم أرفع له قواعده وأقضي على يديه عمارته وأعلمه مشاعره ومناسكه وأجعله أمة واحدة قانتا قائما بأمري داعيا إلى سبيلي أجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم أبتليه فيصبر وأعافيه فيشكر، وآمره فيفعل وينذر لي فيفي ويدعوني فاستجب دعوته في ولده وذريته من بعده وأشفعه فيهم وأجعلهم أهل ذلك البيت وولاته وحماته وسقاته وخدامه وخزانه وحجابه حتى يبدلوا أو يغيروا وأجعل إبراهيم إمام ذلك البيت وأهل تلك الشريعة يأتم به من حضر تلك المواطن من جميع الجن والإنس. وعن عطاء قال: أهبط آدم بالهند فقال: يا رب ما لي لا

أسمع صوت الملائكة كما كنت أسمعها في الجنة؟ قال: بخطيئتك يا آدم فانطلق إلى مكة فابن بها بيتا تطوف به كما رأيتهم يطوفون فانطلق إلى مكة فبنى البيت، فكان موضع قدمي آدم قرى وأنهارا وعمارة وما بين خطاه مفاوز فحج آدم البيت من الهند أربعين سنة، وسأل عمر كعبا فقال: أخبرني عن هذا البيت فقال إن هذا البيت أنزله الله تعالى من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم عليه السلام، فقال: يا آدم! إن هذا بيتي فطف حوله وصل حوله كما رأيت ملائكتي تطوف حول عرشي وتصلي ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة، فوضع البيت على القواعد فلما أغرق الله قوم نوح رفعه الله وبقيت قواعده"(١).

فألفاظ الحديث دلت على أن الكعبة محور الوجود، ومن هنا قال الله تعالى في القرآن الكريم: **جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (سورة المائدة: ٩٧)، وجاء في الحديث أنها فناء للناس، فبما أن الكعبة المعظمة هي أصل الإنسان وجميع الخلائق الأرضية وجب أن يكون مدار الكون عليها لا غير، فإن الغصون والأوراق تبقى ما بقي الأصل، فلولا الأصل لما وُجدت الغصون والأوراق والأزهار والثمار، وهكذا إذا كانت الكعبة أصل الإنسان وهو الهدف الأعلى للكون، فلا بد أن تكون أصلا لغيره من الوسائل الدنيوية، ومدارا للبقاء والفناء، وفي تعبير آخر: إن الكعبة هي أول البيت وهي آخر البيت أيضا، ومدار لبقاء الكون وفنائه، وكيف لا؟ فهي أصل الوجود وبناء القيام الكوني ومركز النشأة، حيث نشأت منها أمواج الوجود، وضربت بتيارها على الموجودات العنصرية والروحانية.

فقد ثبتت للكعبة أولية بنص القرآن الكريم، وثبتت أصالة مطلقة حسب الآثار والروايات، مما شهد بأنها مركز الوجود كما تقتضيه فطرة الكعبة المقدسة، وقد أيدها

---

(١) الإمام الرازي، **تفسير الرازي**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ) ج٤، ص٤٦.

أقوال السلف تائيدا صريحا، فتجلى كونها أول الوجود حسا وعقلا وشرعا، بل هي أصل الموجودات.

الكعبة المقدسة وسط العالم:

إن الخصيصة الثانية التي يجب أن تتحلى بها مركز العالم كونه وسيطا معتدلا بين جانبي الإفراط والتفريط، ليكون وسطا للعالم المستدير، والظاهر أن الكون وفضاءه إذا كانا مستديرين متمثلين في دائرة، وثبت كون الكعبة مركزا من منظور شرعي وعقلي، لزم أن تكون الكعبة وسطا حقيقيا لهذه الدائرة، فإنه إن لم يكن كذلك لذهبت الدائرة.

وإذا كان الهدف الحقيقي من تجلي الكعبة الذي أحاط بكافة العالم المستدير هو تشغيل الإنسان بعبادة الرب سبحانه وإطاعة الخالق، ليسجد له بنو آدم كلهم من الشرق إلى الغرب مع وسائل الحياة كلها، وهذا الهدف الأسنى لم يكن ليتحقق بالعدل والمساواة إلا إذا كان كانت الكعبة المقدسة وسط الكائنات، ليمكن له مراجعة بني آدم كلهم بيسر ولا تفاضل، ولايكون ترجيح أهل منطقة على الآخرين بلا مرجح، فإن الكعبة لوكانت في طرف من أطراف العالم سهل رحوع من بقربها من الناس، وسكان المناطق البعيدة لا يبلغون إليها إلا بعد قطع ألوف من الأميال مما كان سببا في التنازع والتغابن بين بني آدم.

وكان الأدنَون من الكعبة يفتخرون بقربهم منها، بينما يشكو الأباعد تنائي الدار، ويًمْنَون باليأس والحسرة والقلق، ولكان من الناس من يطعن في القدر الإلهي نعوذ بالله، حيث كانوا يقولون: بأي ميزة خُصَّ أهل هذه الديار بالقرب من الكعبة، وأداء المناسك بكل يسر وسهولة، وما جريمة الأباعد التي طردتهم من قرب الكعبة إلى بلاد نائية، وجعلتهم يكابدون مشاق السفر لأداء المناسك، مما يؤدي إلى تطاول على الشريعة، وتنازع بين بني آدم كله.

فالأقربون من الكعبة يفتخرون بالقرب منها، والأبعدون منها يشعرون باليأس والإحباط، فكانت النتيجة أن الأقربين يعتبرون الأباعد محرومين من السعادةالإلهية، بينما

كان الأباعد يبغضون الأقربين أشد البغض، فنشأ في بني آدم سلسلة طويلة من التوتر والتفاضل والعداوات، مما يقضي على الهدف الأصيل المرتبط بهذا البيت ارتباطا وثيقا، المتمثل في التوحيد الخالص والوحدة الكاملة، فتفاديا من هذه المفاسد كلها وضع الله تعالى الكعبة المقدسة في وسط العالم، لتكون صلة الإنسان بها في كل مكان صلة مساوية، ويشارك الجميع في تكابد المشاق في رحلات الحج والعمرة، ويظهر العدل الرباني، وإن كان بنو آدم ليسوا سواء في التوطن والإقامة، ولكن مع هذا القرب والبعد الطبيعيان الذين شملا العالم كله تمت مراعاة مبدأ المساواة، ليبقى التساوي العقلي ولا يصيب أحدا اضطراب، وعلى كل فكل من العقل والشرع يقتضي أن يكون المعبد العالمي في وسط العالم.

فوسطية الكعبة تجعل القاطنين في جميع الجهات يتساوون في إمكانية الوصول إلى الكعبة المقدسة، ففي كل جهة قريب وبعيد، والقرب والبعد يشمل الجميع ، ولا يسبب ضيقا ونفورا وخجالة.

وقد جعل الله تعالى هذه الحقيقة العقلية أمرا شرعيا، كما تشهد به آثار الصحابة رضي الله عنهم في السطور التالية:

جاء في رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه: "فلما أراد الله أن يخلق الأرض دحاها من تحت الكعبة، وجعل الكعبة وسط الأرض"[1].

وأن ضُم إليها أثر ابن عباس رضي الله عنهما الذي أخرجه الحموي ثبتت وسطية العالم بشكل أوضح، حيث قال: يا أهل مكة! أنتم في وسط من الأرض[2].

تقدم الكعبة وأوليتها ووسطيتها:

ففي ضوء الآثار السابقة كان تقدُّمُ الكعبة على الأرض وكونُها أول الأرض أمرا معروفا وشيئا بديهيا، حيث حكاه الحموي بقوله:

---

(١) الدهلوي، الشاه عبد العزيز، **تفسير فتح العزيز**، ج١، ص٤٥٦.

(٢) ابن الضياء، **تاريخ مكة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٠٠٤م) ص١٣.

"وقد جاء في الأخبار أن أول ما خلق الله في الأرض مكان الكعبة، ثم دحي الأرض من تحتها، فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأم القرى"[1].

ووصف هذا الخبرُ الكعبةَ بأنها أول الخلق، ومنها دُحيَتْ الأرض، ووصفها القرآن الكريم بأم القرى، مما يشير إلى أنها أصل الكائنات، مما يدل على أن القطعة ا لأرضية التي وقعت عليها الكعبة المقدسة حسا وبناء هي نواة الدنيا وأساسها، وفي تعبير موجز: إنها أول الأرض.

الاستدلال على وسطية الكعبة بالتشبيه الحديثي:

والتفكير يؤدي إلى أن الخبر المروي عن السلف، المذكور أعلاه وصف الكعبة بأنها سرة الأرض، فتم تشبيهها بالسُّرَّة، مما أشار إلى أنها منبع الحياة ومصدر الوجود، فإن الجنين يُرزق من دم سرة بطن أمه، ومنه يتم نماؤه، حتى يكتمل له الحياة المادية، والسرة هي الواسطة بين الجنين وأمه، فإن الشريان الدموي الخارج من رحم الأم، المتصل بسرة الجنين والمغروس فيها، ينقل الدم من الأم إلى سرة الجنين، ومنه يتكون اللحم والعظم والصورة، ويأخذ الجنين نشأته، ويخرج من رحم أمه في وقت مقرر، فهذا الشريان الدموي يبقى حتى بعد ولادة الجنين، والظئر [المرأ التي تتولى أمر التوليد ورعاية الولد] هي التي تعتصر الشريان، ليدخل دمه في بطن الوليد، ثم تقطعه من موضع قريب من السرة، ليجف فيسقط بعد أيام، وينغلق وجه السرة، حيث لم يبق هذا الشريان طريق الغذاء ووسيلته، بل فمه يؤدي هذه المهمة، والسرة من الخطورة بمكان عظيم، حيث إن حادت عن موضعها تعرضت صحة الإنسان لضرر كبير.

فكما أن السرة هي منبع الحياة ومصدر الرقي والازدهار للبدن الإنساني، بحيث ينمو منها البدن ويتسع، ثم يكتمل في وقته، تم كذلك وصف الكعبة الشريفة بسرة

---

(١) عبد الله با سلامة المكي، **تاريخ الكعبة المعظمة**، ص١٣.

الأرض إشعارا بأن بداية خلق الأرض كانت من الكعبة بيت الله، وسرى دم الوجود في الكون كله من هذه البقعة المباركة، وانداحت دائرته حتى صارت أرضا كاملة.

وهذا التشبيه بالسرة أفاد أيضا أن الكعبة واقعة في وسط الأرض، لتنتشر بشكل سوي منها آثار وجودها وبركاتها وأنوارها الربانية الظاهرة والباطنة إلى الجهات الأربع، كما أن السرة جاءت في وسط الجسد، لينفذ دمه إلى سائر الجسد بكل اتزان وسوية، ولا شك أن كل أجزاء الأرض ليست سواء في المؤهلة والقابلية، فبعضها استفاد من النور الرباني الكامل، وبعضها استفاد من نور الكعبة قليلا، ولكن هذا لا يؤثر في الغرض، حيث الكعبة ترسل نورها إلى العالم وجوانبه الأربعة بشكل سوي، كما أن العالم كله يستوي في الرجوع إلى أصله، وينتقل فيض الكعبة من هذا الوسط الكوني إلى كل مكان بشكل معتدل، كما سيأتي دلائله مفصلا فيما يأتي:

اعتراض على وسطية الكعبة والرد عليه:

ولا يرد هنا اعتراض بأن السطور السابقة أفادت أن الكعبة مركز العالم، وواقعة في وسطه، مما يدل على كل جانب من الجوانب الأربعة واقع على مسافة سوية من الكعبة، كما هو شأن الدائرة والمركز، وهذه الرواية تفيد عكس ذلك، فهي تنفي كون الكعبة في مركز العالم ووسطه، وأن الجهات الأربع على مسافة مشتركة من الكعبة، فبذلك حدث التعارض بين الروايات والدعاوي، ولكن هذا الاعتراض قائم على الجهالة بنوعية الدعوى، فما ادعيتُ أن الكعبة هي وسط الأرض حتى يرد ذلك الإيراد، بل أثبتُّ أنها وسط الكون كله، فهي في الكون كالدائرة، التي تقع حولها كل الأراضي والبحار والجبال والسماوات من فوقها إلى تحتها، فالكعبة كالقطب، الذي تدور حوله رحى الكون كله، وهذه الرواية أفادت أن الكعبة وسط الأرض، مما يشير إلى أن الممالك الأرضية كلها واقعة فيما حولها، سواء استوت مسافاتها أم لا، كما سيأتي تفصيله، وليس المراد أن الكعبة في وسط

الأرض مثل المركز، حيث تستوي جميع أطرافه، دون أن يتطرق إليه فرق، فالاعتراض ليس له أساس قائم.

إن الرواية المذكورة أفادت وسطية الكعبة بالنسبة إلى الأرض لا الوسطية المطلقة، وقد ادعيتُ في ضوء النصوص الأخرى أنها مركز عالمي بالنسبة إلى الكون كله، فما ثبت بالروايات السابقة لا تنفيها هذه الرواية، فالروايات لاتتعارض ولاتتنافى، وهناك دعوان مختلفتان، لكنها لا تتعارضان، فلا موضع لهذه الشبهة.

وبعد التفكير في روايات السلف نقول: إن الروايات التي وصفت مكة بوسط الأرض، لا يراد فيها بالوسطية النقطة المركزية، بل المراد البقعة المتوسطة من الأرض، أي الكعبة المقدسة وقعت في أوسط بقاع الأرض، سواء اختلفت بعض بقاع الأرض من حيث القرب إلى الكعبة والبعد عنها، فآثار السلف التي تعتبر الكعبة سرة الأرض تكشف عن هذه الحقيقة، فقد أسلفت ما رواه ياقوت الحموي، أي الرواية التي وصفت الكعبة بوسط الدنيا، ولم تصفها بالمركز المصطلح في علوم الهندسة والرياضيات.

وعلى كل فإن كون الكعبة المقدسة في وسط الأرض وتشبيهها بسرة الأرض احتوى على كثير من الحكم والمصالح، منها ما تمت الإشارة إليه في السطور السابقة، ومنها أن هذا التشبيه يفيد أن السرة تقع في الجزء الوسط من البدن، ولكنه ليس بالوسط الحقيقي حسب المصطلح الهندسي، حيث يبتعد جميع أجزاء البدن على مسافة مشتركة، فالنصف الأعلى من البدن (من السرة إلى الرأس) أقرب إلى السرة من النصف الأسفل، واليمين والشمال من البدن هما أقرب إلى السرة من الطول والعرض، ولكن يطلق على السرة مع هذا أنها وسط البدن، مما ينم عن كونها في الجزء الوسط من البدن، وليس على جانب من جوانبه، وليس المراد أنها في الوسط الحقيقي كالمركز الهندسي، إلا أن هذا كله بالنسبة إلى وسطية الأرض، أما الدعوى بكون الكعبة مركزا عالميا فهي باقية بشكل لايرد عليه اعتراض، ولا يناقض أثر ولا خبر.

مرجعية الكعبة:

الدليل الأول:

ولما ثبت بمبادئ الدائرة والمركز كون الكعبة المقدسة النقطة المركزية للكون كله، والتي خُطَّتْ منها دوائر السماوات والأرضين، فالظاهر أنه إن لم يوجد المركز أو لم تلتصق به الدائرة أو حادت الدائرة عن المركز فلم تبق الدائرة دائرةً، ولم تبق حركتها الدورية.

إن الدوائر التي تدور حول المركز تقول للمركز بلسان حالها: أيها المركز! نحن إليك راجعون، و إليك في الوجود محتاجون، وبالارتباط بك قامت حياتنا المتحركة، فلا تدفعنا عنك، ولا تجعلنا نحيد عنك في حال، والشرع يطلق لفظ "العبادة" على مثل هذا التذلل والخضوع، فكان الدائرة تعبد دائما مركزها، ومن ثم وجَّه الشرع الإسلامي نداءً إلى الإنسان العاقل وفق الفطرة القائمة بين المركز والدائرة، حاصله: يا أيها الناس! إن حركتكم الوجودية مرتبطة بالكعبة المقدسة، وأنتم في وجودكم محتاجون إلى التجلي الرباني الوجودي، الذي حلَّ بالكعبة المقدسة، فطوفوا بمركزكم، واستقبلوه في صلواتكم، وهذه هي طاعتكم وعبادتكم، فإن من مقتضيات مرجعية هذا المركز الحقيقي أن يبقى على الإطلاق مرجع الكون كله، نعم! يحدث هنا فرق بين الكون الجامد والكون النابت حيث لا يبدو طوافهما بهذا المركز الكلي النوراني بنظرة حسية، ولكن النظرة العقلية والاعتقادية تحس بطوافهما بالبيت، فإنهما مأموران بالطواف بالأمر التكويني لا بالأمر التشريعي، إلا أنه لا شك في أن كلا من الكون الجامد والكون النابت يدور حول البيت، وقد جاء في الحديث أن الشمس بعد ما أكملت شوطها الواحد على مدار أربع وعشرين ساعة تسجد للعرش، وتستأذن الطلوع القادم، والظاهر أن الحركة الدورية غير ممكنة بدون المركز الحقيقي، فالحركة الدورية للشمس لا بد أن تكون حول الكعبة المقدسة:

مركز الكون، فالعرش محل الإذن لا محل الدوران، فإن العرش لو كان مركزا للدوران لزم أن تدور الشمس فوقه، مع أنه مخالف للنصوص، وقال تعالى في السماوات: **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** (سورة يس: ٣٣) مما يفيد أن السيارات الفلكية تدور في فلكها، وهذا الدوران عبادة لها، توافق فطرتها، فقيام الأشجار، وركوع البهائم والأنعام، وسجود حشرات الأرض، وقعدة الجبال، ودوران النجوم، وطيران الطيور، ورفعة السماء، وانخفاض الأرض وما إليها من الحركات الموافقة لفطرة الخلائق كل ذلك يدور حول هذا المركز الكوني، ولكن كان الإنسان العاقل من بين الخلائق الكونية مخاطَبا بالأمر التشريعي، فأمره ربه بالطواف الإرادي حول البيت العتيق، حيث قال: "**وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**" (سورة الحج: ٢٩)، ولم يختص هذا الأمر بالطواف والدوران حول البيت بأمة دون أمة، أو بمنطقة دون منطقة، بل عمَّ الناسَ في كل مكان، فقد أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بعد ما انتهي من عمارة الكعبة المقدسة قائلا: **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** (سورة الحج: ٢٧).

الكعبة المقدسة ظلت قبلة العالم في كل عصر:

ثم كون الكعبة المقدسة قبلة أمر لا يختص ببعثة نبينا صلى الله عليه وسلم، بل ظل الأنبياء والصالحون في كل عصر يطوفون بالبيت العتيق، ويتوجهون نحوه في عباداتهم ومناسكهم ودعواتهم، فقد صرَّح البغوي في معالم التنزيل: "صدر إليه الأنبياء والمرسلون والأولياء والأبرار"[1].

وقد أخرج كذلك الأزرقي عن مجاهد أن موسى حضر مكة للطواف حول البيت العتيق، راكبا على جمل أحمر، وقد لبس ثياب الإحرام المتمثلة في العباءتين القطوانيتين من روحاء، فاتزر بإحداهما وارتدى بالأخرى رداء، ثم طاف، ونصه: "عَنْ

(١) البغوي، **معالم التنزيل**، ج٢، ص١٩٣، نقلا عن حاشية تفسير ابن كثير.

مُجَاهِدٍ، أَنَّهُ قَالَ: حَجَّ مُوسَى النَّبِيُّ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ فَمَرَّ بِالرَّوْحَاءِ عَلَيْهِ عَبَاءَتَانِ قَطَوَانِيَّتَانِ مُتَّزِرًا بِأَحَدِهِمَا مُرْتَدِيًا بِالْأُخْرَى، فَطَافَ بِالْبَيْتِ، ثُمَّ طَافَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَبَيْنَا هُوَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ: لَبَّيْكَ عَبْدِي أَنَا مَعَكَ، فَخَرَّ مُوسَى سَاجِدًا "(١).

ونص الحديث النبوي بأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد رأى المسيح بن مريم في المنام، وهو يطوف بالبيت، حيث جاء في صحيح البخاري: "وَأَرَانِي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الكَعْبَةِ فِي المَنَامِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ، كَأَحْسَنِ مَا يُرَى مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ، رَجِلُ الشَّعْرِ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ"(٢).

ومثله ورد في يونس بن متى وغيره، مما يعضد رواية معالم التنزيل للبغوي، ويجعلها رواية قوية في الباب، وبذلك يتبين أن الكعبة ظلت قبلة عالمية، وقبلة الأولين والآخرين، ومرجع الأقوام والملل، وفيه دلالة واضحة على المرجعية العامة للكعبة.

ثم الطواف بالبيت لا يختص ببني آدم، بل الملائكة ظلوا يطوفون بالبيت منذ أن كان البيت في الفضاء، ولم يستقر بناؤه في الأرض، كما مر في الرواية السابقة أن الملائكة يطوفون بالبيت، وهذه هي حال الجن، وكيف لا؛ فهم مكلفون كالإنسان بالشرع الإسلامي، سواء حضروا في صورة الحيوان أو الإنسان.

---

(١) أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني المكي المعروف بالأزرقي (المتوفى: ٢٥٠هـ)، **أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار**، (بيروت: دار الأندلس للنشر، د.ط، د.ت)، ج١، ص٦٨.

(٢) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، **صحيح البخاري**، (بيروت: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ)، باب الطيب للجمعة، رقم الحديث: ٣٤٤٠.

وفوق ذلك أن الطواف بالبيت لا ينفرد به الإنس والجن والملائكة كما أفادت الروايات؛ بل المشاهدات أثبتت أن الحيوانات أيضا قد يطوفون بالبيت، فجاءت مشاهدات العلماء لتفيد أنهم رأوا أنواعًا من الحيات تطوف بالبيت، وإن لم يكن طوافها مستمرًا كل وقت، فهي ليست بمكلفة كالإنسان، فإنه لو طاف بالبيت كل من السباع والأنعام وحشرات الأرض مع الإنسان لاشمأز منه الإنسان، وتضرر به كثيرا، مما يعوق عملية الطواف، وكان المطاف تحت سلطة الحيوانات، ومن هنا منعت الحيوانات عن الطواف، ولكن ظهر بعض الحيوانات طائفة بالبيت إشعارا بأن البيت قبلة الحيوانات أيضا، فقد جاء في أخبار مكة للأزرقي أن عبد الله بن عمر رأى ثعبانا يطوف بالبيت، فقال له: عزيزي: طوافك مقبول، إلا أن الإنسان يستوحش منك، فلا تعد لمثل هذا بعد اليوم، فلم يوجد ذلك الثعبان هناك بعده[1].

وقد دل هذا الخبر على أن البيت العتيق هو مركز ومرجع ومنطلق العبادة لجميع الأشياء الكونية، حيث قد وجدت الأرض وخلائقها من الكعبة، وكل شيء يرجع إلى أصله.

الحاصل أن الكعبة المقدسة مركز ومرجع لجميع الأشياء الكونية من الإنس والجن والحيوانات والسماوات السبع والخلائق السماوية، والطيور والسباع، وكيف لا؟ فالكعبة المقدسة قبلة الكون كله، من الأراضي والسماوات والجهات الفضائية من الثرى إلى الثريا، من الفرش إلى العرش، كما هو ثابت في محله، فليس من البعيد أن يكون من الخلائق الأرضية كالحيوانات والطيور وحشرات الأرض ما طاف بالبيت بلاتكليف شرعي، كما أن الخلائق السماوية نحو الملائكة عليهم السلام تطوف بالجهة النورانية في

---

(١) لم أجده في أخبار مكة للأزرقي، إلا أنه هناك روايات عديدة، دلت على وجود الحيات في المطاف، كما ساقها الأزرقي.

الفضاء في السماوات السبع، فإن الكعبة هي قبلة كل سماء، وجهة الكعبة في الفضاء من الثرى إلى الثريا خط نوراني مستقيم، تدور حوله الكائنات، فالجانب العلوي للكعبة المقدسة قبلة الخلائق السماوية، والجانب السفلي للكعبة المقدسة قبلة الخلائق الأرضية، فيرجع إليها كل مخلوق، وإلى هذا أشار الله تعالى في قوله الكريم: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** (سورة آل عمران: ٩٦)؛ حيث وصف الكعبة بأول بيت وأول وضع، وأنه بمكة، وأنه هدى للعالمين، فثبت كون الكعبة هدى للعالمين، بما فيها عالم الإنس وعالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم الجماد، وعالم الأرواح، وما إليها، مما أفاد أن الكعبة قبلة وهداية للعالمين.

ونظرا إلى ذلك ثبتت المرجعية المطلقة العالمية للكعبة المقدسة، كما هو مقتضى كونه مركز الكون.

وهناك أصل آخر يمكن من خلاله المرجعية العامة للكعبة، وهو أن كل فرع ينجذب طبعا إلى أصله.

الدليل الثاني على مرجعية الكعبة:

من الأصول المقررة أن كل فرع ينجذب طبعا إلى أصله، كما يقول المثل: "كل شيء يرجع إلى أصله"، حتى إذا كان الفرع مما لا يعقل ولا يشعر فهو يميل إلى أصله بحكم الطبع والفطرة، إن غصون الشجرة تميل بطبعها إلى الأصل، وإذا كان الإنسان يدرك عقلا وشعورا فهو يميل إلى أبويه لا بحكم الطبع والفطرة فقط؛ بل بحكم العاطفة والقلب والعقل والاختيار.

وشعاع الشمس يميل إلى الشمس، والأولاد يميلون طبعا إلى آبائهم، فإن الأب أصل الوجود، فالانجذاب نحو الأب من فطرة الأولاد، وإن كان في بعض الأحيان لا يعرف بالضبط من أبوه؟ ويميل إليه بحب وغرام وعقل، وإذا علم بالضبط يميل إليه بعقله وعقيدته.

الكعبة المقدسة هي قبلة العبادة:

وإذا ثبت أن الكعبة المقدسة هي أول الوجود، وأصل وجود الكون كله، أي الخلائق الكونية كلها هي فروع الكعبة وغصونها. وإذا ثبت هذا فالظاهر أن الكائنات كلها تميل طبعا إلى الكعبة، وتنجذب إليها، وتتوجه إليها، فحب الكعبة والميلان إليها ساريان في كل ذرة كونية، حتى لا تشعر بأدنى عائق في ممارسة العبادات.

وإذا قارنه شيء من العقل والشعور ظهرت هذا الجاذبية بشكل حسي مركوز في الفطرة، ومن حسن الشرع الإسلامي أنه جعل الكعبة أصلا تكوينيا وتشريعيا للكون كله فصارت الكعبة قبلة الوجود وقبلة العبادة معا.

وكل الناس يعرفون أن الأصل الذي يرجع إليه الفرع طبعا، ينجذب إليه عقلا واختيارا، بعد ما علم أصله، نحو رضيع غاب عنه والده منذ أيام رضاعته، ثم فوجئ بحضور أبيه، فكان قلبه ميالا إلى أبيه بحكم الطبع والفطرة من غير أن يشعر به، ويعرفه، إلا أنه بحكم الطبع يميل إلى أبيه، وإذا علم أنه أبوه وأن الأب أصل الابن، يكون ميلانه إلى أبيه بحكم العقل والطبع والفطرة.

وقس على ذلك الأمور الكونية، حيث كل مخلوق لا سيما مما يعقل يميل إلى أصله، وإن كان المخلوق لا يدرك ولايعقل، وهو الله سبحانه، فهو أصل الخلائق كلها، وإذا علم الخلق عن طريق تعليمات الأنبياء عليهم السلام أن الله هو أصل الوجود، الذي خرج منه وجودنا، فمن الضروري أن يميل إليه علميا وإراديا واختياريا وبكامل الحب والمودة، فالإنسان لا يحب الأرض إلا لأنها أصله ومركز ثقله، ومن ثم يوصف الوطن في العرف العام بـ"الأم"(مادر وطن في الهندية)، حيث هو أصل شفيق كالأم، ومن أجل ذلك إن كان من يريد اغتصاب وطنه أو يرتكب إهانته يستعد للحرب والقتال، كما هو واقع في هذا العصر أيضا، والفضا مرتج بالأناشيد الوطنية.

إضافةً إلى أن الكعبة هو المركز الوجودي للكون فقد أثبت القرآن أنها مركز عالمي للعبادة أيضا، ودليله الأول هذه الآية الكريمة، التي وصفت الكعبة بأنها أول بيت، وقول الله تعالى: "وضع للناس" يكشف عن غاية الكعبة، فهي لم توضع طبعا للسكن والبيتوتة كسائر البيوت، فلن يكون هدف وضعها أن يسكنها الناس، فهو مستحيل عقلا، فإن البيت الصغير كهذا لا يسع جميع الناس، بل لا يسع ناس عصر واحد من العصور، أو ناس قبيلة واحدة، فهذا الاحتمال المستحيل لن يكون من أهداف وضع الكعبة.

فالظاهر أن الهدف الأصيل من وضع الكعبة أنه موضوع لعبادة الناس أجمعين، فهو أول بيت وضع للعبادة، ولم يوضع للسكينة.

ثم من الثابت في محله أن بيت الله ليس معبودا، يُعبد من دون الله، فالمراد بالعبادة هنا أن يتوجه الناس في عباداتهم إلى الكعبة، فمعنى قول الله تعالى: وضع للناس أن يقال: وضع لاستقبال الناس في العبادة، ليتوحد اتجاه العابدين، ويوفوا شرط الاستقبال مع كونهم في مشارق الأرض ومغاربها، كما أن الناس في كل مكان يشاهدون القمر ليلة البدر.

فاستقبال الكعبة فريضة في العبادة، وحق من حقوق الكعبة، تجب على كل مصل وقت العبادة، نعم ! إن زيارة البيت فريضة في الحج ولا غير، وذلك لمن استطاع إليه سبيلا، ثم المستطيع له أن يؤدي الحج في فسحة من العمر، مما يدل على أن نوعية مركزية الكعبة للعبادة جاءت وفق الفطرة السليمة، فليس بوسع الناس أجمعين أن يجتمعوا بمكة في وقت واحد؛ حيث يستلزم ذلك استحالة عقلية، ويمكن رده باعتباره معارضا للفطرة، فالذي يجب على المسلمين خمس مرات في كل يوم هو استقبالها في الصلاة لا حضورها وزيارتها، مما لا يستوجب المستحيل، ولا يحمل صعوبة.

وإن فكرنا جديا في هذا الامر وجدنا أن أصل العبادة في الحج أيضا هو استقبال الكعبة، حيث يستقبل الناس في الطواف، فيبدأون الطواف متوجهين نحو الكعبة، ويبدؤون السعي بين الصفا والمروة متوجهين نحو الكعبة، وفي رمي الجمار هو الآخر يتوجهون نحو الكعبة، وهذا في ذبح الهدي والأضاحي يتوجهون نحو الكعبة، كما في عبادات المنى والعرفات يستقبلون الكعبة، بل الأذكار والتلاوة وما إليها يؤدونها مستقبلين الكعبة.

فقول الله تعالى: وضع للناس أثبت أن الكعبة المقدسة جهة العبادة، لا بيت السكينة والإقامة، ولا اجتماع الناس في مكة ولا عبادة الكعبة وما إليها من الاحتمالات السخيفة.

وقد كشف عن هذا المعنى سيدنا علي رضي الله عنه بما يفسر قول الله تعالى: وضع للناس، مما دل على أن الكعبة بيت وضع للعبادة، فقد أخرج ابن كثير في تفسيره رواية "عَنِ الشَّعْبِيّ عَنْ عَلِيّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا**" قَالَ: كَانَتِ الْبُيُوتُ قِبْلَةً، وَلَكِنَّهُ كَانَ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِعِبَادَةِ الله [تَعَالَى]"[1].

فأفادت الرواية أن الكعبة وضعت قبل الكون الأرضي والفضائي، من غير بحث في تخليق الكعبة قبل ألوف من السنين.

وهذا الغرض يتجلى بالنظر في قوله سبحانه: للناس، فهو يعم الناس أجمعين، من آدم إلى آخر إنسان في الدنيا، والظاهر أن قوافل البشر بعدد لا يحصى لا تستطيع أن تجتمع في مكة في وقت واحد، لتمارس العبادة، وتؤدي المناسك، فهذا أمر يخالف العقل والفطرة، والله الحكيم لا يكلف الإنسان بمثل هذا الحكم غير المعقول، فاشترط

---

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، ج٢، ص٧٧.

للصلاة استقبال الكعبة لا زيارتها، والاستقبال يتهيأ في كل مكان، ولذا أُمِرَ الكون كله لا سيما الكون البشري بالاتجاه نحو الكعبة، وإذا ثبت أن الكعبة ليست معبودة، فالمعنى الوحيد المراد أن يعبد الناس ربهم متوجهين نحوها، وهذا مفاد استقبال الكعبة.

وأشارت الآية إلى أن الناس في زمن آدم وأولاده قد كانوا بنوا بيوتا تناسبهم في السكن والإقامة، ولكن ليس لهم بيت خاص بالعبادة، فقام آدم عليه السلام ببناء الكعبة على أساس الوضع الإلهي بإرشاد من جبريل، وإبراز صورتها الحسية على سطح الأرض، ثم قام عليه مبنى الكعبة من بعد، وبما أن الكعبة مركز للعبادة، فالإنسان يميل بشكل اجتماعي إلى الكعبة طبعا وفطرة، فالكعبة أصل الوجود الكوني ومركز عالمي للعبادة، والرجوع إلى الأصل مما تقتضيه الفطرة.

فالهدف من وضع الكعبة اتضح بقول الله تعالى: وضع للناس، وهو عبادة، ومعنى الآية: أنه وضع لعبادة الناس، فالعبادة هي الهدف الأصيل للوضع لا العبادة، كما سبق تفصيله.

وثانيا: أن الله تعالى وصف الكعبة بالمسجد الحرام، كما جاء في قول الله تعالى: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ(سورة البقرة: ١٤٤)، فثبت بذلك كونها مكان العبادة لا مكان الإقامة.

فكأن القرآن بيَّن بلفظ المسجد الغرض الأصيل من وضع الكعبة، وهو العبادة.

وثالثًا: إن الله تعالى عهد إلى إبراهيم وإسماعيل من بناة الكعبة بقوله: **"وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ"** (سورة البقرة: ١٢٥)، مما دل بكل وضوح على أن الغرض الأصيل من وضع الكعبة لم يكن أمرا يتعلق بالإقامة والبيتوتة، بل كانت أمورًا تتعلق بأنواع العبادة نحو الركوع والسجود والاعتكاف.

ورابعًا: قال الله تعالى في سياق ذكر إبراهيم عليه السلام: **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** (سورة الحج: ٢٦).

والظاهر أن الأمر بعبادة الله تعالى في المسجد الحرام والطواف والصلاة واجتناب الشرك فيها ينم عن غرضه الأصيل، وهو العبادة لا السكينة، وكل ذلك تفسير لقوله: "وضع للناس"، فثبت بنص قرآني واضح كون الكعبة مكان العبادة لا معبودا.

أما أن الكعبة قبلة محلية أم عالمية، أو هي قبلة الناس جميعا أم قبلة طائفة من الناس، فكونها قبلة عالمية قد ظهر بدلائل دلت على عالميتها، فإنها إذا كانت منبع وجود الإنسان بحيث خلق الإنسان من الأرض، وأصل الأرض هي الكعبة، فأصل الإنسان ينتهي إلى هذه البقعة المباركة، وإذا كانت الكعبة كذلك فمن الضروري أن تكون قبلة الناس أجمعين لا قبلة طائفة من الناس.

الكعبة قبلة عالمية ولاغير:

ومن دلائل كون الكعبة قبلة عالمية هذا القول القرآني المعجز: وضع للناس، فكلمة الناس عامة، لا تخص طبقة دون طبقة، ولا بقعة دون بقعة، مما يوضح أنها ليست قبلة دولة دون دولة، بل هي قبلة عالمية شاملة، وهذا دليل قوي.

كما أن الله تعالى استعمل كلمة الناس في فريضة الحج، لتعم جميع أطياف الناس، حيث قال: **وَلِله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** (سورة آل عمران: ٩٧).

ثم جاءت كلماتٌ دلَّت على هذا المعنى، نحو "أول بيت" و"هدى للعالمين"، مما جعل الكعبة منارة عالمية للنور والهدى، لا تخص طائفة ولا بقعة، ثم نوعية هداية الكعبة عامة أيضا، فهي تهدي الناس للصلاة، حيث لا تصح صلاة بدون استقبالها، كما أنها هداية للمساجد، فلن يكون المسجد مسجدا ما لم يكن متجها نحو القبلة، فبدون اتجاه

القبلة يبقى بيتا للسكينة ولاغير، ثم الحج والعمرة لن يكونا حجا وعمرة ما لم يحضر الحاج والمعتمر المسجد الحرام، ويستقبل القبلة، فالناس عند الطواف يستقبلون الكعبة ويكبرون رافعين أياديهم، ثم يبدأون الطواف.

فكما أن الصلاة تبتدئ باستقبال القبلة، يبتدئ كل من الطواف والسعي بين الصفا والمروة باستقبال القبلة، وكذلك عبادات منى والعرفات نحو الذكر والتلاوة والصلاة تحتاج إلى استقبال القبلة.

فثبتت هداية الكعبة في جميع مناسك الحج، ثم الهداية لاتختص بالصلاة والحج؛ بل لا تبلغ طاعة وقربة نوعا من الكمال ما لم يكن فيها اتجاه نحو الكعبة، فالنورانية والروحانية تتوقف على استقبال هذا البيت الكريم، فوجود الطاعات والقربات مرتبط ببيت الله وأنواره المعنوية.

وإذا تقدمنا خطوة وجدنا أن كل عبادة مرتبطة بالقبلة، حسب التفاوت في الدرجات والمراتب، كالجلوس عند الوضوء، وعند التلاوة، والصوم وقت الإفطار، وعند ذبح الأضاحي، والسؤال عند الدعاء، وعند النوم واليقظة، والمصافحة، ووضع حجر الأساس للمسجد، وعند الطلوع والغروب، وعند انبلاج الفجر وغروب الشمس، والقيام عند الأذان والتكبير، والقيام عند شرب ماء زمزم، حتى النزع لدى الموت، وعند إنزال الميت في القبر، في كل هذه الأمور يناسب استقبال القبلة حسب تفاوت الأحكام الشرعية من الفرض والواجب والسنة والمستحب، ليكون الإنسان لاينسى أصله واستقباله الكريم في أي مرحلة من مراحل الحياة والموت، ولا تخفى عليه قبلته في أي خطوة من خطوات الحياة.

وهنا أَلْفِتُ النظرَ إلى جانب جديد، وهو أن من حق المناطق المجاورة لبيت الله نحو حدود الحرم وبلدة مكة، وما يليها من بلاد الحجاز أن يكون لها شأن في الاستقبال والمركزية، يقارب شأن بيت الله، فيستقبلها المصلي في الصلوات، وإن لم يرد نص صريح

في ذلك، فإن استقبال الكعبة يستلزم استقبال ما جاورها من البلدان، فاستقبال القبلة يشمل ضمنا وتبعا استقبال مكة وبلاد الحجاز.

وهذا كالدائرة التي تتبع المركز في حركتها، في أي موضع كانت، فالدائرة إذا كانت قائمة كدولاب القطار، تكون حركتها في جهات الفوق والتحت، وتبرح مكانها في كل حركة، وبذلك يجري القطار، وإن كانت الدائرة ملقاة على الأرض، تكون حركتها في جهات اليمين والشمال، وتتحرك في مكانها بدون أن تفارق موضعها، كدواليب بعض الماكينات، التي تدور في مواضعها، فالدوائر قائمة كانت أو ملقاة تتبع مراكزها في الحركات الدورية، ولا يمكن أن تفارق المراكز.

ومثله الإنسان، الذي يتبع مركزه في عباداته وأعمال الطاعة والقربة وحركاته قائما كان أو جالسا أو نائما، ومركزه هي القبلة، سواء كانت حركاته في العبادة أو حركاته الاجتماعية، بل جميع أعمال الإسلام المتعلقة بالإنسان يستحب فيها أن تؤدى في اتجاه القبلة.

فكأن كلا من الدين والتمدن قام أساسه على استقبال البيت الكريم، فإن وجود الإنسان وما له من حركات وسكنات يرتبط بالكعبة المقدسة وأنوارها المعنوية، سواء كانت عبادة أم عادة انقلبت عبادة بحسن النية، صدرت في حالة القيام أو القعود أو الاضطجاع، في الحياة أو بعد الممات، فمراحل الحياة والممات كلها تؤدى في اتجاه القبلة.

قبلة العبادة هي الكعبة، ولاغير:

إن السطور السابقة احتوت من المعاني القيمة والمباحث النفيسة على ما هو دليل كافٍ في إثبات أن قبلة العبادة هي الكعبة ولا غير، فإنه بعد ما ثبت أن الكعبة المقدسة هي أول الوجود وأصل الوجود الكوني، أي الكائنات وما فيها من الخلائق فروع وغصون الكعبة المقدسة وما جاء في القرآن والسنة من كلمات موحية معجزة، بعد ما ثبت كل ذلك ثبتت للكعبة المرجعية العامة والمركزية العالمية فيما يتعلق بالعبادة.

ومن المناسب أن أعيد هنا بعض ما ذكرته بالإيجاز، ليسهل فهم المعنى بشكل صحيح:

- لفظ "وضع" في قوله تعالى: وضع للناس دلَّ على كون الكعبة محل العبادة ومعبدا عاما، وهذا اللفظ بعمومه يشمل جميع أنواع العبادات، ولفظ "هدى للعالمين" ولفظ"للناس" يدلان على المرجعية العالمية للعبادة، التي تشمل بني آدم كلهم إلى قيام الساعة، مما يوضح أن الكعبة كما كانت مركزا للتخليق والتكوين، ظلت مركزا ومرجعا للتشريع والعبادة للعالمين، ليتجه كل من العادة والعبادة، والجسم والروح إلى اتجاه واحد، ومركز واحد.
- وفي تعبير آخر: إن الإنسان كما كسب الوجود الحسي من الكعبة، كسب الوجود الروحي، فإنها بيت مبارك، ظهر منها الوجود الحسي، ثم هي مكان الهداية، خرجت منها البركات الروحية، والظاهر أن الجاذبية الطبعية والعقلية إذا تعلقت بمركز واحد، كان من السهل اتجاه ذلك المركز بشكل طبيعي، وفيه دلالة كافية على ثبوت عالمينية الكعبة، وكونها هدى للعالمين.
- ولما كان سيدنا آدم عليه السلام أولَ بناة الكعبة، حيث جاء في رواية عبد الله بن عمرو بن العاص التي أخرجها ابن كثير في تفسيره، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مَرْفُوعًا: "بَعَثَ اللهُ جِبْرِيلَ إِلَى آدَمَ وحَوَّاءَ، فَأَمَرَهُمَا بِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ، فَبَنَاهُ آدَمُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالطَّوَافِ بِهِ، وَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ النَّاسِ، وهَذَا أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ"[1] ولما كانت الكعبة المقدسة مركزا لآدم أبي الناس أجمعين فهي مركز طبعا لبني آدم أيضا. فبناء آدم للكعبة لا يعني غير أن الكعبة مرجع للعبادة بالنسبة إلى كافة أولاد آدم، وهو دليل واضح على مرجعية عالمية للكعبة.

---

(١) ابن كثير، **أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي** (المتوفى: ٧٧٤هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، ج٢، ص٧٨.

- سيدنا إبراهيم عليه السلام هو ثاني بناة الكعبة، الذي وصفه القرآن الكريم بإمام للناس، فلا يقول بإمامته المسلمون وحسب؛ بل يقول بإمامته جميع أتباع الديانات الهامة، نحو اليهودية والنصرانية والمجوسية والبراهمة، فكل ما هو مرجع للإمام، فهو مرجع للمتبعين طبعا، فإنه لولا ذلك لم يكن لإمامته معنى، فقد نزل قول الله تعالى: "ولله على الناس حج البيت" على أمة كانت على دين إبراهيم، وتَدِيْنُ بدينه، فقد أقام القرآن الكريم حجةً على أدعياء الملة الإبراهيمية، باعتبار أن الكعبة المقدسة لما بناها إبراهيم، وقام بحجها والطواف بها بعد عمارتها، فعليكم يا أتباعه القيامُ بما قام به من عملية الحج والطواف، واستقبال الكعبة في كل عبادة.
- فاعتبار سيدنا آدم وسيدنا إبراهيم عليهما السلام مركزا للعبادة وأول بيت يتضمن اتفاق الأمم كلها على مرجعية ومركزية الكعبة بلسان الحال أو لسان الفطرة. وهذا دليل واضح.
- فقد عبر الله تعالى عن هذه الإرهاصات والإشارات العامة بلفظه "للعالمين"، حيث كشف لفظ "للعالمين" عن هذه المعاني كلها، فهي هداية للعالمين، سواء عالم البشر أو عالم الملائكة أو عالم الجن، أو عالم الحيوانات أو عالم النبات، أو عالم الجمادات أو عالم الأفعال أو عالم الأحوال وما إليها من أنواع العالم وأجناسه. كما سبق ذكر الأمثلة الواضحة، مما حمل دلائل قوية على مرجعية الكعبة ومركزيتها، فيما يتعلق بأنواع العبادة.

فكلمة "هدى للعالمين" وجملة "وضع للناس" دلَّتا مع وجازتها على كون الكعبة مركزا عالميا للعبادة، كما تم إثبات هذا المعنى بالمبادئ الرياضية عقلا وبداهة، فثبت للكعبة مركزية العالم ومرجع الأنفس والآفاق بدلائل عقلية ونقلية، ولله الحمد.

والتفكير العميق يوصل إلى أن الكعبة المقدسة هي قبلة الأنبياء السابقين، فقد ثبت بالروايات أنه ما من نبي إلا وقد طاف بالبيت، وقد أُمر سيدنا آدم عليه السلام بالطواف بالبيت، فثبت أنها قبلة أمم أولئك الأنبياء الكرام، وقبلة جيمع الأديان والملل.

وهناك دليل آخر يُستنبط من القرآن الكريم يدل على عالمية قبلة الكعبة، فقد كُلفت جميع الأمم بإقامة الصلاة، كما ذكرت آية في سورة مريم عبادات أولاد آدم، فذكرت ذرية آدم وذرية نوح وذرية إبراهيم، وذرية إسرائيل، والأنبياء والصالحين في كل عصر، فذكر لهم صلاتهم وركوعهم وسجودهم، كما قال الله تعالى: **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** (سورة مريم: ٥٨)، والظاهر أن سجدة الصلاة تحتاج إلى اتجاه خاص، يجب استقباله، فإن جعلنا لكل نبي قبلة منفردة، لزم بطلان قول الله تعالى: وضع للناس أي كافة، فثبت أن الكعبة المقدسة هي قبلة جميع الأنبياء وأممهم.

ثم هناك آثار تخبر أن الأرض طبقات، في كل طبقة يسكن الناس ولهم أنبياء، وهناك أمم، ولهم شرائع، وقد سبق أن الكعبة هي قبلة من الثرى إلى الثريا، فثبت أن الكعبة المقدسة هي قبلة الأنبياء والأمم الساكنة في طبقات الأرض السفلى، وأن الأمم السافلة تقيم عباداتِهم وفق توجيهات وشرائع أنبيائهم، متوجهين نحو هذه القبلة.

كما سبق أن القبلة هي بالغة إلى أقصى السماء، فالخلائق السماوية أيضا تتجه نحو الكعبة المقدسة في عباداتهم وركوعهم وسجودهم، الحاصل أن الكعبة المقدسة قد ذهبت خطوطها مما تحت الثرى إلى ما فوق السماوات السبع، ليسهل للخلائق العلوية والسفلية الاتجاه نحو هذه القبلة، ولم يجدوا صعوبة في إقامة العبادات وأنواع الطاعات، فإن كان إنسان بلغ أقصى البحار عبر السفينة الغواصة (Submarine)، كان عليه أن يستقبل القبلة في مكانه، ولا يجب أن يعود إلى سطح البحار ليصلي، وكذا إن بلغ بالطائرة إلى أعلى الفضاء بل إلى القمر كان له أن يستقبل القبلة في موضعه، وليس عليه أن يرجع إلى التحت، ليصلي في اتجاه القبلة، وكل ذلك يثبت أن القبلة ليست محلية؛ بل هي عالمية، وضعت للخلائق كلها، ولاتتقيد بدولة أو بقعة، أو فضاء أعلى أو أرض منخفضة، كما هو شأن

الشيء العالمي، ومن هنا أطلق عليه "هدى للعالمين"، فهي عالمينية لا عالمية فقط، فلا تختص بأرض وسماء، فإنه إذا ثبت أن الكعبة قبلة من الثرى إلى الثريا، ثبت أنها قبلة الخلائق الأرضية وقبلة الخلائق الساكنة في السماء، سواء كانت ملائكة السماء السابعة، فطواف الملائكة وصلاتهم التي تؤدى في اتجاه البيت المعمور الكائن في السماء السابعة، وطواف ملائكة السماوات الأخرى هو طواف بهذا البيت العتيق، فإن البيت المعمور ليس إلا خطا مستقيما من الكعبة إلى السماء السابعة، وهناك رواية تفيد أن الملائكة كانت تحج الكعبة المقدسة أيضا، حيث جاء "كانت الملائكة تحجه"، مما دل على أنها قبلة الملائكة أيضا.

وعلى كل فالمرجعية العامة للكعبة المقدسة تجلت واضحة للعيان، عقلا في ضوء المبادئ والأصول الرياضية، ونقلا في ضوء النصوص الشريعة، ولله الحمد.

نفع الكعبة المقدسة وإفادتها:

وإذا كانت الكعبة أصل الوجود الكوني باعتبارها مركزا كونيا، ونزل عليه تجلي الوجود أولا، ومنه انتشر الوجود في العالم كله، فحسبك هذا من بيان فائدة الكعبة ونفعها للكون، حيث هي سبب لوجوده، وبها يرتبط جميع أنواع الوجود والبهاء والرونق والعجائب والآثار والحوادث في الدنيا، فزينة الدنيا وبهرجتها متصلة بالكعبة المقدسة ومدينة لها، ومستفادة من التجلي الرباني الذي نزل في هذه البقعة المباركة (مكة) واستقر فيها، وهذا باقٍ حتى الآن، والكرات الكونية والسيارات الفلكية تأخذ منها الحركة الوجودية، وتطوف بها صباح مساء، وبها تتكون الأزمان، ويختلف الليل والنهار، وتتغير الفصول، وتظهر الحرارة والبرودة والربيع والخريف وآثارها، وتنضج الحبات والمزارع والأثمار والفواكه، وتزدهر الأزهار حسب المناخ والفصول، مما يؤثر في المزاج الإنساني وكيفياته المختلفة، ويصدر منها الأعمال المختلفة، ثم التفاوت في الكيفيات المزاجية والأوقات والفصول يؤثر في الأخلاق والأعمال الشرعية والأحوال والمقامات، فتظهر الحياة الانفرادية والاجتماعية في أساليبها المتنوعة،

وبذلك تدور رحى نظام الدين والدنيا، وبذلك يجري عمران الدنيا والآخرة، وكل هذه الأنظمة تستفيد من الحركة الوجودية للكرات الكونية، والظاهر أن الحركات والسكنات الوجودية من فيض تجلي الوجود، الذي نزل واستقر في الكعبة المقدسة.

فإن توقَّف فيضُ هذا التجلي وسار في اتجاه آخر، توقفت الحركات الكونية والانطلاقات الوجودية في العالم، وانتقلب العالم كله بخزائنه وعجائبه وجباله وبحاره وأرضه وسمائه، وقلبه وقالبه إلى خراب يباب، لا حركة فيه ولا انطلاق، ولا حياة ولاحيوية، وفي تعبير آخر: إن توقف فيض التجلي حلَّ بالعالم موت مفاجئ.

وهل من فائدة للكعبة أكثر من أن يتوقف عليها وجود أفعال الدنيا والآخرة وخواصها، وبها ينطلق نظام الدنيا وما فيها من حركات ومسيرات وثورات وتقلبات.

وعن كل هذه الأسرار والحكم والمصالح كشف القرآن الكريم بأسلوبه المعجز، حيث قال: "مباركا وهدى للعالمين"، مما أبرز فضائل الكعبة المشرفة، ووصفها ببيت مبارك وهادٍ، وبها ترتبط البركات المادية والحسية، والبركات الذهنية والخارجية، وأنواع الهداية والسعادة، وقد مر تفصيلها سابقا، فإنه إذا كان وجود الكون كله متصلا بفضل هذه الكعبة المشرفة، والوجود سبب لجميع البركات الحسية والمعنوية، فلولا الوجود لما وُجدتْ بركة ولا هداية، فألفاظ البركة والهداية التي ذكرها القرآن تتضمن مئات من الألوف من نعم الله وآلائه، التي تظهر بفضل إفادات الكعبة المقدسة، مما يدل بكل جلاء ووضوح على ما للكعبة من مركزية عالمية وإفادة عالمينية.

الكعبة المقدسَّة حرمًا آمناً:

وإذا تدبرنا أصول علم الرياضي وآثارها ومناهجها أدت بنا إلى أن الكعبة المقدسة مركز عالمي للأمن والسلام، فأصل الدائرة هي الحركة، والأصل في المركز هوالسكون، فالمركز وُضِع ليبقى ساكنا، والدائرة توضَع لتبقى متحركة، وإن توقفت

آلتها لفترة، كما أنت إذا أردتَّ إقامة دائرة بالدوَّارة، فرِجل الدوارة التي تصنع المركز تبقى ساكنة مطمئنة، ثابتة على نقطتها، فإنها إذا حادت عن موضعها مثقال ذرة لم يبق مركز، أما رِجل الدوَّارة الأخرى التي تصنع الدائرة مهمتها هي الحركة، وعدم الجمود على مكان واحد، بل عليها أن تتقدم شيئا فشيئا، وتدور حول المركز، فلولا حركتها لما تكونت دائرة، فالسكون هو الذى أعطى المركزَ الوجودَ، والحركة هي التي أعطتْ الدائرة الوجودَ.

ومن أجل ذلك فإن الدائرة من بين الدوائر المتحركة التي هي أبعد من المركز، تكون حركتها أشد وسيرها أحثُّ، ومسافتها أكثر، والدائرة الأقرب إلى المركز هي أخف حركة، وأضعف انطلاقا، أما الدائرة المقارنة للمركز فتكون حركتها أخف حتى لاتبدو متحركة.

والظاهر أن القرب إلى المركز إذا كان سببا في تخفيف الحركة، والاتصال به سبب في انعدامها، فثبت أنه لا بد من سكون محض للمركز، ليبقى في مكان واحد، وبسكونه يتعلق وجود الدائرة، وحركتها الدورية.

ومن ثم وُصِفَتْ مكة المكرمة والحرم المكي بمركز الأمن والسكون، كما جاء في الآية: مثابة للناس، فهي مركز للسكينة القلبية والسلام العالمي، كما سيأتي بيانه.

الآفات والبليات تتعلق بالحركة:

ومن هنا تنشأ نكتةٌ، وهي أن الآفات والبليات إنما تتعلق بالحركة لا بالسكون، ومن هنا تكثر مسافة الدائرة البعيدة من المركز وتشتد حركتها، وتتعرض كثيرا للآفات والبليات، فكلما كانت الحركة طويلة، تعرضت الدائرة للجهات الكثيرة والخصائص والآثار المختلفة، وتؤثر في أمور كثيرة، قد تعرقل مسير حركتها، وتخل بآثار المركز، المترتبة على الدائرة، مما يدفع تارة إلى زوال الحركة تماما، وهذا يعني فناء الدائرة وموتها، حيث

حياتها ليست إلا حركة، فقد وضعت للحركة، وتارةً تنعدم منافعها الحاصلة من قِبَل المركز، مما يترك أثرا كبيرا، كنقطة مركزية مثقَّبة، شبيهةٍ بالنافورة ينعكس منها لون خاص، ويتسع للدائرة كلها بشكل سوي، ولونُه الزاهي وجماله الساحر يبهر الناظرين، ولكن إذا انعكست فيها ألوان عديدة، وتتأثر بها النقطة، وتتزاحم الألوان، فلم يكن منها إلا أنها تشوِّه جمال اللون الزاهي، ويفنى سحر اللون المركزي في ضوء الألوان المتضادة واجتماعها العشوائي، إلا أن تكون الدائرة سريعة بشكل لا يدركه رشاشة الألوان الأخرى، ولا يشوه صورتها، فالميزة الأولى للدائرة أن لا تعتزل مركزها، بل تدور حول المركز، فإن الدائرة إذا حادت عن المركز اضطربت حركتها، واختلَّ نظامها، وهذا بمنزلة موتها، وموت ما حولها، نحو الكرة الكبيرة إذا زالت عن المركز، وعادت تتدحرج، تقضي على كل شيء، تمر به، وبالتالي تسقط في هوة سحيقة، وتموت مع حركتها.

والميزة الثانية للدائرة أن تكون حركتها قويةً، وانطلاقتها سريعة بحيث لم يؤثر فيها مؤثر خارجي، لا في حركتها ولا في جمالها، وإلا فإن الحركات المضادة بعد التصادم مع المركز إما أن تفسد أمر الدائرة، أو تشوه جمال الألوان وبهاءها اللامع.

وعلى كل فإن هذا يوضح أن السكون هو الوصف الذاتي للمركز، مما يستلزم سلامته من الآفات، والوضع الذاتي للدائرة هي الحركة التي تخضع دائما للمركز، فلو كانت شديدة السير بحيث لا يقبل أي مؤثر خارجي، وإلا فهي تتعرض للآفات الخارجة.

الأصول العقلية لأمن الكعبة:

إن ملاحظة المبادئ الرياضية والتفكير فيها تصل بنا إلى أن الكعبة إذا كانت وسط العالم، ومرجع العالم، حيث يرجع إليها كل ذرة في العالم رجوع تذلُّلٍ، -وهو معنى العبادة- كما ثبت من ذي قبل، فكل هذا المعنى وما فيه من خصائص مركزية يشكل دليلا طبيعيا واضحا على أمن الكعبة وسكونها.

وإذا كان المركز عالميا فلا بد أن يكون أمنه وسكونه عالميا أيضا، حتى لا تصيبه آفة من آفات العالم، التي تنشأ من حركة العالم كله، وإذا كان المركز لا يحمل نوعا من الحركة، بل هو السكون كله، والسكون يرادف الأمن، فالأمن والسكون وجهان لحقيقة واحدة، وإذا وصفنا الكعبة بأنها مركز للسكون ثبت أنها مركز للأمن.

وبعد ملاحظة هذه الحقيقة إذا تدبرنا الأمر من وجهة نظر دينية وجدنا الشرع الإسلامي وصف الكعبة بأنها مركز للأمن والسلام من حيث كونها مرجعا للعالم، وبذلك اتفق كل من العقل والشرع على إثبات الأمن والسلام للكعبة، فقد أعلن القرآن الكريم أن الكعبة المقدسة هي مركز للأمن، ومكان للسكينة الكاملة، فهي مكان آمن ومسكون في وقت واحد، قال الله تعالى: **"وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا"** (سورة البقرة: ١٢٥).

والظاهر أن هذا الأمن لا يختص بالإنسان؛ بل هو يعم كل شيء في الكون، بما فيه الحيوانات والنباتات والجمادات، حيث أكد الحديث النبوي على ما يفيد عموم الأمن حتى الحيوانات ونباتات الحرم، ومن ثم جاءت حرمة الإشارة القاتلة إلى أحد، وذكر العلماء كراهية نقل الأحجار من مكان إلى مكان، فهو إزالة لأمن الحجارة، على اضطرارها إلى ترك مكانها.

فوصفت الآيةُ الكعبةَ المقدسةَ بأنها أمن على الإطلاق، وقد فسر الحديث هذا النداء القرآني بأنه مركز عالمي، وأمن للعالم كله، وهذا يفيد أنها مأمن عالمي، وأساس هذا المأمن العالمي أنه مركز للعبادة، والعبادة تحتاج إلى الأمن والسكينة.

نظام الأمن العالمي:

إن الله تعالى جعل الكعبة مركزا للعبادة من الأزل، ووضعها لعبادة الكون كله، ومن ثم وُصفتْ بأنها هدى للعالمين، كما مرَّ سابقا، وكونها مركز العبادة يقتضي طبعا أن

تكون مركزا للأمن والسلام، فإن الأمن النفسي والآفاقي يمثل عمودا فقريا للعبادة، فالفتن والمحن والبلايا والرزايا تخل كثيرا بالعبادة والطاعة وجميع أنواع القرب، ونظرا إلى هذا يهجرُ العُبَّادُ والزهادُ المدن والقرى، ويلجؤون إلى القفار والصحاري، ويكملون هناك أورادهم وأذكارهم، فإن المدن والقرى العامرة وما فيها من صيحات وجلبات ونزاعات وأحداث تذهب بطمآنينة القلب وهدوء الضمير وخشوع الأعضاء، مما هو أمر ضروري للعبادة، حتى أن الديانات السابقة قد أعطت اعتزال الناس والانقطاع إلى الله عن الخلق شيئا من المشروعية، مما يوصف بالرهبانية، وكان الرهبان ينقطعون عن الناس كليا، ويجعلون الصحاري والقفار والبحار والجبال مأوى لهم، ليعبدوا بكامل الهدوء والسكينة، وبما أن الإسلام دين اجتماعي لا دين القطيعة والرهبانية، كالديانات الأخرى، ثم جعل الأمور الاجتماعية والتمدنية والعادات نوعا من العبادة، إذا مارسها الإنسان بحسن نية، فقد قضى الإسلام على كل خيط من خيوط الرهبانية الحسية والعزلة عن الناس، وأقام مركزا عالميا للامن والعبادة، وهذا يفيد أن الإسلام أزال المآمن المصطنعَة، من التلال والصحاري والبحار والجزر، وبدَّل منها مركزا عالميا للامن والسلام، ليرجع الناس إليه في جميع العادات والعبادات، فكأن الله أزال الرهبانية الحسية والخلوة المكروهة، وأقام مقامها أمنا عالميا للسكينة القلبية، ومتى أراد الإنسان أن يسري عن النفس الشرود الفكري والفوضى القلبية، فعليهم باللجوء إلى هذا المأمن العالمي، ويستقبلوه في حركاتهم وتعبداتهم، فوضع السكينة القلبية والخشوع العملي مكان الرهبانية المكانية، وجعل الكعبة مصدرها، حيث هي آمنة، ومصدِّرة للأمن، وينتشر أمنها إلى كافة العالم، حتى إن الإنسان في خضم أعماله الاجتماعية يستطيع أن يتوجه إليها بقلبه، ويستفيد من سكينتها الجميلة، فالإسلام قد قضى على الرهبانية بشكل قطعي، وأقام مركزا للأمن والسكينة، إلا أنه أبقى اعتزال الناس في المراحل البدائية بشكل موقت، لينقطع العابد لبعض مدة عن الناس وثوراتهم وصيحاتهم،

ويتعود بذلك على عبادة مرضية، وإذا صارت العبادة عادة له وسجية، وتمكنت في قلبه، وانصبغت جميع أعمال الحياة بصبغة العبادة، بحيث لا تؤثر فيها الصيحات والضجات، فعليه أن يخرج من العزلة، ويعيش بين الناس، ويعمل في مجال تربيتهم وإصلاحهم.

وعلى كل فإن الله تعالى جعل هذا البيت الكريم مركزا للأمن والسلام لكونه مرجعا للطاعة والعبادة، فقد صدر عن هذا المركز تيارات الأمن إلى كافة أنحاء العالم، وانتشرت تدريجيا إلى جميع الأصقاع والبقاع، فالبيت الكريم هو مركز للأمن العالمي، الذي جعله الله نقطة انطلاق للأمن العالمي الخالد، كما قال تعالى: **"وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا"** (سورة البقرة: ١٢٥).

مما يوضح أن الكعبة المقدسة عجنت طينتها بالأمن، فكأن بيت الله يرادف معنى الأمن والسلام، وبذلك يتضح أن أمنه ليس عارضيا موقتا؛ بل هو أصيل مركوز في طبعه، فأمنه يعم البشرية جمعاء، والعالم كله، ولا يتقيد بمنطقة دون منطقة، وهذا يعكس أن أمنه عالمي بكل ما في الكلمة من دلالة.

وقد امتن الله تعالى على قريش مكة في القرآن الكريم عندما قال: **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (*) الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** (سورة قريش: ٣-٤)

فلم يقتصر على قوله: فليعبدوا الله، الذي آمنهم من خوف، بل قال: فليعبدوا رب هذا البيت، الذي آمنهم من خوف، أي بالنسبة إلى البيت الكريم، وفيه إشارة إلى أن البيت الكريم له دخل كبير في الأمن وانتشاره في العالم، بل الحقيقة أن كونه بيت الله دليل على كونه مركز الأمن والسلام، فهو مكان آمن، يحفظ الأمن ويهب الأمن.

ثم إذا وصف الله تعالى هذا البيت بأنه أول بيت وأول وضع فمعناه أن أمنه أزلي، أودع فيه يوم خلقه قبل خلق السماوات والأرض، فإن الإشارة القرآنية تؤكد على أن البيت والأمن ليسا شيئين متضادين، بل هما شيء واحد، لا يتفرقان، ولا ينفكان، فمنذ أن وُجد بيت الله وُجد أمنه، حيث لم يوجد البيت إلا آمنا، وبما أن البيت أزلي

الخلق فأمنه هو الآخر أزلي الخلق، وبما أنه مبدأ الكائنات حيث بدأ منه الكون، فهو أزل هذا الكون العنصري، ومنتهاه وأبده، فإنه إذا طرأ على البيت الكريم الفناء، يفنى الكون كله، كما أثبتُّه بالنصوص الشرعية.

وعلى كل فالبيت الكريم هو أبد هذا الكون كله، حيث يبقى إلى نهاية العالم، وهذا البيت الأزلي الأبدي عبارة عن الأمن والسلام، فلا بد من الاعتراف بأن أمنه أزلي وأبدي معا.

ويؤيده تاريخ هذا البيت؛ حيث نشأت في الكون ألوف من الخرائط الجغرافية، ثم زالت واندحرت، وحلت محلها خريطة جديدة، وأقيمت ألوف من حدود البلاد والقارات والبحار والجبال والأنهار، ثم أزيلت، وتارة عمَّ البرُّ، فالتقم البحرَ، وتارة طغى البحر والنهر فالْتَهَمَ البرَّ، وتارة زالت الجبال عن مكانها، وتحولت إلى قاع رملي، وكم من مناطق رملية صارت جبالا، فكل شيء ظل خاضعا للتغير والتبدل؛ ولكن بيت الله ووضعه وموضعه وحدوده الأربعة مازالت على حاله الأولى، التي كانت في الأزل، فلم تبرح الكعبة مكانها، ولن تبرح.

ومن أبرز الدلائل على كون الكعبة المقدسة مركزا للأمن الأزلي الأبدي أنه أمن لنفسه، ولما حوله من البقاع والأصقاع، حتى لم يبق خلل واضطراب في الكعبة المقدسة ولا فيما حولها من البقاع، فلم تتم إزالتها عن مكانها، وإزالة آثارها؛ بل كل من جاء ليهدم الكعبة أو يزيل آثارها، خرَّ ذليلا مغلوبا، وصار عبرة ونكالا للآخرين، كما أوضحته بالأمثلة السابقة، فكل ذلك يدل على أن هذه البقعة المباركة آمنة بنفسها، وغير متأثرة بالفوضى الحادثة فيما حولها.

فإنه لو كان أهل مكة متعرضين للفوضى والاضطراب والشر والفساد لكان كل من يرجع إلى القبلة يتعرضون للفتن والهلاك والدمار، وكان غيرهم من سكان خارج بلاد الحجاز يبحثون عن سبل إثارة الشر والفساد؛ مما يدل على أن الأمن والسلام يمثلان

عمودا فقريا للعبادة والرياضة وتهذيب النفس، وأن مصانع العبادة لا تنشأ في مناخ الضجات والصيحات والمباحثات والمجادلات، فضلا أن تتطور وتزدهر.

وعلى كل فوضع الكعبة كان في حاجة إلى جو الأمن والسلام، فلما تم جعلُ الكعبة مركزا للعبادة جُعِلَت مركزا للأمن والسكينة، ثم ليست مركزيتها تنحصر في زمن دون زمن، ولا في مكان دون مكان؛ بل مركزيتها ثابتة من الأزل إلى الأبد، فإنها بدون هذا لن تتحقق أهداف العبادة، فكما أن الكعبة مركز العبادة من الأزل إلى الأبد، كانت مركز الأمن من الأزل إلى الأبد، ثم أمنها وسلامها من صفاتها الذاتية، لا صفاتها العارضة أو الموقتة.

وكما أنها مركز للأمن والسلام من الناحية التكوينية، فهي مركز للأمن من الناحية الشرعية، فإنها بدونها لن تكون مركزا للعبادة.

وتفصيله أن الدنيا تحتوي على حركتين ماديتين، هما أصل الفساد والاضطراب، أولاهما حركة الشهوة، وأخراهما حركة الغضب، فحركة الشهوة تسبب ظهور الفواحش والمنكرات، وحركة الغضب تؤدي إلى انتشار النهب والسلب والسرقة والابتزاز، مما يفسد العالم، ويزيده فوضى واضطرابا، فإن القوى الغضبانية تنتج كلا من الضرب والقتل والإغارة، والانتهاك والإيذاء والإضرار؛ مما يخل بأمن العالم وسلامة العباد والبلاد.

وفي مقابل تينك الحركتين هناك قوة أخلاقية وملكية وروحية، تخلق الإطاعة والعبادة وأثمارها من الأمن والسكينة وطيب الخاطر والمودَّة القلبية، فظهور الحركتين الأوليين يحتاج إلى حركة، أما القوة الأخيرة فهي في حاجة إلى سكون، فثمرتها سكون وأمن، فلما كان بيت الله مركزا للأمن والسلام، ومركزا عالميا للعبادة، فالإنسان لا يسافر إليه إلا لأداء العبادة والمناسك، والاستنارة بجوِّها النوراني، فهو أجدر بأن يكون مركزا عالميا للأمن والسكون، ولا تُخِلُّ الحركة الخرافاتية بجوِّها النوراني.

كما قال تعالى: **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ** (سورة البقرة: ١٩٧).

آثار الأمن العالمي:

وعلى كل فإن هذه الصفات الست للكعبة المقدسة هي التي جعلت الكعبة أقدس البقاع وأكثرها بركة وقداسة، فقد ثبت بما سبق ما يلي:

١- أن الكعبة أول الكائنات، فهي مبدأ الوجود، ومنه نشأ الوجود العالمي، ولا يزال، وهو السبب وراء ظهور أنوار الوجود وتجلياته.

٢- أن الكعبة وسط الكون، ليستوي الاتجاه إلى الكعبة من كل مكان.

٣- أن الكعبة أصل الكون، فمنها كسب العالم وجوده.

٤- أن الكعبة مرجع الكائنات، فكل جزء وذرة كونية راجعةٌ إلى الكعبة المقدسة بشكل طبيعي.

٥- أن الكعبة نافعة للكون، حيث منها انتشر نور الهدى والسعادة إلى العالم كله.

٦- أن الكعبة أمن للكون، فإن الأمن العالمي نشأ من الكعبة، وشق طريقه إلى الدنيا كلها؛ ليطيب خاطر العابد، ويطمئن قلبه ويرتاح إلى أعمال العبادة، وتنتشر الوحدة الإنسانية؛ مما جعلها مركزا عالميا للأمن والسلام وقبلة للكون العلوي والسفلي، يستقبلها كل إنسان بشكل لازم، مما يُقِرُّ معنى الأمن العالمي والمركز العالمي.

والظاهر أن الكعبة المقدسة إذا كانت مركزا للكون ويدور حوله الكون كله، بما فيها الأعيان والأعراض المتمثلة في العلم والعمل، التي يستمر دورانها حول الكعبة، فلابد من وجود سكون محض في الكعبة كما تقتضيه مبادئ علم الرياضي، وهذا يعنى الأمن المحض، فكل منطقة هي أقرب إلى المركز، هي أكثر أمنا وسلاما، مما يؤدي إلى نتيجة

طبيعية، وهي أن فتن الحركات الناشئة من قوة الشهوة وقوة الغضب لدى الإنسان وآثارها السيئة يكثر وقوعها بالبعد عن المركز، وإذا قرب الإنسان إلى المركز خفَّت وطآتها وقلَّ فسادها، فكل إطار علمي وعملي اقترب من مركز الهداية والسعادة قلبا وقالبا أو اتصل به، يقل فساده، ويجف سوء أثره، ومن ثم قال الله تعالى: **وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** (سورة آل عمران: ٩٧).

فمعنى الأمن هو السكون، والسكون هو الأمن كما مر، وكل من تجارب القرون ومشاهداتنا اليومية شاهدة على هذا؛ حيث يجتمع في الحرم مئات الألاف من الرجال والنساء والولدان، ويكثر الزحام، ويقع احتكاك، وتدافع، ولكن هذا الاجتماع الهائل بين الرجال والنساء بل الاختلاط الكبير لا يثير الشهوة، والطمع في القلوب، ولا يثير الغضب، فيقع تضارب وتقاتل، ولا يشعل القوة الشيطانية، فينفق سوق النهب والسلب والمكر والمكيدة، بل يستقر في القلوب سكينة واطمئنان وارتياح واهتزاز، ويبدو كل إنسان هناك صورة كاملة عن العفة والطهارة، وكل ذلك من آثار الآيات البينات المودعة في البيت العتيق، وما فيه من أمن مركزي، فكل إطار اقترب من البيت أو اتصل به صار آمنا، بعيدا عن كل ضوضاء وفساد وقوى شيطانية ماكرة، مما يدل على كونه مركز الأمن العالمي.

وعن هذه الحقيقة الناصعة كشف الحديث الذي يقول: مَنْ حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"[1] فلله در هذا البلد الأمين.

ومن هنا انتهينا من إثبات أن نقطة الفيض بمكة هي الكعبة المقدسة، فهي مورد التجلي الأول، وهي مبدأ وجود الكون، وعليها نزل تجلي اسم "الجميل"، من بين أسماء الله سبحانه، وهو وصف جامع لجميع صفات الكمال والمحاسن، وإليها نظر الله

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، باب الطيب للجمعة، رقم الحديث: ١٥٢١.

سبحانه، ومنها بدأ خلق الكون كله، وهي نقطة أولى وأصيلة من النقاط الثلاث المتمثلة في كل من الكعبة المقدسة والمسجد الأقصى المبارك وطور سيناء.

إن المسجد الأقصى وطور سيناء هما وسط العالم كالكعبة المقدسة:

ومن هنا يجب ملاحظة نقطة هامة، وهي أنا كما اعتبرنا الكعبة المقدسة وسط العالم، وذلك لما تتحلى به من صفات وخصائص مركزية، وقد مر بالدلائل الشرعية والعقلية أن كلا من المسجد الأقصى والطور المبارك مركز عالمي فيجب كذلك الاعتقاد بأن المسجد الأقصى والطور المبارك هما وسط العالم؛ بل يجب أن تكون بلاد الشام ومصر أيضا وسط العالم بآثار الأقصى والطور، كما يجب أن يتصف هذان المركزان طبعا بجميع خصائص المركز، وإذا فكرنا من هذه الناحية وجدنا أن كلا من المسجد الأقصى والطور المبارك وما جاورهما من البلدان كالشام ومصر هما في وسط العالم، ومتصلان بمركز العالم: الكعبة المقدسة، مما يعطيهما تلك النوعية للمركزية العالمية، التي هي حاصلة للكعبة المقدسة، فإن الدوائر المتصلة بالمركز تُعتبر دوائر مركزية، وتأخذ حكم المركز، فإن وضعت دائرة متصلة بالمركز، وإن كان ذلك بعد مائة عام من وجود المركز، كانت تلك الدائرة دائرة مركزية، وهذه المسافة الزمنية لا تؤثر في مركزية الدائرة ولا المركز، فإن المركز واحد، والدائرة متصلة به، فتتعدى آثاره إلى الجوانب الأربعة بشكل سوي، وبذلك تندفع الشبهة التي حاصلها أن المسافة الزمنية بين وضع الكعبة المقدسة ووضع المسجد الأقصى تمتد لأربعين سنة، كما جاء في رواية أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا، فأين اتصال المسجد الأقصى بالكعبة المقدسة؟ وكيف يمكن أن يوصف بوسط العالم، والجواب واضح؛ حيث إن المعيار الصحيح لقرب الدوائر وبعدها وتكوُّن المركز وعدمه هو المحل والمقام دون المدة والزمان، فإن تم وضع الدائرة المتصلة بالمركز بعد مائة عام، تُعد تلك الدائرة دائرة مركزية، ثم لا ترد شبهة من حيث المقام والمكان أيضا، بحيث يقال: إن

المسجد الأقصى بعيد عن الكعبة المقدسة بثماني مائة ميل، فأنى الاتصال؟ وأنى وسطيته المزعومة؟ ولكن هذه الشبهة قائمة على الجهل بأصول علم الرياضيات والجغرافيا.

إثبات الدعوى بمبادئ علم الرياضي:

وإن مبادئ علم الرياضي تفيد أن كل دائرة تتصل بالمركز بلاواسطة دائرة آخرى فهي دائرة مركزية، ولو طالت المسافة بينها وبين المركز، فإن مدار الأمر هو اتصال الدائرة بالمركز مباشرة والعلاقة بينهما لا المسافة الزمنية والمكانية بين الدائرة والمركز، فإن تمَّ رسمُ الدائرة من المركز بحيث لا تتخلل بينهما دائرة جديدة، سواء طالت المسافة بينهما أو قصرت، فهي دائرة مركزية، وإن خُطَّت تلك الدائرة بعد دقيقة، أو بعد ألف، ولاتؤثر فيها المسافة الزمنية ولا المكانية، نعم! إن الدوائر التي تلي الدائرة المركزية لا توصف بالدائرة المركزية، فإنها تتخلل بينها وبين المركز الدائرة المركزيةُ هذه، سواء كانت مسافتها قصيرة، فهي لا تتصل بالمركز بلاواسطة، ولا نسبتها إلى المركز قريبة، كما يجب أن تكون في الدائرة المتصلة، فمدار الأمر في كون الدائرة مركزية أو لا يتعلق باتصال الدائرة بالمركز وعدم توسط دائرة ثالثة، ولا يتعلق بالمسافة الزمانية والمكانية بينهما سواء طالت أم قصرت، ومن ثم فإن تم خطٌّ دائرة جديدة بين الدائرة المركزية والمركز، تسمى الدائرة الجديدة دائرة مركزية، لا الدائرة الأولى التي كانت دائرة مركزية.

وفي هذا السياق لما كان المسجد الأقصى أقرب دوائر العبادة إلى الكعبة المقدسة، فهي دائرة مركزية بهذه النسبة، وإن كان تأسيسه بعد مسافة أربعين عاما، ومن ثم يستحق المسجد الأقصى أن يسمى وسط العالم، وإن كانت هناك دوائر تتصل بالكعبة مباشرة، وتوصف بالدوائر المركزية، ثم خُطَّت بينهما دائرة جديدة، تستحق هذه الدائرة الأخيرة أن تلقب بالدائرة المركزية، وينتهي وصف الدوائر الأولى بالمركزية، فإن الواسطة بينهما سلبتها وصف المركزية.

وعلى كل؛ فقد ثبت بمبادئ علم الرياضي كون المسجد الأقصى وسط العالم نظريا وأصوليا.

إثبات الدعوى وفق المبادئ الجغرافية:

ولكن بقيت هناك شبهة، وهي أنه قد بقي إثبات وسطية المسجد الأقصى بالمشاهدة والبراهين الحسية، بعد وقوعه على مسافة ثماني مائة ميل، وإن تم إثبات تلك الدعوى بالدلائل النظرية القوية؛ لكن المشاهدة لايمكن إنكارها؛ وهي واقعة على بعد مئات الأميال، فكيف يوصف بأنه وسط العالم؟

والجواب أن إذا تدبرنا الأمر وفق المبادئ الجغرافية زالت هذه الشبهة، وثبتت وسطية ومركزية المسجد الأقصى مع هذه المسافة الهائلة بينه وبين الكعبة المقدسة.

والحاصل أن الأرض المسكونة تحيط بمسافة تسعة عشر مليون ميل مربعا، وإن تم تنصيفها بلغت مسافة ما بين المركز إلى المحيط عشرة ملايين إلا نصف مليون، فإن كان الإنسان يريد أن يقطع هذه المسافة من أقصى الأرض إلى أقصاها مشيا على الأقدام، بنسبة المشي المعتدل الذي يقدَّر بستة وثلاثين ميلا يوميا، فيمكنه قطع هذه المسافة الطويلة في ٢٩عاما، كما يمكن له قطع نصف هذه المسافة بأربعة عشر عاما ونصف عام، ولكن بهذا السير المعتدل إن أراد الإنسان قطع مسافة ما بين المسجد الأقصى إلى الكعبة المقدسة،أمكن له ذلك في ٢٢ يوما ونصف يوم، فـ٢٢يوما ونصف يوم من بين أربعة عشر عاما ونصف عام، لا يحمل نسبة الواحد من المائة، (١٪)، فهذه المسافة القليلة من بين مئات الألوف من الأميال لاتحمل نسبة تُذكر، ولاتؤثر في وسطية المسجد الأقصى ومركزيته، حتى تنشأ شبهة.

وعلى كل فوضع الكعبة والمسجد الأقصى واقع في وسط العالم، سواء كان وضعا سماويا أو مسافة زمانية أو مكانية في الأرض، غيبيا كان أم عينيا، فلا شك في كون المسجد الأقصى وسط العالم.

وكذلك حال الطور، فالمسافة بينه وبين الكعبة المقدسة زمانيا ومكانيا لاتكون شيئا مذكورا مع فرق يسير، وتُعد كل من البلاد الثلاثة: الحجاز والشام ومصر واقعة في وسط العالم، وكونها مناطق مستقلة أو قريبة لايؤثر في مركزية المناطق الثلاث.

نظرة على الوسطية الحقيقة والوسطية الإضافية:

ولكن هنا لا بد من ملاحظة الفرق بين المركز الحقيقي والوسط الحقيقي وبين الوقوع في وسط الأرض، فالكعبة المقدسة هي مركز الكون كله، ومنه تم رسم دوائر الموجودات، وكل من المسجد الأقصى والطور المبارك ليس مركزا للكون أو الأرض؛ إلا أنهما واقعان في المنطقة المركزية، فالمسجد الأقصى والطور المبارك ليسا ببعيدين من الكعبة المقدسة بالنسبة إلى مجموع مسافة الأرض، حتى يخل بمركزية كل منهما، فتكون آثار هذه المراكز الثلاثة على اختلاف بينها عالمية، وينتشر منها نورها وآثارها على العالم كله بشكل سوي، ومعنى هذا أنه يتم إقامة مركز إسلامي عالمي للأمن والعبادة، حيث يظهر نظام السياسة والشوكة للإسلام من المسجد الأقصى، ويظهر من الطور المبارك النظام العسكري للإسلام، حيث اختارها الله تعالى لتكون مراكز إسلامية عالمية، وأنزل عليها ثلاثة أنواع من التجليات الربانية، فنزل على الكعبة تجلي الوجود، بينما نزل على المسجد الأقصى تجلي القهر والسياسة، ونزل على الطور تجلي الدفاع، كما مر تفصيله سابقا، فمن اللازم أن تصدر عنها آثار عظيمة، تؤثر في العالم كله.

ومن هنا تزول تلك الشبهة التي تفيد أن الكعبة المقدسة وإن كانت في وسط الأرض؛ لكنها لن تصلح لأن تكون مركزا للأرض، فجوانب الأرض الأربعة ليست مسافتها من الأرض سواء، فلا تصلح لأن تكون مركزا للأرض، نعم! يجوز أن يطلق عليه أنها وسط الأرض أو أوسطها.

ولكن هذه الشبهة ليست بناهضة، بل هي سطحية تماما، وذلك أنا وصفنا الكعبة بأنها مركز للكون كله، مما يشمل كل الكرات الأرضية وجميع البحار والمحيطات مما يطلق عليه لفظ الأرض على سبيل المجاز، فالكعبة المقدسة هي مركز الدائرة الكونية المتسعة

لكل من الأراضي والبحار والجبال؛ فليست الكعبة مركزا للربع المسكون من الدنيا، فإن كانت جوانب الربع المسكون ليست مسافتها مستوية من الكعبة، وتحدث فيها زيادة ونقص، فلايؤثر في مركزية الكعبة المقدسة، وبما أن مسافة المسجد الأقصى والطور المبارك من الكعبة المقدسة ليست بشيئ يُذكر بالنسبة إلى مجموع الكائنات، فلا شك في كونها وسط العالم، فتُعَدُّ مراكز عالمية دون شك وريبة.

مواقع المقامات المقدسة:

وهناك شبهة أخرى، وهي أنها قد سبقت الدعوى بأن الله تعالى اختار كلًا من مكة المكرمة والمسجد الأقصى والطور المبارك مراكز عالمية، وعلق بها ثلاثة أمور، تتوقف عليها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وهي العبادة العالمية والشوكة والسياسة العالمية، والدفاع العالمي، والمركزية في المقامات المقدسة الثلاث تسري في مواضعها ومواقعها، مما يقتضيْ طبعًا تفرُّقَ هذه المقامات المقدسة، وقد سبق بيان أسبابه، كما يقتضي أن لا تكون بينها مسافة طويلة، وشُقَّة بعيدة، فإن الإسلام أعار كلا من العبادة والسياسة والدفاع أهميةً قصوى مع ما بينها من فرق في المراتب، لتظهر هذه القوى الثلاث مرتبطة بشكل سويٍّ، وتبقى مختلطة دائما، ليكون الدين ظل واقفا بجانب السياسة، ولكن الأمر ليس كذلك؛ بحيث جاءت المسافة بين الكعبة المقدسة والمسجد الأقصى طويلة، وبعيدة، فهي تقدَّر بثمان مائة ميل، والطور أبعد من الكعبة المقدسة بمزيد من نحو أربع مائة وخمسة وعشرين ميلا، فالطور واقع على بعد نحو ألف ومائتي ميل من الكعبة المقدسة، فأين ذلك القرب الذي زعمتموه؟ وذكرتم الحاجة إليه؟

ولكن الجواب عن هذه الشبهة مكمون في المبادئ الجغرافية والمساحية، بشرط أن نتدبرها حق التدبر، وهو يتمثل في أن مبادئ علم المساحة تفيد أن الربع المسكون من العالم يقدر بتسعة عشر مليون مربع ميلا، فكأن الإنسان إذا أراد قطع هذه المسافة مشيا

على الأقدام، وبسير معتدل، فهو لايقطع منها في اليوم الواحد إلا محض ٣٦ميلا، أما المسافة كلها فهو لايقطعها إلا في ٢٩عاما، أما مكة المكرمة التي ليست في وسط العالم؛ بل مركز العالم أيضا، كما سبقت دلائله، فالوصول من مكة إلى القدس والطور لا يستغرق إلا ٢٢يوما، فأين ٢٢يوما (الذي يتم فيه الوصول إلى المسجد الأقصى) من ٢٩عاما، (الذي يتم من خلاله قطع المسافة الأرضية كلها) والظاهر أن المسافة بين الكعبة المقدسة والمسجد الأقصى ليست شيئا مذكورا بجانب هذه المسافة الطويلة، فلا يمكن أن يوصف بأن المسجد الأقصى والطور المبارك بعيدان عن الكعبة المقدسة.كما لا يمكن أن نصف مكة بوسط العالم ونخرج القدس والطور عن هذا الإطار، وكذلك حال الطور، فهو واقع من القدس على بعد ٤٢٥ميلا، ومن الكعبة على بعد ١٢٠٠ميلا، والإنسان يمكنه أن يقطع مسافة ما بين القدس والطور في ١٢يوما، ومسافة ما بين الكعبة والطور في ثلاثين يوما، فمسافة شهر واحد ليست بشيء مذكور بجانب مسافة ٢٩عاما.

فلايمكن أن يُعْتَبَر كلٌّ من القدس والطور بعيدًا عن مكة المكرمة، وخارجا عن وسط العالم، فالمسافة التي تشمل مئات الألوف من الأميال إن اتسع جانبها الوسطي لمئات الأميال فهو أمر معقول طبعا، فحق لهذه المواطن الثلاثة أن تُعَدَّ مراكز عالمية ووسط العالم، نعم! يأتي فرق يسير بين المواطن الثلاثة، فالكعبة المقدسة هي وسط حقيقي للعالم ومركز للكون، ومنها تم رسم الدائرة الكونية، أما المسجد الأقصى والطور المبارك فهما من أقرب الدوائر إلى وسط الأرض والمركز، فهما دائرة مركزية، فهما مركزيان إضافيان، ولكن لا شك في مركزيتهما.

الحاصل أن المواطن الثلاثة تعَد مراكز عالمية مع اختلاف يسير في المسافات، أما بُعْدُ القدس والطور عن الكعبة لا يؤثر في مركزيتهما، كما تقتضيه مبادئ علم الجغرافيا وعلم الرياضيات.

آثار الكعبة المقدسة في مكة والحجاز وحدودها الشرعية والتكوينية والجغرافية:

ونبدأ بمكة والحجاز،اللتان هما نقطة الفيض فيهما هي الكعبة المقدسة:

مكة والحجاز أول الكون:

أما خصائص بيت الله ومحاسنه فهي تُعدُّ بالآلاف؛ ولكن هناك ست صفات، تختص بالكعبة المقدسة، وقد تمَّ إثباتها بالمبادئ الرياضية المعقولة والأصول الشرعية المنقولة، وهي كما يلي:

١- إن الكعبة المقدسة أول الكون

٢- وهي وسط الكون

٣- وهي أصله

٤- كما أنها مرجع الكون

٥- أنها ترسل فيضها إلى الكون

٦- وأنها أمن الكون ومصدره إلى العالم كله.

فمن الصعب أن لا تنتقل هذه الأوصاف إلى بلدان قريبة وبعيدة بشكل تدريجي.

أما وصف الأولية فجوها القريب هي مكة والحرم المكي، وجوها البعيد هو الحجاز بالنسبة إلى البلدان الأبعد. وبناء عليه فكل من مكة والحجاز أول الكون؛ فإنه إذا بدأ خلق الأرض من بيت الله، وامتدادها، فطبعًا تبتدئ أرض مكة والحجاز، فهي أول العالم بالنسبة إلى غيرها من البلدان، فإن البلدان الأخرى لا يتم بناؤها إلا بعد الحجاز.

فكل منطقة أرضية تتصل بالكعبة في مرحلة بناء الخلق يتقدم بناؤها طبعا على غيرها من البلدان، سواء كانت أرضًا أو جزءا من الجبال، والفرق أن ما يثبت للكعبة المقدسة هي أولية حقيقية على الإطلاق، وما يثبت لغيرها فهي أولية إضافية، إلا أن

نفس الأولية تثبت للجميع حسب التفاوت في المراتب، وهذا ما يقتضيه القياس الجلي، كما يسانده ركام من النقل والرواية، وليس هذا ادعاء؛ بل هو ادعاء شرعي، ورواية ابن عباس رضي الله عنهما شاهدة على هذا، مما أخرجه كنز العمال بقوله: "أول بقعة وضعت من الأرض موضع البيت ثم مدت منها الأرض، وإن أول جبل وضعه الله تعالى على وجه الأرض أبو قبيس ثم مدت منه الجبال"(1).

مكة والحجاز أصل الكون:

وبما أن الكعبة المقدسة أول الكون وأصله حيث هي أول بيت وضع للناس، ثم تم امتداد الأرض منها، فمكة التي تحيط بالكعبة المقدسة هي أول الكون وأصله، وأرض مكة هي أول الأراضي، وجبال مكة هي أول الجبال، فما ثبت لبيت الله من الوصف ثبت لبيئته القريبة ولجميع أفرادها.

ومن جهة أخرى فإن النص القرآني قد أثبت أن أول بيت وأول بقعة أرضية واقع بمكة، فوصف مكة أولا بأول بيت وضع للناس، ثم ذكر "الذي ببكة"، فثبت أن الكعبة المقدسة هي أول الأرض، ثبت بإشارة النص أن مكة هي أول سائر الأراضي، وأول البلدان، فمكة مقدمة على غيرها من البلدان، ثم امتدَّ الوجود من مكة ليعم الكون كله، ومن أجل ذلك فقد وصف القرآن الكريم مكة المكرمة بأم القرى، والظاهر أن الأم مقدمة على الأولاد.

وهذه الرواية تشير إلى أنه لولا أرض مكة لما نشأت أرض ما جاورها من البلدان، فإن مكة إذا لم يتم بناء أرضها لم يتم بناء سلسلة الأراضي العالمية، وهذا يفيد أولية

---

(1) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج١٢، ص١٩٦، رقم الحديث: ٣٤٦٣٩

أرض الحجاز وأخروية أراضي سائر البلدان، شأنَ بيت الله الكريم، الذي هو أول الأرض، ومنه امتدَّ بناء الكون، كما جاء في الحديث: "ثم مدَّت منها الأرض".

وعلى كل فقد يستفاد من نصوص الكتاب والسنة التي تفيد أن الكعبة المقدسة هي أول بيت وأول أرض وأول جبل، يستفاد منها أن المناطق المجاورة لبيت الله يتقدم بناؤها على سائر البلدان، فحسب الدعاوي القرآنية بأولية الأراضي والقرى والمدن اتضح أن الحجاز المقدس مقدم كالكعبة على غيره من المناطق، وقد كشفت الآثار والروايات عن مقتضيات النص القرآني، كما جاء في تفسير ابن عباس رضي الله عنه، وآثار السلف الصالح، فأولية الحجاز المقدس ثابتة بالكتاب والسنة الصحيحة، وكل ذالك من فيض الكعبة المقدسة.

الحجاز ومكة هما أصل العالم:

والظاهر أن كلا من مكة والحجاز لما كانا تابعين لأصلهما: بيت الله العتيق في الأولية والوسطية فمن الطبيعي أن يخضعا له في الأصالة، فإن ما يليهما من البلدان والبحار والجبال لم يكن ليُخلقَ إلا بواسطة مكة والحجاز، فلولا خلق ما جاور البيتَ من مكة والحجاز لما خُلِق ما بعدهما، والذي يتوقف عليه الشيء هو أصل الشيء، فإنه إن لم يكن لرجل ابن فأنى له الحفيد؟ فإن كان الأب أصل الابن فالجد هو أصل الأصول، مما يعني أن كون الجد أصلا ينتقل إليه بواسطة ابنه، والفرق بين الأب والجد ينشأ بالواسطة وعدمها، لا بالأصالة نفسها، فإن كانت الكعبة المقدسة أصلا مطلقا للعالم المادي، فما اتصل بها من البلدان والمناطق يكون أصلا إضافيا خطوة بعد خطوة، فانتقلت صفة الأصالة للكعبة إلى كل من مكة والحجاز، وهذا القياس العقلي في الواقع مستفاد من النصوص الشرعية، فهذا ليس قياسا جليا محضا؛ بل هو ثابت بالكتاب والسنة، ومن ثم فقد اعتبر ترجمان القرآن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه نظرا إلى أولية الكعبة المقدسة المناطق المجاورة لبيت

الله أولا مرحلة بعد مرحلة، كما أسلفت من قبل أن أول بقعة أرضية اختارها الله للخلق هي الكعبة المقدسة، ومنها امتد خلق الأرض، وأول جبل بُني على الأرض هو جبل أبي قبيس، ومنه خُلقت سائر الجبال، فجبل أبي قبيس أصل الجبال كلها، فالدلائل التي جعلت البلدان المجاورة لبيت الله أول ما بعدها من البلدان والمدن والأمصار، هي التي تجعل مكة والحجاز أصل ما بعدها من البلدان والأمصار، مع أن أثر الصحابي الجليل يعتبر جبل أبي قبيس أول الجبال؛ بل أصلا لها، وذلك أنه أول جبل متصل ببيت الله، وأوليته الناشئة عن بيت الله منحته درجة الأصالة، وهذه العلة المشتركة تجعل مكة والحجاز أصلا لما بعدها من البلدان، ويوجد في الروايات أصل هذا المعنى.

ونفس الاستدلال يهدينا إلى أن أصالة مكة والحجاز ثابتة باقتضاء النص القرآني: أول بيت، وعلى كل فقد ثبتت لأراضي مكة والحجاز أصالة لما بعدها من الأراضي والبلدان وفق القياس الجليِّ، ومأخذ هذا الكلام الآيتان المذكورتان وقياس ابن عباس رضي الله عنه، الذي بناه على قوله تعالى: إن أول بيت، وبما أن النص الصريح موجود في هذا الباب فالقياس لايكون إلا مؤيدا، والمصدر الأصيل هو الكتاب والسنة.

أما مكة المكرمة فقد قال فيها الله تعالى: **وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** (سورة الأنعام: ٩٢).

وجاء في لسان العرب أن الأم بمعنى الأصل، ويطلق على الأم؛ لأنها أصل الأولاد، والظاهر أن الله تعالى لما أطلق على مكة المكرمة أُمَّ القرى، ووصفها بأصل المدن والقرى، ولفظ "القُرى" عام، لايشمل مدن وقرى الحجاز فحسب؛ بل مدنَ الدنيا وأمصارها كلها، الخارجة عن الحجاز، فمكة كما كانت أصلا للأمصار كلها، كذلك ثبت أن الحجاز أصل للمدن والأمصار كلها بدلالة النص.

وجاء في حديث بريدة رضي الله عنه ما يزيد الآية وضوحا، فقد جاء فيه: "مكة أم القرى، ومرو أم خراسان"[1].

والظاهر أن الحجاز إذا كانت ظرف مكة، حيث تنهَّدت منها أرض مكة، أما سائر الأراضي فقد خُلقتْ بعدها، فأرض الحجاز هي أصل لما وراءها من الأراضي كلها.

مكة والحجاز وسط العالم كله ومركزه:

من أبرز مميزات بيت الله أنه وسط العالم علويه وسفليه، فالظاهر أن مكة والحجاز أيضا هما وسط العالم، فمن الطبيعي أن المركز إذا كان وسط الدائرة، فالدائرة المتصلة بالمركز تُعد وسطا بالنسبة إلى الدوائر الأخرى، لا سيما الدائرة الأشد اتصالا بالمركز هي أقرب إلى وصف الوسطية عقلا وفطرة، فهي متصلة أشد الاتصال بالوسط الحقيقي، فوسطيتها أكثر وضوحًا من الدوائر الأخرى.

وبناء على هذا يمكن لنا أن نقول: إن مكة والحجاز وسط العالم، أما بالنسبة للآثار الشرعية فهي أيضا تؤيد هذا، وتوضح وسطية مكة والحجاز، حيث كشف أثر ابن عباس رضي الله عنه عن هذا المعنى بشكل مكشوف:

"يا أهل مكة! إنكم في وسط من الأرض بحذاء وسط السماء وبأقل الأرض مطرا فأقلوا من اتخاذ الماشية"[2].

وهذه الرواية توضح أن مكة المكرمة ليست وسط الأرض؛ بل وسط السماء أيضا، وهذا شأن كل مركز، فالكرات الأرضية والسماوية الكبيرة تدور حول مكة والحجاز.

وسطية مكة والحجاز من الناحية الجغرافية:

وإذا تدبرنا الأمر من الناحية الجغرافية وجدنا وسطية مكة والحجاز بواسطة بيت الله العتيق أمرا واقعا، حيث هما وسط أقاليم الدنيا، فيقع من شرق الحجاز كل من الهند

---

(١) المتقي الهندي، **كنز العمال**، ج١٢، ص١٩٧، رقم الحديث: ٣٤٦٤٤.

(٢) المتقي الهندي، **كنز العمال**، ج١٢، ص٢١٠،رقم الحديث: ٣٤٧٠٢.

والصين واليابان وجزائر شرق الهند وإندونيسيا، ومن غربها كل من مصر والسودان والجيريا ومراكو وجبرالتر، ومن شمالها كل من روسيا والسويد وناروي، ومن جنوبها كل من زنجبار ودربن وإفريقيا الجنوبية ومدغاسكر، وفي الشمال الشرقي كل من أفغانستان والهند وإيران وتركستان، وفي الشمال الغربي كل من سوريا وفلسطين وتركيا وفرانس وبريطانيا، وأمريكا، وفي الجنوب الشرقي كل من ا ستراليا ونيوزيلندا، وفي الجنوب الغربي كل من الحبشة والإفريقيا وكيب تاؤن، مما يدل على أن مكة والحجاز مركز العالم ووسطه من الناحية الجغرافية، ويقع في محيطها جميع دول العالم صغيرها و كبيرها، وهذه سمة جغرافية واضحة على ثبوت الوسطية العالمية للحجاز ومكة.

أَوَ لَا يُشَكِّلُ كل هذا دليلا معقولا على أن الدين المركزي العالمي الذي كان رسالة عامة واحدة بحكم كونه آخر الأديان وجامعها هو أجدر بان تظهر مركزيته من حيث الموقع والمكان، ليعم نداؤه وآثاره العالم كله بشكل سويٍّ، ومن ثم اختار الله تعالى أرض مكة التي هي وسط العالم ومركزه، لتكون مولد خاتم النبيين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثها، ليبلغ صوت الإسلام ودعوته كل أنحاء العالم ودوله، ويمكن لإنسان مؤمن أن يجهر بتكبيره، ويرفع صوته قائلا: لبيك، متجهين إلى هذا المركز العالمي.

وعلى كل فالوسطية الثابتة لبيت الله، هي ثابتة لكل من مكة والحجاز بالدلائل الشرعية والجغرافية، وبما أن الكعبة المقدسة هي مصدر فيوض كثيرة فهي التي أكسبت الحجاز وصف الوسطية.

كون مكة والحجاز مرجع العالم وأسبابه الشرعية والواقعية:

إن من أهم خصائص بيت الله العتيق أنه مركز واحد عالمي للعبادة، حيث يرتبط به اثنان من العبادات الإسلامية المهمة، وهما الصلاة والحج، وإذا أعملنا التفكير فيه وفق

المبادئ المذكورة، وجدنا أنه يثبت لكل من مكة [البيئة القريبة] والحجاز [البيئة البعيدة] شأن البيت العتيق، أي كما أن بيت الله هو محور العبادات ومركز التعبدات المتنوعة، فكذلك تحيط مكة المكرمة والحجاز المقدس بكثير من العبادات والشرائع في إطارها المركزي العام، حيث صارت كل بقعة منها معبدا ومزارا للعباد والزهاد والأتقياء.

وإن نظرنا في الأمر بأم أعيننا وجدنا هذه الحقيقة واضحة جلية، وبذلك ترتجُّ أراضيها دائما بذكر الله، وتتحول أسواقها (وهي شر البقاع) إلى خير البقاع، فكأن الحجاز ومكة المكرمة مع كونهما في الدنيا يشبهان الأخرة، وترتفع هناك دائما نداءات التكبير والتهليل، ولا شك أنه تباع في أسواقها البضائع وما يحتاج إليه الإنسان في حياته اليومية أيضا، إلا أن تجارة الآخرة فهي تجري باستمرار وبلا انقطاع، وقوافل الحج والعمرة تتحرك دائما في جبالها وميادينها وأسواقها، وكأن الجو أيضا ينشد أغاني ذكر الله، ويردد صداه، فمكة المكرمة منسك للحج، لاحتوائها على الجانب الواسع من البيت الله إلى المسجد الحرام، ومن بئر زمزم إلى الصفا والمروة، وإلى أسواقها وعلى عدد لا يحصى من الحجاج والمعتمرين، لا يسمع فيها إلا أصوات التسبيح والتهليل والدعاء وذكر الله، وإذ خرجنا من مكة وجدنا كلا من منى والمزدلفة وعرفات، وكلها مناسك للحج، ولا يوجد فيها غير ذكر الله بأنواعه، ولا تُلمس إلا آثار التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد والتمجيد، ثم إذا تجاوزنا هذا الحد ظهرت لنا مواقيت الإحرام، التي تحيط بمكة من الجوانب الأربعة، ومن هنا تبتدئ أعمال الحج، وهنا يصلون ويذكرون الله ثم ينوون الإحرام للحج والعمرة، ولا تحس فيها إلا نداءات التهليل في جميع الطرق والشعب والميادين والصحاري، ثم كافة الجبال الخارجة من مكة نحو جبل أبي قبيس وجبل حراء، وجبل النور وجبل الثور مازالت مزارات، يتجولون هنا وهناك مسبحين ومهللين، كما يقفون مصلين، وإذا خرجنا من الحرم صادفنا أرض الحديبية ومكان شجرة الرضوان، وكلاهما من آثار البركة والهداية، ولا تجد هناك إلا

زُوارًا، ملأوا الأرض عبادةً وذكرًا، ثم المسافاتُ الطويلة الممتدة لأميال كثيرة، والمنازلُ الواقعة في الطرق إلى الحرمين، التي مرَّ بها سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام والتابعون والصالحون من بعدهم، ليست هذه المسافات وما فيها من منازل إلا محطات مباركة، تنفق فيها سوق النوافل والذكر، ولا يُسمع هناك غير أصوات التسبيح والتهليل، فالناس ينزلون هناك صادرين عن اتباع السنة، ولا يجاوزها الناس إلا وألسنتهم رطبة بذكر الله، وليس هذا شأن هذه المنازل؛ بل أرض الحجاز كلها بما فيها من صحاري ومناطق جبلية فهي مرجع العبادة ومثواها.

فميدان عرفات مليء بذكر الله، والمشعر الحرام بمزدلفة يرتجُّ بقيام الليل وصلاته، ومنطقة منى معمورةٌ بالركوع والسجود وتلاوة القرآن وذكر الله والأضاحي، وتمطر على الحجاج والمعتمرين دائما شآبيب الأنوار والبركات؛ وذلك لانشغالهم الكلي بالطاعات والعبادات، وليس هذا شأن أرض الحجاز فحسب؛ بل الزائرون والمعتمرون إذا نزلوا ببحر العرب البعيد عن مكة، وحطوا في ميناء جدة، عُمرت مدينة جدة بالذاكرين والصالحين، وكانت طرقاتها سعيدة بأنواع التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد، فلا يهم هؤلاء إلا الذكر والعبادة.

ثم إذا لفتنا أنظارنا بعد مكة إلى أرض المدينة، وجدنا هذه المدينة المباركة أطيب مكان وأسعد بيئة للذكر والزيارة والعبادة، وأكثر مدن الدنيا نورا وبركة بعد بلدة مكة، يقع فيها المسجد النبوي، الذي هو نور على نور، وسرور فوق سرور، وبكونه مضجع الرسول عليه الصلاة والسلام أصبح موردا للأنوار والبركات الدائمة، ومكانا عظيما للعبادة، ففناؤه مرتج بالذكر والتلاوة، وأفقه مدوٍّ بأصوات التكبير، وكيف لا؟ فصلاة واحدة في المسجد النبوي تعدل خمسة وعشرين ألف صلاة، ومرة واحدة من ذكر الله تساوي خمسة وعشرين ألف مرة من ذكر الله، وأربعون صلاة فيه متواصلا تضمن المغفرة والرحمة كما نص به الحديث النبوي الشريف، أما قبر الرسول عليه الصلاة والسلام فهو

مكان رفيع القدر، عظيم الشأن، زيارته سبب الشفاعة، ووسيلة الهداية، وذريعة الخير والنور والبركة، والانتفاع به في الحدود الشرعية عبادة بذاتها، ومن ثم يزدحم هذا المكان كل وقت؛ فلا تجد وقتا في الصباح والمساء، قد خلا من الزائرين الذين يصلون على النبي ويسلمونه تسليما.

وفي نفس المكان تقع روضة الجنة الواقعة من بين القبر المبارك والمنبر النبوي الشريف، فدخولها يعنى دخول الجنة في الواقع، ووسيلة قوية لابتغاء رضوان الله، فتجدها عامرة بالذاكرين والمتهجدين والمصلين، أما مواضع بدر وأحد فهي أيضا مما يدعو إلى التفكير في قدرة الله، وسنته في الخلق والكون، فيتجمع الذاكرون هناك، ويستفيد منها أشياء روحانية وإيمانية كثيرة، وجميع المناطق التي تحيط بالمدينة المنورة من الجبال والصحاري والميادين والعمارات والمباني والآثار الإسلامية والمشاهد التاريخية ليست مهبط قلوب المسلمين الزوار، ومرجع نفوسهم التائقة إلى مشاهدة الآثار الإسلامية، فكل بقعة في المدينة المنورة هي مكان للعبادة، مسجد قباء ومسجد القبلتين والمساجد الخمسة وجبال المدينة نحو جبل أحد وجبل ثبير وما إليها من الآثار كلها مليئة بآثار النبوة، وسعيدة بالحب النبوي، ومغمورة بأذكار الزائرين، وآبار المدينة السبع أيضا ظلت مزارا، وأمكنة للأذكار، فهي تروي النفس والروح معا، حتى تراب المدينة كان تراب شفاء، يستعمله المحبون بنية الشفاء، ويشفيهم الله تعالى بإذنه، ولا شك أن كل هذا صادر عن الحب المتناهي للرسول عليه الصلاة والسلام، فهي عبادة.

فكل ذرة مدنية مكان طيب للعبادة، تكثر هناك أنواع التسبيح والتهليل والصلاة والسلام، وأسواق المدينة تتجاوب فيها أصوات الأذكار والصلوات، ثم المسافات الواقعة بين مكة والمدينة المكرمتين وما فيها من منازل ومحطات قد شرُفت بخطى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الغر الميامين، فهي شاهدة على هذا، وأمين

الآثار النبوية، ولاحتوائها على كل هذه الأنوار والبركات أصبحت أمكنة للعبادة والأذكار، والمسافرون الذي يمرون بهذه الأماكن تشتقل قلوبهم دائما بالذكر والتلاوة.

فالمواطنون أو المقيمون الأجانب أو الحاضرون في المواسم كل هؤلاء يمكثون في هذه الأماكن وما يجدونه من الفرص والمناسبات، وينقطعون إلى ذكر الله، وتلاوة القرآن الكريم والصلوات والنوافل وأنواع القربات، حتى صحاري الحجاز تدوي فيها أصوات الذكر والطاعة.

وهكذا شأن المدن الحجازية الأخرى، فهي كلها موارد للخير و البركة، وأمكنة طاهرة للعبادة والقربات، فمدينة الطائف التي هي مرقد ومضجع كثير من الصحابة الأجلاء وموضع تبليغ النبي صلى الله عليه ظلت عامرة بزحام الزوار والمعتمرين، الذين همُّهم الشاغل هو الذكر والصلاة والتلاوة، فكل خطة حجازية حللتها تجدها سعيدة بأسماء الله وتسبيحه وتحميده وذكره، واتباع سنة المصطفى المعصوم، ونور المعرفة وعطر إطاعة الله ورسوله.

أوَ بعد هذا كله بقي شك في أن أرض الحجاز كلها مركز العبادة ومرجع الخلائق مما يشاهده كل بصير، ويلمسه كل خبير، وكل ذلك بفيض الكعبة المقدسة، التي ملأت مكة ثم المواقيت ثم الحجاز كله نورا وبركة وقداسة وطهارة، وجعلها مراكز للعبادة ومراجع للخلائق.

وعلى كل فقامت دلائل كثيرة تثبت مرجعية هذه البقعة المباركة في العبادة، ولكن ما ذكرته آنفا هي مشاهدات وواقعات تفوق ألف دليل في إثبات مرجعية أرض الحجاز.

ثم هذه الحماسة الزائدة في العبادات والأذكار لا تختص بأيام الحج؛ بل أيام السنة كلها لا سيما في شهر رمضان مليئة هناك بأنواع الطاعات والعبادات، مما يجعل جو الحرمين الشريفين حارا سعيدا بذكر الله، وفيه أكبر دلالة على أن هذه الخطة مركز عالمي للطاعة والعبادة.

الحاصل أن أرض الحجاز صارت ذات قداسة كاملة بفيض الكعبة المقدسة وأنوارها الكاملة، ثم برزت مركزا طبيعيا لعبادة البشرية كلها، وهي في الحقيقة مركز عالمي منذ بدء الخلق، ومن ثم يرجع إليها جميع الأنبياء والرسل، منذ أدم عليه السلام إلى سيدنا ونبينا خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، وأتباعهم الصالحون، فهو ليس مركزا طبيعيا للإسلام وحده؛ بل لجميع الأديان السماوية وشرائع الأنبياء السابقين، فليس من المبالغة إذن أن نقول: إنها مركز للبشرية جمعاء؛ بل هو عين الإنصاف وتاريخ موثوق به، وعلى هذا فإن وصفناها بمركز عالمي للإسلام فليس هذا تأسيسًا جديدًا، بل هو إعلان لحقيقةٍ ثابتةٍ من قبل، توافق كلًّا من الطبع السليم والعقل المستقيم والدين القديم كحقيقة مسلمة لدى البشريه كلها.

مكة والحجاز مركز للأمن والسلام:

إن مبادئ علم الرياضيات قد أثبتت هذه الحقيقة المسلمة بأن الحركة الدورية هي الأصل في الدائرة، والسكون والقرار والثبات والتمكين هي الأصل في المركز، فإن كان المركز قد حاد عن مكانه قيد أنملة، أو تحرَّك ولو قليلا فلم تبق الدائرة متحركة، أو وقفت تماما أو تتحرك ولكن في غير وجهة سليمة، بل تتحرك في وجهة مضادة، فإن حركة المركز والحركة الخارجية الواردة على الدائرة تجعلها تختلف حركاتها ويتصادم دورانها، مما يسبب زوالها وفناءها، وفناء ما يجاورها من الدوائر الأخرى، ككرة عظيمة في وزن مئات الألوف من الأطنان إذا حادت عن مركزها، وتدحرجت يمنة ويسرة، فهي تقضي على كل شيء تمر به، وتؤول إلى أنها بدورها تسقط في الخاوية، فتذهب ويذهب معها الكثير من الدوائر والأشياء الأرضية، ثم تترك الأرض وعرة، غير معبدة، مما يفيد أن حياة الدائرة المتحركة مربوطة بالمركز، وإن انفصالها من المركز يجعلها فاقدة الحركة أو مضطربة الحركة، وهذا عين فناءها، ثم حياة المركز مكمونة في بقائها ساكنة في مكانها، فإن ترك مكانه يعنى فناءا عاجلا.

فبقاء المركز في مكانه ساكنا وارتباط الدوائر المتحركة به بشكل معتدل مما يضمن لهذا النظام الدوري الحياة والتقدم، وإلا فلا، وعلى هذا فإذا كانت الكعبة المقدسة مركزا للعالم، والكون كله يدور حوله كرحي القطب، فوجب كونها مركزا ساكنا بشكل طبيعي، فإنها إن تركت مكانها أو حادت عنه قيد شعرة لم يبق لها حياة دورية، وإن بقيت فهو بقاء قليل، سرعان ما يعود إلى الزوال والفناء، فالفطرة تقتضي أن تبقى الكعبة المقدسة على مكانها بكل سكينة وبكل وقار.

والمشاهدات الحسية أيضا من البداية إلى النهاية تؤيد هذه الحقيقة؛ حيث قد نشأت ألوف من المراكز، ثم خربت، عُمرت ثم فنيت، ولم تبق على مواضعها؛ حتى لم يبق لمواضعها أثر ولا خبر، فقد شهد التاريخ البشري ألوفا من مثل هذه المراكز، التي إذا ذهبت لا يدرى لها أي خبر، ولا أدنى أمارة على وجودها. كما قال الشاعر الفارسي: كل مبنى يظهر بشكل بهي، فمصيره إلى الزوال والفناء.

ولكن الكعبة المقدسة مازالت باقية على موضعها الذي وضعها الله تعالى فيه، فهي مازالت وسط العالم، ثابتة راسية كقطب الطاحونة ووتدها، الذي مازالت معلومة مسافتها وحجمها بالأنامل والأشبار، بل معلومة مسافاتُ ماحولها من المناخ والمناطق، كما ذكرت من قبل أن الشيخ الشاه عبد العزيز رحمه الله قد أخذ بالشبر مقاسَ الحرم المكي والمواقيت من مقياس بيت الله، فبيت الله ليس ثابتا في محلة فحسب؛ بل كل ما جاوره وأحاط به من المناطق والدوائر مازال ثابت المكان، سريع الحركة بفضل البيت المقدس، ثم السطور السابقة أوضحت أن الآفات والبليات والاضطرابات تتعلق بالحركة دون الأمن، فكل مكان هو مركز للسكون، فهو مركز للأمن، ولما كانت الكعبة المقدسة مركزا للعالم، كما أثبتت مبادئ علم الرياضيات، فكونها مركزا عالميا للأمن والسكينة، ومحور الطمآنينة والسكينة مما يقتضي الفطرة، فإنها إذا فقدت الأمن، أو لم يمكن الاستفادة منه،

فلا يوجد في العالم ما يسمى بالأمن والسلام، فليس من الصعب إذن إدراك أن المركز إذا كان ساكنا محضا وبعيدا عن حركة الدائرة، بحكم أن حياته في السكون والثبات فكل دائرة هي أقرب إلى المركز وأشد اتصالا به قلت حركتها وخفت سرعتها، حتى أن الدائرة التي تلاصق المركز، كانت حركتها في خفاء، يبدو أن الدائرة أيضا ساكنة مثل المركز.

والظاهر أن المناطق المجاورة لبيت الله العتيق نحو بلدة مكة والحجاز إذا كسبت من الكعبة المقدسة مميزاتها الفطرية وصفاتها الفطرية المتمثلة في الأولية والوسطية والمرجعية والأصالة، وهي دوائر قريبة للبيت كما ثبت، فكيف يمكن أن تُحرم هذه المناطق صفة الأمن والسكون، التي هي صفة لازمة للبيت، سواء كانت المناطق قريبة أو بعيدة، وإذا كانت المناطق قريبة يشاهد الإنسان أمنها وسكينتها بعينيه، وإذا بعدت يدركه الإنسان بعقله وبصيرته، وإن كانت الأبصار لا تدركه، فالفطرة تؤيد هذه الدعوى بأن الجو القريب إلى الكعبة والبعيد كل منهما مركز للأمن والسلام حسب تفاوت في الدرجات والمراتب، وأمنهما مأخوذ من الكعبة المقدسة.

وقد ادعى الإسلام حسب الفطرة الكونية أن مكة والحرم والحجاز كلها مراكز للأمن كالكعبة المقدسة، وسببها الرئيس من منظور شرعي أن العبادة –وهي هدف أصيل لخلق الإنس والجن– تقتضي بطبعها السكينة والوقار، فإن الفساد والاضطراب –وهما ضد الأمن– يخلان بالعبادة ويشوشان أمر المصلين، ويغرسان في قلوبهم جراثيم القلق والشرود الذهني، والانتشار الفكري، مما يضعف صلة العبد بمعبوده، ويقضي على تيار حقيقي في العبادة، ومن ثم أقام الإحكام في العبادة على أساس دفع الفتنة، حيث قال تعالى في سياق الغرض من الجهاد والقتال في سبيل الله: **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِله فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ** (سورة البقرة: ١٩٣).

ومن ثم اعتبر الحديث النبوي فساد ذات البين والاضطرابات الداخلية شيئا حالقا للدين، والظاهر أن مكة والحجاز -وهما مركزان للعبادة- إذا عادت قاعدة الفتن والاضطرابات والقلاقل وصراعات التفاوت الطبقي ونزاعات التصادم المذهبي خاف الناس وأمم العالم من الاتجاه نحوها، وكانت حكومات العالم تفرض الحظر على سكانها من رحلات الحج والعمرة والزيارة، وكانت حكومة الحجاز أيضا تفرض الحظر على الزوار الأجانب مما يسبب عدم إمكانية أداء الصلاة ومناسك الحج والعمرة، بل كان من المستحيل وقوع الحج في كل عام، مما يفسد نظام حضور بيت الله العتيق، وأداء العبادات هناك، وكان يَفسُد الوعد الرباني لإبراهيم عليه السلام عندما قال: **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (*) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ الله فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ** (سورة الحج: ٢٧-٢٨)، كما كان يبطل قول الله تعالى: هدى للعالمين، ويبطل كذلك كون مكة مولد الرسول والمدينة مهجره، فإن الهجرة ترمي إلى الحفاظ على الدين، والتمركز في مكان مأمون، فلوكانت المدينة مهجرا لا مأمنا، لبطل أساس الهجرة، وتعطلت سائر حكمها ومصالحها، مما يخل بالنظام الديني كله.

فإن مكة أو الحجاز التي جعلها الله مركزا عالميا للأمن والسلام لو كانت مركزا للفساد والدمار، لكان تأثيرها عالميا بحكم مركزيتها، وسرى فسادها في جميع العالم الإسلامي، فمركزيتها تقتضي طبعا أن تكون مركزا للأمن والسلام، كما أن السكون هو أهم خصائص مركز الدائرة، والسكون هو الأمن، وهما شرط أول للعبادة، لينقطع العبد عن الاضطرابات الداخلية والخارجية وفتن الدنيا وأعبائها الثقيلة إلى عبادة ربه خاشعا خاضعا، لا يشغل باله هم ولا اضطراب، ومن هنا قال الله تعالى في الصلاة: **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (*) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** (سورة البقرة: ٤٥-٤٦) والخشوع هو سكينة القلب، والأمن الباطني، فكأن العبادة لا

توجد بدون الأمن والسكون، فالشرع يشترط للعبادة أن تؤدى في حالة الأمن والسكون وأن يكون محل العبادة آمنا مطمئنا.

وإذا كانت مكة المكرمة معبدا مركزيا؛ حيث هي ظرف الكعبة المقدسة، فكان من مقتضيات البيت الكريم أن يكون آمنا، ويكون أمنه عالميا، فكما أن مبادئ علم الرياضيات توجب سكون مركز الدائرة كذلك جاءت الشريعة لتفيد أن مكة المكرمة هي مركز للأمن والسكون، ومن ثم فإن إبراهيم عليه السلام باني الكعبة إذا دعا عند بناء البيت سأل الله تعالى أول كل شيء أمن هذه البلدة، حيث قال: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** (سورة البقرة: ١٢٦).

ولم يستجب الله تعالى هذه الدعاء فحسب؛ بل أقسم بهذا البلد الأمين، وقدمه مثالا حيا للأمن والسلام، مما يدل بكل وضوح على ما فيه من أمن ووئام، كما قال تعالى: **وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ** (سورة التين:٣).

والظاهر أن مكة إذا سميت بالبلد الأمين فمعناه أن الأمن مركوز في طبعها، وأنها إذا ذُكرت يتبادر الذهن والقلب إلى أمنها أولا، ويضطر كل إنسان أن يعتبر هذه البلدة والأمن شيئا واحدا، أو أمران متلازمان لا ينفكان.

ثم جاء الحديث النبوي ليؤكد بأسلوب أوضح على أمنها ويحرم جميع أعمال وممارسات الفساد والدمار، فقد روى ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا وَقَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا

وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ فَقَالَ الْعَبَّاسُ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ قَالَ إِلَّا الْإِذْخِرَ(1).

مما يوضح أن هذا البلد الأمين لا يأتيه أمنه بوضع بشري؛ بل بوضع رباني، يحرِّم القتل والقتال والنزاع والجدال، ثم أُودِعتْ هذا الوصف منذ الأزل، منذ أن وضعه الله، كما جاء في الحديث الشريف: يوم خلق السماوات والأرض، ثم يبقى هذا الوصف إلى الأبد كما أشار إليه الحديث الكريم بقوله: إلى يوم القيامة.

وحديث أبي شريح رضي الله عنه الذي ورد فيه لفظ حرَّمها الله يفيد أن الله تعالى يتولى تحريم هذه البلدة من الأزل إلى الأبد دون البشر، فلا يجوز أبدا نوع من أنواع القتل والقتال والفساد والدمار، والاضطراب الحربي، حتى أن الحديث النبوي يحرم رفع السلاح في البلاد الآمنة، فوضعه لم يكن للإفساد والإثارة، بل للأمن والسلام، وقد أودع الأمن في هذا البلد من الأزل إلى الأبد.

ثم الأمن هو الذي ذكره القرآن أمارة للتعريف بالكعبة، فقال تعالى: وجعلنا البيت مثابة للناس وأمنا، ثم بهذا الوصف وصف ما حوله من المناطق، فقال تعالى: **أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (سورة القصص:٥٧).

ونظرا لأهمية البلد الأمين كان العربُ عشاقُ الحرب والنضال يتحاشون النزاع داخل الحرم، ثم لم ينحصر أمن الحرم في الإنسان والحيوان؛ بل تعدى إلى كل ورق وشجرة فيه، فإن الحديث السابق الذي أخرجه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه جاء فيه: " لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا وَلَا

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، باب الطيب للجمعة، رقم الحديث: ٣١٨٩.

يُخْتَلَى خَلَاهُ فَقَالَ الْعَبَّاسُ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ قَالَ إِلَّا الْإِذْخِرَ"[1].

والمعلوم أن الحرم الذي لا يجوز قطع شوكته ونباته، وكل شيء مأمون فيه فلا شك في كونه مركزا للأمن والسلام.

ثم بعد هذا كله كيف يمكن أن لا يتعدى أمنه إلى البلاد كلها؟ فقد تعدى إلى الدولة كلها، وجعل الله تعالى أرض الحجاز كلها آمنة، كما أشار إليه الحديث النبوي، حيث جاء في حديث أخرجه الإمام مسلم عن عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: "غلظ القلوب والجفاء في المشرق والإيمان في أهل الحجاز"[2].

ووجه الاستدلال أن مادة الإيمان هو الأمن، وأثره الطبيعي هو السلم والسلامة والسكينة القلبية، وهذه هي السلامة القلبية، والسكينة في الاصطلاح الشرعي، فثبت أن أرض الحجاز هي خطة الإيمان ومركز للأمن والسلام، وكل ذلك بفضل بيت الله العتيق، الذي وهب لجوه القريب والبعيد معاني الأمن والسكينة، فصارت آمنة مطمئنة.

ومن هنا مادام العرب لم يعرفوا حقيقتهم وجوهرهم الذي ينشأ من العلم والخبرة كانوا منشغلين بالحرب والنضال والقتل والقتال، ولكن إذا جاء الإسلام وعرفوا بفضله حقيقتهم، وعرفت قلوبهم معاني الأمن، وعلموا أنهم أمناء هذا البلد الأمين الذي هو مركز للأمن والعبادة، ظهر جوهرهم الأصيل، مما جعل الحجاز مهبط الأمن وبلدا أمينا مثاليا، ثم علَّم الدنيا كلها الأمن والسلام، وقد امتن الله على العرب بهذا، حيث كانوا متحاربين، واقتربوا من شفا حفرة من نار جهنم، وكادوا ينهارون فيها

---

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، باب الطيب للجمعة، رقم الحديث: ٣١٨٩.

(٢) الإمام مسلم، **صحيح مسلم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)ج١، ص٧٣، رقم الحديث: ٥٣.

فأنقذهم الله منها بفضله وكرمه، وبعث فيهم رسولا من أنفسهم، وآتاهم حبلا متينا متمثلا في القرآن الكريم، وأقام بينهم ألفة ومودة، فكانوا إخوة متحابين في الله، كما قال الله تعالى في القرآن: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا **وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** (سورة آل عمران: ١٠٣).

والظاهر أن العداوة مصدر الاضطراب والفوضى، والألفة والمودة سبب للأمن والسكون، فقوله تعالى: "إذ كنتم أعداء" يشير إلى الاضطراب السابق، بينما جاء قوله تعالى: "فألف بين قلوبكم" لينص بما جاء به الإسلام من أمن وألفة وسلام.

وعلى كل فإن سكان الحجاز يحبون الأمن والسلامة بحكم الفطرة، مما يثبت أن بلاد الحجاز مصدر الأمن والسلام، ويوضح أن الله تعالى اختار هذه القلوب من الأزل للأمن والسلام، وأودعها بذور الأمن والتعايش السلمي، ولكن الجميع يعلمون أن التعايش السلمي والألفة المشتركة جوهر في طبيعة الإنسان، ينشأ من الأفعال الاختيارية، وهو يحتاج إلى التعليم والتربية، فوضع الله في قلوبهم عن طريق النبوة نور العلم والصلاح، فظهر جوهرهم الأصيل المحب للإنسانية والأمن والسلام، كما ظهرت فطرة حجازية بأبهى صورها، كما أشار إليه الحديث المذكور أعلاه.

وهذا ما يوصلنا بشكل طبيعي إلى أن من دخل هذا البلد الأمين فهو آمن، كما قال الله تعالى: **وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** (سورة آل عمران: ٩٧).

وهذا الأمن لا يعني أنه محفوظ من حبائل النفس والشيطان وعذاب جهنم، وهذا أمن أخروي، بل هو يستفيد من بركات الأمن في الحياة الدنيا، حتى إن القاتل إذا دخل الحرم بعد جريمة القتل كان آمنا من القتل، إلا أن يجوز إجراء محاولات لإخراجه من

الحرم، ثم يجري عليه قصاص، لكن كره الإسلام أن يجري هذا القصاص الواجب في إطار الحرم، وبذلك وقاه شائبة من شوائب الاضطراب وعدم الأمن.

ولاتزال هذه الأمة المحمدية العظيمة بخير، ما دامت متمسكة بحرمة البلد الأمين وأمنه، حيث جاء في رواية عياش بن ربيعة المخزومي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لاتزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها، فإذا ضيعوا ذلك هلكوا[1].

الحفاظ على أمن مكة والحجاز بشكل معجز:

والظاهر أن أمن هذا المركز العالمي كان عالميا، بل يتوقف على أمنه أمن العالم، (كما مر سابقا)، كان من الضروري أن تجري محاولات في الحفاظ على أمنه، مما يضمن له البقاء والوجود، ومن أجل ذلك فقد أجرى الله تعالى على لسان نبيه توجيهات عديدة، ترمي إلى صيانته والحفاظ عليه، ليحاول سكانه والمتوافدون إليه من كل فج عميق الحفاظ على أمنه باختيار من عندهم، ولا يمارسوا أعمال الفساد والاضطراب والفوضى، مما يخل بالأمن والسلام.

فمن أول التوجيهات الرامية إلى حفظ أمنه أن لا يدخل أحد بلا إحرام في حدود الحرم، بل يجب عليه أن يحرم من الميقات، ويترك جميع أسباب الزينة والرفاهية، ويدخل في هيئة متسول، وأسلوب وامق هائم، حافيا، حاسرا، لابسا غير مخيط، بل يلبس لباسا هو أشبه بالكفن، سواء كان من سكان مكة أم آفاقيا، ملكا كان أم مملوكا، فإن هذا يهدف مع مراعاة عظمة الحرم إلى دفع الفوضى والاضطراب، والسبب أن أسباب الزينة والتجمل والتنعم والرفاهية في غالب الأحوال تؤدي إلى كثير من النزاع والصدام، ومن المشاهَد أن اللباس وتقاطيعه الجميلة مما يبعث في النفوس عواطف

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم الحديث: ١٩٠٤٩.

البطر والمرح والعجب والفخر والمباهاة، وطبيعة المنافسة والمخاصمة والكبر والعتو، فتكثر إمكانية الجدال والقتال، ويضيع الأمن والفساد والدمار، فصدر من الشارع الحكيم أولا حكم الإحرام من الميقات، ليكون حدا من منشأ النزاع والقتال والممارسات الاستفزازية، ثم يتجمع في أيام الحج ملايينُ من البشر من مختلف أنحاء العالم، وهم مختلفون في الطبائع والأمزجة، وهم أطياف وجماعات وانتماءات، منهم عرب وعجم وشرقيون وغربيون، وهم مع وحدة البذلة والكسوة ووحدة الغرض والمصير كان من الإمكان بكثير أن يحدث فيهم نزاع بسبب تافه حسب المقتضيات البشرية، فجاء نص صريح في هذه المناسبة، يحرم كل أنواع الفسوق والفجور والجدال، كما قال تعالى: **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ** (سورة البقرة: ١٩٧).

وقد أوضح النص القرآني هذا أن هذا الاجتماع الكائن في البلد الأمين هو أيضا آمن كامل السلام، فزمانه أيضا آمن مقدس، ومن هنا سميت هذه الشهور بالأشهر الحرم، ومكانه أيضا مقدس مأمون، فسمي البلد بالأمين، ولذا اختير له لباس بعيد عن الاضطراب والفوضى، وهو مايسمى بالإحرام، فلاتمارسوا هنا من الأعمال ما يخل بالأمن، ويسبب الفساد.

والحكم الثاني من أحكام الحفاظ على أمن الحرم المكي أن الله تعالى حرَّم في حدود الحرم كل نوع من أنواع القتل والقتال، كما سبق الحديث النبوي في هذا المعنى، وفيه: "وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"[1].

---

(١) تقدم تخريجه.

وبعد هذا الحل ساعة من نهار لم يمارس النبي صلى الله عليه وسلم عملية القتل والقتال في حدود الحرم، ودخل مكة فاتحا بكل أمن وسلام وسكينة ووقار، وفتح مكة بلا حرب ومشاغبة.

ثم لم يأذن الشرع الإسلامي بأن يدخل أحد حدود الحرم مدججا بالسلاح، كراهة أن يثير الضغائن ويحدث ما لا يحمد عقباه.

ومن هنا لم يؤذن بالقصاص من قاتل في الحرم، إلى أن يَخرُج من الحرم، أو يُخرَج، مع أن هذا حد شرعي، يجب بلا استثناء، مما يوضح أن هذا البيت الآمن يعطي المجرمين كل الأمن والسلام ماداموا فيه.

ثم نهى الشارع الحكيم عن قتل الصيد في الحرم، مما يوضح أن الحيوانات أيضا آمنة في الحرم، إلا أن يكون منها ما يقتل الإنسانَ أو يؤذيه، كالحية والعقرب.

بل صدر نهي صريح عن قطع النبات والأشجار والأشواك في الحرم، إلا الإذخر (وهو علف الدابة)، ومعنى هذا أن الحرم مكان مأمون حتى للنبات والأشجار والأشواك.

ثم لم يؤذن رفع اللقطة في الحرم، ووضعها في غير موضعها، حتى لا يقلق صاحبها، فاضطراب القلب نوع من الخلل في الأمن، أو ربما يثير هذا سوء الظن لدى صاحبه، فيسبب النزاع والخلاف، ويظهر اللاأمن والفوضى، فهو فوضى باطنية من قبل الفريقين، وهو سبب للفوضى الظاهرية، مما يؤدي إلى أن هذه الخطة بزمانها ومكانها وأعيانها وأشخاصها وهيئاتها وأحوالها حتى قلوب أهلها متمتعة بالأمن والأمان والهدوء والسلام، وهي كفيلة بحفظه، كما تقتضيه طبيعة المركز العالمي للأمن.

وعلى كل فإنه بالنسبة إلى الأعمال والأفعال الاختيارية فقد أصدر الله الحكيم أوامر، تكلف العبد المؤمن بالتزام الأمن في الحرم في كل حال.

الأسباب الفطرية والغيبية للأمن والسلام:

ومن الممكن أن ينشأ هنا سؤال، وهو أنه قد سلمنا أن الكعبة المقدسة ومكة المكرم والحرم والحجاز هي مراكز للأمن والسلام، وأن الطبيعة الفطرية لخصائص هذا المركز للأمن تقتضي سنَّ قوانينَ تَحْفظُ الأمن في هذه الديار، وأن هذه القوانين الشرعية كفيلة بحفظ الامن في هذه المنطقة؛ ولكن من الممكن أيضا أن تنهض طائفة بشرية ماردة معجبة بقوتها وسلطتها، فلاتراعي هذه القوانينَ، وتفسد الأمن، وتهلك الحرث والنسل، كما نشاهد كثيرًا من الناس يتركون الشرائع الإسلامية لكسلهم أو شهوتهم، فيسببون النزاع والجدال، ويخلون بالأمن والسلام، والأعداءُ يستغلون هذه الفرصة، ويستولون على البلاد، ويبدلون من أمنها خوفا، كما يشهد به تاريخ الأمم والبلاد قديما وحديثا، فإن كان الأمر كذلك وبقيت هذه الخطة معرضة للخطر، فكيف تبقى مركزا للأمن والسلام، مما تدعيه نصوص الكتاب والسنة؟

والجواب أن الشارع الحكيم كما سنَّ قوانين شرعية، تتكفل بحفظ أمن هذه المنطقة المباركة، مما تم إيضاحه في السطور السابقة، كذلك وضع أسبابا غيبية، ووسائل فطرية، تعمل في حفظ أمنها، ولا يبقى أمنها مدينا للإنسان فحسب؛ بل يرافقه الحفظ الرباني مباشرة.

وتفصيله أن هناك سببين رئيسين وراء ما يحدث في الدنيا من حوادث الاستيلاء والاحتلال وإثارة القلق والفوضى، أولهما: الحرص الجامح على المال والمنصب، وأسباب التنعم والزينة، وثانيهما: التعصب المذهبي والعداء بين الفريقين.

والمعنى أن السبب الأول أن تكون منطقة من المناطق كثيرة الخصوبة، شديدة النمو، غزيرة الإنتاج، وتكثر فيها وسائل اقتصادية، مما يسبب عاطفة المنافسة بين سكانها، فظلوا يتشاجرون بينهم ليل نهار، ومن جانب آخر يطمع فيها سلاطين الدنيا وأرباب

السلطة، وينظرون إليها نظرة حرص وطمع، ويدبرون للاستيلاء عليها، ثم يقدمون فيغيرون عليها إغارة شعواء.

والسبب الثاني هو التعصب المذهبي، حيث يُفْسد المتعصبون جوَّ الأمن والسلام، وبيئة الحب والوئام، فينشأ طائفة متعصبة، وتفكر في الاستيلاء على هذا المركز العالمي، لتجعله قاعدة لنشر أفكارها واتجاهاتها، ثم إذا سنحت لها فرصة مناسبة، جهَّزت الجيوش، وتواطأت مع الأعداء، وأغارت عليه إغارةً إباديةً، تذهب بأمنه وصلاحه وهدوءه وسلامه.

أما بالنسبة للبقعة المباركة من أرض الحجاز، فلم يجعلها الله مكانا ممتازا من هذه النواحي، حتى يحدث من الأمور ما يخل بأمنها وسلامتها، حيث لا يوجد هناك مراعٍ، ولاهضاب مخضلَّة، ولا مزارع، ولا أشجار، ولا خضراوات خلابة، ولا صحارٍ خضراء، ولا حقول مهتزَّة، ولا بساتين مطربة، ولا أنهار ملتوية، ولا بحار مائجة، ولا شلالات متدفقة، ولا تُرَّعات متقلصة، ولا منتزهات رسمية، ولا حدائق أهلية، ولا قصور تجارية، ولا أسواق عالمية، ولا مصانع حديثة، ولا آلات وماكينات منتجة، ولا تضخم النقود ولا مصارف ربوية للاستثمار، ولا أمكنة للقمار، ولا قلاع ملكية، ولا إقطاعات الأمراء، ولا ميادين خضراء، ولا مدن خلابة، ولا معارض للأثاث وتشكيلاته، ولا منشآت للتسهيلات الحديثة، فالحاصل أنه لايوجد هناك شيء من أسباب التنعم والرفاهية وأسباب النزاع والجدال، ولم تكن هذه البقعة المباركة صالحة لهذه الأمور.

وقد أبدع الشاعر الأردي الكبير العلامة ألطاف حسين حالي في قصيدته الشهيرة المعروفة بـ "المسدس"، عند ما صوَّر أرض الحجاز والأمة العربية تصويرا رائعا دقيقا، حيث قال:

الجزيرة العربية التي نالت شهرة واسعة فيما بعد، لم تكن إلا جزيرة منعزلة عن العالم كله.

وكانت رقعتها بعيدة عن الكون، فلا هناك ملك ولا دولة وما بسطت المدنية ظلالها عليها بعد، ولا وطئتها أقدام الرقي والازدهار ولم يكن في جوها وهواءها ما يخلق جوهرا غاليا. ولم تملك من أسباب الزينة والعيش ما يسري عن النفس ويقر العين ويثلج القلب فهي صحراء قاحلة، لا خضرة ولا ماء، وكانت الحياة قائمة على ماء السماء فالأرض حجرية، والهواء بركاني، ولفحات من سموم، وهزات من الريح العاصفة.

وإنما هي جبال وتلال، وهضاب وخراب ومجموعة من النخيل وأشواك فاتكة فلا حبوب في المزارع، ولامزرعة في الصحاري، فهذه هي الجزيرة العربية وهذه هي أسباب معيشتها.

فلا يسطع نور مصر، ولا يظهر لمعان من علم اليونان وخبرها والناس قائمون على سذاجتهم الفطرية، وأرض الله تعالى هي فراشهم ومهادهم. وهم يقطنون الجبال والصحاري، ويفترشون الغبراء تحت أديم السماء[1].

وقد بين الله سبحانه كل هذا بكلمتين في القرآن الكريم: حيث نقل سبحانه دعاء إبراهيم عليه السلام عند ما أسكن أهله وذريته بمكة، فقال: **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** (سورة إبراهيم: ٣٧).

والظاهر أن هذه البقعة المباركة لما لم يتم وضعها من الناحية الجغرافية بحيث تتوفر فيها أسباب العيش والنعمة، بل ولا أسباب البقاء والنمو، وكل هذه الأمور قائمة على قلوب الآخرين وميلانهم نحو هذه البلدة الطيبة، كما أشار إليه قول الله تعالى: "تهوي إليهم".

---

(١) حالي، ألطاف حسين، **مسدس حالي**.

فلم يبق في داخل الدولة ما يلفت نظر الآخرين، ويبهرهم، فكيف يطمع فيها عشاق الدنيا وطلاب المال والمنصب، وكيف تحْدُث مساعٍ سلبية، ومنافسات أثيمة فيما يتعلق بهذه البقعة المباركة، مما يخل بأمنها، ويذهب بسلامها، فإن كان في الدنيا ما يجدر بأن يكون مركزا للأمن والسلام فهو هذه الخطة المباركة، وذلك لما فيها من خصائص وسمات مركزية كثيرة.

أجل! لو كان الحجاز دولة خصبة، تتوفر فيها أسباب العيش والتنعم، ووسائل اللذة والطرب، وطرق الاقتصاد وإمكانية الرقي والتطور ومعادن الذهب والفضة، لكان أهلها وسكانها غارقين في الملذات، ومولعين بالشهوات، ولم يكن منهم من يهتم بشؤون الحرمين، ويحاول توفير الأمن والراحة للزوار والمعتمرين، وكانوا أعداء متحاربين فيما بينهم، وكان الأجانب أيضا يطمعون في الاستيلاء على الدولة، ويستغلون حروبهم الداخلية، وكان أمنهم معرضا للخطر دائما، ومن هنا جعل الله تعالى هذه الخطة منعزلة عن العالم كله، فاقدة الوسائل والأسباب، كما جعل سكانها جفاة، سُذَّجًا، نشطاء، ذوي القلوب الصافية، حتى لا يثيروا اضطرابا، ولا يُخِلُّوْا بالأمن، وكون أرض الحجاز صحراء قاحلة يقيها إغارات الأعداء الخارجين، ونظرات طامعة للأمراء والحكام، فإن الإغارات الخارجية والحملات الأجنبية مما يسبب خللا في الأمن، واضطرابا في الهدوء والسكينة، فإنهم إن أرادوا الاستيلاء على هذه البلاد، لم يحصدوا منها غير الأحجار والرمال والرياح الشديدة، فأي عاقل يغامر بحياته ليكسب أتفه الأشياء، ويرجع بما لا طائل تحته؟ فإن أرضها الحجرية إذا كانت لا تنتج الحبوب والمحاصيل حتى تنشأ مواد أولية، وإذا كانت مناطقها الرملية لاتصلح للمصنوعات والمنتجات، حتى تجري أعمال الإيراد والاستيراد، وإن فرضنا وجود المعادن الأرضية، فلم تكن إمكانية استخراجها من الأرض، حتى تنشط عمليات الصنائع والبدائع من المحدثات، فما هي الدواعي التي تدعو الأمراء والملوك إلى شن الغارة على الحجاز الرملية المحترقة، وجعلها ميدانا للحرب والدمار، ثم لايرجعون

بعدها إلا بمحصول من الدماء والأشلاء، فلا يجسر عليه إلا حاكم وضيع، قليل المنزلة، طائش العقل، أما الحاكم البصير المدبر فهو لا يفكر في هذا الشأن فضلا عن العمل والتطبيق، فمن ذا الذي يرضيه أن يهجر دياره وراحته وتسهيلاته، ليقتحم بلادا حجرية رملية، لا تملك شيئا من المدنية وأسباب العيش والرفاهية، ويستبدل غناه بفقره، ومدنيته ببداوته.

بل دولة الحجاز هي التي تنظر إلى البلاد الأخرى لتزودها بأسباب العيش والحياة، والدول الأخرى تفرح بما تشاهد أن دولة الحجاز هي التي تستهلك منتجاتها وحبوبها، فتشتري منها ما ستحتاج إليه طول السنة، وبذلك تكسب مالا عظيما من أموال العرب، وتربح تجارتهم، وتثمر جهودهم الاستثمارية.

وكان من نتيجة هذا التدبير الرباني أن الدول الأخرى المحيطة بأرض الحجاز بدل أن تمارس عملا يخل بأمن دولة الحجاز، نهضت لتتنافس فيما بينها عقد المعاملة مع العرب، فتزيد من تجارتها وتكثر من وصلاتها الخارجية، كأن الحرب الباردة جارية فيما بينها، وهذه معجزة ربانية، حيث نقل الاضطراب من أرض الحجاز إلى الدول الأخرى.

وعلى كل فإن الله تعالى قد أحاط ببيته العتيق بشكل تكويني، لا يقدر عدو داخلي أو خارجي على الإخلال بأمنه وسلامه، فإنه إذا وجد في أرض الحجاز بعض الأشياء اللازمة للحياة أو الترفيه والاستجمام، فهي مستوردة من الخارج، فإن فرضت هذه الدول الحظر على تصديرها إلى الحجاز، لم يبق في الحجاز غير التمور وألبان النوق، مما يسد الجوع، ولا يقدم شيئا من أنواع الترفيه والتسلية.

الحد من التعصب المذهبي:

أما الاضطرابات الطائفية والنزاعات المذهبية التي قد تغري بالهجوم والحملات على المخالفين وتثير ظاهرة الفوضى والبلبلة، فإن الإسلام قد أقام حاجزا سميكا على هذا

أيضا، وجعل الحجاز دولة آمنة مطمئنة، وقضى على كل ما يفضي إلى النزاع والجدال، حيث قال رسول الله: صلى الله عليه وسلم: "لا يجتمع دينان في جزيرة العرب"(١).

هذا الحديث بمنزلة الخبر والأمر، فهو يكلف الأمة بأن يحاول أن لايبقى في الجزيرة العربة دينان في وقت واحد، وبعد فتح مكة قد ذهبت الوثنية وعبادة الأصنام، ودخل أهل مكة والعرب في الإسلام أفواجا، وأعلن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم"(٢).

فلم يبق في الحجاز دين الشرك والوثنية، ليجتمع مع دين الإسلام، ويسبب العداء والخصومة بين المشركين والمسلمين، ويجعل أمن هذه البقعة المباركة في خطر، ولكن لا مانع من تحريش ومواجهة كلامية، وذلك بحكم الفطرة الإنسانية، والبشر بشر، لا يخلو من شر؛ ولكن هذه المشادة الفردية لا تستطيع الإخلال بأمن الحجاز وسلامه.

ومثاله أن رجلا قوي الصحة، قوي المزاج قد يصيبه مرض لتغير الفصول أو الغذاء فهو لا يعد مريضا دائم المرض، أو كرجل تقي ارتكب معصية متأثرًا بالبيئة أو مدفوعًا بوفور الشهوة، ثم سرعان ما يستغفر ربه، فهو لا يعد عاصيا، ولا يُدرَج في قائمة المذنبين، ولاينافي هذا الذنبُ تقواه لكونه غير معصوم وتائبًا إلى الله، مالم يترسخ في قلبه عاطفة المعصية، ويحل الفسق والفجور محل التقوى والصلاح، أما النزاع الخفيف والمشادَّة الكلامية فليس هذا منافيًا للبيئة الآمنة العالمية، وإلا فلم يكن الإسلام ليشرع قوانين الحدود والقصاص والتعزيرات، من غير استثناء لأحد، حتى العرب، مما يفيد إمكانية المواجهات والعقوبات، التي وُضع عدد من الحدود الزاجرة للتغلب

---

(١) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ج١٤، ص١٦٦، رقم الحديث: ٣٨٢٥١.

(٢) الإمام مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: ٢٨١١٢.

عليها، فلولا عقاب المجرمين على الجرائم لانتشر الفساد بشكل كبير، وقد جنب الله سبحانه هذه البلدة كل نوع من أنواع الفساد، على أنه مع هذا أصدر ما يقضي بأن العقاب المستلزم لسفك الدم نحو القصاص والرجم لايجري مادام المجرم في الحرم، فيلجأ الأمر إلى أن يخرج بنفسه من الحرم أو يُخرَج بوسيلة من وسائل الذعر والرعب.

والحاصل أن الحديث المذكور أعلاه قد طهَّر الحجاز المقدس من الوثنية وما يتعلق بها من عبادة الأصنام وخرافات أخرى، لتعلو كلمة التوحيد، ويستقر فيه الأمن والسلام، والظاهر أنه بعد هذا لم يبق في الحجاز من الأديان الباطلة إلا اثنان: النصرانية واليهودية، ومن المعلوم أنه بعد القضاء على الوثنية في الحجاز إن كان الإسلام ترك هذين الدينين وشأنَهما أدى ذلك إلى انتشار التعصب المذهبي والاضطراب الطائفي، الذي من أجله تمَّ تطهير الحجاز من الوثنية والمشركين، فإن اليهود والنصارى لم يكونوا لتهدأ خواطرهم، وتسكن عواطفهم؛ بل كانوا يبذلون قصارى جهودهم في صد الناس عن الدعوة الإسلامية، وعرقلة المسير الإسلامي ووضع عقبات كؤود في طريق الانتصار الإسلامي، وذلك لما جبلوا عليه من مكر وخيانة، وخبث ودناءة، ومكيدة ومؤامرة كما يبدو بالنظر في تاريخهم وطبيعتهم منذ أول يومهم إلى يومنا هذا، فكانوا سببا قويا للفساد والاضطراب في أرض الحجاز، ومن ثم جاء حديث صريح، رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده أن عمر بن الخطاب سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، حَتَّى لَا أَدَعَ فِيهَا إِلَّا مُسْلِمًا"[1]، وفي رواية: لَئِنْ عِشْتُ لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، حَتَّى لَا أَتْرُكَ فِيهَا إِلَّا مُسْلِمًا[2].

---

(١) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، **مسند الإمام أحمد**، ج٢٣، ص٦١، رقم الحديث: ١٤٧١٦.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٣٤٣، رقم الحديث: ٢١٩.

وقد نفَّذ سيدنا عمر الفاروق هذا الأمر النبوي في أيام خلافته بشكل رسمي، وأجلى اليهود إلى ضواحي تيماء وأريحاء، الواقعتين في حدود الشام، وبذلك لم يبق في الحجاز غير الدين الإسلامي، حتى يسبب المنافسات الدينية والتوتر الطائفي، ويخل بأمن المركز العالمي.

وقد ينشأ هنا من الأوهام ما هو أبعد عن الواقع، وأغرب من الخيال، وهو أن التعصب الديني أو الوطني هو العامل الرئيس في إخراج اليهود من جزيرة العرب؛ مما يفيد أن المسلمين لايرضون بإقامة غير المسلمين في مجتمعاتهم، وهذا وهم وادعاء محض؛ فإن هذا الحكم مخصوص بالمركز العالمي للأمن والسلام، وسببه صيانة هذا المركز عن كل شيء يسبب خللا واضطرابا في أمنه وعبادته الخاشعة، وقد وضعه الله منذ أول يومه للأمن والعبادة، وقد وصفه الله منذ خلقه بالحرم الآمن، فجاء هذا الحكم إبقاءً على خصائص هذا المركز لا تمشيا مع التعصب الديني والوطني، فإن الإسلام إذا أراد هذا التفريق بين المسلم والكافر، واختاره كمبدإ شرعي، لم يوجد في الإسلام أحكام الجزية وأهل الذمة، مع أن الإسلام قد أقر غير المسلمين في البلاد الإسلامية بحرية تامة، وقرر لهم من الحقوق ما قرر للمسلمين، واعتبرهم إخوانا للمسلمين بحكم الآصرة الإنسانية، ولم يتدخل في ما يخصهم من أمور الدين والاجتماع والاقتصاد والمدنية، حتى أنهم أباح لهم من المحرمات الشرعية ما هو حلال لهم في دياناتهم كالقمار والخمر، ثم إن كان هذا الأمر: أمر إخراج اليهود من الجزيرة العربية مبدأ عاما، لم يبق فيها واحد من اليهود والنصارى، فهذا الإخراج لم يكن قائما على أساس التعصب والانحياز والانفراد القومي؛ بل أساسه هو حفظ الحرم الآمن العالمي، الذي وصفه الله شرعا وتكوينا بـ "هدى للعالمين"، و"قياما للناس"، مما يعطيه كيانا مركزيا مستقلا في العالم، فهو مركز للهداية والعبادة والأمن والسلام، فإن اختل أمن المركز العالمي كان فساده واضطرابه يعود أيضا عالميا.

ففي هذه الصورة إن كان الإسلام رضي بإقامة غير المسلمين من اليهود والنصارى والمشركين نشأت هناك أنواع كريهة من التعصب الديني والاضطراب الطائفي، كما يحدث في الدول الأخرى، فهذا التعصب والاضطراب لا يدعان الجو الحجازي هادئا مطمئنا، فتصير عباداته ومناسكه مجموعة من الخربشات والصراعات العقلية، وكان اليهود والنصاري منقطعين إلى تصعيد التوتر وإثارة الفوضى والبلبلة، وحياكة الدسائس والمؤامرات، كما كان دأبهم مع المسلمين منذ بداية الإسلام، فلم يبق إذن للحج السنوي وعمرة الشهور كلها والحرم المحترم معنى من القداسة والهدوء والسكينة، وقد وضعها الله تعالى لتكون في أمن وسلام، وتعلو هناك كلمة التوحيد.

ثم كان من الممكن أن تنشأ حركة القومية، كما نهضت هذه الحركة في دول العالم، فكان المشركون يحتجون بأن الكعبة المقدسة ملكهم القومي منذ الأجيال الكثيرة، وأنهم متمسكون بالوثنية كدين منذ أمد بعيد، فإن كان المسلمون يصلون في الكعبة فنحن أحق بوضع الأصنام والتماثيل في داخلها، ليعبدوها، وكان للنصارى أن يقولوا: نحن نعبد المسيح بن مريم وأمه في الكعبة، ونركّب تماثيلهما في جدرانها، فإذا ارتفع الأذان من منارة الحرم، يجب أن يدق معه الناقوس (Una campana)، فكان البيت الذي وضعه الله للتوحيد وعبادته وحده ونقض الشرك والوثنية ينقلب مصدرا للشرك والوثنية، فيخرج منه تيار الشرك واللادينية، ويذهب أمنه وسلامه ضحية التعصب الديني والمنافرة بين الأمم، فكان مركزا للخلل والاضطراب، وهذا قلب الموضوع، ولا يخفى بطلانه. ولا يبقى معنى لإعلان الله سبحانه بأن الحرم آمن، ومكة بلد أمين كما قال تعالى: **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ** (سورة العنكبوت: ٦٧)، وأقسم بمكة في قوله تعالى: **وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ** (سورة التين: ٣).

فإن كان الإسلام لم يأمر بإخراج اليهود كان هذا النداء الرباني مهددا في كل وقت، حيث أعلن الله تعالى أن بيته هذا آمن، وكان الناس يحاولون تحويله بلدا طائفيا متوتر الجو، ويصف الله مكة بالبلد الأمين، وهم يجعلونه غير آمن، فأعداء الإسلام يريدون دائما نقض الدعوى الرباني بوصفه حرما آمنا، مما يؤول بالبلاد إلى فساد ودمار، واضطراب لا يوصف، فكأن عباد الله يتحدونه دائما وهم في بيت الله، فنظرا إلى هذه المصالح الحكيمة المعقولة أعلن الله سبحانه على لسان النبوة –على صاحبها الصلاة والسلام– أن الحجاز لا يصلح لإقامة غير المسلمين، وعمارة مختلطة السكان.

ثم إن العمران المختلط في غالب الأحوال يسبب النزاع والصدام الداخلي، مما يتيح لأعداء الإسلام والمسلمين وحكوماتهم فرصة استغلال الاختلاف الداخلي، فيقفون بجانب إخوتهم في الدين، وينقضُّون من الداخل والخارج على المسلمين، ويتذرعون بأنهم متمسكون بالمبادئ، ولا يصدرون عن التعصب الديني، ولا يريدون احتلال دولة مسلمة؛ بل يثيرون قضية الانتداب العالمي كيومنا هذا، ويحاولون أن تكون دولة الحجاز تحت انتداب خارجي، يحفظ أمنها وكرامتها، ويقضي على النزاعات الداخلية، فأين يوجد ذلك التوحيد الخالص، الذي من أجله تمَّ تطهيره من الأصنام والتماثيل بيد خاتم النبيين وأصحابه، صلى الله على نبينا وأصحابه؟ وهل يبقى مصداقية لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرةالعرب؛ ولكن في التحريش بينهم"[1]؟

وإذا كان الاختلاف المحلي يدعو الحكومات المختلفة الخارجية إلى المشاركة الفعالة في حسم الأمر وحل العقدة نشأ منه نوع شامل من الاضطراب، لايعم الحجاز فحسب؛ بل يجتاح العالم كله، فكان القرار الرباني بأمن الحرم العالمي الآمن وأنه مثابة

(١) الإمام مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: ٢٨١١٢.

للناس وقيام لهم، وهدى للعالمين، وأمن لهم، يذهب هذا القرار ضحية التعصب العالمي والاضطرابات التي يمتد أوارها إلى كافة أنحاء العالم، فلم يبق أمنه ومركزيته وطنيا ولا محليا، فضلا عن أن يكون عالميا، فشاءت حكمة الله تعالى شأنه أن يجعل هذه البقعة المباركة خاصة بالمسلمين، ولا يشاركهم في الإقامة غيرهم من اليهود والنصارى.

وهكذا الكعبة المكرمة، التي لم تكن مكان صلاة فحسب كالمساجد الأخرى؛ بل كانت مركزا عالميا بل عالمينيا، ومنارة شاملة للرشد والهدى، وأمارة واضحة لنقض الشرك، فهي ليست مسجدا من المساجد؛ بل هي أم المساجد، فهي قبلة المسلمين وقبلة المساجد، فلا يبقى المسجد مسجدا ما لم يكن في اتجاه القبلة، والظاهر أنه إن كانت الكعبة المقدسة يتصل بها شعار الأمم الأخرى، وذلك بسبب إقامة غير المسلمين في بلاد الحجاز، أو يظهر بها أعلام المشركين في أعيادهم ومواسمهم، وتخرج مواكبهم الدينية وتجمعات شركية، وتنطلق نعرات مشركة في جو مكة والحجاز فهل يكون في الدنيا مسجد، يصلح لأن يكون مكان التوحيد الخالص، والعبادات الإسلامية الخالصة؟ كلا! بل كانت مراكز نشر الشرك والوثنية وعبادة الأصنام وفق ماقاله الشاعر الفارسي: أين يبقى الإسلام إذا انطلق الكفر من الكعبة؟

فيكون بيت الله الموضوع أصلا كمركز للتوحيد العالمي والأمن الشامل وسيلة قوية للشرك العام والاضطراب العالمي، ولا شك أن هذا قلب الموضوع وخرق حقيقة الكعبة المقدسة.

ثم فكروا في هذا، أوَلا يكون هذا الأمر تحديا صارخا للغيرة الربانية، بحيث يعبد الناس في بيته غيره، ضاربين عرض الحائط كل ملامح التوحيد والهدى، ويعارضون التوحيد بعبادة الأصنام، وينقضون أوامره في حصنه الحصين، فكأنهم يشنون الغارة على الله سبحانه، وهم في بيته قابعون، والظاهر أن أية حكومة في الدنيا لا تقبل هذا النوع من

البغي والعدوان، فما ظنك برب العالمين وأحكم الحاكمين؟ أو يقبل هذا العدوان الصريح والكفران الواضح؟ كلا!

فبالنظر إلى المصالح المتقدمة لم يجعل الله سبحانه مكة ذات سكان مختلطين ودياناتهم المختلفة، فهذا الإسكان ليس بقائم على التعصب والانحيازوضيق النظر، بل إن النظر إلى هذا الأمر الإسلامي من هذه الوجهة دليل على أن صاحبه غارق في العصبية والحمية الجاهلية؛ فإنه قد اتضح أن هذا يتعلق بصيانة الحرم المكي عن كل نوع من الاضطراب والانشقاق، وإن وصفه أحد بالعصبية والحمية، فهو ليس بعصبية وحمية جاهليتين؛ بل هي حمية دينية، وعصبية إسلامية، وهي ليست بعصبية مقيتة؛ بل هو تصلب في الدين، مما يعنى إحكام الجذور الإسلامية في القلوب، لا إحكام العصبية القومية في الأذهان.

وإن قيل: كان من الممكن أن يتم اتخاذ إجراءات أخرى، تضع الحد من حدوث الفوضى والاضطراب، كما تتخذ الحكومات الدنيوية إجراءات حاسمة، تتغلب على المشكلة، بل إن مصلحة الأمن والشرطة أسست لتؤدي مهمتها في هذا الجانب، فكان على الإسلام أن يتخذ مثل هذه الإجراءات، بدل القضاء على أمة كاملة خشية الفوضى والاضطراب، فلا يبقى مرض ولا مريض، فالحكومة الإسلامية في الحجاز يمكنها أن تختار أسلوبا رادعا، مكان الإخراج الدائم للأمم غير المسلمة من أرض الحجاز؟

ولا شك أن هذا السؤال سطحي، مبني على عدم إدراك الحقيقة، فإن المسلمين إذا أتيح لهم السماح بقتال الأمم الأخرى المتمكنة في أرض الحجاز، لم يزد هذا إلا تعقدا وتوترا، فإن أرض الحجاز لا تصلح لمثل هذه الإجراءات، فدفع التعصب بعمليات التشدد وتخفيف الاضطرابات عن طريق الشرطة والعسكر لايخدم مصالح الحجاز، فإن الحرم في هذه الصورة لايبقى آمنا، وهو آمن منذ الأزل، فهو ليس بمضمار الحرب، وإلا لم يُسَمَّ حرما آمنا، وإن كان الإسلام لم يقرر إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب

لكانت الجزيرة أرض الكفار والمشركين، وكانت الكعبة المقدسة بأيديهم، مما يؤدي إلى حرمان المسلمين بركات الحرم، وتحول الكعبة المقدسة إلى بيت الأصنام، وانقلاب ماهية الكعبة، فقد وضعه الله تعالى ليكون ملاذا آمنا للفارِّين بدينهم من الفتنة، فانقلابه إلى مركز الوثنية وعبادة الأصنام وضعف الشرائع الإسلامية فيه أمارة على قلب الموضوع.

ولو نزل العذاب الإلهي على هذه البقعة المباركة بسبب انتهاك حرماتها وبذلك تم تطهيرها من الكفار والمشركين لكانت هذه البقعة مورد السخط الإلهي، مما يصادم شأن رحمتها وهدايتها العالمية، فالشدة والعقاب لا يأتيان بأمن وهدوء؛ بل يجران أنواع الفساد والدمار، فكان أنسب تدبير وأحكمه أن لا يرضى الإسلام بوجود دينين في جزيرة العرب، فمنشأ هذا الأمر ليس تعصبا وانحيازا؛ فإن الإسلام هو الذي هدم أساس هذه المفاسد، وليس القصد إخراج المشركين من الدولة الإسلامية؛ فإنه لو كان الإسلام لا يتحمل الكفار والمشركين لما كان في العالم الإسلامي وجود لهم؛ مع أن اليهود والنصارى والمشركين يسكنون في جميع البلاد الإسلامية غير الحجاز، ثم حقوقهم كأهل الذمة مصونة، وحرماتهم مضمونة كالمسلمين، وهو يعيشون عيش الأحرار في كل من التجارة والصناعة والحرفة، وهذا جزء من المبادئ الإسلامية، فإن النهي عن استيطان المشركين خاص بالحجاز دون دول الإسلام، والغرض الحقيقي منه هو صيانة الأمن والعبادة في المركز العالمي من التشدد والفساد والنزاع والقتال وقلب الموضوع، ولايمكن ذاك بوجود العمران المختلط، فكان الطريق الوحيد المضمون السليم من الصيحات والضجات هو فصل غير المسلمين عن الجزيرة العربية، لا إبقاؤهم مع دفع التشدد والتعصب، فإنه قد يؤدي إلى النيل من حقوقهم كأهل الذمة، فإن الاختلاف يؤدي إلى أن يكون المسلمون ظالمين وغيرهم مظلومين.

ثم تهمة التعصب كانت تنهض ويُعبأ بها إذا كانت الحكومة الإسلامية الأهلية أو الشريعة الإسلامية تأمر بهذا، والأمر ليس كذلك؛ فإن هذا الحكم مخصوص بالحجاز منذ

الأزل، ومن جانب رب العالمين، حيث هو سائر منذ الأديان السابقة، وقد جاء الإسلام ليحافظ على هذا المبدأ القديم، ولم يأمر به من جديد.

وقد أخرج الإمام الرازي في تفسيره رواية طويلة عن وهب بن منبه، جاء فيها أن آدم عليه السلام لما نزل على الأرض استوحش كثيرا، حيث كان وحيدا في الأرض الواسعة الممتدة، فسلَّاه ربه بقوله: إن ذريتك تنتشر في الأرض كلها، وهم يحمدونني ويسبحون لي، وأبني لهم بيتا خاصا بالتسبيح والتهليل، ثم قال: "وَسَأُبَوِّئُكَ مِنْهَا بَيْتًا أَخْتَارُهُ لِنَفْسِي وَأَخُصُّهُ بِكَرَامَتِي وَأُوثِرُهُ عَلَى بُيُوتِ الْأَرْضِ كُلِّهَا بِاسْمِي وَأُسَمِّيهِ بَيْتِي أُعَظِّمُهُ بِعَظَمَتِي وَأَحُوطُهُ بحرمتي وأجعله أحق البيوت كلها وأولاها بِذِكْرِي وَأَضَعُهُ فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي اخْتَرْتُ لِنَفْسِي فإني اخترت مكانه يوم خلقت السموات وَالْأَرْضَ، أَجْعَلُ ذَلِكَ الْبَيْتَ لَكَ وَلِمَنْ بَعْدَكَ حَرَمًا آمِنًا أُحَرِّمُ بِحُرْمَتِهِ مَا فَوْقَهُ وَمَا تَحْتَهُ وَمَا حَوْلَهُ فَمَنْ حَرَّمَهُ بِحُرْمَتِي فَقَدْ عَظَّمَ حُرْمَتِي وَمَنْ أَحَلَّهُ فَقَدْ أَبَاحَ حُرْمَتِي، وَمَنْ أَمَّنَ أَهْلَهُ اسْتَوْجَبَ بِذَلِكَ أَمَانِي وَمَنْ أَخَافَهُمْ فَقَدْ أَخَافَنِي وَمَنْ عَظَّمَ شَأْنَهُ فَقَدْ عَظُمَ فِي عَيْنِي وَمَنْ تَهَاوَنَ بِهِ فَقَدْ صَغُرَ فِي عَيْنِي سُكَّانُهَا جِيرَانِي وَعُمَّارُهَا وَفْدِي وَزُوَّارُهَا أَضْيَافِي أَجْعَلُهُ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ وَأُعَمِّرُهُ بِأَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يَأْتُونَهُ أَفْوَاجًا شُعْثًا غُبْرًا: **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** [الحَجِّ: ٢٧] يَعُجُّونَ بِالتَّكْبِيرِ عَجًّا إِلَيَّ وَيَثُجُّونَ بِالتَّلْبِيَةِ ثَجًّا، فَمَنِ اعْتَمَرَهُ لَا يُرِيدُ غَيْرِي فَقَدْ زَارَنِي وَضَافَنِي وَنَزَلَ بِي وَوَفَدَ عَلَيَّ، فَحَقَّ لِي أَنْ أُتْحِفَهُ بِكَرَامَتِي وَحَقَّ عَلَى الْكَرِيمِ أَنْ يُكْرِمَ وَفْدَهُ وَأَضْيَافَهُ وَزُوَّارَهُ وَأَنْ يُسْعِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَاجَتِهِ تُعَمِّرُهُ يَا آدَمُ مَا كُنْتَ حَيًّا ثُمَّ يُعَمِّرُهُ مِنْ بَعْدِكَ الْأُمَمُ وَالْقُرُونُ وَالْأَنْبِيَاءُ مِنْ وَلَدِكَ أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ وَقَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَنَبِيًّا بَعْدَ نَبِيٍّ حَتَّى يَنْتَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى نَبِيٍّ مِنْ وَلَدِكَ يُقَالُ لَهُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ فَأَجْعَلُهُ مِنْ سُكَّانِهِ وَعُمَّارِهِ وَحُمَاتِهِ وَوُلَاتِهِ فَيَكُونُ أَمِينِي عَلَيْهِ مَا دَامَ حَيًّا، فَإِذَا انْقَلَبَ إِلَيَّ

وَجَدَنِي قَدِ ادَّخَرْتُ لَهُ مِنْ أَجْرِهِ مَا يَتَمَكَّنُ بِهِ مِنَ الْقُرْبَةِ إِلَى الْوَسِيلَةِ عِنْدِي وَأَجْعَلُ اسْمَ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَذِكْرَهُ وَشَرَفَهُ وَمَجْدَهُ وَسَنَاهُ وَتَكْرُمَتَهُ لِنَبِيٍّ مِنْ وَلَدِكَ يَكُونُ قَبْلَ هَذَا النَّبِيِّ وَهُوَ أَبُوهُ، يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَرْفَعُ لَهُ قَوَاعِدَهُ وَأَقْضِي عَلَى يَدَيْهِ عِمَارَتَهُ وَأُعَلِّمُهُ مَشَاعِرَهُ وَمَنَاسِكَهُ وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً وَاحِدَةً قَانِتًا قَائِمًا بِأَمْرِي دَاعِيًا إِلَى سَبِيلِي أَجْتَبِيهِ وَأَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ أَبْتَلِيهِ فَيَصْبِرُ وَأُعَافِيهِ فَيَشْكُرُ، وَآمُرُهُ فَيَفْعَلُ وَيَنْذِرُ لِي فيفي ويدعوني فاستجب دَعْوَتَهُ فِي وَلَدِهِ وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَأُشَفِّعُهُ فِيهِمْ وَأَجْعَلُهُمْ أَهْلَ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَوُلَاتَهُ وَحُمَاتَهُ وَسُقَاتَهُ وَخُدَّامَهُ وَخُزَّانَهُ وَحُجَّابَهُ حَتَّى يُبَدِّلُوا أَوْ يُغَيِّرُوا وَأَجْعَلُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامَ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَأَهْلَ تِلْكَ الشَّرِيعَةِ يَأْتَمُّ بِهِ مَنْ حَضَرَ تِلْكَ الْمَوَاطِنَ مِنْ جَمِيعِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَعَنْ عَطَاءٍ قَالَ: أُهْبِطَ آدَمُ بِالْهِنْدِ فَقَالَ: يَا رَبِّ مَا لِي لَا أَسْمَعُ صَوْتَ الْمَلَائِكَةِ كَمَا كُنْتُ أَسْمَعُهَا فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: بِخَطِيئَتِكَ يَا آدَمُ فَانْطَلِقْ إِلَى مَكَّةَ فَابْنِ بِهَا بَيْتًا تَطُوفُ بِهِ كَمَا رَأَيْتَهُمْ يَطُوفُونَ فَانْطَلَقَ إِلَى مَكَّةَ فَبَنَى الْبَيْتَ، فَكَانَ مَوْضِعُ قَدَمَيْ آدَمَ قُرًى وَأَنْهَارًا وَعِمَارَةً وَمَا بَيْنَ خُطَاهُ مَفَاوِزَ فَحَجَّ آدَمُ الْبَيْتَ مِنَ الْهِنْدِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَسَأَلَ عُمَرُ كَعْبًا فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْبَيْتِ فَقَالَ إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ السَّمَاءِ يَاقُوتَةً مُجَوَّفَةً مَعَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: / يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا بَيْتِي فَطُفْ حَوْلَهُ وَصَلِّ حَوْلَهُ كَمَا رَأَيْتَ مَلَائِكَتِي تَطُوفُ حَوْلَ عَرْشِي وَتُصَلِّي وَنَزَلَتْ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ فَرَفَعُوا قَوَاعِدَهُ مِنْ حِجَارَةٍ، فَوُضِعَ الْبَيْتُ عَلَى الْقَوَاعِدِ فَلَمَّا أَغْرَقَ اللهُ قَوْمَ نُوحٍ رَفَعَهُ اللهُ وَبَقِيَتْ قَوَاعِدُهُ"[1].

وحسبك هذا الأثر الذي يكشف عن أن حرمة هذا البيت وعزته وحفظ أمنه وقداسته وصيانته من الخلل شيئ أزلي، خُص بها قبل خلق السماوات والأرض، وتم

(١) الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، **مفاتيح الغيب**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ)ج٤، ص٤٤-٤٦.

تعيينه مركزا للعبادة والأمن، ووُضع الحد من انتشار الفساد والدمار في بقعته، فإن كان الإسلام أبعد جوَّه عن وسائل الفتنة والخلل وسوء الأمن والفوضى فهو ليس قضاء الشرع الإسلامي؛ بل هو أمر قضى به رب العالمين قبل ألوف من السنين، أبقاه الإسلام ونفذه بشكل عملي، فهذه التهمة لا توجَّه إلى الإسلام.

وإذا كان سكان هذه البقعة المباركة تأثروا بالبيئات الخارجية وتنصلوا عن الجو الإسلامي، فعادوا يتكاسلون في ممارسة العبادة وتعظيم شعائر الله في الحرم الآمن فتاريخها يشهد بأنهم اضطروا إلى العودة إلى فطرتهم عاجلا أم آجلا، وأمسكوا عن الغفلة، أو زالت دولتهم، وحلت دولة أخرى، عملت على تنظيم الأمن و العبادة وفق طبيعة البقعة المباركة.

فالحجاز وبقعة الحرمين الشريفين مازالت ولا تزال مركزا للأمن والسلام من الأزل إلى الأبد، مستفيدة في عظمتها الجغرافية وخصائصها الطبيعية من الكعبة المكرم؛ وذلك لئلا يكون مركزا للفوضى والاضطراب، ومحلا للنزاع والقتال.

حفظ الحرمين بالقوى الغيبية:

ولكن بعد هذا كله إذا أراد رجل طائش سفيهٌ الإغارةَ على هذا البيت الكريم، وفوَّض أهل الحجاز حفظه إلى رب العالمين، واجتنبوا القتال والعدوان في حدود الحرم، جاءت العناية الربانية التي تحيط البيت بالحفظ والرعاية من الأزل لتعمل على الإبقاء عليه مركزا للأمن والسلام، وتبعد أهل الحجاز عن الجدال والنزاع، وتستأصل الأعداء، ولم تدع البقعة مورد المعارك والحروب.

وعلى سبيل المثال أذكر الملك الحبشي أبرهة الشقي الذي أقدم على هدم الكعبة، وأجلب بخيله ورجله وأفياله الجسام، فأرسل رب العالمين حسب العناية الخاصة بالحرم طيرا أبابيل، وقضى على ذلك الجيش اللجب، كما جاء في سورة الفيل.

وكذلك الحرم المدني كان محفوفا بالعناية الربانية؛ مما يدل على أن الحجاز مركز للأمن.

وإذا أراد اليهود الأشقياء إخراج الجسد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام من القبر الأطهر وشقوا طريقا إلى القبر المبارك، نبَّه الله السلطان نور الدين الزنجي في الرؤيا على مؤامراة اليهود، فتنبه السلطان وقتلهم شر قتلة، وأبقى أمن الحرم النبوي، كما يشهد به تاريخه.

وهكذا إذا أرادت جماعة مبغضة للصحابة بالتآمر مع حكام المدينة المغرضين إخراج أجساد الخلفاء الراشدين نحو أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وهتك حرمتهما ودخل أربعون منهم في الليلة الظلماء في المسجد النبوي وبأيديهم معاول، وتم إقصاء الشرطة وفق المؤامرة؛ ولكنهم فوجئوا بشق الأرض، فدفنوا فيها إلى الأبد، فلم يبق لهم أثر ولا خبر، وبقي أثر الشق، الذي يدل على أنهم واصلون إلى جهنم.

وهكذا سيظهر في زمن المهدي رجل اسمه سفياني، يجر جيشه إلى الحرمين، ليقوم بهدمهما وتخريبهما والقضاء على الأمن، فيخسف الله بهم الأرض في أرض بيداء، ويحفظ أمن الحرمين وسلامهما، كما ورد في الأحاديث.

أو كما أن الدجال الأعور يسعى في الأرض فسادا، ويظهر عجائبه ليدفع الناس إلى قبول ألوهيته، عند ما تضعف قوة المسلمين، فلا يدخله المسيح الدجال أرض الحجاز؛ حيث تحفظها من شرِّه جماعاتٌ من الملائكة عليهم السلام، وتصرِف وجهه عن جهة الحرمين، مما يوضح أن هناك أسبابا غيبية بجانب الأسباب الخلقية، تحفظ أرض الحجاز دائما.

الحاصل أن أرض الحجاز مأمونة بفضل العناية الربانية والأحكام الشرعية والتكوينية والخصائص الذاتية والأسباب الظاهرة والباطنة؛ مما يدل على أن هذه البقعة المباركة مركز للأمن شرعا وتكوينا.

وعلى كل فقد ثبت بالدلائل التاريخية والعقلية والشرعية والجغرافية والحسية كون بيت الله وبيئته القريبة والبعيدة مركزا للأمن والعبادة، وهذا هو موضوع البحث؛ مما يكشف عن أنَّ خصائص بيت الله تتعدى إلى ما جاوره من أرض قريبة وبعيدة؛ مما هو دليل على كونه مركزا للأمن والعبادة، وهذا هو نوع خاص بالمركزية، وهذا هو مقتضى التجلي الوارد على الكعبة.

وبعد الفراغ من بيان نقاط الفيض الظاهرة والباطنة الكائنة في البلد الأمين الذي أقسم الله به في القرآن نتوجه إلى البلد المحاط بالتين والزيتون: القدس الشريف، ونقطة فيضه: الأقصى المبارك، لأكشف عن أساس قداسة وحرمة هذا البلد الشريف بقدر الاستطاعة، والله هو الموفق.

بلاد الشام مركز الحرب والسياسة للإسلام:

آثار الأقصى في الشام:

ولما ثبت أن المسجد الأقصى ظهر فيها تجلي السياسة والحكومة، فحسب الأصول السابقة تنفذ آثاره وبركاته فيما يجاوره من البلدان، كما أن أوصاف بيت الله ومميزاته ظهرت في مكة والحجاز، كما فصلته سابقا، وكذلك تماما المسجد الأقصى وما يحيط به من المدن والبلدان، فالمسجد الأقصى هو نقطة الفيض لأراضي الشام كلها، فالبلدان القريبة للأقصى هي مدينة القدس، والبلدان البعيدة هي بلاد الشام كلها، فكيف يمكن أن لا تنفذ صفات الأقصى ومميزاته فيما يجاوره من البلدان القريبة والبعيدة، فالتجليات الربانية التي وهبها الله سبحانه للأقصى ظهرت تماما في هذه البلدان القريبة والبعيدة، وجعلت هذه البلدانَ مقدسة للغاية، ومركزا للسياسة الإسلامية والمعارك والحروب، وفي تعبير أوجز: هو مركز للنظام الاجتماعي، الذي يحتاج إلى كل من القوة المادية والحربية والصلابة الدينية، كما شهدت به الآية الكريمة: **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ**

رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (سورة الأنفال: ٦٠).

فكانت الشام مركزا للقوة المرهبة، ليكون للإسلام نظام سياسي شامل كنظامه الديني المكتمل الأبعاد.

ولما كانت الحرب محظورة في الكعبة المكرمة وما جاورها من حدود الحرم حتى جاء الحظر على قطع الأشجار والنبات، لما فيه من مركزية للأمن والعبادة معًا، أما بلاد الشام فلها ثقل ديني مختلف تماما عن الحجاز، حيث كانت نقطة الفيض في الأقصى هي القهر والشوكة والحكومة، ومن ثم ظهرت في جوِّه عواطف إظهار القوة والشجاعة، فهي كانت مركزا سياسيا للإسلام، ويعني هذا أن آثار التجليات الواردة على الكعبة والمسجد الأقصى ظهرت في هذين الموضعين بشكلٍ متناقضٍ، حيث أصبح الأول مركزًا للأمن، والثاني مركزًا للحرب، أو كان الأول مركزا للعبادة، والثاني مركزا للسياسة.

والظاهر أن النظام الاجتماعي الشامل للإسلام لم يكن ليجري بشكل صحيح بدون القوة والشوكة، ولم يمكن أن تكون الكعبة المقدسة قاعدةً حربيةً، فإنها مركز للأمن والعبادة، فكانت الحاجةُ ماسَّةً إلى أن تكون قاعدة حربية للإسلام على مسافةٍ مناسبةٍ من الكعبة الشريفة، ليجري كل من النظام الديني والنظام السياسي للإسلام باعتدال واتزان، فهذه القاعدة العظيمة هي بلاد الشام، فكما أن خصائص بيت الله العتيق ظهرت فيما جاورها من المدن والأرياف، كذلك ظهرت خصائص الأقصى في البلدان المحيطة به، كما شهدت به كثير من الروايات والآثار، فقد جاء في حديثٍ ما يبين أهمية الأقصى الحربية، وبذلك يثبت كونه مركزًا للحرب والسياسة، كما جاء ما يفيد أن المسجد الأقصى هو ميدان حرب عظيمة في التاريخ البشري الحادث في أواخر الإسلام: حرب المسيح الدجال التي

هي خلاصة الحروب والمعارك، فقد تم اختيارها لهذه الحرب منذ أول يوم من الإسلام، ونص الحديث مايلي:

"إنها ستفتح الشام فعليكم بمدينة يقال لها دمشق، فإنها خير مدائن الشام، وهي مقيل المسلمين من الملاحم، وفسطاط المسلمين بأرض فيها، يقال لها الغوطة، ومعقلهم من الدجال بيت المقدس، ومعقلهم من يأجوج ومأجوج الطور"[1].

فهذا الحديث يخبر بأن القدس يجري فيها كثير من الحروب والمعارك، وفي ساحتها تحدث معركة المسيح الدجال الشديدة التي هي أشد حروب الإسلام على الإطلاق، وبعد هذه المعركة تقوم السيطرة للمسيح الدجال على العالم الإسلامي، مما يوضح أن المسجد الأقصى هو مركز للحروب المسلسلة للإسلام، وسيبقى مركزا إلى قيام الساعة.

أجل! ومن الإمكان بكثير أن يترك المسلمون خوضُ المعارك والحروب، ويَدَعُوْا المركز السياسي للإسلام عبثا، ولا يجعله يعمل في إطاره العملي، فإن هذا لا يؤثر في المركزية، فهي مغروسة مركوزة في طبيعته، نعم! هذه الظاهرة تشكل شقاء للتاركين هذا المركز.

وهناك حديث آخر يكشف عن ذلك المعنى بشكل أكثر، حيث روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "سُلَّ عمودُ الإسلام من تحت رأسي فأوحشني، ثم رميت ببصري فإذا هو قد غرز في وسط الشام، فقيل لي: يا محمد! إن الله عز وجل قد اختار لك الشام ولعباده، فجعلها لكم عزا ومحشرا ومنعة

---

(١) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ج١٢، ص٢٧٧، رقم الحديث: ٣٥٠٢٩.

وذكرا، من أراد الله به خيرا أسكنه الشام وأعطاه نصيبه منها، ومن أراد به شرا أخرج سهما من كنانته، وهي معلقة في وسط الشام، فرماه بها فلم يسلم في دنيا ولا آخرة"[1].

وهذا الحديث واضح الدلالة على أن بلاد الشام مركز إسلامي عظيم فيما يتعلق بالعزة والشوكة والحكومة والقوة، كما أوضحها هذا الحديثُ بما لامزيد عليه، وذلك فيما يلي:

أولاً- إن إقامة عمود الإسلام في وسط الشام إشارة واضحة إلى مركزيتها في السياسة والحكومة، فالسياسة عمود تقوم عليه البلاد كلها، كما أن البناء يقوم على العمود، ثم قمع العمود من أرض الحجاز وإقامته في بلاد الشام يعني أن هذه المركزية في السياسة والحكومة هي الأخرى قد كانت وُهبت أول ما وُهِبَتْ لأرض الحجاز، وهي كانت مركوزة تحت رأس النبي صلى الله عليه وسلم، ثم سُلَّتْ من هناك إلى أرض الشام، وكلمة السَّلِّ إشارة إلى الانتقال المكاني، فإن هذه المركزية لو وُهِبت لأرض الشام في أول أمرها لأُطلقت عليه كلمةُ الهبة والعطاء، فالحاصل أن أرض الحجاز قد رُزِقتْ هذه المركزية أيضا، فكانت في بداية الإسلام مركزا للحرب والسياسة أيضا، ففي أرضها جاء الإذن بالجهاد والقتال، كما يتضح بالآيات القرآنية: **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** (سورة الحج: ٣٩).

فقد أذن للمؤمنين بقتال أهل مكة، وتمَّت الإغارة بالقوة على مكة المكرمة، وأحلَّت أرض الحرم لنبينا صلى الله عليه وسلم ساعاتٍ من نهار، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد آثر السلمَ على الحرب، وفي أرض الحجاز الآمنة وقعت غزوات بدر وأحد، مما يوضح أن بلاد الحجاز هي التي كانت مركزا للسياسة والحرب، كما كانت مركزا للعبادة، ولكن لما فُتِحَت مكة ودانت الجزيرة العربية للإسلام، وتمَّ القضاء على

---

(١) المصدر السابق، رقم الحديث: ٣٥٠٥١

أديان ومذاهب الحجاز، مما قد يسبب النزاع والقتال، فارتكز الأمن والسلام في أرضها، كما اختيرت لهما منذ الفطرة، أما شوكة الإسلام وسياسته فقد خصصت لهما أرض الشام، لتبقى الحجاز مركزا للأمن، فكلمة "سُلَّ" تدل على هذا النقل المكاني، فكأن هذه الكلمة الوجيزة تحوي في طيها تاريخا كاملا.

وبما أن القوى الحربية من آثار الحكومة والشوكة لا من آثار العبادة فوصف هذا الحديثُ بلاد الشام بأرض العز والمنعة، مما يفيد قوتها وشوكتها.

وبما أن عامة الناس وخاصتهم يرجعون إلى المركز الحكومي في كل من الأمور السياسية والاجتماعية فقد اختيرت أرض الشام لتكون أرض المحشر والمنشر، وكلمة المحشر تفيد معنى الاجتماع ومرجعية الخلائق، مما ينم عن أن المسلمين إذا أحاط بهم اليأس والقنوط، وأحدقت بهم الفتنُ من كل جانبٍ رجعوا إلى بلاد الشام، وكانت الشام هي معقلهم وموئلهم من حيث المكانة الجغرافية والاجتماعية، وبذلك سيتم لـمُّ شعثهم، وتوحيد كلمتهم، وجمع قواهم، وكل ذلك بمجموعه يقوي مركزية بلاد الشام، فإن البلاد الضعيفة المنهوكة لا يريد أن يمر بها الإنسان فضلا أن يجعلها مأوى له.

والسياق التاريخي يعطينا هنا فكرة واضحة، حيث كانت بلاد الشام قاعدة حربية كبرى في عهد الخلفاء الراشدين والحكومات الإسلامية بعدها، حيث فتح المسلمون كلًّا من بلاد فارس والروم من أرض الشام، وفي أرضها سيظهر المهدي وينزل عيسى عليه السلام، ومن هنا يندفع ضعف المسلمين، وفي ميدانها ستحدث ملحمة كبرى فاصلة، تتبعها حكومة إسلامية كبرى، تسود العالم كله، وتعم الآفاق كلها، كما أفاد به الحديث النبوي.

ولا شك أن الله سبحانه قدأودع بلاد الشام تيارًا من الشوكة والقوة والاجتماع، لاينفك عنها حتى بعد زوال الدنيا، وبذلك وقع الاختيار الإلهي على بلاد الشام

لاجتماع يوم الحشر، والاجتماع الأخير والحشر المطلق يبدأ من أرض الشام، وهنا ستظهر الحكومة الإلهية والعدالة الربانية، فالشام هي أرض المحشر والمنشر في الدنيا والآخرة، ثم المركز السياسي كما يحتاج إلى الهجوم والإقدام، كذلك يحتاج إلى الدفاع والصيانة، فأرض الشام هي أرض العز والمنعة، وبذلك تكتمل معاني الإقدام والدفاع، فهي تملك الصلاحية لكل من المقاومة والدفاع.

والظاهر أن دولة تستطيع الهجوم القوي والدفاع الباسل عن كل إغارة، وتجمع إلى ذلك كلا من العز والوقار، وتبرز في ربوعها البطولات الخارقة والإنجازات العسكرية الرائعة، كان من حقها أن تكون محل ذكر وعبادة، وتسبيح وتلاوة أيضا، فالجهاد ومقاومة الأعداء الظالمين عين العبادة ومحض القربة، وذلك لتكون الحملات والإغارات على الأعداء سليمة المنهج، نبيلة الغاية، ولا تنحصر في إدارة البلاد، والحكومة على العباد، فالقتال في سبيل الله يقتضي أن يكون المجاهد راهبا بالليل وفارسا بالنهار، وجوارحه منشغلة بقتال الأعداء، وقلبه متعلق بربه يستعين به النصر والفتح والهيبة، فإن المجازفة بالنفس والروح بدون التعلق مع الله لا يمكن عادة، ومن هنا ذكر الحديث أربع خصائص عظيمة لهذه البلاد: "عزا ومحشرا ومنعة وذكرا"، وهي فيما بينها وثيقة الاتصال من النواحي الدينية والسياسية، فاتصاف بلاد الشام بأنها موضع القوة الإسلامية، وسهام إلهية، ومورد العز والشوكة ومرجع الخلائق، وموقع الدفاع عن الدين الإسلامي، ومحل الذكر الرباني من الدلائل الواضحة على أنها مركز السياسة والدولة الإسلامية ومركز القوة والشوكة، وهذا هو موضوع الباب.

وقد أوضح هذا المعنى حديث آخر، رواه الحريم بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أَهْلُ الشَّامِ سَوْطُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، يَنْتَقِمُ بِهِمْ مِمَّنْ يَشَاءُ، كَيْفَ يَشَاءُ، وَحَرَامٌ عَلَى مُنَافِقِيهِمْ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَى مُؤْمِنِيهِمْ، وَلَنْ يَمُوتُوا إِلَّا هَمًّا أَوْ غَيْظًا أَوْ حُزْنًا"(١).

---

(١) **مسند أحمد**، ج٢٥، ص٤٦٧، رقم الحديث:١٦٠٦٥.

وهذا الحديث وصف أهل الشام بالسوط الإلهي، فهم وسيلة الانتقام الإلهي، وهذا دليل آخر على كونه مركز الدفاع والحرب، وأن المنافقين من بلاد الشام، الموالين للأعداء، أو المنصبغين بصبغتهم، أو المتعاطفين معهم ومحاولاتهم المفسدة لن يضروا الفاتحين المخلصين شيئا، وأنهم لن يستطيعوا زعزعة المركز الشامي الإسلامي، فالمجاهدون في هذه البلاد سيستمرون بشكل مكشوف أو مستور في أعمالهم الحربية، التي ترعب الأعداء، وتدك بلادهم.

وجاء في حديث آخر ما يؤكد هذا المعنى، حيث روي عن عبد الله بن حوالة الأزدي أنه قال : يا رسول الله خر لي بلدا أكون فيه، فلو علمت أنك تبقى، لم أختر على قربك، قال: عليك بالشام ثلاثا، فلما رأى النبيُّ صلى الله عليه و سلم كراهيته إياها، قال: هل تدري ما يقول الله في الشام؟ إن الله يقول: يا شام! أنت صفوتي من بلادي، أدخل فيك خيرتي من عبادي، أنت سوط نقمتي وسوط عذابي، أنت الذي لا تبقي ولا تذر، أنت الأنذر وإليك المحشر، ورأيت ليلة أسري بي عمودا أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة، قلت: ما تحملون؟ قال: عمود الإسلام، أمرنا أن نضعه بالشام، وبينا أنا نائم إذ رأيت الكتاب اختلس من تحت وسادتي، فظننت أن الله قد تخلى من أهل الأرض، فأتبعته بصري، فإذا هو نور بين يدي حتى وضع بالشام، فمن أبى فليلحق بيمنه وليستق من غدره، فإن الله قد تكفل لي بالشام"[1].

وكون الشام هي السوط الإلهي والسيف الرباني يؤكد كونها مركزا للدفاع والإقدام، فهذا دليل ثالث على كونها قاعدة حربية كبيرة.

وهناك حديث آخر يأتي بنفس المعاني، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:"لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ دِمَشْقَ وَمَا حَوْلَهُ،

---

(١) سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، **مسند الشاميين**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٤م ١٤٠٥هـ)، ج١، ص٣٤٥، رقم الحديث: ٦٠١.

وَعَلَى أَبْوَابِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمَا حَوْلَهُ، لا يَضُرُّهُمْ خِذْلانُ مَنْ خَذَلَهُمْ، ظَاهِرِينَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ"(١).

وهذا الحديث كافٍ في بيان أن دمشق وبيت المقدس وما حولها من بلاد الشام والأردن هي مراكز دائمة للحرب والدفاع عن الدولة الإسلامية، وهذا دليل رابع على هذا المعنى، كما يشهد هذا الخبر بأن من يريد خذلان المجاهدين الشاميين سينخذل بنفسه، ولا يضرهم شيئا، وهذا واضح في المسرح السياسي المعاصر أيضا، حيث يحارب هؤلاء المجاهدون اليوم أقوى دولة في العالم، حيث المجاهدون في فلسطين وسوريا اليوم يتمسكون بالمبادئ الحربية والعاطفة النضالية مع قوة الصهاينة ومؤامرات الدول القوية التي تساندها نحو أمريكا وأوربا، وأنهم باستعدادهم الحربي وقوتهم النضالية يقاومون اليهود والنصارى، فإن كان من المنافقين من يحاول موالاة الأعداء وتمكينهم في بلاد الشام فهم لا ينجحون، وإن نجحوا لمدة قليلة فسرعان ما ينقلب عليهم الأمر، مما يدل على أن بلاد الشام قد يتسلط عليها الاعداء؛ ولكن البذرة الإسلامية المركوزة في تربتها تعود سريعا لتستأصل الفساد، وتقي البلاد شره، وإن كانت الحرب وصلت إلى أبواب دمشق، كما جاء في الحديث: يقاتلون على أبواب دمشق، فتقسيم فلسطين صدق هذه النبوءة، والحرب قائمة اليوم على أبواب دمشق، بيد أن المجاهدين في الشام يؤدون مهمتهم بكل نجاح، والفتح والهزيمة من الأمور الطبيعية، التي تساجل كحبال الدلاء، وإنما الكلام هو عاطفة الحرب والدفاع، دون الانتصار والانكسار، وإذا كانت بلاد الشام مركزا للحرب والسياسة، كان من اللازم أن تستمر هناك حروب، لتبقى مركزيتها في هذا المجال.

وقد جاء الحديث التالي ليكشف عن هذا المعنى بشكل لا مزيد عليه:

---

(١) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، **المعجم الكبير**، ج١٩، ص٩٨، رقم الحديث: ٢٢٠.

"عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنّ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:"لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ الله، لا يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا، تُقَاتِلُ أَعْدَاءَهَا، كُلَّمَا ذَهَبَتْ حَرْبٌ نَشَبَتْ حَرْبُ قَوْمٍ آخَرِينَ، يَرْفَعُ اللهُ قَوْمًا وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ" ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"هُمْ أَهْلُ الشَّامِ"[1].

وبذلك يثبت تسلسل المعارك والحروب في تلك الديار، وهذا هو تاريخ بلاد الشام منذ القديم، وفيه من الدلالة على كون بلاد الشام مركزا للحرب ما هو غني عن الوصف، وهناك حديث آخر يفيد هذا المعنى، وذاك بالتالي:

عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أهل الشام وأزواجهم وذراريهم وعبيدهم وإماؤهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون في سبيل الله، فمن احتل منها مدينة من المدائن فهو في رباط، ومن احتل منها ثغرا من الثغور فهو في جهاد"[2].

ومعنى هذا أن هذه الحروب المتسلسة إنما تنتهي بقتال الدجال الأعور، الذي يقاتله فيقتله عيسى عليه السلام، ومعلوم أن الدجال الأعور هو قائد اليهود الأكبر، وكان موضع هذه الحرب الخطيرة هي بلاد الشام، فقد جاء في الحديث ما يفيد أن الحروب ستنتهي بحرب الدجال العالمية، التي عبر عنها الحديث بالملحمة الكبرى، وعدها من أشراط الساعة، ونص الحديث ما يلي:

عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، يقذف الله بهم كل مقذف، يقاتلون فضول الضلالة، لا يضرهم من خالفهم حتى يقاتلوا الأعور الدجال، وأكثرهم أهل الشام"[3].

---

(١) الطبراني، **المعجم الكبير**، ج١٩، ص٤٨٠، رقم الحديث: ١١٤٥.

(٢) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، **كنز العمال**، ج١٢، ص٢٧٦، رقم الحديث: ٣٥٠٢٥.

(٣) المصدر السابق، ج١٢، ص٢٨٤، رقم الحديث: ٣٥٠٥٥.

وفيما يتعلق بالملحمة الكبرى التي هي آخر حروب الدنيا يأتي حديث بإيضاح أكثر، فيقول الصحابي ابن حوالة: قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: سَيَصِيرُ الأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً جُنْدٌ بِالشَّامِ وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ، قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ خِرْ لِي يَا رَسُولَ الله إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ. فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا خِيَرَةُ الله مِنْ أَرْضِهِ يَجْتَبِى إِلَيْهَا خِيَرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ وَاسْقُوا مِنْ غُدُرِكُمْ فَإِنَّ الله تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ"[1].

وهذا الحديث إلى جانب بيان مركزية الشام يحث على الإقامة ببلاد الشام، مما يفيد كونه معقل المسلمين في حالة الحروب.

ثم هذا المعنى الذي يتلخص في أن بلاد الشام هي قاعدة مركزية للمعسكر الإسلامي في كل عصر، وأنها معقل المسلمين يزيده الحديث التالي:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها ستفتح الشام فعليكم بمدينة يقال لها دمشق، فإنها خير مدائن الشام وهي مقيل المسلمين من الملاحم، وفسطاط المسلمين بأرض فيها يقال لها الغوطة، ومعقلهم من الدجال بيت المقدس، ومعقلهم من يأجوج ومأجوج الطور"[2].

وقد أوضح الحديث معاني تالية:

١ - أن بلاد الشام مركز دفاعي للإسلام

٢- أنها معقل المسلمين وفسطاطهم يوم الملحمة

٣- أنها مرجع المسلمين في حرب الدجال الأعور: آخر حروب الدنيا، وكل هذه المعاني جاءت مفصلة في هذا الحديث، مما كشف عن كون الشام مركزا سياسيا للإسلام بكل وضوح.

---

(١) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، ج٢، ص٣١٣، رقم الحديث: ٢٤٨٥.

(٢) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، **كنز العمال**، ج١٢، ص٢٧٧، رقم الحديث: ٣٥٠٢٩.

الحاصل أنه تم جعل مكة المكرمة مركزا للدين والعبادة من خلال وصفها بالحرم الآمن، كما تم جعل دمشق مركزا سياسيا للإسلام من خلال وصفها بمعقل المسلمين ومدينة الدفاع عن فتنة الدجال الأعور، وسيف الانتقام الإلهي في الدولة كلها، والسوط الرباني للكفار والمشركين، وقاعدة عسكرية مركزية للمجاهدين، ومحور الحروب المتسلسلة، مما عبر عنه بمعقل المسلمين، حتى أنها في هذه الأرض المقدسة تقع الحرب الأخيرة التي أُطلِقتْ عليه الملحمة الكبرى، الحادثة مع الدجال الأعور، مما يقضي على القوميات العالمية والأديان الأرضية والسماوية كلها، وتجعل الأمم تنخرط في سلك واحد، ويبقى الإسلام في الأخير دينا وحيدا في الدنيا.

الحاصل أن غلبة الأمم الغربية وانتصاراتها المتتابعة ستنقضي بيد الإمام المهدي عليه السلام، وذلك في بلاد الشام ومدينة القدس، في انتصار مبين للمسلمين، وهذا يبدأ في الشام وينتهي فيها، وقد جاء الحديث السابق بما يفيد أن هذه الحرب ستنقسم إلى ثلاث جهات: شامية وعراقية ويمنية، إلا أن الرسول عليه السلام حث على الانضمام إلى المعسكر الشامي، مما يوضح أن الحجاز إذا كان مركزا للدين والعبادة، فبلاد الشام هي مركز سياسي للدولة، ومعقل المسلمين، ومركز الملك والسلطنة.

الأسباب الجغرافية لكون بلاد الشام مركز السياسة، وخصائصها الشرعية:

وقد أوضحتُ سابقا أن الإسلام دين جامع شامل للعباد والبلاد، لا يهتم بالصلة بين العبد والمعبود فحسب؛ بل توجيهاته تشمل كلا من مدنية المجتمع البشري، وملامح التعاون والتناصر، وأمارات السياسة والاجتماع، وعلائم الاستقرار والتمكين.

فالإسلام سياسة وإمارة، وشورى، ومنهج تعيين الأعضاء، ومبادئ تخريج الرجال والأبطال، ومناصب إدارية، ومنهج الإدارة والتشغيل، ونظام التعزيرات والحدود والقصاص للحد من الفتن الداخلية، ونظام الجهاد والقتال للدفاع عن الحملات الخارجية، الحاصل أنه يملك الجوانب الروحانية والقيم الخلقية والنظم

السياسية والإدارية، وكل ذلك ليس جزءا من الدين الإسلامي؛ بل هي الإسلام نفسه؛ فإن الله سبحانه وضع كل جزء من أجزاء الدين الإسلامي عادة كان أو عبادة، اجتماعيا كان أو اقتصاديا، تمدنا كان أو تدينا، صلحا كان أو حربا؛ وضعها في صبغة إدارية واجتماعية شاملة؛ إلا أنها متقيدة بقيد الأخلاق والسيرة، والروحانية والصلة مع الله، وفي تعبير آخر: إن الإسلام لم يضع نظاما سياسيا منفصلا عن الدين وطبيعته؛ بل جعل الدين كله سياسة واجتماعا، ومزاجه السياسي مصبوغ بصبغة العبادة، ويمتزج هنا القهر بالحب، والوفاء بالشوكة والقوة بالضعف، والتواضع بالثقة بالنفس.

الحاصل أن الله تعالى قد وضع هذا الدين بشكل إذا تمت إقامة الدين وشعبه بشكل صحيح ظهر بشكل اجتماعي وسياسي، ويقوم نظام اجتماعي عالمي، فكل سياسة دين، وكل دين سياسة، فالسياسة ليست جزءا من الإسلام؛ بل الإسلام كله، فالاجتماع والشمول من أبرز خصائص الدين الإسلامي، ومحاولة فصل هذه الأجزاء عن الإسلام يعني فصل الإسلام عن الإسلام نفسه، مما يعني نفي الإسلام، وقد أوضح هذا المعنى حديث أخرجه الدارمي في سننه بقوله:

"لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة"[1]، فالجماعة والإمامة والإمارة ليست من نظام الولاية والدولة في الإسلام؛ بل وُضعت في كل من السفر والحضر والعبادة، وليست في السمع والطاعة والحكومة والجهاد؛ بل هي قائمة في الأمور الاجتماعية والمعاملات الأخلاقية، كما جاءت مفصلة في الأسفار الكبيرة.

وإذا ثبت أن الإسلام مليئ بالسياسة والتنظيم، ونظامه الأخلاقي يتمثل في النظام الملكي، كان من اللازم أن يكون للإسلام مع مركز ديني وقبلة تعبدية مماسبق

---

(١) عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، **سنن الدارمي**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٧هـ)، ج١، ص٩١، رقم الحديث: ٢٥١.

تفصيله سابقا مركز سياسي وقبلة تنظيمية، تنتهي به جميع مراحل الصعود والهبوط للدين الإسلامي، وتتفجر منه ينابيع القوة الإسلامية، وبما أن السياسة الإسلامية ليست سياسة فخر وزهو، وسياسة رياء ونفاق، بل هي سياسة مصبوغة بالصبغة الدينية، ومغمورة في الجانب الرباني، مما جعل كل جزء من أجزائها يرتبط بكل من النظام البشري والجانب الروحي والمزاج التعبدي، بات من الضروري أن يُختار للسياسة المقدسة مركز مقدس، يتميز بخصائصه المحلية وميزاته الجغرافية، ليستطيع مركزا عالميا للسياسة الإسلامية، له جذابية دينية رائعة.

ومع كل ذلك كان من المصلحة أن لا يقع هذا المركز في غاية البعد عن مركز العبادة: الحجاز المقدس، حتى لا يمكنه مساعدة هذا المركز، ولا يقع في غاية القرب، حتى لا تخل ثوراته الحربية ونشاطاته العسكرية بهدوء وسكينة في مركز العبادة والأمن؛ مما يذهب بخشوع في العبادة، واجتمعت هذه الأمور الهامة في بلاد الشام وفلسطين بوضع إلهي، ومن ثم وقع الاختيارُ الرباني على هذه البلاد لتكون مركزا للسياسة والحروب الدينية.

الخصائص الدينية للمركز الشامي:

وإذا تدبرنا علمنا أن المركز الشامي يحمل من الوضع الفطري والخصائص الجغرافية ما يجعله صالحا لأن يكون مركزا سياسيا للإسلام، وأنه إذا رجع إليه المسلمون في الأمور السياسية يجدون فيه من الجذابية الدينية ما يسرهم ويبهرهم، ليستميل قلوب المسلمين الذين جمعوا بين الدين والدولة.

أما الأهمية الدينية للشام فنقطة الفيض فيها بيت المقدس(المسجد الأقصى)، قبلة المسلمين في صلواتهم، التي ظلوا يتوجهون إليها في صلواتهم لمدة مديدة، والظاهر أنه لا توجد جذابية أكثر من هذا، ويوجد هناك أمارة مقدسة للمسجد الأقصى كما نص به

الحديث، فهي قائمة حتى الآن، حيث تضاعف الصلاة إلى خمسة وعشرين ألف صلاة، وهذا غاية في الترغيب، ثم وصف الحديث بأنه مهجر المسلمين كمكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث جاءت روايات حديثية ترغب المسلمين في الهجرة إليه والإقامة به، وهذه في ذاتها قوة جاذبة قوية، ثم القدس الشريف مكان مقدس، عُرج به صلى الله عليه وسلم إلى السماء، فكان القدس طريق المعراج ومرقاة مدارجه، وقد شهد الرسول عليه السلام مقامات الأنبياء والصالحين مرورا بها إلى أقصى غاية من القرب الإلهي، لا يمكن لأحد أن يصل إليها.

ثم جاءت الروايات لتصف القدس بأنه مَهْجَر كالمدينة المنورة، ومن ثم حثت الروايات أهل الإيمان على الإقامة بديار القدس، مهاجرين من أوطانهم وبلادهم، وهذا بدوره سبب للجذابية القوية.

كما أن مدينة القدس هي المرحلة الأولى لمعراج النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وارتقاء مدارجه، حيث عُرِجَ به إلى السماء فما فوقها، فبلغ إلى ما لم يبلغه أحد مرورا بمقامات الأنبياء والصالحين.

وهذه المدينة المباركة هي التي كانت شاهدة على السيادة العالمية لنبينا الكريم، وإمامة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حيث اقتدى به جميع الأنبياء والمرسلين، وفي أرضها تم إبراز عالمية النبوة وخلودها.

وهذه هي الأرض المقدسة التي حفظت أجساد الأنبياء عليهم السلام في قبورهم، وآثار تعاليمهم السامية، وهي تدعو أهل إيمان وصلاح إلى حضورها وزيارة آثارها.

على أن هذه الأرض المقدسة هي التي تعد مركز الملاحم الكبرى، وقاعدة عسكرية للحروب الإسلامية الأخيرة العالمية، التي تنتهي إلى انتصار الإسلام العالمي الأخير على جميع الديانات والانتماءات، ويبرز الإسلام كدين عالمي واحد.

وفي المرحلة الأخيرة ستكون هذه البلاد المقدسة أرض المحشر والمنشر، أي بداية عالم الأخرة، كما كانت أرض مكة المقدسة نقطة بداية هذا العالم المادي، وبذلك قامت صلة وطيدة بين الأول والأخر، وهذه حقيقة تحمل في طيها معاني كثيرة للجذابية.

كل هؤلاء وأولئك من الأسباب القوية التي تجعل أرض القدس والشام مقدسة مطهرة مفضلة، وتكسبها جذابية دينية رائعة تشابه جذابية الحرمين المكرمين، ومن ثم اختار الله سبحانه هذه الأرض المقدسة لتكون مركزا للسياسة الدينية والمعارك الإسلامية، وتجمع بين جذابية السياسة وروعة الدين جنبا إلى جنب، لئلا تكون مركزا للسياسة الدنيوية فحسب؛ بل مركزا للسياسة الدينية والدنيوية معا.

الأسباب الجغرافية للسياسة المركزية للشام:

وإذا تدبرنا وجدنا أن هناك أسبابا جغرافية تقتضي أن تكون مركزا سياسيا للإسلام، كما كان الحجاز مركزا دينيا للإسلام، ويناسب لي أن أذكر هنا بعض الأسباب الجغرافية الهامة، ومنها مايلي:

١- إن مدينة القدس كما كانت مقدسة للمسلمين؛ حيث هي أولى القبلتين ومهجر المسلمين في القرون المتأخرة، كذلك كانت قبلة اليهود والنصارى، ومركزهم الديني، وكان هذا يقتضي أن تكون لهم زيارات وجولات في هذه الديار، ولم يرض الإسلام على سلطته الظاهرة بوضع الحد من تصرفاتهم الدينية ونشاطاتهم الدنيوية هناك، ولم يعتبره [المنع] ضمن أعماله المفضلة؛ بل أطلق إذنا عاما لليهود والنصارى بالتصرفات والتقلبات في هذه الديار، في كل زمن حتى زمننا هذا، وإذا كان اليهود والنصارى يشكلون أمتين متخاصمتين شديدة التخاصم بالنسبة للأمة الإسلامية، فكان من الممكن أن تحدث بيهنم اشتباكات ومواجهات، وذلك في صبغة دينية، لا سيما عند اليهود، الذين يحقدون على الإسلام والمسلمين أشد الحقد لنفيهم من أرض المدينة إلى بلاد الشام، وهم يزعمون أن الله تعالى كتب لهم هذه الأرض

المقدسة للأبد، وجعلهم وطنا لهم إلى قيام الساعة، وهذه المزاعم والادعاءات الباطلة قد تدفع إلى المشادة الكلامية والاشتباكات العنيفة بين المسلمين واليهود، فكان من اللازم أن تُجعل هذه الأرض المقدسة مركزا سياسيا للإسلام، أما مزاعم اليهود بأن فلسطين مكتوبة لهم للأبد فهي صحيحة بالنسبة للماضي؛ وكان عليهم أن يلاحظوا أن سيادتهم في بلاد الشام لم تكن مطلقة؛ بل كانت مقيدة بإطاعة الحق، وإذا سلبهم الله عزوجل منصب النبوة، لمعاصيهم ونيلهم من كرامة الأنبياء بالتقتيل والتكذيب سلبهم كذلك سيادتهم في الدنيا وحقهم في أرض فلسطين، فلم يبق هؤلاء اليهود من المواطنين الأصلاء في بلاد الشام، الذين فضلهم الله على غيرهم، "فضلكم على العالمين" وأمرهم بدخول هذه الأرض المقدسة قائلا: **يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ الله لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (*) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ** (سورة المائدة: ٢١-٢٢) وهذه الآية صريحة في أن الدخول مقيد بعدم الارتداد عن إطاعة الله عزوجل: **وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ**، والظاهر أنهم إذا لم يكملوا هذا الشرط؛ بل هم على العكس من ذلك عارضوا الكلام الرباني، وارتدوا على أدبارهم، فظهرت آية "فتنقلبوا خاسرين"، وانقلب عليهم الخسران المبين، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، مما يفيد أن اليهود لم يبق لهم تمكين وسيادة في أرض فلسطين، إلا بحبل من الناس ضعيف، يعتصمون به لمدة قليلة، ولم تبق لهم خصائص وطنية في أرض فلسطين، فإن استطاعوا اليوم احتلال قطعة من أرض فلسطين، فليسوا لأنهم على حق؛ بل كانوا يعتمدون على المسلمين في الماضي، ويعتمدون اليوم على النصارى اليوم، وكل من الأمة النصرانية والأمة الإسلامية تتبعان المسيح عليه السلام، تتبعه إحداهما حقيقة،

وتتبعه الأخرى بشكل رسمي، والحاصل أن اليهود قد فضلهم على غيرهم وأعطاهم الرئاسة والسيادة، ولكنهم عُزلوا عن هذا المنصب العظيم بسبب شهواتهم في الدنيا وتطاولهم على الأنبياء عليهم السلام. أجل! إن التعليمات القرآنية تنص بأن من دخل في الإسلام واتبع نبي الإسلام محمدا صلى الله عليه وسلم، ووفق الشريعة الإسلامية آمن بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، وعظَّم سيدنا موسى عليه السلام، وصدق ما جاء به موسى من كتاب التوراة، الذي فيه هدى ونور، ولم يفته اتباع موسى ضمن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، فلا جرم أن هؤلاء المسلمين الذين صدقوا الأنبياء وآمنوا بهم جميعا، هم أحق بأن يرثوا أرض فلسطين، ومن ثم أورثهم الله الأرض المقدسة: أرض فلسطين، فهي باقية حتى الآن في حيازتهم لو بوجه من الوجوه، والظاهر أن العداوة الدائمة بين المسلمين واليهود تقتضي أن تكون الشام مركزا عسكريا للإسلام، ونظرا إلى المصالح العظيمة اختار الله تعالى بلاد الشام لتكون هي مركزا دينيا كبيرا، فوقع التشريع مطابقا لعين التكوين

٢- السبب الثاني أن العداوة القائمة بين المسلمين والنصارى في بلاد الشام وفلسطين لا تقل في شدتها عن العداوة بين اليهود والمسلمين، بل حدة هذه العداوة تفوق حدة عداوة اليهود، وذلك لأسباب، منها:

(أ) أن الجانب الغربي من فلسطين تتصل حدودها إلى الدول المعادية للإسلام، كدولة الرومان إلى بلاد أوربا، وهذه البلاد حتى اليوم يحكمها النصارى، وهم - كما نص به الحديث- عدو لدود للإسلام والمسلمين، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والروم ذوات القرون، إذا هلك قرن خلفه قرن، الحرب بيننا وبينهم سجال، ينالون منا وننال منهم[1]، فهذا الحديث كشف عن أن العداوة

(١) ما عثرت على هذا الحديث بعد طول بحث وتحقيق.

والمنافسة في الرئاسة بين المسلمين والنصارى ستظل قائمة إلى الأبد، مما يوضح أن النصارى عدو دائم للمسلمين، ونار هذه العداوة لن تنطفئ قبل نزول عيسى عليه السلام، وفي تعبير آخر: ستسمر هذه الحروب ولا تنتهي، كما أخبر به الرسول عليه السلام في حديثه الذي ذكرته سابقا، حيث قال الرسول عليه السلام: كلما ذهبت حرب نشبت حرب، والظاهر أن بيت المقدس مكان، سيولد فيه المسيح ابن مريم، فالظاهر أن هذه العداوة تقوم في هذا الموضع.

(ب) ثم تقع في الجانب الآخر من فلسطين بلاد الحجاز والعراق واليمن ومصر وما يتصل بها من بلاد خراسان وإيران وأفغانستان والهند،و إندونيشيا وجزائر شرق الهند والدول الآسيوية الأخرى، التي قدرها الله لتكون مراكز للإسلام والمسلمين، وقد وقعت كذلك، فكانت فلسطين من جانب معرضةً لخطر اليهود ومؤامرتهم، ومن جانب آخر معرَّضة لخطر الدول النصرانية وهجومهم على بلاد الإسلام والمسلمين، ومؤامراتهم ضد الإسلام والمسلمين، فكانت فلسطين نقطة اتصالات الديانات العالمية الثلاث، وبذلك اقتضت جغرافيتها أن تكون مركزا عسكريا للإسلام والمسلمين، ليمكن للمسلمين الدفاع عن كيانهم بأقصى مايمكن، فإنها كانت مكان الصدامات والنزاعات المستقلة، وهذا ما يشهد به تاريخ فلسطين، حيث كانت هي دائما مكان الحروب والملاحم، فتارة غلب المسلمون على الروم، وغلبت الروم على المسلمين، فقد استمرت مئات الحروب، وصارت أرض فلسطين ملعب الملاحم والحروب، وبعد قيام الدولة الصهيونية في أرض فلسطين انقسمت فلسطين بين المسلمين واليهود، الذين تساندهم دول أمريكا وأوربا، وإن ظهرت باسم دولة إسرائيل، فإن كانت القوى النصرانية من قبل تعيش خارج بلاد الشام، فعادت تتمكن في أرض الشام، فالأخطار التي أشار إليها الحديث النبوي ظهرت في صورة واقع

ملموس، فكان من حق هذه الأرض ومقتضيات جغرافيتها أن تكون مركزا سياسيا وعسكريا للإسلام، كما أشار إليه الحديث النبوي.

(ت) ومن أسباب كون أرض فلسطين مركزا سياسيا أن أرض فلسطين كان من المقرر أن تقع في وسط العالم الإسلامي، فالذي يسيطر على فلسطين يتمتع بثقل كبير في العالم الإسلامي، حيث تقع في شرق فلسطين كل من العراق وإيران، وفي غربها كل من مصر وسويسرا وصحراء سينا، وفي شمالها تركيا والدول الأوربية، نحو البلقان والقاذان واليونان وما إليها، التي كانت من قبل تحت الحكم الإسلامي، وفي جنوبها كل من جزيرة العرب وبحر الهند، والدول التي تجاور هذه الدول تشكل قارة كاملة، يقع في وسطها بلاد الشام، مما ينتج أن البلاد المجاورة لفلسطين إن ناصبت العداء مع فلسطين، أمكنها أن تهاجمها من كل جانب، وإن صادقتها، كان بإمكانها أن تدافع عنها من كل جانب،أو إذا تعرضت بلاد الشام لخطر، أمكن هذه البلاد أن تُعارض بلاد الشام، فتقضي عليها، أو تؤيد بلاد الشام، وتجعلها مأمونة الخطر، حميدة العواقب، وفي تعبير آخر: إذا كانت بلاد الشام مركزا إسلاميا تمتد آثارها إلى ما يجاورها من الدول الإسلامية، فإن كانت بلاد الشام مركزا لليهود والنصارى كانت آثار هذه الديانات تنفذ آثارها إلى هذه الدول، وتصبغها بصبغتها أو تزعزع كيانها، وفي تعبير أوضح: إن كل من يريد نفوذه في العالم الإسلامي كان عليه أن يسيطر على بلاد الشام وفلسطين، فلولا أن نصبت للإسلام رأية الفتح والانتصار في بلاد الشام وفلسطين لتعرض العالم الإسلامي لخطر داهم لايُغلب، كما نشاهد في هذه الأيام، حيث قد ضعف الكيان الإسلامي في هذه البلاد وصارت لليهود دولة في قلب العالم الإسلامي مما أدى إلى سريان الضعف والانحطاط في جميع البلاد الإسلامية، ومن ثم فان النصارى إذا استولوا على فلسطين

وجعلوا مناطقها الواسعة للدولة الصهيونية، أصبحت فلسطين مركزا عسكريا لأمريكا وأوربا، فكان من مقتضيات جغرافية الشام أن تكون مركز الحروب والسياسة والتدبير للإسلام، وتستمر الحروب في آفاقها الواسعة، فجعلها الإسلامُ مركزه السياسي، وبين أن من خصائصها "كلما ذهبت حرب نشبت حرب"، أي تبقى هذه الأرض مركزا للحرب دون السلم، حتى كأن أبواب دمشق بنيت لترفع منها نعرات الحروب وصيحات التكبير، وشعار الجهاد، والدعوى الصادقة التي أطلقها الحديث منذ ثلاثة عشر قرنا بأن الشام هي مركز سياسي للإسلام يصدقها الواقع الغابر والواقع المعاصر، كما أن التاريخ صدّق أن بلاد الحجاز هي مركز الأمن والسلام، ومركز الدين والعبادة في الإسلام، فإن العبادة تحتاج إلى أمن وسكينة، فبدون الأمن والسلام لا يمكن للعبادة أن تؤدى بشكل أفضل، فالدلائل العقلية والنقلية والجغرافية كلها أكدت على أن الحجاز هي مركز الأمن والعبادة، والشام هي مركز الحروب والملاحم، وبذلك وصف الحديث بلاد الشام بأنها معقل المسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمُ الشَّامُ، فَإِذَا خُيِّرْتُمُ الْمَنَازِلَ فِيهَا، فَعَلَيْكُمْ بِمَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: دِمَشْقُ، فَإِنَّهَا مَعْقِلُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَلَاحِمِ، وَفُسْطَاطُهَا مِنْهَا بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الْغُوطَةُ"(١).

فسياق الأحاديث الواردة في بلاد الشام ومدنها تؤكد على أن الشام هي مركز سياسي للإسلام، وتستمر فيها الحروب الإسلامية مع غيرها، وتكون قاعدة عسكرية للإسلام في الملاحم، ولا شك أن هذا شأن المركز السياسي الكبير.

وإذا نظرنا إلى الخصائص العامة لبلاد الشام وجدناها أيضا تقتضي أن تكون هذه البلاد مركزا سياسيا للحروب والمعارك، فقد احتوت هذه البلاد بحكم الفطرة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث: ١٧٤٧٠.

على ما يسبب الحروب والمعارك ويثير المنافسة بين الدول والأمم، ففيها أرض خصبة، وأشجار مثمرة، وأودية خضراء، وجبال شامخة، وتلال مخضرة، وأنهار عذبة جارية، وكثرة الأثمار والأزهار، والمدن المحاطة بالتين والزيتون، والحدائق المليئة بالأثمار والمكسرات، وأسواق التجارة، وإفراط المال وأسباب التنعم، مما يجعل كل حكومة في الدنيا تنظر إليها نظرة طمع وحرص، وتنافس الأمم والدول في السيطرة عليها والكيد لها، فمن يتمتع بالاقتصاد القوي يفرض نفسه على غيره من الدول والحكومات، فكان النفوذ الأجنبي في بلاد الشام يؤثر سلبا على جميع بلاد العالم الإسلامي، مما يُخِلُّ بأمن هذه البلاد ما لم يكن للإسلام أثر ونفوذ في بلاد الشام.

فالحاصل أن الخصائص العامة والجغرافية للشام كانت أيضا تقتضي أن تكون هي مركزا سياسيا وحربيا للإسلام، فإن الله تعالى جعلها كذلك استجابة لفطرتها وخصائصها.

آثار الطور في مصر:

والظاهر أن التجلي النازل على الطور حول الطور إلى مركز مدافع عن الإسلام، وهذا الشأن: شأن الدفاع والصيانة انتقل إلى ماجاوره من البلد والبيئة، وهي بلدة مصر، فكما أن بلاد الحجاز والشام صارت مراكز الدين والسياسة حسب ماورد فيها من التجلي، صارت مصر كذلك مركزا عسكريا للحفاظ على الثغور الإسلامية وفق التجلي الوارد في الطور، والفرق بينها أن المركزية مركوزة في طبيعة الحجاز والشام منذ الفطرة، ولم تكن متقيدة بوقت أو ظرف، بل ظهرت بنوعية خاصة وتابعة لظروف خاصة، فمركزية مصر لا تتعلق بفطرتها وذاتها؛ بل جاءت مرتبطة بالأنبياء عليهم السلام نحو موسى ويوسف وعيسى والقرى الإسلامية، فثبت لها فضل في القرون المتأخرة؛ وإلا فكانت هذه المنطقة قبل هذا دار الفاسقين.

فتجلي الطور الذي وهب له كل هذا الخير والبركة لم يجعله مركزا للعبادة ومكانا للهجرة؛ نعم جعله قاعدة عسكرية ورباطا للإسلام، ليتم منه الدفاع عن الإسلام، ليقويه

سكانه ويسانده المسلمون الساكنون خارجه، فالحديث الآتي يسلط ضوءا خاصا على مصر ومركزيتها، ليجعله رباط الإسلام المدافع عن الإسلام، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيرا، فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة"[1].

وبذلك اتضح الغرض النبوي، وهو أن مصر الواقعة على أقصى الحدود الإسلامية التي تصل آسيا وإفريقيا بأوربا، وتطل على القوى المعادية، فكانت الحدود الإسلامية الغربية في حاجة ماسة إلى أن تقع في تلك البلاد قاعدة عسكرية مستقلة، تضم جندا فاضلا، هو خير أجناد الأرض، فإنهم لوقوعهم في الحدود الخطيرة سيكونون في جهاد مستمر وقتال دائم، فأُمر المسلمون الخارجون من مصر بمساندة ومساعدة الجند المصري، والاستفادة من خيرهم وبركتهم، ولم يؤمروا بالإقامة هناك، ليقيموا هناك بنية العبادة، فإن ذهابهم إلى مصر يقوي جنود مصر، كما جاء في الحديث الذي يفيد: ستفتحون مصر، فالتمسوا خيرها ولا تجعلوا هناك ديارا"، والمعنى: لاتذهبوا إليها بنية الهجرة؛ إلا أن ورود المسلمين هناك سيضاعف قوة المسلمين المرابطين هناك. وذلك ليكون مركزا عسكريا للإسلام.

الحاصل أن المسلمين سواء كانوا داخل مصر أو خارجها إذا ضعَّفوا قوتهم العسكرية في مصر أو خلت من المحصولات وقت الحصاد، لاجرم سيأخذها العدو، ويقهرها، ويجعلها قاعدة عسكرية، مما يشكل خطرا كبيرا على كيان العالم الإسلامي، والظاهر أن مصر وجه آسيا، وبوابة أوربا، والذي يسيطر على قعر الدولة يسيطر على كلها، فيكون الصدام في الواقع بين الحضارات والثقافات، مما يترك أثرا بعيد المدى،

(١) المتقي الهندي، **كنز العمال**، ج١٤، ص١٦٨، رقم الحديث: ٣٨٢٦٢.

فجاء الحديث ليؤكد المسلمين على أنهم عليهم أن يضعوا في الاعتبار مبدأ الحفاظ على هذا الثغر الإسلامي بصفة خاصة، ويقووا هذه الدولة من الناحية العسكرية، وإلا لكان فساده سببا لاضطراب العالم الإسلامي.

ويشهد به التاريخ القريب؛ حيث إذا ضعفت هذه القاعدة العسكرية بزوال الخلافة العثمانية؛ بل عدمت وخلت من القوة العسكرية، ولم يعد في تصرف المسلمين نهر السويس الذي هو جسر بين الشرق والغرب، قام هناك نفوذ أجنبي قوي، يدك نظام مصر، بل نفذت آثار الغرب إلى العراق والشام، وجزى الله خيرا بعض حكام مصر، الذين أعادوا لمصر قوتها وشوكتها، ولم تذهب شوكة الخلافة العثمانية من هذه المنطقة إلا لأنها لم تهتم بالجانب العسكري المطلوب، ومن المؤسف أن المسلمين هم الذين أفسدو الجو، وعملوا على إلغاء الخلافة بكل وقاحة، فهم الذين اعتبروا القوة العسكرية شوكة في طريق إنهاض الاقتصاد القومي، فكان الاعداء ينظرون إلى مصر نظرة حرص وطمع، ويتربصون بها الدوائر، وكيف لا؟ فمصر هي الممر الوحيد لأوربا إلى آسيا، وبعد زوال الشوكة الإسلامية عن مصر اطمأن الأعداء، وطاب خاطرهم، وفرحوا أن آسيا كلها ستكون لهم قريبا، سواء كانت من ناحية الاستعمار أو من ناحية الانتداب، ومن هنا بذل الصحابة جهودا مشكورة في فتح مصر والشام، مما يوضح أن الله تعالى أعار أرض مصر أهمية قصوى، واختارها لتكون قاعدة عسكرية للعالم الإسلامي كله بصفة عامة، وللبلاد العربية بصفة خاصة، وحصنا منيعا للمسلمين، وهذا لا يختص بوقت دون وقت؛ بل يعم الأزمان كلها، ومن ثم سوف تنشأ هنا حربان عالميتان عظيمتان في أواخر الدنيا، مما عُدَّ من أشراط الساعة القريبة، إحداهما فتنة الدجال، والأخرى فتنة ياجوج وماجوج، وقد امتلأت الأحاديث بتفاصيلها، فمعقل المسلمين من فتنة الدجال المسيح الكذاب هي بلاد الشام، كما مر

حديث في هذا الشأن سابقا، قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومعقلهم من الدجال بيت المقدس[1].

أما معقل المسلمين من فتنة ياجوج وماجوج فهو الطور، الذي كان في قديم الزمان جزء من مصر، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومعقلهم من ياجوج وماجوج الطور[2]، فكيف يمكن ألا تحمل مصر هذا الشأن والمركزية، مع كونها طريق السيناء وظرفها.

المطلعون على الأحاديث النبوية يعرفون جيدا أن الدجال من اليهود، وإلا فلا أقل من أن أتباعه الأولين هم اليهود كما نص به الحديث، فأمكننا أن نعبر عن فتنة الجال بفتنة اليهود، فاليهود هم الذين يدَّعون إرث أرض الشام وفلسطين وفق الروايات القديمة، وبناء عليه ظهر الماكرون في هذا العصر ليسلبوا جزءا من أرض فلسطين ويهبوا لها اليهود، ليبقى هذا السيف معلَّقا على قلب العرب، فكان من الطبيعي أن تكون بلاد الشام مركزا لفتنة الدجال، ومركزا للحروب الإسلامية، فتكون أرض الشام هي مركز لليهود والصهيونية كما هو واضح الآن، ثم في أرض الشام تحتدم المحلمة الكبرى، وهي ملحمة إسلامية أخيرة، لها عظمة الأثر، وصدى بعيد المدى، أما سعة ميدانها فيكفيني أن أنقل ما جاء في الحديث بأن غرابا واحدا يحلق فوق الميدان من الصباح إلى المساء، فلا يرى إلا الأشلاء والجثث الهامدة، مما يدل على أن الجبهة الحربية تكون عظيمة غير محدودة، وممكن أن تكون الإشارة إلى الحروب الماكينية، فهذا النوع من الحروب هو الذي يحوي هذا القدر من الجبهات الحربية.

أما فتنة ياجوج وماجوج فتكون مصر مركزا للدفاع عنها، أما أن من هم ياجوج وماجوج؟ فقد اختلف العلماء في بيانهم على أقوال، مما يجعل الأمر صعب التحديد، فقال البعض من العلماء: إن المراد من ياجوج وماجوج هم النصارى، أو على الأقل تنطبق

---

(١) المتقي الهندي، **كنز العمال**، رقم الحديث: ٣٨٥٥٤.

(٢) المصدر السابق.

عليهم صفات ياجوج وماجوج، وقوة مركزهم في الغرب، يقال: قد كُتِب على بوابة البرلمان البريطاني بخط غامق "ياكوك ماكوك"، وإن لاحظنا في الاعتبار هذا المعنى كان الحاصل أن مصر هي مركز قوي، يدافع المسلمون من هناك عن مؤامرات الغرب وفعالياتهم العدوانية، فأمكننا أن نسمي فتنة ياجوج وماجوج بفتنة النصارى، وفي هذا السياق إن جعلنا نصارى أوربا مصداقا لياجوج وماجوج، أفاد الحديث أن مصر هي مركز للدفاع عن مؤامرات النصارى وعداواتهم، حيث يكرس النصارى أقصى جهودهم في السيطرة على مصر، فمصر هي مركز للدفاع عن مكائد النصارى، كما أن بلاد الشام هي مركز للدفاع عن فتنة اليهود، وهذا يقتضي أن يعمل المسلمون على إحكام وإنهاض بلاد الشام ومصر ببذل كل الوسع والطاقة، فقد حدث أن مصر لما اعتلى على عرشها جمال عبد الناصر هجمت بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل على نهر السويس، إلا أن الرئيس جمال عبد الناصر أعمل في الواقع الحكمة والتدبير، وجدد لمصر قوتها ونهضتها، ووقاها سيطرة الأعداء، ومن الإمكان بكثير أن تتكرر مثل هذه الحوادث، فلا بد من اتخاذ تدابير حاسمة وواقية تجعل مصر قوية معتدة بذاتها، تدافع عن نفسها، وتحفظ كرامتها.

وهذا الكلام يبرز -إلى الكشف عن الغرض النبوي- أن الشام إذا كانت مركزا حربيا للإسلام، فمصر كانت قاعدة عسكرية للإسلام، فوصفت الأحاديث الحجاز بأنها معقل الدين، والشام بأنها بعقر دار الإسلام، ومصر بأنها رباط الإسلام.

فالحجاز لكونها قبلة الأمن مركز للدين والعبادة، والشام لكونها مجال الحروب مركز للدولة والسياسة، ومصر لكونها بوابة أوربا ونقطة وصل بين أوربا وآسيا مركز عسكري قوي للإسلام، كما تم تفصيلها سابقا.

الأسباب الجغرافية لكون مصر مركزا عسكريا للإسلام

ومع كل التفاصيل الشرعية الواردة في مصر، التي ذكرتها سابقا، هناك ظروف جغرافية تقتضي أن تكون قاعدة عسكرية عالمية للإسلام، ولما كان فتح البلاد كان

خاضعا للنظام الاجتماعي للإسلام، ليساير نظامُ الإيمان والرسالة نظامَ العدل والمساواة، ويقوم مجتمع حقيقي أخوي في العالم كله، مصبوغ بصبغة الآخرة والإخلاص لله وحده، ومن هنا أقيم نظام الجهاد بشكل العبادة إلى قيام الساعة، ليتم استئصال الفتن، وإعلاء كلمة الله، وتجري عملية نشر الإسلام في الدنيا بلا لومة لائم، ويتوسع نطاق إعلاء كلمة الله والدول الإسلامية، كما وقع ذلك، كما قام به المجاهدون المخلصون من القرن الأول، حيث دكُّوا الإمبراطوريات العظيمة، وقضوا على الروم والفارس قضاءًا أخيرا، وسقطت الدول الكبيرة في قدم الإسلام، ومدوا الدولة الإسلامية إلى مناطق بعيدة في العالم في مدة قليلة لا تتجاوز ستين عاما، والظاهر أن حفظ هذه الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ألزم من توسيعها، وهذا لا يتم بدون جبهة عسكرية قوية، تتغلب على المشكلة وتدافع عن الثغور الإسلامية أجمل الدفاع، فإنها إن ضعُفت تأسَّد الأعداء، وبسطوا نفوذهم في الدولة الإسلامية.

وبما أن معظم الفتوحات الإسلامية إنما كانت في بلاد آسيا وذلك لأسباب فطرية، وبما أن التيار الإسلامي كان شديدا في بلاد آسيا، شعر الغرب بخطر عظيم للقوة الإسلامية الشرقية، وناصب عداءً شديدًا، فكان لا بد من إقامة قاعدة عسكرية، تقع بين الشرق والغرب، وتكون باب أوربا، لتكون السيطرة الإسلامية على هذه البلاد مؤثرةً في القوى الغربية، وتكون سدًا منيعا أمام هذه القوى الغربية الطاغية، وتؤثر فيها تأثيرًا عميقًا في عقلية الإنسان الغربي، ويصل الصوت القوي من الدعوة الإسلامية إلى هذه الدول، وإلا ففقدان القاعدة العسكرية يأتي بنتيجةٍ مضادةٍ، تتمثل في أن باب الغرب يسد أمام الدول الشرقية، وتنفذ آثار الغرب على دول آسيا.

والظاهر أنها لم تكن دولةً متاخمةً لحدود الشرق والغرب، تصل بين منطقتين متضادتين إلا مصر، حيث هي حدٌّ فاصلٌ بين الشرق والغرب، فلن تدخل قوة غربية في الحدود الشرقية إلا بعد عبود دولة مصر، كما أن الدول الشرقية تحتاج إلى مصر للوصول

إلى أوربا، فنهرُ السويس باب طبيعي بين الشرق والغرب، حيث السيطرة عليها هي الجسر الوحيد للتواصل بين الشرق والغرب، فالدولة الشرقية لا تتقوى إلا بعد سيطرة كاملة على مصر، وإلا كانت مصر قاعدة حربية للأمم الغربية، مما يؤدي إلى فساد كبير وخلل عظيم في أهداف دينية للإسلام، فضلا أن يتسع نطاق الإسلام، فاختار الله تعالى مصر لتكون قاعدة شاملة مركزية للإسلام، وجعلها مركزا عسكريا له، حيث هي تمثل باب الشرق والغرب، فهي باب الشرق للغرب، وباب الغرب للشرق، ونهر السويس هو الممر البحري بين آسيا وأروبا، والظاهر أن الباب إذا خلا من الحارس، لا يمكن حفظه، وقد جاء الحديث النبوي بما يفيد هذا المعنى، نعم! إذا سهِر الحارس القوي على البوابة، بقيت الدار والبوابةُ مصونة، ومن ثم تقدَّم المسلمون بعد فتح مصر نحو إسبانيا، وأقاموا دولة إسلامية في أوربا، وتقدموا حيث ما تقدموا، ووصلوا إلى ماشاء الله أن يصلوا، فجاء الإسلام ليفي بمتطلبات هذه المنطقة الجغرافية، ويحولها قاعدةً عسكريةً.

وعلى كل فإنا إذا تحدثنا عن هذه الأماكن الثلاثة سواء كانت من الناحية الجغرافية أو من ناحية الخصائص المكانية وجدناها يقتضي كل منها بحكم الطبع والفطرة مركزيتها المتنوعة المتمثلة في العبادة والسياسة والعسكرية، وقد راعى الإسلامُ هذه المقتضيات أكمل المراعاة، واختارها لتكون هذه الأماكن الثلاثة مراكز متنوعة، فأصبحت الحجاز معقل الدين، والشام عقر دار الإسلام، ومصر رباط الإسلام، وفي تعبير آخر: أعطى الله تعالى هذه الأماكن الثلاثة مركزية تتلاءم وطبيعتها، ولقبها بألقاب تناسب قدها، وتعرِّف بمكانتها في الإسلام، فجاء التشريع موافقا للتكوين، وهذه الموافقة من أبرز المميزات للإسلام دين الفطرة في جميع الشؤون الدينية والدنيوية، فإنه لولا الأمر كذلك وساغ تحمل وجود الأجانب في تلك الأرض لكان النفوذ الأجنبي فرض نفسه على العالم الإسلامي وامتد في جميع الأراضي الإسلامية، مع أن حركةً في المركز تذبذب الدائرة كلها.

والحاصل أن هذه الأماكن الثلاثة: بلدة مكة (البلد الأمين) وبلدة الأقصى (القدس الشريف) وجبل الطور(جبل سينا) ليست هي مقامات مقدسة فحسب؛ بل هي أساس القداسة والعظمة في جميع الأماكن المقدسة، وأساس القداسة في هذه المدن الثلاث هي التجليات الربانية، وليست هي ذات عظمة وأثر؛ بل هي مؤثرة في جميع البيئات، فأعطى الله تعالى هذه الأماكن مركزية تناسبها ببركة الإسلام، وبما أن الإسلام ليس قانونا محضا أو تقاليد محضة أو مشروعا نظريا محضا؛ بل هو دين مرضي لدي الله سبحانه، ويبتغي كل أمر فيه وجه الله سبحانه، فمركزيتها ليست خاضعة للجغرافيا أو التاريخ؛ بل هي مركزية ذات صبغة إسلامية، لتعرف هذه الدول حقوقها الإسلامية وتصدر عن معيار الدين والأمانة، ولا تكون محلا للسياسة الخبيثة وأصحاب المكر السياسي.

وبما أن التجليات الربانية متفاوتةٌ فيما بينها، فمنها ما هو أقرب إلى الذات الإلهية؛ حتى لكأنه بمنزلة الذات، ومنها ما هو وصفي، ومنها ما هو فعلي، ونظرًا إلى ما بينها من تفاوت، قام فرق في مراتب موارد التجليات الربانية، وحدث فرق كبير في المكانة بين الكعبة والمسجد الأقصى والطور، فصارت الكعبة المقدسة مركزا للدين والعبادة، وهي مورد تجلي الموجود، وصار الأقصى مركزا سياسيا للإسلام والسياسة إحدى وسائل العبادة، وهو مورد تجلي الملك، وعاد الطور مركزا للدفاع والعسكرية، وهي من وسائل السياسة، وهو مورد تجلي الدافع والمانع، ولم يكن مستقرا للتجلي، فقامت مركزية متنوعة في كل مكان، تناسبه من جميع النواحي، وهذا مقتضى نقاط الفيض الربانية.

خلاصة بحث النوعية المركزية للمراكز الثلاثة وحقوقها على المسلمين:

إن التفاصيل السابقة والإيضاحات العلمية المفصلة المدعومة بالدلائل الشرعية والتاريخية والجغرافية والطبعية والعقلية تتلخص فيما يلي:

١- إن كلا من الحجاز والشام ومصر مع تفاوت في العظمة والمكانة مراكز إسلامية أساسية مقدسة، ولما كان الحجاز وسط العالم، كان مركز العبادة والأمن، والشام وسط العرب لكونها متصلة بالحجاز فهي مركز الحرب والسياسة، ومصر متاخمة للحد الفاصل بين الشرق والغرب، فهي مركز عسكري، وقاعدة عسكرية للإسلام، مما عبر عنه لسان النبوة على صاحبها السلام بقوله: معقل الدين، وعقر دار الإسلام، ورباط الإسلام، كما سبق تفصيله.

٢- إن النقطة المركزية في الحجاز هي بيت الله، ولما كان مركز العبادة منذ الخليقة، كان الإنسان يتوجه إليه بصفتها مركزا للعبادة، ونقطة الفيض في بلاد الشام هي بيت المقدس(المسجد الأقصى) التي وضعت منذ اليوم الأول لتكون مصارع الأبطال، ومعترك الأمم، فكان ذكرها يبعث في الناس الحمية والأنفة، وبالتالي عاطفة القتال والحرب، وقد شهد تاريخ بيت المقدس وبني إسرائيل بأن فلسطين ظلت مركزا للحروب السياسية والدينية المستمرة، وقد شهدت هذه الأرض عددا من الثورات والتقلبات، بل جاءت الشواهد التاريخية لتؤكد أن بعض أنبياء بني إسرائيل ظهروا في صورة ملك، على العكس من الكعبة المكرمة، التي مازالت مركزا للعبودية والألوهية، فقد رجع إليه جميع الأنبياء للعبادة، وقد نص الحديثُ بأنه ما من نبي إلا وقد طاف بالبيت، كما وصل إليها أتباع الأنبياء بعاطفة صادقة، ونية خالصة، وكانوا يدعون الله هناك كثيرا، والدعاء كما هو معلوم- مخ الدعاء، ولب العبادة، والظاهر أن هذا الوضع مختلف تماما عن وضع العداوة والتنافس، فظل وضع الكعبة المقدسة مصبوغا في كل زمان بصبغة الهدوء والسكينة والصبر والأناة والتحمل، وظل الفقر والخمول هما الأفضل هناك من الإمارة والحشم الملكي، ومن هنا لم يتم بناء الكعبة بالجواهر الدرر كالقصور الملكية؛ بل بحجارات عادية؛

ولكنها مأخوذة من جبال مخصوصة، ولد في ظلالها ونشأ في أحضانها عدد من الأنبياء أولي العزم، وحضاراتهم الكبيرة، كما جاء في كتب السيرة أن الملائكة ملأوا أساس الكعبة بحجارات من خمسة جبال، كانت منشأ الأمم الكبيرة نحو جبل سينا وجبل زيتا وجبل الحجاز وجبل الجودي وما إليها، ليظهر كونها مركزا دينيا عالميا مع تكونها من أشياء مادية، أما بيت المقدس فقد بُنِيَ بالجواهر الكريمة والذهب والفضة والمعادن النفيسة، وتم تصميمه وفق هندسة رائعة ذات تطريز رائع، فبناؤه من أهم البنايات من حيث الهندسة والمستوى المادي، ولما كانت الكعبة المكرمة موضوعة بلون الزهد والعبادة، فخلقت لتكون مركزا دينيا، أما القدس فقد تمتع بوضع حكومي منذ اليوم الأول، فصار مركزا للسياسة والسلطة والحرب والسلم، ولما كان هذان المركزان في حاجة شديدة إلى جبهة عسكرية وقاعدة حربية قوية تدافع عن المركزين، وتصمد أمام الطوفان الغربي كالجبال الراسيات، وتصون كرامات الشرق، فاختيرت لذلك مصر، حيث هي واقعة بين الشرق والغرب، وكانت مصر مركزا عسكريا للإسلام، وجاءت قداستها من نقطة الفيض فيها، وهي الشجرة المباركة والبقعة المباركة، والظاهر أن دينا -كالإسلام- جامعا بين الدين والدولة، وبين الديانة والسياسة، وبين الروح والمادة كان في حاجة طبعا إلى مراكز ثلاثة، تؤثر في كل العالم الإسلامي، ليظهر من هذه المراكز النظام التعبدي والنظام السياسي للإسلام بشكل عالمي.

٣- ونظرا إلى شمول الإسلام وسعته فقد أوتي المسلمين هذه المراكز الإسلامية الثلاثة من الله عزوجل، لا من قبل الخلق أو منظمة، ثم أوتوا ليتصرفوا فيها، مما يقطع كل شبهة من التصرف الأجنبي، والصحيح أن هذه المراكز كانت في أيدي الكفار والمشركين عند ظهور الإسلام، فكان الحجاز في سلطة المشركين العرب، بينما

كانت الشام يحكمها النصارى، فيما كان الأقباط يحكمون مصر، ولكنهم إذا فرطوا في أداء حقوقهم كما كان ينبغي؛ بل بالغوا في انتهاك حرماتها، وتصرفوا فيها كالأملاك الشخصية، وصبغوها بصبغة قومية خاصة، مما ذهب بعالميتها وأثر في آفاقيتها، فظهرت سنة الله، فأدال دولتهم وسيطرتهم على المراكز، وفوَّض شؤون هذه المراكز إلى أمة حديثة، تعرف حقوقها، وتملك أخلص العزائم وأطيب الأهداف، فقامت باحترام المراكز وتقديسها والإبقاء عليها بشكل عالمي، فكان المشركون في الحجاز كانوا سدنة الكعبة باسم اتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولما استبدلوا بشعائر الله الأوثان الميتة، والأصنام الضعيفة، وأصبحوا يعظمون الأصنام داخل الكعبة، وحل الوهم محل العبادة، وملئ فناء الكعبة بشتى أنواع الأصنام، وعاد كل منهم يجعل عباد الله يخضعون للكعبة، مما أدى إلى تفاقم الشرك لا في الحجاز فحسب؛ بل في العالم كله، وإذا صار الأمر كذلك غيَّر الله السيادة كسنته، حتى ظهر صوت رباني مجلجل في محيط الشرك والظلمات، وبعثت أمة إبراهيمة، تحترم الشعائر وتراعي حقوقها، وتعظم بيت الله، الذي بناه إبراهيم، فطهرت من أنجاس الشرك والوثنية، وجعلته مركزا للتوحيد الخالص، كما كانت منذ الفطرة، وكان حقه الأساسي، فتم تفويض سيادة الكعبة إلى أمة مسلمة للأبد.

أما بلاد الشام وفلسطين فقد وهبت أولا لليهود، كما جاء في كتاب الله: **يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ** (سورة المائدة: ٢١)؛ ولكنهم نقضوا ميثاق الله، وعصوا ربهم، وكفروا بنبيه، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنًا قليلًا، وعادوا يحرفون في كتاب الله، وقتلوا الأنبياء وكذبوهم، كما جاء في الآيات التالية:

- **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (*) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (*) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (*) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** (سورة المائدة: ١٥٥- ١٥٨).
- **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** (سورة آل عمران: ١٨٧).
- **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ** (سورة البقرة: ٧٩).
- **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا** (سورة النساء: ٤٦).
- **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** (سورة البقرة: ٨٧).

وكان لليهود أن يتوبوا إلى الله، ويحسنوا عاقبتهم في الدنيا والآخرة باتباع المسيح بن مريم عليهما السلام، ولكنهم بدل أن يتبعوه عصوه وكذبوه وغضوا من قدره، ولم يتركوه داعيا إلى الله بسكينة وهدوء، حتى استعدوا لصلبه، وزعموا أنهم صلبوه في القمامة، واعتبروا هذه القمامة أنجس الأمكنة، ثم ألقوا هناك أغلظ الأشياء.

فبعد ما بلغ ظلمهم وعدوانهم الغاية، حرمهم الله تولية المسجد الأقصى، وحق تملكهم على أرضه، وسلط عليهم النصارى، حيث تم استيلاء النصارى على أرض فلسطين قبل بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم بنحو ثلاثة قرون، وطهروا القمامة (المكان المزعوم لصلب عيسى عليه السلام)، وبنى عليه الملك قسطنطين كنيسة عظيمة، وسماها "هيلانة الحرانية البندقائية"، كما أمر الملك ابنه ليبني على مولد عيسى مبنى تذكاريا فاخرا، وسماه بيت اللحم، وعظم هذه الأمكنة تعظيما، وسار على ذلك النصارى اللاحقون، فأكرموا الأمكنة التي أهانها اليهود، وطهروا نجاسات اليهود، فصاروا يستحقون خدمة المسجد الأقصى؛ ولكن بعد ما تمَّ لهم الاستيلاء واستتبت إمارتهم في أرض فلسطين عادوا يحذون حذو اليهود، فنشبت بينهم العداوة والبغضاء، وتركوا شعائر الله، واشتغلوا بتعظيم الشعائر المزعومة التي بنوها، فعادوا يعتقدون أن مولد عيسى عليه السلام (بيت اللحم) والقبر المزعوم له أصل الشعائر المعظمة، وتركوا المسجد الأقصى، وهو من الشعائر الصحيحة، فابتلوا بمرض اليهود، فطهروا الأماكن التي نجَّسها اليهود، كما نجَّسوا الأماكن التي قدَّسها اليهود كالصخرة المعلقة التي هي قبلة اليهود، فألقوا عليها الأنجاس، وجعلوها مزبلة، لكونها قبلة اليهود؛ حتى أن كل جزء من المسجد الأقصى نسب إلى اليهود قاموا بتذليله والغض من قدره، مع أن كل جزء منه كان من المسجد الأقصى، وجديرا بالتعظيم لكونه من شعائر الله؛ ولكن التعصب الأعمى خدَّر عقولهم، فعاملوا الشعائر المقدسة معاملة الأملاك الشخصية.

والظاهر أنه لاتنجح أمة تزدري بالشعائر الإلهية، ولذا حان زوال النصارى، وانقرض ملكهم، ومكَّن الله تعالى للمسلمين في الأرض، وجعلهم سادة وولاة المسجد الأقصى، فقد تم فتح أرض فلسطين في العهد الفاروقي السعيد، فقام عمر رضي الله عنه بتطهير شامل للمسجد الأقصى من جميع ما علق به من أدران وأنجاس ملقاة على بيت اللحم والصخرة المعلقة.

وفي مقابل ذلك وضع الإسلام منهجا سياسا رائعا، يتحكمه الدين والأمانة والرعاية وتعظيم شعائر الله، فقد طهَّر عمر رضي الله عنه بعض أجزاء المسجد الأقصى بذيل عباءته، واحتفل بالفتح بأداء ركعتين شكرا لله سبحانه، أي أوضح في اليوم الأول أن الفتح الإسلامي لا يرمي إلى الاستيلاء على البلاد والتمتع بأسباب التعيش والتنعم، ولا التعصب ضد الأمم المغلوبة على أمرها، بل يرمي إلى تعظيم شعائر الله، وإبراز العدل والإنصاف والمساواة وإعطاء كل ذي حق حقه، حيث أكد الإسلام على عظمة وتوقير هذه الأراضي المطهرة منذ لم يكن الإسلام فاتحا لبلد من البلاد، فضلا عن أن فتحه للشام، وكانت بلاد الشام وفلسطين تحت يد النصارى، وجعل الإسلام المسجد الأقصى القبلة الأولى للمسلمين، فعظمه المسلمون وهم في بيوتهم تعظيما لم يقم به سدنته من النصارى.

وبعد تحويل القبلة لم تغب عن خواطر المسلمين معاني تعظيم المسجد الأقصى؛ بل رغَّب المسلمين في حضور المسجد الأقصى وأداء الصلاة فيه، وخدمته، وقدَّسه إلى يوم القيامة، حتى اعتبره مهجرا للمسلمين كالحرمين الشريفين، ورغَّبهم في الإقامة هناك، ومن ثم مازال المسلمون يسافرون إلى الأقصى بنية العبادة، ويقيمون هناك، يصلون ويسجدون لربهم، ويقومون بجميع أنواع التعظيم، والمسلمون كلهم في العالم يحملون في قلوبهم عظمة وحرمة للمسجد الأقصى، تماثل عظمة الحرمين، حتى عدَّه الإسلام أحد المساجد الثلاثة، التي تتميز بالأساس الديني.

وما قام به المسلمون من أداء جميع الحقوق كان سببا قويا لزوال ملك الأمم الأخرى العاصية، وتمكين المسلمين المطيعين هناك، فأورثهم الله هذه الأرض منذ قرون، كما شهد به التاريخ الإسلامي، وقد ذكر ابن الوردي في تاريخه حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم، الذي قال لعمر: يا عمر! ستفتح بيت المقدس بلا قتال[1].

---

(١) ابن الوردي، عمر بن مظفر، **تاريخ ابن الوردي**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٦م) ج١، ص٧٥.

وهذا واضح في أن اليهود والنصارى أنذاك كانوا يعرفون جيدا في ضوء كتبهم السماوية أن حق تولية المسجد الأقصى والتمكين في بلاد الشام حق المسلمين من بعد، فقد رضوا بأن يسلموا زمام الأمر إلى المسلمين، وإلا فلايمكن أن تفتح بلدة كاملة بلاقتال.

بل أسلاف النصارى يعرفون أن تولية المسجد الأقصى ستزول عنهم سريعا، يعرفون هذا قبل ظهور الإسلام، وأن المسلمين هم الذين سيتولون زمام الأقصى قريبا، ففي أيام الجاهلية سافر عمر الفاروق رضي الله عنه إلى بلاد الشام، ولم يظهر الإسلام من بعد، فلقيه بطريق شامي، وتفرَّس فيه علائم الخلافة من بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فاستكتبه بالأمان لنفسه في عهد خلافته، ولم يكن يتصور أحد حتى عمر أنه سيحكم بلاد الشام، ولما سأله الفاروق بحيرة واستعجاب، قال: جاء في الكتاب المقدس أن الخليفة الثاني سيفتح بيت المقدس، وله علامات متميزة، توجد فيك أنت، فأنت هو الخليفة، وأنت الذي تفتح هذه البلاد وتحكمها، مما يوضح أن النصارى كانوا يعرفون ذلك قبل ظهور الإسلام بكثير.

ثم استحقاق المسلمين لأرض القدس لا يثبت بشهادة هذا البطريق وحده؛ بل بدلائل أخرى قوية، ومن ثم لما بلغ عمر الفاروق رضي الله عنه أرض القدس ليفتحها، ولقي سادة المسجد الأقصى وسدنته، فصدقوا ما كانوا قرأوه عن الخليفة الثاني، فأسلموا القدس له بدون قتال، مما يثبت بدليل قوي أن القدس حق المسلمين لاغير.

وقبل هذا كله بل أول كل شيء هو ما أخبر به الله سبحانه في الكتب السماوية عن القدس، فإنه قد جاء فيها ما يقضي بأن القدس حق المسلمين، وأسلاف النصارى الذين عرفوا الأمر أسلموا القدس للمسلمين، وتنحوا عن الطريق.

فقد ثبت بالأخبار الربانية القديمة والحديثة وبشهادات الأتباع والأغيار أن القدس حق المسلمين، ولما دخل القدس في حوزة المسلمين بدون قتال أو بتسليم

النصارى إليهم، دلَّ على أن كلا من المسلمين والنصارى متفقون على هذا المبدأ، ومن هنا لانجد في نصارى اليوم ولا نصارى الأمس من ينكر هذا الحق.

أما الرأي العام في الدنيا المعاصرة فجمهور الناس مسلمين كان أو غير مسلمين متفقون على أن فلسطين حق المسلمين، ولايخالفهم إلا عدد ضئيل من المغرضين المفسدين في العالم، فإنه لما حدثت انتفاضة فلسطينية مما جعل الدنيا تقوم ولا تقعد، فخرجت ألوف من الاحجاجات العارمة التي تؤيد الفلسطينيين، ولم يقف بجانب إسرائيل الغاشمة إلا أمريكا وبعض دول أوربا، وبعض رجال الكنيسة المسيَّسين، وكلٌّ صوَّت في ضد التقرير الذي أعد لتقسيم فلسطين، فقد نشرت جريدة "الأنصاري" الأردية تقريرا رائعا بعنوان "سخط عارم على تقرير لجنة التحقيق الأمريكية"، جاء فيه:

"فقد أعلن حكام كل من فلسطين وسوريا ولبنان والعراق ومصر والسعودية أنهم مستعدون للتضحية بأقصى ما يمكن في الدفاع عن فلسطين، وقد اتخذت جامعة الدول العربية نفس الموقف، حيث أعلن سكرتير جامعة الدول أن فلسطين صارت دار الحرب، وفُرض القتال لحفظ أراضيها، كما أعلن نصارى الدول العربية أنهم مع المسلمين في هذا الوقت الحرج، وطلبوا من الملك جورج ترومين، والمشير شيانك كائي شيك، وايم كوئن رئيس فرنسا، ورجال الكنائس في كل مكان أن يساعدوا المسلمين في تطهير الأراضي المقدسة من اليهود وخبثهم.

كما أن جميع المنظمات الإسلامية في الهند ندَّدت بالتقرير، ونهضت ضد إسرائيل، فطالبت العصبة الإسلامية بالهند باسترداد أرض فلسطين، ووقف بجانبها كل من مؤسسات المتطوعين الإلهيين، وخاكسار، والأحرار، وقد أصدرت جمعية علماء الهند بيانا مستمرا ضد هذا التقسيم، وقد نظَّمت جمعية علماء الإسلام مؤتمرا عظيما، كما أن الجرائد الهندية اجتمعت على التنديد بالتقرير الإسرائيلي، وقد نشرت جريدة "المنثور" في ١٢ مايو عام ١٩٤٦م هذه التفاصيل كلها.

وأرى أن حكومة بريطانيا أيضا لا تجرؤ على معارضة الرأي العام، حيث قال "ايتلي" حاكم بريطانيا لأمريكا في أحد بياناته: إن بريطانيا لا تجرؤ على تطبيق هذه البنود ما لم تساعدها أمريكا بجيش عظيم.

مما يوضح أن هذه الاقتراحات كانت أمريكية فحسب، وذلك في ضغوط الثقل السياسي لليهود والمبالغ النقدية الباهظة، وكانت بريطانيا وافقت على هذا ضغطة لأمريكا، فأظهرت بريطانيا خلاف ما أضمرت، وذلك أنها لم تكن وسيلة أقوى في تمزيق العرب من تأييد هذا الاقتراح"[1].

وبذلك يتجلى أن العرب والعالم الإسلامي ومعظم دول العالم والقدر الكبير من النصارى يعتبرون فلسطين ملك المسلمين، ولذا كانت بريطانيا تردد رجل مغرض يجحد الحق، فيتململ ضميره، كما اتضح أن بريطانيا وأمريكا كانتا على معرفة بأنهما تتآمران ضد حق ثابت، جريا وراء مصالح سياسية، ولو على حساب ملايين من الفلسطينيين.

وإذا كانت قضية تقسيم فلسطين قوبلت برد شنيع من قبل الإسلام والنصرانية والعهد القديم والعهد الجديد، ورجال العصر والحكومات المنصفة، وفي تعبير آخر: إذا اعتبر هؤلاء أن أرض فلسطين حق المسلمين، فأي دليل يسيغ سلب فلسطين من المسلمين؟ أما العدوان والطغيان فلا كلام فيه، أما تغطية القضية بعدد من الدلائل والبراهين فهو خداع صريح.

ومن العجب أن كلا من أمريكا وبريطانيا يصف اليهود في بلاده بأنهم يمتصون دماء الناس، ولكنهم الذين يربون اليهود ويحاولون تمكينهم في أرض فلسطين، وتغذيتهم بمائها.

وهنا ظهر نفاق أمريكا تماما، فهي ومن معها من الدول تقدم احترام الرأي العام كمبدأ ثابت لا يتزلزل، ومن جانب آخر، تأتي هي لتكون أول من تزدري بالرأي العام في

---

(١) خلاصة ما جاء في جريدة الأنصاري، ١١/ مايو/ ١٩٤٦م.

تمكين اليهود في الأرض المقدسة، ولكن هذه المؤامرات تذهب سدى، ويبقى حق المسلمين في فلسطين ثابتا من ناحية الدين والتاريخ والكتب السماوية، وسيرجع اليهود بخفي حنين، خائبين خاسرين بإذن الله.

وإن كانت أمريكا وبريطانيا ناصحتين لليهود كان عليهما أن تبوأهم في ألمانيا إذا تم لهم الاستيلاءعليها بعد الحرب العالمية الثانية، لاسيما بعد مازعموا أن هتلر قتل الكثير من اليهود في ألمانيا ونفى كثيراً منهم إلى بلاد أخرى، فلماذا لم يبوؤا اليهود في أوطانهم الحقيقية، ولماذا لم يجعلوهم سكان أوربا، وإخوانا في الوطن.

وهذا يكشف عن أن أمريكا وبريطانيا لاتريدان الخير لليهود؛ بل تريدان خدمة المصالح وأغراضهما الشخصية؛ بل إرغاما للعرب ونيلا من كرامتهم حاولتا استيطان اليهود في فلسطين، ولكن مع هذه كله لن تنتفي دعوى العرب المسلمين بأن فلسطين كانت لهم، وستبقى لهم إلى يوم القيام؛ بل الرأي العالمي والأسلوب الماكر لدى أمريكا وبريطانيا يؤكدان على هذا المبدأ بشكل جلي.

ملك مصر وتوليتها:

أما ملك مصر وتوليتها فقد تم تغيير فيها أيضا حسب اختلاف في أداء حقوقها، ثم آل الأمر إلى أنها صارت إلى المسلمين، فكان الأقباط والفراعنة هم الذين ملكوا مصر، وأفسدوها، ونشروا فيها من الأفكار المظلمة والنظم الجائرة ما بلبل المصريين، وذهب برواء مصر، فقد ساد مصرَ في عهودهم كل من الفسق والفجور والإباحية والمجون، وكبلتها قيود الأوهام والتقاليد المنكرة، حتى وصفها القرآن بدار الفاسقين حسب تفسير رواية واردة في هذا الشان، فقد قال الله تعالى في القرآن: **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ** (سورة الأعراف: ١٤٥).

ففُسِّرت هذه الآية في رواية بدار فرعون والأقباط، وإن أردنا بها مصر كله يراد بها أثر الفراعنة والأقباط من الفساق والفجار، فمصر كانت تئِنُّ تحت وطآت الفراعنة الظالمين، ولم تسعد بالنور اليوسفي من بعد، ولما فتحت مصر في عهد الفاروق رضي الله عنه، ودخل الجيش الإسلامي مصر بقيادة سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه، مما أزال الأوهام والرسوم الشركية والتقاليد البشعة، وكان من أوهامهم القبيحة ذبح فتاة عذراء بساحل نهر النيل سنويا ليفيض النيل وتتلاطم أمواجه، فقد استأصل هذا الرسم القبيح سيدنا عمر الفاروق برسالته إلى النيل، وأعلنه عمرو بن العاص، فقد دخلت مصر في الدولة الإسلامية، وحلت هناك العقائد الصحيحة والثقافة الراقية محل الأوهام والأنجاس.

وظلت مصر تفي بحاجات العلم والسياسة منذ قرون متتابعة، أما حاجات العلم والثقافة فهي تتضمن أكبر جامعة إسلامية وأقدمها: الجامع الأزهر، التي تزدهر منارتها العلمية منذ عشرة قرون، وأنجبت كثيرًا من أئمة العلوم والفنون، ومازالت تملك عددًا من الروافد العلمية والفكرية، كما أنها قامت بدورها الفعال في الحفاظ على الثغور الإسلامية، فدافعت عن الدولة الإسلامية حق الدفاع، وردعت القوى الغربية، وحفظت المناطق الإسلامية من الضياع، ولاستيلائها على نهر السويس أقامت قوةً اقتصاديةً وسدًا منيعًا في وجه الغرب، مما جعلها مركزا سياسيا للإسلام، يرابط على الثغور الإسلامية، ويثبت أحقية المسلمين في ملك مصر، ومن هنا حكموها وسيحكمونها إلى آخر الدهر بإذن الله.

وعلى كل فإن كلا من الحجاز والشام ومصر مراكزُ إسلاميةٌ ثلاثةٌ ، ترتبط بها مهامُ عظيمة، من شأنها صيانة العالم الإسلامي وتطويره بالأشكال المختلفة، فكان من اللازم أن تبقى هذه المراكز في ملك المسلمين، يديرون شؤونها، فهم أجدر بتولي أمرها من غيرهم.

وبوحدة هذه البلاد الثلاث تقوم وحدة عربية، وبالوحدة العربية تقوم وحدة إسلامية، فإن الإسلام هو الحبل الممدود الموثوق الذي يربط بين العرب والعالم الإسلامي، والاتحادُ الإسلامي مرتبط بالمراكز الثلاثة وشعائرها، ومن هنا ثقلت مسؤوليات حكام وزعماء هذه البلاد، مما يوجب أن يترفعوا فوق أغراضهم ومصالحهم الشخصية، ويحاولوا جهدهم في إقامة الوحدة الإسلامية، التي تتحقق عن طريق وحدة البلاد الثلاث، ثم هذه الوحدة تأتي لهم بخير كثير، وتحقق لهم آمالا كثيرة.

ثم هذه الأماكن الثلاثة لما كانت مواطن أساسية في الإسلام، وهذا يعني أن من يستولي عليها، يعم نفوذه الشرق والغرب، فإن استولى عليها أهل الشرق فرض نفسَه على العالم الغربي، وإن سيطر عليها أهل الغرب ترك آثار ملكه في بلاد الشرق، وفي تعبير آخر: إن ملك المسلمون هذه البلاد المركزية بقوة وشوكة، خضع لهم أهل الغرب من اليهود والنصارى أبد الدهر، وإن ملكها اليهود والنصارى وجب أن ينقاد لهم المسلمون من أهل الشرق، ومن هنا جاءت توجيهات شرعية تؤكد على ضرورة استيلاء الإسلام والمسلمين على هذه الديار، كما ستلاحظه في الصفحات القادمة.

وقد تفطَّن النصارى لما في هذه البلاد الثلاث من سر القوة والعظمة وشأن المركزية، وبسطوا حبائل المؤامرات الخفية، ليبسطوا نفوذهم في هذه البلاد، ويشوهوا مركزيتهم، وتبقى هذه البلاد في صورة بلاد عادية في أنظار المسلمين، ليس لها شان ولا أثر، وتكون مقطوعة الصلة عن الخلفيات الدينية والمركزية.

وكانت استراتيجيتهم ترمي إلى أن تبقى هذه البلاد في أيدي المسلمين، ولكن تحت انتداب الأثر الغربي حقيقة، فيفرح المسلمون بملكهم وسيادتهم على هذه البلاد، ولا يتوجهوا إلى أن النفوذ الغربي يتحكم في حكوماتهم، وأنهم متملكون عليها بتمليك الغير، وهذا عين الذل والهوان، مما أسفر عن سيادة الغرب وصغار الشرق، على عكس

ما كان في القرون الأولى، حيث كان المسلمون ملوك الدنيا المستقلين، ومالكين لهذه البلاد المركزية بشكل قوي، وكان اليهود والنصارى من الشرق والغرب خاضعين لهم.

ولما فطن أعداء الإسلام لهذا السر العظيم، حاولوا دائما تفكيك هذه البلاد، وتضعيف سياسة المسلمين، لتجِفَّ منابعُ العدل والمساواة والحرية والنزاهة، الصادرة عن بلاد المسلمين إلى العالم كله.

وعُرف أهل الغرب بالغدر والنفاق، فلم يهجموا هجوما مباشرا على دين والبلاد المقدسة، فكانوا على علمٍ بأنهم لن ينجحوا أبدًا في هذه الخطة؛ بل خدعوا العقل الإسلامي، وخدَّروه تخديرا كاملا، فحببوا إلى الشباب الإسلامي الحضارة الغربية، وورَّطوه في رذائل الأخلاق وفاسد الأعمال، وأثاروا الغريزة الجنسية، وعللوا قلوبهم ببهرجة المصنوعات الغربية، فنشأ كثيرٌ من الشباب مولَعين بالحضارات الغربية الزائفة، وآثار الاكتشافات العصرية الملونة، وانصبغوا بالصبغة الغربية؛ مما أدى إلى اضمحلال في الفكر، وضعف في الخيال، وقد ضعفت المُثل الدينية، والأخلاق الفاضلة، وقلَّت عظمة شعائر الله، واشتدَّ التعطش للصور الظاهرة والتشكيلات والموضات السائدة، مما أبعدهم عن الإسلام، وجعلهم شغوفين بالمدنية الغربية، حتى عاد الشباب الإسلامي يحققون أهداف الأعداء وأطماعهم، ويفكرون ليل نهار في السعي وراء الغرب، ومحاكاته في جميع جوانب الحياة، واحترام المادة بشكل أكثر من الغرب.

واتخذ الغرب لونا جديدا من المكيدة إذ أنشأ في قلوب المسلمين أهمية المادة وحبب إلى قلوبهم ظواهر الأشياء، ولكنهم لم يتركوهم ليقيموا مصانع وشركات، تحقق أغراضهم المادية، وتفي بحاجاتهم اليومية، وينافسون الغرب في الأمور المادية، بل جعلوهم عاجزين حتى في الشؤون المادية، ومتطفلين على فتات مائدة الغرب، فضحَّى المسلمون بأنفس ما عندهم من عقيدة وفكر وتميز واستقلال، وصاروا رهن إشارة

الغرب، مما ذهب بخصائصهم العقائدية والفكرية، حتى لا يبقى في أذهانهم شيءٌ من الأهمية الدينية لبلادهم ومراكزهم الإسلامية، التي يرتبط بها عزهم وسعادتهم، فتعطلت قواهم الفكرية والعملية، وتزعزعت الوحدة الدينية، فبدل مقاومة الغرب الماكر عادوا يتخذونهم بطانة، ويقيمون معهم علاقات الصداقة والمحبة. وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون".

وأول سُمٍّ ناوله الغرب المسلمين، مما جعل المسلمين مخدَّرين، وصارت فتنة عظيمة في حقهم، هو أنهم قدَّموا فكرة الفصل بين الدين والسياسة، مما جعل كلا من الدين والسياسة محني الظهر، ضعيف البنية، حيث لم يبق في أذهان المسلمين مشروع فكري واضح الملامح، فلم يبق دين ولا سياسة؛ بل الفكرة السياسية للغرب القائلة بأن الدين للبابا والدولة للملك ["دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله"]، وقد فُتن المسلمون بهذه النعرة العمياء مدة طويلة، وعملت هذه الفكرة الخبيثة تعمل عملها في نخر جسد الأمة الإسلامية، وإنهاك قواها الفكرية والعسكرية، والحط من كرامات المراكز الإسلامية، واستقلال كيانها، والتأثير السلبي في جميع البلاد الإسلامية.

ولكن بعد مدة عاد رشد الأمة الإسلامية ووعيها السياسي، فبدأوا حركات النضال والكفاح، وهتفوا بوحدة الدين والسياسة، ثم جاءت الفكرة السياسية متسترة بستار القومية والوطنية، وقدموا الفكرة بشكل حماسي قوي جدا، كأن الدين والسياسة توأمان، مع أن الدين لايمت إلى هذا اللون من السياسة بصلة، بل هذه السياسة حرب شعواء على الدين، فالسياسة الغربية قائمة على الدبلوماسية، والسياسة الدينية تقوم على الصدق والإخلاص والأخلاق، والسياسة الغربية سياسة مادية، والسياسة الإسلامية جامعة بين الروح والمادية، والدين والدنيا، والسياسة الغربية ترمي إلى الحصول على السلطة بأي وجه كان، بينما السياسة الدينية ترمي إلى إعلاء كلمة الحق، والسياسة

الدنيوية تهدف إلى التنازع للبقاء، وهو سبب الفساد والشر، والسياسة الدينية تهدف إلى الفناء للبقاء، مما يحدث في العالم الأمن والسلام، والظاهر أنه إذا اجتمع الشيئان المتضادان أدى إلى زوال كل واحد منهما، وقد حدث كذلك؛ فضعف الدين بلاسياسة، وضعفت السياسة العادلة، وحلت محلها السياسة الظالمة الماكرة، فبقي ملك عضوض وذهبت خلافة عدول.

إن الهتاف بنعرات الفصل بين الدين والسياسة لم يسترد للمسلمين مجدهم الغابر، وعزهم الفقيد، كما لم يتقدموا بعد نعرة الوحدة بين الدولة والدين؛ فإن الاتجاه أيضا لم يكن سديدا، والسياسة التي فصلوا عنها الدين كانت سياسة دينية، فبقي الدين منهوك القوى، والسياسة التي ربطوها بالدين كانت سياسة ظالمة، فصارت الدولة دولة ظلم وجور وتعسف، ولم يبق شيء منهما مستقلا بذاته.

ولا شك أن الإسلام مجموعة من الدين والسياسة، فلا يمكن فيه فصل الدين عن السياسة، وفصل السياسة عن الدين، والإسلام يعتبر السياسة عين الدين، كما يعتبر الدين عين السياسة، فهو يدعي أن "لا إسلام إلا بجماعة"، مما يفيد أن "لا جماعة إلا بالإسلام"، فإنه يهتم إلى جانب الصلاة والزكاة والصوم بالإمارة والخلافة والسمع والطاعة، فقد فتح أبواب الديانة والسياسة، وحوى في طيه كلا من المجاهدة ورياضة النفس، والجهاد والقصاص، ويعتبر الجهاد ذروة سنام الإسلام؛ ولكن الدين الإسلامي كما يتميز من بين الديانات بخصائصه الكثيرة، كذلك تتميز سياسته بميزات فريدة، تجعلها شامَةً بين النظم السياسية الأرضية.

والظاهر أن الدين لا يعلو إلا بسياسته العادلة دون السياسة المغرضة الدنيئة، فإن ظهرت السياسة الدينية ظهر الدين وتقدَّم إلى الأمام، وإذا ظهر الدين ظهرت سياسته، أما الفصل بين الدين وسياسته أو رَبطُ الدينَ بالسياسة الغربية فلايأتي بنتيجة سارَّة، لا يفيد الدين ولا السياسة الصحيحة، فعلى المسلمين أن يربطوا دينهم بالسياسة

الدينية، ولاتظهر السياسة إلا بمراكزها، والمراكز دينية كانت أو سياسية لابد لها من استقلال مركزي، حتى يقوم النظام الإسلامي الصحيح الجامع بين الدين والسياسة، ومن هنا أقام الإسلام مراكز ثلاثة، وأسند إليها ما يلائمها من المسؤوليات والمهام، لتبقى هذه المراكز مراكز إسلامية مستقلة، لاتقبل أي تأثير أجنبي، وتحقق أهدافها بشكل طبيعي صحيح.

التوجيهات الشرعية الملائمة للمراكز الثلاثة:

ومن ظلم الأمم الجاهلة بمكانة هذه الأماكن الثلاثة وعالميتها التي ظلت مودعة فيها منذ الأزل أنها جعلتها مراكز محلية، فاختفى شأنها العالمي وراء ستار الجاهلية الغليظ، حيث جعل مشركوا العرب الكعبة المقدسة دار الأصنام والتماثيل، ووضعوا فيها نحو ٣٦٠ من الآلهة المزعومة، والظاهر أن الأصنام وما شاكلها مما يُعْبد من دون الله من حجر وشجر وشمس وغيرها لا تملك من الخصائص ما يجعلها آلهة محلية؛ فضلا عن أن تكون عالمية، والمعلوم أن الكعبة المكرمة قد كسبت الشأن العالمي من التجلي الرباني الوارد فيها، الذي أُلْقِيَ عليه ستار غليظ من الجاهلية، حتى خفيت روح التجلي عن الأنظار والأبصار.

وكذلك حدث تماما في المسجد الأقصى، الذي جعله بنو إسرائيل ملك أسرة واحدة، وحصروه في نطاق ضيق، لايتعداه، مع أنه كان مركزا عالميا، والمعلوم أن التحديد الأسري هو عائق كبير من الانطلاق العالمي، فكيف تميل إليه أمم العالم كلها، وكيف يظهر شأنه العالمي؟.

كما أن اليهود صبغوا الطور بصبغة اليهودية، ولم يرضوا بتعدية آثاره وبركاته إلى غير بني إسرائيل، فصار الطور ضحية ضيق النظر لدى اليهود، وانحصر في نطاق محلي محدود، بدل أن يعم خيره الكون كله، فجهلت القلوب والعقول بمكانته الحقيقية، وغاب كونه مكانا ميمونا عالميا، يستحق أن يُزار ويتبرك به؛ مع أن اليهودية والإسرائيلية ليستا من

الاتجاهات الفكرية العالمية، فلاتملكان رسالة عالمية، ولاتشكلان ملة عالمية، فكيف تظهر بركات الطور العالمية عن طريق هذه الملة الضيقة، وكيف يكون الطور مزارا عالميا؟

وكان الإسلام العالمي هو الذي يستحق أن يجعل هذه المقامات مراكز عالمية، ويعرِّف أمم الدنيا بمكانتها الصحيحة، وبركاتها العالمية، فكان الإسلام هو الذي كشف عن سر هذه الأماكن، ولفت انتباه العالم إلى طريق الاستفادة منها، فالمنهج الذي اختاره الإسلام للاستفادة من هذه المراكز يتمثل في منظور علمي وحسي عملي، ثم الجانب العملي أيضا له جانب قانوني، وجانب أخلاقي، أما الجانب العلمي فقد أثبت في القلوب عظمة هذه الأماكن، وعموم إفادتها، فمالت إليه الأمم معتقدة بعظمتها، وظهرت لهم بركاتها بشكل لا يمكن ظهورها عن طريق اليهودية والنصرانية وما إليها من الأمم المحلية دون العالمية.

أما الجانب العملي فقد رسم لها قوانين، ووصف الكعبة المكرمة بأنها قبلة للعالمين، وكلف أهل الدنيا بالتوجه إليها في الدين والعبادة وإن لم يحضروها، لتبقى عظمتها راسخة في الفكر والقلب، ومن ثم اشترط استقبال القبلة في جميع أنواع الصلاة من فرض وواجب وسنة ومندوب، واستحب استقبالها في العبادات الأخرى نحو الوضوء والتلاوة وذكر الله، كما استحسنه في الأمور الفردية والاجتماعية نحو النوم واليقظة، حتى في أوقات الولادة والوفاة، وقد راعى احترام القبلة وقت الاستنجاء، ومعنى ذلك أن يكون المؤمن على وعي بمكانتها حتى في أوقات الاستنجاء.

ثم أوجب الحج على كل من يستطيع إليها سبيلا مرة في حياته، ليحضروها ويصلوا في ظلالها، ليرجعوا بأجور مضاعفة بنحو ألف ضعف، وتعم خيرات البيت العالم كله عن طريقهم، ويظل بيت الله موضع ثقة وتقدير من أهل الإيمان، وتظهر مركزيته للدين والعبادة بشكل جامع.

وكذلك المسجد الأقصى، فإنه وإن لم يكن قبلة حقيقية ولا قبلة طارئة، لكن حث أهل الإسلام على حضوره والصلاة فيه ليسعدوا بفضائله وبركاته، واعتبر من حقه أن يصل إليه المؤمنون ولو بشق الأنفس وبمسافة طويلة، وحث على من لايستطيع حضوره أن يبعث إليه الزيوت، ليكون بدلا عن حضوره، أي لا بد من اهتمام ولو بأي نوع كان، كما مر في حديث سابق.

فإن كان بيت الله مثابة للناس مطلقا، فجعل الله تعالى المسجد الأقصى مثابة للناس فيما يتعلق بالصلاة، لتترسخ مركزيته الخاصة في القلوب، وتظهر في الأعمال.

وكذلك الطور الذي لم يكن قبلة ولا مسجدا فجعله موضع الزيارة، ليزوره أهل الإيمان، وينمي معنوياته، ويستفيد من مركزيته الخاصة، ولا تخفى عالميته.

ثم اتخذ الإسلام بشأن الكعبة المكرمة والمسجد الأقصى خطوة ثالثة مباركة، وهي أن جعلهما مهجرا في وقت الحاجة لكونهما مورد التجلي الرباني، أي حث المسلمين على الهجرة إليهما والإقامة بهما كمهاجر، ونهى سكانهما والمقيمين فيهما عن الهجرة منهما والفرار منهما، والغرض من ذلك أن المهاجرين إذا أقاموا بنية الهجرة في مكة استحكم شأن العبادة للكعبة المعظمة، والعبادة هي الغرض الأصيل وراء خلق العالم، وإن أقاموا في القدس (وهو مركز سياسي للإسلام) ظهر شأنها السياسي، وهو وسيلة لإقامة الدين، وصارت الدولة الإسلامية من القوي إلى الأقوي.

وخلاصة هذه الأوامر الشرعية أن المهاجرين عليهم أن يقيموا في مركز العبادة(مكة المكرمة) ويحكموا خلافتهم الباطنة(القوة الأخلاقية)، ويقيموا في مركز السياسة(مدينة القدس) ويحكموا خلافتهم الظاهرة (الشوكة والسياسة)، فكأن عالمية هذه الأمكنة تجعل الأمة المسلمة أمة عالمية وآفاقية، والظاهر أن المسلمين إذا أقاموا في البلدين بكثرة كاثرة، سهل عليهم بكثرة عددهم وتوفر سلاحهم مقاومة العدو

والتغلب عليهم في مجال القوة، ومن ثم تظهر الخواص الروحانية والمعنوية للمركز، فإن الدولة المدججة بالسلاح والقوة إذا أغارت على العدو قضت عليهم القضاء الأخير، وأثارت الرعب في قلوب الأعداء، وأثبتت مركزيتها وثقلها السياسي، وبذلك يبرز للإسلام قوة النظام الديني وشوكة النظام السياسي، كما أن القوة الظاهرة والباطنة للمسلمين ترعب الأعداء، وتبعث الذعر في قلوبهم، وكما أن المساعدة الخارجية تمد المراكز بالقوة، فتزداد المراكز الإسلامية قوة إلى قوة، والظاهر أن هذا الوضع لا يتم إلا بهجرة المسلمين من كل مكان، ومن هنا رغَّب الإسلام في هجرة المسلمين إلى هذين البلدين كما دعت إليها الحاجة، ونهاهم عن الفرار منهما.

دلائل الهجرة:

وقد مرت سابقا أحاديث الهجرة إلى مكة المكرمة.

أما أحاديث الهجرة إلى المدينة المنورة والإقامة بها والنهي عن الفرار منها فقد امتلأت بها كتب الأحاديث الشريفة، فقد جاء في الأحاديث ما يدعو المسلمين المقيمين بالمدينة على الصبر والتحمل على ما يصيبهم في المدينة، ووُعدوا بأنهم سينالون شفاعة خاصة يوم القيامة، وقد وصف الحديث المقيمين بالمدينة بالطيب، والفارين منها بالخبيث.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَايَعَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ فَأَصَابَ الْأَعْرَابِيَّ وَعْكٌ بِالْمَدِينَةِ فَأَتَى الْأَعْرَابِيُّ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله أَقِلْنِي بَيْعَتِي فَأَبَى رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ أَقِلْنِي بَيْعَتِي فَأَبَى ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ أَقِلْنِي بَيْعَتِي فَأَبَى فَخَرَجَ الْأَعْرَابِيُّ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طِيبُهَا[1].

---

(١) أخرجه البخاري، في **صحيحه**، رقم الحديث: ٧٢١١.

وجاء في حديث آخر لدى الإمام مسلم في صحيحه عن عثمان بن حكيم قال حدثني عامر بن سعد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها وقال: المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون لا يدعها أحد رغبة عنه إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة[1].

ولكن لا يناسب المهاجرين إلى المدينة أن تكون هجرتهم إلى منافع دنيئة يصيبونها؛ بل الواجب أن تكون لابتغاء وجه الله، لا لإصابة حطام الدنيا، فلا يجوز لدولة حجازية أن تسن قوانين تمنع عن الإقامة بها قياسا على البلدان الأخرى، أو توصد أبواب الهجرة.

الشام المقدسة وأحاديث الهجرة إليها:

وكما أن الشرع الإسلامي ذكر فضائل مكة والمدينة وحث المسلمين على الهجرة إليهما والإقامة بهما ونهاهم عن الفرار منهما، كذلك وردت أحاديث كثيرة في ذكر فضائل الشام والإقامة بها، والمرابطة على ثغورها، مع نهي مؤكد عن الفرار منها، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الشام صفوة الله من بلاده يسوق إليها صفوة عباده من خرج من الشام إلى غيرها فبسخطه و من غيرها فبرحمته"[2].

وقد سبق حديث جاء فيه: الشام خير لهم.

ثم للهجرة معنى هام بعيد المدى، وهو أن من شأنها أن تذيب فوارق اللون والجنس، وتفاضلات العرب والعجم وتصبغ الأمة الإسلامية بصبغة دينية وأخوية

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، رقم الحديث: ١٣٦٣.

(٢) محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، رقم الحديث: ٨٥٥٥.

موحدة، وتحكم بينها أواصر العلاقة الودية الصميمة، بشكل لا يوجد فيما سواها، فإن الذهاب والإياب المؤقتين لا يأتيان إلا بما يخففان البعد، ويقلل الفجوة، ولكن الهجرة قد تدفع إلى العلاقات الدموية بين المسلمين؛ مما يجعلهم فيما بينهم أشد ارتباطا، وأحكم أساسا.

فبيان عظمة هذه البلاد والتعريف بمكانتها الصحيحة وصل بها القلوب، ولفت إليها انتباه المسلمين في كل مكان، وبإيجاب الحضور المؤقت في مناسبات الحج والصلاة ومضاعفة الأجر والثواب مهَّد الطريق لاختلاط المسلمين بعضهم ببعض، والتعرف على أوضاع وأحوال الآخرين، أما بيان الهجرة فقد أسس من خلاله العلاقات الروحية والمادية، وربط الأمة الإسلامية كلها بمراكزها الشرعية، وجعلها عالمية بكل معنى الكلمة.

وبما أن طور سينين لم يبق مورد التجلي الرباني، ولا قبلة، وإنما كان يحمل بعض البركات الإضافية، التي سرت إليه من خلال موسى ويوسف عليهما السلام، فلم يكن موضع الحج والصلاة، وإنما كان موضع الزيارة والاستفادة من بركاته، ولكن كونه موضع الزيارة لا يزيد على الحضور الموقت، ولا يكون أبدا مهجرا، يهاجر إليه المسلمون ويقيمون فيه، ويرتبطون فيما بينهم دينيا وماديا، ومن ثم لم يرد في الشرع الإسلامي توجيهات، توجب على المسلمين الهجرة إليه، بل نظرا إلى مركزية مصر في العسكرية والدفاع دعي المسلمون إليه للدفاع عن الثغور الإسلامية، وإذا تدبرنا توصلنا إلى أن مصر حظيت منذ أول يومها بالمركز الدفاعي، فالمقيمون فيها يرمون إلى صيانة مصر عن الشر وأعوانه، وصيانة أهلها عن كل شيء يمس كرامتهم، وهذا هو معنى الدفاع.

وقد خاطب موسى عليه السلام فرعون وآله صيانة لبني إسرائيل: **فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى** (سورة طه: ٤٧).

حتى نجاهم، وحفظ مصر من شدائد فرعون وملكه الجائر المستبد، وقد فعل قبل هذا سيدنا يوسف عليه السلام عملا، ضمن لمصر حفظها من آل فرعون، حيث قال لعزيز مصر:

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (سورة يوسف: ٥٥).

وقد قدم الحفظ على العلم، وقد نجح كل من الرسولين في صيانة مصر والمصريين، فحفظا مصر عن الاستعباد والاستبداد، وهذا هو الذوق الإسلامي، ثم جاء الإسلام وتوجه إلى مصر ليحفظها من الضياع والوقوع في النظام الجائر، الذي لا يفرق بين الحق والباطل، ولم يرض أمير المؤمنين سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه بسد نهر السويس ووصل بحار الشرق ببحار الغرب، فإن نهر السويس هو نقطة الاتصال بين الشرق والغرب، وحد فاصل قوي بينهما، وقلعة دفاعية لمصر دائما، أكرمت به مصر لتبقى مركزيتها.

فالمكانة العالمية التي تتمتع بها مصر هي مكانة الدفاع والعسكرية، وهي تحتاج إلى قوة قوية لاتُغْلَب، فجعلها الإسلام مركزا دفاعيا وعسكريا للإسلام والمسلمين، ورغَّب المسلمين في الهجرة إليها بنية الدفاع دون نية الإقامة، ليصل إليها المسلمون من كل فج عميق، ويحكموا مركزيتها الإسلامية، وقوتها الدفاعية، ويلاحظوا دائما مبدأ الدفاع عن الدين والثغور الإسلامية، ولكن من المهم أن لا يسافروا إليها بنية الإقامة، كما جاء في حديث طويل "ولا تتخذوها دارا".

ونص الحديث كما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ مِصْرًا سَتُفْتَحُ فَانْتَجِعُوا خَيْرَهَا وَلا تَتَّخِذُوهَا دَارًا إِنَّهُ يُسَاقُ إِلَيْهَا أَقَلُّ النَّاسِ أَعْمَارًا[١].

---

(١) أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، رقم الحديث: ٤٤٨٨.

وهذا الحديث أفاد ثلاثة معانٍ، الأول أن مصر قاعدة عسكرية، وليست بقبلة، والثاني: أنها مركز دفاعي، دون موضع الهجرة، ومن ثم جاء نهي صريح عن اتخاذها دارا، والثالث أنه يجب على البحث عن خيرها وانتجاع بركاتها، والوجه ظاهر؛ فإن القاعدة العسكرية لا تكون موضع الإقامة، فيقيم بها الجيش، بل القاعدة العسكرية تقتضي النهوض العسكري، والإقامة الحربية، لينضم الراغبون إلى معسكر المسلمين، ويؤدوا ما عليهم من واجبات مهمة، فإنهم إن اتخذوا القاعدة العسكرية دارا، واستوطنوا المخيمات العسكرية، شغلتهم أشغال الحياة الزوجية والاجتماعية عن النشاطات العسكرية، فيعودون كسالى في واجباتهم، ويجرون وبالا على الدولة كلها، فينشغلون بالحوائج الاجتماعية والأهداف السكنية عن التدريبات العسكرية الثقيلة، فلم يبقوا رجال الميدان، ولا فرسان الوطن والدولة، ثم الإنسان يشتغل بالجيش ليقضي حياته في الدفاع دون أن يعمَّر طويلا، ويشتغل بوسائل الحياة، فقول الرسول صلى الله عليه وسلم بـ"أنه يساق إليها أقل الناس أعمارا" كشف عن حقيقة ربما مستورة، فإن قليل العمر أو الراغب في قلة العمر إذا سيق إلى القاعدة المصرية لا يحرص على حياته؛ بل يعزم على الدفاع حتى آخر نفس من حياته،فرغب الإسلام السلمين في الجولان والذهاب والإياب بشكل موقت، ولكن لم يأذن لهم بالإقامة المستمرة، لتبقى مركزيتها محفوظة، وتظهر شوكتها وعالميتها، كما تقتضيه مركزيتها.

وهذا مبدأ أساسي مهم، لا بد أن تضعه في الاعتبار مصر الحالية و الأمة الإسلامية كلها اليوم، فعلى مصر أن تفتح أبوابها لاستقبال المسلمين الحريصين على المرابطة على الثغور الإسلامية، وتمهد لهم الطريق، وتوفر لهم التسهيلات، وعلى المسلمين أن يهرعوا إلى مصر كلما دعت الحاجة إلى ذلك، ولكن بنية الدفاع دون الهجرة والإقامة، كما يجب على سكان مصر أن لا ينظروا إلى مصر نظرة مواطن إلى وطنه؛ بل

ينظروا إليها كمركز عسكري عالمي للإسلام، لتميل إليها قلوب المسلمين وقوالبهم، والظاهر أنه كان لا يجوز للحكومة المصرية أن تنهى المسلمين عن الهجرة والسفر إلى مصر مع أن مصر ليست موضع هجرة وإقامة، فكيف يجوز للحكومات في الحجاز والشام (وهما موضعا هجرة وإقامة) أن تمنع المسلمين عن الإقامة بهما، وتغلق أبوابها أمام المسلمين، بشرط أن المهاجرين إليها لا يهدفون إلى أغراض دنيوية تافهة، وأهداف تجارية، بل يهاجروا إليهما للحفاظ على دينهم وكيانهم، فإن الحكومات إذا أغلقت أبوابها أمام المهاجرين فهذا يعني أن الحكومات قد أهملت مكانتها العالمية، ولاتنظر إلى هذه الأماكن كمراكز عالمية مقدسة، بل تنظر إليها كوطن لاغير، ولا شك أن هذه النظرة تصادم النظرة الإسلامية الأصيلة تجاه هذه الأماكن.

والحاصل أن كلا من الحجاز والشام ومصر مواضع، حث الإسلام أتباعه على الرجوع إليها مع تفاوت فيما بينها في المكانة والنوعية، لتبقى عالميتها ومركزيتها بشكل واضح، نعم! إن الإسلام جعل الحجاز والشام موضعي هجرة وإقامة، ولم يجعل مصر كذلك، بل اختارها للإقامة المؤقتة، ولكن القاسم المشترك أن المسلمين يرجعون إلى هذه البلاد الثلاث، ويقيمون فيمابينهم روابط إيمانية قوية، وتستحكم مراكز إسلامية، كما أن جميع خطوط المحيط ترجع إلى النقطة وهي المركز، وتدور حوله، فكذلك المسلمون يجب عليهم أن يرجعوا إلى مراكزهم، ويدوروا حول محاورهم ونقاطهم، وينموا قواهم المعنوية والعسكرية، فليرجعوا لإحكام القوة الإيمانية والروحية إلى الحجاز، وليرجعوا للشوكة السياسية إلى الشام، ولتنمية القوة العسكرية يرجعوا إلى بلاد مصر.

ولو كانت الحكومات الإسلامية تلاحظ هذا المبدأ، وتعامل هذه البلاد كمراكز قوية عالمية، وتقيم من خلالها روابط إيمانية متينة، وتكون الرأي العام حول هذه المراكز،

وتربط بها القوة الإسلامية كلها لما سقطت هذه البلاد تحت النفوذ الأجنبي، ولما قبلت آثار المدنيات الأجنبية، وما تمكن فيها الأعداء(الذين تم جلاؤهم من هذه الأراضي لتصرفاتهم الخرقاء، ومؤامراتهم الشديدة ضد الإسلام والمسلمين) ليتصرفوا فيها كما يشاؤون؛ ولكن المسلمين تغافلوا عن هذا المبدأ، وهجروا هذه الأصول الذهبية، فجاء اليهود والنصارى ليستغلوا هذه المراكز لمصالحهم، فجاء اليهود ليقيموا في بلاد الشام، ويبقى المسلمون متفرجين، وإذا كان المسلمون لم يقيموا في الحجاز، فجاء النصارى واشتغلوا بحفر المعادن النفطية وتكريرها وتصديرها، فأصبح لهم من القوة ما لا يُردُّ لهم رأي، ولا يُنقضُ لهم قول، واستعمروا حول الحرم، وأقاموا هناك، وإذا كان المسلمون أغفلوا جانب القاعدة المصرية فكر أهل أوربا في السيطرة عليها، وامتلأت مصر بوجود اليهود والنصارى، ونجحوا تماما في بعض الفترات الماضية، حيث كان بعض أجزاء مصر تحت انتداب بريطانيا والجيش العالمي، فقد أقامت بريطانيا نفوذها السياسي والعسكري هناك في أيام خالية بمساعدة الأوربيين والهنود، وحتى الآن تحتل قوة الأمم المتحدة فلسطين.

ومن المؤسف حقًّا أن روائح لندن ونيويورك تدهش عرب الحجاز والشام ومصر ، وتجعلهم يحلقون في العالم، وينفقون بلاهوادة في الغرب الأموال الطائلة المكتسبة من صحراء العرب بجهد جهيد، فهم يقيمون في الغرب قصورا وفنادق وشركات، ويشترون مدنياتهم، ويلسعون موائدهم، أما البريطانيون والأمريكان فهم يتجولون في صحارى العرب، ويتجمعون هنا بعنوان حفر المعادن النفطية والاشتغال بالأمور العمرانية، وجعلوا البلاد المقدسة أوكار تَرَفِهِمْ وتَنَعُّمِهِمْ، مما أدى إلى ظهور نتيجة معكوسة؛ تتمثل في أن هذه الدول تستقبل الأمم التي وجب إخراجها، وترحب بهم أكرم ترحيب، وعلى العكس من ذلك يُفْرَضُ الحظر من قِبل الأصدقاء دون

الأعداء على المسلمين، الجديرين بالإكرام والاحترام، وإذا انعكس المعاملة انعكست النتائج، ولاتزال، فقد تقلب ميزان العز والذل، صار الأعزاء أذلاء، بينما تحول الأذلاء أعزة أولي شوكة وقدرة. فوا أسفا.

انخداع المسلمين حول الأماكن المقدسة ونتائجه المدمرة البعيدة المدى:

ولكن أقول بكل حسرة: قد انخدع المسلمون العرب حول المراكز المقدسة العالمية(مصر والشام والحجاز)، وغُبِنُوْا بمؤامرات الأعداء، وقضوا على مركزيتها، ومن المؤسف كذلك أن المسلمين لم يتفطنوا لمكائدهم، إلا أن الأعداء توصلوا إلى ما تحمل هذه المراكز الثلاثة من سِرٍّ ومكانة، وأن كل أمة تسيطر عليها تسود العالم كله، إلا أن الأعداء كانوا على معرفة بأنهم وإن سيطروا على هذه الدول جغرافيا لكن لم يتمكنوا من السيطرة عليها من الناحية الدينية، فإن قلوب المسلمين تفيض تعظيما لهذه البلاد وتقديسا لها، وهذه القداسة الدينية سبب لكون البلاد مراكز عالمية، فعاد من الضروري لدى الأعداء أن يقوموا بمحو مكانة هذه البلاد ومسخ صورها من قلوب المسلمين، واعتبارها مراكز وطنية ومحلية، ليجعلوها مراكز لمؤامراتهم ودسائسهم، ومن هنا حاولوا تغيير الهوية بشكل تدريجي، وأحلوا كلمات القوم والوطن والنسل واللون واللغة محل الدين والمذهب والشريعة، وأطلقوا نعرات جوفاء براقة، ثم اتخذوا خطوة أخرى جديدة، وأشاعوا كلمات دولتنا وحكومتنا، وما إليها من الكلمات المعسولة، التي تنفذ إلى القلوب سريعا.

والظاهر أن العرب والعجم لاسيما العرب انقطعوا إلى المادية، وأنشأوا أحزابا سياسية ذات أهداف مختلفة، حدث انقلاب فكري عجيب في عقول المسلمين، وسهل للغرب الماكر إنجاز مهماته، ولم تتعد نظرات هذه الأحزاب السياسية السطحية النطاق الوطني إلى المكانة الدينية، فعادوا ينظرون إلى هذه البلاد كمناطق وطنية، وكبلاد عادية،

فغابت عن المسلمين مركزيتها العالمية ومكانتها الدينية، التي كانت أساس الوحدة العالمية والنظام العالمي من منظور إسلامي، فأغفل المسلمون بدورهم روح هذه المراكز وقوتها المؤثرة، وفي تعبير آخر: عمل المسلمون ما عجز عن فعله الأعداء.

والظاهر أن هذه المناطق لما صارت بلادا عادية، وانقطع خيط الوحدة الإسلامية، استغل الحكام المفتونون بالوطنية هذه المراكز لمصالحهم الشخصية، وصاروا ينتفعون في أغراضهم السياسية التافهة بهذه المراكز، التي وضعت لخدمة الإسلام، مما أسفر عن سريان النفوذ الأجنبي في هذه المراكز، وبقيت سيطرة المسلمين على هذه البلاد سيطرة رسمية كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءا، حيث لا يملكون التسلط على بلادهم ودولهم، والأعداء هم الذين يديرون دفة الأمور، ويستخدمون الحكام المسلمين كجهاز التحكم من بُعْد، سواء كانت مصر أو الشام أو الحجاز، فضلا عن المناطق العربية الأخرى، ولها شواهد كثيرة تؤكدعلى أن المسلمين هم وراء ضياع هذه المراكز وتقليل شأنها الديني والسياسي.

الحجاز:

خذوا الحجاز مثلا، ففي عام ١٩١٥م أعطى السيد هندي ميكموهن سفير بريطانيا وثيقة، أكد فيها على أن أهل بريطانيا سيحاولون إقامة دولة عربية موحدة، تضم كل البلاد العربية ماعدا بعض مدن سوريا نحو دمشق والحمص والهامة وما جاورها من المدن الواقعة في غرب سوريا، يقودها الشريف حسين أمير مكة المكرمة، حيث أعلن لارد بالفور وزير الخارجية لحكومة هرمجستي أن حكومة بريطانيا توثق الوعد باستقلال العرب حسب اتفاقية التحالف، وأن هذا الوعد قد تم تقديمه في صورة اقتراح الصلح بين العرب والترك إلى الشريف حسين أمير مكة، وكانت أمريكا وبريطانيا وراء هذا الوعد تهدفان إلى كسر قوة العرب باسم العروبة، وإضعاف الدول

المقدسة، ولكن هذا المشروع البريطاني لم يكن ليتحقق بدون التعاقد مع أمة اليهود، فإن الدول العربية التي كانت تحت الحكم العثماني كان يسكنها نحو خمسين ألف من اليهود، وقد فطن النصارى أن إثارة همم اليهود باسم استقلالهم تسهل المهمة، وتيسر الأمر، حتى لا تُتهم أمريكا وبريطانيا بتبعة الهجوم على البلاد الإسلامية ليصيدوا في ماء عكر، يمكنها تفريق قوة العرب بشكل سهل والحصول على مواساة اليهود في وقت واحد، والاستفادة من ثروات اليهود واستغلالها في مقاصدهم، فوضعوا أمام اليهود هذا المشروع الذي كان يصادف هوى في قلوب اليهود.

وفي عام ١٨٠٦م استغلت بريطانيا فكرة الصهيونية التي قدمها هرشل أحد الصحفيين اليهود في هنجري، معلنا العودة إلى البلد الأم (Homeland)، فاعتبرت بريطانيا هذه الفكرة أسهل طريق لتحقيق أغراضها الاستعمارية، فاتفقت مع أمريكا على إبرام الوعد مع اليهود في أثناء الحرب العالمية بأنهما ستقيمان الدولة الأم لليهود في فلسطين بعد انتهاء الحرب، ومن جهة أخرى إنهما قاما بتنويم العرب ببيان حرصهما على الوحدة بين العرب والترك، وإقامة وحدة عربية تضم جميع البلاد الإسلامية بعد الحرب العالمية مباشرة، مما يجعل العرب يتنفسون الصعداء، وبحرية كاملة، لا يحكمهم أحد، ولا يستخف بهم أمير.

ولكن ماذا جنى العرب من كل هذه الوعود الحلوة؟ نعم! حدث أن الأمم المتحدة —وهي منظمة صهيونية مستورة وألعوبة الدول الغربية– قامت بتوزيع أرض فلسطين بين العرب و اليهود، ثم أمدَّ الغرب الدولة اليهودية(إسرائيل) بأحدث الأسلحة، وأفتك الآلات، فصب اليهود الحاقدون على الإسلام والمسلمين جاما من الغضب، فقصفوا المدن والبيوت، واستأصلوا المتاجر والمنازل، وحرقوا الحدائق والمزارع، وهدموا المساجد والمدارس والمستشفيات وقتلوا المسلمين بلا هوادة، لايفرقون بين الصغير والكبير، ولا بين الرجل والمرأة، ولا بين الصحيح والمريض، فعلوا ذلك ليخاف العرب، ويفروا من

منازلهم مفسحين لليهود الطرق والدور، وقد حدث كذلك؛ حيث إن أكثر من مليون ونصف من العرب الفلسطينيين قد اضطروا إلى الهجرة من فلسطين، واستجاوروا في البلاد العربية الشقيقة، أما عدد اليهود في فلسطين فقد زاد من خمسين ألف إلى مليونين ونصف ، ومازالوا في زيادة مستمرة، فبدل أن تقوم وحدة عربية شاملة كما وعدت به بريطانيا زالت حكومتهم القائمة من قبل، وتقلص نطاقهم، وتفرقت كلمتهم أكثر من أي وقت مضى، وزرعت الدول الغربية في الأمة العربية أسس الحروب الأهلية، وقد نمت هذه الجراثيم فأزهرت وأثمرت، فعادت الحدود العربية تضيق، لتتسع حدود إسرائيلية، واستطاعت إسرائيل أن تكتب على جبين برلمانها كهدف سام أصيل:

"أرضك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل"

فالحاصل أن الوعد بتجديد القوة العربية والاستقلال الفكري والسياسي قد جاء بنتيجة معكوسة، تمثلت في تخريب العرب وإنهاك قواهم، وكان قصد الدولة الغربية آنذاك أن تنسلَّ المناطق العربية من الدولة العثمانية، ويزول اسم الخلافة الإسلامية، الذي لم يبق منها في الآونة الأخيرة إلا اسمها، مما يسبب فوضى شاملة وانحلالا في القيم والأخلاق والسياسة والنظام، لاسيما في البلاد الإسلامية الثلاث، ومراكزها القوية، لتلقى هذه المراكز حتف أنفها أو بقيت خاضعة للأمم المتحدة.

وقد وقع الشريف حسين أمير مكة في هذه الحبالة: حبالة الحرص والأطماع الصهيونية، وخرج على الأتراك في مكة والحجاز، فقتلهم شرقتلة، وأمر العلماء بكتابة تكفيرهم، ووزع فتاواهم الزائفة، ومن أنكر من العلماء كتابة هذه الفتوى حبسهم في السجون، وكان مرشدنا شيخ الهند محمود الحسن الديوبندي رحمه الله مقيما في الحجاز آنذاك، فاعتقله الشريف حسين في حرم آمن لا يعضد شوكته، ولكن كان الشيخ وقت اعتقاله فرحا هشاشا، ويردد "الحمد لله على أني سجنت بالمصيبة دون المعصية، وأسلمه الشريف إلى الإنجليز، فنفوه إلى جزيرة مالطا، وبقي هناك خمسة أعوام كاملة في جوٍّ لا يلائم الطبيعة البشرية.

وهذه الثورة العربية على الخلافة العثمانية لم يضر بالأتراك والخلافة فحسب؛ بل ذهبت بمجد العرب وشوكتهم، حيث انفصل كل من الحجاز والعراق ومصر عن الخلافة حرصا منها على الاستقلال السياسي، وتمزق ثوب الخلافة الإسلامية، وبقي الشريف حسين ومن حذا حذوه من حكام العرب نادمين متحسرين، ولم يظفروا بما وُعدوا به؛ بل خسروا إمارتهم السابقة، وحل التفرق والانتشار محل الوحدة العراقية - السورية، فنتج عن كل ذلك اضمحلال الكيان العربي، ونشأة الحروب الأهلية، وذهبت الوعود البريطانية أدراج الرياح، وظل هذا مصير وعود المنافقين والدجالين، كما قال الله تعالى: **كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** (سورة التوبة: ٨).

ومن هنا نهى الله المؤمنين عن موالاتهم والثقة بهم في أكثر من آية، فقال تعالى: **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** (سورة آل عمران: ١١٨).

وقد أسفر كل ذلك عن خضوع البلاد العربية من الحجاز والشام ومصر لبريطانيا وأمريكا، فكأن قطع صلة هذه الدول عن الخلافة العثمانية كان تمهيدا لإخضاعها للدول الغربية، ولكن باسم الاستقلال السياسي للعرب، مما لم يتفطن له العرب السذج، وقضوا على استقلالهم بيدهم، والحقيقة أن الحجازيين لايملكون اليوم الاستقلال والاستتباب؛ بل حكام الحجاز يعيشون كشعب مغلوب على أمره أمام الغرب، فإن كانوا بالأمس تحت سيادة تركيا التي هي منا ونحن منها فهم اليوم تحت سيادة الأجانب بل الأعداء، فدولة الحجاز اليوم دولة مستقلة ولكن في نطاق ضيق لايتعدى الشؤون الداخلية، ولكن في أحضان الحجاز قامت مناطق محصَّنة لأمريكا باسم التجارة والشركات وما إليها من العناوين البراقة، ولاتقدر الدولة الحجازية على

التدخل في شؤون الأمريكان في مناطقهم، وكيف لا؟ فأمريكا متمكنة في هذه المناطق بقوتها وعسكرها، وبإمكانها أن تتوسع في أرض الإسلام والعروبة متى شاءت، وإن كانت لا تريد التوسع لمصالحها الخاصة، ولكن لامانع لهم عن ذلك، فالحكومة الحجازية لا تملك من القوة والنفوذ ما يحول دون التوسع الأمريكي، فالحكومة لا تملك غير الاستقلال المحدود، مع أن الحرية السياسية اليوم لا تقوم بدون حرية السياسة الخارجية؛ بل الحرية الداخلية تقوم على الحرية الخارجية.

وعلى كل فإن القبلة الحقيقية والمركز العالمي والمناطق العربية الأخرى عادت اليوم تحت سيادة أمريكا وبريطانيا، مما سبب حدوث ثورات وتقلبات في هذه الأراضي المقدسة، ونشأة أحزاب سياسية متعددة، وضعف الفكر الإسلامي، وتسرب الأفكار الاقتصادية الهدامة عن طريق أبواب خفية إلى الامة العربية الإسلامية، فخسر المجتمع الإسلامي كل ثقل ووزن، وسرت في العرب محل الروح الإسلامية إيديولوجيات جديدة نحو الاشتراكية والشيوعية والرأسمالية وما إليها، وقد حدثت أحزاب سياسية في البلاد الإسلامية، تؤيد هذه الإيديولوجيات وتدعمها بأقصى ما يمكن وبصنوف الأساليب من المكر والخداع والمحاربة والقتال. فانتشار الكتل الإسلامية أضعف الكيان الإسلامي، فبقيت الدولة الحجازية مركزا للدين والعبادة، لا يسانده مركز سياسي وقاعدة عسكرية، وكان من حق مركزيتها العالمية أن تتمتع بقوة عسكرية تساندها من الخارج، وفي جانب آخر تمكن النفوذ الغربي في المناطق العربية الأخرى مشكلا تحديا سافرا للأمة العربية وأهدافها.

والخلاصة أن العرب انخدعوا بالوعود الغربية، وخسروا استقلال مراكزهم الدينية والسياسية.

الشام وفلسطين:

وكان الإسلام جعل الشام وفلسطين مركزا سياسيا للإسلام، وقد خُدع العرب في هذا المجال، ولم يتوصلوا إلى حقيقة مؤامرات الأعداء، مما أدى إلى ضعف هذا المركز وانحسار قوته، وزوال ثقله العظيم، وقد بدأت بريطانيا منذ عام ١٨٩٥م مؤامرات خفية لتوطين اليهود في فلسطين، فقد رفع يهودي أسترياليٍ بسبب إغراء بريطانيا شعار "دولة اليهود لأمة اليهود"، وكتب رسائل إلى دول تركيا وروسيا وألمانيا والحكومات الكبيرة الأخرى لاكتساب التعاطف، وقد انكشفت المؤامرات البريطانية الخفية بعد خمسة أعوام، حيث بحثت بريطانيا في عام ١٩٠٦م في يوغندا مشروع استيطان اليهود في فلسطين، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى وبالتحديد في ٢/ نوفمبر عام١٩١٧م كتب السيد بالفور وزير خارجية بريطانيا رسالة باسم الوفاق اليهودي إلى لورد اوتهس تشائلد فيلد رئيس الوفاق، يؤكد له أن حكومة بريطانيا تحاول جهدها في استيطان اليهود في فلسطين، وقد نشرت جريدة "المدينة" الصادرة عن مدينة بجنور الهندية في ١٠/ جمادى الثانية/ ١٣٦٥ه تفاصيل هذه الرسالة.

إن البند الثاني عشر من صيغة الأمن العالمي، التي قدمها السيد ولسن رئيس أمريكا في عام ١٩١٨م يؤكد على تحرير المناطق غير التركية التي تحتلها تركيا، وأباح الرئيس الأمريكي لمجلس الأمم (وهو ليس إلا اسما ثانيا لأمريكا) إقامة الانتداب الغربي على دولة فلسطين (التي كانت جزء من الخلافة العثمانية)، فجعلوا أجزاء الدولة العثمانية تتفرق أشلاؤها ويتمزق كيانها، لتقتسمها الدول الغربية كيفما شاءت، وكان القسط الأول من هذه المؤامرة الشائنة أن تقع فلسطين تحت بريطانيا، ليمكنها استيطان اليهود في أرضها، وقد بدأ فعلا تنفيذ هذه المهمة على مرأى ومسمع من العالم، ليضربوا على الكيان العربي ضربة قاضية، وعادت القوة العربية تضمحل وتنحسر بعَدَدها وعُددها، وكان عدد اليهود في

فلسطين في عام ١٩١٨م نحو عشرة آلاف، بينما زاد عددهم بعد هذا القرار الجائر في عام ١٩٢٦م إلى نحو سبعة وثمانين ألفا، وبلغ في عام ١٩٣١م إلى مائة ألف وخمس وسبعين ألفا بزيادة خمسة وتسعين ألفا، وفي عام ١٩٤١م بلغ عددهم إلى خمس مئات ألف، بينما كان عدد المسلمين العرب في فلسطين مليونا كاملا، فأصبحت نسبة اليهود والمسلمين ثلثا وثلثين، ونظرا إلى هذا قد تنبأ ضابط بريطاني بأنه سيأتي يوم، يعرف فيه المسلمون أن عدد اليهود في فلسطين عاد أكثر من العرب، وقد صاحت العرب بهذا القول، وذكروا بريطانيا بوعدها في عام ١٩١٥م، الذي وعد به السيد بالفور وزير خارجية بريطانيا بأن حكومة بريطانيا توثق باتفاق رأي التحالف الدولي حرية العرب والصلح بين العرب والترك، فقامت بريطانيا بتأليف لجنة طارئة، تضم ممثلي فلسطين وبريطانيا، وتقدم اقتراحات حول مستقبل فلسطين، ثم قدمت بريطانيا أن نسبة اليهود والمسلمين في فلسطين هي نسبة الواحد والاثنين، وهذه النسبة ستبقى، ولكن لايجوز لليهود الأجانب التوافد إلى بلاد فلسطين بنية الإقامة، وقد زادوا في الاقتراحات أن الانتداب البريطاني سيبقى على أرض فلسطين ما لم تدخل فلسطين في تولية مجلس الأمم، فالاقتراح البريطاني مهد لاستيلاء مجلس الأمم على أرض فلسطين بكل وقاحة.

إن تقديم الاقتراحات حول مستقبل فلسطين قد خفف بعض الألم والحماسة العربية، ولكن تولية مجلس الأمم لفلسطين أثارت علامة الاستفهام حول مستقبل العرب، كما سرَّ العربَ السذج اقتراح فرض الحظر على زيادة اليهود، ولكن شكلت بريطانيا بشكل مستور جيشا عسكريا ثوريا لليهود، يضم خمسة آلاف شاب مدرب، ليستطيعوا إحداث الثورة في فلسطين، ويبقى لبريطانيا عذر الثورة، حيث الثورة تذهب بالدولة المستقلة، فكيف تبقى الوعود أمام عواصف الثورة، وتقول بريطانيا: إن فلسطين خرجت من يدها، كما أن الدول الغربية قد نسخت قانون الحظر على شراء

أرض فلسطينية بدون فوارق اللون والجنس والدين، كما كانت في السابق، وأباح لكل شخص شراء أرضها وإجارتها واستئجارها، سواء كان يهوديا أو نصرانيا، وكان من الممكن أن يحدث في الأمة العربية اضطراب بسبب هذه البنود، فوضعوا في هذا القانون بندا جديدا، وهو أنه لا بد من أن تكون فلسطين دولة تضمن حقوق اليهود والعرب بشكل سوي، وبعد هذا القانون توافد اليهود إلى أرض فلسطين بعدد كبير، وشروا هنا أراضي كثيرة، وإن كان القانون لا يفرق بين مسلم ويهودي، ولكن كان المسلمون ضحية الفقر والمسكنة، ولا يجدون من يقف بجانبهم، أما اليهود فكانوا أصحاب كنوز قارونية، وتساعدهم بريطانيا وأمريكا، حتى تمَّت لهذه الأمة التي عرفت بامتصاص دماء البشرية عن طريق الربا والقمار والسيطرة الكاملة على أرض فلسطين، وقد نتج عن هذا أن توزعت بريطانيا وأمريكا أرض فلسطين، بينما رجع العرب بذل وفقر ومسكنة، وقد أُخرج العرب من فلسطين بمتاهات الوعود الكاذبة والألفاظ البراقة، واحتل اليهود الجانب الأكبر الأخصب من أرض فلسطين، وأقاموا دولة باسم إسرائيل، تشرف عليها كل من أمريكا وبريطانيا، فهي تزدهر وتتطور من جميع الجوانب الحضارية، أما فلسطين: مركز السياسة الإسلامية عادت مركزا لسياسة أمريكا وبريطانيا وأوربا واليهود، لاسيما مدينة القدس، التي أحيطت بسياج منيع، يفصل بين اليهود والمسلمين، ويقوم اليهود برمي القنابل والقذائف التي تحصد أرواح المسلمين، فتتعرض فلسطين العربية لخطر داهم كل وقت، وسلامها مهدد أبدا، ولا أدري إلى متى سيبقى هذا الجدار؟ وإلى متى يجري ابتلاء إخواننا في فلسطين؟ فكما أن المسلمين كانوا خُدعوا من قبل النصاري في شأن القبلة الأولى، خدعوا أكثر من ذلك في شأن القبلة الثانية، وبحثوا بظلفهم عن حتفهم.

وقد زار كاتب السطور قبل هذا بلد الأردن فيها بعد ١٩١٥م، ليتشرف بالصلاة في المسجد الأقصى، وأقام في الزاوية الهندية، التي يشرف عليها آنذاك عزيزي الشيخ ناصر حسين الأمبيتهوي المهاجر إلى الشام، وكان جانب كبير من القدس، بما فيه المسجد الأقصى والقبة الصخراء تحت تصرف المسلمين؛ ولكن اليوم إذ أكتب هذه السطور دخلت القدس كلها بما فيها المسجد الأقصى الصخرة المباركة في ملك اليهود يا للعجب!.

مصر:

وكل ذلك حدث في مصر؛ فكانت مصر مركزا ثالثا للعالم الإسلامي، وأراد الشرع الحكيم أن تبقى مصر قاعدة عسكرية للدولة الإسلامية، وأمر المسلمين بملاحظة هذا الأمر الهام وتقوية هذا المركز، ولكن مصر أيضا جعلت تضطرب بمؤامرات الأعداء، حتى آلت إلى أن تكون قاعدة عسكرية للأعداء فضلا عن الأصدقاء، وبعد انفلات مصر عن الخلافة العثمانية تورطت مصر وحكامها في الوعود البريطانية الكاذبة حول إحياء الخلافة والنهضة العربية.

وتحالفت مصر مع الإنجليز، فقبلت هذا التحالف بشرط استيلائهم على نهر السويس، ورضيت مصر بهذا التنازل المزري، وأقرت القاعدة الإنجليزية العسكرية على أرض مصر، فكان الإنجليز يعرفون منذ قديم أن مصر بوابة رئيسة للعالم الإسلامي، فالولاية عليها تجر إلى سيادة الشرق والغرب، وفي تعبير آخر: بعد استيلاء الأعداء على كل من العريش والغزة وصحراء السينا الممتدة لجبل الطور ونهر السويس لم يبق لمصر ولا للدول الأخرى مقاومة العدو، والقدرة على صيانة البلاد والدفاع عنها، وكل المؤشرات تؤكد أن المناطق المذكورة ستخرج من ملك المسلمين وتدخل في ملك الأجانب المتربصين، فبعد استيلاء الإنجليز على نهر السويس مباشرة ظهرت ولاية غربية على دول شرقية، كما كانت من قبل ولاية الشرق على الغرب.

واستيقظ المصريون بعد بلوغ هذه المرحلة الخطيرة، وقد ظهرت لهم صور المؤامرات والأكاذيب البريطانية بكل وضوح، فرفعوا أصواتا قوية ضد الإنجليز، وبدأوا محاولات جادة، تضمن لهم الحرية والاستقلال، ودخل نهر السويس من جديد في ملك المصريين، ووضعوا الأقفال على أبواب أوربا، وقام جمال عبد الناصر الرئيس المصري بتعضيد مسير الاستقلال، وجعل مصر دولة مستقلة قوية، ولما رأى الإنجليز أن المؤامرات والدسائس الخفية لاتعمل عملها فهجموا مع فرنسا وإسرائيل على نهر السويس، فلا يمكن لهم الغض من هذا النهر الهام، فلولا جمال عبد الناصر وتدابيره المحكمة في هذه المرحلة الخطيرة لكان الغربيون عُبادُ التثليث استولوا على نهر السويس، وضموه إلى ممتلكاتهم؛ ولكن الرئيس المصري ردع هجمات الغربيين بمؤهلاته السياسية، وأبدى اهتماما فائقا بصيانة نهر السويس، بيد أن الغربيين قد نجحوا في إقامة الجيش الغربي العالمي في حدود غزة، التي ليست ببعيدة من نهر السويس، وإن كانت غزة اليوم تحت دولة مصر، ولكن المصريين أيضا يحتاجون في دخولها إلى تأشيرة، أما الجيش العالمي فهو يحتاج في دخولها إلى جواز سفر، ففي هذه الصورة إذا نشبت حرب بين إسرائيل ومصر قام الجيش العالمي بجانب إسرائيل، ودافع عنها، فإن هذا الجيش العالمي متاخم لحدود مصر، وتظهر من هناك المستعمرات اليهودية في إسرائيل كما قد رأيناه نحن مندوبي مؤتمر العالم الإسلامي بالقاهرة عام ١٩٦٤م، ولقد وجدنا أن الجبهة المصرية ليست بقوية، فإن لم يُعمِل حكام مصر التدبير والفراسة تذهب ريح مصر أمام الجبهة الإسرائيلية الماكرة.

وعلى كل فإن حدود فلسطين الموزعة هي منطقة غزة، التي تحدق بها كل وقت أخطار اليهود ودسائسهم وهجماتهم، ففقدان السيطرة الخالصة لمصر على هذه المنطقة، والتدخل السافر لمجلس الأمم في شؤونها يرادف الصيد في الماء العكر، ويقال: إن

المؤشرات تشير-ولا قدر الله- إلى أن تدخلات الأعداء سوف تنتشر في هذه القاعدة العسكرية الإسلامية الخالصة، وتصبغها بصبغة غربية.

وفي عام ١٣٨٤هـ الموافق ١٩٦٤م إذا زرتُ مصر مشاركة في المؤتمر الإسلامي كان من البرامج المقررة السياحة في مصر كما ذكرته في المقدمة، فقد زرنا غزة، وبلغنا أقصى الحدود المصرية، وقد شاهدنا المخيمات اليهودية بأم أعيننا، وكانت غزة آنذاك تحكمها مصر؛ ولكن اليوم إذ ينشر هذا الكتاب بلغ ملك مصر إلى العريش من غزة، وهذا يعني أن بعض مصر أيضا دخلت في ملك إسرائيل، ولم تبق للمسلمين مصر بكاملها.

والحاصل أن أعداء الإسلام قد فطنوا فيما يتعلق بالمراكز الإسلامية ما حاول الإسلام أن يفطنه المسلمون، وقد فطنه المسلمون الأوائل، ولكن تجاهلوا أمرها من بعد، فكان من المشاريع الإسلامية العظيمة أن تكون الحجاز والشام ومصر مراكز إسلامية، وبينها اتصال وثيق، ومساعدة متبادلة، ويجب أن تكون بعيدة عن تدخلات الأعداء؛ فإن وحدة هذه المراكز الثلاثة كانت خطوة أولى نحو الوحدة الإسلامية الكبرى، والظاهر أن هذه الوحدة القوية لاتقوم على أساس الوطن؛ بل تقوم على أساس الأخوة الإسلامية، وقد فطن الأعداء قوة الوحدة الإسلامية، فإذا أرادوا التدخل في هذه المراكز أضعفوا مبادئ الوحدة الإسلامية، وأحلوا محلها مبادئ الوطن والقوم والنسل واللون، وهذا بلا شك أسباب التفرق والاختلاف، والجدل والانتشار دون الوحدة والوئام، وكان الأعداء يعتبرون الوحدة الإسلامية أكبر خطر على مؤامراتهم، فمزقوها بسكين الوطنية، ونخروا في جسد الاستقلال العالمي للإسلام، وخدعوا المسلمين في هذا المجال باسم الوطن والقوم، فحل الوطنُ محل الله سبحانه، كما قال شاعر الشرق العلامة محمد إقبال:

إن الوطن هو أكبر الآلهة الجدد

فهو يرتدي من أكفان الدين.

وشهد التاريخ بأن مؤامرات الأعداء تبدأ بتفريق الكلمة في البلاد الإسلامية، وإطلاق الوعود الكاذبة من السيادة والقيادة لعملائهم في الوطن الإسلامي، وإذا صار هؤلاء العملاء يصدرون عن رأي الأعداء، وينفذون نواياهم، بدأوا هجمات مسلحة، يقود جبهاتهم العملاء من المسلمين، فيتقاتل المسلمون من الجانبين، وبذلك تمزق العالم الإسلامي، والعملية مستمرة، مما أدى إلى تجفيف منابع الإسلام في هذه الديار الإسلامية، وفوران عيون الأعداء، وكان المسلمون هم السبب الرئيس وراء كل مايحدث في الوطن الإسلامي، ويصدق عليه ما قاله الشاعر الأردي البليغ:

غیر تکلیف اب نہ فرمائیں ‌ ‌ ‌ ‌ دوست کافی ہیں دشمنی کے لئے

[ترجمة] رفقا أيها الأعداء، فحسبكم أحباؤنا للعداوة

وعلى كل فإن نظرنا إلى مصر كزعيم العالم العربي بجغرافيتها ومكانتها الشرعية بشرط أن لايُنصب فيها صنم الوطنية، ولا يدير أمرها عدو أجنبي كان تصديقا للواقع، ووفاء بمتطلبات شرعية، لن تكتمل باسم السياسة الوطنية أو باسم الوطن، فإني أرى أن كل من يحاول انفصال مصر عن الشام والحجاز أو انفصال الشام والحجاز عن مصر، أو يراه عملا مستقيما هو إنسان مغرض، لا يرى الخير للإسلام والمسلمين، ولأمرما وضع التحالف الأوربي مصر نصب أعينهم، ويفكرون ليل نهار في بسط نفوذهم الاستعماري في أرض مصر؛ فهل يمكن مقاومة هذا الخطر الداهم بتفرق المسلمين وتقاتل العرب فيما بينهم؟ كلا! بل المقاومة الشريفة والدفاع عن البلاد المقدسة لن تكون إلا بالوحدة الإسلامية الكبيرة، وهذه الوحدة لاتأتي إلا عن طريق الأخوة الإسلامية، فهي أساس الوحدة العالمية، وإلا فكل قوم في الدنيا يهتفون بالعالمية، ويرددون كلمات الوحدة العالمية، والإخاء العالمي، والسلام العالمي، وقد حولت اكتشافات العلم الحديث العالم كله إلى قرية صغيرة أو أسرة، وأحدثت مبدأ العولمة، فنعرة العالمية ليست نعرة هادفة؛ بل هي من مقتضيات العصر الحديث، وجارية على كل لسان، وكان الإسلام هو الذي رفع شعار

العالمية قبل أربعة عشر قرنا، ولم تكن العالمية نعرة إسلامية؛ بل كانت هدفا ساميا، فإن رفعت اليوم البلادُ الإسلامية نعرة "العالمية" فهي أجدر بها، فإن الإسلام هو الذي عرّف الدنيا بمعنى العالمية، وتقدمت الدنيا بوسائلها إلى هذا المعنى؛ ولكن الفارق بين مبدأ العالمية الإسلامي وبين نعرات العالمية لدى الأمم هو الدين؛ فنعرات الأمم نعرة ظاهرية قائمة على أساس الجغرافيا، بينما نعرة الإسلام هي نعرة دينية هادفة، فعالمية الأمم تتصل بالوطن واللون والجنس والعرق، وهي من أسباب الفرقة والجدل، ومن أكبر العوائق في سبيل العالمية، بينما عالمية الإسلام مربوطة بالأخوة الإسلامية، التي ترمي إلى تحقيق الإخاء الإسلامي، بدون التمايز العرقي والجنسي و اللوني؛ ولكن المسلمين أغفلوا هذا المبدأ، وجرُّوا على الدين والدولة وبالا كبيرا.

جزيرة العرب:

وإن كان العرب لم يرجعوا من بعد إلى فطرتهم الأصيلة التي فطرهم الله عليها، فلا يظنوا أن المضار تنحصر فيما وقع من أخطار وأضرار؛ بل لهم أن ينتظروا ما يأتي به الغد، وليس بقليل ما وقع من مصيبة وبلية، ففقدان مركزية الأماكن المقدسة ليس بمصيبة صغيرة؛ بل هو داهية كبرى، جرت على العالم العربي أنواع الذل والمسكنة، فمن آثاره السيئة خضوع جميع الدول العربية للنفوذ الأجنبي، وأدهى من ذلك أن الجزيرة العربية التي كان من الواجب على المسلمين إخراج اليهود والنصارى منها، يتم فيها اليوم إخراج المسلمين، فالجزيرة العربية اليوم انقسمت إلى دويلات صغيرة، وكلها مدين لليهود والنصارى، أو محكومة اقتصاديا وسياسيا من قبل الأعداء، أو على الأقل مفتخرة بالتحالف معهم.

وعلى كل فإن تمزق الخلافة العثمانية والانتهاك الجماعي للدول العربية جاء بآثار بعيدة المدى، فالشريف حسين أمير مكة حينما وقَّع اتفاقية إلغاء الخلافة، أبرم في الواقع

معاهدة تفرق العالم العربي إلى دويلات متناحرة، مما يجني ثماره المرة اليوم كل العالم العربي؛ بل العالم الإسلامي كله، ولم تزل اليوم مرارتها؛ بل تزيدها اليوم مرارة وقسوة.

الشام:

وقبل خمسة عشر عاما (في ١٩٦٤م)حينما زار راقم السطور هذا المملكة الأردنية لأداء الصلاة في المسجد الأقصى، وأقام بالزاوية الهندية، وكانت منطقة القدس الشريفة حسب الجغرافيا القديمة جزءا من الأردن؛ ولكنها اليوم تحت السلطة الصهيونية، لا سيما الأماكن السياحية والمناطق الحساسة كلها عادت مكبلة بقيود الصهاينة، وحدثت تقلبات حضارية واجتماعية كثيرة.

مصر:

وفي عام ١٣٨٤هـ وهو عام تأليف هذا الكتاب حضرتُ مصر، ونظمت الحكومة المصرية سياحة المندوبين في مصر، وكان البرنامج يتضمن زيارة آخر حدود غزة، وقد ذكرتُ المخاوفَ المذكورة أعلاه آنذاك، أي بإمكانية أن تخرج هذه المناطق من ملك العرب، وتقع في أيدي الأعداء؛ ولكن في هذه الفترة أي وقت نشر الكتاب عادت المخاوف واقعا ملموسا، أما المخاوف المستقبلية فهي أشد خطرا وأكثر ضررا؛ ولكن بعد كل هذا لم يتخذ العرب تدابير حاسمة، وإجراءات لازمة، ولم يقوموا بالتعاليم الإسلامية، التي أُمِرُوْا بها قبل أربعة عشر قرنا، بل إنهم ينتهجون نفس المنهج، الذي جرَّ عليهم كل الويل والدمار.

میرؔ کیا سادے ہیں، بیمار ہوئے جس کے سبب
اُسی عطّار کے لڑکے سے دوا لیتے ہیں

ترجمة: مأ أكثر مير سذاجة! فهو يستطبُّ غلام الصيدلي، الذي تسبب لمرضه.

فإن قصَّر العرب في صيانة المراكز الإسلامية دينيا وسياسيا، ولم يحاولوا جهدهم في استعادتها ظهرت نتائج مدمرة، وويلات أشد دمارا، مما عاد العرب يفطنون له، إلا

أن فطنتهم انتبهت بعد خسائر فادحة، وبعد انفلات القوة التي تتطلبها استعادة المركزية، ولكن الله على كل شيء قدير، ولا يرتفع هذا الضعف إلا بالعودة إلى الشرع الإسلامي والتمسك بالمبادئ الإسلامية، قال الله تعالى: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** (سورة آل عمران: ١٦٠).

إن دراستي القاصرة توصلت إلى أن الدعاوي الكثيرة بصيانة المقامات المقدسة والدفاع عنها جاءت مصبوغة بصبغة الوطن والجغرافيا والقوم، ووجهة نظري في هذا الباب ليست وطنية ولا جغرافية؛ بل دينية خالصة، فتاريخها وجغرافيتها أيضا شرعية، فإن كانت محاولات صيانة الأماكن المقدسة والدفاع عنها بشكل حزبي أو سياسي أو وطني أو جغرافي، كانت محاولات موقتة ومحدودة، ولكن أرى هذه الأماكن فوق هذه الاتجاهات المحدودة، ولذا لا أنظر إليها نظرة سياسة ووطن وجغرافيا؛ بل أنظر إليها نظرة شرعية، فإن حق الصيانة ومنهجه الصحيح لن يكتملا بدون وجهة نظر شرعية تجاهها، فوجهة نظري قد لاتصادف هوى في بعض القلوب المأخوذة بالمادية والوطنية، أو يعتبرها البعض بضيق النظر أو الرجعية؛ ولكن الرجعية هي الأصل في الشرعيات التي مدارها النقل والرواية، فإن أعملنا التجديد في النصوص لم تبق نصوصا، وإن أعملنا الرجعية في العقليات لم تبق عقلية راقية، فإذا كان أساس قداسة هذه الأماكن هي النصوص، دون الاختراعات العقلية، ومن هنا كسبت هذه الأماكن القداسة الشرعية دون القداسة الوطنية أو المنطقة الجغرافية، فالرجوع إلى النصوص والأحكام الشرعية أو الفطرة الأصلية إن كان رجعية، فالتجدد يعني القضاء على الحقائق، والخروج على الفطرة الإلهية، والخيانة الدينية، فإن كان عملي رجعية فلا أقول غير ما قاله الإمام الشافعي:

إن كان رفضا حب آل محمد
فليشهد الثقلان أني رافضي

وأقول مرارا: مادام المؤمن لايعرف المكانة الشرعية لهذه الأماكن المقدسة ومركزيتها العالمية لايستطيع أداء مهمة الحفاظ عليها والدفاع عنها، ولا يظهر من المراكز الآثار المرجوة، التي دعانا إليها الإسلام، فهذا الكتاب ليس مجموعة سطور سياسية؛ بل هو رسالة دينية لاتخص المسلمين فحسب؛ بل اليهود والنصارى الذين لهم دخل كبير في توتير الجو وإفساد المكانة الصحيحة للأماكن المقدسة، هم الذين إذا فكروا في القضية تفكير إنصاف واعتبروا الأحكام الشرعية فطرة ربانية وجدوا في هذا الكتاب كثيرًا من العِبَرِوالنصائح، التي ترشدهم إلى المنهج السليم للتعامل مع البلاد المقدسة، مما يدعوهم إلى الوقوف بجانب المسلمين لا من الناحية الوطنية فحسب؛ بل من الناحية الدينية أيضا، فإن وجهة نظري هذه تمثل تماما الاتجاه الصحيح لدى أنبياء بني إسرائيل، ثم لن تفوتهم الأغراض المتعلقة بالبلاد المقدسة.

ومن ثم أبرم الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدة مع اليهود في الأمور الدينية لدى اليهود، فوقَّعوا عليها، مما زادهم قوة وبصيرة؛ ولكنهم نقضوا العهد حسدا منهم وعُتوًا، مما ورَّطهم في المصائب الكبيرة، وألحق بالمسلمين أذى، فحصدوا هم خسائر فادحة لقرون طويلة، وجعلوا المسلمين يعانون أنواع البلاء.

فإن كانت هذه الأمم لاتريد أن تنظر إليها بمنظور ديني فلا أقل من أن النظرة إليها من جهة عقلية، وقد تم إثبات الموضوع في هذا الكتاب بالدلائل الشرعية والعقلية والحسية، ولذا أرى من اللازم أن الكتاب كما ينفع المسلمين، ويذكرهم بما نسوه من دروس وعبر تجاه هذه البلاد المقدسة، ينفع كذلك اليهود والنصارى، فيعطيهم كثيرا من العبر والمواعظ، ماداموا لم يعملوا التعصب والنزاع السياسي، ويسمعوا صدى قلوبهم، وإن كان من العبث أن نتوقع منهم هذا اللون من الحيدة العلمية والعدالة والأمانة، فقد فقدوا المعيار الصحيح لتمييز الحق من الباطل، وإن ملكوه لم ينتفعوا به نظرا إلى أغراضهم

التافهة، فهم يعيشون في هذه الأيام ليؤججوا نار العداوة والبغضاء، ويحصدوا ثمار النزاع والجدل، حتى عاد هذا اللون من التعصب و العداوة طبيعة ثانية لهم.

قال الله تعالى- ومن أصدق منه قيلا: **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (*) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (سورة الأعراف:١٤٦-١٤٧).

فكيف يمكن أن نتصور منهم فكرة بناءة هادفة، والعمل بالعدل والأمانة، فنصب أعينهم في هذه الأيام هو إلحاق الضرر بالآخرين وعرقلة المسير الثقافي لدى كل أمة، وعن هذا الطريق: طريق المكر والخداع خدعوا المسلمين، وعاثوا في البلاد الإسلامية فسادا؛ ولكن من مهمة المسلمين أن ينبهوهم على الأخطاء، وينذروهم من العاقبة الوخيمة.

وبذلك فقد أديت الأمانة، وأقمت الحجة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

خلاصة المقاصد:

إن جميع ما تمَّ تفصيله في الصفحات السابقة يتلخص في عشر نقاط تالية:

١. إن الفوارق بين الدين والدولة التي كانت مستمرة لدى كل أمة وقوم قد ألغاها الإسلام، وربط كلا من الدين والسياسة والعسكرية ربطا موثقا، وبذلك جمع شؤون الدولة والسياسة، واعتبر الجميع جزءا من الدين، حيث أعلن بكل صراحة: الملك والدين توأمان[1]، فهما لاينفكان، فهذا الدين الاجتماعي العالمي يشمل كل جزء من أجزاء السياسة والاجتماع، وإن سياسة هادفة عادلة تنطوي على الدين، ولا تتجاوزه، أجل! إن الإسلام قرَّر مراكز خاصة لكل من الديانة والسياسة والعسكرية.

٢. إن سورة التين تحدد هذه المراكز الثلاثة المقدسة، فهي مكة المكرمة (الواقعة بالحجاز)، والقدس الشريف(الواقع بالشام)، وطور سيناء(الواقع في مصر)، هي مراكز ثلاثة عالمية للإسلام، فالحجاز مركز للأمن والعبادة، والشام مركز سياسي للإسلام، ومصر مركز عسكري، وعلى هذه الثلاثة يقوم النظام الاجتماعي العالمي: نظام الخلافة الإسلامية، لتتجه المراكز كلها إلى اتجاه واحد مستقيم، ولا يحدث خلل في الوحدة الإسلامية.

٣. وقد تمَّ بيان وجوه القداسة في جميع المراكز، وقد بينتُ أن مصدر القداسة والمكانة الشرعية الصحيحة هي نقاط الفيض في الجميع، فنقاط الفيض هي التي تهب لها هذه القداسة، ونقاط الفيض أيضا ثلاث: الأولى المسجد الحرام أي الكعبة المقدسة الواقعة في مكة، والثانية المسجد الأقصى الواقع بالشام، والثالثة جبل الطور الواقع بالجانب الأيمن من الشجرة بمصر، وبها يرتبط مصير الإنسانية كلها في الآونة الأخيرة،

---

(١) أخرجه الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (المتوفى: ١١٦٢هـ) في كتابه: **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس** (القاهرة: مكتبة القدسي، د.ط. ١٣٥١هـ)، ج٢، ص٢١٥، رقم الحديث: ٢٣٢٩، وفيه: قال الصغاني: موضوع.

وبذلك يكون الإنسان مصداقا لقول الله تعالى: ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وإلا فيرد الإنسان إلى أسفل سافلين.

٤. ثم تقدمتُ خطوة، فكشفت عن أسرار قداسة نقاط الفيض المتمثلة في الكعبة المكرمة والمسجد الأقصى والبقعة المباركة، والسر الحقيقي وراء القداسة هو التجلي الرباني الذي ورد في المراكز الثلاثة، وفي هذا السياق فصَّلت التجليات الربانية وأنواعها وخصائصها وآثارها على نقاط الفيض الثلاث وما تقتضيه من الأحكام والآداب.

٥. ثم فصَّلتُ أن نقاط الفيض الثلاث هذه المتمثلة في الكعبة والمسجد الأقصى والطور ليست مقدسة فقط؛ بل هي واهبة القداسة للغير، مما جعل بيئتها القريبة والبعيدة مقدسة، فأصبحت هذه البيئات المحيطة بالمراكز مع تفاوتها مراكز عالمية، كما سُقْتُ دلائل عقلية ونقلية وتاريخية وجغرافية على أن هذه المركزية توافق الفطرة الصحيحة.

٦. ثم أوضحت ما تتطلبه هذه المراكز من الأمة الإسلامية، مما يجب العمل به شرعا وعقلا وسياسة، وفي ترك العمل بالمقتضيات ماذا عساه يحدق بنا من أخطار ومصائب، والتي من شأنها أن تمزق وحدتنا، وتفرق صفنا، وتزرع الخلاف والشقاق بيننا.

٧. ثم اجترأتُ على أن أذكر راجيا أن يقع كلامي موقع القبول أن الأمة الإسلامية قد فرَّطت في حق المراكز الإسلامية كثيرا، وانخدعت بمؤامرات الأعداء؛ مما جرَّ ويلات وآفات عليها، وهي مع الأيام في تزايد وتصاعد.

٨. ثم سردتُ من التعاليم الشرعية ما يمكن به تحاشي هذه المصائب العظيمة، وهذه التعاليم لا بد منها؛ فبدونها لا يمكن تفادي هذه المصائب وشقيقاتها.

٩. ثم ارتاح المؤلف إلى أن الأمة الإسلامية انتبهت بعد ما جرَّبت مضار مؤامرات الأعداء ودسائسهم، فسرى فيها وعيٌ، وانتهى عصر الغفلة، وإن لم يحدث حتى الآن نهج صحيح يوافق المتطلبات الشرعية.

١٠. ثم ذكر بعض النبوءات التي من شأنها أن ترفع معنويات الأمة المسلمة، وتقضى على اليأس والقنوط، وتفيد أن المراكز سوف تعود قريبا إلى مكانتها الصحيحة، التي وضعت لأجلها هذه المراكز، وسوف تتحطم حبائل التلبيس والخداع التي بسطها الأعداء ليصطاد الأمة المسلمة في الماء العكر، حتى أنشا في صفوفنا رجالا، حاولوا جهدهم في القضاء على الوحدة الإسلامية بأيديهم.

وبذلك تمت عشرة، فتلك عشرة كاملة، وهذه المقاصد تمثل في الواقع خطوطا عملية، إن سار عليه المؤمنون بنية صادقة واتجاه سليم تحققت جميع الأماني والأحلام، التي ذكرتها في الصفحات السابقة.

مسؤولياتنا تجاه المقاصد الشرعية:

وبعد ذكر الأهداف الأساسية العشرة ليس من الصعب على قارئ الكتاب إدراك الخطأ الفادح الذي سوف نرتكبه إذا عاملنا هذه المراكز الإسلامية الثلاثة في ضوء استراتيجية وطنية وسياسية مزعومة، ومصطلحات وضعية، فنعتبرها جزءا من الوطن، ونقيسها على غيرها من الأوطان والبلاد، ثم نقوم ببحث الحقوق المدنية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية، ونعد الحصول على هذه الحقوق وفاء بجميع متطلبات هذه المراكز المقدسة، مع أنها تملك من الخصائص والمميزات ما يثبت لها حقوقا عالميا وآفاقيا، تفوق سائر الحقوق، ثم هذه الحقوق ليست مختَرَعة، بل هي موضوعة شرعا، فالشرع هو المعيار لحقوق المراكز، ولا يتم ذلك إلا بالمصطلحات الشرعية؛ فإن الدين والأحكام الإلهية هي أقوى حجة، وأكبر دليل، فهو يستطيع إخضاع العالم كله، وهو من القوة

بمكان لا يكسَّر، ولا يفنَّد، ولا يبدَّل، أما المصطلحات السياسية والمدنية فهي تتغير يوما فيوما، وهي تقبل الرد والنقض والنقاش؛ أما الأحكام الإلهية فهي ثابتة لاتتزلزل، ولايمكن الرد عليها، بل تضطر كل أمة في الدنيا إلى الخنوع أمامها، بشرط أن نقوم بعرضها أمام الدنيا بأسلوب علمي وديني وشرعي، يلائم طبيعة الإسلام، وأكبر المسؤولية ملقاة على كواهل الحكام الذين يتولون إدارة هذه البلاد والإشراف عليها.

فالكتاب وإن خاطب الأمة الإسلامية كلها إلا أنه ملتفت بصفة خاصة إلى الأمة العربية، وبصفة أخص إلى حكامها وزعمائها، لاسيما سكان البلاد المقدسة وزعمائها، الذين يجب عليهم تبعة الحفاظ على المراكز الإسلامية، والدفاع عنها- حفظهم الله من الفتن ما ظهر منها وما بطن-.

فالمسلمون في العالم يتبعون العرب وحكامهم، إذا اتخذ العرب خطوات شرعية حاسمة تجاه هذه المراكز، ولم يصدروا عن مصطلحات وطنية وقومية، وإن كنتُ لا أنكر القومية الخاصة وحقوق المواطنين والحوائج الاجتماعية والمدنية اللازمة، فهي أيضا أهداف هامة؛ لكنها ليست أهدافا عالمية، فالعالمية هي الروح الحقيقي للمراكز الإسلامية العالمية، وعن طريقها يرتبط العالم الإسلامي بمراكزه، كما أن الوحدة الإسلامية أيضا وثيقة الصلة بهذه المراكز، فعنها ينشأ تيار الوحدة والوفاق العالمي، فإن نظر العرب إلى هذه المراكز نظرة وطنية وجغرافية لايقومون بحق قداسة الأماكن المقدسة؛ ولايستطيعون رأب صدوعهم، ولا لم شعثهم، ولا توحيد صفهم، ولا جمع كلمتهم، ولايمهدون سبيلا لوحدة إسلامية كبرى، بل هذا ما يؤدي إلى أن الأمة العربية التي أنشأت وحدة إسلامية عالمية في زمن من الأزمان عادت تفرط في جنب المراكز الإسلامية فتعتبرها جزءا من الوطن والقوم والجغرافيا، فسببت كثيرا من الاختلاف والتفرق العالمي، فعليها تتوقف عالمية العالم الإسلامي، وإن جرى العرب على هذا المنوال، ومضوا في سبيل التقيد بحدود الوطن والقوم والاجتماع واللغة والسياسة، ولم يقوموا بإبراز دور

حقيقي للمراكز الإسلامية كان من المتوقع المضمون أن يعزلوا عن سيادة هذه البلاد وتولية أمر المراكز الإسلامية، ويأتي الله بقوم، يختارهم الله لسيادتها، مما يشكل عارا كبيرا على الأمة العربية، وقد بدأ يظهر ما يثبت المخاوف، وستأتي الأيام بأخطر من هذا وأشد، وقد سبق بعض التفاصيل في الصفحات الماضية.

إلا أن القصد هو النقد دون الهجاء، وشكوى أخوية لا شكوى عدائية، أما القلب فهو يتفجر بالعظمة والاحترام لإخواننا العرب، ولايخطر ببالي تصور إهانتهم، ثم هذا النقد أيضا جاء مصحوبا بلسان الشريعة، ونظرا إلى هذه المصالح قد أعلن النبي صلى الله عليه وسلم أن الحجاز مركز الدين والعبادة، وأن فلسطين مركز سياسي للإسلام، وأن مصر مركز عسكري، وحث المؤمنين على ربط هذه المراكز الثلاثة في منظومة عالمية، لتأتي بنتائج مرجوة، كما أنه صلى الله عليه وسلم أنذرهم من عواقب وخيمة إذا فاتت هذه المراكز أو أهملت في أداء دورها العالمي، فقد حدثت تلك العواقب والمخاوف في صورة واقع ملموس، وذلك نتيجة إهمالنا وتفريطنا في الاهتمام بهذه البلاد المقدسة كمراكز إسلامية عالمية.

وقد بينتُ كل هذه المعاني أمام إخواننا العرب، شاكيًا تغافلهم عن هذا الجانب الحسَّاس، محذِّرًا أن مُضيَّ المسلمين لاسيما العرب في سبيل الإهمال والتغافل عن المراكز الإسلامية، واستمرارهم على طريق التورط في حبائل الغربيين ومؤمراتهم ووعودهم الكاذبة سيدفعهم إلى الوقوع في حضيض الذل والمهانة، والتعرض لأخطار عظيمة، لا قِبَلَ لهم بها، وزوال هوياتهم الدينية وخصائصهم الوطنية بشكلٍ يدعو إلى الرثاء والبكاء، ولم يبق راثٍ ولا باكٍ، وقد ظهرت إرهاصاتُ هذا الزوال، وإن تفطن العرب لمؤامرتهم، وبدأوا يطلقون أيديهم للتغلب على هذه الأخطار والتحديات؛ ولكنهم لم يتخذوا من بعد تدابير لازمة، دعا إليها الإسلام قبل ثلاثة عشر قرنا؛ بل انتهجوا نفس المنهج، الذي سُلط عليهم من قبل الأعداء.

میرؔ کیا سادے ہیں، بیمار ہوئے جس کے سبب
اُسی عطّار کے لڑکے سے دوا لیتے ہیں

ترجمة: مأ أكثر مير[1] سذاجة! فهو يستطبُّ (أي يأخذ الدواء) غلام العطَّار (بائع العطور)، الذي تسبب لمرضه.

فإن كان العرب مازالوا متلبسين بالكسل والتفريط والتماطل، ولم يهتموا من بعد اهتمامًا بالغًا بحفظ هذه المراكز الدينية والسياسية جاءت نتائج فظيعة، فالعرب وإن تفطنوا لهذا السر العظيم لكنهم خسروا القوة اللازمة التي تضمن –في حيز الأسباب– الحفاظ على المراكز الإسلامية، ولم يختاروا من الأسباب والعدة ما يؤمِّن مستقبلهم وهوياتهم ومراكزهم، فضُعْفُ الأسباب سوف ينجبر بالتوكل على الله تعالى، والثقة به، والرجوع إليه والعمل بما يتطلبه الشرع في هذه الظاهرة الخطيرة، قال الله تعالى: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** (سورة آل عمران: ١٦٠).

ولكن الكسل والغفلة وضعف التدبير أمور لاتنجبر بحال من الأحوال، فقد لايستطيع الإنسان جلب الوسائل الكاملة فيكون معذورا، ولكنه لايُغتفر له الكسل وترك التدبير، فلامسوغ لهذه الجرائم البشعة.

المثير للتفكير أن ما هو الموقف الصحيح للإبقاء على استقلال هذه البلاد المقدسة وحفظها؟ وما هو أمثل منهج علمي وأقوم خطة عملية؟

فأقول مع قلة بضاعتي في العلم: إن معظم الدعاوي والنعرات التي نشأت وارتفعت للحفاظ عليها جاءت في صبغة وطنية أو جغرافية أو سياسية معاصرة؛ مع أن الحل لايأتي من جهة السياسة المعاصرة ولا من الوطن؛ بل الحل الوحيد يأتي من تبني

(١) وهو الشاعر الأردي الكبير.

النهج الشرعي للفكر والعمل، والعواطف التي تشتعل سريعا باسم الوطن والقوم سرعان ما تخبو ولا تؤدي دورا يُذكر في حفظ وإحكام المراكز الإسلامية، فالمراكز الإسلامية فوق حدود الوطن والقوم، وهذا ما دفعني إلى أن أتناول المسألة من وجهة نظر شرعية، لا من وجهة سياسية، فإن حق الصيانة ومنهجه الصحيح لن يكتملا بدون وجهة نظر شرعية تجاهها، فوجهة نظري قد لاتصادف هوًى في بعض القلوب المأخوذة بالمادية والوطنية، أو يعتبرها البعضُ بضيق النظر أو الرجعية؛ ولكن الرجعية هي الأصل في الشرعيات التي مدارها النقل والرواية، فإن أعملنا التجديد في النصوص لم تبق نصوصا، وإن أعملنا الرجعية في العقليات لم تبق عقلية راقية، فإذا كان أساس قداسة هذه الأماكن هي النصوص، دون الاختراعات العقلية، ومن هنا كسبت هذه الأماكن القداسة الشرعية دون القداسة الوطنية أو المنطقة الجغرافية، فالرجوع إلى النصوص والأحكام الشرعية أو الفطرة الأصلية إن كان رجعية، فالتجدد يعني القضاء على الحقائق، والخروج على الفطرة الإلهية، والخيانة الدينية، فإن كان عملي رجعية فلا أقول غير ما قاله الإمام الشافعي:

إن كان رفضا حبُّ آل محمد

فليشهد الثقلان أني رافضي

وأقول مرارًا: مادام المؤمن لايعرف المكانة الشرعية لهذه الأماكن المقدسة ومركزيتها العالمية لايستطيع أداء مهمة الحفاظ عليها والدفاع عنها، ولا يظهر من المراكز الآثار المرجوة، التي دعانا إليها الإسلام.

وعاد المسلمون حتى الزعماء والحكام يتحرَّجون من وصف البلاد المقدسة بأنها إسلامية، فإن لفظ الإسلام قد يمنعهم عن التواصل مع اليهود والنصارى وغيرهما من أمم العالم، والاشتراك العملي معهم، أو جلب ودهم وتعاطفهم، ولذلك يضطرون اليوم إلى

اختيار لفظ القومية بدل الإسلام؛ ولكني أرى أن هذا الزعم وهمٌ من الأوهام لاسند له من الواقع والصحة، فإن المسلمون مهما حاولوا وأي عنوان اختاروا، وعن أي مبدأ صدروا -وطنا كان أو نسلا- لن ترضى عنهم أمم الدنيا من اليهود والنصارى ومن إليهم، ما لم يتبعوا ملتهم، ومالم ينخرطوا في سلكهم، فقد جاء القرآن الكريم بأمر حاسم لا يُرد، عند ما قال الله تعالى: **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** (سورة البقرة: ١٢٠).

وأقول للأمة الإسلامية حكومةً وشعبًا: قد نهجتُم مناهجهم منذ أمد بعيد، وتراقصتم على أنغامهم وصدرتم عن مبادئهم من الوطنية والقومية والنسل، فهل رضيت هذه الأمم عنكم؟ وإن كان الجواب بـ "لا"، أفرأيتموني ماذا تنتظرون منهم؟ فإن كانت هذه الأمم قد رضيت عن المسلمين بالألفاظ البرَّاقة والعناوين الجذَّابة وعقدت الموالاة معهم، فلماذا يقومون بتخريب بلاد المسلمين وعرقلة مسيرهم التقدمي والتآمر عليهم؟ والظاهر أن المسلمين ماداموا يؤمنون بالله وحده ويرفضون التعبد بالوطنية والقومية لن يرضوا[اليهود والنصارى] عنهم، ولن تزول عداوتهم، مما ينتج أن اليهود والنصارى مازالوا ينصبون العداوة للمسلمين، وهم باذلون كل الوسع والطاقة في إلحاق الضرر بالمسلمين وانتهاب ثرواتهم وخيراتهم واستغلال أراضيهم وزرع الفرقة بينهم، والمسلمون مازالوا في تنازلاتٍ مستمرة، حيث تركوا المصطلحات الشرعية والمبادئ الإسلامية، ولكن ماذا حصدوا؟ اصبحوا مثالا لقول الشاعر:

نہ خدا ہی ملا نہ وصال صنم   نہ ادھر کی رہے نہ ادہر کے رہے

خسروا الدنيا والآخرة فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء

وكل ذلك واضحٌ في أن ترك المصطلحات الشرعية والألفاظ الإسلامية لن يُرضيَ الأعداءَ، وقد أعلن القرآن الكريم: "**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى**

تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ"(سورة البقرة: ١٢٠).

فما الذي حملهم على موالاتهم على حساب الدين والشعائر الإسلامية، ومع هذا كله لم يرجعوا برضوان منهم؛ بل خسروا مصائب فادحة ولا يزالون، فإذا ثبت أنهم لن يرضوا عن المسلمين، فعلى المسلمين أن لا يبالوا بهم، ولا يسخطوا ربهم سبحانه، فإن هذا يضرهم كثيرا، ولا يعود بجدوى.

ولا أقصد بكلامي هذا ترك المصالح الوقتية؛ بل لا بد من اتخاذ تدابير لازمة، تستسيغها المصالح الوطنية والشرعية، كما لا أدعو الابتعاد عن اليهود والنصارى كليا في شؤون الحضارة والوسائل الحربية، سواء كانت من مخترعاتهم، أو من اكتشافاتهم الحقيقية؛ بل يجب اجتناب أفكارهم واتجاهاتهم الفكرية، ولا يُضَحُّوْن بما عندهم من رأي واتجاه وعقيدة وفكرة، سواء رضُوا أم لم يرضوا؛ بل من المناسب استعمال وسائلهم واستخدام اكتشافاتهم وتسهيلاتهم الحضارية في الإطار الشرعي، فالإسلام دائما يقرر مبدأ النفع والانتفاع، والإفادة والاستفادة.

فالسؤال قائم على محله، وهو أن اليهود والنصارى إن رضوا عن المسلمين واتخذوهم أولياء فلمادا يمارسون العمليات السلبية؟ ولماذا يشنون حربا شعواء؟ ولما تعمل أياديهم الخفية وراء كل عمليات تخريبية في الوطن الإسلامي؟

وإن قيل: إن المسلمين أيضا لم يرضوا عنهم، فلماذا تتهمون اليهود والنصارى بالعدواة والبغضاء؟ فبقدر ما يحقدون على الإسلام يحقد عليهم المسلمون، فالتعصب هو العامل الرئيس من كلا الجانبين.

ولكن هذا الاعتراض وارد في غير محله، وساقط في غير مسقطه؛ بل الاعتراض قائم على الفهم الخاطئ للإسلام؛ فإن المسلمين يؤمنون بدينهم ورسولهم، ويصدقون نبوة

موسى وعيسى عليهما السلام، وما نزل عليهما من الكتب، ويعتبرونه جزءا من الإيمان، كما أمرهم بذلك رب العالمين في كتابه العزيز: **قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** (سورة البقرة: ١٣٦).

فمع هذا الإيمان المحكم لايجوز اتهامهم برفض الملة الموسوية والملة العيسوية، بل من يتهمهم بذلك فهو رجل شديد التعصب، وهو وأمثاله هم الذين يتخلقون مثل هذه الدعايات الكاذبة، فالواقع أن بغض اليهود والنصارى للمسلمين عملية من جانب واحد، ولا يبادلهم المسلمون بالبغض والعداء، فاليهود والنصارى هم المتعصبون لاغير.

وهذا ما يدفع إلى ضرورة ممارسة عملية الدفاع عن المقامات المقدسة وإبراز عظمتها وجميع الجهود المبذولة في صالحها تحت ستار ديني محض، واستثمار العامل الديني ليس عملية التعصب والرجعة؛ بل عملية يصدقها الواقع، فإن إبراز المكانة الدينية للمقامات المقدسة باسم الدين وعرضها أمام العالم أمر واقعي، سواء رضي به اليهود والنصارى أم كرهوا.

ففي كل من حالتي الرضا والكراهية يجب إبراز المكانة الدينية للمقامات المقدسة باسم الدين ولاغير، فإنهم لاينفعنا رضاهم، ولا يضرنا كراهيتهم ضررا أكثر مما يضروننا به الآن جراء إرضائنا إياهم.فليس من المعقول أن نستمرَّ في إرضائهم، ونتحمل كل الذل والهوان، ونترك العمل بالدين واستخدام مصطلحاته الأساسية، كما أن مشادَّتهم والسخرية منهم ليست من الأمور المعقولة المرضية.

بل أرى أنه من الممكن أنهم إن كانوا أتباع الملة المسيحية والملة الموسوية يميلون إلى المسلمين إذا عرضنا عليهم الأمور الدينية تحت العناوين والمصطلحات الدينية بكل تفان وإخلاص، فإن هذه المقامات المقدَّسة ظلت مقدسة في مللهم وشرائعهم أيضا، أو ليس الطور والصخرة المعلَّقة مقدسين لدى اليهود؟ أفليس المسجد الأقصى وبيت اللحم

مقدسين لدى النصارى؟ أو ليست الكعبة المعظمة مقدسة لدى ما عند اليهود والنصارى وسائر الأمم من دين وشريعة وتاريخ؟ فقد بيَّن جيمعُ الأنبياءِ والمرسلين -سواء من بني إسرائيل أو من غيرهم- لأممهم ما تحمله هذه المقامات من عظمة وقداسة، وقد قاموا فعلا بالطواف حول البيت العتيق، وأداء مناسك الحج، فإن كان المسلمون يحفظون هذه المراكز الدينية والمقامات المقدسة فهذا أمر يتم به الوفاء بالواجب الديني الذي اعترفت به جميع الشرائع والأديان، ويؤدي ما على الأمم الأخرى من الواجبات تجاه هذه المقامات، فما الذي يمنعهم عن الحفاظ على هذه المقامات المقدسة؟

وإن قالوا: نحن مستعدون للحفاظ عليها، فهذه عاطفة عدائية، وبغض النظر عن هذه فقد ثبت تاريخيا أن المسلمين بذلوا في خدمة هذه المقامات المقدسة الثلاث جهودا مشكورة، لم يبذلها اليهود والنصارى في عهودهم، ثم خدماتهم جاءت مصبوغة بصبغة التعصب والعداء، فقد استولى اليهود على الشام، فقدَّسوا الصخرة المعلقة وطورسيناء؛ ولكن لم يقدموا شيئا تجاه المسجد الأقصى وبيت اللحم (مولد سيدنا عيسى عليه السلام) لتعصبهم، بل ظلوا يحاولون تلويثهما بما لايليق بشأنهما، مما ألحق بالمسلمين والنصارى حزنا كثيرا، ثم استولى النصارى على فلسطين، فبذلوا جهودا مشكورا في خدمة المسجد الأقصى وبيت اللحم؛ أما الصخرة المعلقة والطور فتغافلوا عنهما عمدا، مما أقلق اليهود والمسلمين، وعلى العكس من ذلك فإن المسلمين إذا حكموا تلك البلاد خدموا المقامات المقدسة خدمة عظيمة، لا يشوبها شائبة من التعصب والعاطفة العدائية، فقد خدموا كلا من المسجد الأقصى وبيت اللحم والصخرة المعلقة والطور كما خدموا الكعبة المقدسة باعتبارها بيت العظمة والقداسة، مما أقرَّ عيون اليهود والنصارى، بل فتحوا لليهود والنصارى أبواب الأقصى والطور بترحاب صدر وسعة نظر، كما فتحوا لأنفسهم، وأساس ذلك أن هذه المقامات مقدسة لدى المسلمين بلا استثناء، أما هؤلاء الأمم فلاينظرون إلى جميع المقامات

المقدسة بنظرة واحدة، فيقدسون البعض، ويتركون البعض، قدسوا المقامات حسب عقائدهم وتعاليمهم القاصرة، أما المقامات الأخرى فلم يلقوا لها بالا.

فليس من الصعب أن ندرك تاريخيا أن أي الأمم الثلاث الكبيرة: اليهود والنصارى والمسلمين أوسعها نظرا وأرحبها صدرا، وأيها أضيق فكرا وأنقص خيالا؟ وأيها أجدر بحفظ هذه المقامات وخدمتها وتقديسها؟ أ أمة شهيرة بالوسطية والسعة الفكرية أم أمة تميزت بالتعصب والتطرف؟ فإن كانت هذه الأمم إن لاحظت هذه المبادئ وتجنبت للحظةٍ التعصب والعداء وفكرت بعين الإنصاف والتدبر فلا عجب في أنها توافق المسلمين في حفظ هذه المقامات على الأساس الديني، متجاوزة الحد الوطني، فالاتجاه الديني تجاه هذه المقامات هو الذي يجذب هذه الأمم، ويلفت انتباهها، كما هو أليق وأهم للمسلمين أيضا بشرط أن يتم هذا بكل إخلاص.

الحاصل أن القصد إذا كان إرضاء الغير فهو أيضا يؤكد على إبراز المكانة الدينية للمقامات المقدسة، ليتحقق القصد، أما الاتجاهات السياسية والوطنية والجغرافية فهي لاتحقق القصد، ولاتكمل الغرض لا اليوم ولا غدا، كما لم يتم ذلك في الماضي.

ومن ثم يحق لي أن أقول: كما أن هذا الكتاب تذكير للمسلمين بالدروس المنسية، كذلك يشكل درسا وعبرة لليهود والنصارى لوكانوا يعلمون.

وعلى كل فإن الغرض الحقيقي من هذا الكتاب أن المسلمين في كل مكان بصفة عامة وسكان بلاد الشام والحجاز ومصر بصفة يجب عليهم أن يلاحظوا المركزية الدينية والعالمية لهذه المقامات المقدسة، ويدافعوا عنها بكل جرأة وحماس، ويبرزوا لها من المكانة ما أبرزته النصوص وأمرت بكشفها، فلا يتأثروا بتهمة الرجعية والأصولية، ولا يهدفوا إلى إرضاء أمة دون الاخرى بترك المصطلحات الإسلامية والنعرات الدينية، فيهتفوا بنعرات طائفية، لتتشكل باتحاد المقامات المقدسة الوحدةُ العربيةُ أولا والوحدةُ الإسلاميةُ ثانيًا، وتظهر من الحجاز مركزية العبادة العالمية، ومن بلاد الشام مركزية السياسة العالمية، ومن مصر مركز العسكرية العالمية، كما تنبأت به الشريعة الإسلامية، حيث جاء في

النصوص ما يفيد أن بلاد الشام هي فسطاط المسلمين ومعقلهم في فتنة الدجال وفتنة اليهود العالمية، وبلاد مصر لاسيما طور سيناء هي معقلهم في فتنة ياجوج وماجوج، وهي فتنة النصارى، والظاهر أن هذا لايتحقق إلا أن يكون المسلمون أعلنوا من اليوم أن بلاد الشام هي مركزهم السياسي العالمي، ومصر هي مركزهم العسكري العالمي، ويكونوا الرأي الإسلامي العام، ويكرِّسوا جهودهم في تطهير المقامات المقدسة عما لصق بها من لوثات النفوذ الأجنبي، كما مر تفصيله سابقا.

فإنهم إذا تغافلنا عن هذا الجانب لايمكن لنا التخلص من فتنة اليهود وفتنة النصارى، وصدق الله تعالى: **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** (آل عمران: ١٦٠).

وقد ينشأ هنا سؤال، وهو أن كلا من بلاد مصر والشام والحجاز قد تغيرت كثيرا الآن بشكل سافر أو مستور من الناحية الدينية، وسيطرت المدنية الغربية على سكانها وربوعها، مما قلب أفكارهم وأعمالهم واتجاهاتهم ظهرا لبطن، فمن هم الذين يعملون في إحداث ثورة دينية في تلك البلاد؟ ويكونون مصداقا للفضائل الواردة في هذا الباب والتي كشفت عنها النصوص الشرعية فيما يتعلق بالمقامات الثلاثة وسكانها، والقلوب التي تأثرت بالحضارة الغربية لاتهتم بالأمور الدينية والوعود الربانية، فكيف يتم ذلك؟

والجواب أن قداسة هذه الأماكن لاتخضع لعمل أحد، صالحا كان أو فاسدا، فإن كان مئات الآلاف من المسلمين اجتمعوا على ترك الصلاة والطواف، فلا يؤثر هذا في قداسة الكعبة المقدسة، أما سكانها وأحوالها المتغيرة فهي أيضا لا تؤثر في قداسة المقامات، فإن الفضائل والمناقب لاتتعلق بأشخاص وأفراد؛ بل بالبقاع الأرضية بشكل مجموعي، فالتغير الوقتي الحادث في سيرة الأفراد والأشخاص لايغير نوعية الفضيلة والقداسة، نعم! يوصف هؤلاء الأفراد بأنهم فاسدون، أما الإنسان النوعي فلايكون بذلك سيئا، يل يبقى على كرامته وشرفه، فإن كان أحد يمدح رجلا شابا قويَّ الهيكل

والجثة، ثم ألمَّ به مرض أضناه، فلا يُرجَع مدحه؛ بل يقال: إن المدح يتعلق بشبابه وقوته السابقين لابمرضه وضعفه الطارئين بتغير الوقت والموسم، وإذا زالت هذه الآثار الطارئة –وهو ممكن دائما بالدواء والعلاج– عادت له صحته وقوته، فالفضائل الواردة في شأن بلاد الحجاز والشام ومصر وسكانها تتعلق بها نوعيا لا فرديا، فصلاح الأفراد أو فسادهم وما طرأ عليهم من قوة وضعف لايؤثر في إزالة الفضائل النوعية، فإن هذه العوارض إنما تنشأ بتغير الأزمان، وهي عملية مستمرة، مع أن الإسلام إذا ذكر فضائل سكان هذه البلاد أخبر بعودتهم إلى الصلاح الأصيل بعد التغير، فهذه الشبهات لاتستند إلى واقع؛ بل أساسها هي البحث عن حيلة وعذر أعرج، والنظرة السطحية والغفلة عن الأصالة المتمركزة، مما لايعبأ به، فهذه المقامات من الكعبة المعظمة والقدس الشريف والطور المبارك مقدسة الآن كما كانت مقدسة سابقا، بل مقدسة ومانحة القداسة لغيرها، حتى كسبت المناطق الأخرى أيضا القداسة والبركة من خلالها، ولم يحرم السكان والأفراد أيضا من بركات القداسة الناشئة عن هذه المقامات؛ بل كانوا أجدر بالاحترام والتعظيم، وصارت مسؤولياتهم أكثر من عامة الناس ويجب عليهم الوفاء بها، وهذا الوفاء بحقوق المقامات هو الذي يحفظ لهم القداسة ويضمن لهم الكرامة، فإن حدث اليوم فيهم بعض المساوئ فلا بد من محاولة دفع المساوئ دون الجحود بفضائل هذه المقامات وسكانها بسبب ما طرأ عليهم من تغير في الدين والعادات و الأخلاق، فإن هذا يبعدهم عن فطرتهم الأصيلة.

الصور الشرعية للبناء والدفاع العالميين من خلال مستويات المقامات المقدسة الثلاث:

أما إهمال المسلمين تجاه المقامات المقدسة وما نتج عنه من آثار سيئة يعانيها المسلمون، فهو أمر جرَّ على المسلمين ويلات كثيرة؛ فلم يبق تحت نفوذهم بلادُهم، وقد

انقطع خيط النظام العالمي الاجتماعي، الذي هو مصدر عزهم وقوتهم، وأدهى من ذلك أنهم نسوا أو تناسوا تلك التعاليم الإسلامية المتعلقة بالاجتماع الإسلامي، التي أمرهم الله بها في الكتاب والسنة، وقد فرَّطوا تفريطا عظيما في الاعتصام بحبل الله، مما أثَّر سلبا على عقولهم وقلوبهم؛ بل على عقائدهم، فقد خلت قلوبهم عن عظمة المقامات المقدسة كما كانت حقها.

ينبغي أن نفكر، ما هي أسبابها، وما هي أساسها؟ وما هو علاج هذا المرض المزمن؟ وكيف يتم بناء المستقبل وتدارك مافات من الأمور؟ وهي أسئلة شائكة، لايمكن لنا أن نتقدم خطوة بدون حل هذه الأسئلة، والمتدبر سطور هذا الكتاب يدرك أن حل هذه الأسئلة هو الموضوع الأساسي للكتاب.

فالأوراق السابقة قد كشفت عن سبب رئيس للمرض الاجتماعي المتمثل في اختلال النظم واضطراب الأمر؛ إلا أنه لم يتم عقد عنوان المرض عليه، ليعتبرها الإنسان في أول وهلة وصفة دواء وشفاء؛ ولكن في نهاية الكتاب أريد أن أشرح ذلك المرض بل المهلكة بعنوانها، فأقول: إن المرض المستعصي الذي قضى على النظام الاجتماعي العالمي للإسلام والذي قام الغربيون الماكرون بترسيخه في عقول المسلمين لا سيما في عقول حكامهم وأمرائهم أن المسلمين عادوا يفصلون بين الدين والسياسة، بل يعتبرونهما متضادَّين، لايمكن اجتماعهما، وأول أثر سيء ظهر بهذا التفريق بين الدين والسياسة أنه قد زالت نوعية المراكز الإسلامية العالمية للمقامات الثلاث: الحجاز والشام ومصر، فكانت نوعيتها تجمع بين الدين والسياسة بكل اتزان، فزالت المركزية السياسية، وبقيت المكانة الدينية، فاختل بذلك التوازن الاجتماعي للمقامات، المتركزة في أساسها، ولما كانت مكانتها الدينية ترمي في الواقع إلى إقامة نظام اجتماعي يجمع بين الدين والسياسية، فالتفريق بين الدين والسياسة جعل المكانة الدينية تتأثر إلى حد كبير.

والأثر السيء الثاني أنه قد انتهى النظام المركزي العالمي للإسلام، الذي قد قام بمشيئة الله بمقتضيات المراكز الثلاثة العالمية، فكان من مهام هذا النظام أن يحافظ على المقامات المقدسة، ويرعاها، ويدافع عنها بأقصى ما يمكن.

والأثر الثالث أن المسلمين تغافلوا عن نظامهم الاجتماعي، وتفرقوا إلى طرائق شتى، فلا أخوة إيمانية تربط بعضهم بالبعض وتمنحهم قوة اجتماعية، ولا مساواة عادلة، تنظم الأمور، وتشكل نموذجا للعالم، ولا أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ليجري نظام الإصلاح العالمي بكل جودة.

والأثر الرابع أن هذه المقامات المقدسة ما بقيت متصلة بعضها ببعض، فالارتباط بينها يظهر عالمية وشمول هذا الدين الحنيف.

وعلى كل فالاختلاف السياسي أنتج الاختلاف الديني، والاختلاف الديني أنشأ الاختلاف الحضاري والاجتماعي، وبمجموع هذه الاختلافات اختل نظام ذلك الخير، الذي من أجله لُقِّبت هذه الأمة بخير أمة.

فمشروع التفريق بين الدين والسياسة قد قضى على جميع الأهداف الأساسية، التي من أجلها بُعِثت هذه الأمة، وبذلك انتهى المبدأ الإسلامي الهام وهو الجمع بين الدين والسياسة، ولاشك أن أهل الغرب قد كرسوا جهودهم في ترسيخ مبدأ التفريق بين الدين والسياسة في عقول الأمة الإسلامية، وصار المسلمون السذج فريسة مكائدهم، وعادت جميع النظم الاجتماعية للإسلام مضطربة الأمر، منفكة المصير.

وفي هذه المرحلة يجب أن نفكر في أن نصارى أوربا إن اقتحموا ميدان السياسة وهتفوا بالتفريق بين الدين والسياسة فهم مضطرون لذلك، فإنهم جعلوا هذا القول: "أعطوا قيصر ما لقيصر والبابا ما لبابا" أصلا هاما من أصولهم، فبدون التفريق لم يمكن لهم البروز في المجال السياسي، فتعاليم الإنجيل المقدس تنحصر في مجالات

الرهبانية ورياضة النفس، ولم يكن لديهم نظام اجتماعي، كما قال الله تعالى: **وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** (سورة الحديد: ٢٧)، وقال تعالى: **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (سورة التوبة: ٣١).

والظاهر أن الرهبانية تعني الانقطاع، فكل أمة تفضل الانقطاع عن الخلق، لاتستطيع إقامة نظام اجتماعي وروابط عالمية، والواقع أن بين الاجتماع والانقطاع تضادًّا، وهذا هو السرُّ في أن النصارى لما دخلوا في ميدان السياسة انقطعوا عن دينهم ورهبانيتهم؛ بل صاروا ضد الدين والرهبانية، كما ابتعدوا في الماضي عن الاجتماعية حسب دينهم وشرائعهم، فإنهم لو اختاروا النظام الاجتماعي في الماضي لذهبت رهبانيتهم الراسخة في قلوبهم، ولما نشأت فيهم رغبة جامحة في الرقي والتطور، وأخذوا السياسة، بات من الضروري ترك دين الرهبانية بشكل واضح، فإن كان هذا رقيا، فهذا الرقي لايمكن حصوله لهم بدون التفريق بين الدين والسياسة، مما يوضح أن الرهبانية عاجزة تماما عن إدارة النظام العالمي، وكذلك الملوكية المنقطعة عن الدين والأخلاق أو الحكومة الاستبدادية لاتستطيع القيام بالنظام الاجتماعي العالمي، وهذا هو السبب الرئيس لزوال الحكومات الفاسدة والرهبانيات في هذا العصر الاجتماعي.

أما أمر الإسلام فهو مختلف تماما، فهو قائل بأن "الملك والدين توأمان"، وهو بذلك يجمع بين الدين والسياسة بل يعترف لكلٍّ منهما بمكانة مستقلة، حيث اعتبر العبادة أهم مقاصد خلق الجن والإنس، وجعل الحجاز مركزا للعبادة؛ بينما أعار السياسةَ أهمية قصوى، واختار لها الشام مركزا عالميا، واعتبر النظام العسكري مركزًا ثالثًا، وجعل مصر

مركزا لها، كما مر تفصيلها سابقا، ثم أقام مركز المراكز للحفاظ على المراكز العالمية الثلاثة، وسمَّاه بالخلافة، لينتشر من خلال هذاالنظام العالمي بركات المراكز الثلاثة العالمية في العالم، وترتبط به جميع النظم الأرضية وجميع الأمم المتواجدة في العالم، وتبرز الإنسانية الحقيقية، نعم! من الضروري أن يراد بالسياسة تلك السياسة المصبوغة بالصبغة الدينية، المليئة بالدين والعقل والتدبر، دون السياسة المتصفة بالمكر والمكيدة، المنقطعة عن الدين، الملوثة بالأغراض الفاسدة، والعداوات الطبقية؛ بل السياسة المعاصرة ليست سياسة؛ وإنما هي آلة استغلال الشعوب والتغلب عليها، وهذا يرمي إلى التفريق بين الشعوب وتنمية الخديعة والفساد، أما السياسة الحقيقية فهي التي تمضي في ظلال العقل والتدبر ونفع الخلق، وتصلح لربط العالم بعضه ببعض، وجمع الشعوب على رصيف واحد، فإن تدبرنا من هذه الناحية وجدنا أن السياسة الإسلامية هي الأسلوب السياسي الوحيد الذي يملك هذه المزايا، ويجمع بين الدين والدنيا ويوحد الشعوب المتفرقة، ثم السياسة الإسلامية ليست أمرا نظريا؛ بل طبقها الإسلام في نموذج سياسي فريد، نظم الشعوب المتحاربة في سلك نظام موحد بكل عدل ورحمة، فلم يكره أحد من الشعوب الانخراطَ في هذا السلك، ولم يستنكف عن هذه الوحدة الشاملة.

ففي عصر الخلافة انضمَّ إلى لواء الإسلام كلٌّ من أهل الدين والدنيا، أما أهل الدنيا والمدنية فلأنَّ نظام الخلافة يجمع بين السياسة والمدنية بشكل لامزيد عليه، وأما أهل الدين فهم أيضا رضوا بهذا؛ لأن نظام الخلافة يحتوي على نظام العبادة بكل حرية وجودة، ثم طبقة عُشاق المناصب الذين لايقبلون أن يترفع عليهم أحدٌ قد رضوا أيضا بهذا النظام؛ فإن الخلافة لا تُقِرُّ الحكم الذاتي لأحد ولا لجماعة، بل الخلافة تصدر عن أن الملك لله وحده، وهو الذي مازالت جميع الأعناق والجباه خاضعة أمامه، ولايجد أحد حرجًا وضيقًا في صدره من الخضوع له، فإن الخليفة تنحصر أعماله في تنفيذ الأحكام

الربانية، وليس له أن يشرع قوانين جديدة تخالف الحكم الإلهي، ويحكم سلطته المستقلة، ثم نظام الخلافة لا يفرق بين الأمير والمأمور، ولا يجوز لأمير أن يترفع ولو قليلا على الشعب، حتى لا يكون سببا لنفور الآخرين، وقد أُدْرِج مبدأ المساواة كمبدإ سياسي هام في نظام الخلافة، ليكون كل إنسان سواء في منزلته وكرامته، ولايكون غالب ومغلوب، وظالم ومظلوم، بل كل إنسان يتمتع بحقوق مستوية، ثم هذا النظام يهتم –فوق المساواة– بمعاني الإخاء والألفة العالمية كمبدإ سياسي، يشمل جميع المؤمنين، فالله تعالى يقول: إنما المؤمنون إخوة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الناس كلهم إخوة، فالأخوة الإنسانية أخوة شاملة، تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتقطع فوارق الجنس والعرق واللون والوطن والقوم، وقد جعل لهذه الأخوة حقوقا شاملة مفصلة، تسع الأعداء، وتجعلهم بمنزلة "ولي حميم".

والظاهر أن الناس إذا لم يكونوا إخوة متحابين بفضل التعظيم الرسمي؛ بل بالتنظيم الإلهي، فكيف تنشأ فيهم عواطف العداوة والبغضاء ماداموا متمسكين بالعدل ومعتصمين بالقانون الرباني، كما قدمت حكومات القرن الأول أمثلة رائعة لهذا.

وفي هذه الصورة لم يتوحش من إصدار الخليفة الأوامر الحكومية حتى أولئك الذين لم يدينوا للإسلام، فإن الإسلام أقر لأتباع الديانات الأخرى الحقوق المماثلة للمسلمين إذا عاشوا تحت الخلافة، ولم يرض بأي سلوك متميز معهم، كما لم يتدخل في أي رسم من الرسوم الدينية، ولم يفرض الحظر على تجارة الخمر والخنزير، التي كانت محرمة في الدين الإسلامي، ومع الحفاظ على جميع حقوقهم ضمنت الخلافة الإسلامية حفظ كيانهم، وتوفير أمنهم، فليس من المعقول إذن أن يتوحشوا من نظام الخلافة، فإنهم لم يكونوا يخشون أن يجري تغيير وتعديل في قوانين الخلافة فيصدر قانون ضدهم، فيكونوا مشردين وبلا مأوى، فإن قوانين الخلافة هي قوانين ربانية، لاتقبل أي تغيير

وتبديل، حتى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لم يسمح بإدخال تغيير في الشريعة الإسلامية، فضلا عن الخلفاء الراشدين، وعلى كل فإذا كان غير المسلمين يأمنون كل الأمن من جميع الأخطار والمخاوف في ظلال الخلافة الإسلامية وكانوا أحرارا في الأعمال الدينية فما الذي يجعلهم خائفين مذعورين من نظام الخلافة؟

والحاصل أن النظام العالمي الذي من شأنه أن يجمع الناس كلهم على رصيف واحد هو نظام إسلامي، نظام الخلافة الإسلامية، الذي يجمع بين الدين والسياسة، والعبادات والأخلاق، والأخوة والمساواة، والأقوام والملل، فلا رهبانية وانقطاع عن الخلق، ولا ملك عضوض بدون خلق ودين، نعم! إن هذا النظام العالمي يحتاج إلى الدعوة العالمية، ليعرف الناس هذا النظام الشامل وما فيه من توازن واعتدال بين الدين والدنيا والأخوة والمساواة، ويلجأوا إليه، فقد جعل الله تعالى الدعوة الإسلامية جزءا من الدين الإسلامي حيث قال: **قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** (سورة الأعراف: ١٥٨)، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدين عالميا من خلال هذه الدعوة، إلا أنه بدأ الدعوة من أهل بيته وعشيرته، ثم قدَّمها أمام أهل مكة ثم ما حولها، ثم اتسع نطاقها تدريجيا حتى عمت الدنيا كلها، ووجه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم رسائل الدعوة إلى سلاطين العالم، ثم سار الصحابة رضي الله عنهم على نهج المصطفى المعصوم صلى الله عليه وسلم، فبلغوا الدعوة الإسلامية إلى جميع أمم العالم، مما سبب قيام نظام الخلافة العالمي، وقد وُضع في هذا النظام السياسي مبدأ عدم الإكراه كما هو مبدأ هام في الأمور الدينية، فمن أسلم بكل رضا وطواعية فقد دخل في زمرة الأخوة الإيمانية، ومن رفض الإسلام فهو مازال داخلا في زمرة الاخوة الإنسانية، وهكذا فمن قبل نظام الخلافة فقد

دخل في نظام الامن العالمي، ومن رفضه ولم يكن يتخذ ضده إجراءات حاسمة، فهو مازال داخلا في هذا النظام حسب ما تم من معاهدة واتفاقية؛ ولكن من سلك طريق العناد والضلال وحاول الفساد والخراب فهذه إثارة للفتنة والفساد ضد الفطرة الربانية، وقد قام ضد السيف البتار.

وفي هذه الصورة إن كان النصارى لم يدخلوا في الميدان الاجتماعي بدون ترك دينهم، ولم يمكن لهم أن يتفتح لهم باب الرقي والازدهار بدون التفريق بين الدين والسياسة، فهم مضطرون لذلك؛ فلم يكن في دينهم نظام اجتماعي، أما الأمة الإسلامية التي دينها سياسة وسياستها دين فماذا يدعوهم إلى اختيار فكرة التفريق بين الدين والسياسة، مما أنتج أن طبقة المتدينين منهم ابتعدوا عن السياسة، وطبقة الساسة والقادة ابتعدوا عن الدين، وحدث تفريق عجيب بينهم، وليس هذا إلا انبهارا عقليا بحضارة الغرب، أو تجاهلا بدينهم وهويتهم أو سلوكا طريق الغير لأغراض فاسدة.

الحاصل أنه ليس هناك أمة تخوض في ميدان السياسة العالمية ولا في ميدان الاجتماع العالمي وتترك دينها، أو نقول في التعبير الحديث: لا يمكن لهم أن يمضوا في طريق الرقي والازدهار، فالأقوام الأخرى كلما بعدت عن دينها سلكت طريق التقدم والرقي، أما الأمة الإسلامية فكلما بعدت عن دينها وقعت في حضيض الذلة والمهانة، كما شهد به تاريخهم، وصدق الشيخ سعدي الشيرازي:

خلاف پیمبر کسی ره گزید — که ہر گز بمنزل نخواہد رسید

أي من سلك طريقا غير طريق المصطفى لن يصل إلى غايته أبدا.

فمما يؤخذ من مزاج الأقوام ومقتضيات العصر الحاضر أن ديانات الأمم تمنعهم عن المضي في المجال الاجتماعي، وفي تعبير آخر: إنهم لن يمكنه اقتحام ميادين الاجتماع والرقي بدون ترك الديانات، أما الأمة المسلمة فدينهم هو الذي يفتح لهم مجالات

الاجتماع والرقي والازدهار، فليس من الممكن أن يترقى المسلمون بدون التمسك بالدين الحنيف، كما مرت دلائله سابقا.

كما أنه من الثابت المسلم به أن الأمم الأخرى إن تقدمت نحو النظام العالمي، لم يسعهم إقامة وحدة عالمية ماداموا لم يتمسكوا بهذا النظام الفطري ومستواه الفطري والنقطة المركزية، وإن أقاموا بشكل سطحي فهو نظام ضعيف مزيف، ليس له قرار، بل يكون محور الشقاق والنفاق، وفريسة الضياع والدمار، مما يجعل القلوب تضطرب، والعقول تتشرد، فإنه سيكون نظاما سطحيا، لايغلب عليه لون التدين وعبادة الله الذي يستميل القلوب، ويمنحها سكينة عجيبة، وهو من المقتضيات البديهية لمركز العبادة، فالأمم الغربية قد رصدت نظام الخلافة، وأدركت آثاره الإسلامية في العالم كله، وأرادت أن تحاكي هذا النظام، كم يظهر من برلمانهم الاجتماعي للأمم المتحدة، ولكنهم لم يدركوا نقطة الوحدة الحقيقية الفعالة في هذا النظام، التي يقوم عليها النظام كله، أو تجاهلوا بها تعصبا أو خشية أن يغلبهم حب الإسلام، وتلك النقطة الحقيقية هي قول الله تعالى: **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** (سورة الأنعام: ٥٧)، فتركوا هذه النقطة، واستبدلوا بها النعرات المصطنعة للوحدة العالمية، مما قد تنجذب إليه النفوس، نحو الوطن والقوم والنسل واللون والإنسانية، ولكنهم لرفضهم نقطة الوحدة الحقيقية ومبادئها ومظاهرها لم يستطيعوا إقامة وحدة عالمية، بل إقامة إرهاصاتها الأولى، كما أن الروح الإنسانية إذا سرت في جسد الحمار لم يتحول الحمار إنسانا أو إذا سرت روح الوردة في الحنظل لم ينقلب الحنظل وردة، فكذلك نعرات الوحدة المصطنعة لم تغنِ شيئا في إقامة الوحدة العالمية، ولم تسلم الدنيا من آثار النفاق والشقاق والعداء والمنافرة، وصارت النتيجة أن عواطف الوحدة والإخاء التي كانت مودعة في فطرة الأمم غابت تحت أستار الأنانية والاستبداد، وحدثت أنواع الاختلاف والفرقة، مما أفسد أمن العالم وهدوءه، بل ظهر الفساد العالمي باسم النظام العالمي، كما

لايخفى على البصراء، والسبب أن نعرات الوحدة التي أطلقها الأمم كانت تحمل بذور الفرقة والنفعية، فأثارت العداوة والبغضاء مكان الوحدة والإخاء.

فمن لايعلم أن الوطن لايعنى غير وضع الحدود وتفريقها، فهو اسم مغاير للوحدة، فإن كسرنا حدود الوطن فلايبقى الوطن، فإن الوطنية تعني تميز البلاد عن غيرها بحدودها، فالمثير للتفكير أن شيئا قصيرا محدودا كالوطن كيف يستطيع أن يحدث وحدة عالمية؟ ومثاله تسمية الحنظل بالشهد، وكذلك النسل يقتضي الحدود، فالنسب يقتضي الاختلاف والمغايرة، فهذا النسب غير ذلك النسب، وأن الأول لا يُدغم في الثاني، وإن تم الدمج لايبقى النسل نسلا، فالطبقة التي تود تغاير الأنساب لاتبقى إلا إذا كانت منفردة عن الأنساب الأخرى، ولايمكنهم أن يقيموا الوحدة بين الأنساب المختلفة من خلال النسب، فضلا عن أن يقيموا الوحدة العالمية.

وهذه هي صورة القومية، فإن كانت القومية عبارة عن الوطن فهي تقتضي تفريق الأوطان، وإن كانت عبارة عن النسب، فهي سبب التمايز العرقي، والتمايز العرقي من أسباب الفرقة دون الوحدة.

ونظرا إلى ضعف وقصور هذه النعرات المفرقة اختاروا نعرة الإنسانية لإقامة الوحدة العالمية، فإن الإنسانية هي القاسم المشترك بين بني آدم، فمن شأنها أن توحد الجميع، ولكن هناك سؤال بسيط، وهو أن الإنسانية إذا كانت عبارة عن الاجتماع فلا حاجة إلى محاولات الجمع والتقريب، وإن كانت تحمل جراثيم الاختلاف والتفرق فكيف تكون الإنسانية معيارا للإنسانية؟ وإلا فكيف يتواجد هذا اللون الغامق من الاختلاف والتفرق بين بني آدم مع ما فيهم من إنسانية، ومن ثم فإني أرى أن كون الإنسانية أساس الوحدة قول مهمل، لا يرتضيه العقل، وإلا فلا يكون في الإنسان سعيد وشقي، وصالح وطالح، والحقيقة أنه لما جرى ذكر الاجتماع العام جرى ذكر الإنسان

السعيد والشقي، وكل يقول: إن الوحدة والاجتماع يقتضيان رجالا صالحين دون الفاسدين.

وإذا ثبت أن الإنسانية تحمل كلا من جراثيم الصلاح والفساد، فليس من الممكن أن تكون الإنسانية معيار الصلاح والخير والهدى، بل هي تحتاج إلى معيار جديد، يتم يه سبر الخير والشر، مما يدل على أن الإنسان العادي أيضا لايعتبر الإنسانية معيارا للإنسانية الفاضلة، وإن جمعنا زحاما شديدا للإنسان فالإنسان السيئ هو الذي يفسد أمر الإنسان الصالح ومشاريعه النافعة، التي قد تتسبب للوحدة ورفع العداوة والبغضاء، فثبت أنه باستعمال كلمة الإنسانية لايقوم اتحاد عالمي، ما لم يكن هنا معيار للخير والشر، مع مراعاة كاملة للإنسانية.

والمثير للتفكير هنا أيضا أن الإنسانية ليست ذاتا ولا عينا، ولا شخصا، يُرجع إليه؛ بل هي مفهوم عقلي، يؤخذ من أفراد الإنسان، ولا وجود لها في الخارج، والظاهر أن الاتحاد هو ضرورة خارجية، لا ضرورة ذهنية، فعنوان الإنسانية لايحمل في طيه وجودا، فضلا عن أن يكون معيار الوحدة والمساواة.

وقد قال الله تعالى عندما خلق الإنسان وأرسله إلى الدنيا: **وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** (سورة البقرة: ٣٦)، فكيف تكون الإنسانية المطبوعة على العداوة والبغضاء معيار الوحدة والإخاء؟ فلا بد من معيار خارجي لاختبار الحسن والقبيح، والمعيار الفاضل الذي يتم به تقييم الفطرة الإنسانية وتحديد المبادئ التي تعمل في بناء الوحدة والإخاء، هو ذات الله سبحانه، الذي خضعت له الوجوه بشكل سوي، مما يدل الدلالة الواضحة على أن الوحدة العالمية لن تقوم إلا بالدستور الرباني العظيم. وليس في الدنيا نقطة غيره، تجتمع عليها جميع عناصر العالم، ومن ثم أطلق الإسلام النعرة الربانية لبناء الوحدة العالمية، حيث قال الله تعالى: **قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ**

شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (سورة آل عمران: ٦٤).

فهذه النقطة الوحيدة التي يجتمع عليها الناس كلهم من صالح وطالح، وأبيض وأسود، وتركي وإيراني، وإفريقي، وأمريكي، وأوربي وآسيوي، وهندي وسندي، بشرط استخدام العقل والتدبر.

وهذا لايعني أن الإسلام لايلتفت إلى الانتماء الوطني والعرقي والديني، ويعتبره عبثا وفضولا؛ فإن هذا خلاف الفطرة والمشاهدة، فإن المشاهدة تشهد بأن الوطن يجمع بين أبنائه، وأن النسب يربط بين أصحاب ذلك النسب، ويجعل منهم وحدة نسبية قوية، فقوة الوطن والنسب شيء لا يمكن إنكاره، وليس من الفضوليات؛ ولكن هذه الوحدات كلها القائمة على أساس الوطن والعرق هي وحدات محلية وقتية، ولا أتحدث عنها، وإنما البحث في الوحدة العالمية المركزية، التي لا تحدث عن طريق الوطن والقوم، حتى إن مفهوم الإنسانية أيضا لا يكفي في هذا المعنى، كما مر آنفا، فالوحدة الكبري الجامعة تقوم على أساس واقعي لافرضي، يتجاوز حدود الإنسان، بل يشمل الكون كله، وهذا الأساس هو الله سبحانه دون الوطن والأمة والنسب وغيرها.

والظاهر أن الأمة المسلمة إن ابتُليت بداء نعرات القوم والوطن والنسل انحصرت في نطاق ضيق، سواء اختارت الوطن أم النسل أم اللون، وقتلت بيدها الوحدة العالمية الكبرى، التي لا يحدثها في العالم غير الأمة الإسلامية، ثم إن تقيُّدهم بالأهداف المحلية والوطنية والأسرية يجعلها داعية الفرقة والشقاق دون راعية الوحدة العالمية، التي بعثت في الدنيا لأجلها، بل سيكون من جريرة ذلك أنها تكون أمة مدعوة، بعد ماكانت أمة داعية، ومنشغلة بالاتجاهات المادية الكثيرة عن الاتجاه الديني السليم، فهي ستفقد بذلك تلك المهمة العظيمة، التي بعثت لها في الدنيا كخير أمة أخرجت للناس، وستتحول متسولة، بعد ما كانت معطية، وسيكون نصيبها من الدنيا هي الذلة

مكان العزة، والمسكنة مكان الشوكة، والعبودية مكان السيادة، والوحدة العالمية التي أقامها سلفها بجهودهم الجبارة وتضحياتهم الجسيمة ستؤول إلى زوال ودمار، كما تظهر ثمارها الآن.

ثم تغير الفكرة وتعطل الفطرة يتركان أثارا سلبية في الأعمال والأخلاق حتى في العقائد، وستقع الأمة في فتن عظيمة، لايسهل الخروج منها، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وهذا الخطأ إنما يمكن تداركه من خلال التمسك بالمبادئ الإسلامية التي من شأنها إقامة الوحدة العظيمة، التي تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتشمل جميع الأطياف البشرية، وبيانها أن ينظر المسلمون لاسيما حكامهم إلى المراكز الإسلامية الثلاثة العالمية: الحجاز والشام ومصر نظرة قداسة واحترام، ويستعملوها فيما وضعت له من مهام ومسؤوليات، ويقيموا الأنظمة الثلاثة التي تعمل في الحفاظ عليها، وهي نظام الخلافة ونظام الدعوة ونظام الأخوة، فإن المسلمين إذا فعلوا ذلك لايستبعد أن تعود تلك الوحدة العالمية، وإن لم يفعلوا فيُخشى أن تقع مدينة القدس: مدينة التين والزيتون تحت وطآت اليهود الصهاينة، فقد نصبوا لذلك حبائل قوية من المؤامرات والدسائس، وستعود فكرة السياسة الإسلامية العالمية إلى حلم لذيذ، وبعد فقدان القدس وضعف المسلمين لم يبق الطور ومصر في مأمن، فقد خرجت بعض مناطق مصرية من سلطة المسلمين، والعدو مرابط على حدود غزة، يرصد أحداثها، ويتربص بها، كما شاهدنا في هذا المؤتمر كل ذلك في غزة، فإن كانت مصر لم تهتم به كل الاهتمام، ولم تحفظ غزة نظرا لمكانتها الدينية التي منحها الإسلام، أوغل العدو في أرض فلسطين أكثر مما هم عليه الآن.

أوَلا يعرف المسلمون الجغرافيون أن جغرافية الصهاينة لدولة اليهود تشمل كلا من المدينة وخيبر، فكأن العدو يحرص على الاستيلاء على الحجاز المقدس، والمعنى أن

كلا من الشام ومصر أصبح في يد العدو، أما الحجاز وما فيه من المدينة المنورة وخيبر فهي في نظر العدو، أوَليس هذا مثار همة المسلمين وعزائهم؟ أولا يشعرون بعد ذلك بضرورة علاج هذا العضال؟

فإن شعروا بها فأقدِّم أمامهم وصفة طبية مركبة من سبعة أجزاء، يحتاج إليها حكام المسلمين أكثر من عامتهم، ليلتفتوا إلى المقامات المقدسة، وما نيط بها من الوحدة العالمية الشاملة، ويحفظوا عزهم ووقارهم.

وهذه الوصفة الطبية تحتوي على الأجزاء السبعة، التي تشكل مصدر عزة المسلمين وكرامتهم في العالم، وفضيلتهم على الأمم الأخرى، وبالاعتصام بهذه المبادئ صارت هذه الأمة المسلمة خير أمة وخير الأمم، و هي كما يلي:

- وحدة الدين والسياسة
- السياسة العالمية في صورة الخلافة
- الدعوة العالمية
- والأخوة العالمية
- والمساواة العالمية
- السلام والوحدة العالميان
- العبادة والعسكرية العالمية

والظاهر أن المسلمين إذا تنكروا لهذه المبادئ، ظهرت أضدادهم، فحلَّ الذل العالمي محل العزة العالمية، والتفرق العالمي محل الوحدة العالمية، والفوضى العالمية محل النظم العالمي، والاضطراب العالمي محل الأمن العالمي، والانكسار العالمي محل الانتصار العالمي، والمعصية العالمية محل العبادة العالمية، والجبن العالمي محل القوة العالمية، فقد أحاطت هذه الفتن بالأمة الإسلامية، وهذه هي أدواؤهم التي أنهكت قواها، ومن ثم فقد ينحصر

العلاج في سبع سنابل مذكورة عملا بمبدأ العلاج بالضد، وهي وصفة طبية تجمع هذه السنابل السبع، فهي تضمن لها الصحة والرقي كما جربوها في الماضي، فإن بدأوا استعمالها من جديد عادت إليها صحتها القديمة.

وصدق الشاعر محمد إقبال: إن تجدَّد اليوم إيمانُ إبراهيم تحولت النار من جديد إلى بستان مزهر.

فعملا بهذه المبادئ كانت الأمة الإسلامية أحدثت ثورة عالمية في الماضي، وغيَّرت مجرى التاريخ؛ ولكن الدنيا غيرت مجرى هذه الأمة اليوم، ومع كونها ذات عدد كثير صارت تخضع للأحزاب القليلة العدد والعتاد، وحذر من ذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم حيث قال: « يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ». فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ « بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ ». فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الْوَهَنُ؟قَالَ « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"[1].

ولاَ شك أنه نشأ في الأمة الإسلامية رجال الإصلاح والتجديد، ورجال الصلاح والتقى، وخدموا الأمة الإسلامية خدمة عظيمة في المجالات العلمية والعملية والإصلاحية والتجديدية؛ ولكن الداء الاجتماعي الذي لحق بالأمة لم يمكن زواله إلا بالتمسك بالمبادئ الاجتماعية لا بالأعمال الشخصية، وفي تعبير آخر: إن الطبقة الحاكمة هي التي تستطيع إحداث ثورة، تغير المجرى، وتبدل الوضع، دون الجهود الشخصية الفردية، ولا شك أن جماعة العلم والرشد والخير قد قدَّمت خيرا كثيرا للأمة الإسلامية في كل عصر ومصر، وتركت مآثر علمية قيمة نطقا وكتابة، وتصنيفا وتأليفا، و قامت بحسن الموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن، ولم يألوا جهدا في أداء مهمتهم بصفتهم ورثة

(١) أخرجه أبوداود في سننه، (بيروت: دار الكتاب العربي)، رقم الحديث: ٤٢٩٩.

الأنبياء عليهم السلام، مما لا يجحده أحد، ولن تخرج الأمة عن مننهم وأفضالهم عليها، ولكنهم لا يملكون السلطة المادية، التي تتيح لهم فرصة أوسع لتكوين المجتمع الإسلامي الأفضل، وأما جماعة الحكم والسلطة فهي اغترت بزخارف الدنيا، وسكرت بخمرة السلطة، واعتبرت أقوال العلماء أساطير الأولين، بل حاولوا قمع تعاليمهم، فزاد الداء بقدر زيادة الدواء، وها هي النتيجة التي أشرت إليها آنفا.

فعلى الحكام والسلاطين أن يعملوا بمبدأ الجمع بين الدين والسياسة، ويجعلوا علماء الأمة الإسلامية ومفكريها وأثرياء القوم المخلصين رفقاءهم وشركاءهم في الشؤون السياسية، فإن لم يفعلوا ذلك لم يخرجوا من كابوس المرض القديم (التفريق بين الدين والسياسة) وآثاره السيئة في جميع المجالات كما ذكرتها سابقا، فقد قال قديما حكماء الإسلام: إن الأمة تقوم على اجتماع أربعة عناصر: علم العلماء، وجود الأغنياء، وعدل الأمراء، ودعاء الفقراء، فإن أهملوا واحدا من هذه العناصر انهدم عماد المبنى القومي، وتضعضع البنيان.

وأظن أن هذا القدر يكفي كما قال الشاعر الفارسي:

إني أخاف أن تملَّ من حديثي الطويل؛ وإلا فعندي كلام أكثر من ذلك.

حسن الخاتمة:

وفي نهاية الكتاب يناسب أن أذكر ما بشرت به الشريعة الإسلامية الرحيمة من مبشرات، تريح الضمير، وتطمئن الخاطر، وتقشع سحاب اليأس والقنوط، وتملأ القلوب رجاء وتفاؤلا، منها أن الملك الإسلامي عالمي كالشرائع الإسلامية، وقد ظهرت في القرن الأول عالمية الملك وعالمية الشريعة بفضل دعاتها وأبطالها، وانتشر الإسلام كيفًا بملكه وشرائعه في العالم كله، بلدة بعد بلدة، وأمة بعد أمة، كما شهد به تاريخه، أما الناحية الكمية فقد بقي أن يدخل الإسلام في كل مدينة وبلدة؛ بل في كل بيت ودار بالأرض، ليظهر شمول الإسلام لكل زمان ومكان، وعمومه لكل أمة

وقوم، وقد بشر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، أما عموم الشرائع فقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ، وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ ذُلِّ ذَلِيلٍ، إِمَّا يُعِزُّهُمُ اللهُ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا، أَوْ يُذِلُّهُمْ فَيَدِينُونَ لَهَا"[1].

مما يدل بشكل واضح على أن هذا الدين لاينحصر في نطاق ضيق؛ بل يدوي صوته في الآفاق، ويدخل في كل بيت من بيوت العالم، ويدين به كل فرد من أفراد البشر، وفي تعبير أوجز: ستظهر عالمية هذا الدين من حيث الكم والعدد في كل جزء من أجزاء الدنيا.

أما ملك الإسلام وشوكته فقد بشر بعالميته رسولنا ﷺ بقوله: إِنَّ اللهَّ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا"[2].

وفيه دلالة كبيرة على أن الملك الإسلامي سيبرز في العالم بكل قوة وشوكة، وسيبلغ هذا الظهور غايته في عصر المسيح بن مريم والإمام المهدي عليهما السلام.

والحاصل أن الإسلام بملكه وشرائعه إذا انطلق من مكة، ثم انتشر تدريجيا في العالم، فهذا الانطلاق لم ينته من بعد؛ بل هو مازال سائرا ماضيا في سبيله، فإنه قد بقي إتمام نور التوحيد، ومع هذا الانطلاق المستمر سيصل الإسلام إلى النقطة الأخيرة المقررة، التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث نزول المسيح وظهور المهدي عليهما السلام.

ولا شك أن هذه الروايات كافية في تطييب قلوب المسلمين، وباعثة على التفاؤل والرجاء، وقاضية على جراثيم اليأس والقنوط، لئلا يتسرب شيء من اليأس

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، رقم الحديث: ٢٣٨١٤.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، باب هلاك الأمة بعضهم ببعض، رقم الحديث: ٧٤٤٠.

والإحباط، وبالتالي التشاؤم والجبن إلى مداركهم العقلية؛ ولكن المؤسف أن هناك أناساً، يتعللون بهذه النصوص، ويتخذونها ذريعة للكسل والجمود والتعطل ويقولون بلهجة ناصح حكيم: لا تبينوا مثل هذه النصوص؛ فإنها تبعث المسلمين على الجمود والعطل، ويبقون متقاعدين، منتظرين نزول المسيح بن مريم وظهور المهدي، مستدلين بأنه لما تقرر أن الإسلام سيظهر على الدين كله في أيام المسيح والمهدي، فلماذا نجتهد كثيرا في سبيل إعلاء كلمة الله، فهم يقولون بلسان حالهم: إن هذه الأحاديث سبب الجمود والتعطل عياذا بالله من أليم عقابه.

ولاشك أن هذه وسوسة شيطانية، مصدرها الكسل والغفلة، وتسويغ التمادي في الباطل، والقعود عن الواجب الشرعي، فإن هذه الأحاديث تحمل في طيها إجابات صارمة عن هذه الأوهام والوساوس، فلايوجد خبر شرعي إلا وهو يتضمن معنى الأمر، فالأخبار الشريعة ليست قصصا واهية، بل هي مليئة بمعاني الحكم والعبرة والعظة، وهذه المعاني هي الغرض الأصيل من الأخبار، سواء كانت أخبار الماضي أم أخبار المستقبل، فالأخبار الشرعية أخبار في صورتها، وإنشاء في كنهها، ولما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن هذا الدين وملكه سيكونان عالميين، ثبت الأمر الشرعي بأنه على كل مؤمن بالله ورسوله أن يجتهد في تحقيق هذا الخبر، وتحويل هذا الدين وسياسته إلى دين عالمي وسياسة عالمية، ويحرم عليه أن يتقاعد عن واجبه، والسر أن الدنيا دار الأسباب، ولاشك أن القدر الإلهي هو قاهر في كل حال؛ ولكن القدر يظهر في صورة الأسباب التي يختارها الإنسان، ولا يكون كالمطر النازل من السماء.

فمنى هذه الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب المؤمنين، فيقول: يا أيها الذين آمنوا! حاولوا أن تجعلوا الإسلام دينه وملكه عالميا، وتنطلقوا به في الأفاق، لتشمل عالميته الكون كله، كما أخبرت به الروايات، لتكون مساعيكم مشكورة، وتتسبب لأجور مضاعفة عند الله سبحانه.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في بداية الإسلام بأن قوة المشركين ستزول قريبا، وسيصيرون إلى عاقبة سيئة، وسيظهر الإسلام على كفار مكة ومشركيها، وقد ظهر كل ذلك في غزوة بدر بعد ثلاثة عشر سنة من المحن والبلايا، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عين لكل كافر قتيل مقتله في ميدان بدر، فهل صارت هذه النبوءات الكريمة سببا لجمود الصحابة وتقاعدهم؟ وهل جلسوا واهمين بأن أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقة، ستتحقق بلا شك، فما فائدة القتال والجهاد؟ كلا؛ بل كانت هذه الأخبار مما بعثهم على الهمة والعزيمة، فصاروا أبطالا، وعملوا على تحقيق ما قاله رسولهم الصادق الأمين، فصرعوا المشركين، وسقط كل مشرك في مقتله الذي حدده الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا يعلمون أن هذا الانتصار سيظهر بأيديهم، أفليس هؤلاء الصحابة أسوة حسنة في هذه النبوءات والمبشرات؟

إن أخبرنا فلاحا بأن محصولات مزارعه في العام القادم ستكون أضعافا مضاعفة، وأنه سيرجع بخير كثير، فهل يجلس الفلاح بسبب هذا الخير؟ لايلقي بذرة ولا يسقي زرعا، ولايرعى أرضا؟ ويجلس كاسلا زاعما أن الخبر صادق، وسيأتي الغد بما أُخبرتُ به، فلا فائدة في إجهاد النفس؟ كلا؛ بل الخبر ينفخ فيه روحا جديدة من الهمة والعزيمة والطموح، فيشتغل بأعماله فرحا مسرورا، ويمارس عمليات الزرع والبذر، والسقي والتعهد بكل تفانٍ وإتقان، ويظن أن معنى الخبر أن جهوده تثمر في العام القادم بأضعاف مضاعفة.

فبعد هذه الأمثال العرفية والشرعية لم يبق مجال للوسوسة المذكورة المتمثلة في أن المبشرات بانتصار الإسلام تحمل في طيها معاني الجمود والتعطل، فإن هذه الأخبار لوكانت سببا للجمود لظهر هذا الأثر في القرن الأول، وجلس الصحابة يلقبون أياديهم، والله لو جلسوا كذلك لما بلغنا شيء من الدين والإسلام والقرآن والنظام الإسلام المكتمل الأبعاد، فمنشأ هذه الأخبار والروايات هو استنهاض الهمم وإستثارة العزائم، دون القضاء

على الجوانب العملية الفعالة، فأحاديث البشارات تؤكد على أن هذه الانتصارات ستظهر بأيديكم، فكرسوا جهودكم، ولا تكونوا كسالى عاطلين، ومن ثم أمر الإسلام أتباعه بنشر الإسلام من خلال التعليم والتربية والجهاد والمقاومة، وإدخاله كل بيت، وعدم التقصير في أداء هذه المهمة، والإخبار بأن هذا الدين سيكون ظاهرًا على غيره من الأديان في الواقع إخبارٌ بأن هذه الانتصارات والفتوح ستتحقق بأيدي المسلمين ولا غير، وستثمر مساعيهم ولا تذهب سدى، ولاشك أن هذه النتيجة ستأتي بعد قرون من الأزمان، كما ظهرت نتائج مساعي القرن الأول في القرون المتأخرة، فكذلك النتيجة الأخيرة تترتب على جميع المساعي السابقة واللاحقة المبذولة في سبيل الدين، ويتوارثها المسلمون جيلا بعد جيل، وسينالون تلك البشارة العظيمة التي أخبروا بها على لسان النبوة.

فاتخاذ هذه الروايات سببا للضعف والخور، والتقاعد عن الواجبات ليس من الوعي والبصيرة في شيء؛ بل هو دليل على عدم فهم الرويات؛ بل احتيال على ترك العمل، بحيث يترك العمل لهوى في نفسه، وينسبه إلى الشريعة الإسلامية وأخبارها.

وكذلك تماما إذا وردت فضائل ومبشرات عن المقامات المقدسة، تتمثل في أن هذه المقامات ستكون مأوى المسلمين في العصر الأخير ومركزهم في الجهاد والقتال، وأن هذه الغفلة ستنتهي، وسيعود ذلك النشاط والحماس القديمين، فهذه الفضائل لاترمي إلى إحداث الجمود والتعطل؛ بل تهدف إلى إثارة همة المسلمين وعزيمتهم، ليحاولوا منذ اليوم تكوين هذا الجو قدر المستطاع، ويأخذوا عدتهم لذلك اليوم، لتكتسب المقامات المقدسة قوة وإحكاما، وتكون مأمنا قويا في الأيام القادمة، وإلا فإن تركنا العناية بالمقامات المقدسة وسلكنا سبيل الجمود والركود فقدت المقامات مركزيتَها.

وقد أوضحت في الصفحات السابقة بعض الصور العملية للحفاظ على المقامات المقدسة أرجو أن تصادف هوى في القلوب.

وهذه هي صورة الاستخلاف، الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بأن المهدي وبعده المسيح عليه السلام سيكونان خليفة الله في الأرض، وستعم هذه الخلافة العالم كله، فمعنى هذه الرواية أن لاتغفلوا جانب إقامة الخلافة، بل ركزوا عناياتكم على إقامتها في كل حين وزمان، لتتصل سلسلتها بالخلافة الأخيرة الكبرى، التي ستبرز عالمية، تملأ الأرض عدلا وقسطا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا: كيف تهلك أمة أنا أوَّلُها، والمهديُّ وسَطُها، والمسيحُ آخرها"[1].

وهذا الحديث أكد على أن الخلافة الكبرى الأخيرة لن تقوم ما لم يكن لها أولها ووسطها، وأما الخلافة النبوية الأولى فكان المسلمون مأمورين بإطاعتها وإحكامها ومساندتها وتوسيع نطاقها، ونشرها في العالم من خلال المساعي والجهود الجادة، وإذا كانت الخلافة الأولى كذلك أفلا يكون المسلمون مأمورين بمساندة الخلافة الوسطى والأخيرة، والوقوف بجانب المهدي والمسيح عليهما السلام، والإبقاء على سلسلة الخلافة من البداية إلى النهاية، ولما كانت الخلافة هي السبيل الوحيد لإنقاذ الأمة الإسلامية من الويل والدمار، وأن الأمة تطلق على جميع المؤمنين من لدن نبينا عليه السلام إلى آخر مؤمن في الدنيا، فالأمر الذي أطلق على الخلافة الأولى يطلق على الخلافة الثانية والأخيرة، وإلا ضاعت الخلافة وهلكت الأمة، فالمطلوب الشرعي أن تنهض الأمة كافة لإقامة الخلافة الإسلامية والإبقاء عليها في كل عصر ومصر، ومن البداية إلى النهاية، والعرب لاسيما الولايات العربية وحكامها مخاطَبون بصفة خاصة بهذا الأمر.

---

(١) ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، **جامع الأصول في أحاديث الرسول** (بيروت: مكتبة دار البيان، ط١)، ج٩، ص٢٠٢، رقم الحديث: ٦٧٧٢.

ونشكر لله سبحانه على أن العرب قد صحوا من غفلتهم، وعاد إليهم وعيهم، وأدركوا أن الغرب الماكر يخدعهم منذ قرن وقرنين، ولا يتحملون الآن هذا الذل والهوان، ولا شك أن هذا الإدراك نعمة كبيرة، ومما يمهد للعمل الجاد، فالعرب هم العرب، وعواطفهم عربية خالصة، والعربية هي اسم ثانٍ للإسلامية، فالعرب هم قواد هذه الأمة كما جاءت به الأخبار الإسلامية، ففي النهاية ستظهر العربية القُحَّة، لتقود المسلمين والعالم كله؛ ولكن الأمة العربية تخرج في هذه الأيام من الحدود الوطنية والجغرافية، وهذا ليس طريق النجاح والفلاح، فإن العربية إذا كانت بعيدة عن الكلمات الطنانة والعناوين البراقة، وبرزت في شكلها الإسلامي الصحيح ولو كره النصرانيون والصهيونيون ظهرت جميع الوعود الربانية، التي وعدها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وهذا ماقاله الشاعر محمد إقبال في قوله

آج بھی ہو جو ابراہیم کا ایمان پیدا   آگ کر سکتی ہی انداز گلستان پیدا

إذا تجدَّد اليوم إيمان إبراهيم ستتحول النار إلى حديقة فيحاء ذات برد وسلام.

وبما أن هذه التكملة تربط أول الكتاب بآخره فمن المناسب أن يقرأ القارئ الكريم السطور بدقة وإمعان:

في بداية الكتاب تم ذكر قداسة وفضائل المقامات المقدسة وأن هذه المقامات تستطيع أن تعطي المقامات الأخرى نوعا من القداسة، بحيث إن المراكز الثلاثة تقتضي وجود نظام سياسي عالمي، ليكون دليلا على أن الإسلام هو جامع بين الدين والملك، وبين الديانة والسياسة، ويتمسك المسلمون بهذه المقامات وما فيها معان مركزية، ويدركوا أن العبادة من أهم أهداف الإسلام فمركزها الحجاز، ونقطة الفيض فيها هي الكعبة المقدسة، والهدف الثاني العالمي هو السياسة، التي مركزها بلاد الشام، ونقطة الفيض فيها المسجد الأقصى، والهدف الثالث هو القوة العسكرية، ومركزها مصر، ونقطة الفيض هناك هي بقعة الطور والشجرة المباركة، ثم هذه المراكز الثلاثة لاتحمل لونا

عصريا وسياسيا؛ بل هي مصبوغة بالصبغة الدينية، في كل من العبادة والسياسة والعسكرية، فإن ظهرت مساعي المسلمين من هذا الاتجاه ظهر شمول الإسلام للعالم كله، والذي يتعطش له العالم اليوم، فإن هذا النموذج العملي إن ظهر في دولة من الدول الإسلامية يمكننا أن نبين للعالم الباحث عن الحقيقة هذا النموذج، ونقول له: انظروا إلى هذا ولاحظوه ثم تقدموا في ضوءه، فإن تقديم شمول الإسلام نظريا لايكفي، ما لم يكن نموذج عملي لشموله، يظهر به علو الإسلام، وكل من العبادة والشوكة والعسكرية من مركزها.

ومن ثم أختم كلامي بذلك الهدف العظيم، الذي منه بدأ الكلام، وهو يجب على حكام الدول الثلاث أن يعرفوا المكانة الشرعية لهذه الدول، ولاينظروا إليها نظرة السياسة المغرضة، ولايصدروا عن المصالح السياسية التافهة، فإنهم إذا فعلوا ذلك لا يؤدون حقوق المقتضيات الدينية تجاهها، فإنهم إذاً لا يملكون حجة قوية، يثبتون بها شمول الإسلام، والمعلوم أنه لاحجة أقوى من حجة الدين.

فهذه هي أفكار شاردة، ظهرت للخيال أيام زيارة كل من مصر وفلسطين، ووادي سينا، وأرجو أن تقع هذه الكلمات موقعا حسنا في قلوب المسلمين، وهذه هي وقائع هذه الرحلة ومذكراتها. وبالله التوفيق، وهو خير رفيق، والحمد لله أولا وآخرا.

وصدق الشاعر الفارسي ما حاصله: ما نصحت لكم من عند نفسي، وإنما أملت علي تجاربي هذا المعنى، فإن كان من لايلقي السمع ولايلتفت إلى كلامي، فليس على الرسول إلا البلاغ.

محمد طيب القاسمي رئيس دار العلوم ديوبند.

١/ من صفر / ١٣٨٤هـ

تذييل في عام ١٣٩٧هـ

قد تم تأليف الكتاب في عام ١٣٨٣هـ، إلا أنه لم يُطبع لعوائق كثيرة، ثم ألقيت نظرة أخيرة في ١٣٩٧هـ.

ففي هذه الفترة: فترة أربعة عشر عاما ظهرت كثير من الأخطار والمخاوف التي نبه عليها المؤلف ظهرت كواقع ملموس، فقد استولى الأعداء على كل من الشام وفلسطين بشكل تدريجي، وفي مصر أيضا هم بالمرصاد، فقد بدأوا السيطرة عليها، أما فلسطين فصار الجزء الأكبر منها وطن اليهود، ثم صار استيلاؤهم على المسجد الأقصى، وكانوا يرسون سفائنهم في شاطئ غزة، وأما الآن فهم مستعدون للسيطرة على غزة، وهذه هي المخاوف هي التي أعربت عنها في الكتاب، إلا أنها صارت واقعا ملموسا، فوا أسفا.

فمثلا قلت في الشام: "يُخْشَى أن تسقط هذه المدينة(مدينة القدس) المحاطة بالتين والزيتون بيد الصهاينة، وقد نسجوا لذلك المؤامرات"، فقد صار هذا واقعا لاينكر، حيث ينطلق الصهاينة في سكك مدينة القدس بكل حرية، ويعيثون هناك فسادا، فوا حسرتاه.

وقد جاء في هذا الكتاب عن مصر: "وهذا الضعف والخور من شأنه أن يعرض وادي سينا للخطر العظيم، فقد خرج عن يدنا بعض أجزائها المتصلة بغزة، والعدو مرابط على رأس غزة، يرصدها، كما شاهدنا هذا المنظر خلال هذه الرحلة، وإن لم تتوجه مصر والعالم الإسلامي بشكل موحد إلى هذا الجانب ولم يضعوا في الاعتبار ما آتاه الله هذه المناطق من عظمة ومكانة يخشى أن يتقدم الصهاينة ويتجاوزوا الحدود التي هم عليها واقفون اليوم".

وكذلك الأعداء الذين هم أشد الناس عداوة يتربصون بالحجاز المقدس، ولاشك أن الحفظ هو حفظ الله سبحانه، والحفظ الرباني يصاحب الحجاز دائما، ولكنه في عالم الأسباب يجب على العباد الجهد المتواصل والسعي الدؤوب، وقد أشرت في هذا

الكتاب إلى بعض الأخطار المتعلقة بالحجاز، فقلت: "أو لا يعرف جغرافيوا اليوم أن الصهاينة قد أدخلوا في خريطتهم كلا من المدينة وخيبر؟ وهذا لا يعني غير أن الأعداء قد بسطوا سيطرتهم على بلاد الشام ومصر والعريش، وهي حد قريب من الأقصى، ثم المدينة وخيبر من الحجاز ما زالتا في عيونهم، أولا يشكل هذا تحديا صارخا للغيرة الملية لدى المسلمين"؟ ومن هذا يتضح أن الأعداء وضعوا في الاعتبار الأهمية الدينية لهذه المقامات المقدسة، والتي بلغت آثارها الشرق والغرب، ليمكن لهم استغلالها في مصالحهم، ولا سيما بلاد الشام، التي اعتبرها الإسلام مركزا سياسيا عالميا.

وإن ما كتبه الدكتور أحمد صدقي الدجاني المصري في جريدة الجمهورية المصرية، والتي نشرت ترجمتها في جريدة الجمعية بالأقساط بشأن المكانة المركزية السياسية للشام، وما أعرب عنه من مخاوف، كل ذلك يؤيد ما ذكرته في هذا الكتاب قبل أربعة عشر عاما؛ بل يصدقها على أساس المشاهدة، والفرق بين ما كتبته أنا وبين ما كتبه الدكتور أنه تناول الموضوع من الناحية السياسية والجغرافية و تناولته أنا من الناحية الشرعية، فقد كتب الدكتور في المركزية العالمية لفلسطين: إن هذه المدينة (القدس) رمز الحياة للفلسطينيين كلهم، واليوم إذا استولوا على فلسطين بمصالحهم المغرضة فهذا الاستيلاء ليس على الدعاية التاريخية التي يرددونها، بل أساسه ثلاثة أشياء حسب تصريحات "ناحوم كولدامين(رئيس وزراء إسرائيل الأسبق)، الأول أن فلسطين هي نقطة اتصال ثلاث قارات عالمية: أوربا وآسيا وإفريقيا، والثاني: أن فلسطين مركز السياسة العالمية، والثالث: أنه موضع يسهل منه الاستيلاء على العالم كله".

ثم كتب الدكتور: "إن أمتنا اليوم تواجه هذا التحدي العظيم، والخطر الداهم، ويجب علينا –كما قال الأستاذ العامري–أن لاننسى ذلك الدرس، الذي علمَتْناه الحوادث التاريخية، أي القوة هي الشيء الوحيد الذي يدفعنا إلى البارزة، ويخرج العدو من هذه المدينة".

وإن ضياع المكانة المركزية لفلسطين يؤثر في زوال الثقافة الإسلامية، يقول فيه الدكتور أحمد صدقي: "العدو المتسلط(اليهود) لما استولى على القدس في يونيو ١٩٦٧م، هتكوا حرمة المدينة بشكل مؤسف، وإن صور الانتهاكات والإهدارات التي يمارسها العدو صور بشعة للغاية كما يذكرها كل زائر".

وهذه هي الخطرات التي ذكرتها قبل أربعة عشر عاما وصارت واقعا اليوم، ومن هنا أقرَّ رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم فلسطين مركزا سياسيا للإسلام، وأمر المسلمين بإبقاء مركزيتها إلى آخر الدهر، وقد حذرهم من عواقب ضياع هذا المركز، فقد ظهرت كل هذه العواقب، فأعذنا يارب من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وإن كان العرب حتى الآن لم يدركوا مؤامرات أهل الغرب، ومكائدهم الشاملة وما زالوا يسلكون على سبيلهم، ويجربون كلا من الشيوعية والوطنية والجنسية والعرقية، ويفرقون اجتماعهم، ويعرضون عن الإسلام الشامل، ويئدون وحدتهم الإسلامية العظيمة فستؤول فلسطين إلى ما شاء الله، بل العرب أنفسهم يفقدون كلا من الشعائر الدينية والقومية والثقافية والمدنية حتى من عروبتهم الأصيلة.

حفظنا الله من الشياطين وذرياتهم، وشرور أنفسنا، فلا شك أن العداوة والبغضاء فيما بيننا هي أيضا سبب رئيس للذل والهوان.

اللهم ربنا لا تسلط علينا من لا يرحمنا، اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، اللهم افتح لنا بخير، واختم لنا بخير، واجعل ثوابه الجنة، آمين والحمد لله بنعمته تتم الصالحات.

محمد طيب القاسمي

رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند

المحتويات

عن الكتاب

إن كتاب المقامات المقدسة هو مؤلَّفٌ أخير للشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي رحمه الله، يسلط ضوءا على ما تتميز به المقامات الثلاثة من فضائل وقداسات من منظور شرعي وتاريخي وعقلي وجغرافي وسياسي، إن الآيات الأولى من سورة التين وما يلابسها من حسن ترتيب وبيان معجز ونظم باهر جاءت خير شاهد على فضائل المقامات الثلاثة، وقد ذكر الشيخ هذا الموضوع بتفصيل لائق، مؤيد بالحجج والبراهين، وقد جمع في هذا الكتاب من الحقائق والوثائق والمعارف واللطائف ما لايوجد له نظير في المكتبة الإسلامية على حد ما أعلم، ومن ثم عدّه أهل العلم والفضل إضافةً قيمةً للذخائر العلمية، وهذا الموضوع سوف يثير إعجاب سكان البلاد العربية بصفة عامة، وسكان المقامات الثلاثة والمناطق المجاورة بصفة خاصة، ومن هنا كان من الضروري أن يُنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية الفصحى، وأحمد الله سبحانه على أن مجمع حجة الإسلام دار العلوم وقف ديوبند قد وكل عملية الترجمة إلى أحد الباحثين النابهين في العلم والأدب، الذي قام بالترجمة العالية، ولا شك أن نشر هذا الكتاب عملية تفتخر بها الجامعة وتشكل دليلًا على تطور المسير العلمي والبحثي لمجمع حجة الإسلام.

(من مقدمة فضيلة الشيخ محمد سفيان القاسمي حفظه الله)
رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند، الهند

إحياء تراث السلف
مجمع حجة الإسلام
- للبحث والتحقيق -

Ḥujjat al-Islām Academy
Al-jamia al-Islamia Darululoom Waqf, Deoband
Eidgah Road, P.O. Deoband-247554, Distt: Saharanpur U.P. India
Tel : + 91-1336-222352, Mob: + 91-9897076726
Website: www.dud.edu.in
Email: hujjatulislamacademy@dud.edu.in, hujjatulislamacademy2013@gmail.com

www.dud.edu.in ₹600
ISBN 978938477522-3

